حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

تهذيب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الثاني

جمعية إحياء التراث الإسلامي
مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

جمعية إحياء التراث الإسلامي
فرع ضاحية صباح الناصر
ت: ٤٨٠٩٠٢٢ - ٤٨٠٩٠٢٣ - ٤٨٠٣٠٦٦
فاكس الإدارة: ٤٨٨٢٠٧٠ - فاكس اللجنة العلمية: ٤٨٨٢٥١١
ص.ب: ١٥٥١ العارضية - رمز بريدي: ٩٢٤٠٠ الكويت.

مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل
جليب الشيوخ - المجمعات التجارية
مجمع الواحة - الميزانين - محل رقم ٢ - ت: ٤٣٣٤٦٨٧ - ٤٣١١٣٧٩
فاكس: ٤٣٣٤٦٨٧
ص.ب: ٣٧٦ - الفردوس - الكويت.

حسن التحرير
في تهذيب
تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر ومحقق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الثاني

جمعية إحياء التراث الإسلامي
مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

طبعت هذه النسخة :
على نفقة فاعلة خير
آجرها الله تعالى فيما أعطتْ
و بارك لها فيما أبقتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله ،

أما بعد :

فبين يديك ـ أخي القارئ الكريم ـ المجلد الثاني من كتابنا : «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» نقدمه لك راجين حسن الانتفاع به ، و بتيسيره و تقريبه ، و الذي حرصنا على أن يكون سمة له ، تعين طلاب العلم و الباحثين على المراجعة و الاستفادة ، وكلفنا ذلك جهداً و وقتاً نحتسبه عند الله تعالى .

فهو ـ جزء ـ في ظني من المشروع العظيم الذي دعا إليه مجدِّد علم الحديث في عصره ، و علامة الشام ، شيخنا الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً ، و أسكنه فسيح جناته ، ألا وهو مشروع «التصفية» ، تصفية كتب الحديث ، والتفسير ، و العقيدة ، و الفقه ، و السيرة ، و غيرها ، من الأحاديث الضعيفة و الواهية ، والقصص الإسرائيلية الباطلة ، المخالفة للكتاب الذي جعله الله تعالى مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ، و مُهيمناً عليه ، أي : رقيباً و شاهداً على ما سبقه ، فما وافقه فهو الحق ، و ما خالفه فهو الباطل .

و لَكَمْ راجت تلك الأحاديث و الأقاصيص على فئام من المسلمين ، بَلْهَ الوعاظ والكُتَّاب ، ومن ينسب إلى العلم و التحقيق!![1] .

---

(١) فلقد رأيت مختصراً لهذا التفسير (تفسير ابن كثير) باسم : «المصباح المنير» ، كتب على غلافه : إعداد جماعة من العلماء!! بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، فيه من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه المبتدئ في هذا الشأن! بل الواهية و المتروكة! وقد نبه عليها أو على أكثرها الحافظ ابن كثير! فيورد الحديث و يترك تعليق الحافظ ابن كثير عليه!!

و هذه بعض الأمثلة :

١- في صفحة (١٦) أورد في مختصره حديث أم سلمة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة و عدَّها آية .

و هذا الحديث ضعيف ، ضعفه الحافظ ابن كثير نفسه! حيث قال : لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي و فيه ضعف ، اهـ .

فحذف المختصر كلام الحافظ ابن كثير ، و أبقى الحديث!!

٢- و في صفحة (١٧) أورد حديث ابن عباس : إن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن «بسم اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ» فقال : «هو اسم من أسماء الله ، و ما بينه و بين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين و بياضهما من القرب» .

الحديث أورده الذهبي في الميزان في ترجمة : سلام بن وهب الجندي ، و قال : عن ابن طاوس بخبر منكر ، بل كذب ، ساقه العقيلي ثم ذكر الحديث عن ابن عباس .

٣- في صفحة (١٧) أيضاً أورد حديث بريدة : أن رسول الله ﷺ قال : أنزلت عليَّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري ،

و قد بذلت جَهْدي في تنقية هذا التفسير من تلك الأحاديث الضعيفة ، كما حاولت قدر المستطاع تقريبه للقارئ بحذف التكرار ، و الأقوال الشاذة . . . إلخ ما ذكرته في مقدمة الجزء الأول .

فأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل و سائر الأعمال ، و أن يجعلها خالصة لوجهه ، و ألا يجعل فيها لأحد شيئاً ، إنه ولي ذلك و القادر عليه .

و صلى الله و سلم و بارك و أنعم على نبينا محمد و آله و صحبه أجمعين .

كتبه

محمد الحمود النجدي الأثري

لعشر بقين من محرم سنة ١٤٢٢

وهي «بِسم الله الرَّحْمنِ الرَّحيم» ، و الحديث ضعفه ابن كثير نفسه ، في تفسيره لسورة النمل ، فقال : حديث غريب و إسناده ضعيف .

٤- في صفحة (١٧) أيضاً : أورد حديث «كل أمر لا يبدأ فيه بـ «بِسم الله الرَّحْمنِ الرَّحيم» فهو أجذم . و عزاه في الهامش إلى كنز العمال!! وهو حديث ضعيف جداً ، رواه السبكي في «طبقات الشافعية» (١/ ٦) بلفظ فهو «أبتر» ، و فيه : أحمد بن محمد بن عمران ، ضعيف متهم . انظر الإرواء (١/ ٢٩) .

٥- في صفحة (١٨) : أورد حديث : الحكم بن عمير قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قلت الحمد لله رب العالمين ، فقد شكرت الله فزادك» رواه الطبري . و الحديث ضعيف جداً ، فيه : عيسى بن إبراهيم وهو ابن طهمان الهاشمي ، قال البخاري : منكر الحديث ، و قال يحيى : ليس بشيء ، و قال أبو حاتم و النسائي : متروك (كما في الميزان) ، و فيه أيضاً : موسى بن أبي حبيب وهو الحمصي ، قال أبو حاتم : ضعيف الحديث (الجرح و التعديل : ٨/ ١٤٠) .

٦- في صفحة (١٩) أورد حديث : الأسود بن سريع قال : قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك و تعالى ، فقال : أما إن ربك يحب الحمد» رواه أحمد (٣/ ٤٣٥) ، و النسائي في الكبرى(٧٧٤٥) . و الحديث منقطع ، فهو من رواية الحسن وهو ابن البصري عن الأسود ، و لم يسمع منه ، قاله على بن المديني كما في التهذيب (٢/ ٢٦٨) ، للحافظ ابن حجر . وكذا قاله البزار في مسنده ، المصدر السابق .

٧- في صفحة (١٩) أيضاً : أورد حديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حدثهم : «أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك و عظيم سلطانك . . . » الحديث ، رواه ابن ماجة (٣٨٠١) .

قال البوصيري في الزوائد : في إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان في الثقات ، و صدقة بن بشير ، لم أرَ من جرَّحه و لا من وثقه ، وباقي رجال الإسناد ثقات ، اهـ .

قلت : أما قدامة ، فقال الحافظ في التقريب : مقبول ، أي : حيث يتابع ، و إلا فلين الحديث . و كذا الأمر بالنسبة لصدقة .

و الحديث ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في السنن (٣٨٠١) و الترغيب .

٨- في صفحة (١٩) أيضاً : أورد حديث : «اللهم لك الحمد كله ، و لك الملك كله ، و بيدك الخير كله ، و إليك يرجع الأمر كله» الحديث ، و عزاه إلى الترغيب و الترهيب!

و الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٨٨ ـ ط السلفية) من حديث أبي سعيد الخدري به بنحوه .

و قال : قال أبو عبد الله : تفرد به خالد بن يزيد العمري عن ابن أبي ذئب ، اهـ .

قلت : و خالد بن يزيد أبو الهيثم ، قال البخاري فيه : ذاهب الحديث ، و كذبه أبو حاتم .

و قال ابن حبان : منكر الحديث ، يروي الموضوعات عن الثقات . انظر المجروحين (١/ ٢٧٨) و الميزان (١/ ٦٤٦) .

و هذه أمثلة ، و إلا فالأحاديث الضعيفة الموجودة في المختصر كثيرة ، فضلاً عن الآثار و الموقوفات!

كما أنه يكرر بعض الأحاديث المتشابهة دون زيادة فيها أو فائدة ـ كما في (ص ١٨) : «إني لأعلم كلمة لو قالها . . . » ، و هذا مما ينافي الاختصار كما هو معلوم .

ترتيبها ٥	سورة المائدة ـ مدنية	آياتها ١٢٠

روى أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول اللهﷺ سورة المائدة و هو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها. تفرد به أحمد. و قد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة و الفتح.

و روى الحاكم: في مستدركه نحو رواية الترمذي ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

و روى الحاكم أيضاً: عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه و ما وجدتم من حرام فحرموه، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و رواه الإمام أحمد و زاد: وسألتها عن خُلُق رسول اللهﷺ فقالت: القرآن، و رواه النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾

١ -روى ابن أبي حاتم: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. و روى عن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا فالنبيﷺ منهم. و روى عن خيثمة قال: كل شيء في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التوراة: يا أيها المساكين. و روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: هذا كتاب رسول اللهﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يُفقّه أهلها ويُعلّمهم السنة، و يأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً و عهداً و أمره فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عهد من محمد رسول اللهﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون.

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس و مجاهد و غير واحد يعني بالعقود: العهود. و حكى ابن جرير الإجماع على ذلك. قال: و العهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحِلْف و غيره. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني العهود، يعني ما أحلّ الله و ما حرّم، و ما فرض و ما حدّ في القرآن كله، و لا

تغدروا ولا تنكثوا ، ثم شدّد في ذلك فقال تعالى : ﴿و الذينَ ينقُضُونَ عهدَ اللهِ مِن بعدِ ميثاقِهِ و يقطَعُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سوءُ الدَّارِ﴾ . و قال الضحاك نحوه . و قال زيد بن أسلم ﴿أوفُوا بالعُقودِ﴾ قال : هي ستة : عهد الله ، و عقد الحلف ، و عقد الشركة ، و عقد البيع ، و عقد النكاح ، و عقد اليمين . و قال محمد بن كعب : هي خمسة ، منها : حلف الجاهلية ، شركة المفاوضة .

و قد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أوفُوا بالعُقودِ﴾ قال : فهذه تدل على لزوم العقد و ثبوته ، فيقتضي نفي خيار المجلس ، و هذا مذهب أبي حنيفة و مالك ، و خالفهمافي ذلك الشافعي و أحمد و الجمهور . و الحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين : عن ابن عمر قال : قال رسول اللهﷺ : «الْبَيِّعَان بالخيار ما لم يَتَفرقا» . و في لفظ آخرللبخاري : «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» ، و هذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، و ليس هذا منافياً للزوم العقد بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود .

و قوله تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأنعامِ﴾ هي الإبل و البقر و الغنم . قاله الحسن و قتادة و غير واحد . قال ابن جرير : و كذلك هو عند العرب . و قد استدل ابن عمر و ابن عباس و غير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وُجِدَ ميتاً في بطن أمه إذا ذُبحت . و قد ورد في ذلك حديث رواه أبو داود : عن جابر بن عبد الله عن رسول اللهﷺ قال : «ذكاةُ الجنين ذكاة أُمّه» تفرد به أبو داود . و قوله : ﴿إلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني بذلك : الميتة و الدم و لحم الخنزير . و قال قتادة : يعني بذلك : الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه . و الظاهر ـ و الله أعلم ـ أن المراد بذلك : قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيكُم الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحمُ الخِنزيرِ و مَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ و المُنْخَنِقَةُ وَ المَوقُوذَةُ وَ المُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ ما أكَلَ السَّبُعُ﴾ فإن هذه ـ و إن كانت من الأنعام ـ إلا أنها تحرم بهذه العوارض ، و لهذا قال : ﴿إلا مَا ذَكَّيتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ يعني منها ، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ، و لهذا قال تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأنعامِ إلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيكُمْ﴾ أي : إلا ما سيُتلَى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال . و قوله تعالى : ﴿غيرَ مُحِلِّي الصَّيدِ وأنتُمْ حُرُمٌ﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال ، و المراد بالأنعام : ما يعم الإنسي من الإبل و البقر والغنم ، و ما يعم الوحشي كالظباء و البقر و الحمر ، فاستثنى من الإنسي : ما تقدم ، و استثنى من الوحشي : الصيد في حال الإحرام . و قيل : المراد : أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها ، لمن التزم تحريم الصيد و هو حرام ، لقوله : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ و لاَ عادٍ فإنَّ اللهَ غفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : أبحنا تناول الميتة للمضطر ، بشرط أن يكون غير باغ و لا متعد ، و هكذا هنا ، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال ، فحرّموا الصيد في حال الإحرام ، فإن الله قد حكم بهذا ، و هو الحكيم في جميع ما يأمر به و ينهى عنه ، و لهذا قال تعالى : ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ .

٢ـ ثم قال تعالى : ﴿يا أيُّها الذينَ لاَ تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك مناسك الحج ، وقال مجاهد : الصفا و المروة ، و الهدي و البدن من شعائر الله محارمه أي : لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى ، و لهذا قال تعالى : ﴿و لا الشَّهرَ الحرَامَ﴾ يعني بذلك تحريمه و الاعتراف بتعظيمه ، و ترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه ، من الابتداء بالقتال ، و تأكيد اجتناب المحارم ، كما قال تعالى : ﴿يسألونك عن الشَّهرِ الحرام قتالٍ فيهِ قُلْ قِتالٌ فيهِ كبيرٌ﴾ و قال تعالى : ﴿إنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثنا عشرَ شهراً﴾ الآية ، و في صحيح

البخاري: عن أبي بكرة، أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات و الأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُم: ثلاث متواليات: ذو القعدة و ذو الحجة والمحرّم، و رجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان». و هذا يدلّ على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَ لا الشَّهرَ الحَرامَ﴾ يعني لا تستحلوا القتال فيه، و كذا قال مقاتل بن حيان و عبد الكريم بن مالك الجزري، و اختاره ابن جرير أيضاً. وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، و أنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، و احتجوا بقوله تعالى: ﴿فَإِذا انسَلَخَ الأَشهُرُ الحُرُمُ فَاقتُلُوا المُشرِكينَ حَيثُ وَجَدتُّمُوهُم﴾ و المراد أشهر التسيير الأربعة، قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره، و قد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحلّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها و غيرها من شهور السنة، قال: و كذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلّد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان، و لهذه المسئلة بحث آخر له موضع أبسط من هذا.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ الهدْيَ وَ لاَ القَلائِدَ﴾ يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإن فيه تعظيم شعائر الله، و لا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، و ليُعلم أنها هدْيٌ إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، و تَبْعث مَنْ يراها على الإتيان بمثلها، فإنّ مَنْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. و لهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة ـ و هو وادي العقيق ـ فلما أصبح طاف على نسائه ـ و كن تسعاً ـ ثم اغتسل و تطيب و صلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده وأهل للحج والعمرة، و كان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال و الألوان، كما قال تعالى: ﴿ذلكَ و مَن يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإنَّها مِن تَقوى القُلُوبِ﴾ و قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها، قال علي ابن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين و الأذن. رواه أهل السنن. وقال مقاتل بن حيان قوله: ﴿وَ لا القَلائِدَ﴾ فلا تستحلوه، و كان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلّدوا أنفسهم بالشعر و الوبر، و تقلّد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به. رواه ابن أبي حاتم. ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد، وقوله: ﴿فإن جَاؤوكَ فاحْكُم بينَهُمْ أو أعرضْ عنهُمْ﴾. و روى عن ابن عون قال: قلت للحسن: نُسخ من المائدة شيء؟ قال: لا، و قال عطاء: وكانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون، فنهى الله عن قطع شجره. وكذا قال مطرف بن عبد الله.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ آمّينَ البيتَ الحرامَ يبتغونَ فَضْلاً مِّن رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً﴾ أي: و لا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي مَن دخله كان آمناً، و كذا من قصده طالباً فضل الله و راغباً في رضوانه، فلا تصدوه و لا تمنعوه و لا تهيجوه. قال مجاهد و عطاء و أبو العالية و مطرف بن عبد الله و عبد الله ابن عبيد بن عمير و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان و قتادة و غير واحد في قوله: ﴿يبتَغونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بذلك: التجارة. و هذا كما تقدم في قوله: ﴿ليسَ عليكمْ جناحٌ أن تَبتغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. و قوله:

﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس : يترضّون الله بحبهم . و قد ذكر عكرمة و السدي و ابن جرير : أن هذه الآية نزلت في الحُطم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت ، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله عز وجل ﴿و لا آمّينَ البيتَ الحَرامَ يبتغونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَ رِضْواناً﴾ .

و قد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان ، و إنْ أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس ، و أن هذا الحكم منسوخٌ في حقهم ، و الله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه و الشرك عنده والكفر به ، فهذا يمنع ، قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا إنَّما المُشرِكونَ نَجَسٌ فلاَ يَقرَبُوا المَسجِدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذَا﴾ ولهذا بعث رسول اللهﷺ عام تسع لما أمّر الصديق على الحجيج علياً ، و أمره أن يُنادي على سبيل النيابة عن رسول اللهﷺ ببراءة ، و أن لا يحج بعد العام مشركٌ ، و لا يطوف بالبيت عريان . و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿و لا آمّينَ البيتَ الحَرامَ﴾ يعني من توجّه قِبَل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعدها ﴿إنَّما المُشرِكونَ نجسٌ فلاَ يقرَبُوا المَسجِدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذَا﴾ الآية . و قال تعالى : ﴿مَا كانَ للمُشْرِكينَ أنْ يعمُروا مَساجِدَ اللهِ﴾ وقال : ﴿إنَّما يَعمرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ و اليومِ الآخِرِ﴾ فنفى المشركين من المسجد الحرام .

و روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى : ﴿و لاَ القَلاَئدَ و لا آمّينَ البيتَ الحَرامَ﴾ قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلّد من الشجر ، فلم يعرض له أحد ، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، و كان المشرك يومئذ لا يُصَدُّ عن البيت ، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ، و لا عند البيت فنسخها قوله : ﴿اقتُلُوا المُشركينَ حيثُ وَجدتُّموهمْ﴾ . و قد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿و لاَ القَلاَئدَ﴾ يعني : أن تقلدوا قلادة من الحرم فأمّنوهم ، قال : و لم تزل العرب تُعَيِّر من أخفر ذلك .

و قوله تعالى : ﴿و إذا حَلَلْتُمْ فاصْطادُوا﴾ أي : إذا فرغتم من إحرامكم و أحللتم منه ، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد ، و هذا أمرٌ بعد الحظر ، و الصحيح الذي يثبت على السبر أنه يَردُّ الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي ، فإن كان واجباً رده واجباً ، و إن كان مستحباً فمستحب ، أو مباحاً فمباح ، ومن قال : إنه على الوجوب ، ينتقض عليه بآيات كثيرة ، و من قال : إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى ، و الذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه ، كما اختاره بعض علماء الأصول ، و الله أعلم .

و قوله : ﴿و لا يَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ أن صَدُّوكُمْ عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ أن تَعتَدُوا﴾ من القراء من قرأ ﴿أن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الألف من «أن» ومعناها ظاهر ، أي : لا يحملنكم بغض مَن قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام ـ و ذلك عام الحديبية ـ على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً و عدواناً ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد . و هذه الآية كما سيأتي من قوله : ﴿و لا يَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ علَى أن لاَّ تعدِلُوا اعدِلُوا هُوَ أقربُ لِلتَّقْوَى﴾ أي : لا يحملنكم بغضُ قوم على ترك العدل ، فإنَّ العدل واجبٌ على كل أحد ، في كل أحد في كل حال . و قال بعض السلف : ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . و العدل به قامت السموات و الأرض . و الشنآن : هو البغض ، قاله ابن عباس و غيره ، و هو

مصدر من شَنَأتُه أشنؤه شنآناً بالتحريك .

و قوله تعالى : ﴿و تَعاونُوا علَى البرِّ و التقوَى و لا تعاونُوا علَى الإثمِ و العُدوانِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، و ترك المنكرات وهو التقوى ، و ينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم و المحارم . قال ابن جرير : الإثم ترك ما أمر الله بفعله ، و العدوان مجاوزة ما فرض الله عليكم و في غيركم . و قد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ، فقيل : يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال : «تَحجُزُه و تمنعه من الظلم ، فذاك نصره» ، أخرجاه . و روى أحمد : عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : «المؤمنُ الذي يُخالط الناسَ و يصبر على أذاهم ، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ، و لا يصبر على أذاهم» و هكذا رواه الترمذي و ابن ماجه . وروى الحافظ أبو بكر البزار : عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «الدالّ على الخير كفاعله» ، قلت : و له شاهد في الصحيح «مَن دعا إلى هُدى ، كان له من الأجر مثلُ من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، و مَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾

٣- يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات ، من الميتة : و هي ما مات من الحيوان حَتف أنفه ، من غير ذكاة و لا اصطياد ، و ما ذاك إلا لما فيها من المضرّة ، لما فيها من الدم المحتقن ، فهي ضارّة للدين والبدن ، فلهذا حرّمها الله عز وجل ، و يستثنى من الميتة : السمك فإنه حلال ، سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما رواه مالك في موطئه و الشافعي و أحمد في مسنديهما و أبو داود و الترمذي و النسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة و ابن حبان في صحيحيهما : عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ سُئل عن ماء البحر فقال : «الطَّهورُ ماؤه ، الحِلُّ ميتته» . و هكذا الجراد لما سيأتي من الحديث . و قوله : ﴿و الدَّمُ﴾ يعني به المسفوح ، كقوله : ﴿أوْ دماً مَسفُوحاً﴾ قاله ابن عباس و سعيد بن جبير . و قد روى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : «أُحِلَّ لنا ميتتان و دمان ، فأما الميتتان : فالسمكُ و الجراد ، و أما الدمان : فالكبد و الطحال» و كذا رواه أحمد بن حنبل و ابن ماجه و الدارقطني و البيهقي . و ما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

و إياك و الميتات لا تَقْربنّها   و لا تَأْخُذَنْ عَظْماً حديداً فَتَفْصُدا

أي : لا تفعل فعل الجاهلية ، و ذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدّداً من عظم و نحوه ، فيفصد

به بعيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، و لهذا حرّم الله الدم على هذه الأمة. ثم قال الأعشى:

و ذا النّصبُ المنصوب لا تأتينّه و لا تعبد الأوثانَ و اللهَ فاعبدا

قوله: ﴿و لحمُ الخنزيرِ﴾ يعني إنسيه و وحشيه، و اللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، و لا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا و تعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿فإنّه رجسٌ أو فسقاً﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿إلا أن يكونَ ميتةً أو دماً مّسفوحاً أو لَحمَ خِنزيرٍ فإنّه رِجسٌ﴾ أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، و هذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه. والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، و من العرف المطرد. و في صحيح مسلم: عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ لَعبَ بالنّردشير، فكأنما صَبَغ يده في لحم الخنزير ودمه».

فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد و الوعيد الأكيد على أكله و التغذي به. و فيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم و غيره. و في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرَّمَ بيع الخمر و الميتة و الخنزير و الأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، و يستصبح بها الناس فقال: «لا هو حرام». و في صحيح البخاري: من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: نهانا عن الميتة و الدم.

و قوله: ﴿و ما أُهلَّ لِغيرِ اللهِ بِهِ﴾ أي: ما ذُبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام، لأن الله تعالى أوجب أن تُذبح مخلوقاتُه على اسمه العظيم، فمتى عَدَل بها عن ذلك، و ذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. و إنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام. روى أبو داود عن عكرمة يقول: إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل [1]. قوله: ﴿و المُنخَنِقَةُ﴾ و هي التي تموت بالخنق إما قصداً، و إما اتفاقاً بأن تتخبل في وثاقتها فتموت به، فهي حرام. و أما ﴿المَوقوذَةُ﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس و غير واحد: هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت. قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها. و في الصحيح: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أَرمي بالمِعْرَاضِ الصَّيد فأصيب، قال: «إذا رميتَ بالمِعراض فَخَزَقَ فَكُلْه، و إنْ أصابَ بعرضه فإنما هو وَقيذٌ فلا تأكله». ففرّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق و نحوه بحده فأحله، و ما أصاب بعرضه فجعله و قيذاً لم يحله، و هذا مجمع عليه عند الفقهاء. و اختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله، ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله، (أحدهما): لا يحل كما في السهم، و الجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ (و الثاني): أنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب و لم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل في العموم، و قد قررت لهذه المسألة فصلاً فليكتب ههنا.

(فصل) اختلف العلماء رحمهم الله تعالى: فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله و لم يجرحه،

---

(١) مرسل، رجاله ثقات، لكن له شاهد عند البيهقي في الشعب و غيره، انظر الصحيحة (٦٢٦).

أو صدمه هل يحل أم لا؟ على قولين (أحدهما): أن ذلك حلال، لعموم قوله تعالى: «فكلوا مما أمسكن عليكم» و كذا عمومات حديث عدي بن حاتم، و هذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعي رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي و الرافعي. (قلت): و ليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر، فإنه قال في كلا الموضعين يحتمل معنيين، ثم وجه كلا منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسئلة قولين عنه، اللهم إلا إنه في بحثه للقول بالحل رشّحه قليلاً، و لم يصرح بواحد منهما و لا جزم به. و القول بذلك ـ أعني الحل ـ نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة من رواية الحسن بن زياد عنه، و لم يذكرغير ذلك. و أما أبو جعفر بن جرير فحكاه في تفسيره عن سلمان الفارسي و أبي هريرة و سعد بن أبي وقاص و ابن عمر. و هذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضي عنه (و القول الثاني): أن ذلك لا يحل، و هو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله و اختاره المزني، ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً، و الله أعلم. و رواه أبو يوسف و محمد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه، و هذا القول أشبه بالصواب، و الله أعلم، لأنه أجرى على القواعد الأصولية، و أمس الأصول الشرعية، و احتج ابن الصباغ له: بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدواً و ليس معنا مُدى أفنذبح بالقصب؟ قال: «ما أنهَرَ الدم و ذكر اسم الله عليه فكلوه» الحديث بتمامه، و هو في الصحيحين.

و هذا و إن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام عن البتع و هو نبيذ العسل، فقال: «كلُّ شراب أَسكر فهو حرامٌ» (١). أفيقول فقيه إنَّ هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟ و هكذا هذا، كما سألوه عن شيء من الذكاة، فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذاك المسؤول عنه و غيره، لأنه عليه السلام كان قد أوتي جوامع الكلم، إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غَمَّه بثقله، ليس مما أنهر دمه، فلا يحل، لمفهوم هذا الحديث.

(مسلك آخر) و هو أن قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ عام فيما قتلن بجرح أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيه، لا يخلو إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، و أياً مّا كان فيجب تقديم هذه الآية على تلك لوجوه (أحدها): أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعدي بن حاتم: «وإنْ أصابه بعَرْضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله» و لم نعلم أحداً من العلماء فصّل بين حكم و حكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيذ معتبر حالة الصيد، و النطيح ليس معتبراً، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به، و هو محظور عند كثير من العلماء. (الثاني): أن تلك الآية ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بما صدن من الحيوان المأكول، و خرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، و العموم المحفوظ مقدّم على غير المحفوظ.

(المسلك الآخر) أن هذا الصيد و الحالة هذه في حكم الميتة سواء، لأنه قد احتقن فيه الدماء و ما يتبعها من الرطوبات فلا تحل قياساً على الميتة. (المسلك الآخر) أن آية التحريم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ و لا تخصيص، و كذا ينبغي أنْ تكون آية التحليل محكمة، أعني قوله تعالى:

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم قل أحلّ لهم الطيّبات﴾ الآية، فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلاً، و تكون السنة جاءت لبيان ذلك، و شاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، و هو ما إذا خزقه المعراض فيكون حلالاً، لأنه من الطيبات و ما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم، و هو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل، لأنه وقيذ فيكون أحد أفراد آية التحريم، و هكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء: إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل، و إنْ لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله، فهو نطيح أو في حكمه، فلا يكون حلالاً.

(فإن قيل) فلم لا فصّل في حكم الكلب فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، و إن لم يجرحه فهو حرام؟ (فالجواب) أن ذلك نادر لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معاً، و أما اصطدامه هو والصيد فنادر، و كذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة و المنخنقة و الموقوذة و المتردية و النطيحة. و أما السهم و المعراض فتارة يخطئ لسوء رمي راميه، أو للهو أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً، و الله أعلم.

و لهذا لما كان الكلب من شأنه أنه يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال: «إنْ أكَلَ فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أَمسك على نفسه» و هذا صحيح ثابت في الصحيحين، و هو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، لا يحل ما أكَلَ منه الكلب. حُكي ذلك عن أبي هريرة و ابن عباس، و به قال الحسن و الشعبي و النخعي و إليه ذهب أبو حنيفة و صاحباه و أحمد بن حنبل و الشافعي في المشهور عنه. وروى ابن جرير في تفسيره عن علي و سعيد وسلمان و أبي هريرة و ابن عمر و ابن عباس: أن الصيد يُؤكل وإنْ أَكل منه الكلب حتى قال سعيد و سلمان وأبو هريرة و غيرهم: يؤكل و لو لم يبق منه إلا بضعة، و إلى ذلك ذهب مالك و الشافعي في قوله القديم، و أما في الجديد إلى قولين قال ذلك الإمام أبو نضر بن الصباغ و غيره من الأصحاب عنه، و قد روى أبو داود بإسناد جيد قوي عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك و ذكرت اسم الله فكُلْ، و إنْ أكل منه، و كُلْ ما ردّت عليك يدك» و رواه أيضاً النسائي فذكر نحوه.

و أما الجمهور فقدّموا حديث عدي على ذلك، و راموا تضعيف حديث أبي ثعلبة و غيره، و قد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجئ، فأكل منه لجوعه و نحوه، فإنه لا بأس بذلك و الحالة هذه، لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، و الله أعلم [١].

فأما الجوارح من الطيور فنص الشافعي على أنها كالكلب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، و لا يحرم عن الآخرين. و اختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور و الجوارح، و هو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب و نحوه. و أيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فَيُعفى عن ذلك. و أيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير، و الله سبحانه و تعالى

(١) و هو بنحوه كلام الإمام ابن القيم في تهذيب السنن كما في عون المعبود (٨/ ٥٧ - ٥٩). و قال الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٨٢): لكن قوله: «و إن أكل منه» منكر.

أعلم .

وأما ﴿الْمُتَرَدِّيَةُ﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك فلا تحل ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المتردية التي تسقط من جبل . و قال قتادة : هي التي تتردى في بئر . و قال السدي : هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر .

و أما ﴿النَّطِيحَةُ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها ، فهي حرام ، و إن جرحها القرن و خرج منها الدم ولو من مذبحها . و النطيحة فعيلة بمعنى مفعولة ، أي : منطوحة ، و قوله تعالى : ﴿و ما أكلَ السَّبُعُ﴾ أي ما عدا عليها أسدٌ أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك ، فهي حرام و إن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحها ، فلا تحل بالإجماع . و قد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقر أو نحو ذلك ، فحرّم الله ذلك على المؤمنين .

و قوله : ﴿إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة و فيه حياة مستقرة ، و ذلك إنما يعود على قوله : ﴿والمُنْخَنِقَةُ والمَوقُوذةُ و المُتَرَدِّيَةُ و النَّطِيحةُ و ما أكلَ السَّبُعُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول : إلا ما ذبحتم من هؤلاء و فيه روح فكلوه ، فهو ذكي . و كذا روى عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي . و روى ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال : إنْ مَصَعَتْ بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل . و روى ابن جرير نحوه . و هكذا روى عن طاوس والحسن و قتادة و عبيد بن عمير والضحاك و غير واحد : أن المذكّاة من تحرّكت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال ، و هذا مذهب جمهور الفقهاء ، و به قال أبو حنيفة و الشافعي و أحمد بن حنبل ، قال ابن وهب : سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها ، فقال مالك : لا أرى أن تذكى أي شيء يذكى منها ؟ هذا مذهب مالك رحمه الله ، و ظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها ، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية ، و الله أعلم .

و في الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال قلت : يا رسول الله ، إنا لاقو العدو غداً و ليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ فقال : «ما أنهر الدمَ و ذكر اسم الله عليه فكلوه ، ليس السِّن و الظفر ، و سأحدثكم عن ذلك : أما السن فعظم ، و أما الظفر فمدى الحبشة» . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد و أهل السنن عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ، أما تكون الذكاة إلا من اللبة و الحلق ؟ فقال : «لو طعنتَ في فخذها لأجزأ عنك» و هو حديث صحيح [1] ، و لكنه محمول على مالا يُقدر على ذبحه في الحلق واللبة .

وقوله : ﴿و ما ذُبِحَ علَى النُّصُبِ﴾ قال مجاهد و ابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة . قال ابن جريج : و هي ثلاثمائة و ستون نصباً كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، و ينضحون ما أقبلَ منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، و يشرحون اللحم و يضعونه على النصب . و كذا ذكره غير واحد ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب ، حتى و لو كان يُذكر عليها اسم الله في الذبائح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله و رسوله . و ينبغي أن يحمل هذا لأنه قد تقدم تحريم

(١) كذا قال ابن كثير رحمه الله ! و قد ضعف الحديث الحافظ الذهبي في الميزان و أعله بأبي العشراء ، إذ قال : و لا يدرى من هو و لا من أبوه ! انفرد عنه حماد بن سلمة . وكذا ضعفه الحافظ في التلخيص (٤/ ١٣٤) .

ما أهل به لغير الله .

و قوله تعالى : ﴿و أن تستقسموا بالأزلام﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها : زلم ، و قد تفتح الزاي ، فيقال : زلم ، و قد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك و هي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب : افعل ، و على الآخر : لا تفعل ، و الثالث : غفل ليس عليه شيء . و من الناس من قال : مكتوب على الواحد : أمرني ربي ، و على الآخر : نهاني ربي ، و الثالث : غفل ليس عيه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله ، أو النهي تركه ، و إنْ طلع الفارغ أعاد . و الاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام . هكذا قرّر ذلك أبو جعفر بن جرير . و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿و أن تستقسموا بالأزلام﴾ قال : الأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور . و كذا روى عن مجاهد و إبراهيم النخعي والحسن البصري ومقاتل بن حيان . و ذكر محمد بن إسحاق و غيره : أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له : هبل ، منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا و أموال الكعبة ، و كان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم ، فما خرج منها رجعوا إليه و لم يعدلوا عنه .

و ثبت في الصحيحين : أن النبيﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم و إسماعيل مصوّرين فيها ، و في أيديهما الأزلام ، فقال : «قاتلهم الله ! لقد علموا أنهما لم يَستقسما بها أبداً» . و في الصحيح : أن سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبيﷺ و أبي بكر و هما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين ، قال : فاستقسمت بالأزلام هل أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره : لا يضرهم ، قال : فعصيت الأزلام و أتبعتهم ، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة ، كل ذلك يخرج الذي يكره لا يضرهم ، و كان كذلك ، و كان سراقة لم يُسْلم إذ ذاك ، ثم أسلم بعد ذلك . وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول اللهﷺ : «لن يلج الدرجات مَن تكهّن ، أو استقسم ، أو رجع من سفر طائراً» . و قال مجاهد في قوله : ﴿و أن تستقسموا بالأزلام﴾ قال : هي سهام العرب ، و كعاب فارس والروم كانوا يتقامرون بها . و هذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر ، اللهم إلا أن يقال : إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة ، و في القمار أخرى ، و الله أعلم ، فإن الله سبحانه قد قرن بينها و بين القمار و هو الميسر ، فقال في آخر السورة : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمرُ و الميسرُ و الأنصابُ والأزلامُ رجسٌ مّنْ عَملِ الشّيطانِ فاجتنبوهُ لعلّكمْ تُفلحونَ * إنّما يُريدُ الشّيطانُ أن يوقعَ بينكُم العداوةَ والبغضاءَ - إلى قوله - مُنتهونَ﴾ و هكذا قال ههنا : ﴿و أن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ أي : تعاطيه فسق و غي وضلالة وجهالة و شرك .

و قد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه ، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه ، كما رواه الإمام أحمد و البخاري و أهل السنن : عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول اللهﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور ، كما يعلّمنا السورة من القرآن ، و يقول : «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، و أستقدرك بقدرتك ، و أسألك من فضلك العظيم ، فإنك تَقْدِرُ و لا أَقْدِرُ ، و تَعْلَمُ و لا أَعْلمُ ، و أنتَ علاّمُ الغيُوب ، اللهم إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنَّ هذَا الأمْرَ - و يسمّيه باسمه - خيرٌ لي في دينِي و مَعاشِي و عَاقبة أمْري - أو قال : عاجل أمري و آجله - فاقْدُرْهُ لي و يسِّرْهُ لي ثم بارِكْ لي فيه ، اللهمَّ وإنْ كنتَ تعلمُ أنه شرٌّ لي في ديني و معاشي و عاقبة أمري ، فاصرفني عنه و اصرفه عني ، و اقْدُرْ لي الخير

حيثُ كان، ثم رَضِيتُ به» لفظ أحمد.

و قوله: ﴿اليومَ يَئِسَ الذينَ كَفرُوا مِن دينِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني يئسوا أن يُراجعوا دينهم. و كذا روى عن عطاء بن أبي رباح و السدي و مقاتل بن حيان. و على هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشيطانَ قدْ يَئِسَ أنْ يَعبدَه المصلّون في جزيرة العرب، و لكنْ بالتحريش بينهم». و يحتمل أن يكون المراد: أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين، لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك و أهله. و لهذا قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا و يثبتوا في مخالفة الكفار، و لا يخافوا أحداً إلا الله فقال: ﴿فلا تَخشوهُمْ و اخْشَونِ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم، و اخشوني أنصركم عليهم و أبيدهم و أظفركم بهم، و أشف صدوركم منهم، و أجعلكم فوقهم في الدنيا و الآخرة.

و قوله: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ و أتمَمْتُ عليكُمْ نِعمتِي و رَضيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، و لا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، و لهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، و بعثه إلى الإنس و الجن، فلا حلال إلا ما أحله و لا حرام إلا ما حرمه، و لا دين إلا ما شرعه، و كل شيء أخبر به فهو حقٌّ و صدقٌ لا كذب فيه و لا خُلْف، كما قال تعالى: ﴿وَ تمَّتْ كلمَةُ ربِّكَ صِدقاً وَ عَدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، و عدلاً في الأوامر والنواهي. فلما أكمل لهم تمت عليهم النعمة، و لهذا قال تعالى: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ و أتمَمْتُ عليكُمْ نِعمتِي و رَضيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله و رسوله و رضيه، وبعثه به أفضل الرسل الكرام، و أنزل به أشرف كتبه، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ المؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان. فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، و قد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، و قد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. و قال ابن جريج و غيرواحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً، رواه ابن جرير.

و روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا يا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: و أي آية؟ قال: قوله: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ و أتمَمْتُ عليكُمْ نِعمتِي﴾ فقال عمر: و الله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ و الساعة التي نزلت فيهاعلى رسول الله ﷺ نزلتْ عشية عرفة في يوم جمعة. و رواه البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي. و قد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها و الله أعلم. و قد رُوي هذا الحديث من غير وجه عن عمر. و قال ابن جرير: و قد قيل ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس. ثم روي ذلك من طريق العوفي عن ابن عباس ثم روى عن أبي هريرة: أنه اليوم حجة الوداع، و لا يصح لا هذا و لا هذا، بل الصواب الذي لاشك فيه و لا مرية أنها أنزلت يوم عرفة و كان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب، و أول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، و ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، و سمرة بن جندب رضي الله عنهم، و أرسله الشعبي و قتادة بن دعامة و شهر بن حوشب و غير واحد من الأئمة و العلماء. و اختاره ابن جرير الطبري رحمه الله.

و قوله: ﴿فَمن اضطرَّ في مَخمَصةٍ غيرَ مُتَجانِفٍ لإثمٍ فإنَّ اللهَ غفُورٌ رَّحيمٌ﴾ أي فمن احتاج إلى تناول

شيء من هذه المحرّمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، و الله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطرّ، و افتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه و يغفر له. و في المسند و صحيح ابن حبان: عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول اللهﷺ: «إن الله يُحبُّ أنْ تُؤتَى رُخصتُه، كما يَكره أنْ تُؤتَى معصيتُه» لفظ ابن حبان.

و لهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان و هو ما إذا خاف على نفسه و لم يجد غيرها، و قد يكون مندوباً، و قد يكون مباحاً بحسب الأحوال، و اختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق؛ أو له أنْ يَشبع، و يتزوّد؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، و فيما إذا وجد ميتة و طعام الغير، أو صيداً و هو محرِم، هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد و يلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام و يضمن بدله؟ على قولين هما قولان للشافعي رحمه الله.

و ليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام و غيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، و قد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا، و لم تغتبقوا، و لم تحتفئوا بها بقلاً، فشأنكم بها» تفرد به أحمد من هذا الوجه و هو إسناد صحيح على شرط الصحيحين، وكذا رواه ابن جرير. و معنى قوله: «مالم تصطبحوا» يعني به الغداء «و مالم تغتبقوا» يعني به العشاء «أو تحتفئوا بقلاً[1] فشأنكم بها» فكلوا منها. و قال ابن جرير: يروى هذا الحرف يعني قوله: «أوتحتفئوا» على أربعة أوجه: تحفؤا بالهمزة «و تحتفيوا» بتخفيف الياء و الحاء، و تحتفوا بتشديد و تحتفوا بالحاء و بالتخفيف، و يحتمل الهمز كذا رواه في التفسير.

(حديث آخر) روى أبو داود: عن جابر بن سمرة أن رجلاً نزل الحرة و معه أهله و ولده، فقال له رجل: إنَّ ناقتي ضلت فإنْ وجدتها فأمسكها، فوجدها و لم يجد صاحبها، فمرضت فقالت له امرأته: انحرها فأبى، فنفقت، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نُقدِّد شحمها و لحمها فنأكله، قال: لا حتى أسأل رسول اللهﷺ، فأتاه فسأله فقال: «هل عندك غِنىً يغنيك» قال: لا، قال: «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنتَ نحرتها؟ قال: استحييت منك. تفرد به. و قد يحتج به من يجوِّز الأكل و الشبع و التزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها، و الله أعلم.

و قوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي: متعاطٍ لمعصية الله، فإنَّ الله قد أباح ذلك له و سكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ و لا عادٍ فلا إثمَ عليهِ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ و قد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لاتنال بالمعاصي، و الله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا

---

(١) قال أبو عبيد: من الخطأ و هو أصل البردي الأبيض الرطب منه، و قد يؤكل، يقول: مالم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه. و يروى: «مالم تحتفوا» من احتففت الشيء إذا أخذته كلَّه، كما تحف المرأة وجهها من الشعر. و قيل: غير ذلك (نهاية).

عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

٤ - لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، و استثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿و قَدْ فَصَّلَ لكُم مَّا حَرَّمَ عليكُمْ إلاَّ ما اضطُرِرتُمْ إليهِ﴾ قال بعدها: ﴿يسألونَكَ ماذا أُحلَّ لَهمْ قُلْ أُحِلَّ لكُم الطَّيِّباتُ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات، و يحرم عليهم الخبائث. و قال مقاتل: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، و هو الحلال من الرزق، و قد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي، فقال: ليس هو من الطيبات، رواه ابن أبي حاتم. و قال ابن وهب: سُئِلَ مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس، فقال: ليس هو من الطيبات. و قوله تعالى ﴿و مَا علَّمتُم مِّن الجَوارِحِ مُكَلِّبينَ﴾ أي أُحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق، و أحل لكم ما صدمتموه بالجوارح و هي من الكلاب و الفهود و الصقور و أشباهها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين و الأئمة، وممن قال ذلك علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿و مَا علَّمتُم مِّن الجَوارِحِ مُكَلِّبينَ﴾ وهن الكلاب المعلمة و البازي و كل طير يعلم للصيد، و الجوارح يعني الكلاب الضواري و الفهود و الصقور وأشباهها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: و رُوي عن خيثمة وطاوس و مجاهد و مكحول ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك، و روى عن الحسن أنه قال: الباز و الصقر من الجوارح، وروى عن علي بن الحسين مثله، ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، و قرأ قوله: ﴿و مَا علَّمتُم مِّن الجَوارِحِ مُكَلِّبينَ﴾ قال: و روى عن سعيد بن جبير نحو ذلك، و نقله ابن جرير عن الضحاك و السدي، ثم روى عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البازات و غيرها من الطير، فما أدركت فهو لك و إلا فلا تطعمه.

قلت: و المحكي عن الجمهور: أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب، لأنها تكْلَبُ الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق، و هو مذهب الأئمة الأربعة و غيرهم، و اختاره ابن جرير. و استثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود، لأنه عنده مما يجب قتله و لا يحل اقتناؤه، لما ثبت في صحيح مسلم: عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْطعُ الصلاةَ: الحمار و المرأة و الكلب الأسود» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلبُ الأسود شيطان». و في الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: «ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا منها كلَّ أسود بهيم». و سميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهنّ جوارح: من الجرح و هو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي كسبهم خيراً، و يقولون: فلان لا جارح له، أي: لا كاسب له، و قال الله تعالى: ﴿ويَعلَمُ ما جَرحتُم بِالنَّهارِ﴾ أي ما كسبتم من خير و شر.

و قد ذكر سبب نزول هذه الآية الشريفة، الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقتلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت فأنزل الله ﴿يسألُونكَ ماذا أُحلَّ لهمْ قُل أُحلَّ لكُم الطَّيِّباتُ و مَا علَّمتُم مِّن الجَوارِحِ مُكَلِّبينَ﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «إذا أرسلَ الرجل كلبه و سمَّى فأمسك عليه، فليأكل مالم يأكل».
وهكذا رواه ابن جرير بإسناده: عن رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه فأذن له، فقال: قد أذن

لك يا رسول الله، قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب، قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاؤا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم قل أحلّ لكم الطّيبات وما علّمتم مّن الجوارح مكلّبين﴾ ورواه الحاكم وقال: صحيح ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿علّمتم﴾ فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو ﴿الجوارح﴾ أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه: أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته لا بمخلابه وظفره، أنه لا يحل، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء، ولهذا قال: ﴿تعلّمونهنّ ممّا علّمكم الله﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فكلوا ممّا أمسكن عليكم واذكروا اسمَ الله عليه﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذَكَر اسم الله عليه وقت إرساله، حَلّ الصيد وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين: عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أُرسل الكلابَ المعلَّمة، وأذكر اسم الله، فقال: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله، فكُلْ ما أمسك عليك» قلت: وإنْ قَتَلن؟ قال: «وإنْ قَتَلن، ما لم يشركها كلبٌ ليس منها، فإنك إنما سميتَ على كلبك، ولم تُسَمِّ على غيره» قلت: فإني أرمي بالمِعْرَاض الصيد؟ فقال: «إذا رميتَ بالمعراض فخزق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلا تأكله» وفي لفظ لهما «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه، وإنْ أدركته قد قتلَ ولم يأكل منه، فكله فإنْ أخذَ الكلب ذكاته».

وفي رواية لهما «فإنْ أكلَ فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث، وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا لا يحرم مطلقاً.

ذكر الآثار بذلك

روى ابن جرير: عن سلمان الفارسي: كُلْ وإنْ أكلَ ثلثيه، يعني الصيد إذا أكل منه الكلب. وروى ابن جرير: عن حميد بن مالك بن خيثم الدؤلي أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب فقال: كُلْ وإنْ لم يبق منه إلا حِذْيَة يعني بضعة. وروى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: إذا أرسلت كلبك فأكل منه فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكله. وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلّم، وذكرت اسم الله فكُل ما أمسكَ عليك، أكل أو لم يأكل.

فهذه الآثار ثابتة عن سلمان و سعد بن أبي وقاص و أبي هريرة و ابن عمر، و هو محكي عن علي وابن عباس و اختلف فيه عن عطاء و الحسن البصري، و هو قول الزهري و ربيعة و مالك، وإليه ذهب الشافعي في القديم و أومأ إليه في الجديد. لكن قد روى هذا المعنى مرفوعاً من وجوه أخر[1].

فهذه آثار دالة على أنه يُغتفر و إن أكل منه الكلب، و قد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عمن حكيناه عنهم. و قد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه، فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم، و للعلة التي أشار إليها النبيﷺ «فإنْ أكلَ فلا تأكل، فإني أخافُ أن يكون أمسكَ على نفسه» وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه و جاع فأكل منه لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم و حملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني. و هذا تفريق حسن، و جَمْعٌ بين الحديثين صحيح. و قد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه «النهاية» أنْ لو فَصَّل مفصل هذا التفصيل، و قد حقق الله أمنيته، و قال بهذا القول و التفريق طائفة من الأصحاب منهم، و قال آخرون قولاً رابعاً في المسألة، و هو: التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي، و بين أكل الصقور و نحوها، فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

و قوله تعالى: **﴿فكُلوا مِمَّا أمسَكنَ عليكُمْ و اذكُروا اسمَ اللهِ عليهِ﴾** أي عند إرساله كما قال النبيﷺ لعدي بن حاتم «إذا أرسلتَ كلبكَ المعلّم و ذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك» وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً «إذا أرسلتَ كلبك فاذكر اسم الله، و إذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله» و لهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه: التسمية عند إرسال الكلب، و الرمي بالسهم، لهذه الآية و هذا الحديث، و هذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية: الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السدي و غيره. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿و اذكُروا اسمَ اللهِ عليهِ﴾** يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله، و إنْ نَسيتَ فلا حرج. و قال بعض الناس المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ عَلَّم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سم الله، و كُلْ بيمينك، و كل مما يليك». و في صحيح البخاري: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول، إن قوماً يأتوننا ـ حديثٌ عهدهم بكفر ـ بلُحْمان، لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سموا الله أنتم وكلوا».

(حديث آخر) و روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول اللهﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبيﷺ: «أما إنه لو كان ذَكر اسم الله لَكفَاكم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليذكر اسم الله، فإنْ نَسي أنْ يذكر اسم الله في أوّله، فليقل: باسم الله أوّله و آخره» و هكذا رواه أبو داود والترمذي و النسائي و ابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسولُ الله فيضع يده، و إنا حضرنا معه طعاماً مّا، فجاءت جارية كأنما تُدْفع فذهبتْ تَضع يدها في الطعام فأخذ رسول اللهﷺ بيدها، و جاء أعرابيٌ كأنما يُدفع فذهب يضع يده في الطعام، فأخذَ رسول اللهﷺ بيده، فقال رسول اللهﷺ: «إنَّ الشيطانَ يَستحِلُّ الطعامَ إذا لم يُذكر اسم الله عليه، و إنه جاء بهذه الجارية ليستحلَّ

(١) و قد سبق ذكر رواية أبي داود، فتركناها هنا اختصاراً.

بها، فأخذت بيدها، و جاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده إنَّ يده في يدي مع يديهما» يعني الشيطان. و كذا رواه مسلم و أبو داود و النسائي.

(حديث آخر) روى مسلم و أهل السنن إلا الترمذي: عن جابر بن عبد الله عن النبيﷺ قال: «إذا دخل الرجلُ بيته فذكرَ اللهَ عنددخوله و عند طعامه، قال الشيطان: لا مبيتَ لكم و لا عشاءَ، و إذا دخل و لم يَذكر اسم الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيتَ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» لفظ أبي داود.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبيﷺ: إنا نأكل وما نشبع! قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين؟ اجتمعُوا على طعامكم، و اذكروا اسم الله، يُبارك لكم فيه» ورواه أبو داود و ابن ماجه.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

٥- لما ذكر تعالى ما حرَّمه على عباده المؤمنين من الخبائث، و ما أحله لهم الطيبات، قال بعده: **﴿اليومَ أحِلَّ لَكُم الطَّيِّباتُ﴾** ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود و النصارى فقال: **﴿و طعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾** قال ابن عباس و أبو أمامة و مجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة و عطاء و الحسن و مكحول وإبراهيم النخعي و السدي و مقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم. و هذا أمرٌ مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، و لا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، و إن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى و تقدس. و قد ثبت في الصحيح: عن عبد الله بن مغفل قال: أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته، و قلت: لا أُعطي اليوم من هذا أحداً، و التفتُّ فإذا النبيﷺ يبتسم. فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة و نحوها من الغنيمة قبل القسمة، و هذا ظاهر و استدل به الفقهاء الحنفية و الشافعية و الحنابلة على أصحاب مالك، في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم و نحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يجوّزون للمسلمين أكله، لقوله تعالى: **﴿وطعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾** قالوا: و هذا ليس من طعامهم، و استدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، و في ذلك نظر! لأنه قضية عين، و يحتمل أن يكون شحماً يعتقدون حِلَّه كشحم الظهور و الحوايا ونحوهما، و الله أعلم.

و أجود منه في الدلالة: ما ثبت في الصحيح: أن أهل خيبر أهدوا لرسول اللهﷺ شاةً مَصْلِيةً و قد سَمُّوا ذراعها، و كان يعجبه الذراع، فتناوله فنهش منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم، فَلَفَظَه و أَثَّر ذلك في ثنايا رسول اللهﷺ و في أبهره، و أكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات، فقَتَل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب، فَقَتَلَت بشر بن البراء. و وجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها و من معه، و لم يسألهم هل نزعوا

منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا . و في الحديث الآخر : أنّ رسول الله ﷺ أضافه يهوديٌّ على خبز شعير ، و إهالة سَنْخَة يعني : وَدَكاً زنخاً[(١)] . و روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال : أنزل الله **﴿و لا تأكلُوا مِمَّا لَمْ يُذكَرِ اسمُ اللهِ عليهِ﴾** ثم نسخه الرب عز وجل ، و رحم المسلمين فقال : **﴿اليومَ أُحلَّ لَكم الطَّيِّباتُ و طعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ﴾** فنسخها بذلك و أحل طعام أهل الكتاب . و في هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظر ! فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب ، إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم و قرابينهم ، و هم متعبدون بذلك ، و لهذا لم يُبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك و من شابههم ، لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم ، بل و لا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة ، بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين و من شاكلهم من السامرة و الصابئة ، و من يتمسك بدين إبراهيم و شيث و غيرهما من الأنبياء ، على أحد قولي العلماء . و نصارى العرب كبني تغلب و تنوخ و بهرا و جذام و لخم و عاملة و من أشبههم ، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور .

و قال أبو جعفر بن جرير : عن علي قال : لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر . و كذا قال غير واحد من الخلف و السلف . و قال قتادة عن سعيد بن المسيب و الحسن أنهما كانا لا يريان بأساً بذبيحة نصارى بني تغلب .

و أما المجوس فإنهم و إنْ أُخِذت منهم الجزية تبعاً و إلحاقاً لأهل الكتاب ، فإنهم لا تُؤكل ذبائحهم ، ولا تنكح نساؤهم ، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي و أحمد بن حنبل . و لما قال ذلك و اشتهر عنه ، أنكر عليه الفقهاء ذلك ، حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه . يعني في هذه المسألة ، و كأنه تمسك بعموم حديثٍ رُوي مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال : «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب» . و لكن لم يثبت بهذا اللفظ ، و إنما الذي في صحيح البخاري : عن عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله ﷺ أَخَذَ الجزية من مجوس هَجَر . و لو سلم صحة هذا الحديث فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية **﴿وَ طعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾** فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل .

و قوله تعالى : **﴿و طعامُكمْ حِلٌّ لَهمْ﴾** أي : و يحل لكم أن تطعموهم من ذبائحهم ، و ليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم ، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها ، و الأول أظهر في المعنى ، أي : و لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، كما أكلتم من ذبائحهم ، و هذا من باب المكافأة و المقابلة و المجازاة . كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات و دفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبي ﷺ ذلك . فأما الحديث الذي فيه «لا تَصْحبْ إلا مؤمناً ، و لا يأكل طعامك إلا تقي»[(٢)] فمحمول على الندب و الاستحباب ، و الله أعلم .

و قوله : **﴿و المحصَنَاتُ مِن المُؤمناتِ﴾** أي : و أحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده ، و هو قوله تعالى : **﴿و المُحصناتُ مِن الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُمْ﴾**

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٢١٠ - ٢١١) من حديث أنس رضي الله عنه بسند صحيح .

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٨) و أبو داود (٤٨٣٢) و ابن ماجه (٢٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بسند حسن .

فقيل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، و إنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، و يحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة، كما قال في الرواية الأخرى عنه. و هو قول الجمهور ههنا، و هو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، و هي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، و يتحصَّل زوجها على ما قيل في المثل: «حَشَفاً [1] و سوء كَيْلة».

و الظاهر من الآية: أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الأخرى: ﴿مُحصناتٍ غيرَ مُسافِحاتٍ و لا مُتَّخذاتِ أخدانٍ﴾. ثم اختلف المفسرون و العلماء في قوله تعالى: ﴿والمحصناتُ مِن الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قبلِكُمْ﴾ هل يعمُّ كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة، حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ممن فسر المحصنة بالعفيفة. و قيل: المراد بأهل الكتاب ههنا: الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. و قيل: المراد بذلك: الذميات دون الحربيات، لقوله: ﴿قاتِلُوا الذينَ لاَ يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ﴾ الآية. و قد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، و يقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إنَّ ربَّها عيسى، و قد قال الله تعالى: ﴿و لا تنكحُوا المُشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ﴾ الآية. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿و لا تنكحُوا المُشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ﴾ فحجز الناس عنهن، حتى نزلت الآية التي بعدها ﴿و المُحصناتُ من الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُمْ﴾ فَنَكَح الناسُ نساء أهل الكتاب. و قد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى و لم يروا بذلك بأساً، أخذاً بهذه الآية الكريمة ﴿و المُحصناتُ من الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة ﴿و لا تنكحُوا المُشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ﴾ إنْ قيل بدخول الكتابيات في عمومها، و إلا فلا معارضة بينها و بينها، لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يكُن الذينَ كفرُوا مِنْ أهلِ الكتابِ و المُشركينَ مُنفكِّينَ حتَّى تأتِيَهُم البَيِّنَةُ﴾ و كقوله: ﴿و قُل للَّذينَ أوتُوا الكتابَ و الأمِّيِّينَ أأسلَمتُمْ فإنْ أسلَمُوا فَقَد اهتَدَوْا﴾ الآية.

و قوله: ﴿إذا آتيتُموهنَّ أُجورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ، أي: كما هنّ محصنات عفائف، فابذلوا لهنّ المهور عن طيب نفس. و قد أفتى جابر بن عبد الله و عامر الشعبي و إبراهيم النخعي و الحسن البصري: بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها، أنه يفرق بينهما، و تَردُ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم.

و قوله: ﴿مُحصِنينَ غيرَ مُسافِحينَ وَ لا مُتَّخذِي أخْدانٍ﴾ فكما شَرَطَ الإحصان في النساء و هي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، و هو أن يكون الرجل محصناً عفيفاً، و لهذا قال: ﴿غيرَ مُسافِحينَ﴾ و هم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، و لا يردون أنفسهم عمن جاءهم ﴿وَ لا مُتَّخذِي أخْدانٍ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء. و لهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه: لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب، و ما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجلٍ عفيف، و كذلك لا يصح عنده عقدُ الرجل الفاجر على عفيفة، حتى يتوب و يُقلع عما هو فيه الزنا، لهذه الآية وللحديث «لا ينكح الزاني المَجلودُ إلا مِثْلَه» [2]. و سيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله: ﴿الزانِي لا ينكحُ إلاَّ زانيةً أو مُشرِكةً و الزانيةُ لاَ ينكِحُها إلاَّ زانٍ أوْ مُشركٌ و حُرِّمَ ذلكَ علَى المُؤمنينَ﴾ و لهذا قال

(١) الحشف: أردأ التمر. انظر: «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبيد البكري (ص ٣٧٤).

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٢/ ٣٢٤) و أبو داود (٢٠٥٢) و غيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى ههنا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾

٦- قال كثيرون من السلف في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ يعني: و أنتم مُحْدِثون. و قال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، و كلاهما قريب. و قال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، و لكن هو في حق المحدث واجب، و في حق المتطهر ندب. و قد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نُسخ. و روى الإمام أحمد بن حنبل عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان النبيﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ و مسح على خفيه، و صلى الصلوات بوضوءٍ واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله! قال: «إني عمداً فعلته يا عمر». وهكذا رواه مسلم و أهل السنن. و روى أحمد عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: أرأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة، طاهراً كان أو غير طاهر عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها: أن رسول اللهﷺ كان أُمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شَقَّ ذلك عليه أُمر بالسواك عند كل صلاة، و وضع عنه الوضوء إلا من حَدَث، فكان عبد الله يرى أن به قوّة على ذلك، كان يفعله حتى مات. و هكذا رواه أبو داود و هو إسناد صحيح، و قد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع. وفي فعل ابن عمر هذا، و مداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة، دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

و روى ابن جرير: عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤن لكل صلاة. و روى عن النزال بن سبرة قال: رأيت علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس في الرحبة، ثم أتى بماء فغسل وجهه و يديه ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء مَنْ لم يُحدث. و روى عن إبراهيم: أن علياً اكتال من حب فتوضأ وضوءاً فيه تجوّز، فقال: هذا وضوء مَن لم يُحدث. و هذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً.

و روى ابن جرير: أيضاً عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. و هذا إسناد صحيح. و روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك يقول: كان النبيﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد، ما لم نُحدث. وقد رواه البخاري و أهل السنن.

و قال ابن جرير: و قد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاماً من الله، أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال، و ذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى

يتوضأ[1]. و روى أبو داود عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقُدِّم إليه طعام فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة». و كذا رواه الترمذي و النسائي.

و روى مسلم: عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء، ثم إنه رَجَع فأتي بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تتوضأ؟ فقال: «لم أُصلِّ فأتوضأ».

و قوله: ﴿فَاغسِلُوا وُجوهَكُمْ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى: ﴿إذا قُمتمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ﴾ على وجوب النية في الوضوء، لأن تقدير الكلام ﴿إذا قُمتمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ﴾ كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أي: له. و قد ثبت في الصحيحين حديث «الأعمالُ بالنيات، و إنما لكل امرئ ما نوى». و يستحب قبل غسل الوجه أنْ يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وُضوءَ لمن لم يذكر اسم الله عليه». و يستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، و يتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء، قبل أنْ يغسلها ثلاثاً، فإنَّ أحدَكم لا يدري أين باتت يده». و حَدُّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس - و لا اعتبار بالصلع و لا بالغَمَم - إلى منتهى اللحيين و الذقن طولاً، و من الأذن إلى الأذن عرضاً، و في النزعتين و التحذيف خلاف هل هما من الرأس أو الوجه؟ و في المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان: (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. و قال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته: طلع وجهه، و يستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة. و روى الإمام أحمد: عن شقيق قال: رأيت عثمان توضأ، فذكر الحديث قال: و خلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت. رواه الترمذي و ابن ماجه و قال الترمذي: حسن صحيح و حسنه البخاري.

و روى أبو داود: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته و قال: «هكذا أمرني به ربي عز وجل». قال البيهقي: و روينا في تخليل اللحية عن عمار وعائشة و أم سلمة عن النبي ﷺ، ثم عن علي و غيره، و روينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر و الحسن بن علي، ثم عن النخعي و جماعة من التابعين.

و قد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح و غيرها، أنه كان إذا توضأ تمضمض و استنشق، فاختلف الأئمة في ذلك هل هما واجبان في الوضوء و الغسل، كماهو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله، أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي و مالك، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن و صححه ابن خزيمة: عن رفاعة بن رافع الزرقي أن النبي ﷺ قال للمسيء صلاته: «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة، كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ توضَّأ فليستنشق». و في رواية «إذا توضأ أحدكم فليجعلْ في مَنْخريه من الماء ثم لينتثر» و الانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق.

---

(١) الحديث الوارد في ذلك ضعفه الحافظ ابن كثير، و قال: غريب جداً.

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أنه توضأ فغسل وجهه أخذ غُرْفَةً من ماء فتمضمض بها و استنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا ـ يعني أضافها إلى يده الأخرى ـ فَغَسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه ثم أخذ غرفة من ماء ثم رشَّ على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ. و رواه البخاري.

و قوله: ﴿و أيدِيَكُمْ إلَى المَرافِقِ﴾ أي مع المرافق، كما قال تعالى: ﴿و لا تأكُلُوا أمْوالَهُمْ إلَى أمْوالِكمْ إنَّهُ كانَ حُوباً كَبيراً﴾.

و يستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه، لما روى البخاري و مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أمتي يُدْعونَ يوم القيامة غُراً مُحَجَّلينَ من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل». و في صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تَبلغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء».

و قوله تعالى: ﴿و امسَحُوا برُؤُسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق، و هو الأظهر، أو للتبعيض؟ و فيه نظر، على قولين. و من الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، و قد ثبت في الصحيحين: عن عمرو بن يحيى عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم ـ و هو جد عمرو بن يحيى وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ: هل تستطيع أن ترِيني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسلَ يديه مرتين مرتين، ثم مضمض و استنشق ثلاثاً، و غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسحَ رأسَه بيديه فأقبل بهما و أدبر، بدأ بمقدّم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. و في حديث عبد خير عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا. و روى أبو داود عن معاوية و المقداد بن معديكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله.

ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أُجمل في القرآن. و قد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، و هو مقدار الناصية. و ذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، و لا يتقدَّر ذلك بحد لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزأه. و احتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلّف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كُمُّ الجُبة، فأخرج يديه من تحت الجبة و ألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه و مسح بناصيته، و على العمامة و على خفيه. و ذكر باقي الحديث و هو في صحيح مسلم وغيره.

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كَمَّل مسح بقية الرأس على العمامة، و نحن نقول بذلك، أنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، و أنه كان يمسح على العمامة و على الخفين، فهذا أولى، و ليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية، أو بعض

الرأس من غير تكميل على العمامة، و الله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو مذهب أحمد بن حنبل و من تابعه، على قولين، فروى عبد الرزاق عن حمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض و استنشق ثم غسلَ وجهه ثلاثاً ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول اللهﷺ تَوضّأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «مَنْ تَوضّأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدِّثُ فيهما نفسَه، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه» أخرجه البخاري و مسلم.

و في سنن أبي داود: من رواية عبيد الله بن أبي مليكة عن عثمان في صفة الوضوء: و مسح برأسه مرة واحدة. و كذا من رواية عبد خير عن علي مثله.

و احتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: عن عثمان رضي الله عنه: أن رسول اللهﷺ توضّأ ثلاثاً ثلاثاً. و روى أبو داود عن حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضّأ، فذكر نحوه و لم يذكر المضمضة و الاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول اللهﷺ توضّأ هكذا و قال: «مَنْ توضّأ هكذا كفاه» تفرد به أبو داود [1]، ثم قال: و أحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة.

قوله: ﴿و أرجُلَكمْ إلَى الكَعبَينِ﴾ قرئ و أرجلكم بالنصب عطفاً على ﴿فاغسِلوا وُجوهَكُمْ و أيدِيَكُمْ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنه قرأها ﴿و أرجُلَكمْ﴾ يقول: رجعتْ إلى الغسل. و روى عن عبد الله ابن مسعود و عروة و عطاء و عكرمة و الحسن و مجاهد و إبراهيم و الضحاك و السدي و مقاتل بن حيان والزهري و إبراهيم التيمي نحو ذلك، و هذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف. و من هنا ذهب مَن ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه و غسل يديه، ثم وجهه أجزأه ذلك! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و الواو لا تدل على الترتيب.

و قد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طُرُقاً، فمنهم من قال: الآية دلّت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة، لأنه مأمور بفاء التعقيب و هي مقتضية للترتيب، و لم يقل أحدٌ من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان، أحدهما: يُوجب الترتيب كما هو واقع في الآية، والآخر: يقول لا يجب الترتيب مطلقاً، و الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع، حيث لا فارق.

و منهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب، بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة و بعض الفقهاء، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أنه يرتب، و الدليل على ذلك: أنهﷺ لما طاف بالبيت، خرج من باب الصفا و هو يتلو قوله تعالى: ﴿إنَّ الصَّفا و المَروةَ مِن شَعائِرِ اللهِ﴾ ثم قال: «أبدأُ بما بَدأَ الله به» لفظ مسلم، و لفظ النسائي

(١) و فيه عبد الرحمن بن وردان، قال الدارقطني: ليس بالقوي، و قال الحافظ: مقبول، أي حيث يتابع، فمثله لا يعارض بروايته أحاديث الصحيحين، و الله أعلم.

«ابدؤا بما بدأ الله به» و هذا لفظُ أمر، و إسناده صحيح. فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به، و هو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، و الله أعلم.

و منهم من قال: لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظير عن النظير، وأدخل الممسوح بين المغسولين دلَّ ذلك على إرادة الترتيب. و منهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره: من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة ثم قال: «هذا وضوءٌ لا يقبل الله الصلاةَ إلابه». قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب، و لا قائل به فوجب ما ذكرناه.

و أما القراءة الأخرى، و هي قراءة مَن قرأ ﴿و أرجلِكم﴾ بالخفض. فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. و قد رُوي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح. فروى ابن جرير: قال موسى بن أنس لأنس و نحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه فذكر الطهور، فقال: اغسلوا وجوهكم و أيديكم و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم، و أنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما و ظهورهما و عراقيبهما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿و امسَحوا برُؤسِكُمْ و أرجُلِكمْ﴾ قال: و كان أنس إذا مسح قدميه بَلَّهما، إسناد صحيح إليه. و روى ابن جرير عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، و السنة بالغسل، و هذا أيضاً إسناد صحيح. و روى ابن جرير: عن ابن عباس قال: الوضوء غسلتان و مسحتان. و كذا روى قتادة. و روى ابن جرير: عن أيوب قال: رأيت عكرمة يمسح على رجليه قال: و كان يقوله. و روى ابن جرير عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح، ثم قال الشعبي: ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان غَسْلاً، و يلغى ما كان مسحاً. فهذه آثار غريبة جداً، و هي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغَسْل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين، و إنما جاءت هذه القرآءة بالخفض إما على المجاورة و تناسب الكلام، كما في قول العرب: جحر ضبٌ خَرِب، و كقوله تعالى: ﴿عاليهم ثيابُ سندسٍ خُضْرٌ و إستبرقٌ﴾ و هذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان. قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله، و منهم من قال: هي دالةٌ على مسح الرجلين و لكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما وردت به السنة.

و على كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه، للآية و الأحاديث التي سنوردها، و من أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي: عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة، حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنةً واحدة فمسح بها وجهه و يديه و رأسه و رجليه، ثم قام فشرب فَضْلَته و هو قائم، ثم قال: إنَّ ناساً يكرهون الشرب قائماً، و إنَّ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، و قال: «هذا وضوء من لم يُحْدِث» رواه البخاري في الصحيح ببعض معناه.

و من أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف، فقد ضلَّ و أَضل، و كذا مَنْ جَوَّز مسحهما و جوَّزَ غسلهما فقد أخطأ أيضاً، و من نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، و أوجب مسحهما

للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء، لأنهما يليان الأرض و الطين و غير ذلك، فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما، و لكنّه عبَّر عن الدلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين و مسحهما، فحكاه من حكاه كذلك! و لهذا يستشكله كثير من الفقهاء و هو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدم أو تأخر عليه، لاندراجه فيه، و إنما أراد الرّجُل ما ذكرته، و الله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً: فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله: ﴿و أرجلِكمْ﴾ خفضاً على المسح و هو الدلك، و نصباً على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه و هذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين و أنه لا بد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان و علي و ابن عباس و معاوية و عبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب أن رسول اللهﷺ غَسَلَ الرجلين في وضوئه، إما مرةً و إما مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم و في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول اللهﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوءٌ لا يَقْبلُ اللهُ الصلاةَ إلا به».

و في الصحيحين من رواية عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّف عنا رسول اللهﷺ في سَفْرةٍ سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر، و نحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار» و كذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة.

و في صحيح مسلم: عن عائشة عن النبيﷺ أنه قال: «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقابِ من النار».

وعن عبد الله بن الحرث بن جزء أنه سمع رسول اللهﷺ يقول: «ويل للأعقاب و بطون الأقدام من النار» رواه البيهقي و الحاكم، و هذا إسناد صحيح.

و روى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار» ورواه ابن ماجه. و وجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، و ذلك أنه لو كان فرضُ الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما، لما توعّد على تركه، لأنَّ المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف. و هكذا وجَّه هذه الدلالة على الشيعة: الإمامُ أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى. وقد روى مسلم في صحيحه: عن عمر بن الخطاب أن رجلاً توضأ فترَكَ موضعَ ظفر على قدمه، فأبصره النبيﷺ و قال: «ارجعْ فأحسنْ وضوءك».

و روى الإمام أحمد: عن بعض أزواج النبيﷺ رأى رجلاً يُصلّي و في ظهر قدمه لُمعة قَدَر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول اللهﷺ أن يعيد الوضوء. و رواه أبو داود و زاد: و الصلاة. و هذا إسناد جيد قوي صحيح، و الله أعلم.

و في حديث حمران: عن عثمان في صفة وضوء النبيﷺ أنه: خلَّل بين أصابعه. و روى أهل السنن: عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ فقال: «أسبغ الوضوء،

وخلِّلْ بين الأصابع، و بالغْ في الاستنشاق، إلا أنْ تكون صائماً».

و قال الإمام أحمد: عن أبي أمامة حدثنا عمرو بن عبسة قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ قال: «ما منكم من أحدٍ يُقرِّب وضوءه، ثم يتمضمض و يستنشق و ينتثر إلا خَرَّت خطاياه من فمهِ وخياشيمه مع الماء حين ينتثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خَرَّت خطايا وجهه من أطراف لِحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خَرَّت خطايا يديه من أطراف أَنامله، ثم يمسح رأسه إلا خَرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خَرَّت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله و يثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قال أبو أمامة: ياعمرو انظر ما تقول، سمعتَ هذا من رسول اللهﷺ؟ أيُعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة، لقد كبُرت سني، و رقَّ عظمي، و اقترب أجلي، و مابي حاجة أن أكذب على الله و على رسول الله ﷺ، لو لم أسمعه من رسول اللهﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً. لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا إسناد صحيح، و هو في صحيح مسلم من وجه آخر. و فيه «ثم يغسل قدميه كما أمره الله» فدلَّ على أن القرآن يَأمر بالغسل.

و من ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول اللهﷺ رش على قدميه الماء و هما في النعلين فدلكهما. إنما أراد غَسلاً خفيفاً و هما في النعلين، و لا مانع من إيجاد الغسل و الرِّجل في نعالها، و لكن في هذا رد على المتعمقين و المتنطعين من الموسوسين. و هكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه عن حذيفة قال: «أتى رسول اللهﷺ سُباطة قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ و مَسَح على نعليه» و هو حديث صحيح. و قد أجاب ابن جرير عنه: بأن الثقات الحفاظ رووه عن حذيفة قال: فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه.

قلت: و يحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خفان و عليهما نعلان. و هكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول اللهﷺ توضّأ و مسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود، و رواه ابن جرير ثم قال: و هذا محمول على أنه توضأ كذلك و هو غير محدث، إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله و سنن رسوله متنافية متعارضة، و قد صح عنهﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء، بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه و بلغه، و لما كان القرآن آمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب، و كما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليه، توهّم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين. و قد روي ذلك عن علي بن أبي طالب و لكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه و ليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبيﷺ مَسَح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

و قال الإمام أحمد: عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أَسلمتُ بعد نزول المائدة، و أنا رأيت رسول اللهﷺ يمسح بعد ما أَسلمتُ. تفرد به أحمد.

و في الصحيحين: عن همام قال: بال جرير ثم توضأ و مسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول اللهﷺ بال ثم توضأ و مسح على خفيه. قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث، لأن إسلامَ جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. و قد ثبت بالتواتر عن رسول اللهﷺ مشروعية المسح على

الخفين قولاً منه و فعلاً، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير» مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه.

و قد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند، بل بجهل و ضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة و هم يستبيحونها، و كذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، و هم مخالفون لذلك كله و ليس لهم دليلٌ صحيح في نفس الأمر، و لله الحمد. و هكذا خالفوا الأئمة و السلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب، و عند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق و القدم. قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء: هما الناتئان، و هما مجمع مفصل الساق و القدم، هذا لفظه. فعند الأئمة رحمهم الله في كل قدم كعبان، كما هو المعروف عند الناس، و كما دلت عليه السنة ففي الصحيحين: عن عثمان: أنه توضأ فَغَسل رجله اليمنى إلى الكعبين، و اليسرى مثل ذلك.

و روى البخاري تعليقاً مجزوماً به و أبو داود و ابن خزيمة في صحيحه: عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «أقيموا صفوفكم ـ ثلاثاً ـ و اللهِ لَتُقيمُنَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ اللهُ بين قلوبكم» قال: فرأيت الرجل يُلْزِق كعبه بكعب صاحبه، و ركبتيه بركبة صاحبه، و منكبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة.

فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه، إلا و المراد: العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرنا من أنهما العظمان الناتئان، عند مفصل الساق و القدم، كما هو مذهب أهل السنة.

و قوله تعالى: **﴿و إن كنتُم مَّرضَى أو علَى سفرٍ أوْ جاءَ أحدٌ مِّنكُم مِّن الغائطِ أو لاَمَستُم النساءَ فلَمْ تجدُوا ماءً فتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيِّباً فامسَحُوا بوُجوهِكُمْ و أيدِيكُم مِّنْهُ﴾** كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام. و قد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى ههنا حديث خاصاً بهذه الآية الكريمة، عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء و نحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ و نَزلَ فثَنَى رأسه في حِجْري راقداً، فأقبل أبو بكر فَلَكَزَني لكزة شديدة، و قال: حبستِ الناس في قلادة! فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني، و قد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ و حضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: **﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا إذا قُمتمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ﴾** إلى آخر الآية، فقال أُسيد بن الحُضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

و قوله تعالى: **﴿ما يُريدُ اللهُ ليَجعلَ عليَكُم مِّنْ حَرجٍ﴾** أي: فلهذا سَهَّل عليكم و لم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، و عند فقد الماء، توسعةً عليكم و رحمة بكم، و جعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء، إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه، و كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير.

و قوله تعالى: **﴿وَ لكِن يُريدُ ليُطهِّركُمْ وَ ليُتِمَّ نِعمتَهُ عليَكُمْ لَعلَّكُمْ تشكُرونَ﴾** أي: لعلكم تشكرون نِعَمَه

عليكم، فيما شرعه لكم من التوسعة و الرأفة و الرحمة و التسهيل و السماحة.

و قد وردت السُّنَّة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد و مسلم و أهل السنن: عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فرَوَّحتها بعشي، فأدركت رسول الله قائماً يحدث الناس، فأدركتُ من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيُحْسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه و وجهه، إلا وجبت له الجنة» قال: قلت: ما أجودَ هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه، فقال: إني قد رأيتك جئت آنفاً قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيُبلغ أو فيُسبغ الوضوء يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمداً عبده و رسوله، إلا فُتِحَت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» لفظ مسلم.

و عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خَرَج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» رواه مسلم. و روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «الطُّهور شَطْرُ الإيمان...». و في صحيح مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَقبلُ الله صَدقةً من غُلول، و لا صلاة بغير طهور».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

٧- يقول تعالى مُذكِّراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، و إرساله إليهم هذا الرسول الكريم، و ما أَخَذَ عليهم من العهد و الميثاق في مبايعته على متابعته و مناصرته و مؤازرته، و القيام بدينه وإبلاغه عنه و قبوله منه فقال تعالى: **﴿و اذكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عليكُم و ميثاقهُ الذي واثقكُم بهِ إذ قُلتُم سمِعنا وأطَعنا﴾** و هذه هي البيعة التي كانوا يُبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا و مكرهنا، و أَثَرة علينا، و أن لا نُنازعَ الأمر أهله. و قال الله تعالى: **﴿و ما لكُمْ لا تؤمِنونَ باللهِ وَ الرَّسولُ يَدعُوكُمْ لِتؤمِنُوا بِرَبِّكُمْ و قَدْ أخذَ مِيثاقكُمْ إن كنتُم مُّؤمنينَ﴾** و قيل: هذا تذكارٌ لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق و العهود، في متابعته محمد ﷺ و الانقياد لشرعه. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. و قيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صُلبه، وأشهدهم على أنفسهم **﴿ألستُ بِرَبِّكمْ قالُوا بلَى شهِدنَا﴾** قاله مجاهد و مقاتل بن حيان. و القول الأول أظهر،

و هو المحكي عن ابن عباس و السدي، و اختاره ابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿و اتَّقُوا اللهَ﴾ تأكيدٌ و تحريضٌ على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أعلمهم أنه يعلم ما يَتَخالج في الضمائر من الأسرار و الخواطر، فقال: ﴿إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدور﴾.

٨- و قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كونُوا قوّامينَ للهِ﴾ أي: كونوا قوامين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسُّمعة، و كونوا ﴿شُهداءَ بالقِسطِ﴾ أي بالعدل لا بالجور. و قد ثبت في الصحيحين: عن النعمان بن بشير أنه قال: نَحلَني أبي نِحْلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليُشهده على صدقتي، فقال: «أكلَّ ولدك نحلتَ مثله؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله و اعدلوا في أولادكم ـ و قال ـ إني لا أشهد على جَور» قال: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ يَجرِمَنَّكمْ شَنَآنُ قومٍ علَى أن لاَّ تعدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، و لهذا قال: ﴿اعدِلُوا هُو أقربُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. و قوله: ﴿هُو أقربُ لِلتَّقْوَى﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أصحابُ الجَنَّةِ يومئِذٍ خيرٌ مُّستقرّاً و أحْسَنُ مَقيلاً﴾ و كقول بعض الصحابيات لعمر: أنت أفظُّ و أغلظ من رسول الله ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿و اتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تَعمَلُونَ﴾ أي: و سيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إنْ خيراً فخير و إنْ شراً فشر.

٩- و لهذا قال بعده: ﴿وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا وَ عَمِلوا الصَّالحاتِ لَهُم مَّغفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿و أجرٌ عَظيمٌ﴾ و هو الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه و فضل، و إنْ كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، و هو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته و فضله و عفوه ورضوانه، فالكلُّ منه وله، فله الحمد و المنة.

١٠- ثم قال: ﴿و الذينَ كفرُوا و كذَّبُوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ الجَحيمِ﴾ و هذا من عدله تعالى، وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير.

١١- و قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اذكرُوا نعمَةَ اللهِ عليكُمْ إذْ هَمَّ قومٌ أن يَبسُطُوا إليكُمْ أيدِيَهُمْ فكفَّ أيدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ روى عبد الرزاق: عن جابر: أن النبي ﷺ نَزلَ منزلاً، و تفرَّق الناس في العضاه يستظلون تحتها، و علّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلَّه، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: مَنْ يمنعك مني؟ قال: «الله عز وجل» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله» قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، و هو جالس إلى جنبه و لم يعاقبه. وقصة هذا الأعرابي و هو غورث بن الحرث ثابتة في الصحيح. و قال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يغدروا بمحمد و أصحابه في دار كعب بن الأشرف رواه ابن أبي حاتم..

و ذكر محمد بن إسحاق بن يسار و مجاهد و عكرمة و غير واحد: أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين و وكّلوا عمرو بن

جحش بن كعب بذلك، وأمروه إنْ جلس النبيﷺ تحت الجدار، و اجتمعوا عنده، أنْ يُلقى تلك الرَّحى من فوقه، فأطْلعَ الله النبيﷺ على ما تمالؤا عليه، فرجع إلى المدينة و تبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية.

و قوله تعالى: **﴿و علَى اللهِ فليتَوكَّلِ المُؤمنُونَ﴾** يعني مَنْ توكَّل على الله كفاه الله ما أهمه، و حفظه من شر الناس و عصمه. ثم أمر رسول اللهﷺ أن يغدو إليهم، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾

١٢- لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده و ميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده و رسوله محمدﷺ، و أمرهم بالقيام بالحق و الشهادة بالعدل، و ذكَّرهم نِعَمَه عليهم الظاهرة و الباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شَرعَ يبين لهم كيف أخذ العهود و المواثيق على من كان قبلهم، من أهل الكتابين اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده و مواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، و طرداً عن بابه و جنابه، و حجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى و دين الحق، و هو العلم النافع و العمل الصالح، فقال تعالى: **﴿و لقَدْ أخذَ اللهُ ميثَاقَ بني إسرَائيلَ وبَعثْنا مِنهُم اثنَيْ عشَرَ نَقيباً﴾** يعني: عُرفاء على قبائلهم بالمبايعة و السمع و الطاعة لله و لرسوله و لكتابه.

و قد ذكر ابن عباس و ابن إسحاق و غير واحد: أن هذا كان لما توجه موسىﷺ لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم نقباء، من كل سبط نقيب. و هكذا لما بايع رسول اللهﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس، و هم: أسيد بن الحضير و سعد بن خيثمة و رفاعة بن عبد المنذر، و يقال بدله: أبو الهيثم ابن التيهانرضي الله عنه، و تسعة من الخزرج، و هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة و سعد بن الربيع و عبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان و البراء بن معرور و عبادة بن الصامت و سعد بن عبادة و عبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمرو بن حنيش رضي الله عنهم. و قد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له، كما أورده ابن إسحاق رحمه الله. و المقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ، عن أمر النبيﷺ لهم بذلك، و هم الذين وَلُوا المعاقدة و المبايعة، عن قومهم للنبيﷺ على السمع و الطاعة.

و في الصحيحين: من حديث جابر بن سمرة قال: سمعت النبيﷺ يقول: «لا يزال أمرُ الناس ماضياً، ما وَلِيهم اثنا عشرَ رَجلاً» ثم تكلم النبيﷺ بكلمةٍ خَفيتْ عليّ، فسألت أبي: ماذا قال النبيﷺ؟ قال: كلهم من

قريش. و هذا لفظ مسلم.

و معنى هذا الحديث: البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحاً، يُقيم الحق و يعدل فيهم، و لا يلزم من هذا تواليهم و تتابع أيامهم، بل قد وُجد منهم أربعة على نَسق، و هم: الخلفاء الأربعة أبو بكر و عمر و عثمان وعلي رضي الله عنهم، و منهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، و بعض بني العباس، و لا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة. و الظاهر أن منهم المهدي، المُبشَّر في الأحاديث الواردة بذكره، فذكر أنه يُواطئ اسمُه اسم النبيﷺ، و اسم أبيه اسم أبيه، فيملأ الأرض عدلاً و قسطاً، كما مُلِئتْ جوراً و ظلماً.

و ليس هذا بالمنتظر الذي تتوهَّم الرافضة وجوده، ثم ظهوره من سرداب سامراً، فإن ذلك ليس له حقيقة، ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة، و توهم الخيالات الضعيفة. و ليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر: الأئمة الاثنى عشر، الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم و قلة عقلهم.

و في التوراة البشارة بإسماعيل عليﷺ وأن الله يقيم من صلبه اثنى عشر عظيماً، و هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث سمرة، و بعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة، يُوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثيرٌ منهم جهلاً و سفهاً، لقلة علمهم، و علم من لقَّنهم ذلك، بالسنن الثابتة عن النبيﷺ.

و قوله تعالى: **﴿و قَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾** أي: بحفظي و كلاءتي و نصري **﴿لَئِنْ أَقَمْتُم الصَّلاةَ و آتَيْتُم الزَّكَاةَ وآمَنتُم بِرُسُلِي﴾** أي: صدّقتموهم فيما يجيؤنكم به من الوحي **﴿و عزرتموهم﴾** أي: نصرتموهم ووازرتموهم على الحق **﴿و أَقْرَضْتُم اللهَ قَرضاً حَسَناً﴾** و هو الانفاق في سبيله و ابتغاء مرضاته **﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾** أي ذنوبكم أمحوها و أسترها، لا أؤاخذكم بها **﴿و لأُدخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأَنهارُ﴾** أي: أدفع عنكم المحذور و أحصل لكم المقصود. و قوله: **﴿فَمَن كَفَرَ بَعدَ ذَلكَ مِنكُمْ فَقدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلَ﴾** أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده و توكيده و شدّه، و جحده و عامله معاملة من لا يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، و عدل عن الهدى إلى الضلال.

١٣- ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه، و نقضهم عهده، فقال: **﴿فَبِمَا نَقضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾** أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أُخذ عليهم، لعناهم، أي: أبعدناهم عن الحق، وطردناهم عن الهدى **﴿وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قاسِيةً﴾** أي: فلا يتّعظون بموعظة لغلظها و قساوتها **﴿يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾** أي: فسدت فُهومهم، و ساء تصرفهم في آيات الله، و تأوّلوا كتابه على غير ما أنزله، و حملوه على غير مراده، و قالوا عليه ما لم يقل، عياذاً بالله من ذلك **﴿و نَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾** أي: و تركوا العمل به رغبة عنه. و قال الحسن: تركوا عُرَى دينهم، و وظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. و قال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، و لا فطر مستقيمة، و لا أعمال قويمة. **﴿و لا تزالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائنةٍ مِّنهُمْ﴾** يعني: مكرهم و غدرهم لك و لأصحابك. وقال مجاهد و غيره: يعني بذلك: تمالؤهم على الفتك برسول اللهﷺ. **﴿فاعْفُ عنهُمْ وَ اصْفَحْ﴾** و هذا هو عين النصر و الظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملتَ مَن عصى الله فيك، بمثل أنْ تُطيع الله فيه. و بهذا يحصل لهم تأليفٌ و جمع على الحق،

و لعل الله أن يهديهم ، و لهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحسنينَ﴾ يعني به : الصفح عمن أساء إليك . و قال قتادة : هذه الآية ﴿فاعْفُ عنهُمْ وَ اصْفحْ﴾ منسوخةٌ بقوله ﴿قاتِلُوا الذينَ لا يُؤمنونَ باللهِ و لا باليَومِ الآخِرِ﴾ الآية .

١٤- و قوله تعالى : ﴿و مِنَ الذينَ قالُوا إِنَّا نصَارَى أخَذْنا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي : و من الذين ادّعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريمعليه السلام ، ليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود و المواثيق على متابعة الرسولﷺ ، ومناصرته و موازرته ، و اقتفاء آثاره ، و على الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق و نقضوا العهود . و لهذا قال تعالى : ﴿فنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّروا به فأَغْرينا بينهم العداوةِ والبَغضاءِ إِلَى يومِ القِيامةِ﴾ أي : فألقينا بينهم العداوة و البغضاء لبعضهم بعضاً ، و لا يزالون كذلك إلى قيام الساعة .

ولذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين ، يُكفِّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فرقة تُحَرِّم الأخرى و لا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفر اليعقوبية ، و كذلك الآخرون ، و كذلك النسطورية و الآريوسية ، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا و يوم يقوم الأشهاد .

ثم قال : ﴿وسوفَ يُنَبِّئهُم اللهُ بما كانُوا يَصنعُونَ﴾ و هذا تهديد و وعيدٌ أكيد للنصارى ، على ما ارتكبوه من الكذب على الله و رسوله ، و ما نسبوه إلى الرب عز وجل و تعالى و تقدّس عن قولهم علواً كبيراً ، مِنْ جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفواً أحد .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، أنه قد أرسل رسوله محمداًﷺ بالهدى و دين الحق ، إلى جميع أهل الأرض عربهم و عجمهم ، أميهم و كتابيهم ، و أنه بعثه بالبينات ، و الفرق بين الحق و الباطل ، فقال : ﴿يَا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لكمْ كثيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخفونَ مِن الكِتابِ و يَعفُو عَن كَثيرٍ﴾ أي : يبين ما بدّلوه وحرّفوه و أوّلوه ، و افتروا على الله فيه ، و يَسكت عن كثير مما غيروه و لا فائدة في بيانه .

و قد روى الحاكم عن ابن عباسرضي الله عنهما قال : مَن كفر بالرجم ، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب ، قوله : ﴿يَا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لكمْ كثيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخفونَ مِن الكِتابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه . ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

١٦- ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال : ﴿قَدْ جاءَكُم مِّنَ اللهِ نورٌ وَكتابٌ مُّبينٌ ۞ يَهدِي بِهِ اللهُ مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ أي : طرق النجاة و السلامة و مناهج الاستقامة ﴿ويُخرِجُهُم مِّن الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ بإِذْنِهِ وَ يهدِيهِمْ إِلَى صِراطٍ مُّستقيمٍ﴾ أي : يُنجيهم من المهالك ، و يوضح لهم أبين المسالك ، فيصرف عنهم المحذور ، و يحصل لهم أحب الأمور ، و ينفي عنهم الضلالة ، و يرشدهم إلى أقوم

حالة .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

١٧ - يقول تعالى مخبراً و حاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم ، و هو عبدٌ من عباد الله وخلق من خلقه ، أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء ، وكونها تحت قهره و سلطانه **﴿قُلْ فَمَن يَملِكُ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أرادَ أن يُهلِكَ المَسيحَ ابنَ مريمَ وَ مَن في الأرضِ جَميعاً﴾** أي : لو أراد ذلك ، فمن الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك .

ثم قال : **﴿و للهِ مُلكُ السَّمواتِ و الأرضِ و مَا بينَهُمَا يَخلُقُ ما يَشاءُ﴾** أي : جميع الموجودات ملكه وخلقه ، و هو القادر على ما يشاء ، لا يُسئل عما يفعل بقدرته و سلطانه ، و عدله و عظمته . و هذا ردٌّ على النصارى ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

١٨ - ثم قال تعالى رداً على اليهود و النصارى في كذبهم و افترائهم **﴿و قالَتِ اليهودُ و النَّصارَى نحنُ أبناءُ اللهِ و أحِبَّاؤُهُ﴾** أي : نحن منتسبون إلى أنبيائه و هم بنوه ، و له بهم عناية ، و هو يحبنا . و نقلوا عن كتابهم : أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل : أنت ابني بكري . فحملوا هذا على غير تأويله و حرفوه . و قد ردّ عليهم غيرُ واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم و قالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف و الإكرام ، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي و أبيكم ، يعني ربي و ربكم . و معلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوّة ما ادّعوها في عيسىﷺ ، و إنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه ، و حظوتهم عنده ، و لهذا قالوا **﴿نحنُ أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤهُ﴾** .

قال الله تعالى راداً عليهم **﴿قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكم بِذُنوبِكُم﴾** أي لو كنتم كما تَدّعون أبناؤه و أحباؤه ، فلم أعددتُ لكم نار جهنم على كفركم و كذبكم و افترائكم؟ و قد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن ، أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفية هذه الآية **﴿قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكم بِذُنوبِكُم﴾** .

و هذا الذي قاله حسن ، و له شاهد في المسند للإمام أحمد حديث روى عن أنس قال : مر النبيﷺ في نفر من أصحابه ، و صبيٌّ في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ ، فأقبلت تسعى و تقول : ابني ابني ، و سمعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار؟ قال : فخفّضهم النبيﷺ فقال : «و لا الله ما يُلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد .

﴿بَلْ أنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي : لكم أسوة أمثالكم من بني آدم ، و هو سبحانه الحاكم في جميع عباده

﴿يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء﴾ أي: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه و هو سريع الحساب **﴿و لله ملك السموات و الأرض و ما بينهما﴾** أي: الجميع ملكه وتحت قهره و سلطانه **﴿و إليه المصير﴾** أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده ما يشاء، و هو العادل الذي لا يجور. و رُوي عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء و بحري بن عمرو وشاس بن عدي، فكلموه و كلمهم رسول الله ﷺ، و دعاهم إلى الله، و حذّرهم نقمته. فقالوا: ما تخوفنا يا محمد! نحن و الله أبناء الله و أحباؤه، كقول النصارى فأنزل الله فيهم **﴿و قالت اليهود و النصارى نحن أبناء الله و أحباؤه﴾** إلى آخر الآية. رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) ﴾

١٩- يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود و النصارى، بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده و لا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال **﴿على فترة من الرسل﴾**، أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله و عيسى ابن مريم. و قد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي و قتادة في رواية عنه: كانت ستمائة سنة. و رواه البخاري: عن سلمان الفارسي. و عن قتادة: خمسمائة و ستون سنة. والمشهور هو القول الأول، و هو أنها ستمائة سنة. و منهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، و الآخر أراد قمرية و بين كل مائة سنة شمسية و بين القمرية نحو من ثلاث سنين، و لهذا قال تعالى تعالى في قصة أهل الكهف **﴿و لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين و ازدادوا تسعاً﴾** أي قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية، التي كانت معلومة لأهل الكتاب. و كانت الفترة بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل، و بين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أولى الناس بابن مريم لأنا، ليس بيني و بينه نبيٌّ». و هذا فيه ردٌّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يُقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي و غيره.

و المقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرسل، و طموس من السُّبل، و تغير الأديان، و كثرة عبادة الأوثان و النيران و الصلبان. فكانت النعمة به أتم النعم، و الحاجة إليه أمر عمَم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، و الطغيان و الجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود و عباد النصارى و الصابئين، كما روى الإمام أحمد: عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خطَب ذات يوم فقال في خطبته: «و إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم مما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبادي حلال، و إني خلقت عبادي حُنَفاء كلَّهم، و إن الشياطين أتتهم فأضلَّتهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أحللت لهم، و أمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نَظَر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم و عجمهم، إلا بقايا من بني إسرائيل، و قال: إنما بعثتُك لأَبتليكَ و أبتلي بك، و أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً و يقظاناً، ثم إن الله أمرني أنْ أُحرق قريشاً، فقلت: يا رب إذ يَثْلَغوا رأسي فيدعوه خبزةً، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، و اغزهم نُغْزِك،

وأنفق عليهم فسننفق عليك، و ابعث جيشاً نَبعَث خمساً أمثاله، و قاتل بمن أطاعك من عصاك...»، ورواه مسلم و النسائي.

و المقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «و إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم و عربهم إلا بقايا من بني إسرائيل» و في لفظ مسلم «من أهل الكتاب» فكان الدِّين قد التبسَ على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى الخلائق، و أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، و تركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، و لهذا قال تعالى: ﴿أن تقُولُوا مَا جاءَنا مِن بَشيرٍ و لاَ نذيرٍ﴾ أي: لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدّلوا دينهم و غيروه: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير، و ينذر من الشر، فقد جاءكم بشير و نذير، يعني محمداً ﷺ ﴿و اللهُ علَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، و ثواب من أطاعني.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن عبده و رسوله و كليمه موسى بن عمران ﷺ، فيما ذكّر به قومه نعم الله عليهم، وآلائه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا و الآخرة، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿و إذ قالَ موسَى لِقومِهِ يا قومِ اذكرُوا نعمَةَ اللهِ عليكُمْ إذ جعلَ فيكُمْ أنبياءَ﴾ أي كلما هلك نبيٌّ قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، و كذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله، و يحذرون نقمته، حتى خُتِموا بعيسى ابن مريم ﷺ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء و الرسل على الإطلاق: محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، و هو أشرف من كل مَنْ تقدّمه منهم ﷺ.

﴿و جعلَكُم مُّلوكاً﴾ روى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿و جعلَكُم مُّلوكاً﴾ قال: الخادم و المرأة و البيت. و رواه الحاكم عن ابن عباس قال: المرأة و الخادم، ﴿و آتاكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أحَداً مِّن العالَمينَ﴾ قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. و روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو بن العاص و سأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. و قال الحسن البصري: هل المُلك إلا مركب و خادم و دار. رواه ابن جرير،

ثم روى عن الحكم و مجاهد و منصور و سفيان الثوري نحواً من هذا ، و قد ورد في الحديث «مَنْ أصبحَ منكم مُعافى في جسده ، آمناً في سِرْبه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»(١) .

و قوله : ﴿و آتاكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أحَداً مِّن العالَمينَ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان و القبط و سائر أصناف بني آدم ، كما قال : ﴿و لقدْ آتينَا بَنِي إسرائيلَ الكتابَ و الحُكْمَ والنُّبوَّةَ ورَزقنَاهُم مِّنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ علَى العَالمينَ﴾ و قال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴿قالَ إنَّكُمْ قومٌ تَجهَلُونَ * إنَّ هؤلاءِ مُتبَّرٌ مَّا هُمْ فيهِ و باطِلٌ مَّا كانوا يَعمَلونَ * قالَ أغيرَ اللهِ أبغيكُمْ إلهاً وهُوَ فَضَّلكُمْ علَى العَالمينَ﴾ و المقصود أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم ، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم و أفضل عند الله ، و أكمل شريعةً ، و أقوم منهاجاً ، و أكرم نبياً ، و أعظم مُلكاً ، و أغزر أرزاقاً ، و أكثر أموالاً و أولاداً ، وأوسع مملكة ، و أدوم عزاً ، قال الله تعالى : ﴿و كذلكَ جعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتكُونُوا شُهَداءَ علَى النَّاسِ﴾ .

و قد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة ، و شرفها و كرمها عند الله ، عند قوله تعالى : ﴿كُنتمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران . و قيل : المراد : ﴿و آتاكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أحَداً مِّن العالَمينَ﴾ يعني بذلك ما كان تعالى نَزَّله عليهم من المَنِّ و السلوى ، و يظللهم به من الغمام ، و غير ذلك ما كان تعالى يخصهم من خوارق العادات ، فالله أعلم .

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد ، و الدخول إلى بيت المقدس ، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو و بنوه و أهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها و تملكوها ، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها و بقتال أعدائهم ، و بشرهم بالنصرة و الظفر عليهم ، فنكلوا وعصوا و خالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيه ، و التمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد ، مدة أربعين سنة ، عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى .

٢١ ، ٢٢- فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال : ﴿يا قَومِ ادخلُوا الأرضَ المُقدَّسةَ﴾ أي : المطهرة . وقال ابن عباس قال : هي الطور و ما حوله . و كذا قال مجاهد و غير واحد .

و قوله تعالى : ﴿التِي كتبَ اللهُ لَكُمْ﴾ أي : التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل : أنه وراثة من آمن منكم ﴿و لا ترتدوا على أدباركم﴾ أي : و لا تنكلوا عن الجهاد ﴿فَتنقَلِبُوا خاسِرينَ * قالُوا يا مُوسَى إنَّ فيهَا قَوماً جبَّارينَ و إنَّا لَن نَّدخُلَها حتَّى يَخرُجُوا مِنها فإن يَخرُجُوا مِنها فإنَّا داخِلونَ﴾ أي : اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها ، و قتال أهلها قوماً جبارين ، أي : ذوي خلقٍ هائلةٍ و قوى شديدةٍ ، و إننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ، و لا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها ، فإنْ يخرجوا منها دخلنا و إلا فلا طاقة لنا بهم .

و قد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خَلْق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ، و أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع و ثلاثمائة و ثلاثة و ثلاثون ذراعاً ، و ثلث ذراع تحرير الحساب ! و هذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ

---

(١) حديث حسن ، رواه الترمذي (٢٤٦٣) و ابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه .

قال: «إنَّ الله خَلَقَ آدم و طوله ستون ذراعاً، ثم لم يَزَلْ الخَلْق ينقص حتى الآن». ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، و أنه كان ولد زنية، و أنه امتنع من ركوب سفينة نوح و أن الطوفان لم يصل إلى ركبته! و هذا كذب و افتراء، فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّاراً﴾ و قال تعالى: ﴿فأنجَيناهُ و مَن مَّعهُ في الفُلكِ المَشحونِ ۞ ثُمَّ أغرَقنا بَعدُ الباقينَ﴾ و قال تعالى: ﴿لاَ عاصِمَ اليومَ مِنْ أمْرِ اللهِ إلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ و إذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق و هو كافر و ولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل و لا شرع، ثم في وجود رجل يقال له: عوج بن عنق نظر، و الله أعلم.

٢٣- و قوله تعالى: ﴿قالَ رَجُلانِ مِنَ الذينَ يَخافونَ أنعمَ اللهُ عليهِما﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله و متابعة رسول الله موسى ﷺ، حَرَّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، و هما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، و قرأ بعضهم ﴿قالَ رجُلانِ مِنَ الذِينَ يُخَافونَ﴾ أي: ممن لهما مهابةٌ و موضع من الناس. ويقال إنهما: يوشع بن نون و كالب بن يوفنا. قاله ابن عباس و مجاهد و عكرمة و عطية و السدي و الربيع بن أنس وغير واحد من السلف و الخلف رحمهم الله، فقالا: ﴿ادخُلوا علَيهِم البابَ فإذا دخَلتمُوهُ فإنَّكمْ غالِبونَ ۞ وعلَى اللهِ فتوكَّلُوا إن كُنتُم مُّومنينَ﴾ أي: إن توكلتم على الله، و اتبعتم أمره و وافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم، و أيدكم و ظفركم بهم، و دخلتم البلد التي كتبها لكم. فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً.

٢٤- ﴿قالُوا يا مُوسَى إنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فاذهَبْ أنتَ و ربُّكَ فقاتِلا إنَّا ههُنَا قاعِدونَ﴾ و هذا نكول منهم عن الجهاد و مخالفة لرسولهم، و تخلف عن مقاتلة الأعداء، و يقال: إنهم لما نكلوا عن الجهاد، وعزموا على الانصراف و الرجوع إلى مصر، سجد موسى و هارون عليهما السلام قدّام ملأ من بني إسرائيل، إعظاماً لما هَمُّوا به، و شق يوشع بن نون و كالب بن يوفنا ثيابهما، و لاَمَا قومهما على ذلك. فيقال: إنهم رجموهما، و جرى أمر عظيمٌ، و خطر جليل.

و ما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم، يوم بدر رسولَ الله ﷺ، حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤا لمنع العير، الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، و اقترب منهم النفير، و هم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدّة و البيض و اليَلب، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلّم من تكلّم من الصحابة من المهاجرين و رسول الله ﷺ يقول: «أشيروا علي أيها المسلمون» و ما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، و ما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد و نشَّطه ذلك. و روى أبو بكر بن مردويه: عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسولُ الله ﷺ، قالوا: إذاً لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اذهَبْ أنتَ و ربُّكَ فقاتِلا إنَّا ههُنَا قاعِدونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك، و رواه الإمام أحمد والنسائي و ابن حبان.

وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه، كما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليَّ مما عدل به ، أتى رسول الله ﷺ و هو يدعو على المشركين فقال : والله يا رسول الله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿**اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا إنَّا ههُنا قاعِدونَ**﴾ و لكنا نقاتل عن يمينك و عن يسارك ، و من بين يديك و من خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك و سُرَّ بذلك . و هكذا رواه البخاري .

٢٥- و قوله : ﴿**قالَ ربِّ إنّي لا أملِكُ إلاّ نفسي وَ أخي فافرُقْ بينَنا و بينَ القومِ الفاسِقينَ**﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال ، غضب عليهم موسى عليه السلام . و قال داعياً عليهم : ﴿**ربِّ إنّي لا أملِكُ إلاّ نفسي**﴾ أي : ليس أحدٌ يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ، و يجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا و أخي هارون ﴿**فافرُقْ بينَنا و بينَ القومِ الفاسِقينَ**﴾ عن ابن عباس : يعني اقض بيني و بينهم . كذا رواه علي بن أبي طلحة ، و قال غيره : افرق : افصل بيننا و بينهم .

٢٦- و قوله تعالى : ﴿**فإنّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ أربعينَ سنةً يَتيهُونَ في الأرضِ**﴾ الآية . لما دعا موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد ، حَكَم الله بتحريم دخولها عليهم قدرَ مدة أربعين سنة ، فوقعوا في التِّيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه . و فيه كانت أمورٌ عجيبة ، و خوارق كثيرة ، من تظليلهم بالغمام ، و إنزال المنّ و السلوى عليهم ، و من إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تُحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه ، انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشر عيناً تجري لكل شعب عين ، و غير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة ، و شرعت لهم الأحكام ، و عملت قبة العهد ، و يقال لها : قبة الزمان .

عن سعيد بن جبير سألت ابن عباس عن قوله : ﴿**فإنّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ أربعينَ سنةً يَتيهُونَ في الأرضِ**﴾ الآية . قال : فتاهوا في الأرض أربعين سنة ، يُصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه و أنزل عليهم المن والسلوى . و هذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، و أقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، و مات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، و يقال : إنه لم يبق منه أحد سوى يوشع و كالب ، و من ههنا قال بعض المفسرين في قوله : ﴿**قالَ فإنّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ**﴾ هذا وقفٌ تام ، و قوله : ﴿**أربعينَ سنةً**﴾ منصوب بقوله ﴿**يَتيهُونَ في الأرضِ**﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام ، أو بمن بقي منهم و بسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب ، و خشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورةٌ و أنا مأمور ، اللهم احبسها علي ، فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، و أمر الله يوشع بن نون ، أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس ، أن يدخلوا بابها سجداً ، و هم يقولون : حِطَّةٌ ، أي : حُطَّ عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أُمروا به ، و دخلوا يزحفون على أستاهم ، وَهم يقولون : حبَّةٌ في شعرة ، و قد تقدم هذا كله في سورة البقرة .

و قد اختار ابن جرير أن قوله : ﴿**فإنّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ**﴾ هو للعامل في أربعين سنة ، و أنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة ، و هم تائهون في البرية لا يهتدون لمقصد ، قال : ثم خرجوا مع موسى عليه السلام ففتح بهم بيت المقدس ، قال : و أجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى ، قال : و ما ذاك إلا

بعد التيه، لأنهم كانوا قبل التِّيه لا يخافون من موسى و قومه، هذا استدلاله.

و قوله تعالى: ﴿فلا تأسَ على القومِ الفَاسِقينَ﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم، أي: لا تأسف و لا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك. و هذه القصة تضمنت تقريع اليهود، و بيان فضائحهم ومخالفتهم لله و لرسوله، و نكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء و مجالدتهم و مقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ و كليمه و صفيه من خلقه في ذلك الزمان، و هو يعدهم بالنصر و الظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون، من العذاب و النكال و الغرق له و لجنوده في اليم و هم ينظرون، لتقر به أعينهم، و ما بالعهد من قِدَم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المِعْشار في عدّة أهلها و عددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، و افتضحوا فضيحةً لا يغطيها الليل، و لا يسترها الذيل، هذا و هم في جهلهم يعمهون، و في غيّهم يترددون، و هم البُغَضَاء إلى الله و أعداؤه، و يقولون مع ذلك نحن أبناء الله و أحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير و القرود، و ألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، و يُقضى لهم بتأبيد الخلود، و قد فعل، و له الحمد من جميع الوجود.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾

٢٧- يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي و الحسد و الظلم، في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، و هما: قابيل و هابيل، كيف عَدَا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه، و حسداً له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام، و الدخول إلى الجنة، وخاب القاتل، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقال تعالى: ﴿و اتْلُ عليهِم نبأَ ابنَيْ آدمَ بِالْحَقِّ﴾ أي: اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير و القردة، من اليهود و أمثالهم و أشباههم: خبر ابني آدم، و هما هابيل و قابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف و الخلف، و قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: على الجلية، و الأمر الذي لا لبس فيه و لا كذب و لا وهم، و لا تبديل و لا زيادة و لا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إنَّ هذَا لَهُو القَصَصُ الحقُّ﴾ و قوله تعالى: ﴿نحنُ نقُصُّ عليكَ نَبَأَهُم بِالحَقِّ﴾ و قال: ﴿ذلكَ عيسَى ابنُ مريمَ قولَ الْحقِّ﴾ و كان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف و الخلف، أن الله تعالى شَرَع لآدم عليه السلام أن يُزوّج بناته من بنيه لضرورة الحال، و لكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر و أنثى، فكان يزوّج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة و أخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثربها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يُقرّبا قرباناً

فمن تقبل منه فهي له ، فتقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه .

و روى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، و أمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، و كان يولد له في كل بطن رجل و امرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة ، و ولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحني أختك و أنكحك أختي ، فقال : لا ، أنا أحق بأختي ، فقرّبا قرباناً فتقبل من صاحب الكبش ، و لم يتقبل من صاحب الزرع ، فقتله . إسناد جيد .

و روى عن ابن عباس : قوله : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ فقرّبا قربانهما ، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض ، و صاحب الحرث بصبرة من طعامه ، فقبل الله الكبش فخزنه في الجنة أربعين خريفاً ، و هو الكبش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام . إسناد جيد .

و روى ابن جرير : عن عبد الله بن عمرو قال : إن ابني آدم اللذين قرّبا قرباناً ، فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر ، كان أحدهما صاحب حرث ، و الآخر صاحب غنم ، و أنهما أُمرا أن يقرّبا قرباناً ، و إنّ صاحب الغنم قرب أكرمَ غنمه و أسمنها و أحسنها ، طيبةً بها نفسه ، و إن صاحب الحرث قرب أشرَّ حرثه ، الكودن والزُّوان غير طيبةٍ بها نفسه ، و أن الله عز وجل تَقَبَّل قربانَ صاحب الغنم ، و لم يتقبل قربان صاحب الحرث ، وكان من قصتهما ما قَصَّ الله في كتابه ، قال : وأيم الله ، إنْ كان المقتول لأشدَّ الرجلين ، و لكن منعه التحرّج أن يبسط يده إلى أخيه .

و روى العوفي عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، إنما كان القربان يقرّبه الرجل ، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا : لو قَرَّبنا قرباناً ، و كان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله ، و إنْ لم يكن رضيه الله خَبَت النار ، فقرّبا قرباناً و كان أحدهما راعياً ، و كان الآخر حراثاً ، و إن صاحب الغنم قرب خير غنمه و أسمنها ، و قرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة ، و تركت الزرع ، و إن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس ، و قدعلموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ، و ردّ عليَّ! فلا و الله ، لا ينظر الناس إليَّ و أنت خير مني ، فقال : لأقتلنك ، فقال له أخوه : ما ذنبي ، إنما يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير .

فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ، و لا عن تدارئ في امرأة ، كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، و هو ظاهر القرآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسياق يقتضي : إنه إنما غضب عليه و حسده بقبول قربانه دونه ، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرّب الشاة هو هابيل ، و أن الذي قرب الطعام هو قابيل ، و أنه تقبل من هابيل شاته ، حتى قال ابن عباس وغيره : إنها الكبش الذي فدى به الذبيح ، و هو مناسب ، و الله أعلم ، و لم يتقبل من قابيل .

كذلك نص عليه غير واحد من السلف و الخلف ، و هو المشهور عن مجاهد أيضاً . و لكن روى ابن جرير عنه أنه قال : الذي قرب الزرع قابيل و هو المتقبل منه ، و هذا خلاف المشهور و لعله لم يحفظ عنه جيداً ، و الله أعلم .

و معنى قوله : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ممن اتقى الله في فعله ذلك . و روى ابن أبي حاتم : عن أبي الدرداء قال : لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاةً واحدةً ، أحب إلي من الدنيا و ما فيها ، إن الله يقول :

﴿إنما يتقبّلُ اللهُ مِن المُتّقِينَ﴾.

و قوله: ﴿لئِن بَسَطتَ إليَّ يدَكَ لِتَقتُلَني مَا أنَا بباسِطٍ يَدِيَ إلَيكَ لأقتُلكَ إنّي أخَافُ اللهَ ربَّ العالَمينَ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لئِن بَسَطتَ إليَّ يدَكَ لِتَقتُلَني مَا أنَا بباسِطٍ يَدِيَ إلَيكَ لأقتُلكَ﴾ أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿إنّي أخَافُ اللهَ ربَّ العالَمينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله، إنْ كان لأشد الرجلين و لكن منعه التحرج، يعني الورع.

و لهذا ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل و المقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

و روى الإمام أحمد: عن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، و القائم خيرٌ من الماشي، و الماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إنْ دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؟ فقال: «كن كابن آدم» و كذا رواه الترمذي و في الباب عن أبي هريرة و خباب بن الأرت و أبي بكر و ابن مسعود و أبي واقد و أبي موسى و خَرَشَة. و روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: ركب النبي ﷺ حماراً و أردفني خلفه، وقال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع» قال: قال الله و رسوله أعلم، قال: «تعفف» قال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصابَ الناس موتٌ شديدٌ، يكون البيت فيه بالعبد ـ يعني القبر ـ كيف تصنع؟ قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «اصبر» قال: «يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضُهم بعضاً، يعني حتى تغرقَ حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟ قال: و الله أعلم، قال: «اقعد في بيتك، و أغلق عليك بابك» قال: فإنْ لم أُترك؟ قال: «فأتِ من أنتَ منهم، فكن فيهم» قال: فآخذ سلاحي؟ قال: «إذاً تشاركهم فيما هم فيه، و لكن إذا خشيتَ أن يروعك شعاعُ السيف، فألقِ طرفَ ردائك على وجهك، كي يبوء بإثمه و إثمك» و رواه مسلم و أهل السنن سوى النسائي.

٢٩- و قوله: ﴿إنّي أُريدُ أن تَبوءَ بإثْمِي و إثمِكَ فتَكونَ مِنْ أصحابِ النارِ و ذلكَ جزاءُ الظّالمينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد و الضحاك و قتادة و السدي في قوله: ﴿إنّي أُريدُ أن تَبوءَ بإثْمِي و إثمِكَ﴾ أي: بإثم قتلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك. قاله ابن جرير. و قال آخرون: يعني بذلك إني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، و إثمك في قتلك إياي. و هذا قول وجدته عن مجاهد، و أخشى أن يكون غلطاً، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه (١).

(قلت) و قد يتوهم كثير من الناس هذا القول، و يذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» و قد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، و لكن ليس به، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قَتْل الصَّبْر لا يمر بذنب إلا محاه» و هذا بهذا لا يصح، ولو صحَّ فمعناه: إن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تُحمل على القاتل فلا، و لكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، و هو

(١) ثم ذكر الرواية عنه بمثل القول الأول.

الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصَات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإنْ نَفَدت و لم يستوفِ حقه، أُخِذَ من سيئات المقتول فطُرحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئته إلا وضعت على القاتل، و قد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، و القتل من أعظمها و أشدها و الله أعلم[1].

و أورد ابن جرير على هذا سؤالاً حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله و إثم نفسه، مع أن قتله له محرّمٌ؟ و أجاب بما حاصله: أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف عنه يده طالباً إنْ وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه. قلت: و هذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتعظ، و زجراً له لو انزجر، و لهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي و إِثْمِكَ﴾ أي: تتحمل إثمي و إثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ و ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ و قال ابن عباس: خوّفه بالنار، فلم ينته و لم ينزجر.

٣٠- و قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: فحَسَّنت و سوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه، فقتله، أي: بعد هذه الموعظة و هذا الزجر. و قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا و الآخرة، و أي خسارةٍ أعظم من هذه. و قد روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نَفسٌ ظُلماً، إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوّلَ مَنْ سَنَّ القتل» وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود.

٣١- و قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء غرابٌ إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى وَارَاه، فقال الذي قتل أخاه ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ و قال الضحاك عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة، حتى بعث الله الغرابين، فرآهما يبحثان فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فدفن أخاه.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، و كلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، و كما نطق به الحديث في قوله: «إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها، لأنه أول من سنّ القتل» و هذا ظاهرٌ جلي، ولكن روى ابن جرير عن الحسن هو البصري قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله ﴿و اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بني إسرائيل، و لم يكونا ابني آدم لصلبه، و إنما كان القربان من بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات. و هذا غريب جداً، و في إسناده نظر.

و الظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد و ابن جرير أنه: علقت ساقه بفخذه إلى يوم القيامة، و جعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت، عقوبة له و تنكيلاً به. و قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما من ذنبٍ أجدر أنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقوبته في الدنيا، مع ما يدّخرُ لصاحبه في الآخرة، من: البَغي و قطيعة الرحم»[2].

(١) و اختاره ابن جرير كما ذكره عنه.

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٩٠٢) و ابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

و قد اجتمع في فعل قابيل هذا و هذا ، فإنا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾

٣٢- يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً و عدواناً **﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** أي : شَرَعنا لهم وأعلمناهم **﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً و مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** أي : من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب و لا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس و نفس ، و من أحياها أي : حرّم قتلها و اعتقد ذلك ، فقد سَلِمَ الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، و لهذا قال : **﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** و عن أبي هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئتُ لأنصرك ، و قدطاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة ، أيسرُّك أن تقتل الناسَ جميعاً و إياي معهم؟ قلت : لا ، قال : فإنك إنْ قتلت رجلاً واحداً ، فكأنما قتلت الناس جميعاً ، فانصرفْ مأذوناً لك ، مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفتُ و لم أقاتل .

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو كما قال الله تعالى : **﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً و مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** و إحياؤها ألا يَقتل نفساً حَرَّمها الله ، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً . يعني أنه مَنْ حرّم قتلها إلا بحق ، حيي الناس منه . و هكذا قال مجاهد : **﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾** أي : كفَّ عن قتلها . وقال سعيد بن جبير : من استحلَّ دَمَ مسلم ، فكأنما استح دماء الناس جميعاً ، ومن حرَّم دم مسلم فكأنما حرَّم دماء الناس جميعاً . هذا قول ، هو الأظهر ، و قال عكرمة و العوفي عن ابن عباس : من قتل نبياً ، أو إمام عَدْل ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، و من شدّ على عضد نبي ، أو إمام عدل ، فكأنما أحيا الناس جميعاً . رواه ابن جرير . و قال مجاهدفي رواية أخرى عنه : من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ، و ذلك لأن مَن قتل النفس فله النار ، فهو كما لو قتل الناس كلهم . و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : من قتل نفساً فكأنما قتل الناس ، يعني فقد وجب عليه القصاص ، فلا فرق بين الواحد و الجماعة ، ومن أحياها أي : عفا عن قاتل وليه ، فكأنما أحيا الناس جميعاً . و حكى ذلك عن أبيه . رواه ابن جرير . و قال مجاهد في رواية : **﴿و مَنْ أَحْيَاهَا﴾** أي : أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة . و قال قتادة : عظيمٌ و اللهِ وِزْرها ، وعظيمٌ والله أجرها . و عن سليمان بن علي الربعي قال قلت للحسن : هذه الآية لنا يا أبا سعيد ، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال : أي ، و الذي لا إله غيره ، كما كانت لبني إسرائيل ، و ما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا . و قال : **﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** قال : وزراً ، **﴿و مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** قال :

أجراً.

قوله تعالى: ﴿و لقدْ جاءَتهمْ رُسُلُنا بالْبيِّناتِ﴾ أي: بالحجج و البراهين و الدلائل الواضحة ﴿ثمَّ إنَّ كثيراً مِّنهُم بَعدَ ذلِكَ في الأرضِ لَمُسرِفونَ﴾ و هذا تقريعٌ لهم و توبيخ، على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة و النضير و غيرهم من بني قينقاع، ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فَدَوا من أَسَروه، و وَدَوا من قتلوه. و قد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿و إذ أخذْنا ميثاقكُمْ لا تَسفِكونَ دِماءَكُمْ ولاَ تُخرِجونَ أنفُسَكُم مِّن دِيارِكُمْ ثُمَّ أقْرَرتُمْ و أنتُمْ تَشهَدُونَ * ثُمَّ أنتُمْ هَؤلاءِ تَقْتلُونَ أنفُسَكُمْ وَ تُخرِجونَ فَريقاً مِّنكُم مِّن دِيارِهِمْ تَظاهَرونَ عليهِم بالإثْمِ وَالعُدوانِ وَ إن يَأتوكُمْ أُسارَى تُفادُوهُمْ و هُوَ مُحَرَّمٌ عليكُمْ إخراجُهُمْ أَفَتُؤمِنونَ بِبَعضِ الْكِتابِ وَ تَكفرونَ بِبَعضٍ فَما جزاءُ مَن يَفعلُ ذلكَ مِنكُمْ إلاَّ خِزيٌ في الْحياةِ الدُّنيا وَ يومَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إلَى أشَدِّ الْعذابِ و مَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعمَلونَ﴾.

٣٣- قوله: ﴿إنَّما جَزاءُ الذينَ يُحارِبونَ اللهَ و رَسولَهُ و يَسعونَ في الأرضِ فَساداً أن يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقطَّعَ أيدِيهِمْ وَ أرجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أوْ يُنفَوْا مِنَ الأرضِ﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة و المخالفة، و هي صادقةٌ على الكفر، و على قطع الطريق، و إخافة السبيل، و كذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: أن قَرضَ الدراهم و الدنانير من الإفساد في الأرض، و قد قال الله تعالى: ﴿و إذا تَوَلَّى سَعَى في الأرضِ لِيُفسِدَ فِيها ويُهلِكَ الحَرثَ وَ النَّسْلَ وَ اللهُ لا يُحبُّ الفَسادَ﴾.

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، روى أبو داود و النسائي: من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿إنَّما جَزاءُ الذينَ يُحارِبونَ اللهَ و رَسولَهُ و يَسعونَ في الأرضِ فَساداً﴾ نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم و بين النبيﷺ عهدٌ و ميثاق، فنقضوا العهد و أفسدوا في الأرض، فخيّر الله رسوله إن شاء أن يقتل، و إن شاء أن يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف. رواه ابن جرير.

و عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت في الحرورية ﴿إنَّما جَزاءُ الذينَ يُحارِبونَ اللهَ و رَسولَهُ ويَسعونَ في الأرضِ فَساداً﴾ رواه ابن مردويه. و الصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين و غيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري و مسلم: من حديث أبي قلابة عن أنس بن مالك: أن نفراً من عُكْل ثمانية قدموا على رسول اللهﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة، و سقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول اللهﷺ ذلك، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبون من أبوالها و ألبانها» فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها و ألبانها، فصحوا، فقلتوا الراعي و طردوا الإبل، فبلغَ ذلك رسولَ اللهﷺ فبعث في آثارهم فأُدركوا، فجيء بهم فأمر بهم فقُطعت أيديهم و أرجلهم، و سُمرت أعينهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم. و في لفظ لهما: من عكل أو عُرَيْنَة. و في لفظ: و ألقوا في الحَرَّة فجعلوا يستسقون فلا يسقون. و في لفظ لمسلم: ولم يحسمهم. و عند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا و قتلوا و كفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله. و عن أنس قال إنما سمل النبيﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء. رواه مسلم. وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر و عائشة و غير واحد، و قد اعتنى الحافظ

الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جدا ، فرحمه الله وأثابه .

و قد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم : هو منسوخ بهذه الآية ، و زعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ ، كما في قوله ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ و منهم من قال : هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المُثْلة . وهذا القول فيه نظر! ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ . وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، قاله محمد بن سيرين . و فيه نظر! فإن قصته متأخرة . و في رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها ، فإنه أسلم بعد نزول المائدة ، و منهم من قال : لم يسمل النبي ﷺ أعينهم ، و إنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين . و هذا القول أيضاً فيه نظر! فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل ، و في رواية : سمر أعينهم . ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار و في السبلان على السواء ، لقوله ﴿وَيَسعَونَ في الأرضِ فَسَاداً﴾ و هذا مذهب مالك و الأوزاعي والليث بن سعد و الشافعي و أحمد بن حنبل ، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه ، حتى يدخله بيتاً فيقتله ، و يأخذ ما معه : أن هذه محاربة ، و دمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول ، و لا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل . و قال أبو حنيفة و أصحابه : لا تكون المحاربة إلا في الطرقات ، فأما في الأمصار فلا ، لأنه يلحقه الغَوْث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يُغيثه و يُعينه .

و قوله تعالى : ﴿ أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيدِيهِمْ وَ أرجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أو يُنفَوْا مِنَ الأرضِ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : مَن شَهَرَ السلاح في فئة الإسلام ، و أخاف السبيل ، ثم ظَفرَ به و قدر عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار إنْ شاء قتله و إن شاء صلبه ، و إن شاء قطع يده و رجله . و كذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد و عطاء و الحسن البصري و إبراهيم النخعي و الضحاك ، و روى ذلك كله أبو جعفر بن جرير ، وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله ، و مستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن ، كقوله في جزاء الصيد : ﴿فجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلكَ صِيَاماً﴾ و كقوله في كفارة الفدية ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ و كقوله في كفارة اليمين ﴿فَإِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية .

و قال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال ، كما روى أبو عبد الله الشافعي : عن ابن عباس : في قُطاع الطريق إذا قتلوا و أخذوا المال : قُتلوا و صلبوا ، و إذا قَتَلوا و لم يأخذوا المال : قُتلوا و لم يُصلبوا ، و إذا أخذوا المال و لم يَقْتلوا : قُطِّعت أيديهم و أرجلهم من خلاف ، و إذا أخافوا السبيل و لم يأخذوا المال : نفوا من الأرض (١) .

و قد رواه ابن أبي شيبة عن ابن عباس بنحوه ، و عن أبي مخلد و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي والحسن و قتادة والسدي و عطاء الخراساني نحو ذلك ، و هكذا قال غير واحد من السلف و الأئمة . و اختلفوا هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام و الشراب؟ أو بقتله برمح أو نحوه؟ أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً و تشديداً لغيره من المفسدين؟ و هل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل ، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك

(١) و في سنده ضعف ، لكن له طرق يتقوى بها . و هو قول غير واحد من السلف كما ترى .

كله خلاف محرّر في موضعه، و بالله الثقة و عليه التكلان.

و أما قوله تعالى: ﴿أو يُنفَوا مِن الأرضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يُطلب حتى يُقدر عليه فيقام عليه الحد، أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير: عن ابن عباس و أنس بن مالك و سعيد بن جبير و الضحاك و الربيع ابن أنس و الزهري و الليث بن سعد و مالك بن أنس. و قال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية. و قال الشعبي ينفيه ـ كما قال ابن هبيرة ـ من عمله كله. و قال عطاء الخراساني: يُنفى من جند إلى جند سنين، و لا يخرج من دار الإسلام. و كذا قال سعيد بن جبير و أبو الشعثاء و الحسن والزهري و الضحاك و مقاتل بن حيان أنه: يُنفى و لا يخرج من أرض الإسلام.

و قال آخرون: المراد بالنفي ههنا: السجن. و هو قول أبي حنيفة و أصحابه. و اختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا: أن يُخرج من بلده إلى بلد آخر فليسجن فيه.

و قوله تعالى: ﴿ذلكَ لهُمْ خِزيٌ في الدُّنيا و لَهمْ في الآخِرةِ عذابٌ عَظيمٌ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، و قطع أيديهم و أرجلهم من خلاف، و نفيهم خزيٌ لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادّخرَ الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة. و هذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت في المشركين.

فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أَخَذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، و لا نسرق، و لا نزني، و لا نقتل أولادنا، و لا يعضه بعضنا بعضاً، فمن وَفّى منكم فأجره على الله تعالى، و مَنْ أَصَاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، و مَن سَتره الله فأمره إلى الله، إن شاء عَذَّبه و إن شاء عفا عنه.

و عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنبَ ذنباً في الدنيا فعُوقب به، فالله أعدل من أن يُثَنّي عقوبته على عبده، و من أذنب ذنباً في الدنيا فَستره الله عليه و عفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيءٍ قد عفا عنه» رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن ماجه، و قال الترمذي حسن غريب، و قد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روى مرفوعاً و موقوفاً، قال: ورفعه صحيح.

و قال ابن جرير في قوله: ﴿ذلكَ لهُمْ خِزيٌ في الدُّنيا﴾ يعني: شرٌّ و عار و نكال، و ذلة و عقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿وَ لَهمْ في الآخِرةِ عذابٌ عَظيمٌ﴾ أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ـ في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا و العقوبة التي عاقبتهم بها فيها ـ ﴿عذابٌ عَظيمٌ﴾ يعني عذاب جهنم.

و قوله تعالى: ﴿إلا الذينَ تابُوا مِن قَبلِ أن تَقدِرُوا عَليهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفورٌ رَّحيمٌ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك، فظاهر، و أما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يَسقط عنهم: انحتام القتل و الصلب و قطع الرجل، و هل يَسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، و ظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، و عليه عمل الصحابة. روى ابن جرير: أن علياً الأسدي حارب و أخاف السبيل، و أصاب الدم و المال، فطلبه الأئمة و العامة فامتنع، و لم يقدروا عليه، حتى جاء تائباً، و ذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿يَا عِبادِيَ الذينَ أسرَفُوا على أنفُسِهِمْ لا تَقنَطُوا مِن رَّحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إنَّهُ هُو الغَفورُ

الرَّحِيمُ﴾ فوقف عليه، فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها، فأعادها عليه، فغمد سيفه ثم جاء تائباً، حتى قدم المدينة من السَّحر فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه فلما أسفروا عَرَفه الناس، فقاموا إليه فقال: لا سبيل لكم علي، جئت تائباً من قبل أن تقدروا علي، فقال أبو هريرة: صدق، و أخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم و هو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا علي جاء تائباً و لا سبيل عليه، و لا قتل، فترك من ذلك كله، قال: وخرج علي تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم فقرنوا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به و بهم، فغرقوا جميعاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) ﴾

٣٥- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، و هي إذا قُرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم و ترك المنهيات، و قد قال بعدها **﴿و ابْتَغُوا إليهِ الوَسِيلَةَ﴾** روى سفيان الثوري عن ابن عباس: أي القربة. و كذا قال مجاهد و أبو وائل و الحسن و قتادة و عبد الله بن كثير و السدي و ابن زيد و غير واحد، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته و العمل بما يرضيه، و قرأ ابن زيد **﴿أولئِكَ الذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾**. و هذا الذي قاله هؤلاء الأئمة، لا خلاف بين المفسرين فيه.

و الوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، و الوسيلة أيضاً عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ و داره في الجنة، و هي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، و قد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يَسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة و الفضيلة، و ابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة».

(حديث آخر) في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلَ ما يقول، ثم صلّوا علي، فإنه مَن صلى علي صلاةً، صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا إلى الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، و أرجو أنْ أكونَ أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة».

و قوله: **﴿و جاهِدوا في سبيلِهِ لَعلَّكُمْ تُفلِحونَ﴾** لما أمرهم بترك المحارم و فعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار و المشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، و التاركين للدين القويم، و رغَّبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح و السعادة العظيمة الخالدة المستمرة، التي لا تبيد و لا تحول ولا تزول، في الغُرَف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي مَن سكنها ينعم لا

يأس، ويحيى و لا يموت، لا تَبلى ثيابُه، و لا يفنى شبابه.

٢٦- ثم أخبر تعالى بما أعدَّ لأعدائه الكفار، من العذاب و النكال يوم القيامة، فقال: **﴿إنَّ الذين كفَرُوا لَوْ أنَّهُم مَّا في الأرضِ جَميعاً وَ مِثْلَهُ مَعهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عذابِ يومِ القِيامةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ﴾** أي: لو أنَّ أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، و بمثله، ليفتدى بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه، و لا محيص له و لا مناص، و لهذا قال: **﴿وَ لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ﴾** أي: موجع.

٢٧- **﴿يُريدونَ أن يَخرُجُوا مِنَ النَّارِ و ما هُم بخَارجينَ مِنهَا وَ لَهُمْ عذابٌ مُّقيمٌ﴾** كما قال تعالى: **﴿كُلَّمَا أرادُوا أنْ يَخرجُوا مِنهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾** الآية. فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شِدته و أليم مَسِّه، و لا سبيل لهم إلى ذلك، و كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردوهم إلى أسفلها **﴿و لَهمْ عذابٌ مُّقيمٌ﴾** أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، و لا محيد لهم عنها، و قد قال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بالرجل من أهل النار، فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدتَ مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقُراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبتَ، قد سألتُك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار» رواه البخاري و مسلم والنسائي.

ثم روى ابن مردويه: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «يخرجُ من النار قومٌ فيدخلون الجنة» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: **﴿يُريدون أن يَخرجُوا مِن النَّارِ و مَا هُم بخارجينَ مِنهَا﴾** قال: اتلُ أول الآية **﴿إنَّ الذينَ كفَرُوا لَوْ أنَّ لَهُم مَّا في الأرضِ جَميعاً وَ مِثْلَهُ مَعهُ لِيَفتَدُوا بِهِ﴾** الآية، ألا إنهم الذين كفروا. و قد روى الإمام أحمد و مسلم هذا الحديث من وجه آخر عن جابر، و هذا أبسط سياقاً.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾

٣٨- يقول تعالى حاكماً و آمراً بقطع السارق و السارقة. و روى الثوري أن ابن مسعود كان يقرؤها ﴿والسَّارقُ و السَّارقَةُ فاقْطَعُوا أيمَانهُمَا﴾ و هذه قراءة شاذة، و إن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. و قد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام، و زيدت شروط أخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القَسَامة و الدِّية و القراض و غير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، و زيادات هي من تمام المصالح. و قد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً، قُطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً، لعموم هذه الآية **﴿والسَّارقُ و السَّارقَةُ فاقْطَعُو أيدِيَهُمَا﴾** فلم يعتبروا نصاباً و لا حِرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة. و تمسكوا بما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارقَ يسرقُ البيضة فتُقطع يده، و يسرق الحبل فتُقطع يده».

و أما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، و إن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله: النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها، أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه، وجب القطع. و احتج في ذلك بما رواه ابن عمر أن رسول الله ﷺ «قَطعَ في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم» أخرجاه في الصحيحين، قال مالك رحمه الله: و قطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم و هو أحب ما سمعت في ذلك. و هذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك. قال أصحاب مالك: و مثل هذا الصنيع يشتهر و لم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي. و فيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية، و على اعتبار ثلاثة دراهم، خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، و الله أعلم. و ذهب الشافعي رحمه الله: إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار، أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً، و الحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «تُقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً» و لمسلم: «لا تقطع يد السارق، إلا في ربع دينارفصاعداً». قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة، و نص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه، قالوا: و حديث ثمن المجن، و أنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا، لأنه إذْ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق. و يروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، و به يقول عمر بن عبد العزيز و الليث بن سعد و الأوزاعي و الشافعي وأصحابه، و إسحاق بن راهويه في رواية عنه و أبو ثور و داود بن علي الظاهري رحمهم الله.

و ذهب الإمام أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه في رواية عنه: إلى أن كلَّ واحد من ربع الدينار، والثلاثة دراهم، مردٌ شرعي فمن سَرَق واحداً منهما، أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر، و بحديث عائشة رضي الله عنهما، و وقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اقطعوا في ربع دينار و لا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» و كان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، و الدينار اثني عشر درهماً. وفي لفظ للنسائي «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن» قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار. فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، و الله أعلم.

و قد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية، من حديث أبي هريرة «يسرق البيضة فتقطع يده، و يسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة: (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة. و في هذا نظر! لأنه لا بد من بيان التاريخ. (والثاني) أنه مؤول ببيضة الحديد، و حبل السفن. قاله الأعمش فيما حكاه البخاري و غيره عنه. (والثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة، من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده. و يحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل و الكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة، في الأشياء المهينة. و قد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء، في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، و نظم في ذلك شعراً دل على جهله، و قلة عقله. و قد أجاب الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال: لما كانت أمينة، كانت ثمينة، و لما خانت هانت، و منهم من قال: هذا من تمام الحكمة و المصلحة و أسرار الشريعة العظيمة، فإن

في باب الجنايات ناسب أن تُعَظَّم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يُجنى عليها، و في باب السرقة، ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لئلا يُسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب.

ولهذا قال: ﴿جزاءً بما كسبا نكالاً مّنَ اللهِ و اللهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾ أي: مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نكالاً مّنَ اللهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿و اللهُ عزيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حكيمٌ﴾ أي: في أمره و نهيه و شرعه و قدره.

ثم قال تعالى: ﴿فمَن تابَ مِن بَعدِ ظُلْمِهِ و أصْلحَ فإنَّ اللهَ يَتُوبُ عليهِ إنَّ اللهَ غفورٌ رَّحيمٌ﴾ أي: من تاب بعد سرقته و أناب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه و بينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردِّها إليهم، أو بَدَلها، عند الجمهور. وقال أبو حنيفة متى قطع و قد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها.

و في الصحيحين: عن عائشة أن قريشاً أهمَّهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبيﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: مَنْ يكلم فيها رسول اللهﷺ؟ فقالوا: و مَنْ يَجترئُ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول اللهﷺ، فأتى بها رسول اللهﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجهُ رسول اللهﷺ فقال: «أتشفعُ في حدٍّ من حدود الله عز وجل» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العَشي قام رسول اللهﷺ فاختطبَ، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سَرقَ فيهم الشريف تركوه، و إذا سرق فيهم الضعيفُ، أقاموا عليه الحدّ، و إني و الذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمرَ بتلك المرأة التي سَرقت فقُطعت يدها. قالت عائشة: فَحَسُنت توبتها بعد، وتزوجت، و كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول اللهﷺ. و هذا لفظ مسلم. و في لفظ له: عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع و تجحده، فأمر النبيﷺ بقطع يدها.

و عن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على ألسنة جاراتها و تجحده فأمر رسول اللهﷺ بقطع يدها. رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي، و هذا لفظه. و في لفظ له: أن امرأة كانت تستعير الحلي للناس، ثم تمسكه، فقال رسول اللهﷺ: «لِتَتُب هذه المرأة إلى الله و إلى رسوله، و تردّ ما تأخذ على القوم» ثم قال رسول اللهﷺ: «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها». و قد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة، مذكورة في كتاب الأحكام و لله الحمد و المنة.

٤٠ - ثم قال تعالى: ﴿ألَمْ تَعلَمْ أنَّ اللهَ لهُ مُلكُ السَّمواتِ و الأرضِ﴾ أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه، و هو الفعال لما يريد ﴿يغفِرُ لِمَن يَشاءُ وَيُعذّبُ مَن يَشاءُ وَاللهُ علَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ

اللَّه شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾

٤١ - نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله و رسوله، المُقدِّمين آراءهم و أهواءهم على شرائع الله عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بزلستهم و قلوبهم خرابٌ خاوية منه، و هؤلاء هم المنافقون ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، و هؤلاء كلهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مستجيبون له منفعلون عنه ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. و قيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنهونه إلى قوم آخرين، ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، و يبدّلونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرّفوه و اصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، و التحميم، و الإركاب على حمارين مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإنْ حكم بالجلد و التحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم و بين الله و يكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، و إنْ حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

و قد وردت الأحاديث بذلك، فروى مالك: عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤا إلى رسول الله فذكروا له أن رجلاً منهم و امرأة زنيا، فقال لهم رسول اللهﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرَّجم؟» فقالو: نفضحهم و يجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها و ما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول اللهﷺ فَرُجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة» أخرجاه، و هذا لفظ البخاري.

و في لفظ له: قال لليهود: «ما تصنعون بهما؟» قالوا: نسخّم وجوهما و نخزيهما، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فجاؤا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، فقال: «ارفع يدك» فرفع فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، و لكنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما فرُجما. و روى أبو داود عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول اللهﷺ إلى

القف ، فأتاهم في بيت المدارس فقالوا : يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم ، قال : و وضعوا لرسول الله ﷺ و سادة فجلس عليها ، ثم قال : «ائتوني بالتوراة» فأتي بها فنزع الوسادة من تحته و وضع التوراة عليها و قال : «آمنتُ بكِ و بمَنْ أنزلكِ» ثم قال : «ائتوني بأعلمكم» فأتي بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك .

و روى الإمام أحمد : عن البراء بن عازب قال : مَرَّ على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود ، فدعاهم ، فقال : «أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم ، فقال : «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقال : لا ، و الله ، لولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم ، و لكنه كَثُر في أشرافنا ، فكنّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه ، و إذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه الشريف و الوضيع ، فاجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النبي ﷺ : «اللهم إني أول مَن أحيا أمرك إذْ أماتوه» قال : فأمر به فرجم ، قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿**يا أيُّها الرَّسولُ لاَ يَحزُنكَ الذينَ يُسارِعونَ في الكُفرِ**﴾ إلى قوله : ﴿**يقولونَ إنْ أوتيتُمْ هذَا فَخُذُوهُ**﴾ أي : يقولون ائتوا محمداً ، فإنْ أفتاكم بالتحميم و الجلد فخذوه ، و إنْ أفتاكم بالرجم فاحذروا ، إلى قوله : ﴿**وَ مَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولَئكَ هُم الكافِرونَ**﴾ قال : في اليهود إلى قوله : ﴿**و مَن لَّمْ يَحكُم بما أنزلَ اللهُ فأولَئكَ هُم الظَّالمونَ**﴾ قال : في اليهود ﴿**وَ مَن لَّم يَحكُم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُم الفَاسقونَ**﴾ قال : في الكفار كلها ، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ، و أبو داود و النسائي و ابن ماجه .

فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حَكَم بموافقة حكم التوراة ، و ليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة ، و لكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه بذلك ، و سؤاله إياهم عن ذلك ليتقرّرهم على ما بأيديهم مما تواطئوا على كتمانه و جحده ، و عدم العمل به تلك الدهور الطويلة ، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه ، بانَ زيغهم و عنادهم و تكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، و عدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ ، إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم ، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ، و لهذا قالوا : ﴿**إنْ أوتيتُمْ هذَا**﴾ أي : الجلد و التحميم ﴿**فخُذُوهُ**﴾ أي : اقبلوه ﴿**وَ إن لَّمْ تُؤتَوهُ فَاحْذَرُوا**﴾ أي : من قبوله و اتباعه . قال الله تعالى : ﴿**وَ مَن يُرد اللهُ فِتْنَتَهُ فلَن تَملِكَ لهُ مِن اللهِ شَيئاً أولَئكَ الذينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ لَهُمْ في الدُّنيا خِزيٌ وَ لَهُمْ في الآخِرةِ عَذابٌ عَظيمٌ**﴾

٤٢ ـ ﴿**سَمَّاعونَ لِلكَذِبِ**﴾ أي : الباطل ﴿**أكَّالونَ لِلسُّحتِ**﴾ أي : الحرام و هو الرشوة كما قاله ابن مسعود و غير واحد ، أي : و من كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ، و أنى يستجيب له ثم قال لنبيه ﴿**فإن جَاءوكَ**﴾ أي : يتحاكمون إليك ﴿**فاحْكُم بَينَهُمْ أو أعرِضْ عَنهُمْ ، و إن تُعرِضْ عَنهُمْ فلَن يَضرُّوكَ شَيْئاً**﴾ أي : فلا عليك أن لا تحكم بينهم ، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق ، بل ما يوافق أهواءهم .

قال ابن عباس و مجاهد وعكرمة و الحسن و قتادة و السدي و زيد بن أسلم و عطاء الخراساني والحسن و غير واحد : هي منسوخة بقوله : ﴿**و أنِ احكُم بَينَهُم بِما أنزلَ اللهُ**﴾ ، ﴿**و إنْ حَكَمْتَ فاحكُم بَينَهُم بالقِسطِ**﴾ أي : بالحق و العدل ، و إن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿**إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسطِينَ**﴾ .

٤٣ – ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة، و مقاصدهم الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حُكمه، و عدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه، و عدم لزومه لهم، فقال: **﴿وَ كيفَ يُحَكِّمونَكَ وَ عِندَهُم التَّوراةُ فِيها حُكمُ اللهِ ثُمَّ يَتولَّونَ مِن بَعدِ ذَلكَ وَ مَا أُولئِكَ بِالمُؤمنينَ﴾**.

٤٤ – ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده و رسوله موسى بن عمران، فقال: **﴿إنَّا أنزَلْنا التَّوراةَ فِيها هُدًى ونُورٌ يَحكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الذينَ أسْلَمُوا لِلَّذينَ هادُوا﴾** أي: لا يخرجون عن حكمها، و لا يبدلونها و لا يحرفونها **﴿والرَّبَّانِيُّونَ وَ الأحْبارُ﴾** أي: و كذلك الربانيون، و هم: العلماء العباد، و الأحبار: و هم العلماء **﴿بِمَا استُحْفِظُوا مِن كِتابِ اللهِ﴾** أي: بما استودعوا من كتاب الله، الذي أمروا أن يظهروه، و يعملوا به **﴿وكانُوا عليهِ شُهداءَ فلاَ تَخشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَونِي﴾** أي: لا تخافوا منهم و خافوا مني **﴿و لاَ تشْتَرُوا بآيَاتِي ثَمَناً قَليلاً ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾** فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: إن الله أنزل **﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾**، **﴿و أولئِكَ هُم الظَّالِمونَ﴾**، **﴿و أولئِكَ هُم الفَاسِقونَ﴾** قال: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، و كانت إحداهما قد قَهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا و اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، و كل قتيل قتلته الذليلة، من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبيﷺ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة و هل كان في حيين دينهما واحد، و نسبهما واحد، و بلدهما واحد، ديةُ بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضَيماً منكم لنا و فَرَقا منكم، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول اللهﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: و الله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، و لقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فدسُّوا إلى محمد مَن يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حَكّمتموه، و إن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول اللهﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول اللهﷺ، فلما جاءوا رسول اللهﷺ، أخبر الله رسولَهﷺ بأمرهم كله و ما أرادوا، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيُّها الرَّسولُ لاَ يَحزُنكَ الذِينَ يُسارِعونَ في الكُفْرِ﴾** إلى قوله: **﴿الفاسقون﴾** ففيهم و الله أنزل، و إياهم عنى الله عز وجل، و رواه أبو داود.

و قد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، و الله أعلم، و لهذا قال بعد ذلك: **﴿وكَتَبْنَا عليهِمْ فِيهَا أنَّ النَّفسَ بِالنَّفْسِ وَ العَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾** إلى آخرها. و هذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و قوله تعالى: **﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾** قال البراء بن عازب و حذيفة بن اليمان و ابن عباس و أبو مجلز و أبو رجاء العطاردي و عكرمة و عبيد الله بن عبد الله و الحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: و هي علينا واجبة. و روى عبد الرزاق عن إبراهيم

قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، و رضي الله هذه الأمة بها. و رواه ابن جرير. و روى ابن جرير عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة؟ فقال: من السحت. قال فقالا: و في الحكم؟ قال: ذلك الكفر، ثم تلا: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، و من أقرَّ به فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها: أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

و روى ابن جرير عن الشعبي: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الظَّالِمونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الفَاسِقونَ﴾ قال: هذا في النصارى. و روى عبد الزراق عن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم﴾ الآية، قال: هي به كفر. قال ابن طاوس: و ليس كمن يكفر بالله وملائكته و كتبه و رسله. و روى الثوري عن عطاء أنه قال: كفرٌ دون كفر، و ظلم دون ظلم، و فسق دون فسق. رواه ابن جرير. و روى وكيع عن طاوس ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

و روى ابن أبي حاتم عن طاوس عن ابن عباس في قوله: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. و رواه الحاكم و قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾

٤٥- و هذا أيضاً مما وُبخت به اليهود، و قُرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة: أن النفس بالنفس، و هم يخالفون ذلك عمداً و عناداً، و يقيدون النضري من القرظي، و لا يقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، و عدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد و التحميم و الإشهار، و لهذا قال هناك: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم و عناداً و عمداً، و قال هنا: ﴿فأولئِكَ هُم الظَّالِمونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم، في الأمر الذي أمر الله بالعدل و التسوية بين الجمع فيه، فخالفوا و ظلموا وتعدّوا على بعضهم بعضاً.

و قد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين و الفقهاء إلى: أنَّ شرعَ مَن قبلنا شرعٌ لنا، إذا حكى مقرراً ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، و كما حكاه الشيخ أبو إسحاق الأسفراييني عن نص الشافعي وأكثر الأصحاب بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة.

و قال الحسن البصري: هي عليهم و على الناس عامّة. رواه ابن أبي حاتم.

و قد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه ، و قد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يُقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة . وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي و غيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم «أن الرجل يقتل بالمرأة» . وفي الحديث الآخر «المسلمون تتكافأ دماؤهم» . و هذا قول جمهور العلماء .

و كذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية ، على أنه يقتل المسلم بالكافر ، و على قتل الحر بالعبد . و قد خالفه الجمهور فيهما ، ففي الصحيحين : عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يُقتل مسلمٌ بكافر» . و أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة ، أنهم لم يكونوا يَقيدون العبد من الحر ، و لا يقتلون حراً بعبد ، و جاء في ذلك أحاديث لا تصح ، و حكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، و لكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم ، إلا بدليل مخصص للآية الكريمة .

و يؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك ، كما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك : أن الربيع عمة أنس كَسَرت ثَنِيّة جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا ، فأتوا رسول الله ﷺ فقال : «القصاص» فقال أخوها أنس بن النضر : تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ : «يا أنس كتاب الله القصاص» قال : فقال : لا والذي بعثك بالحق ، لا تكسر ثنية فلانة . قال : فرضي القوم فعفوا و تركوا القصاص ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ من عباد الله ، مَنْ لو أقسم على الله لأبرّه» أخرجاه في الصحيحين .

و قد روى أبو داود عن عمران بن حصين : أن غلاماً لأناس فقراء ، قطع أذن غلام لأناس أغنياء ، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا أناس فقراء ، فلم يجعل عليه شيئاً . و كذا رواه النسائي . و هذا إسناد قوي رجاله كلهم ثقات ، وهو حديث مشكل ، اللهم إلا أن يُقال : إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه ، و لعله تحمل أَرْشَ ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء ، أو استعفاهم عنه .

و قوله تعالى : ﴿و الجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، و تقطع الأنف بالأنف ، و تنزع السن بالسن ، و تقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم ، رجالهم و نساؤهم ، إذا كان عمداً في النفس و ما دون النفس ، و يستوى فيه العبيد رجالهم و نساؤهم فيما بينهم ، إذا كان عمداً في النفس و ما دون النفس . رواه ابن أبي جرير و ابن أبي حاتم .

قاعدة مهمة

الجراح تارة تكون في مَفْصِل فيجب فيه القصاص بالإجماع ، كقطع اليد و الرجل و لكف و القدم ونحو ذلك . و أما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم . فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ، لأنه مخوف خطر . وقال أبو حنيفة و صاحباه : لا يجب القصاص في شيءٍ من العظام إلا في السن . وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً . و هو مروي عن عمر بن الخطاب و ابن عباس ، و به يقول عطاء و الشعبي و الحسن البصري و الزهري و إبراهيم النخعي و عمر بن عبد العزيز ، و إليه ذهب سفيان الثوري و الليث بن سعد ، و هو المشهور من مذهب الإمام أحمد . و قد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه ، أنه لا قصاص في عظم إلا في السن ، و حديث الربيع لا حجة فيه ، لأنه

ورد بلفظ: «كسرت ثنية جارية» و جائز أن تكون سقطت من غير كسر، فيجب القصاص و الحالة هذه بالإجماع.

ثم قالوا: لا يجوز أن يُقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه، فإن اقْتُص منه قبل الاندمال، ثم زاد جرحه فلا شيء له. و الدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً طعن رجلاً بقَرْن في ركبته فجاء إلى النبيﷺ فقال: أقدني، فقال: «حتى تبرأ» ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده فقال: يا رسول الله، عرجت، فقال: «قد نهيتك فعصيتني، فأبعدك الله، و بطل عرجك» ثم نهى رسول الله أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه. تفرد به أحمد.

(مسألة) فلو اقتص المجني عليه من الجاني، فمات من القصاص فلا شيء عليه، عند مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل، و هو قول الجمهور من الصحابة و التابعين و غيرهم. و قال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص.

و قوله تعالى: **﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فمن عفا عنه وتصدق عليه، فهو كفارة للمطلوب، و زجر للطالب. و قال: ابن عباس أيضاً: فمن تصدق به فهو كفارة للجارح، وأجر المجروح على الله عز وجل. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: و روي عن خيثمة بن عبد الرحمن و مجاهد وإبراهيم في أحد قوليه و عامر الشعبي و جابر بن زيد نحو ذلك.

(الوجه الثاني): و روى ابن أبي حاتم: عن الهيثم بن العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية، أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله **﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾** قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. رواه ابن جرير. و روى الإمام أحمد: أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من رجلٍ يُجرحُ من جسده جراحةً، فيتصدّق بها، إلا كفَّر الله عنه مثل ما تصدّق به» و رواه النسائي.

و قوله: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** قد تقدم عن طاوس و عطاء أنهما قالا: كفرٌ دون كفر، و ظلم دون ظلم، و فسق دون فسق.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾

٤٦- يقول تعالى: **﴿و قَفَّيْنَا﴾** أي: أتبعنا على آثارهم، يعني أنبياء بني إسرائيل **﴿بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾** أي: مؤمناً بها، حاكماً بما فيها **﴿و آتيناهُ الإنجيلَ فيهِ هُدًى و نُورٌ﴾** أي: هدى إلى الحق، و نور يستضاء به في إزالة الشبهات، و حل المشكلات **﴿و مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ﴾** أي: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل **﴿و لأُحِلَّ لَكُم بَعضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيكُمْ﴾** و لهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نَسَخ بعض أحكام التوراة، و قوله تعالى: **﴿وَ هُدًى وَ مَوعِظَةً لِلمُتَّقِينَ﴾** أي: و جعلنا الإنجيل هدى يهتدي به وموعظة، أي: زاجراً عن ارتكاب المحارم و المآثم **﴿للمُتَّقِينَ﴾** أي: لمن اتقى الله،

و خاف وعيده و عقابه.

٤٧- و قوله تعالى: ﴿و لْيحكمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزلَ اللهُ فيه﴾ قرئ ﴿وَ لِيحْكُمَ أهْلُ الإنجيلِ﴾ بالنصب، على أن اللام لام كي، أي: و آتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم. و قرئ ﴿و لْيحكُمْ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، و ليقيموا ما أمروا به فيه، و مما فيه: البشارة ببعثة محمدﷺ والأمر باتباعه و تصديقه، إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيءٍ حَتَّى تُقيمُوا التَّوراةَ وَالإنجيلَ وَ ما أُنزِلَ إليكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. و قال تعالى: ﴿الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ في التَّوراةِ﴾ إلى قوله ﴿المُفْلِحُونَ﴾ و لهذا قال ههنا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئكَ هُم الفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق.

و قد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، و هو ظاهر من السياق.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

٤٨- لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه و مدحها، و أثنى عليها و أمر باتباعها، حيث كانت سائغة الاتباع، و ذكر الإنجيل و مَدَحه، و أمر أهله بإقامته و اتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شَرعَ في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده و رسوله الكريم، فقال تعالى ﴿و أَنزَلْنا إليكَ الكِتابَ بالحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقاً لِّما بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكِتابِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره و مدحه، أنه سينزل من عند الله على عبده و رسوله محمدﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله و اتبعوا شرائع الله، و صدّقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عَلَيهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذقانِ سُجَّداً * وَ يَقُولونَ سُبحانَ رَبِّنا إن كانَ وَعدُ رَبِّنا لَمَفعُولاً﴾ أي: إنْ كان ما وَعدَنا الله على ألسنة رسله المتقدمين، من مجيء محمدعليه السلام لمفعولاً، أي: لكائناً لا محالة ولابد.

و قوله تعالى: ﴿وَ مُهَيمِناً عَلَيهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المهيمن الأمين. قال: القرآن أمينٌ على كل كتاب قبله. و رواه عن عكرمة و سعد بن جبير و مجاهد و محمد بن كعب و عطية و الحسن وقتادة وعطاء الخراساني و السدي و ابن زيد نحو ذلك. و قال ابن جرير: القرآن أمينٌ على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، و ما خالفه منها فهو باطل. و عن الوالبي عن ابن عباس: ﴿وَ مُهَيمِنًا﴾ أي: شهيداً. و كذا قال مجاهد و قتادة و السدي. و قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَ مُهَيمِنًا﴾ أي حاكماً على ما قبله

من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين و شاهد وحاكم، على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله، آخر الكتب و خاتمها و أشملها وأعظمها و أكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، و زاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً و أميناً و حاكماً عليها كلها، و تكفّل تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكْرَ وَ إنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة و سعيد بن جبير و عطاء الخراساني و ابن أبي نجيح عن مجاهد أنهم قالوا: في قوله: ﴿و مُهَيمناً عَليهِ﴾ يعني: محمداًﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، و لكن في تفسير هذا بهذا نظر! و في تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر! و بالجملة فالصحيح الأول.

و قوله تعالى: ﴿فَاحكُم بَينَهُم بما أنزَلَ اللهُ﴾ أي: فاحكم يا محمد بين الناس عربهم و عجمهم، أميهم و كتابيهم، بما أنزل الله إليك من هذا الكتاب العظيم، و بما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء، ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجهه ابن جرير بمعناه. روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: كان النبيﷺ مخيراً: إنْ شاء حكم بينهم، و إنْ شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿و أنِ احكُم بَينَهُم بمَا أنزَلَ اللهُ و لاَ تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول اللهﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

و قوله: ﴿و لاَ تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، و تركوا بسببها ما أنزل الله على رسله، ولهذا قال تعالى: ﴿و لاَ تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به، إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

و قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلنَا مِنكُمْ شِرعَةً وَمنهَاجاً﴾ روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿لِكُلٍّ جَعَلنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ قال: سبيلاً، ﴿و مِنهَاجاً﴾ قال: سُنَّة. و كذا روي عن مجاهد وعكرمة و الحسن البصري و قتادة والضحاك و السدي و أبي إسحق السبيعي أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ أي: سبيلاً و سنّة. و عن ابن عباس و مجاهد أيضاً و عطاء الخراساني عكسه ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ أي: سنة و سبيلاً. و الأول أنسب، فإنّ الشِّرعة و هي الشريعة أيضاً، و هي: ما يبتدأ فيه إلى الشيء، و منه يقال: شرع في كذا، أي: ابتدأ فيه، وكذا الشريعة و هي ما يشرع فيها إلى الماء. أما المنهاج: فهو الطريق الواضح السهل، و السنن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ بالسبيل و السنة أظهر في المناسبة من العكس، و الله أعلم.

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلاّت، ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، و ضمَّنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى ﴿وَمَا أرسَلنا مِن قَبْلكَ مِن رَّسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيهِ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنَا فَاعبُدونِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بعَثنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أنِ اعبُدوا اللهَ وَ اجتَنِبُوا الطَّاغوتَ﴾ الآية، و أما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، و بالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، و ذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، و الحجة الدامغة. قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلنَا مِنكُمْ شِرعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ يقول: سبيلاً و سنة، و السنن

مختلفة: هي في التوراة شريعة، و في الإنجيل شريعة، و في الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء و يحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، و الدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد، و الإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة و السلام.

و قيل: المخاطب بهذه الآية هذه الأمة. و معناه: لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة و منهاجاً، أي: هو لكم كلكم تقتدون به. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، و الصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ و هم أمة واحدة، و لكن هذا خطاب و شريعة واحدة، لا يُنسخ شيءٌ منها، و لكنه تعالى شَرع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده و رسوله محمداًﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، و جعله خاتم الأنبياء كلهم، و لهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً و لَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ أي: أنه تعالى شَرعَ الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم، و يثيبهم أو يعاقبهم على طاعته و معصيته، بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. و قال عبد الله بن كثير ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ يعني: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات، و المبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله، واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، و التصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معادكم أيها الناس، و مصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، و يعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل و لا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة. و الحجج البالغة و الأدلة الدامغة، و قال الضحاك ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني أمة محمدﷺ، و الأول أظهر.

٤٩- و قوله: ﴿وَ أَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيدٌ لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه، ثم قال: ﴿و احْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي: و احذر أعداءك اليهود أن يُدلِّسوا عليك الحق، فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تَغترَّ بهم، فإنهم كذبةٌ كفرةٌ خونةٌ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: عما تحكم به بينهم من الحق، و خالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله و حكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى، لما لهم من الذنوب السالفة، التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿و إِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿و مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، و قال تعالى: ﴿و إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية.

٥٠- و قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ينكر تعالى على مَن خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، و عَدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء و الاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات و الجهالات، مما يضعونها بآرائهم و أهوائهم، و كما يحكم به التتار من السياسات المَلَكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم «الياسق»، و هو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها

عن شرائع شتى من اليهودية و النصرانية و الملة الإسلامية و غيرها، و فيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره و هواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله و سنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله و رسوله، فلا يحكم سواه في قليل و لا كثير، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يبتغون و يريدون، و عن حكم الله يعدلون.

﴿و مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: و من أعدل من الله في حُكمه لمن عقل عن الله شرعه، و آمن به و أيقن، و علم أن الله أحكم الحاكمين، و أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

و روى ابن أبي حاتم عن الحكم قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية. و روي عن ابن أبي نجيح قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضّل بين ولدي في النحل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. و روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغضُ الناس إلى الله عز وجل: مَنْ يبتغي في الإسلام سنةَ الجاهلية، و طالب دم امرئ بغير حق ليُريق دمه». و روى البخاري نحوه بزيادة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾

٥١ - ينهى تبارك و تعالى عباده المومنين عن موالاة اليهود و النصارى، الذين هم أعداء الإسلام و أهله ـ قاتلهم الله ـ ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد و توعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَ مَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية. روى ابن أبي حاتم: عن عياض: أن عمر أبا موسى الأشعري أن يرفعَ إليه ما أخذ و ما أعطى في أديم واحد، و كان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك، فعجب عمر و قال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام، فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنبٌ هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه ثم قرأ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

ثم روى عن محمد بن سيرين عن عبد الله بن عتبة قال: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، و هو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

و عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: كُلْ، قال الله تعالى: ﴿و مَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ و روي عن أبي الزناد نحو ذلك.

و قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك و ريب و نفاق يسارعون فيهم، أي: يبادرون

إلى موالاتهم و مودتهم في الباطن و الظاهر، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمرٌ من ظَفَر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود و النصارى فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى: **﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾** قال السدي: يعني فتح مكة. و قال غيره: يعني القضاء و الفصل **﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾** قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود و النصارى **﴿فَيُصْبِحُوا﴾** يعني: الذين والوا اليهود و النصارى من المنافقين **﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾** من الموالاة نادمين، أي: على ما كان منهم مما لم يُجدِ عنهم شيئاً، و لا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا و أظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، و يحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم و افتراؤهم.

٥٣- و لهذا قال تعالى: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾** و قد اختلف القراء في هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله: **﴿وَيَقُولُ﴾** فتقديره: أن يأتي، و أن يقول، و قرأ أهل المدينة **﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** بغير واو، و كذلك هو في مصاحفهم، على ما ذكره ابن جرير عن مجاهد.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ تقديره حينئذ **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾** واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي: أنها نزلت في رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه، و أتهوّد معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث، و قال الآخر: أما أنا فإني ذاهبٌ إلى فلان النصراني بالشام فآوي إليه و أتنصر معه، فأنزل الله **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾** الآيات. و قال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيد إلى حلقه، أي: إنه الذبح. رواه ابن جرير.

و روى ابن إسحاق: عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم، و مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، و كان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أُبي، فخلعهم إلى رسول الله و تبرأ إلى الله و رسوله من حلفهم، و قال: يا رسول الله، أبرأ إلى الله و رسوله من حلفهم، و أتولى الله و رسوله و المؤمنين، و أبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه و في عبد الله بن أبي، نزلت الآيات في المائدة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ـ إلى قوله ـ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾**.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

﴿الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

٥٤- يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة، أنه من تولّى عن نُصرة دينه، و إقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خيراً لها منه، و أشدّ منعة و أقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَ إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ و قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ و يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بممتنع و لا صعب. و قال تعالى ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. و قال الحسن البصري: نزلت في أهل الردّة أيام أبي بكر.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ﴾ قال الحسن: هو و الله أبو بكر و أصحابه. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة سمعت أبا بكر بن عياش يقول: هم أهل القادسية. و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كندة من السكون.

و روى ابن أبي حاتم: عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». و رواه ابن جرير.

و قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه، و وليه، متعززاً على خصمه و عدوّه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ و الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. و قوله عز وجل: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ أي: لا يردّهم عما هم فيه من طاعة الله، و إقامة الحدود، و قتال أعدائه، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، لا يردّهم عن ذلك راد، و لا يصدّهم عن صاد، و لا يحيك فيهم لوم لائم، و لا عذل عاذل.

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، و الدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، و لا أنظر إلى من هو فوقي، و أمرني أن أصل الرحم و إنْ أدبرتْ، و أمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، و أمرني أن أقول الحقَّ و إنْ كان مُرّاً، و أمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، و أمرني أن أُكثر من قول: لا حول و لا قوة إلا بالله، فإنهن من كنزٍ تحت العرش.

و روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يَمنَعنَّ أحدكم رهبةُ الناسِ أن يقول بحق، إذا رآه أو شهده، فإنه لا يُقَرِّب من أجلٍ، و لا يُباعد من رزق، أن يقول بحق، أو أن يُذكِّر بعظيم» تفرد به أحمد.

و ثبت في الصحيح: «ما ينبغي للمؤمن أن يُذلَّ نفسه» قالوا: و كيف يُذلُّ نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمّل من البلاء ما لا يطيق»[1] ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، و توفيقه له ﴿و اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليمٌ بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

٥٥- و قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله و رسوله و المؤمنين. و قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ و يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات: مِن إقام الصلاة، التي هي أكبر أركان الإسلام، و هي عبادة الله وحده لا شريك له، و إيتاء الزكاة التي هي حقُّ المخلوقين، و مساعدة للمحتاجين من الضعفاء و المساكين. و أما قوله: ﴿وَهُمْ

(١) الحديث ليس في الصحيح! و إنما رواه الترمذي (٢٣٦٩) و ابن ماجه (٤٠١٦) و هو صحيح.

رَاكِعُونَ﴾ فقد تَوهَّم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال، من قوله: ﴿و يؤتون الزكاة﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، و ليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، و حتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب، أن هذه الآية نزلت فيه، و ذلك أنه مر به سائلٌ في حال ركوعه فأعطاه خاتمه! و ليس يصح شيئ منها بالكلية لضعف أسانيدها، و جهالة رجالها. روى ابن مردويه بإسناده: عن ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله: ﴿إنَّما وَلِيُّكُم اللهُ وَ رَسُولُهُ﴾ نزلت في المؤمنين، و علي بن أبي طالب أولهم، و روى ابن جرير: عن عبد الملك عن أبي جعفر قال: سألته عن هذه الآية ﴿إنَّما وَلِيُّكُم اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الذينَ آمَنُوا الذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ و يُؤتونَ الزَّكاةَ و هُمْ رَاكِعُونَ﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا، قلنا: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، قال: علي مِن الذين آمنوا. و قال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس: من أسلم فقد تولّى الله و رسوله و الذين آمنوا. رواه ابن جرير.

و قد تقدم في الأحاديث التي أوردناها، أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود، ورضي بولاية الله و رسوله و المؤمنين.

و لهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿و مَن يَتولَّ اللهَ وَ رَسولَهُ و الذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزبَ اللهِ هُم الغَالِبونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كتبَ اللهُ لأغلِبَنَّ أنا وَ رُسُلِي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزيزٌ * لاَ تَجدُ قَوْماً يُؤمنونَ باللهِ وَ الْيومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَ رَسولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أوْ أبْناءَهُمْ أوْ إخوانَهُمْ أوْ عَشيرَتَهُمْ أولَئكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأيَّدَهُم بروحٍ مِّنْهُ وَ يُدخِلُهمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحتِهَا الأنهارُ خَالدينَ فِيهَا رضِيَ اللهُ عنهُمْ و رَضُوا عَنهُ أولَئكَ حِزبُ اللهِ ألاَ إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الْمُفلِحونَ﴾. فكل من رضي بولاية الله ورسوله المؤمنين، فهو مفلح في الدنيا والآخرة، و منصور في الدنيا و الآخرة، و لهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَ مَن يَتولَّ اللهَ ورَسُولَهُ وَالذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾

٥٧- و هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام و أهله، من الكتابيين و المشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، و هي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي و أخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، و لعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، و فكرهم البارد، كما قال القائل:

و كم من عائب قولاً صحيحاً … و آفته من الفهم السقيم

و قوله تعالى: ﴿مِنَ الذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلِكُمْ وَ الكُفَّارَ﴾ «من» لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاجتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثَانِ﴾ أي: لا تتخذوا هؤلاء و لا هؤلاء أولياء. و المراد بالكفار ههنا: المشركون. و كذا وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير ﴿لاَ تَتَّخذُوا الذينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِّنَ الذينَ أوتُوا الْكِتابَ مِن قَبلِكُمْ وَ مِن الذينَ أشْرَكُوا﴾. و قوله: ﴿و اتَّقُوا اللهَ إن كُنتُم مُّؤمِنينَ﴾ أي: اتقوا الله، أن تتخذوا هؤلاء الأعداء

لكم و لدينكم أولياء، إن كنتم مؤمنين بشرع الله، الذي اتخذه هؤلاء هزواً و لعباً، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنونَ الْكَافِرينَ أولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمنينَ وَ مَن يَفْعَلْ ذلكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ إلاَّ أن تَتَّقُوا مِنهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفسَهُ وَ إلَى اللهِ المَصيرُ﴾.

٥٨- و قوله: ﴿و إذا نَادَيتُمْ إلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً﴾ أي: و كذلك إذا أذّنتم داعين إلى الصلاة، التي هي أفضل الأعمال، لمن يعقل و يعلم من ذوي الألباب ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أيضاً ﴿هُزُواً وَ لَعِباً ذلكَ بأنّهمْ قومٌ لاَّ يَعقِلونَ﴾ معاني عبادة الله و شرائعه، و هذه صفات أتباع الشيطان، الذي «إذا سمع الأذان أدبر وله حُصَاص، أي: ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب للصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء و قلبه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى؟ فإذا وَجَدَ أحدُكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام» متفق عليه. و قال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال: ﴿و إذا نَادَيتُمْ إلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً ذلكَ بأنّهمْ قومٌ لاَّ يَعقِلونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

روى الإمام أحمد: عن أبي محذورة قال: خرجت في نفر و كنا في بعض طريق حُنين، مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذّن مؤذّنُ رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوتَ المؤذن و نحن متنكبون، فصرخنا نحكيه و نستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع»؟ فأشار القوم كلهم إليّ، و صدقوا، فأرسل كُلَّهم و حبسني، وقال: «قم فأذّن» فقمتُ و لا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ و لا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله» ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيءٌ من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرّها على وجهه، ثم بين ثدييه ثم على كبده، حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سُرّةَ أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «باركَ الله فيك، و بارك عليك» فقلت: يا رسول الله مُرني بالتأذين بمكة، فقال: «قد أمرتك به» وذهبَ كلُّ شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، و عاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتّاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذّنتُ معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ.

و قد أخرجه مسلم في صحيحه و أهل السنن الأربعة عن أبي محذورة، و اسمه: سمرة بن مِعْير بن لوذان، أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة، و هو مؤذن أهل مكة، و امتدت أيامه رضي الله عنه و أرضاه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ

قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

٥٩- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً و لعباً، من أهل الكتاب: **﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ و مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ مِن قَبلُ﴾** أي: هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلا هذا؟ و هذا ليس بعيب و لا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما في قوله تعالى: **﴿و مَا نَقَمُوا مِنهُمْ إِلاَّ أَن يُؤمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾** وقوله: **﴿و أَنَّ أَكثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** معطوف على **﴿أَن آمَنَّا بِاللهِ و مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا و مَا أُنزِلَ مِن قَبلُ﴾** أي: وآمنا بأنَّ أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

٦٠- ثم قال: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً مِّن عِندِ اللهِ﴾** أي: هل أخبركم بشر جزاءٍ عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ و هم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات، المفسرة بقوله: **﴿من لَّعَنَهُ اللهُ﴾** أي: أبعده من رحمته **﴿و غَضِبَ عَلَيهِ﴾** أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً **﴿وَ جَعَلَ مِنهُمُ القِرَدَةَ وَ الخَنَازِيرَ﴾** كما تقدم بيانه في سورة البقرة، و كما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف. و عن ابن مسعود قال: سُئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: «إنَّ الله لم يُهلك قوماً»، أو قال: «لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً و لا عقباً، و إن القردة و الخنازير كانت قبل ذلك» و قد رواه مسلم.

و قوله تعالى: **﴿و عَبَدَ الطاغوتَ﴾** قرئ: **﴿و عَبَدَ الطاغوتَ﴾** على أنه فعل ماض، و الطاغوت منصوب به، أي: و جعل منهم من عبدَ الطاغوت. و قرئ **﴿و عَبَدَ الطاغوتِ﴾** بالإضافة على أن المعنى: و جعل منهم خدم الطاغوت، أي: خدّامه و عبيده. و قرئ **﴿و عُبُد الطَّاغُوتِ﴾** على أنه جمع الجمع، عبد و عبيد و عُبُد، مثل ثِمار و ثمر. و كل هذه القراءات يرجع معناها: إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا، الذي هو توحيد الله و إفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا و أنتم قد وُجد منكم جميع ما ذكر، و لهذا قال: **﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَ أَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** و هذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله عز وجل **﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَومَئِذٍ خَيرٌ مُّستَقَرّاً وَ أَحسَنُ مَقِيلاً﴾**.

٦١- و قوله تعالى: **﴿و إذا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَد دَّخَلُوا بِالكُفرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾** و هذه صفة المنافقين منهم، أنهم يُصانعون المؤمنين في الظاهر، و قلوبهم منطوية على الكفر، و لهذا قال: **﴿وَ قَد دَّخَلُوا﴾** أي: عندك يا محمد بالكفر، أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا و هو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، و لا نجعت فيهم المواعظ و لا الزواجر، و لهذا قال: **﴿وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾** فخصهم به دون غيرهم. و قوله تعالى: **﴿و اللهُ أَعلَمُ بِما كَانُوا يَكتُمُونَ﴾** أي: عالم بسرائرهم و ما تنطوي عليه ضمائرهم، و إن أظهروا لخلقه خلافَ ذلك، و تزيَّنوا بما ليس فيهم، فإنَّ عالم الغيب الشهادة أعلم بهم منهم، و سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

٦٢- و قوله: **﴿و تَرَى كَثِيراً مِّنهُمْ يُسارِعونَ فِي الإِثمِ وَ العُدوانِ وَ أَكلِهِمُ السُّحْتَ﴾** أي: يُبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم و المحارم، و الاعتداء على الناس، و أكلهم أموال بالباطل **﴿لَبِئسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾**

أي: لبئس العمل كان عملهم، و بئس الاعتداء اعتداؤهم.

٦٣ - و قوله تعالى: ﴿لَولاَ يَنهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الأحبارُ عَن قَولِهِمُ الإثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئسَ مَا كَانُوا يَصنَعُونَ﴾ يعني: هَلاَّ كان ينهاهم الربانيون و الأحبار منهم عن تعاطي ذلك. و الربانيون: هم العلماء العُمَّال، أرباب الولايات عليهم. و الأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَبِئسَ مَا كَانُوا يَصنَعُونَ﴾ يعني: من تركهم ذلك، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، و قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أنا لا ننهى. رواه ابن جرير. و روى الإمام أحمد: عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن قوم يكون بين أظهرهم مَنْ يعملُ بالمعاصي، هم أعزُّ منه و أمنع، و لم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب» تفرد به أحمد. و رواه أبو داود: عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجلٍ يكون في قوم يَعمل فيهم المعاصي، يقدرون أن يُغيروا عليه فلا يغيرون، إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا» و قد رواه ابن ماجه.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾

٦٤ - يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، بأنهم وصفوه ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، و عبروا عن البخل بأن قالوا: ﴿يد الله مغلولة﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، و لكن يقولون: بخيل، يعني أمسك ما عنده بخلاً، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً. و كذا روي عن مجاهد و عكرمة و قتادة و السدي و الضحاك وقرأ: ﴿و لاَ تَجعَلْ يَدَكَ مَغلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَ لاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ يعني: أنه ينهى عن البخل و عن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، و عبَّر عن البخل بقوله: ﴿و لا تجعلْ يدَكَ مَغلُولَةً إلى عُنُقِكَ﴾. و هذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. و قد قال عكرمة: إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله، و قد تقدم أنه الذي قال: ﴿إنَّ اللهَ فقيرٌ وَ نَحنُ أغنياءُ﴾ فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

و قد ردّ الله عز وجل عليهم ما قالوه، و قابلهم فيما اختلقوه و افتروه و ائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أيدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ و هكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل و الحسد و الجبن و الذلة، أمرٌ عظيم، كما قال تعالى: ﴿أمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ المُلْكِ فَإذاً لاَّ يُؤتُونَ النَّاسَ نَقِيراً * أمْ يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُم اللهُ مِن فَضلِهِ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيفَ يَشاءُ﴾ أي: بل هو الواسعُ الفضل الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، و هو الذي ما بخلقه من نعمةٍ فمنه وحده لا شريك له، الذي خَلَقَ لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا و نهارنا، و حضرنا و سفرنا، و في جميع

أحوالنا، كما قال: ﴿و آتاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللهِ لاَ تُحصوهَا إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كفَّارٌ﴾ والآيات في هذه كثيرة.

و قد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يمين الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سحَّاء الليل و النهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، قال: وعرشه على الماء، و في يده الأخرى القبض، يرفع و يخفض، و قال: يقول الله تعالى: أَنفقْ أُنفق عليك» أخرجاه في الصحيحين. و قوله تعالى: ﴿و لَيَزيدَنَّ كَثيراً مِّنهُم مَّا أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَّبِّكَ طُغيَاناً وَ كُفراً﴾ أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة، نقمة في حق أعدائك من اليهود و أشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً، و عملاً صالحاً، و علماً نافعاً، يزداد به الكافرون الحاسدون، لك و لأمتك ﴿طُغيَاناً﴾ و هو المبالغة و المجاوزة للحدّ في الأشياء، ﴿و كفراً﴾ أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفاءٌ وَ رَحمَةٌ لِّلمُؤمِنينَ وَالذينَ لاَ يُؤمِنونَ فِي آذانِهِمْ وَقرٌ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمًى أولَئِكَ يُنادَوْنَ مِن مَّكانٍ بَعيدٍ﴾ و قال تعالى: ﴿و نُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَ رَحمَةٌ لِّلمُؤمِنينَ وَلا يَزيدُ الظَّالمينَ إلاَّ خَساراً﴾.

و قوله تعالى: ﴿وَ أَلْقَينَا بَينَهُمُ العَدَاوَةَ وَ البَغضَاءَ إلَى يَومِ القِيامَةِ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقهم، بعضهم في بعض دائماً، لأنهم لا يجتمعون على حق، و قد خالفوك وكذبوك. و قال إبراهيم النخعي: الخصومات و الجدال في الدين. رواه ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَربِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ أي: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، و كلما أبرموا أموراً يحاربونك بها، أبطلها الله، و ردّ كيدهم عليهم، و حاق مكرهم السيء بهم ﴿وَ يَسعَونَ فِي الأرضِ فَساداً و اللهُ لاَ يُحِبُّ المُفسِدينَ﴾ أي: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، و الله لا يحب مَنْ هذه صفته.

٦٤- ثم قال جل و علا: ﴿وَ لَوْ أنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله و رسوله، و اتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم و المحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لأَدخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعيمِ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور، وأنلناهم المقصود ﴿و لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوراةَ وَ الإنجيلَ وَ مَا أُنزِلَ إلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس و غيره: هو القرآن ﴿لأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَ مِن تَحتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريفٍ و لا تبديلٍ و لا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، و العمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، و الأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿لأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَ مِن تَحتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، النابت لهم من الأرض. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لأكلوا من فوقهم﴾ يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً ﴿وَ مِن تَحتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها. و كذلك قال مجاهد و سعيد ابن جبير وقتادة و السدي. كما قال تعالى: ﴿وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيهِمْ بَرَكاتٍ مِّنَ السَّماءِ وَالأرضِ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿ظهر الفسادُ في البر و البحر بما كسبت أيدي الناس﴾ الآية. و قال بعضهم معناه ﴿لأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَ مِن تَحتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني من غير كدٍّ و لا تعب، و لا شقاء و لا عناء.

روى الإمام أحمد: عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «و ذاك عندَ ذهابِ العلم» قال:

قلنا: يا رسول الله، و كيف يذهب العلم، و نحن نقرأ القرآن، و نُقرئه أبناءنا، و أبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتكَ أمّك يا ابنَ أم لبيد، إنْ كنتُ لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أوليس هذه اليهودُ والنصارى يَقرءون التوراةَ و الإنجيلَ، و لا ينتفعون بما فيهما بشيء». هكذا رواه ابن ماجه نحوه، و هذا إسناد صحيح.

و قوله تعالى: ﴿مِنهُمْ أُمَّةٌ مُّقتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنهُمْ سَاءَ مَا يَعمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلُونَ﴾ و كقوله عن أتباع عيسى ﴿فَآتَينَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الآية، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، و هو أوسط مقامات هذه الأمة، و فوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَورَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَينَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفسِهِ وَمِنهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنهُمْ سَابِقٌ بِالخَيرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الْكَبِيرُ ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَهَا﴾ الآية. و الصحيح: أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، كلهم يدخلون الجنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾

٦٧- يقول تعالى مخاطباً عبده و رسوله محمداًﷺ باسم الرسالة، و آمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، و قد امتثل عليه أفضل الصلاة و السلام ذلك، و قام به أتم القيام. روى البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَنْ حدَّثك أن محمداً كَتَم شيئاً مما أنزل الله عليه، فقد كذب» و هو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، و كذا رواه مسلم.

و في الصحيحين عنها أيضاً: أنها قالت: لو كان محمدﷺ كاتماً شيئاً من القرآن، لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخشَاهُ﴾.

و روى ابن أبي حاتم: عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: إنَّ ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً، لم يُبده رسول اللهﷺ للناس؟! فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ﴾ و الله، ما ورَّثنا رسولُ اللهﷺ سوداءَ في بيضاء. و هذا إسناد جيد

و هكذا في صحيح البخاري: من رواية أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالبرضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، و الذي فَلقَ الحبة، و برأ النسمة، إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: و ما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْل، و فِكاكُ الأسير، و أن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافر.

و قال البخاريرحمه الله: قال الزهري: من الله الرسالة، و على الرسول البلاغ، و علينا التسليم.

و قد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، و أداء الأمانة، و استنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، و قد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم: عن جابر بن عبد الله: أن رسول اللهﷺ قال في خطبته يومئذ: أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا:

نشهد أنك قد بلّغتَ و أديت و نصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء و ينكسها إليهم، و يقول: «اللهم هل بلغت».

و قوله تعالى: ﴿و إن لَّمْ تَفعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: و إنْ لم تؤد إلى الناس ما أَرسلتك به، فما بلغت رسالته، أي: و قد عَلِمَ ما يترتب على ذلك لو وقع. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: إنْ كتمتَ آية مما أنزل إليك من ربك، لم تبلغ رسالته. و قوله تعالى: ﴿و اللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بلّغ أنت رسالتي، و أنا حافظك و ناصرك و مؤيدك على أعدائك، و مظفرك بهم، فلا تَخَفْ و لا تحزن، فلن يصل أحدٌ منهم إليك بسوءٍ يؤذيك، و قد كان النبيﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَس، كما روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث: أن رسول اللهﷺ سهر ذات ليلة و هي إلى جنبه، قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» قالت: فبينا أنا على ذلك، إذ سمعتُ صوت السلاح، فقال: «مَنْ هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: «ما جاء بك» قال: جئتُ لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيط رسول اللهﷺ في نومه. أخرجاه في الصحيحين. و روى ابن أبي حاتم: عن عائشة قال: كان النبيﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿و اللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبيﷺ رأسه من القُبة، و قال: «يا أيها الناس انصرفوا، فقد عَصَمني الله عز وجل» و هكذا رواه الترمذي.

و من عِصْمة الله لرسوله: حفظه له من أهل مكة، و صناديدها و حُسَّادها و معانديها و مترفيها، مع شدة العداوة و البَغْضة، و نصب المحاربة له ليلاً و نهاراً، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته، و حكمته العظيمة، فَصَانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، و خَلَقَ الله في قلبه محبةً طبيعية لرسول اللهﷺ، لا شرعية، و لوكان أسلم لاجترأ عليه كفّارها و كبارها، و لكن لما كان بينه و بينهم قدرٌ مشتركٌ في الكفر، هابوه و احترموه، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قَيَّضَ الله له الأنصار، فبايعوه على الإسلام، و على أن يتحوّل إلى دارهم و هي المدينة، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، و كلما هَمَّ أحدٌ من المشركين و أهل الكتاب بسوء، كاده الله و ردَّ كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر، فحماه الله منهم، و أنزل عليه سورتي المعوذتين دواءً لذلك الداء. و لما سمَّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به، و حماه منه، و لهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها. فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة:

روى أبو بكر بن مردويه: عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول اللهﷺ في سفر، تركنا له زعظم شجرة وأظلها فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرةٍ و علّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد، مَنْ يمنعك مني؟ فقال رسول اللهﷺ: «الله يمنعني منك، ضع السيف» فوضعه، فأنزل الله عز وجل ﴿و اللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ و كذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه.

و قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهدِي القَومَ الكَافِرِينَ﴾ أي: بلّغ أنت، و الله هو الذي يهدي من يشاء، و يضل من يشاء، قال تعالى: ﴿ليسَ عليكَ هُداهُمْ وَ لَكِنَّ اللهَ يَهدِي مَن يَشاءُ﴾ و قال: ﴿فإنَّمَا عَليكَ البَلاغُ وَ عَلينَا الحِسَابُ﴾.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾

٦٨- يقول تعالى: قل يا محمد ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ أي: من الدِّين، حتى تُقيموا التوراة و الإنجيل، أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، و تعملوا بما فيها: الإيمان بمحمد، و الأمر باتباعهﷺ و الإيمان بمبعثه، و الاقتداء بشريعته. و لهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله: ﴿و ما أُنزل إليكم مِّن ربِّكُمْ﴾ يعني: القرآن العظيم. و قوله: ﴿وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً﴾ تقدم تفسيره ﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فلا تحزن علهم، و لا يهيبنك ذلك منهم.

٦٩- ثم قال: ﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا﴾ و هم المسلمون ﴿و الذينَ هَادُوا﴾ و هم حملة التوراة ﴿وَ الصَّابِئُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، و الصابئون طائفة من النصارى و المجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد.

و عنه: من اليهود و المجوس، و قال سعيد بن جبير: من اليهود و النصارى. و عن الحسن و الحكم: إنهم كالمجوس، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، و يصلون إلى غير القبلة، و يقرؤون الزبور. و قيل غير ذلك [1].

و أما النصارى فمعروفون، و هم حملة الإنجيل. و المقصود أن كل فرقة آمنت بالله و باليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، و عملت عملاً صالحاً، و لا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية، بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلونه و لا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿و لاَ هُمْ يَحزَنُونَ﴾ و قد تقدم الكلام على نظيراتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾

٧١- يذكر تعالى أنه أخذ العهود و المواثيق على بني إسرائيل، على السمع و الطاعة لله و لرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، و اتبعوا آراءهم و أهواءهم و قدَّموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردّوه، و لهذا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لاَ تَهوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ ۞ وَحَسِبُوا أن لاَّ تَكونَ فِتنَةٌ﴾ أي: و حسبوا أنْ لا يترتب لهم شرٌ على ما صنعوا، فترتب، و هو أنهم عَمُوا عن الحق و صموا، فلا يسمعون حقاً، و لا يهتدون إليه، ثم تاب الله عليهم، أي: مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي: بعد ذلك ﴿كَثيرٌ مِّنهُمْ وَ اللهُ بَصيرٌ بِما يَعمَلُونَ﴾ أي: مطلع عليهم، و علم بمن يستحق الهداية،

(١) و قد سبق تفصيل القول فيهم في سورة البقرة (آية: ٦٢).

ممن يستحق الغواية منهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾

٧٢- يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من: الملكية و اليعقوبية و النسطورية، ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم و تنزه و تقدس علواً كبيراً. هذا و قد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها و هو صغير في المهد أن قال: إني عبد الله، و لم يقل: إني أنا الله، و لا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ إلى أن قال: ﴿و إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ و كذلك قال لهم في حال كهولته و نبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه و ربهم وحده لا شريك له، و لهذا قال تعالى: ﴿و قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجبَ له النار، و حرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ و قال تعالى: ﴿و نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

و في الصحيحين: أن النبيﷺ بعثَ منادياً ينادي في الناس: «إنَّ الجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مسلمة» وفي لفظ «مؤمنة». و تقدم في أول سورة النساء عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة: «الدواوين ثلاثة» فذكر منهم: ديواناً لايغفره الله، و هو الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ و الحديث في مسند أحمد. و لهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: وما له عند الله ناصر و لا معين، و لا منقذ مما هو فيه.

٧٣- و قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ و الصحيح أنها أُنزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد و غير واحد. ثم اختلفوا في ذلك، فقيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، و هو: أقنوم الأب، و أقنوم الابن، و أقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. قال ابن جرير وغيره: و الطوائف الثلاثة من الملكية و اليعقوبية و النسطورية تقول بهذه الأقانيم، و هم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً، ليس هذا موضع بسطه و كل فرقة منهم تكفر الأخرى، و الحق: أن الثلاثة كافرة.

و قال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح و أمّه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿و إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ الآية . و هذا القول هو الأظهر ، و الله أعلم . قال الله تعالى : **﴿وَ ما مِن إِلهٍ إِلاَّ إِلَهٌ واحِدٌ﴾** أي : متعدداً ، بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات ، وسائر الموجودات . ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : **﴿و إن لَّمْ ينتهُوا عمَّا يقُولونَ﴾** أي : من هذا الافتراء و الكذب **﴿ليمسنَّ الذين كفرُوا مِنهمْ عذابٌ أليمٌ﴾** أي : في الآخرة من الأغلال و النكال .

٧٤- ثم قال تعالى **﴿أفلاَ يَتُوبونَ إِلَى اللهِ وَ يَسْتغفِرونَهُ وَ اللهُ غفُورٌ رَحيمٌ﴾** و هذا من كرمه تعالى وُجوده ، ولطفه و رحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء و الكذب و الإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

٧٥- و قوله تعالى : **﴿مَا المَسيحُ ابنُ مَريَمَ إِلاَّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ﴾** أي : له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، و أنه عَبْدٌ من عباد الله ، و رسول من رسله الكرام ، كما قال : **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبدٌ أنعَمنَا عَليهِ وَ جَعلنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسرَائِيلَ﴾** و قوله : **﴿وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾** أي : مؤمنة به مُصدِّقة له ، و هذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية ، كما زعمه ابن حزم و غيره ، ممن ذهب إلى نبوة سارّة أم إسحق ، و نبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى ، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارّة و مريم ، و بقوله : **﴿وَ أَوحَينا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرضِعيهِ﴾** و هذا معنى النبوة ، و الذي عليه الجمهور : أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ، قال الله تعالى : **﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾** و قد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله : الإجماع على ذلك .

و قوله تعالى : **﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ﴾** أي : يحتاجان إلى التغذية به ، و إلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس و ليسا بإلهين ، كما زعمت فرق النصارى الجهلة ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ ثم قال تعالى : **﴿انظُرْ كيفَ نُبَيِّنُ لَهُم الآياتِ﴾** أي : نوضحها و نظهرها **﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾** أي : ثم انظر بعد هذا البيان و الوضوح و الجلاء ، أين يذهبون؟ و بأي قول يتمسكون؟ و إلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟ .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾

٧٦- يقول تعالى منكراً على مَنْ عَبَدَ غيره من الأصنام و الأنداد و الأوثان ، و مبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية ، فقال تعالى : **﴿قُلْ﴾** أي : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله ، من سائر فرق بني آدم ، و دَخَل في ذلك النصارى و غيرهم **﴿أتعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَملِكُ لَكُمْ ضَراً وَ لاَ نَفعاً﴾** أي : لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم **﴿و اللهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾** أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فَلِمَ عدلتم عنه إلى عبادة جمادٍ لا يسمع و لا يبصر ، و لا يعلم شيئاً ، و لا يملك ضراً و لا نفعاً ، لغيره و لا لنفسه .

٧٧- ثم قال : **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ لاَ تَغلُوا فِي دِينِكُمْ غَيرَ الحَقِّ﴾** أي : لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، و لا تطروا مَنْ أُمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تُخرجوه عن حيز النبوة ، إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبيٌ من الأنبياء ، فجعلتموه إلهاً من دون الله ، و ما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال ،

الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿و أضلوا كثيراً و ضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: و خرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية و الضلال.

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾

٧٨- يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه ﷺ، على لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله، و اعتدائهم على خلقه. قال العوفي عن ابن عباس: لُعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور و في الفرقان. ثم بيَّن حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم:

٧٩- فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: كان لا ينهى أحدٌ منهم أحداً عن ارتكاب المآثم و المحارم، ثم ذمهم على ذلك ليُحذر أنْ يُركب مثل الذي ارتكبوه، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. و الأحاديث في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر كثيرة جداً، و لنذكر منها ما يناسب هذا المقام، قد تقدم حديث جابر عند قوله: ﴿لو لا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ و الأَحْبَارُ﴾ وسيأتي عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ حديث أبي بكر الصديق و أبي ثعلبة الخشني، فروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده لتَأْمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم» و رواه الترمذي.

و في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، و ذلك أضعفُ الإيمان» رواه مسلم.

و روى أبو داود: عن العُرْس بن عَميرة عن النبي ﷺ قال: «إذا عُملَتْ الخطيئة في الأرض، كان مَنْ شهدها فكرهها ـ وقال مرة: فأنكرها ـ كان كمن غابَ عنها، و مَنْ غاب عنها فَرَضِيها، كان كمن شهدها».

و في حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضَلُ الجهاد: كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائرٍ» رواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه.

و روى ابن ماجه: عن أبي سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعَكَ إذا رأيت المنكر أنْ تُنكره؟ فإذا لقَّنَ الله عبداً حجته، قال: يا رب رجوتُكَ وفرقت من الناس» تفرد به ابن ماجه، و إسناده لا بأس به.

٨٠- و قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: بذلك موالاتهم للكافرين، و تركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، و أسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، و لهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ و فسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخبر عنهم أنهم ﴿فِي الْعَذَابِ خَالِدُونَ﴾ يعني يوم القيامة.

٨١- و قوله تعالى: ﴿و لَوْ كانُوا يُؤمِنونَ باللهِ و النَّبيِّ وَ مَا أُنزِلَ إليهِ مَا اتَّخذُوهُمْ أوْلياءَ﴾ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله و الرسول و القرآن، لما ارتكبوا ما ارتكبوه، من موالاة الكافرين في الباطن، و معاداة المؤمنين بالله والنبي و ما أنزل إليه ﴿و لَكِنَّ كَثِيراً مِّنهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله و رسوله، مخالفون لآيات وحيه و تنزيله.

﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِّلَّذِينَ آمنُوا الْيهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتجدنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾

٨٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النَّجاشي و أصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا، حتى أخضلوا لحاهم. و هذا القول فيه نظر! لأن هذه الآية مدنية، وقص جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. و قال عطاء بن أبي رباح: هم قومٌ من أهل الحبشة، أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين. و قال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، و سمعوا القرآن أسلموا و لم يتلعثموا.

و اختار ابن جرير: أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أوغيرها.

فقوله تعالى: ﴿لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الذينَ أَشْرَكُوا﴾ و ما ذاك إلا لأنَّ كفر اليهود كفر عناد و جحود، و مباهتة للحق، و غمط للناس، و تنقص بحملة العلم، و لهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، و سمُّوه و سحروه و ألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

و قوله تعالى: ﴿و لَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الذينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَى﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى، من أتباع المسيح، و على منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام و أهله في الجملة، و ما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة و الرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَ رَهْبَانِيَّةً﴾ و في كتابهم: مَنْ ضَرَبَكَ على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. و ليس القتال مشروعاً في ملتهم، و لهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهبَاناً وَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون، و هم خطباؤهم و علماؤهم، واحدهم: قسيس و قس أيضاً، و قد يجمع على قسوس، و الرهبان جمع راهب، و هو العابد، مشتق من: الرهبة، و هي: الخوف، كراكب و ركبان و فارس و فرسان.

فقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهبَاناً وَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق، و اتباعه و الإنصاف، فقال: ﴿و إذا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى

﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمدﷺ يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا و يؤمن به. و قد روى النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي و في أصحابه ﴿و إذا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

و هذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿و إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، و هم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

٨٥- و لهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿و ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق و انقيادهم له، حيث كان، و أين كان ومع من كان.

٨٦- ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿و الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها و خالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: هم أهلها و الداخلون فيها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

٨٧- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهطٍ من أصحاب النبيﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، و نترك شهوات الدنيا، و نسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبيﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبيﷺ: «لكني أصوم و أفطر، و أصلي و أنام، و أنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني و من لم يأخذ بسنتي فليس مني» رواه ابن أبي حاتم.

و في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها: أن ناساً من أصحاب رسول اللهﷺ سألوا أزواج النبيﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، و قال بعضهم: لا أتزوج النساء، و قال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبيﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم: كذا و كذا، لكني أصوم و أفطر، وأنام وأقوم، و آكل اللحم، و أتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». و عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبيﷺ و ليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي، فنهانا رسول اللهﷺ عن ذلك، و رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية، أخرجاه.

وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم. و جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حرّمت فراشي، فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. و عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فجيء بضرع، فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ادنُ، فقال: إني

حَرَّمت أن آكله، فقال عبد الله: ادن فاطعم، و كفر عن يمينك، و تلا هذه الآية: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ الآية. رواهن ابن أبي حاتم، و روى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه.

و في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا و فيه، و في هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي و غيره، إلى أن من حرّم مأكلاً أو ملبساً أوشيئاً ما عدا النساء، أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً، ولقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ و لأن الذي حرَّم اللحم على نفسه، كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبيﷺ بكفارة. و ذهب آخرون، منهم الإمام أحمد بن حنبل، إلى أن من حرَّم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً، أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه، إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، و كما في قوله تعالى: ﴿يا أيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لكَ تَبْتَغِي مَرضَاةَ أزْواجِكَ وَ اللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أيْمانِكُمْ﴾ الآية، و كذلك ههنا، لما ذكر هذا الحكم، عقَّبه بالآية المبنية لتكفير اليمين، فدل على أن هذا مُنَزَّلٌ منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، و الله أعلم.

و روى ابن جرير عن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون و عبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ويُخصوا أنفسهم، و يلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿وَ اتَّقُوا اللهَ الذِي أنتُم بِهِ مُؤمِنونَ﴾.

و عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون و علي بن أبي طالب و ابن مسعود و المقداد بن أسود و سالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه تَبَتَّلوا فجلسوا في البيوت، و اعتزلوا النساء، و لبسوا المسوح، و حرموا طيبات الطام واللباس، إلا ما يأكلُ و يلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، و همُّوا بالإخصاء، و أجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أحَلَّ اللهُ لَكُمْ و لاَ تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدينَ﴾. يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد: ما حرموا من النساء و الطعام و اللباس، و ما أجمعوا له من قيام الليل، وصيام النهار، وما هموا به من الإخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول اللهﷺ فقال: «إنَّ لأنفسكم حقاً، و إنَّ لأعينكم حقاً، صوموا و أفطروا، و صلوا و ناموا، فليس منا من ترك سنتنا» فقالوا: اللهم سَلَّمنا واتبعنا ما أنزلتَ.

و قد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة، لها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، و لله الحمد و المنة.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَعتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: و لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم، بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف. و يحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقَدْرِ كفايتكم و حاجتكم، و لا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لاَ تُسرِفُوا﴾ الآية، و قال: ﴿و الذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُروا وَ كانَ بينَ ذلِكَ قَواماً﴾ فشَرْعُ الله عدلٌ بين الغالي فيه، و الجافي عنه، لا إفراط و لا تفريط، و لهذا قال: ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَ لاَ تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعتَدينَ﴾.

٨٨- ثم قال: ﴿و كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ أي: في حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي: في جميع أموركم، و اتبعوا طاعته و رضوانه، و اتركوا مخالفته و عصيانه ﴿وَ اتَّقُوا اللهَ الذِي أنتُم بِهِ مُؤمِنونَ﴾.

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾

٨٩- و قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، و لله الحمد والمنة، وإنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله و بلى والله. و هذا مذهب الشافعي. و قيل: هو في الهزل. و قيل: في المعصية. و قيل: على غلبة الظن، و هو قول أبي حنيفة و أحمد. و قيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. و قيل: هو الحلف على ترك المأكل و المشرب و الملبس و نحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾.

و الصحيح: أنه اليمين من غير قصد، بدليل قوله: ﴿وَ لَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأيمانَ﴾ أي: : بما صممتم عليه منها و قصدتموها ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ يعني: محاويج من الفقراء، و مَنْ لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوسَطِ مَا تُطعِمونَ أَهلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس و سعيد بن جبير و عكرمة: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، و بعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطعِمونَ أَهلِيكُمْ﴾ من الخبز و الزيت. و روي عن ابن عمر في قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطعِمونَ أَهلِيكُمْ﴾ قال: الخبز و السمن، و الخبز و اللبن، و الخبز و الزيت، و الخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز و اللحم. و رواه ابن جرير، ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود و شريح القاضي و محمد بن سيرين و الحسن و الضحاك و أبي رزين، أنهم قالوا نحو ذلك، و حكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً.

و اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوسَطِ مَا تُطعِمونَ أَهلِيكُمْ﴾ أي: في القلة و الكثرة، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم. قال الحسن و محمد بن سيرين: يكفيه أن يُطعم عشرة مساكين، أكلةً واحدةً خبزاً و لحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً و سمناً، فإن لم يجد فخبزاً و زيتاً و خلاً، حتى يشبعوا.

و قال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة: نصف صاع من بُر أو تمر و نحوهما. فهذا قول عمر و علي و عائشة ومجاهد و الشعبي و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي و ميمون بن مهران و أبي مالك و الضحاك والحكم ومكحول و أبي قلابة و مقاتل بن حيان. و قال أبو حنيفة: نصف صاع بر، و صاع مما عداه. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: مُداً من بر، يعني لكل مسكين و معه إدامه. ثم قال: و روى عن ابن عمر و زيد بن ثابت وسعيد بن المسيب و مجاهد و عطاء و عكرمة و أبي الشعثاء و القاسم و سالم و أبي سلمة بن عبد الرحمن و سليمان بن يسار و الحسن و محمد بن سيرين و الزهري نحو ذلك.

و قال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بمد النبي رسول الله ﷺ لكل مسكين. و لم يتعرض للأدم واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان، بأن يطعم ستين مسكيناً، من مكتل يسع خمسة عشر صاعاً،

لكل واحدٍ منهم مد. و قال أحمد بن حنبل: الواجب مد من بُرٍّ أو مُدانِ من غيره، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال الشافعي رحمه الله: لو دفع كل واحدٍ من العشرة ما يَصدُق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاه ذلك. و اختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزئ أم لا على وجهين؟. و الصحيح عدم الإجزاء. و قال مالك و أحمد بن حنبل: لا بد أن يُدفع إلى كل واحدٍ منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كلٌ بحسبه، و الله أعلم. و قال مجاهد: أدناه ثوب، و أعلاه ما شئت. و قال الحسن و أبو جعفر الباقر و عطاء و طاوس و إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان و أبو مالك: ثوب ثوب.

و قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة، و قال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، و أخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل، لاتحاد الموجب و إن اختلف السبب، و من حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك و مسند الشافعي و صحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، و جاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا»؟ قالت: رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله.

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع، و قد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أسهل و أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدةٍ من هذه الخصال الثلاث، كفَّر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير و الحسن البصري أنهما قالا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام و إلا صام، و قال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه: أنه جائز لمن يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه، و من الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه، ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوت عياله في يومه ذلك، ما يُخرج به كفارة اليمين، و اختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب و لا يجب و يجزئ التفريق؟ قولان: أحدهما: لا يجب، و هذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان، و هو قول مالك لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ و هو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ و نص الشافعي في موضع آخر في الأم: على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفيه والحنابلة، لأنه قد روي عن أبي بن كعب و غيره: أنهم كانوا يقرؤنها: ﴿فَصِيامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ مُّتَتابِعاتٍ﴾ و قال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤنها كذلك. و هذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل أن يكون خبرُ واحدٍ، أو تفسيراً من الصحابة و هو في حكم المرفوع.

و قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه: لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يُوضّحها و يفسّرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمرُ وَالميْسرُ وَالأَنصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنبُوهُ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

٩٠- يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر و الميسر، و هو القمار، و روى ابن أبي حاتم: عن عطاء ومجاهد و طاوس أو اثنين منهم قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. و روي عن راشد بن سعد و ضمرة بن حبيب مثله، و قالا: حتى الكعاب و الجوز و البيض التي تلعب بها الصبيان. وعن سعيد بن المسيب قال: كان ميسر أهل الجاهلية: بيع اللحم بالشاة و الشاتين.

و عن الأعرج قال: الميسر الضرب بالقداح على الأموال و الثمار. و قال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله و عن الصلاة، فهو من الميسر. رواهن ابن أبي حاتم.

و في صحيح مسلم: عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّردشير، فكأنما صَبَغَ يده في لحم خنزير و دمه». و في موطأ مالك و مسند أحمد و سنني أبي داود و ابن ماجه: عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرد فقد عَصَى الله و رسوله» و روى موقوفاً على أبي موسى من قوله، فالله أعلم.

و أما الشطرنج: فقد قال عبد الله بن عمر: أنه شر من النرد. و نص على تحريمه مالك و أبو حنيفة وأحمد، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى. و أما الأنصاب: فقال ابن عباس و مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير والحسن و غير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، و أما الأزلام: فقالوا أيضاً: هي قِدَاح كانوا يستقسمون بها. رواه ابن أبي حاتم، و قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي سخطٌ من عمل الشيطان. و قال سعيد بن جبير: إثم، و قال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائد على الرجس، أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ و هذا ترغيب.

٩١- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ و هذا تهديد و ترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر

روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة، ، نادى: لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً: فنزلت الآية التي في المائدة فَدُعي

عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا. و هكذا رواه أبو داود والترمذي و النسائي، و صحح هذا الحديث: علي بن المديني و الترمذي.

و قد ثبت في الصحيحين: عن عمر بن الخطاب أنه قال: في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نَزَلَ تحريم الخمر و هي من خمسة: العنب و التمر و العسل و الحنطة و الشعير، و الخمر ما خامر العقل.

و روى البخاري: عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر و إن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة، ما فيها شراب العنب.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: أن عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف ـ أو: من دوس ـ فلقيه يوم الفتح براوية خمر يديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرَّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعها. قال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت في البطحاء.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أنس قال: كنتُ أسقى أبا عبيدة بن الجراح و أبي بن كعب وسهيل ابن بيضاء، و نفراً من أصحابه عند أبي طلحة، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آتٍ من المسلمين، فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حُرّمت؟ فقالوا: حتى ننظر و نسأل، فقالوا: يا أنس اسكبْ ما بقي في إنائك، فوالله ما عادوا فيها، و ما هي إلا التمر و البسر، و هي خمرهم يومئذ. أخرجاه في الصحيحين.

و في رواية قال: كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، و ما شرابهم إلا الفَضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد يُنادي، قال: اخرج فانظر، فإذا منادٍ يُنادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت، فَجَرتْ في سكك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فهرقتها، فقالوا أو قال بعضهم: قُتل فلان و فلان و هي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿ليسَ علَى الذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله حَرَّم على أمتي الخمر و الميسر و المزْر و الكُوبة و القِنِّين [1] و زادني صلاة الوتر» قال يزيد: القنين البرابط. تفرد به أحمد.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لُعِنت الخمر على عشرة وجوه: لُعنت الخمر بعينها، و شاربها، و ساقيها، و بائعها و مبتاعها، و عاصرها و معتصرها، و حاملها والمحمولة إليه، و آكل ثمنها» و رواه أبو داود و ابن ماجه.

(حديث آخر): روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أُنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث، قال: وَضَع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر قبل أن تحرم، حتى انتشينا فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل، و قالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجلٌ من الأنصار لحي جَزورٍ فضرب به أنف سعد ففزره، و كانت أنف سعد مفزورة فنزلت ﴿إنَّما الخَمْرُ وَ المَيْسِرُ﴾ إلى قوله تعالى:

(١) المزر: شراب مسكر يتخذ من الذُّرة، و الكوبة: هي الطبل، و قيل: النرد. و القنّين: البربط و هو العود.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أخرجه مسلم.

(حديث آخر): روى البخاري: عن جابر قال: صَبَّح أناس غداة أحد الخمر، فقُتلوا من يومهم شهداء، وذلك قبل تحريمها.

(حديث آخر): روى أبو داود الطيالسي عن البراء بن عازب قال: لما نَزلَ تحريم الخمر، قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿**ليسَ علَى الذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا**﴾ الآية، و رواه الترمذي.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً؟ فقال: «أهرقها» قال: أفلا نجعلها خلاً؟ قال: «لا». و رواه مسلم و أبو داود و الترمذي.

(حديث آخر): روى أبو داود عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مُخمَّرٍ خَمر، و كل مسكرٍ حرام، ومَنْ شَربَ مُسكراً بُخستْ صلاته أربعين صباحاً، فإن تابَ تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخَبَال» قيل: و ما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديدُ أهل النار. و من سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال» تفرد به أبو داود.

(حديث آخر): روى الشافعي رحمه الله: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَربَ الخمرَ في الدنيا، ثم لم يتب منها، حُرِمها في الآخرة» أخرجه البخاري و مسلم. و روى مسلم: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُخمَّرٍ خَمر، و كل مسكرٍ حرام، و من شرب الخمر فمات و هو يُدْمنها و لم يتب منها، لم يشربها في الآخرة».

(حديث آخر): روى ابن وهب: عن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يَنظر اللهُ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، و المُدْمن الخمر، و المنَّان بما أعطى» و رواه النسائي.

و عن عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يتعبّد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام و باطية خمر، فقالت: إني و الله ما دعوتك لشهادة، و لكن دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يَرم حتى وقع عليها، و قتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي و الإيمان أبداً، إلا أوْشك أحدهما أن يُخرج صاحبه. رواه البيهقي، و هذا إسناد صحيح، و قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» مرفوعاً والموقوف أصح، و الله أعلم. و له شاهد في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن، و لا يسرق سرقةً حين يسرقها و هو مؤمن، و لا يشرب الخمر حين يشربها و هو مؤمن».

﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ**

كفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾

٩٤- قال الوالبي عن ابن عباس قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد و صغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شاؤا لتناولوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه. و قال مجاهد: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني صغار الصيد و فراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني: كباره. و قال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش و الطير و الصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله و هم محرمون ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي و الرماح، سراً و جهراً، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

و قوله ههنا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قال السدي و غيره: يعني بعد هذا الإعلام و الإنذار و التقدم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمخالفته أمر الله و شرعه.

٩٥- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ و هذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، و نهى عن تعاطيه فيه، و هذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول، و لو ما تولّد منه و من غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، و الجمهور على تحريم قتلها أيضاً، و لا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين: عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ فواسق يُقتلنَ في الحِلِّ و الحَرَم: الغراب و الحدأة و العقرب و الفأرة و الكلب العقور».

و رواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله، قال أيوب: فقلت لنافع فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها، و لا يختلف في قتلها. و من العلماء كمالك و أحمد مَنْ أَلْحق بالكلب العقور: الذئب و السبع و النمر و الفهد، لأنها أشد ضرراً منه، فالله أعلم. و قال زيد بن أسلم و سفيان بن عيينة: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. و استأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: «اللهمّ سلّط عليه كلبك بالشام» فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإنْ قَتَلَ ما عداهن فداه، كالضبع و الثعلب و الوبر، ونحو ذلك. قال مالك: و كذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، و صغار الملحق بها من السباع العوادي. و قال الشافعي: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، و لا فرق بين صغاره و كباره، وجعل العلة الجامعة كونها لا تُؤكل. و قال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور و الذئب، لأنه كلب بري، فإنْ قتل غيرهما فداه، إلا أنْ يصول عليه سبع غيرهما فيقتله، فلا فداء عليه. و هذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح ابن حي. و قال زفر بن الهذيل: يفدى ما سوى ذلك و إن صال عليه.

و قال بعض الناس: المراد بالغراب ههنا: الأبقع، و هو الذي في بطنه و ظهره بياض، دون الأدرع: وهو الأسود، و الأعصم: و هو الأبيض لما رواه النسائي[1] عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «خمس يقتلهن المحرم: الحية و الفأرة و الحدأة و الغراب الأبقع و الكلب العقور». و الجمهور على أن المراد به أعم من

---

(١) و هو في صحيح مسلم في كتاب الحج (٢/ ٨٥٦).

ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه.

و قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن أيوب قال: نُبئت عن طاوس أنه قال: لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً. وهذا مذهب غريب عن طاوس، و هو متمسك بظاهر الآية. و قال مجاهد بن جبير: المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يُكفّر، و قد بطل إحرامه. رواه ابن جرير و هو قول غريب أيضاً. و الذي عليه الجمهور: أن العامد و الناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. و قال الزهري: دل الكتاب على العامد، و جرت السنة على الناسي. و معنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد، و على تأثيمه بقوله: ﴿لِيذُوقَ وبالَ أمرِهِ عفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ و جاءت السنة من أحكام النبيﷺ و أحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد.

و أيضاً: فإنَّ قتل الصيد إتلافٌ، و الإتلاف مضمون في العمد و في النسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم.

و قوله تعالى: ﴿فَجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قرأ بعضهم بالإضافة و قرأ آخرون بعطفها ﴿فَجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ و حكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ: ﴿فَجزاؤُهُ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾. و في قوله: ﴿فَجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ على كل من القراءتين، دليل لما ذهب إليه مالك و الشافعي و أحمد و الجمهور، من وجوب الجزاء من مثل ما قَتَلَه المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة، سواء كان الصيد المقتول مِثْلياً أو غير مثلي، قال: و هو مخير إن شاء تصدق بثمنه، و إن شاء اشترى به هدياً. و الذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، و في بقرة الوحش ببقرة، و في الغزال بعنز، و ذِكر قضايا الصحابة و أسانيدها مقررٌ في كتاب الأحكام. و أما إذا لم يكن الصيد مثلياً، فقد حَكَمَ ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة. رواه البيهقي.

و قوله تعالى: ﴿يَحكُمُ بِهِ ذَوا عَدلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني: أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة، في غير المثل: عدلان من المسلمين. و اختلف العلماء في القاتل، هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: **(أحدهما)**: لا، لأنه قد يُتّهم في حكمه على نفسه، و هذا مذهب مالك. **(و الثاني)**: نعم، لعموم الآية، و هو مذهب الشافعي و أحمد. و احتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة، و روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيداً و أنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب و هو جالس عنده: ما ترى فيها؟ قال: فقال الأعرابي: أتيتك و زنت خليفة رسول اللهﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: و ما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحكُمُ بِهِ ذَوا عَدلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي، حتى إذا اتفقنا على أمرٍ أمرناك به، و هذا إسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، و مثله يحتمل ههنا. فبيّن له الصديق الحكم برفق و تؤدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم.

روى ابن جرير: عن أبي جرير البجلي قال: أصبت ظبياً و أنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت

رجلين من إخوانك، فليحكما عليك، فأتيت عبد الرحمن و سعد، فحكما علي بتيس أعفر. و روى ابن جرير عن طارق قال: أوطأ أريد ظبياً فقتله و هو محرم، فأتى عمر ليحكم عليه، فقال عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء و الشجر، ثم قال عمر: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ و في هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي و أحمد رحمهما الله.

و اختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، و إن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين: فقال الشافعي و أحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، و جعلاه شرعاً مقرراً لا يعدل عنه، و ما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين.

و قال مالك و أبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وُجد للصحابة في مثله حكم أم لا، لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

و قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلاً إلى الكعبة، و المراد: وصوله إلى الحرم بأن يُذبح هناك، ويُفرّق لحمه على مساكين الحرم. و هذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. و قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام: بين الجزاء و الإطعام و الصيام، كما هو قول مالك و أبي حنيفة و أبي يوسف و محمد ابن الحسن و أحد قولي الشافعي و المشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر «أو» بأنها للتخيير.

و القول الآخر: أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوَّم الصيد المقتول، عند مالك وأبي حنيفة و أصحابه و حماد و إبراهيم. و قال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يُشترى به طعام فيتصدق به، فيُصرف لكل مسكين مدٌّ منه عند الشافعي و مالك و فقهاء الحجاز، و اختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة و أصحابه: يطعم كل مسكين مدين، و هو قول مجاهد. و قال أحمد: مدٌّ من حنطةٍ أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

وقال ابن جرير: و قال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً، كما في جزاء المترفه بالحلق و نحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، و الفَرَق ثلاثة آصع.

و اختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: مكانه الحرم. و هو قول عطاء. و قال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه، و قال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، و إن شاء أطعم في غيره.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ فإذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حُكم عليه فيه، فإنْ قتل ظبياً أو نحوه، فعليه شاة تُذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أيّلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجدها أطعم

عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، و إن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير، وزادوا: الطعام مدّ مدّ يشبعهم.

و عن عامر الشعبي و عطاء و مجاهد ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى. رواه ابن جرير، و كذا روى ابن جريج عن مجاهد و أسباط عن السدي: أنها على الترتيب. و قال عطاء وعكرمة مجاهد في رواية الضحاك و إبراهيم النخعي: هي على الخيار و هي رواية عن ابن عباس، و اختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

و قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله، الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام، و اتبع شرع الله و لم يرتكب المعصية، ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: و من فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام، و بلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ قال ابن جريج: قلت لعطاء ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؟ قال عما كان في الجاهلية، قال قلت: و ما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ قال: و من عاد في الإسلام فينتقم الله منه، و عليه مع ذلك الكفارة، قال قلت: فهل في العود من حدٍّ تعلمه؟ قال: لا، قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أنْ يعاقبه؟ قال: لا، هوذنبٌ أذنبه فيما بينه و بين الله عز وجل، و لكن يفتدي. و رواه ابن جرير.

و قيل: معناه: فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير و عطاء، ثم الجمهور من السلف و الخلف: على أنه متى قتل المحرمُ الصيدَ، وجب الجزاء، و لا فرق بين الأولى و الثانية و الثالثة، و إن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك و العمد.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ، و هو محرم، يُحكم عليه فيه كلما قتله، فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله عز وجل. و هكذا قال شريح و مجاهد و سعيد بن جبير و الحسن البصري و إبراهيم النخعي. رواهن ابن جرير، ثم اختار القول الأول. و روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري: أن رجلا أصاب صيداً، فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

و قال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ يقول عزّ ذكره: و الله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهر، و لا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، و لا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأنّ الخلق خلقه، و الأمر أمره، له العزة و المنعة، و قوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) ﴾

٩٦- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في رواية عنه، و سعيد بن المسيب و سعيد بن جبير و غيرهم، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني: ما يصطاد منه طرياً ﴿وَ طَعَامُهُ﴾ ما يتزود منه مليحاً يابساً، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَ طَعَامُهُ﴾ ما لفظه ميتاً، و كذا روي عن أبي بكر الصديق و زيد بن ثابت و عبد الله بن عمرو و أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم و عكرمة و أبي سلمة بن عبد الرحمن و إبراهيم النخعي و الحسن البصري.

و هكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه. و قوله: ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَ لِلسَّيَّارَةِ﴾ و هم جمع سَيَّار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر و السفر. و قال غيره: الطري منه لمن يصطاد من حاضرة البحر، و طعامه ما مات فيه، أو اصطيد منه و مُلِّح و قُدِّد، يكون زاداً للمسافرين، و النائين عن البحر. و قد روى نحوه عن ابن عباس و مجاهد و السدي و غيرهم.

و قد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة و بما رواه الإمام مالك: عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبلَ الساحل، فأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح و هم ثلثمائة و أنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فَنِي الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقال فقد وجدنا فقدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوتٌ مثل الظَّرِب فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر براحلة فرحِّلت و مرت تحتهما فلم تصبهما. و هذا الحديث مخرج في الصحيحين.

و عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر نحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأ به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه و الحل ميتته».

و قد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي و أحمد بن حنبل و أهل السنن الأربع، و صححه البخاري والترمذي و ابن خزيمة و ابن حبان و غيرهم، و قد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه.

و قد روى الشافعي عن ابن عباس: أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم.

و قد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء: إلى أنه تؤكل دواب البحر، و لم يستثن من ذلك شيئاً، و قد تقدم عن الصديق أنه قال: طعامه كل مافيه. و قد استثنى بعضهم الضفادع و أباح ما سواها، لما رواه الإمام أحمد و أبو داود النسائي عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي: أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع.

و قال آخرون: يؤكل من صيد البحر: السمك، و لا يؤكل الضفدع. و اختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، و قيل: لا يؤكل، و قيل: ما أُكل شبهه من البر، أكل مثله في البحر، و ما لا يُؤكل شبهه لايؤكل. و هذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، و قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر، لعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. و قد ورد

حديث بنحوه ذلك، عن أبي الزبير عن جابر به و هو منكر، و قد احتج الجمهور من أصحاب مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره، و بحديث: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» و قد تقدم أيضاً.

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «أُحلت لنا ميتتان و دمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، و أما الدمان فالكبد و الطحال» و رواه أحمد و ابن ماجه و الدارقطني و البيهقي، و له شواهد، وروى موقوفاً، و الله أعلم.

و قوله: ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ**﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثم و غرم، أو مخطئاً غرم و حرم عليه أكله، لأنه في حقه كالميتة، و كذا في حق غيره من المحرمين و المحلين، عند مالك و الشافعي في أحد قوليه، و به يقول عطاء و القاسم و سالم وأبو يوسف و محمد بن الحسن و غيرهم.

فإن أكله أو شيئاً منه فهل يلزمه جزاء ثان؟ فيه قولان للعلماء **(أحدهما)**: نعم، روى عبد الزراق عن عطاء قال: إنْ ذَبَحه ثم أكله فكفارتان، و إليه ذهب طائفة. **(و الثاني)**: لا جزاء عليه في أكله، نص عليه مالك ابن أنس، قال أبو عمر بن عبد البر: و على هذا مذاهب فقهاء الأمصار و جمهور العلماء، ثم وجّهه أبو عمر: بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يُحد، فإنما عليه حدٌ واحد، و قال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل.

و أما إذا صاد حلالٌ صيداً فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، و لم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا؟ حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن: عمر بن الخطاب و أبي هريرة و الزبير ابن العوام، و كعب الأحبار و مجاهد و عطاء في رواية و سعيد بن جبير، و به قال الكوفيون. روى ابن جرير عن أبي هريرة: أنه سئل عن لحم صيدٍ صاده حلالٌ، أيأكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. و قال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، و منعوا من ذلك مطلقاً، لعموم هذه الآية الكريمة. و روى عبد الرزاق عن ابن عباس: أنه كره أكل الصيد للمحرم، و قال: هي مبهمة. يعني قوله: ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ**﴾ و روي عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس و جابر بن زيد، و إليه ذهب الثوري و إسحاق بن راهويه في رواية، و قد روى نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير.

و قال مالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه ـ في رواية ـ و الجمهور: إنْ كان الحلال قد قصد المُحرم بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكله، لحديث الصعب بن جثامة: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً، و هو بالأبواء أو بودّان، فردّه عليه فلما رأى ما في وجهه، قال: «إنا لم نَردّه عليك إلا أنا حُرُم». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، و له ألفاظ كثيرة، قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظَنّ أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد، فإنه يجوز له الأكل منه، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش و كان حلالاً لم يُحْرِم و كان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله، ثم سألوا رسول الله ﷺ، فقال: «هل كان منكم أحدٌ أشار إليها أو أعان في قتلها»؟ قالوا: لا، قال: «فكلوا» و أكل منها رسول الله ﷺ.

و هذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة.

و روى مالك: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج و هو محرم، في يوم صائف، قدغطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أُتي بلحم صيدٍ فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولا تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيئتكم، إنما صِيدَ من أجلي.

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) ﴾

١٠٠- يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ و الطَّيِّبُ و لَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعني: أن القليل الحلال النافع، خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث «ما قلّ وكفى، خيرٌ مما كثُر و ألهى»[1]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام و دعوه، و اقتنعوا بالحلال و اكتفوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

١٠١- ثم قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ هذا تأديبٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، و نهيٌ لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال و التنقيب عنها، لأنها إنْ أُظهرتْ لهم تلك الأمور، ربما ساءتهم و شق عليهم سماعها، و روى البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبةً ما سمعت مثلها قط، و قال فيها: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً» قال فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وُجوههم لهم حنين، فقال رجل: مَنْ أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية ﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ و رواه مسلم و أحمد و الترمذي و النسائي.

و روى ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية قال: فحدثنا أنس بن مالك حدثه: أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيءٍ إلا بيّنته لكم» فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يميناً و لا شمالاً إلا وجدت كُلاً لافّاً رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يُلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» قال: ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً، و بالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله، أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن، قال: و قال رسول الله ﷺ: «لم أر في الخير والشر كاليوم قط، صُوّرت لي الجنة و النار، حتى رأيتهما دون الحائط» أخرجاه.

و روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قومٌ يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: مَنْ أبي؟ و يقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تفرد به البخاري.

و ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا عَلمَ بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها،

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو يعلى (١/ ١٠٥٣) و صححه الضياء المقدسي في المختارة.

وتركها.

و قوله تعالى: ﴿و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: و إن تسألوا عن هذه الأشياء التي نُهيتم عن السؤال عنها، حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ، تُبيّن لكم ﴿وَ ذَلكَ عَلَى اللهِ يَسيرٌ﴾، ثم قال: ﴿عفا اللهُ عنها﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك ﴿و اللهُ غفورٌ حليمٌ﴾. و قيل: المراد بقوله: ﴿و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، و قد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جرماً مَنْ سأل عن شيء لم يُحرم، فحُرِّم من أجل مسألته»[1]. ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة، فسألتم عن بيانها، بُيّنت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها ﴿عفا اللهُ عنها﴾ أي: ما لم يَذكره في كتابه، فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها، كما سكت عنها.

و في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك مَن كان قبلكم كثرة سؤالهم، و اختلافهم على أنبيائهم».

١٠٢ - ثم قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَومٌ مِّن قَبلِكُمْ ثُمَّ أَصبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ من قبلكم، فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بُيّنت لهم فلم ينتفعوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، بل على وجه الاستهزاء و العناد.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَسأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ و إِنْ تسألوا عنها حينَ يُنَزَّلُ القُرآنُ تُبد لكمْ﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكمْ الحجَّ فحُجُّوا» فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً أم كلَّ عام؟ فقال: «لا، بل عاماً واحداً، و لو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَسأَلُوا عَنْ أَشياءَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَصبَحُوا بِها كَافِرينَ﴾ رواه ابن جرير.

و أما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك، ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَومٌ مِّن قَبلِكُمْ ثُمَّ أَصبَحُوا بِها كَافِرينَ﴾ رواه ابن جرير. يعني عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا: النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، و أن يجعل لهم الصفا ذهباً، و غير ذلك، و كما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، و قد قال الله تعالى: ﴿و مَا مَنَعَنَا أَن نُّرسِلَ بالآياتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِها الأَوَّلُونَ وَآتَينا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبصِرَةً فَظَلَمُوا بها وَ ما نُرسلُ بالآياتِ إِلاَّ تَخويفاً﴾ و قال تعالى: ﴿و أَقسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيمَانِهِمْ لَئِن جاءَتهُمْ آيةٌ لَيُؤمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآياتُ عِندَ اللهِ وَ مَا يُشعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لاَ يُؤمِنونَ * وَ نُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبصارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغيانِهِمْ يَعمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنَا إِلَيهِمُ المَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ المَوتَى وَ حَشَرنَا عَلَيهِمْ كُلَّ شَيءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤمِنُوا إِلاَّ أَن يَشاءَ اللهُ وَ لَكِنَّ أَكثَرَهُمْ يَجهَلونَ﴾.

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

---

(١) رواه الشيخان.

١٠٣- روى البخاري: عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع دَرُّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، و السائبة كانوا يُسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء، قال: و قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يَجُر قُصْبه في النار، كان أول من سَيَّبَ السوائب». و الوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، و كانوا يسيبونها لطواغيتهم، إنْ وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، و الحام: فحل الإبل، يَضربُ الضِّراب المعدود، فإذا قضى ضِرابه و دَعُوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل فلم يُحمل عليه شيء، و سموه الحامي. و كذا رواه مسلم و النسائي.

فعمر و هذا هو ابن لحى بن قمعة، أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرهم، و كان أول من غَيَّر دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، و دعا الرعاع من الناس إلى عبادتها، و التقرب بها، و شرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام و غيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: **﴿و جعلوا لله مِمَّا ذرأ مِنَ الحَرثِ و الأنعام نَصيباً﴾** إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: هي الناقة إذا نَتجَت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإنْ كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء، و إنْ كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا هذه بحيرة. وذكر السدي و غيره قريباً من هذا. و أما السائبة: فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسرمن البحيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها و بينه ستة أولاد، كانت علي هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين، ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم. و قال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد، ليس بينهن ذكر، سيِّبت فلم تُركب، و لم يجز وَبَرها، و لم يحلب لبنها إلا الضيف. و قال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقُضيت حاجته، سيَّب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيءٍ كان لها. و قال السدي: كان الرجل منهم إذا قُضيت حاجته، أو عوفي من مرضٍ، أو كثر ماله، سيّب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

أما الوصيلة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإنْ كان ذكراً و هو ميت، اشترك فيه الرجال دون النساء، و إن كان أنثى استحيوها، و إن كان ذكراً و أنثى في بطن واحد، استحيوهما و قالوا: وصلته أخته فحرّمته علينا. رواه ابن أبي حاتم.

و روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب **﴿وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾** قال: فالوصيلة من الإبل: كانت الناقة تبتكر من الأنثى، ثم ثنت بأنثى فسموها: ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم. وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: و أما الحام: فالفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً و لا يجزون له وبراً، و لا يمنعونه من حمى رعي، و من حوض يشرب منه، و إن كان الحوض لغير صاحبه. و قد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

و قد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم: عن مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقان من الثياب، فقال لي: «هل لك من مال؟» فقلت: نعم، قال: «من أيِّ المال» قال: فقلت: من كُل المال، من الإبل و الغنم والخيل و الرقيق، قال: «فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك»، ثم قال: «تنتج إبلك وافية آذانها؟» قال:

قلت: نعم، قال: «وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟»، قال: «فلعلك تأخذ المُوسَى فتقطع آذان طائفة منها، وتقول: هذه بحير وتشق آذان طائفة منها و تقول هذه حرم» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل إنَّ كل ما آتاك الله لك حِلٌّ»(١).

و قوله تعالى: ﴿و لكنَّ الذينَ كفرُوا يَفترونَ علَى اللهِ الكَذِبَ وَ أكثرُهُمْ لاَ يَعقِلُونَ﴾ أي: ما شرعَ الله هذه الأشياء، و لا هي عنده قربة، و لكن المشركين افتروا ذلك، و جعلوه شرعاً لهم، و قُربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبالٌ عليهم.

١٠٤- ﴿و إذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلَى مَا أنزَلَ اللهُ وَ إلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَليهِ آبَاءَنَا﴾ أي: إذا دُعوا إلى دين الله و شرعه، و ما أوجبه و ترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء و الأجداد، من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لاَ يَعلَمُونَ شَيْئاً﴾ أي: لا يفهمون حقاً و لا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم و الحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، و أضل سبيلاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٥- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، أن يُصلحوا أنفسهم، و يفعلوا الخير بجهدهم و طاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال، و نهيته عنه من الحرام، فلا يضره مَن ضل بعده إذا عمل بما أمرته به. و كذا روى الوالبي عنه، و هكذا قال مقاتل بن حيان. فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا عَليكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذا اهْتَدَيتُمْ إلَى اللهِ مَرجِعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ تَعمَلونَ﴾ أي: فيُجازي كل عاملٍ بعمله، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً.

و قد روى الإمام أحمد: عن قيس قال: قام أبوبكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكن تقرءون هذه الآية ﴿يا أيها الذينَ آمنوا عَليكُمْ أنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذا اهْتَدَيتُمْ﴾ و إنكم تضعونها على غير موضعها، و إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا المنكر و لا يغيرونه، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه» قال: و سمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس إياكم و الكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان. و قد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة و ابن حبان في صحيحه، و قد رجح رفعه الدارقطني وغيره.

و روى ابن جرير: عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفرٌ ستة، كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، و كلهم مجتهد لا يألو، و كلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة إلا الخير، و هم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجلٌ من القوم: و أي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض الشرك؟، فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى لا أبالك أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم، عظهم وانههم،

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٧٣) و أبو داود (٤٠٦٣) و النسائي (٤٨١٩)، وهو حديث صحيح.

وإنْ عصوك فعليك بنفسك ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿يا أيها الذينَ آمنوا عَليكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ الآية .

و روى عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم من المسلمين جلوس ، فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿عَليكُمْ أنفُسَكُمْ لاَ يَضرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ فقال : أكثرهم لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم .

و قال سعيد بن المسيب : إذا أَمرتَ بالمعروف و نهيت عن المنكر ، فلا يضرك مَن ضلَّ إذا اهتديت . رواه ابن جرير . وكذا قال غير واحد من السلف .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٦ – اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز ، قيل : إنه منسوخ ، و قال آخرون : و هم الأكثرون ـ فيما قاله ابن جرير ـ بل هو محكم ، و من ادعى نسخه فعليه البيان . فقوله تعالى : ﴿يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضرَ أحَدَكُم المَوتَ حينَ الوَصيَّةِ اثنانِ﴾ هذا هو الخبر لقوله ﴿شهادة بينكم﴾ فقيل : تقديره : شهادة اثنين ، حُذف المضاف و أُقيم المضافِ إليه مقامه . و قيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان ، و قوله تعالى : ﴿ذَوَا عَدلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين ، و قوله : ﴿مِّنكُمْ﴾ أي : من المسلمين قاله الجمهور ، قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ذَوَا عَدلٍ مِّنكُمْ﴾ قال من المسلمين . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : و رُوي عن عبيدة و سعيد بن المسيب و الحسن و مجاهد و يحيى بن يعمر و السدي و قتادة و مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهم نحو ذلك . قال ابن جرير : و قال آخرون غير ذلك ﴿ذَوَا عَدلٍ مِّنكُمْ﴾ أي : من أهل الموصى ، و ذلك قولٌ روي عن عكرمة و عبيدة و عدة غيرهما .

و قوله : ﴿أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ قال : من غير المسلمين يعني أهل الكتاب . ثم قال : و روى عن عبيدة و شريح و سعيد بن المسيب و محمد بن سيرين و يحيى بن يعمر و عكرمة و مجاهد و سعيد بن جبير و الشعبي و إبراهيم النخعي و قتادة و أبي مجلز والسدي ومقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهم نحو ذلك . و على ما حكاه ابن جرير : عن عكرمة وعبيدة في قوله : ﴿مِنكُمْ﴾ أن المراد : من قبيلة الموصى يكون المراد ههنا ﴿أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ أي : من غير قبيلة الموصى . و روى ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري و الزهري رحمهما الله .

و قوله تعالى : ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرضِ﴾ أي : سافرتم ﴿فَأصابَتْكُم مُّصيبَةُ المَوتِ﴾ و هذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين : أن يكون ذلك في سفر ، و أن يكون في وصية ، كما صرح بذلك

شريح القاضي. رواه ابن جرير. و روى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، و هذه المسألة من أفراده وخالفه الثلاثة، فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، و أجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

و قال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هل المراد به أن يُوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين: **(أحدهما)**: أن يوصي إليهما، **(و القول الثاني)**: أنهما يكونان شاهدين، و هو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصيٌّ ثالث معهما، اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية و الشهادة، كما في قصة تميم الداري و عدي بن بداء كما سيأتي ذكرهما آنفاً إن شاء الله و به التوفيق، و قد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأنا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد، و هذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، و هو حكم مستقلٌ بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص، بشهادة خاصة، في محل خاص، و قد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرينة الريبة، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

و قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني صلاة العصر. و كذا قال سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي و قتادة و عكرمة و محمد بن سيرين، وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وروي عن ابن عباس يعني: صلاة أهل دينهما. و روي عن عبيدة، و كذا قال إبراهيم و قتادة و غير واحد، والمقصود: أن يُقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلاً، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي: بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان، ﴿ثَمَنًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: و لو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحابيه ﴿و لا نكتم شهادة الله﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها، وتعظيماً لأمرها، ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

١٠٧ - ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: فإن اشتهر و ظهر و تحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا، أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، و ظُهر عليهما بذلك ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ هذه قراءة الجمهور، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك: أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليقم اثنان من المورثة المستحقين للتركة، و ليكونا أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا أنهما خانا، أحق و أصح و أثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي: فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة، و الرجوع إلى قولهما و الحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوثٌ في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمّته إليهم، كما باب القسامة من الأحكام.

و قد وردت السنة بمثل ما دلت عليه الآية الكريمة: فروى الترمذي عن ابن عباس قال: خرج رجلٌ من بني سهم مع تميم الداري و عدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً

من فضة مخوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، و وجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم و عدي فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، و أن الجام لصاحبهم و فيهم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، و كذا رواه أبو داود. و قد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين، منهم: عكرمة و محمد بن سيرين و قتادة، و ذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة: مجاهد و الحسن و الضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف و صحتها.

و من الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً: ما رواه أبو جعفر بن جرير: عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاً، قال: فحضرته الوفاة و لم يجد أحداً من المسلمين يُشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدما الكوفة فأتيا الأشعري - يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه - فأخبراه، و قدما الكوفة بتركته و وصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا و لا كذبا، و لا بدّلا و لا كتما و لا غيّرا، و أنها لوصية الرجل و تركته، قال: فأمضى شهادتهما. رواه عن الشعبي: أن أبا موسى قضى به. و هذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري، فقوله: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ» الظاهر - و الله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم و عدي بن بداء، و قد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدَّعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، و الله أعلم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتيبَ في شهادتهما، استُحلفا بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، فإن اطّلعَ الأولياء على أن الكافرين كَذَبَا في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: أن شهادة الكافرين باطلة، و إنا لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد فتردّ شهادة الكافرين، و تجوز شهادة الأولياء. و هكذا روى العوفي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

و هكذا قرّر هذا الحكم، على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين و السلف رضي الله عنهم، و هو مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

و قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضى، من تحليف الشاهدين الذميين و قد استريب بهما، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى. و قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أن يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها، هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه و إجلاله، و الخوف من الفضيحة بين الناس، إنْ رُدّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويَستحقون ما يدّعون، و لهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي: و أطيعوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته، ومتابعة شريعته.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾

١٠٩ – هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أممهم، الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ و قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ و قول الرسل: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ قال مجاهد و الحسن البصري و السدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم. روى عبد الرزاق عن مجاهد ﴿يوم يَجمعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾. رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم.

و قال أسباط عن السدي: ﴿وم يَجمعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم. رواه ابن جرير. ثم روى عن ابن جريج قوله: ﴿يوم يَجمعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا عملوا بعدكم، وماذا أحدثوا بعدكم، قال، قالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا، إلا علمٌ أنت أعلم به منّا. رواه ابن جرير، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة، و لا شك أنه قولٌ حسن، و هو من باب التأدب مع الرب جل جلاله، أي: لا علمَ لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن و إنْ كنا قد أُجبنا، و عرفنا مَنْ أجابنا، ولكن منهم مَن كنّا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، و أنت العليم بكل شيء، المطّلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاَ علم، فإنك ﴿أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾

١١٠ – يذكر تعالى ما امتن به على عبده و رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات، و خوارق العادات، فقال: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي: في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية، و دلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتُكَ لها برهاناً، على براءتها مما نسبه الظالمون و الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ و هو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك و كبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، و اعترفت لي بالعبودية، و أخبرت عن رسالتي إياك، و دعوت إلى عبادتي، و لهذا قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك و كبرك، و ضمن «تكلم» تدعو لأن كلامه الناس في كهولته، ليس بأمر عجيب، و قوله: ﴿و إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الخط و الفهم ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ و هي المنزلة على موسى بن عمران الكليم، و قد يرد لفظ التوراة في الحديث، و يراد به ما هو أعم من ذلك،

وقوله: ﴿و إذْ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ بإذْنِي﴾ أي: تصوّره و تشكّله على هيئة الطائر، بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها، بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح، تطير بإذن الله و خلقه.

و قوله تعالى: ﴿وَ تُبرئُ الأكْمَهَ وَ الأبرَصَ بإذْنِي﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. و قوله: ﴿و إذْ تُخرِجُ المَوتَى بإذنِي﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله، و قدرته و إرادته و مشيئته.

و قوله تعالى: ﴿و إذْ كَفَفْتُ بَنِي إسرائِيلَ عَنكَ إذْ جِئتَهُم بالبَيِّناتِ فقَالَ الذينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إنْ هذَا إلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: و اذكر نعمتي عليكَ في كفي إياهم عنك، حين جئتهم بالبراهين و الحجج القاطعة على نبوّتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك و اتهموك بأنك ساحر، و سعوا في قتلك و صلبك فنجيتك منهم، و رفعتك إليَّ، و طهرتك من دنسهم، و كفيتك شرهم، و هذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبَّر عنه بصيغة الماضي، دلالة على وقوعه لا محالة، و هذا من أسرار الغيوب، التي أطلع الله عليها نبيه محمداًﷺ.

١١١ – وقوله: ﴿و إذْ أوْحَيتُ إلَى الْحَوَارِيِّينَ أنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي﴾ و هذا أيضاً من الامتنان عليهﷺ، بأن جعل لهأصحاباً و أنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿وَ أوْحَينَا إلَى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ﴾ الآية و هو وحي إلهام بلا خلاف، و كما قال تعالى: ﴿و أوْحَى رَبُّكَ إلَى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعرِشُونَ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمراتِ فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ الآية، و هكذا قال بعض السلف في هذه الآية أي: ألهموا ذلك، فامتثلوا ما ألهموا. قال الحسن البصري: ألهمهم الله عز وجل ذلك. وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك. و يحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله و برسوله، و استجابوا لك و انقادوا و تابعوك، فقالوا: ﴿آمَنَّا باللهِ وَ اشْهَدْ بِأنَّنا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾

١١٢ – هذه قصة المائدة، و إليها تنسب السورة، فيقال: سورة المائدة، و هي مما امتن الله به على عبده و رسوله عيسى، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة، و حجة قاطعة، و قد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل، و لا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسىﷺ ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه

قراءة كثيرين، و قرأ آخرون ﴿هَلْ تَستَطِيعُ رَبَّكَ﴾ أي: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أن يُنَزِّلَ عَلينَا مَائِدَةً مِّنَ السَّماءِ﴾ و المائدة هي: الخوان عليه طعام، وذكر بعضهم: أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم و فقرهم، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم، يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة ﴿قال اتَّقُوا اللهَ إن كُنتُم مُّؤمِنينَ﴾ أي: فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله، و لا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، و توكلوا على الله في طلب الرزق، إن كنتم مؤمنين.

١١٣ - ﴿قالُوا نُريدُ أن نَّأكُلَ مِنهَا﴾ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿و تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَ نَعلَمَ أن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: و نزداد إيماناً بك و علماً برسالتك ﴿و نَكونَ عَلَيهَا مِنَ الشَّاهِدينَ﴾ أي: و نشهد أنها آية من عند الله، و دلالة و حجة على نبوتك، و صدق ما جئت به.

١١٤ - ﴿قالَ عيسَى ابنُ مَريمَ اللَّهمَّ رَبَّنا أنزِلْ عَلَينَا مَائِدَةً مِّنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأوَّلِنَا وَ آخِرِنَا﴾ قال السدي: أي: نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً، نعظمه نحن و من بعدنا. و قال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه. و قال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. و عن سلمان الفارسي: عظة لنا و لمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا و آخرنا ﴿و آيَةً مِّنكَ﴾ أي: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، و على إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وَ ارْزُقْنَا﴾ أي: من عندك رزقاً هنيئاً، بلا كلفة و لا تعب ﴿و أنتَ خَيرُ الرَّازِقينَ﴾.

١١٥ - ﴿قالَ اللهُ إنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيكُمْ فَمَن يَكفُرْ بَعدُ مِنكُمْ﴾ أي: فمن كذّب بها من أمتك يا عيسى، وعاندها ﴿فَإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أحَداً مِّنَ العَالَمِينَ﴾ أي: من عالمي زمانكم، كقوله تعالى ﴿و يَومَ القِيامَةِ أدْخِلُوا آلَ فِرعَونَ أشَدَّ العَذابِ﴾ و كقوله ﴿إنَّ المُنافِقينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ و قد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، و من كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين

قال ابن عباس: كانت المائدة سمكة و أرغفة، و قال مجاهد: هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: نزلت المائدة خبزاً و سمكاً. و قال عطية العوفي: المائدة سمك فيه طعم كل شيء. وعن سعيد بن جبير: أنزل عليها كل شيء إلا اللحم. و روى الثوري عن ميسرة قال: كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام، إلا اللحم. و عن عكرمة: كان خبز المائدة من الأرز. رواه ابن أبي حاتم.

و كل هذه الآثار دالةٌ على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قالَ اللهُ إنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيكُمْ﴾ الآية.

و قال قائلون: إنها لم تنزل، فروى ابن جرير عن مجاهد قال: مائدةٌ عليها طعامٌ، أبوها حين عُرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم. و روى عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم ﴿فَمَن يَكفُرْ بَعدُ مِنكُمْ فَإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أحَداً مِّنَ العَالَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل، و هذه أسانيد

صحيحة إلى مجاهد و الحسن، وقد يتقوّى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى، و ليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله، و كان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، و لا أقل من الآحاد، والله أعلم.

و لكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، و هو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ووعد الله و وعيده حقٌ و صدق. و هذا القول ـ و الله أعلم ـ الصواب، كما دلت عليه الأخبار و الآثار عن السلف وغيرهم، و قد ذكر أهل التاريخ: أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ و أنواع الجواهر، فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق، فمات و هي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً، لما فيها من اليواقيت النفيسة و الجواهر اليتيمة. و يقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام، فالله أعلم.

و قد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبيﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «و تفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إنْ شئتَ أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كَفَرَ منهم بعد ذلك عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبة و الرحمة. قال: «بل بابُ التوبةِ و الرحمة». و رواه ابن مردويه و الحاكم.

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾

١١٦ - هذا أيضاً مما يخاطبُ الله به عبده و رسوله عيسى ابن مريمﷺ، قائلاً له يوم القيامة بحضرة مَنْ اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى و توبيخ، و تقريع على رءوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة و غيره، و استدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. و قال السدي: هذا الخطاب و الجواب في الدنيا. قال ابن جرير: هذا هو الصواب، و كان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا. و احتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: **(أحدهما)** أن الكلام بلفظ المضي **(و الثاني)** قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

و هذان الدليلان فيهما نظر، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذُكر بلفظ المضي، ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية: التبرئ منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، و تعليق ذلك على الشرط، لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، و الذي قاله قتادة و غيره هو الأظهر،

والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى، و تقريعهم و توبيخهم، على رءوس الأشهاد يوم القيامة.

و قوله: **﴿سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ﴾** هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: يلقى عيسى حجته، و لقّاه الله تعالى في قوله: **﴿و إذْ قالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَريَمَ أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾** قال أبو هريرة عن النبيﷺ: «فلقّاه الله **﴿سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ﴾** إلى آخر الآية.

و قوله: **﴿إن كنتُ قُلتهُ فَقَدْ عَلِمتَهُ﴾** أي: إنْ كان صَدَر مني هذا فقد عَلِمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيءٌ، فما قلتُه و لا أردتُه في نفسي و لا أضمرته، و لهذا قال: **﴿تَعلَمُ ما في نَفسِي وَ لاَ أعلَمُ مَا فِي نَفسِكَ إنَّكَ أنتَ عَلاَّمُ الغُيوبِ﴾**.

١١٧ ـ **﴿ما قُلتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أمَرتَنِي بِهِ﴾** بإبلاغه **﴿أنِ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾** أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به، و أمرتني بإبلاغه **﴿أنِ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾** أي: هذا هو الذي قلت لهم، و قوله: **﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾** أي: كنتُ أشهدُ على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم **﴿فلَمَّا تَوَفَّيتَنِي كُنتَ أنتَ الرَّقيبَ عَلَيهِمْ وَ أنتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾**.

و روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول اللهﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حُفاةً عراةً غُرلا **﴿كَمَا بَدَأنَا أوَّلَ خَلقٍ نُعيدُهُ﴾** و إنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا و إنه يُجاءُ برجالٍ من أمتي، فيُؤخذُ بهم ذات الشمال، فأقول: «أصحابي»، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقولُ كما قال العبد الصالح **﴿و كنتُ عَليهِمْ شَهيداً مَّا دُمتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِي كُنتَ أنتَ الرَّقيبَ عَليهِمْ وَ أنتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ* إن تُعَذِّبهُمْ فإنَّهُمْ عِبادُكَ و إن تَغفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾** فيقال: إنَّ هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم، منذ فارقتهم» و رواه البخاري.

و قوله: **﴿إن تُعَذِّبهُمْ فَإنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إن تَغفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾** هذا الكلام يتضمن ردَّ المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل و هم يسألون، و يتضمن التبري من النصارى، الذين كَذَبُوا على الله و رسوله، و جعلوا لله نداً و صاحبة و ولدا ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ و هذه الآية لها شأن عظيم و نبأ عجيب، و قد ورد في الحديث أن النبيﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها.

روى الإمام أحمد: عن أبي ذرؓ قال: صلَّى النبيﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها، ويسجد بها **﴿إن تُعَذِّبهُمْ فَإنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إن تَغفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾** فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحتَ، تركع بها و تسجد بها؟ قال: «إني سألتُ ربي عز و جل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، و هي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ لمن لا يشرك بالله شيئاً».

و روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبيﷺ تلا قول عيسى **﴿إن تُعَذِّبهُمْ فَإنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إن تَغفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾** فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي» و بكى، فقال الله: يا جبريل، اذهبْ إلى محمد ـ و ربك أعلم ـ فأسأله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول اللهﷺ بما قال ـ و هو

أعلم ـ فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد ، فقُل : إنا سنرضيك في أمتك و لا نسوءك .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾

١١٩ – يقول تعالى مجيباً لعبده و رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيما أنهاه إليه من التَّبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله و على رسوله ، و مِنْ رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : **﴿هذا يَومُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾** قال الضحاك عن ابن عباس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم **﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾** أي : ماكثين فيها لا يحولون و لا يزولون ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : **﴿وَ رِضوانٌ مِّنَ اللهِ أَكبَرُ﴾** و سيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث .

و قوله : **﴿ذَٰلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ﴾** أي : هذا الفوز الكبير ، الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : **﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾** و كما قال : **﴿وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾** و قوله : **﴿للهِ مُلْكُ السَّموات وَ الأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾** أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه ، و تحت قهره وقدرته و في مشيئته ، فلا نظير له و لا وزير و لا عديل ، و لا والد و لا ولد ، و لا صاحبة ، و لا إله غيره و لا رب سواه .

ترتيبها ٦ — سورة الأنعام ـ مكية — آياتها ١٦٥

قال العوفي و عكرمة و عطاء عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدلُونَ (١) هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾

١- يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة، و حامداً لها على خلقه السموات و الأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات و النور منفعة لعباده في ليلهم و نهارهم، فجمع لفظ الظلمات و وحَّد لفظ النور، لكونه أشرف، كقوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ و الشَّمَائِلِ﴾ و كما قال في آخر هذه السورة ﴿و أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ و لاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ الذينَ كفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعدِلونَ﴾ أي: و مع هذا كله كَفَرَ به بعض عباده، و جعلوا له شريكاً و عدلاً، و اتخذوا له صاحبة و ولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

٢- و قوله تعالى: ﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم، و منه خرجوا فانتشروا في المشارق و المغارب. و قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمَّى عِندَهُ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ يعني: الموت ﴿وَ أَجَلٌ مُسَمَّى عِندَهُ﴾ يعني: الآخرة. و هكذا روي عن مجاهد وعكرمة و سعيد ابن جبير و الحسن و قتادة و الضحاك و زيد بن أسلم و عطية و السدي و مقاتل بن حيان وغيرهم.

و قوله الحسن في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ و هو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَ أَجَلٌ مُسَمَّى عِندَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث، و يرجع إلى ما تقدم، و هو تقدير الأجل الخاص. و هو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام: و هو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها و انقضائها و زوالها، و انتقالها و المصير إلى الدار الآخرة. و عن ابن عباس و مجاهد ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ يعني: مدة الدنيا ﴿و أجلٌ مُسَمَّى عِندَهُ﴾ يعني: عمر الإنسان إلى حين موته. و كأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿وَ هُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ﴾ الآية.

و معنى قوله: ﴿عِندَهُ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ وكقوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرسَاهَا ❁ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ❁ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ و قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمتَرونَ﴾ قال السدي و غيره: يعني تشكون في أمر الساعة.

٣- و قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه في كل مكان! حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال: أنه المدعو الله في السموات و في الأرض، أي: يعبده و يُوحده و يقرّ له بالإلهية مَنْ في السموات و من في الأرض، و يُسمونه الله و يدعونه رغباً و رهباً، إلا من كفر من الجن و الإنس، و هذه الآية على هذا القول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله مَنْ في السماء، و إله من في الأرض، و على هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً.

(و القول الثاني): أن المراد أنه: الله الذي يَعلم ما في السموات و ما في الأرض، من سرٍّ و جهر، فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ تقديره: و هو الله يعلم سركم و جهركم، في السموات و في الأرض، و يعلم ما تكسبون.

(و القول الثالث) أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقفٌ تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ و هذا اختيار ابن جرير.

و قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: جميع أعمالكم، خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين، أنهم كلما أتتهم آية، أي: دلالةٌ و معجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الله و صدق رسله الكرام، فإنهم يُعرضون عنها، فلا ينظرون إليها، و لا يبالون بها.

٥- قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ و هذا تهديدٌ لهم و وعيد شديد، على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبرُ ما هم فيه من التكذيب، و ليجدن غِبَّه و ليذوقن وباله.

٦- ثم قال تعالى واعظاً لهم، و محذراً لهم أن يصيبهم من العذاب و النكال الدنيوي، ما حلّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة، الذين كانوا أشد منهم قوةً و أكثر جمعاً، و أكثر أموالاً و أولاداً، و استعلاء في الأرض و عمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال و الأولاد، و الأعمار و الجاه العريض، و السعة و الجنود، و لهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: كثرنا عليهم أمطار السماء، وينابيع الأرض، أي: استدراجاً و إملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم و سيئاتهم التي اجترموها

﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب، و جعلناهم أحاديث ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فأهلكوا كإهلاكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، و الرسول الذي كذّبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب، و معالجة العقوبة منهم، لو لا لطفه وإحسانه.

﴿ ولَوْ نزَّلْنا علَيْكَ كتاباً في قرطَاسٍ فلمَسُوهُ بأيْديهِمْ لقَالَ الَّذين كفرُوا إنْ هذَا إلاَّ سحرٌ مُّبينٌ ﴿٧﴾ وقَالُوا لوْلا أُنزِلَ علَيْه ملَكٌ ولَوْ أنزلْنا ملَكًا لَّقُضيَ الأمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ولَوْ جعَلْناهُ ملَكًا لَّجعَلْناهُ رجُلاً ولَلَبسْنَا علَيْهم مَّا يَلْبسُونَ ﴿٩﴾ ولَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلكَ فحَاقَ بالَّذينَ سَخرُوا منْهُم مَّا كَانُوا به يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

٧- يقول تعالى مخبراً عن المشركين و عنادهم، و مكابرتهم للحق، و مباهتتهم و منازعتهم فيه ﴿ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي: عاينوه، و رأوا نزوله و باشروا ذلك، ﴿لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحرٌ مّبين﴾ و هذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿و لو فتحنا عليهم باباً مّن السّماء فظلّوا فيه يعرجون ❊ لقالوا إنّما سكّرت أبصارنا بل نحن قومٌ مّسحورون﴾ و كقوله تعالى ﴿و إن يروا كسفاً مّن السّماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مّركوم﴾.

٨- ﴿و قالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ أي: ليكون معه نذيراً، قال الله تعالى: ﴿و لو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثمّ لا ينظرون﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه، لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ و ما كانوا إذاً مّنظرين﴾ و قوله: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ لّلمجرمين﴾ الآية.

٩- و قوله تعالى: ﴿و لو جعلناه ملكاً لّجعلناه رجلاً و للبسنا عليهم مّا يلبسون﴾ أي: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة الرجل، ليُمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، و لو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كقوله تعالى: ﴿قل لّو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم مّن السّماء ملكاً رّسولاً﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، و ليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة و السؤال، كما قال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً مّن أنفسهم يتلو عليهم آياته و يزكّيهم﴾ الآية. قال الضحاك عن ابن عباس في الآية يقول: لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿و للبسنا عليهم مّا يلبسون﴾ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون. و قال الوالبي عنه: و لشبهنا عليهم.

١٠- و قوله: ﴿و لقد استهزئ برسلٍ مّن قبلك فحاق بالّذين سخروا منهم مّا كانوا به يستهزئون﴾ هذه تسلية للنبيﷺ في تكذيب مَنْ كذّبه من قومه، و وعدٌ له و للمؤمنين به بالنصرة، و العافية الحسنة في الدنيا والآخرة.

١١ – ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله و عاندوهم، من العذاب و النكال و العقوبة في الدنيا، مع ما ادُّخِر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، و كيف نجّى رسله و عباده المؤمنين.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾

١٢ – يخبر تعالى أنه مالك السموات و الأرض و من فيهما، و أنه كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ لما خَلَقَ الخَلْق، كتَبَ كتاباً عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تَغلِبُ غضبي» و قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطِّئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة، ليجمعن عباده ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ و هو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي: لا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون. و قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصَدِّقون بالمعاد، و لا يخافون شرَّ ذلك اليوم.

١٣ – ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات و الأرض، الجميع عباده وخلقه، و تحت قهره و تصرفه و تدبيره، لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم و ضمائرهم و سرائرهم.

١٤ – ثم قال تعالى لعبده و رسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم، وبالشرع القويم، و أمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ و المعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما و مبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ أي: و هو الرزاق لخلقه، من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية، و قرأ بعضهم ههنا ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يَطْعَمُ﴾ أي: لا يأكل.

و في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي ﷺ و غسل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطعَم، و مَنَّ علينا فهدانا، و أطعمنا وسقانامن الشراب، و كسانا من العُري، و كل بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا، الحمد لله غير مودّع ربي و لا مكافئ و لا مَكفور، و لا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، و كسانا من العري، وهدانا من الضلال، و بصّرنا من العمى، و فضّلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»[1].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) حديث حسن، رواه النسائي في عمل اليوم و الليلة (٣٠١) و ابن السني (٤٨٦) و ابن حبان (٥٢١٩) و الحاكم (١/ ٥٤٦) و قال على شرط مسلم و وافقه الذهبي، و هو كما قالا.

١٥ - ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة.

١٦ - ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعني: فقد رحمه الله ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ و الفوز حصول الربح و نفي الخسارة.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴾

١٧ - يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر و النفع، و أنه المتصرّف في خلقه بما يشاء، لا معقّب لحكمه، و لا رادّ لقضائه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ و في الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيتَ، و لا معطي لما منعتَ، و لا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ».

١٨ - و لهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، و ذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، و قهر كل شيء، و دانتْ له الخلائق، و تواضعت لعظمة جلاله و كبريائه، وعظمته و علوه، وقدرته على الأشياء، و استكانت و تضاءلت بين يديه، و تحت قهره و حكمه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع أفعاله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء و محالها، فلا يعطى إلا من يستحق، و لا يمنع إلا من يستحق.

١٩ - ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: مَنْ أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جئتكم به، و ما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: و هو نذير لكل مَنْ بَلَغه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ و قال الربيع بن أنس: حقٌ على من اتبع رسول الله ﷺ أنْ يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، و أن يُنذر بالذي أنذر.

و قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون، أي: ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ كقوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٢٠ - ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب، أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به، كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار و الأنباء، عن المرسلين المتقدمين و الأنبياء، فإن الرسل كلهم بَشّروا بوجود محمد ﷺ، ونعته وصفته وبلده ومهاجره، و صفة أمته، و لهذا قال بعده: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر، الذي بشرت به الأنبياء، و نوّهت به في قديم الزمان وحديثه.

٢١- ثم قال: ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم ممن تقوّل على الله، فادّعى أنّ الله أرسله و لم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذّب بآيات الله، و حججه و براهينه و دلالاته ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ أي: لا يفلح هذا، و لا هذا، لا المفتري و لا المكذّب.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾

٢٢- يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها قائلاً لهم: ﴿أَينَ شُرَكاؤُكُم الذينَ كُنتُمْ تَزْعُمونَ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص ﴿وَ يومَ يُنادِيهِمْ فَيقولُ ينَ شُرَكائِيَ الذينَ كُنتُمْ تَزْعُمونَ﴾.

٢٣- و قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لمْ تكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم إلا أن قالوا: ﴿و اللهِ ربِّنا مَا كُنَّا مُشْرِكينَ﴾ قاله الضحاك عن ابن عباس. و قال عطاء الخراساني عنه: أي: معذرتهم. و كذا قال قتادة. و قال ابن جريج عن ابن عباس أي: قيلهم. و كذا قال الضحاك، و قال ابن جرير: و الصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إلاَّ أن قَالُوا و اللهِ ربِّنا ما كُنَّامُشْرِكِينَ﴾. و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا ابن عباس سمعت الله يقول: ﴿و اللهِ ربِّنا ما كُنَّامُشْرِكينَ﴾ قال أما قوله: ﴿واللهِ ربِّنا ما كُنَّامُشْرِكينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون فيختم الله على أفواههم، و تشهد أيديهم و أرجلهم، و لا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا و نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه.

و قال الضحاك عن ابن عباس: هذه في المنافقين. و فيه نظر! فإن هذه الآية مكية، و المنافقون إنما كانوا بالمدينة، و التي نزلت في المنافقين: آية المجادلة ﴿يومَ يَبعثُهُم اللهُ جَميعاً فَيَحلِفونَ لَهُ﴾ الآية، و كذا قال في حق هؤلاء:

٢٤- ﴿انظُرْ كيفَ كَذَبُوا علَى أنفُسِهِمْ و ضَلَّ عنهُم مَّا كانُوا يَفْتَرونَ﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قيلَ لَهُمْ أينَ مَا كُنتُمْ تُشرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الآية.

٢٥- و قوله: ﴿و مِنهُم مَّن يَستَمِعُ إليكَ وَ جَعَلْنَا علَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أن يَفقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إن يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَّ يُؤمِنُوا بها﴾ أي: يجيئون ليستمعوا قراءتك، و لا تجزي عنهم شيئاً لأن الله ﴿جَعَلَ علَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً﴾ أي: أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَ في آذانِهِمْ وَقْراً﴾ أي: صمما عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ كفرُوا كَمثَلِ الذي يَنعِقُ بِما لاَ يَسمَعُ إلاَّ دُعاءً و نِداءً﴾ الآية. و قوله: ﴿و إن يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَّ يُؤمِنُوا بِها﴾ أي: مهما رأوا من الآيات و الدلالات، و الحجج البينات و البراهين، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم و لا

إنصاف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا جَاءوكَ يُجادِلُونَكَ﴾ أي: يحاجونك و يناظرونك في الحق بالباطل ﴿يَقولُ الذينَ كفَرُوا إنْ هذا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به، إلا مأخوذٌ من كتب الأوائل، و منقول عنهم.

٢٦- و قوله: ﴿وَ هُمْ يَنهَونَ عَنهُ وَ يَنأونَ عَنهُ﴾ في معنى ﴿يَنهَونَ عَنهُ﴾ قولان: **(أحدهما)**: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، و تصديق الرسول، و الانقياد للقرآن ﴿وَ يَنأونَ عَنهُ﴾ أي: و يُبعدونهم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا ينتفعون، و لا يدعون أحداً ينتفع. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَ هُمْ يَنهَونَ عَنهُ﴾ يردّون الناس عن محمدﷺ أن يؤمنوا به. و قال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبيﷺ، و ينهون عنه. و كذا قال قتادة و مجاهد و الضحاك و غير واحد، و هذا القول أظهر، و الله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. **(و القول الثاني)**: رُوي عن ابن عباس يقول: في قوله: ﴿وَ هُمْ يَنهَونَ عَنهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبيﷺ أن يؤذي. و كذا قال القاسم بن مخيمرة و حبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار و غيره، أنها نزلت في أبي طالب. و قال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبيﷺ و كانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه في العلانية، و أشد الناس عليه في السر، رواه ابن أبي حاتم، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَ هُمْ يَنهَونَ عَنهُ﴾ أي: ينهون الناس عن قتله.

و قوله: ﴿وَ يَنأونَ عَنهُ﴾ أي: يتباعدون منه ﴿وَ إن يُهلِكونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وَ مَا يَشعُرونَ﴾ أي: و ما يهلكون بهذا الصنيع و لا يعود وباله إلاعليهم، و هم لا يشعرون.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) ﴾

٢٧- يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، و شاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام و الأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يا لَيتَنا نُرَدُّ وَ لا نكذِّبَ بآياتِ رِبِّنا و نَكونَ مِنَ المُؤمنِينَ﴾ يتمنون أن يُردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، و لا يكذبوا بآيات ربهم، و يكونون من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدا لَهُم مَّا كَانُوا يُخفُونَ مِن قَبلُ﴾ أي: بل ظَهَرَ لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم، من الكفر و التكذيب و المعاندة، و إن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتنَتُهُمْ إلاَّ أن قَالُوا و اللهِ رِبِّنا مَا كُنَّا مُشرِكينَ * انظُرْ كيفَ كَذَبُوا عَلَى أنفُسِهِمْ﴾.

و يحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، و إن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أنزَلَ هَؤلاءِ إلاَّ ربُّ السمواتِ و الأرضِ بَصائِرَ﴾ الآية، و قوله تعالى مخبراً عن فرعون و قومه: ﴿و جَحَدُوا بِها وَاستَيقَنَتْها أنفُسُهُمْ ظُلماً وَ عُلُوّاً﴾. و يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس، و يبطنون

الكفر، و يكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفة من الكفار، و لا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة و من حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي: العنكبوت، فقال: ﴿وَ لَيَعلَمَنَّ اللهُ الذينَ آمنُوا وَ لَيَعلمَنَّ المُنافِقينَ﴾ و على هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة، ، حين يعاينون العذاب، فظهرلهم حينئذ غِبّ ماكانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، و الله أعلم.

٢٨- و أما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخفُونَ مِن قَبلُ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة و محبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، و لهذا قال: ﴿وَ لَوْ رُدُّوا لعادُوا لِمَا نُهوا عَنهُ وَ إنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أي: في طلبهم الرجعة رغبة و محبة في الإيمان، ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو رُدُّوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نُهُوا عنه، من الكفر و المخالفة ﴿وَ إنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿يا لَيتَنا نُرَدُّ وَ لا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا و نَكونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾.

٢٩- ﴿و قالُوا إنْ هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنيا وَ ما نحنُ بِمَبعُوثِينَ﴾ أي: لعادوا لما نُهوا عنه، و لقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، لا معادَ بعدها، و لهذا قال: ﴿و مَا نحنُ بِمبعُوثِينَ﴾.

٣٠- ثم قال: ﴿و لَوْ ترَى إذْ وُقِفُوا علَى رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه، قال: ﴿أليسَ هذَا بالْحقِّ؟﴾ أي: أليس هذا المعاد بحق، و ليس بباطل كما كنتم تظنون ﴿قالُوا بلَى و رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعذابَ بِما كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مَسَّه ﴿أفَسِحرٌ هَذَا أمْ أنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾

٣١- يقول تعالى مخبراً عن خسارة مَن كذّب بلقائه، و عن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، و عن ندامته على ما فَرَّطَ من العمل، و ما أسلف من قبح الفعل، و لهذا قال: ﴿حتَّى إذا جاءَتْهُم السَّاعةُ بَغتةً قالُوا يَا حَسْرَتَنا علَى ما فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ و هذا الضمير يحتمل عوده على الحياة، و على الأعمال، و على الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿و هُمْ يَحمِلونَ أوزارَهُمْ علَى ظُهُورِهِمْ ألاَ سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ أي: يحملون. و قال قتادة: يعملون.

٣٢- و قوله: ﴿و ما الحياةُ الدُّنيا إلاّ لعِبٌ و لهوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿و للدَّارُ الآخرةُ خيرٌ لِّلَّذينَ يَتَّقُونَ أفلاَ تعقِلونَ﴾.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا

فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾

٣٣- يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له، و مخالفتهم إياه ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، و حزنك و تأسفك عليهم، كقوله: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ و قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك و لكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿و لكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق، و يدفعونه بصدورهم.

٣٤- و قوله: ﴿و لقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا و أوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ، و تعزية له، فيمن كذبه من قومه، و أمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، و وعد له بالنصر كما نصروا، و بالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم، و الأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، و لهذا قال: ﴿و لا مبدل لكلمات الله﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا و الآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * و إن جندنا لهم الغالبون﴾ و قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا و رسلي إن الله قوي عزيز﴾. وقوله: ﴿و لقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ أي: من خبرهم، كيف نصروا و أيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة، و بهم قدوة.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿و إن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: النفق: السرب، فتذهب فيه ﴿فتأتيهم بآية﴾ أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل. و كذا قال قتادة و السدي و غيرهما. و قوله: ﴿و لو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ كقوله تعالى: ﴿و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿و لو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، و يتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن، إلا من قد سبق له من الله السعادة، في الذكر الأول.

٣٦- و قوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد، من يسمع الكلام ويعيه و يفهمه، كقوله: ﴿لينذر من كان حياً و يحق القول على الكافرين﴾ و قوله: ﴿و الموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يعني بذلك: الكفار، لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ و هذا من باب التهكم بهم، و الازدراء عليهم.

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ

إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

٣٧- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، أنهم كانوا يقولون: لولا نُزِّل عليه آية من ربه، أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، و مما يتعنتون، كقولهم: ﴿لَن نُّؤمِنَ لكَ حتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرضِ يَنبُوعاً﴾ الآيات ﴿قُلْ إنَّ اللهِ قَادِرٌ علَى أن يُنزِّلَ آيةً و لَكنَّ أكثرَهُمْ لاَ يَعلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، و لكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا، ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿و ما مَنَعَنَا أن نُّرسِلَ بالآياتِ إلاَّ أن كذَّبَ بهَا الأوَّلُونَ وَآتينَا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فظَلَمُوا بِها وَ ما نُرسِلُ بالآياتِ إلاَّ تَخويفاً﴾ و قال تعالى: ﴿إن نَّشأْ نُنزِّلْ عَلَيهِم مِّنَ السَّماءِ آيَةً فظَلَّتْ أعناقُهُمْ لهَا خاضِعِينَ﴾.

٣٨- و قوله: ﴿و ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ و لاَ طائرٍ يطيرُ بجناحَيهِ إلاَّ أمَمٌ أمثالُكُمْ﴾ قال مجاهد: أي: أصنافٌ مصنَّفة تعرف بأسمائها. و قال قتادة: الطير أمَّةٌ، و الإنس أمة، و الجن أمة. و قال السدي: ﴿إلاَّ أمَمٌ أمثالُكُمْ﴾ أي: خَلقٌ أمثالكم. و قوله: ﴿مَا فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شيءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، و لا ينسى واحداً من جميعها من رزقه و تدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿و ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلاَّ على اللهِ رِزقُها وَيعلَمُ مُستقرَّها وَ مُستودَعَهَا كُلٌ في كتابٍ مُّبينٍ﴾ أي: مُفصح بأسمائها و أعدادها و مظانها، و حاصر لحركاتها وسكناتها، و قال تعالى: ﴿و كأيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَ تَحمِلُ رِزقَهَا اللهُ يرزقُها و إيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾.

و قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ﴾ قال: حَشْرُها الموت. روى ابن أبي حاتم عن مجاهد و الضحاك مثله. **(و القول الثاني)** أن حشرها بعثها يوم القيامة، لقوله: ﴿و إذا الوُحوشُ حُشِرتْ﴾ و روى الإمام أحمد: عن أبي ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ و ما يقلب طائرٌ جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً. و روى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿إلاَّ أمَمٌ أمثالُكُم مَّا فرَّطْنا في الكِتابِ مِن شيءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ﴾ قال: يُحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم و الدواب و الطير و كل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ: أن يأخذ للجمّاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتَنِي كُنتُ تراباً﴾ و قد روى هذا مرفوعاً في حديث الصور.

٣٩- و قوله: ﴿و الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا صُمٌّ وَ بُكمٌ في الظُّلُماتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم، و قلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم: و هو الذي لا يسمع، أبكم: و هو الذي لا يتكلم، و هو مع هذا في ظلمات لا يُبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استَوقَدَ ناراً فلَمَّا أضاءتْ مَا حَولَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورِهِمْ وَ تَركَهُمْ في ظُلماتٍ لاَّ يُبصِرونَ ❁ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُمْ لاَ يَرجِعُونَ﴾ و كما قال تعالى: ﴿أو كظُلُماتٍ في بَحرٍ لُّجِّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ موجٌ مِّن فوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضُهَا فوقَ بَعضٍ إذا أخرجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَن لَّمْ يَجعَلِ اللهُ لهُ نُوراً فَما لهُ مِن نُّورٍ﴾ ولهذا قال: ﴿مَن يَشأِ اللهُ يُضلِلْهُ وَ مَن يَشأْ يَجعلْهُ عَلَى صِراطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ

تدْعُونَ فيكْشفُ ما تدْعُونَ إليْه إنْ شاءَ وتنسوْنَ ما تشْركُونَ ﴿٤١﴾ ولَقدْ أرْسلْنا إلَىٰ أُمم مّن قبْلك فأخذْناهُم بالْبأْساء والضَّرَّاء لعلَّهُمْ يتضرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فلوْلا إذْ جاءهُم بأْسنا تضرَّعُوا ولكن قستْ قُلُوبُهُمْ وزيَّن لهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يعْملُون ﴿٤٣﴾ فلمَّا نسُوا ما ذُكّرُوا به فتحْنا عليْهمْ أبْواب كُلّ شيْءٍ حتَّىٰ إذا فرحُوا بما أُوتُوا أخذْناهُم بغْتةً فإذا هُم مُّبْلسُون ﴿٤٤﴾ فقُطع دابرُ الْقوْم الَّذين ظلمُوا والْحمْدُ للَّه ربّ الْعالمين ﴿٤٥﴾﴾

٤٠- يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، و أنه لا معقّب لحكمه، و لا يقدر أحدٌ على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سُئل يجيب لمن يشاء، و لهذا قال: ﴿قُلْ أرأيْتكُمْ إنْ أتاكُمْ عذابُ الله أوْ أتتْكُمُ السَّاعةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أغيْرَ الله تدْعُونَ إن كُنتُمْ صادقينَ﴾ أي: لا تَدعون غيره لعلمكم أنه لا يَقدر أحدٌ على رفع ذلك سواه، و لهذا قال: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه.

٤١- ﴿بلْ إيَّاهُ تدْعُونَ فيكْشفُ ما تدْعُونَ إليْه إن شاءَ وتنسوْنَ ما تُشْركُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه، و تذهب عنكم أصنامُكم و أندادكم، كقوله: ﴿و إذا مسَّكُم الضُّرُّ في الْبحْر ضلَّ من تدعونَ إلاَّ إيَّاهُ﴾ الآية.

٤٢- وقوله: ﴿و لقدْ أرْسلْنا إلَىٰ أُمم مّن قبْلك فأخذْناهُم بالْبأْساء﴾ يعني الفقر و الضيق في العيش ﴿والضَّرَّاء﴾ و هي: الأمراض و الأسقام و الآلام ﴿لعلَّهُمْ يتضرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله و يتضرعون إليه ويخشعون.

٤٣- قال الله تعالى: ﴿فلوْ لاَ إذْ جاءهُمْ بأْسُنا تضرَّعُوا﴾ أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا، وتمسكنوا لدينا ﴿ولكن قستْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رَقّتْ و لا خشعت ﴿و زيَّنَ لهُم الشَّيْطانُ ما كانُوا يعْملُونَ﴾ أي: من الشرك و المعاندة و المعاصي.

٤٤- ﴿فلمَّا نسُوا ما ذُكّرُوا به﴾ أي: أعرضوا عنه و تناسوه، و جعلوه وراء ظهورهم، ﴿فتحْنا عليْهمْ أبوابَ كلّ شيْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، و هذا استدراجٌ منه تعالى، و إملاءٌ لهم، عياذاً بالله من مكره، و لهذا قال: ﴿حتَّى إذا فرحُوا بما أُوتُوا﴾ من الأموال و الأولاد و الأرزاق ﴿أخذْناهُم بغْتةً﴾ أي: على غفلة ﴿فإذا هُم مُّبْلسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، قال الوالبي عن ابن عباس: المُبْلس: الآيس، و قال الحسن البصري: مَن وسَّع الله عليه، فلم ير أنه يُمكر به، فلا رأي له، و من قتر عليه، فلم ير أنه يُنظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فلمَّا نسُوا ما ذُكّرُوا به فتحْنا عليْهمْ أبْواب كُلّ شيْءٍ حتَّى إذا فرحُوا بما أُوتُوا أخذْناهُم بغْتةً فإذا هُم مُّبْلسُونَ﴾ قال: مكر بالقوم و رب الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم.

و قال قتادة: بغَت القومَ أمرُ الله، و ما أخذ الله قوماً قط، إلا عند سكرتهم و غرتهم و نعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

و قد روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. و رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾

٤٦- يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ الآية. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع الشرعي، و لهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ كما قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ و قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. و قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: هل أحدٌ غيرُ الله يقدر على ردِّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم، لا يقدر على ذلك أحدٌ سواه، و لهذا قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾

أي: نبينها و نوضحها و نفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، و أن ما يعبدون من دونه باطل و ضلال ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان، يصدفون، أي: يُعرضون عن الحق، و يصدّون الناس عن اتباعه.

٤٧- و قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي: و أنتم لا تشعرون به حتى بغتكم و فجأكم ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، و ينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم و لاهم يحزنون، كقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية.

٤٨- و قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مبشرين عباذاً بالله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين مَن كَفَر بالله النقمات و العقوبات، و لهذا قال: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به، و صلح عمله باتباعه إياهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنسبة لما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم، و تركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا و صنيعها، الله وليهم فيما خلفوه، و حافظهم فيما تركوه.

٤٩- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، و خرجوا عن أوامر الله و طاعته، و ارتكبوا من مناهيه و محارمه، و انتهاك حرماته.

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ

إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾

٥٠- يقول الله تعالى لرسولهﷺ: ﴿قُلْ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لست أملكها، و لا أتصرف فيها ﴿و لاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ أي: و لا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله عز وجل، و لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه: ﴿و لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: و لا أدّعي أني مَلَك، إنما أنا بشر من البشر، يوحى إلي من الله عز وجل، شرَّفني بذلك و أنعم علي به، و لهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قِيدَ شبر، و لا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى و البَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق، و هُدي إليه، و من ضل عنه، فلم ينقد له ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ و هذه كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾.

٥١- و قوله: ﴿و أَنذِرْ بِهِ الذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ و لاَ شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ ﴿الذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَيسَ لَهُم﴾ أي: يومئذ ﴿مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريبَ لهم، و لا شفيع فيهم من عذابه، إنْ أراد بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً، ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

٥٢- و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ و العَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: لا تُبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك و أخصَّاءك، كقوله: ﴿و اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَ العَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاَ تَعْدُ عَينَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ و قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يعبدونه و يسألونه ﴿بِالغَدَاةِ وَ العَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب و مجاهد و الحسن و قتادة: المراد به: الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: ﴿و قَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أتقبل منكم. و قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم، و هم مخلصون فيما هم فيه من العبادات و الطاعات.

و قوله: ﴿مَا عَلَيكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقول نوحعليه السلام في جواب الذين ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ و اتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ۞ قَالَ و مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما حسابهم على الله عز وجل، و ليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، و قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا و الحالة هذه.

عن المقداد بن شريح عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبيﷺ، منهم: ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول اللهﷺ و ندنو منه، و نسمع منه، فقالت قريش: تُدني هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿و لاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدعونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَ العَشِيِّ﴾ رواه الحاكم و ابن حبان [1].

٥٣- و قوله: ﴿و كَذلكَ فَتَنَّا بعضَهُم بِبَعضٍ﴾ أي: ابتلينا و اختبرنا و امتحنا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ و ذلك أن رسول اللهﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته، ضعفاء الناس، من الرجال والنساء، و العبيد و الإماء، و لم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿و ما نَراكَ اتَّبعكَ إلاَّ الَّذينَ هُمْ أَراذِلُنا بَادِيَ الرَّأيِ﴾ الآية، و كما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فأشراف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل.

و الغرض: أن مشركي قريش كانوا بمن آمن من ضعفائهم، و يعذبون من يقدرون عليه منهم، و كانوا يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ـ لو كان ما صاروا إليه خيراً ـ و يَدعنا، كقولهم: ﴿لَو كانَ خَيراً مَّا سَبَقُونَا إلَيهِ﴾ و كقوله تعالى: ﴿و إذا تُتلَى عَلَيهِم آيَاتُنَا بيِّناتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَينِ خَيرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿و كَمْ أَهْلَكْنَا قَبلَهُم مِّن قَرنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِئياً﴾ و قال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهَؤلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيهِم مِّن بَينِنَا أَليسَ اللهُ بِأعلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم و أفعالهم و ضمائرهم، فيوفقهم و يهديهم سبل السلام، و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، و يهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿و الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾. و في الحديث الصحيح: «إنَّ الله لا يَنظُر إلى صُوَرِكم ولا إلى ألوانكم، و لكن يَنظُرُ إلى قلوبكم و أعمالكم» [2].

٥٤- و قوله: ﴿و إذا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤمِنونَ بِآيَاتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيكُمْ﴾ أي: فأكرمهم بردّ السلام عليهم، و بشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، و لهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه و إحساناً و امتناناً ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كلُّ من عصى الله فهو جاهل، و قال عكرمة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعدِهِ وَ أَصْلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، و أقلع و عزم أن لا يعود، و أصلح العمل في المستقبل ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «لما قضَى اللهُ الخلق، كتَبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي» أخرجاه في الصحيحين. و سيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿و رَحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ﴾. و مما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً: قولهﷺ لمعاذ ابن جبل: «أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ أنْ يَعبدوه و لا يُشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حقُّ العباد على الله، إذا هم فعلوا ذلك؟ أن لا يُعَذِّبهم» و قد رواه الإمام أحمد عن أبي هريرةرضي الله عنه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي

---

(١) هو في صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨)!

(٢) رواه مسلم في البر و الصلة (٤/ ١٩٨٧) من حديث أبي هريرةرضي الله عنه بنحوه.

وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾

٥٥- يقول تعالى و كما بينا ما تقدم بيانه من الحجج و الدلائل، على طريق الهداية و الرشاد، وذم المجادلة والعناد ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطَبون إلى بيانها ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: و لتظهر طريق المجرمين، المخالفين للرسل، و قرئ ﴿وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: و ليستبين يا محمد، أو يا مخاطب، سبيل المجرمين.

٥٧- و قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله، التي أوحاها الله إلي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عَجَّل لكم ماسألتموه من ذلك، و إن شاء أنظركم و أجّلكم، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، و لهذا قال: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: و هو خير من فصَّل القضايا، و خير الفاتحين في الحكم بين عباده.

٥٨- وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لو كان ذلك إلي، لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، و بين ما ثبت في الصحيحين: عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، و كان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عَرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت و أنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، و ما ردوا عليك، و قد بعث إليك مَلكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلّم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قولَ قومكَ لكَ، و قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً» و هذا لفظ مسلم.

فقد عرض عليه عذابهم و استئصالهم فاستأنى بهم، و سأل لهم التأخير، لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا، و بين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟ فالجواب: و الله أعلم، أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم، و أما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عَرَضَ عليه ملكُ الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - و هما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً و شمالاً - فلهذا استأنى بهم و سأل الرفق لهم.

٥٩- و قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن

أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتحُ الغيب خَمسٌ لا يعلمهن إلا الله: ﴿إنَّ اللهَ عِندهُ عِلمُ السَّاعةِ وَ يُنَزِّلُ الغَيثَ وَيعلَمُ مَا فِي الأرحامِ وَ مَا تَدري نَفسٌ مَاذا تَكسِبُ غَداً وَما تَدري نفسٌ بِأيِّ أرضٍ تَموتُ إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ﴾.

و في حديث عمر: أن جبريل حين تبدّى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان و الإسلام والإحسان، فقال له النبي ﷺ فيما قال له: «خَمسٌ لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ: ﴿إنَّ اللهَ عندَهُ عِلمُ السَّاعةِ﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَ يعلمُ ما فِي البَرِّ وَ البَحرِ﴾ أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، برّيها و بحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، و لا مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء.

و قوله: ﴿وَ ما تَسقطُ مِن وَرَقةٍ إلاَّ يَعلَمُهَا﴾ أي: و يعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، و لا سيما المكلفون منهم، من جهنم و إنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلَمُ خائِنَةَ الأعيُنِ وَ مَا تُخفِي الصُّدُورِ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)﴾

٦٠- يقول تعالى أنه يتوَفَّى عباده في منامهم بالليل، و هذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إذْ قالَ اللهُ يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إلَيَّ﴾ و قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَ التِي لَم تَمُتْ فِي مَنامِهَا فَيُمسِكُ التِي قَضَى عَلَيهَا المَوتَ وَ يُرسِلُ الأُخرَى إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى، و هكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَ هُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ وَ يَعلَمُ مَا جَرَحتُم بِالنَّهارِ﴾ أي: و يعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار، و هذه جملة معترضة، دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه، في ليلهم و نهارهم، في حال سكونهم و حال حركتهم، كما قال: ﴿سواءٌ مِنكُم مَنْ أسَرَّ القَولَ وَ مَن جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُستَخفٍ بِاللَّيلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ و كما قال تعالى: ﴿وَ مِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ وَ النَّهارَ لِتَسكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَ لِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ﴾ أي: في النهار، كماقال: ﴿وَ جَعَلنَا اللَّيلَ لِباساً * وَ جَعَلنَا النَّهارَ مَعَاشاً﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَ هُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ وَ يَعلَمُ مَا جَرَحتُم بِالنَّهارِ﴾ أي: ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ثُمَّ يَبعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار، قاله مجاهد و قتادة و السدي، و قال عبد الله ابن كثير: أي في المنام. و الأول أظهر.

و قوله: ﴿لِيُقضَى أجلٌ مُسَمًّى﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس ﴿ثُمَّ إلَيهِ مَرجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيخبركم ﴿بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: و يجزيكم على ذلك، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر.

٦١- و قوله: ﴿وَ هُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ﴾ أي: و هو الذي قهر كل شيء، و خضع لجلاله و عظمته وكبريائه كل شيء ﴿و يُرسِلُ عَلَيكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِّن بَينِ يَدَيهِ وَ مِنْ خَلفِهِ يَحفَظُونَهُ مِنْ أمْرِ اللهِ﴾ و حفظة يحفظون عمله و يحصونه، كقوله: ﴿و إنَّ عَلَيكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الآية، وكقوله: ﴿عَنِ اليَمِينِ و عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ * مَا يَلفِظُ مِن قولٍ إلاَّ لديهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ و قوله:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الآية، و قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: احتُضر و حان أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكةٌ موكلون بذلك، قال ابن عباس و غير واحد: لملك الموت أعوانٌ من الملائكة، يُخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، و سيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس و غيره بالصحة، و قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها و ينزلونها حيث شاء الله عز وجل، إنْ كان من الأبرار ففي عليين، و إن كان من الفجار ففي سجين، عياذاً بالله من ذلك.

٦٢- و قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ قال ابن جرير ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾. و نذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الميِّتَ تحضره الملائكة، فإذا كان الرجلُ الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفسُ الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، و أبشري بروحٍ و ريحان، و ربٍ غير غضبان، فلا تزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة و أبشري بروح و ريحان، و رب غير غضبان، فلا تزال يُقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. و إذا كان الرجلُ السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، و أبشري بحميمٍ و غسّاق، و آخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك، حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يُفتح لك أبواب السماء، فتُرسل من السماء، ثم تصير إلى القبر، فيُجلس الرجل الصالح، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، و يُجلس الرجل السوء، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني» هذا حديث غريب [(١)].

و يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ و قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ و لهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾

٦٣- يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم، من ظلمات البر و البحر، أي: الحائرين الواقعين في المهامة البرية، و في اللُّجَج البحرية، إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يُفردون الدعاء له، وحده لا شريك له، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية، و قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ

(١) المسند (٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) و إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

في البرِّ والبحرِ حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجرينَ بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهمُ الموجُ من كلِّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أُحيطَ بهم دعَوُا الله مخلصين له الدّينَ لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين﴾ الآية، وقوله: ﴿أمّن يهديكم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ ومن يرسلُ الرّياحَ بُشْراً بين يدي رحمته أإلهٌ مع اللهِ تعالى اللهُ عمّا يُشركون﴾. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قل من ينجّيكم من ظلماتِ البرِّ والبحرِ تدعونه تضرّعاً وخُفْيةً﴾ أي: جهراً وسراً ﴿لئن أنجانا﴾ أي: من هذه الضائقة ﴿لنكوننّ من الشّاكرين﴾ أي: بعدها.

٦٤- قال الله ﴿قل اللهُ ينجّيكم منها ومن كلِّ كربٍ ثمّ أنتم تشركون﴾ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

٦٥- وقوله: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحتِ أرجلكم﴾ لما قال: ﴿ثمّ أنتم تشركون﴾ عقّبه بقوله: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً﴾ أي: بعد إنجائه إياكم، كقوله في سورة سبحان ﴿ربّكم الذي يُزجي لكمُ الفُلكَ في البحرِ لتبتغوا من فضله إنّه كان بكم رحيماً * وإذا مسّكمُ الضّرُّ في البحرِ ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسانُ كفوراً * أفأمنتم أن يخسفَ بكم جانبَ البرِّ أو يرسلَ عليكم حاصباً ثمّ لا تجدوا لكم وكيلاً * أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسلَ عليكم قاصفاً من الرّيحِ فيغرقكم بما كفرتم ثمّ لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾. روى ابن أبي حاتم تعليقاً عن الحسن في قوله: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحتِ أرجلكم﴾ قال: هذه للمشركين. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: لأمة محمد ﷺ و عفى عنهم.

و نذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك و الآثار، و بالله المستعان و عليه التكلان وبه الثقة:

قال البخاري رحمه الله تعالى في هذه الآية: يلبسكم: يخلطكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقاً. عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» ﴿أو من تحتِ أرجلكم﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أو يلبسكم شيعاً ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعضٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون أو أيسر».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال: «سألتُ ربي ثلاثاً: سألته أنْ لا يُهلك أمتي بالغَرَق، فأعطانيها، و سألته أنْ لا يهلك أمتي بالسنة[1] فأعطانيها، و سألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعنيها» انفرد بإخراجه مسلم.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن شداد بن أوس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض، حتى رأيتُ مشارقها و مغاربها، وأنّ مُلْكَ أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، و إني قد أُعطيتُ الكنزين الأبيض والأحمر، و إني سألتُ ربي عز وجل أن لا يُهلك أمتي بسنةٍ عامة، و أن لا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة، و أن لا يلبسهم شيعاً و أن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يرد، و إني قد أعطيتك لأمتك: أن لا أُهلكهم بسنةٍ عامة، و أن لا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامة، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، و بعضهم يقتل بعضاً، و بعضهم يسبي بعضاً» قال: و قال النبي ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضع السيفُ في أمتي لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس

(١) السنة: القحط و الجدب.

في شيء من الكتب الستة، و إسناده جيد قوي، و قد رواه ابن مردويه بنحوه، و الله أعلم.

و روى ابن أبي حاتم: عن الحسن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبعَثَ﴾ الآية، قال: حُبِستْ عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها، أرسلت عقوبتها. و هكذا قال مجاهد و سعيد بن جبير و أبو مالك والسدي و ابن زيد و غير واحد في قوله: ﴿عَذَاباً مِّن فَوقِكُمْ﴾ يعني الرَّجم ﴿أو مِن تَحتِ أَرجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف، وهذا هو اختيار ابن جرير.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿عَذَاباً مِّن فَوقِكُمْ﴾ يعني: أمراءكم ﴿أو مِن تَحتِ أَرجُلِكُمْ﴾ يعني: عبيدكم و سفلتكم، و حكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان و عمرو بن هانئ نحو ذلك. قال ابن جرير: وهذا القول و إنْ كان له وجهٌ صحيح، لكن الأول أظهر و أقوى، وهو كما قال ابن جرير رحمه الله، و يشهد له بالصحة: قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الأَرضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرسِلَ عَلَيكُمْ حَاصِباً فَستَعلَمُونَ كَيفَ نَذِيرِ﴾ و في الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قذفٌ و خسف و مسخ»[1].

و ذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة و أشراطها، و ظهور الآيات قبل يوم القيامة، و ستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

و قوله: ﴿أَوْ يَلبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ يعني: يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين. قال الوالبي عن ابن عباس: يعني الأهواء، و كذا قال مجاهد و غير واحد، و قد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقةً، كلُّها في النار، إلا واحدة».

و قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأسَ بَعضٍ﴾ قال ابن عباس و غير واحد يعني: يُسلِّط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. و قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي: نبينها و نوضحها و نفسرها ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي: يفهمون و يتدبرون عن الله آياته و حججه و براهينه.

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) ﴾

٦٦- يقول تعالى: ﴿و كَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الذين جئتهم به و الهدى و البيان ﴿قَومُكَ﴾ يعني: قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي ليس وراءه حق ﴿قُل لَّستُ عَلَيكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست عليكم بحفيظ، و لست بوكيل بكم، كقوله: ﴿و قُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤمِن وَ مَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: إنما علي البلاغ، وعليكم السمع و الطاعة، فمن اتبعني سَعِد في الدنيا و الآخرة، و من خالفني فقد شَقِيَ في الدنيا و الآخرة.

٦٧- و لهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال ابن عباس و غير واحد: أي: لكل نبأ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع، و لو بعد حين، كما قال: ﴿و لَتَعلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعدَ حِينٍ﴾ و قال: ﴿لكل أجل كتاب﴾ و هذا تهديدٌ و وعيدٌ أكيد ولهذا قال بعده: ﴿و سوفَ تَعلَمونَ﴾.

(١) حديث صحيح لطرقه، رواه أحمد (٢/ ١٦٣) عن ابن عمرو، و رواه عن أبي أمامة (٥/ ٢٥٩) و الترمذي (٢٣٢٣) عن عمران بن حصين و غيرهم.

٦٨- و قوله: ﴿و إذا رأيتَ الذينَ يَخُوضونَ في آياتِنا﴾ أي: بالتكذيب و الاستهزاء ﴿فأعْرِضْ عَنْهُمْ حتّى يَخُوضُوا في حَديثٍ غيرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر، غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿و إمّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ﴾ و المراد بذلك: كل فردٍ فردٍ من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يُحرّفون آيات الله، ويضعونها على غير موضعها، فإنْ جلس أحد معهم ناسياً ﴿فلا تقعُدْ بَعدَ الذِّكْرَى﴾ بعد التذكر ﴿مَعَ القَومِ الظّالِمينَ﴾ و لهذا ورد في الحديث «رُفع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه»[1].

و قال السدي عن أبي مالك و سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَ إمّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ﴾ قال: إن نسيتَ فذكرتَ ﴿فلا تَقْعُدْ﴾ معهم، و كذا قال مقاتل بن حيان، و هذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿و قدْ نزّلَ عليكُمْ في الكتابِ أنْ إذا سَمِعتُمْ آياتَ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا و يُستَهزَأُ بها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتّى يَخُوضُوا في حديثٍ غيرِهِ إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ﴾ الآية، أي: إنكم إذا جلستم معهم، وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فيما هم فيه، و قوله: ﴿وما على الذينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِم مِّن شيْءٍ﴾ أي: إذا تجنّبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برؤا من عهدتهم، و تخلصوا من إثمهم.

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

٧٠- يقول تعالى: ﴿و ذرِ الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أي: دَعْهم و أعرض عنهم، وأمهلهم قليلاً، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم، و لهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: ذكّر بهذا القرآن، وحذّرهم نقمة الله و عذابه الأليم يوم القيامة،، و قوله تعالى: ﴿أنْ تُبسَلَ نَفسٌ بِما كَسَبَتْ﴾ أي: لئلا تُبسل. قال الضحاك عن ابن عباس و مجاهد و عكرمة و الحسن و السدي ﴿تُبسَلَ﴾: تُسْلِم. و قال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح. و قال قتادة: تحبس، و قال مرة و ابن زيد: تؤاخذ.

و كل هذه الأقوال و العبارات متقاربة في المعنى، و حاصلها: الإسلام للهلكة، و الحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كقوله: ﴿كُلُّ نفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ❁ إلاّ أصْحابَ اليَمِينِ﴾ و قوله: ﴿ليسَ لَها مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَ لاَ شَفِيعٍ﴾ أي: لا قريب و لا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿مِن قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَومٌ لاَ بَيعٌ فيهِ ولاَ خُلَّةٌ و لاَ شفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُم الظّالِمونَ﴾. و قوله: ﴿و إن تَعدِلْ كُلَّ عَدلٍ لاَ يُؤخَذْ مِنهَا﴾ أي: و لو بذَلَتْ كل مبذولٍ ما قُبل منها، كقوله: ﴿إنَّ الذينَ كفرُوا و ماتُوا وَهُمْ كُفّارٌ فلَن يُقْبَلَ مِنْ أحَدِهِم مِّلْءُ الأرضِ ذَهَباً﴾ الآية، و كذا قال ههنا: ﴿أُولَئِكَ الذينَ أُبسِلُوا بِما كسَبُوا لهُمْ شَرابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أليمٌ بِما كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)

(١) الحديث صحيح بلفظ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ . . . » رواه ابن ماجه و غيره.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

٧١- قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا و اتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ أَندعوا مِن دونِ اللهِ مالاَ ينفَعُنا وَ لا يَضرُّنا وَ نُرَدُّ على أعقابِنا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هدانا اللهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم، كمثل رجلٍ خرج مع قوم على الطريق، فضَلَّ الطريق فحيّرته الشياطين، و استهوته في الأرض و أصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنَّا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مَثَل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمدﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، و الطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير. و قال قتادة: استهوته ﴿الشَّياطِينُ فِي الأرضِ﴾ أضلته في الأرض، يعني استهوته سَيَّرته، كقوله ﴿تهوي إليهم﴾.

و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: في قوله: ﴿قُلْ أندعوا مِن دونِ اللهِ مالاَ ينفَعُنا وَ لا يَضرُّنا﴾ الآية، هذا مَثَلٌ ضربه الله للآلهة، و مَن يدعو إليها، و الدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل، كمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق تائهاً، إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان، هلمّ إلى الطريق، و له أصحاب يدعونه: يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يُلْقيه إلى الهلكة، و إنْ أجاب مَن يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، و هذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء، حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة و الهلكة.

و قوله: ﴿كالَّذي استَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ في الأرضِ﴾ هم الغيلان ﴿يَدْعُونَه﴾ باسمه و اسم أبيه وجده فيتبعها، و هو يرى أنه في شيء، فيُصبح و قد رمته في هلكة، و ربما أكلته، أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل مَن أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل، رواه ابن جرير.

و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، ﴿كالَّذي استَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ في الأرضِ حَيْرانَ﴾ قال: رجلٌ حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق، و ذلك مَثَلُ من ضلَّ بعد أن هدي.

و تقدير الكلام: فيأبى عليهم و لا يلتفت إليهم، و لو شاء الله لهداه و لردّ به إلى الطريق، و لهذا قال: ﴿قُلْ إنَّ هُدى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ كما قال: ﴿وَ مَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ و قال: ﴿إن تَحرِصْ على هُداهُمْ فإنَّ اللهَ لاَ يهدِي مَن يُضِلُّ وَ مالَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ و قوله: ﴿وَ أُمِرنَا لِنُسلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نخلص له العبادة، وحده لا شريك له.

٧٢- ﴿و أنْ أقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ﴾ أي: و أمرنا بإقامة الصلاة، و بتقواه في جميع الأحوال ﴿وهُوَ الذِي إليهِ تُحشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وهُوَ الذِي خَلَقَ السَّموَاتِ و الأرضَ بالحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، و المدبر لهما و لمن فيهما، و قوله: ﴿و يَومَ يقولُ كُن فَيَكونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: «كن» فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب، و قوله: ﴿قَولُه الحَقُّ وَ لَهُ المُلْكُ﴾ جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين، و اختلف المفسرون في قوله: ﴿يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصور هنا جمع صُورة، أي: يوم ينفخ فيها فتحياً. و الصحيح: أن المراد بالصور: «القرن» الذي يَنفُخ فيه إسرافيلعليه السلام. قال ابن جرير: و الصواب عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللهﷺ أنه قال: «إنَّ

إسرافيل قد التقم الصُّور، و حَنَى جبهته، ينتظر متى يُؤمر فَينفخ» رواه مسلم في صحيحه.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله ماالصُّورُ؟ قال: «قرنٌ يُنفخُ فيه».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

٧٤- روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس في قوله: ﴿و إذ قال إبراهيمُ لأبيهِ آزَرَ﴾ يعني بآزر الصنم. وأبو إبراهيم اسمه: تارح و أمه اسمها شاني، و امرأته اسمها سارة، و أم إسماعيل اسمها هاجر، و هي سرية إبراهيم [1].

و هكذا قال غير واحد من علماء النسب، أن اسمه تارح. و قال مجاهد و السدي: آزر اسم صنم.

قلت: كأنه غلب عليه آزر، لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم.

قال ابن جرير: و الصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النَّسابين أن اسمه «تارح» ثم أجاب بأنه: قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، و هذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم.

و المقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام و زجره عنها، و نهاه فلم ينته، كما قال: ﴿و إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزَرَ أتتَّخِذُ أصناماً آلِهَةً﴾ أي: أتتأله لصنم تعبده من دون الله ﴿إنِّي أراكَ و قَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿في ضلالٍ مُّبينٍ﴾ أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة و جهل، و أمركم في الجهالة والضلال بيّنٌ واضح، لكل ذي عقل سليم، و قال تعالى: ﴿وَ اذكُرْ في الكتابِ إبْراهيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَّبياً * إذْ قالَ لأبيهِ يا أبتِ لِمَ تَعبُدُ ما لاَ يَسمَعُ وَ لاَ يُبصِرُ وَ لاَ يُغنِي عنكَ شيئاً * يا أبتِ إنِّي قَدْ جاءنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتَّبِعْنِي أهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً * يا أبَتِ لاَ تَعبُدِ الشَّيطانَ إنَّ الشَّيطانَ كانَ للرَّحمنِ عَصِيّاً * يا أبتِ إنِّي أخافُ أن يَمسَّكَ عَذابٌ مِّنَ الرَّحْمنِ فتكونَ للشَّيطانِ وَلِيّاً * قالَ أراغبٌ أنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبْرَاهيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِي مَلِيّاً * قالَ سَلامٌ عَليكَ سَأستَغفِرُ لكَ رَبِّي إنَّهُ كانَ بِي حَفِيّاً * وَ أعتزِلُكُمْ وَ ما تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ وأدْعُو رَبِّي عسَى أن لاَّ أكونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك و تبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له و تبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَ ما كانَ استِغفَارُ إبْراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبرَّأَ مِنهُ إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حَليمٌ﴾.

و ثبت في الصحيح: أن إبراهيم يَلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له آزر: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تعدني أنك لا تخزني يوم الدين، و أيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم:

---

(١) و في سنده: شبيب بن بشر البجلي، قال أبو حاتم: لين الحديث، حديثه حديث الشيوخ. (الجرح: ٤/ ٣٥٧).

انظر ما وراءك ، فإذا هو بذيخ [1] متلطِّخ ، فَيُؤخذ بقوائمه فيُلقى في النار .

٧٥- و قوله : ﴿و كذلكَ نُري إبراهيمَ ملكوتَ السموات و الأرض﴾ أي : نُبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه و خلقه ، و أنه لا إله غيره و لا رب سواه ، كقوله : ﴿قُل انظرُوا ماذا في السمَواتِ و الأرضِ﴾ و قوله : ﴿أفلَمْ ينظرُوا في ملكوتِ السموات و الأرض﴾ و قال : ﴿أفلَمْ يروْا إلَى مَا بينَ أيديهمْ و مَا خلفَهُم مِّن السَّماءِ و الأرضِ إن نَّشأ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرضَ أو نُسقِطْ عَلَيهِم كِسَفاً مِّن السَّماءِ إنَّ في ذلكَ لآيةً لِّكُلِّ عبدٍ مُّنيب﴾ . فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره ، حتى رأى ذلك عياناً ، و يحتمل أن يكون عن بصيرته ، حتى شاهده بفؤاده و تحققه و عرفه ، و علم ما في ذلك من الحكم الباهرة ، و الدلالات القاطعة ، كما رواه الإمام أحمد و الترمذي و صححه : عن معاذ بن جبل في حديث المنام : «أتاني ربي في أحسن صورةٍ فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت : لا أدري يا رب ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدتُ بَرد أنامله بين ثديي فَتَجلَّى لي كل شيء و عرفت ذلك» و ذكر الحديث . و قوله : ﴿و ليكونَ مِنَ المُوقنينَ﴾ قيل : الواو زائدة ، تقديره : و كذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : ﴿وكَذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ و لِتَستَبينَ سَبيلُ المُجرِمينَ﴾ و قيل : هي على بابها ، أي : نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً .

و قوله تعالى : ﴿فلمَّا جَنَّ عليهِ اللَّيلُ﴾ أي : تَغشَّاه و ستره ﴿رأى كَوكَباً﴾ أي : نجماً ﴿قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أفَلَ﴾ أي : غاب ، قال محمد بن إسحاق : الأُفول الذهاب .

قال : ﴿لا أُحِبُّ الآفلينَ﴾ قال قتادة : علمَ أن ربه دائمٌ لا يزول .

٧٧- ﴿فلمَّا رَأى القَمرَ بَازِغاً﴾ أي : طالعاً ﴿قالَ هذا رَبِّي فلمَّا أفَلَ قالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ .

٧٨- ﴿فلمَّا رَأى الشَّمسَ بازغةً قالَ هذا رَبِّي﴾ أي : هذا المنير الطالع ربي ﴿هذا أكبرُ﴾ أي : جرماً من النجم و من القمر ، و أكثر إضاءة ﴿فلمَّا أفَلَتْ﴾ أي : غابت ﴿قَالَ يا قوم إنِّي بريءٌ مِّمَّا تُشركونَ﴾ .

٧٩- ﴿إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطرَ السَّمواتِ و الأرضَ حَنيفاً وَ مَا أنَا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطرَ السَّمواتِ و الأرضَ﴾ أي : خلقهما و ابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنيفاً﴾ أي : في حال كوني حنيفاً ، أي : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ، و لهذا قال : ﴿وَ مَا أنَا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ .

قد اختلف المفسرون في هذا المقام : هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر ، و اختاره ابن جرير مستدلا بقوله : ﴿لَئِن لَّمْ يَهدِنِي رَبِّي﴾ الآية .

و الحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، و إنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق و النصر ، و غير ذلك مما يحتاجون إليه . و بيَّن في هذا المقام خطأهم و ضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، و هي : القمر و عطارد

---

(١) الذيخ : ذكر الضباع .

والزهرة و الشمس و المريخ و المشترى و زحل، و أشدهنّ إضاءة و أشرفهنّ عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله و سلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخّرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً و لا شمالاً، و لا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، و هي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه و بين المغرب، حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، و مثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، و تحقق ذلك بالدليل القاطع **﴿قَالَ يا قوم إِنِّي بريءٌ مِّمَّا تُشركونَ﴾** أي: أنا بريء من عبادتهن و موالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون.

٧٩- **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموات و الأرضَ حَنيفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكينَ﴾** أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء، و مخترعها و مسخرها و مقدرها و مدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، و ربه و مليكه وإلهه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السَّموات و الأرضَ في ستَّةِ أيَّام ثُمَّ اسْتَوَى على الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ يطلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ و الْقَمرَ وَ النُّجومَ مُسَخَّراتٍ بأمْرِهِ ألاَ لَهُ الْخَلْقُ و الأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالَمينَ﴾**. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام، و هو الذي قال الله في حقه **﴿وَ لقدْ آتينا إبراهيمَ رُشدَهُ مِن قبلُ و كنَّا بهِ عالِمينَ * إذْ قال لأبيهِ و قومِهِ ما هذهِ التماثيلُ الَّتي أنتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾** الآيات.

وقال تعالى: **﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً للهِ حَنيفاً وَلَمْ يكُ مِنَ الْمُشركينَ * شاكراً لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إلَى صِراطٍ مُّستقيم * وَ آتيناهُ في الدُّنيا حَسنةً وَ إنَّهُ في الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالحينَ * ثُمَّ أوحَينَا إليكَ أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنيفاً وَ مَا كانَ مِنَ الْمُشْرِكينَ﴾**. و قال تعالى: **﴿قُلْ إنَّني هَداني رَبِّي إلى صِراطٍ مُّستقيمٍ * ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنيفاً وَ مَا كانَ مِنَ الْمُشْرِكينَ﴾**.

و قد ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة عن رسول اللهﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول اللهﷺ أنه قال: «قال الله إني خَلقتُ عبادي حُنَفاء».

و قال الله في كتابه العزيز **﴿فِطرَتَ اللهِ الَّتي فَطرَ النَّاسَ عليهَا لاَ تَبديلَ لِخَلقِ اللهِ﴾**، و قال تعالى: **﴿و إذْ أخذَ ربُّكَ مِن بني آدمَ مِن ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ و أشْهَدَهُمْ على أنفُسِهِمْ ألستُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بلَى﴾** و معناه على أحد القولين: كقوله **﴿فِطرَتَ اللهِ الَّتي فَطرَ النَّاسَ عليهَا﴾** كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل، الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يكن من المشركين، ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، و السجية المستقيمة، بعد رسول اللهﷺ بلا شك و لا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً، لقومه فيما كانوا فيه من الشرك، لا ناظراً، قوله تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

٨٠- يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، و ناظروه بشُبَه من القول، أنه قال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي: تجدلونني في أمر الله، و أنه لا إله إلا هو، و قد بصّرني وهداني إلى الحق، و أنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة، و شبهكم الباطلة. و قوله: ﴿و لا أخافُ ما تُشرِكونَ بِهِ إلاَّ أن يشاءَ ربِّي شيئاً﴾ أي: و من الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه، أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، و أنا لا أخافها و لا أباليها، فإن كان لها كيدٌ فكيدوني بها و لا تنظرون، بل عاجلوني بذلك.

و قوله تعالى: ﴿إلاَّ أن يشاءَ ربِّي شَيْئاً﴾ استثناء منقطع، أي: لا يضر و لا ينفع إلا الله عز وجل: ﴿وسِعَ ربِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا يخفى عليه خافية ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها، و هذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قصَّ عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَ رَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الآية.

٨١- و قوله: ﴿و كيفَ أخافُ ما أشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿و لا تخافونَ أنَّكُمْ أشْرَكْتُم باللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عليكُمْ سُلطاناً﴾ قال ابن عباس و غير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ﴾ و قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَ آبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾. و قوله: ﴿فأيُّ الفريقَيْنِ أحقُّ بالأمْنِ إن كُنتُمْ تَعلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أصوب. الذي عَبَدَ من بيده الضر و النفع، أو الذي عَبَد من لا يضر و لا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

٨٢- قال الله تعالى: ﴿الذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أولَئِكَ لهُمُ الأمْنُ وَ هُم مُّهتَدُونَ﴾ أي: هؤلاء الذي أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، و لم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

روى البخاري: عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَ لَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: و أيُّنا لم يظلم نفسَه؟ فنزلت ﴿إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. و روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ﴾ إنما هو الشرك».

و روى ابن أبي حاتم نحوه، ثم قال: و روي عن أبي بكر الصدّيق و عمر و أبي بن كعب و سلمان وحذيفة و ابن عباس و ابن عمر و عمرو بن شرحبيل و أبي عبد الرحمن السلمي و مجاهد و عكرمة و النخعي

والضحاك وقتادة والسدي و غير واحد نحو ذلك.

٨٣- و قوله: ﴿و تلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ علَى قَومِهِ﴾ أي: وجّهنا حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَ كيفَ أخافُ مَا أشرَكتُم وَ لاَ تَخافونَ أنَّكُمْ أشرَكتُم بالله مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ عَليكُمْ سُلطاناً فأيُّ الفَريقَينِ أحقُّ بالأمْنِ﴾ الآية، و قد صدّقه الله، و حكم له بالأمن و الهداية، فقال: ﴿الذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَ هُم مُهْتَدونَ﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿و تلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ علَى قَومِهِ نرفَعُ درجاتٍ مَّن نَّشاءُ﴾ قُرئ بالإضافة و بلا إضافة كما في سورة يوسف، و كلاهما قريب في المعنى.

و قوله: ﴿إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ﴾ أي: حكيم في أقواله و أفعاله، عليم، أي: بمن يهديه و من يضله، وإن قامت عليه الحجج و البراهين، كماقال: ﴿إنَّ الذينَ حَقَّتْ عليهمْ كَلِمَةُ ربِّكَ لاَ يُؤمِنونَ * وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيةٍ حتّى يَرَوُا العَذابَ الألِيمَ﴾ و لهذا قال ههنا: ﴿إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ﴾.

﴿ ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

٨٤- ٨٦- يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق، بعد أن طعن في السن، و أيس هو و امرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، و قالت: ﴿يا ويلتَى أألِدُ و أنا عجوزٌ و هذا بَعلي شَيخاً إنَّ هذا لَشيءٌ عَجيبٌ * قالُوا أتعجَبينَ مِنْ أمْرِ اللهِ رَحمَةُ اللهِ وَبَركاتُهُ عَليكُمْ أهلَ البيتِ إنَّهُ حَميدٌ مَّجيدٌ﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته، و بأن له نسلاً و عقباً كما قال تعالى: ﴿وَ بَشَّرْناهُ بإسحاقَ نَبيّاً مِّنَ الصَّالِحينَ﴾ و هذا أكمل في البشارة، و أعظم في النعمة، و قال: ﴿فَبَشَّرْناهُ بإسْحاقَ وَمِن وَراءِ إسْحاقَ يَعقُوبَ﴾ أي: و يولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما، فتقرَّ أعينكما به، كما قرَّت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل و العقب، و لما كان ولد الشيخ و الشيخة قد يتوهّم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب، الذي فيه اشتقاق العَقِب و الذرية، و كان هذا مجازاةً لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه، وتركهم و نزح عنهم، و هاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوَّضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته، بأولادٍ صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعتزَلَهُمْ وَ مَا يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ وَهَبنَا لهُ إسحاقَ وَ يَعقوبَ وَ كُلاً جَعلْنا نَبيّاً﴾ و قال ههنا: ﴿وَ وهبنَا لهُ إسحاقَ و يعقوبَ كُلاً هَدَيْنَا﴾.

و قوله: ﴿و نُوحاً هَدَيْنا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، و وهبنا له ذرية صالحة، و كل منهما

له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، و هم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، و أما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً و إبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ﴾ و قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وَ إسرائيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إذا تُتْلَى عَلَيهِمْ آياتُ الرَّحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً﴾ و قوله في هذه الآية الكريمة ﴿و من ذريته﴾ أي: و هدينا من ذريته داود وسليمان الآية، و عود الضمير إلى نوح، لأنه أقربُ المذكورين ظاهر لا إشكال فيه، و هو اختيار ابن جرير. وعوده إلى إبراهيم لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يُشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه هاران بن آزر، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليباً، كما في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهداءَ إِذْ حضرَ يعقوبَ الموْتُ إِذْ قالَ لِبنِيهِ مَا تَعبُدونَ مِن بَعدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلَهَ آبائِكَ إبراهيمَ و إسماعِيلَ و إسْحاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنحنُ لهُ مُسلِمونَ﴾ فإسماعيل عمه، دخل في آبائه تغليباً، و كما قال في قوله: ﴿فَسجدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، و ذُمَّ على المخالفة، لأنه كان قد تشبَّه بهم فعومل معاملتهم، و دخل معهم تغليباً، و إلا فهو كان من الجن و طبيعته من النار، و الملائكة من النور.

و في ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام، فإنه لا أب له. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه، و بنو بنيه، و احتجوا بقول الشاعر العربي:

بَنُونَا بنو أبنائنا و بناتنا بنوهن أبناءُ الرجالِ الأجانب

و قال آخرون: و يدخل بنو البنات فيهم أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال للحسن ابن علي: «إنَّ ابني هذا سيدٌ، و لعلّ الله أنْ يُصلحَ به بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». فسماه ابناً فدلّ على دخوله في الأبناء. و قال آخرون: هذا تجوّز.

٨٧- و قوله: ﴿و مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ﴾ ذكر أصولهم و فروعهم، و ذوي طبقتهم، و أن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، و لهذا قال: ﴿و اجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِراطٍ مُّستَقِيمٍ﴾.

٨٨- ثم قال تعالى: ﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهدِي بِهِ مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله، وهدايته إياهم ﴿وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّا كَانُوا يَعملُونَ﴾ تشديدٌ لأمر الشرك، و تغليظ لشأنه، و تعظيم لملابسته، كقوله تعالى: ﴿و لقدْ أُوحِيَ إِلَيكَ وَ إِلَى الَّذينَ مِن قَبلِكَ لَئِنْ أَشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية، وهذا شرط، و الشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إن كانَ لِلرَّحمَنِ وَلَدٌ فأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾ و كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخذناهُ مِن لَّدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ و كقوله: ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أن يتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخلُقُ مَا يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ﴾.

٨٩- و قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، و لطفاً منّا بالخليقة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بالنبوة، و يحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه

الأشياء الثلاثة: الكتاب و الحكم و النبوة، و قوله: ﴿هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس و سعيد بن المسيب والضحاك و قتادة و السدي، و غير واحد ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كَفَرَ بها من قريش و غيرهم، من سائر أهل الأرض، من عرب و عجم، و مليين و كتابيين، فقد وكلنا بها قوماً آخرين، أي: المهاجرين و الأنصار، و أتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ أي: لا يجحدون منها شيئاً، و لا يردُّون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها، محكمها و متشابهها، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه وإحسانه.

٩٠- ثم قال تعالى مخاطباً عبده و رسوله محمداً ﷺ: ﴿أولئك﴾ يعني الأنبياء المذكورين، مع مَن أُضيف إليهم من الآباء و الذرية و الإخوان، و هم الأشباه ﴿الذين هدى الله﴾ أي: هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فبهداهم اقتده﴾ أي: اقتد و اتبع، و إذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ فأمته تبعٌ له فيما يشرعه و يأمرهم به. و روى البخاري عند هذه الآية عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أفي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿و وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ - إلى قوله - ﴿فبهداهم اقتده﴾ ثم قال: هو منهم، زاد في رواية عن مجاهد، قلت لابن عباس فقال: نبيكم ﷺ ممن أمر أنْ يقتدى بهم.

و قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي: لا أطلب منكم، على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً، أي: أجرة و لا أريد منكم شيئاً ﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ أي: يتذكرون به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى، و من الغي إلى الرشاد، و من الكفر إلى الإيمان.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾

٩١- يقول تعالى و ما عظَّموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس و مجاهد و عبد الله ابن كثير: نزلت في قريش. و اختاره ابن جرير، و قيل: نزلت في طائفة من اليهود. و الأول أصح، لأن الآية مكية، و اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، و قريش و العرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ، لأنه من البشر، كما قال: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ و كقوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ❁ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ و قال ههنا: ﴿و ما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ قال الله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً و هدى للناس﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ و هو التوراة التي قد علمتم - و كل أحد - أن الله قد

أنزلها على موسى بن عمران نوراً و هدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، و يهتدى بها من ظلم الشبهات، وقوله: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها و تخفون كثيراً﴾ أي: تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديكم، و تحرّفون منها ما تحرفون، و تبدلون و تتأولون و تقولون هذا من عند الله، أي: في كتابه المنزل، و ما هو من عند الله، و لهذا قال: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها و تخفون كثيراً﴾.

و قوله تعالى: ﴿و علّمتم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم﴾ أي: و من أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه من خير ما سبق، و نبأ ما يأتي، ما لم تكونوا تعلمون ذلك، لا أنتم و لا آباؤكم، و قد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. و قال مجاهد: هذه للمسلمين. و قوله تعالى: ﴿قل الله﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: قل الله أنزله، و هذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿قل الله﴾ أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة «الله» و هذا الذي قاله هذا القائل، يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، و الإتيان بكلمة مفردة، لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها.

و قوله: ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم و ضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

٩٢- و قوله: ﴿و هذا كتاب﴾ يعني القرآن ﴿أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه و لتنذر أم القرى﴾ يعني مكة ﴿و من حولها﴾ من أحياء العرب، و من سائر طوائف بني آدم من عرب و عجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ و قال: ﴿لأنذركم به و من بلغ﴾ و قال: ﴿و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ و قال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ وقال: ﴿و قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد﴾.

و ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي» و ذكر منهن «و كان النبي ﷺ يُبعثُ إلى قومه خاصة، و بُعث إلى الناس عامة». و لهذا قال: ﴿و الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي: كلُّ مَن آمن بالله و اليوم الآخر، يؤمن بهذا الكتاب المبارك، الذي أنزلناه إليك يا محمد، و هو القرآن ﴿و هم على صلاتهم يحافظون﴾ أي: يقومون بما فرض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

٩٣- يقول تعالى: ﴿و من أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله،

فجعل له شركاء أو ولداً، أو ادّعى أن الله أرسله إلى الناس و لم يرسله، و لهذا قال تعالى: **﴿أو قالَ أوحيَ إليَّ ولَمْ يُوحَ إليهِ شيءٌ﴾** قال عكرمة و قتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب **﴿و من قالَ سأُنزِلُ مِثْلَ مَا أنزلَ اللهُ﴾** أي: ومَن ادّعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، مما يفتريه من القول، كقوله تعالى: **﴿و إذا تُتْلَى عَلَيهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾** الآية. قال الله تعالى: **﴿و لو ترَى إذ الظَّالِمُونَ في غَمَراتِ المَوتِ﴾** أي: في سكراته و غمراته و كرباته **﴿و المَلائكَةُ بَاسِطُوا أيديهِمْ﴾** أي: بالضرب، كقوله: **﴿لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدكَ لِتَقْتُلَنِي﴾** الآية، و قوله: **﴿وَيَبْسُطُوا إلَيكُمْ أيدِيَهُمْ وَ ألْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾** الآية، و قال الضحاك و أبو صالح: **﴿بَاسِطُوا أيدِيهِمْ﴾** أي: بالعذاب، كقوله: **﴿و لَو تَرَى إذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأدبَارَهُمْ﴾** و لهذا قال: **﴿و المَلائكَةُ بَاسِطُوا أيدِيهِمْ﴾** أي: بالضرب لهم حتى تخرجَ أنفسُهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: **﴿أخرِجُوا أنفُسَكُمْ﴾** و ذلك أن الكافر إذا احتضر بشّرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال و السلاسل، و الجحيم و الحميم، و غضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحُه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم **﴿أخرِجُوا أنفُسَكُم اليَومَ تُجزَونَ عذَابَ الهُونِ بِمَا تَقولُونَ على اللهِ غَيرَ الحَقِّ﴾** الآية، أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، و تستكبرون على اتباع آياته، و الانقياد لرسله.

و قد وردت الأحاديث المتواترة، في كيفية احتضار المؤمن و الكافر عند الموت، و هي مقررة عند قوله تعالى: **﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنوا بالقَولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وَ في الآخِرةِ﴾**.

٩٤- و قوله: **﴿و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾** أي: يُقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: **﴿وَعُرِضُوا على رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُم أوَّلَ مَرَّةٍ﴾** أي: كما بدأناكم أعدناكم، و قد كنتم تُنكرون ذلك و تستبعدونه، فهذا يوم البعث، و قوله: **﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾** أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا، وراء ظهوركم، و ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، و هل لك مِن مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ، و ما سوى ذلك فذاهبٌ و تاركه للناس».

و قوله: **﴿وَ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الذينَ زَعمتُمْ أنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءُ﴾** تقريعٌ لهم و توبيخٌ، على ما كانوا اتخذوا في الدنيا، من الأنداد و الأصنام و الأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم و معادهم، إنْ كانَ ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تَقطَّعتْ بهم الأسباب، و انزاح الضلال، و ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، و يناديهم الربُّ جلَّ جلاله على رءوس الخلائق: **﴿أينَ شُرَكائِيَ الذينَ كُنتُمْ تَزعُمُونَ﴾** و قيل لهم: **﴿أينَ مَا كُنتُمْ تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ هَلْ يَنصرُونَكُمْ أوْ يَنتَصِرُونَ﴾** و لهذا قال هنا: **﴿و ما نَرَى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُم الذينَ زَعمتُمْ أنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءُ﴾** أي: في العبادة، لهم فيكم قسطٌ في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: **﴿لقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾** قُرئ بالرفع، أي: شملكم، و بالنصب، أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب، و الوصلات و الوسائل **﴿و ضَلَّ عَنكُمْ﴾** أي: ذهب عنكم **﴿مَا كُنتُمْ تَزعُمونَ﴾** من رجوى الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: **﴿إذ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا العَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسبابُ * وَ قالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذلِكَ يُريهِمُ اللهُ أعمالَهُمْ حسراتٍ عليهِمْ و ما هُم بِخارِجينَ**

مِن النَّارِ﴾ و قال تعالى: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ فلا أنسابَ بَينَهُمْ يومَئِذٍ وَ لاَ يَتَساءَلونَ﴾ و قال تعالى: ﴿إنَّما اتَّخذْتُم مِن دُونِ اللهِ أوْثاناً مَوَدَّةَ بَينِكُمْ في الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يومَ القِيامةِ يَكفُرُ بَعضُكُم بِبَعضٍ وَ يلْعَنُ بعضُكُم بَعْضاً وَمأْواكُم النَّارُ وَ ما لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ و قال: ﴿قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدعَوْهُمْ فلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿و يومَ نَحشُرُهمْ جَميعاً ثُمَّ نَقولُ لِلَّذينَ أشرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿و ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾ و الآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ إنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

٩٥- يخبر تعالى أنه فالق الحب و النوى، أي: يشقه في الثَّرى فتنبت منه الزروع، على اختلاف أصنافها من الحبوب، و الثمار على اختلاف ألوانها و أشكالها و طعومها من النوى، و لهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بقوله ﴿يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب و النوى، الذي هو كالجماد الميت، كقوله: ﴿و آيَةٌ لَّهُمُ الأرْضُ الْمَيْتَةُ أحْيَيْنَاهَا وَ أخْرَجْنَا مِنْهَا حَباً فَمِنهُ يأكُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿و مِنْ أنفُسِهِمْ مِمَّا لاَ يَعلَمونَ﴾ و قوله: ﴿وَ مُخرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الحَبِّ وَ النَّوَى﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَ مُخرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ و قد عبروا عن هذا و هذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فَمِن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة و عكسه، و من قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، و غير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية و تشملها.

ثم قال تعالى ﴿ذَلِكُم اللهُ﴾ أي: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له: ﴿فأنَّى تُؤفَكُونَ﴾ أي: كيف تُصرفون عن الحق، و تعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره.

٩٦- و قوله: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَ جَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً﴾ أي: خالق الضياء و الظلام، كما قال في أو ل السورة ﴿وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ﴾ أي: فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، و يضمحل الظلام، و يذهب الليل بسواده و ظلام رواقه، و يجيء النهار بضيائه و إشراقه، كقوله: ﴿يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ فبيّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته و عظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح، وقابل ذلك بقوله: ﴿وَ جعلَ اللَّيلَ سَكَناً﴾ أي: ساجياً مظلماً لِتسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَ الضُّحَى * وَ اللَّيلِ إذا سَجَى﴾ و قال: ﴿و اللَّيلِ إذا يَغشَى * وَ النَّهارِ إذَا تَجَلَّى﴾ وقال: ﴿و النَّهارِ إذا جَلاَّهَا * وَ اللَّيلِ إذا يَغشَاهَا﴾ و قال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته و قد عاتبته في كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، و إذا ذكر النار طار نومه. رواه ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿و الشَّمسَ وَ القَمَرَ حُسْبَاناً﴾ أي: يجريان بحساب مقنّن مقدر، لا يتغير و لا يضطرب، بل

لكل منهما منازل يسلكها في الصيف و الشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل و النهار طولاً و قصراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ الآية، و كما قال: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ و قال: ﴿وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾. و قوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جار بتقدير ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يمانع و لا يخالف، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، و كثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار و الشمس و القمر، يختم الكلام بالعزة و العلم، كما ذكر في هذه الآية، و كما في قوله: ﴿و آيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * و الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ولما ذكر خلق السموات و الأرض و ما فيهن في أول سورة «حم السجدة»، قال: ﴿و زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٩٧- و قوله تعالى: ﴿وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث، فقد أخطأ، و كذَبَ على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر و البحر. و قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أي: قد بيّناها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعقلون و يعرفون الحق، و يتجنبون الباطل.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

٩٨- يقول تعالى: ﴿وَ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَ نِسَاءً﴾ و قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اختلفوا في معنى ذلك، فعن ابن مسعود و ابن عباس و أبي عبد الرحمن السلمي و قيس بن أبي حازم و مجاهد و عطاء و إبراهيم النخعي و الضحاك و قتادة و السدي و عطاء الخراساني و غيرهم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأرحام، قالوا: أو أكثرهم ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب، و عن ابن مسعود و طائفة عكسه، وعن ابن مسعود أيضاً و طائفة: فمستقر في الدنيا، مستودع حيث يموت، و قال سعيد بن جبير: فمستقر في الأرحام، و على ظهر الأرض و حيث يموت، وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله، وعن ابن مسعود: ﴿وَ مُسْتَوْدَعٌ﴾ في الدار الآخرة، و القول الأول أظهر، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون و يعون كلام الله و معناه.

٩٩- و قوله تعالى: ﴿وَ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: بقدر مباركاً و رزقاً للعباد، و إحياء و غياثاً للخلائق، رحمة من الله بخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً﴾ أي: زرعاً و شجراً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر، و لهذا قال تعالى:

﴿نُخْرِجُ مِنهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً﴾ أي: يركب بعضه بعضاً، كالسنابل و نحوها ﴿وَ مِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع «قنو» و هي عذوق الرطب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس ﴿قِنوانٌ دَانية﴾ يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل، اللاصقة عذوقها بالأرض. رواه ابن جرير.

و قوله تعالى: ﴿و جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: و نخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، و ربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده، في قوله تعالى: ﴿ومِن ثَمراتِ النَّخِيلِ وَ الأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً﴾ و كان ذلك قبل تحريم الخمر، و قال: ﴿وَجعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ﴾ و قوله تعالى: ﴿وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: متشابه في الورق و الشكل، قريب بعضه من بعض، و متخالف في الثمار شكلاً و طعماً و طبعاً.

و قوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنعِهِ﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب و ابن عباس و الضحاك وعطاء الخراساني و السدي و قتادة و غيرهم، أي: فكِّروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً و رطباً، و غير ذلك مما خلق سبحانه و تعالى، من الألوان و الأشكال والطعوم و الروائح، كقوله تعالى: ﴿وَ فِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَ زَرعٌ وَ نَخِيلٌ صِنوَانٌ وَ غَيرُ صِنوَانٍ يُسقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَى بَعضٍ فِي الأُكُلِ﴾ الآية، و لهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء، و حكمته و رحمته ﴿لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويتبعون رسله.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾

١٠٠- هذا ردٌّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، و أشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم و كفرهم. فإن قيل: فكيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن، و أمرهم إياهم بذلك، كقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَ إِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيطَاناً مَّرِيداً* لَّعَنَهُ اللهُ وَ قَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً* وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَ لآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَ مَن يَتَّخِذِ الشَّيطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً* يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ و كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَولِيَاءَ مِن دُونِي﴾ الآية، و قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعبُدِ الشَّيطَانَ إِنَّ الشَّيطَانَ كَانَ لِلرَّحمَنِ عَصِيّاً﴾ وكقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيكُمْ يَا بَنِي آدمَ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَ أَنِ اعبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّستَقِيمٌ﴾ و تقول الملائكة يوم القيامة ﴿سُبحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعبُدُونَ الْجِنَّ أَكثَرُهُمْ بِهِم مُّؤمِنُونَ﴾.

و لهذا قال تعالى: ﴿وَ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: و قد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبد معه غيره؟! كقول إبراهيم ﴿أَتَعبُدُونَ مَا تَنحِتُونَ* وَ اللهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعمَلُونَ﴾ و معنى الآية أنه سبحانه و تعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

و قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين و بنات بغير علم﴾ يُنبّه به تعالى على ضلال من ضَلّ في وصفه تعالى، بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في عزير، و من قال من النصارى في عيسى، و من قال من مشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ﴿تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً﴾ و معنى ﴿خرقوا﴾ أي: اختلفوا وائتفكوا وتخرَّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و خرقوا﴾ يعني: تخرَّصوا، و قال العوفي عنه: كذبوا، و كذا قال الحسن، و قال الضحاك: و ضعوا، و قال السدي: قطعوا.

قال ابن جرير: و تأويله إذاً: و جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم، و هو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين و لا ظهير ﴿و خرقوا له بنين و بنات بغير علم﴾ بحقيقة ما يقولون، و لكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون و بنات، و لا صاحبة، و لا أن يشركه في خلقه شريك.

و لهذا قال: ﴿سبحانه و تعالى عمّا يصفون﴾ أي: تقدس و تنزّه و تعاظم، عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون، من الأولاد و الأنداد، و النظراء و الشركاء.

﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾

١٠١ - ﴿بديع السموات و الأرض﴾ أي: مبدعهما و خالقهما و منشئهما و محدثهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد و السدي، و منه سُميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أنّى يكون له ولد﴾ أي: كيف يكون له ولد ﴿و لم تكن له صاحبة﴾ أي: و الولد إنما يكون متولّداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له و لا ولد، كما قال تعالى: ﴿و قالوا اتّخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾ إلى قوله: ﴿و كلّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾.

﴿و خلق كلّ شيء و هو بكلّ شيء عليم﴾ فبيَّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء، و أنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، و هو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد تعالَى الله عن ذلك علواً كبيرا.

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

١٠٢ - يقول تعالى: ﴿ذلكم الله ربّكم﴾ أي: الذي خلق كل شيء، و لا ولد له و لا صاحبة ﴿لا إله إلا هو خالق كلّ شيء فاعبدوه﴾ أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، و أقروا له بالوحدانية، و أنه لا إله إلا هو، و أنه لا ولد له و لا والد، و لا صاحبة له، ولا نظير و لا عديل ﴿و هو على كلّ شيء وكيل﴾ أي: حفيظ و رقيب، يدبّر كل ما سواه، و يرزقهم و يكلأهم بالليل والنهار.

١٠٣ - و قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف (أحدها): لا تدركه في الدنيا، و إن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح و المسانيد

والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: مَنْ زعمَ أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، و في رواية: على الله، فإن الله تعالى قال: ﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه، و خالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، و عنه: أنه رآه بفؤاده مرتين، والمسئلة تُذكر في أول سورة النجم إن شاء الله، وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم بسنده عن إسماعيل بن عُليَّة في قول الله ﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ قال: هذا في الدنيا، قال: و ذكر أبي عن هشام بن عبد الله أنه قال نحو ذلك.

و قال آخرون: ﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ أي: جميعها، و هذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة، و قال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية: أنه لا يرى في الدنيا و لا في الآخرة!

فخالفوا أهل السنة و الجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله و سنة رسوله.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وُجوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ و قال تعالى عن الكافرين ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَومَئِذٍ لَّمَحجُوبُونَ﴾ قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك و تعالى.

و أما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد و أبي هريرة و أنس و جرير و صهيب و بلال، و غير واحد من الصحابة، عن النبيﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العَرَصَات، و في روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه و كرمه، آمين.

و قال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية و نفي الإدراك، فإنَّ الإدراك أخص من الرؤية، و لا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ماهو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، و إنْ رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر، فإنه لا يدركه حقيقته و كنهه و ماهيته، فالعظيم أولى بذلك و له المثل الأعلى.

و قال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية، و هو الإحاطة، قالوا: و لا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من إحاطة العلم، عدم العلم، قال تعالى: ﴿و لاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و في صحيح مسلم: «لا أُحْصِي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك». و لا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا.

و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قيل له: ﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ قال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في الآية ﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾: هو أعظم من أن تدركه الأبصار.

و روى ابن جرير عن عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿وُجوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، و بصره محيط بهم، فذلك قوله: ﴿وُجوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

و قال آخرون في الآية: بما رواه الترمذي و ابن أبي عاصم عن عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمدٌ ربه تبارك و تعالى، فقلت: أليس الله يقول: ﴿وُجوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الآية؟ فقال لي: لا أمَّ لك، ذلك نوره الذي هو نوره، إذا تجلَّى بنوره لا يدركه شيء. و في رواية: لا يقوم له شيء، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و في معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين: من حديث

أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً: «إنّ الله لا ينام، و لا ينبغي له أن ينام، يخفضُ القِسط و يرفعه، يُرفع إليه عملُ النهار قبل الليل، و عملُ الليل قبل النهار، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كَشَفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». و في الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، و لا يابس إلا تدهده، أي: تدعثر، و قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبحانَكَ تُبتُ إِلَيكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

و نفي هذا الأثر الإدراك الخاص، لا ينفي الرؤية يوم القيامة، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء. فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى و تقدس و تنزه، فلا تدركه الأبصار، و لهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تُثبت الرؤية في الدار الآخرة، و تنفيها في الدنيا، و تحتج بهذه الآية ﴿لَا تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾ فالذي نَفَته الإدراك، الذي هو بمعنى رؤية العظمة و الجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، و لا للملائكة، و لا لشيء.

و قوله: ﴿و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾ أي: يُحيط بها، و يَعْلَمها على ما هي عليه، لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعلَمُ مَنْ خلقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ و قد يكون عبّرَ بالأبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: ﴿لَا تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾ لا يراه شيء، وهو يرى الخلائق.

و قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قال: اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها، و الله أعلم. و هذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وَعَظَ به ابنه ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّموَاتِ أَوْ فِي الأَرضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُم فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤)
وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٤- البصائر: هي البينات و الحجج التي اشتمل عليها القرآن، و ما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفسِهِ﴾ كقوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا﴾ و لهذا قال: ﴿وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيهَا﴾ لما ذكر البصائر قال: ﴿وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيهَا﴾ أي: إنما يعود وباله عليه، كقوله: ﴿فإِنَّهَا لاَ تَعمَى الأَبْصَارُ وَ لكِن تَعمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. ﴿وَ مَا أَنَا عَلَيكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: بحافظ و لا رقيب، بل إنما أنا مبلغ و الله يهدي من يشاء و يضل من يشاء.

١٠٥- و قوله: ﴿و كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي: و كما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد، و أنه لا إله إلا هو، هكذا نوضّح الآيات و نفسرها و نبينها في كل موطن، لجهالة الجاهلين، و ليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد، مَنْ قبلك من أهل الكتاب، و قارأتهم و تعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و الضحاك و غيرهم. و هذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم ﴿وَ قَالَ الذينَ كفَرُوا إِنْ هذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيهِ قَومٌ آخَرونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَ زُوراً * وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ الآية، و قال تعالى إخباراً عن زعيمهم و كاذبهم: ﴿إنه فَكَّرَ وَ قَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ و بَسَرَ * ثُمَّ أَدبرَ و استكبَرَ * فقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحرٌ يُؤثَرُ * إِنْ هذَا إِلاَّ قولُ

البَشَرِ﴾.

و قوله: **﴿و لِنُبَيِّنَهُ لقوم يَعلَمونَ﴾** أي: و لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، و الباطل فيجتنبونه، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، و بيان الحق لهؤلاء، كقوله تعالى: **﴿يضل به كثيراً و يهدي به كثيراً﴾** الآية، و كقوله: **﴿لِيَجعَلَ مَايُلقِي الشَّيطانُ فتنةً لِلَّذينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ وَ القَاسِيَةِ قُلوبُهُم وَ إنَّ اللهَ لَهادِ الذينَ آمَنوا إلَى صِراطٍ مُستَقيم﴾** و قال تعالى: **﴿وَ ما جَعَلنَا أصحابَ النَّارِ إلاَّ مَلائِكَةً وَ مَا جَعَلنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا لِيَستَيْقِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ وَيَزدادَ الذينَ آمَنُوا إيمَاناً وَ لاَ يَرتابَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ و المُؤمِنُونَ وَلِيَقُولَ الذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ وَ الكافِرُونَ ماذا أرَادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ وَ يَهدِي مَن يَشاءُ وَما يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ﴾** و قال **﴿وَ نُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَ رَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ وَ لاَ يزيدُ الظَّالمينَ إلاَّ خَساراً﴾** وقال تعالى: **﴿قُلْ هُوَ لِلَّذينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفاءٌ وَ الذينَ لاَ يُؤمِنونَ في آذانِهِمْ وَقرٌ وَ هُوَ عَلَيهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَونَ من مكان بعيد﴾** إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، و أنه يضل به من يشاء و يهدي به من يشاء، و لهذا قال ههنا: **﴿و كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَومٍ يَعلَمُونَ﴾** و قرأ بعضهم: **﴿و ليقُولُوا دَرَستَ﴾** قال التميمي عن ابن عباس **﴿دَرَستَ﴾** أي: قرأت و تعلمت، و كذا قال مجاهد و السدي و الضحاك و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غير واحد. و روى عبد الرزاق عن الحسن **﴿و ليقولوا دَرَسَتْ﴾** يقول: تقادمت وانمحت. وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير يقول: إن صبياناً يقرأون ههنا: **﴿دَارَسْتَ﴾** و إنما هي: **﴿دَرَسْتَ﴾** وقال شعبة حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال: هي في قراءة ابن مسعود. قال ابن جرير: و معناه: انمحت و تقادمت، أي: أن هذا الذي تتلوه علينا، قد مَرَّ بنا قديماً، و تطاولت مدته. وعن قتادة أنه قرأها: **﴿دُرِسَتْ﴾** أي: قُرِئت و تُعلِّمتْ.

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴾

١٠٦- يقول تعالى آمراً لرسولهﷺ و لمن اتبع طريقته: **﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إليكَ مِن رَّبِّكَ﴾** أي: اقتد به واقتف أثره، و اعمل به، فإنَّ ما أوحي إليك من ربك، هو الحق الذي لا مرية فيه، لأنه لا إله إلا هو **﴿وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشرِكِينَ﴾** أي: اعف عنهم و اصفح، و احتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك، و ينصرك و يظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، ولو شاء لجمعهم على الهدى.

١٠٧- **﴿و لَوْ شاءَ اللهُ ما أشرَكُوا﴾** أي: بل له المشيئة و الحكمة فيما يشاؤه و يختاره، لا يسأل عما يفعل و هم يسألون. و قوله تعالى: **﴿و مَا جَعلنَاكَ عَلَيهِمْ حَفِيظاً﴾** أي: حافظاً تحفظ أقوالهم و أعمالهم **﴿ومَا أنتَ عَلَيهِم بِوَكيلٍ﴾** أي: موكّل على أرزاقهم و أمورهم، إنْ عليك إلا البلاغ، كما قال تعالى: **﴿فَذَكِّرْ إنَّمَا أنتَ مُذَكِّرٌ* لَستَ عَلَيهِم بِمُسَيطِرٍ﴾** و قال: **﴿إنَّمَا عَليكَ البَلاغُ وَ عَلَينَا الحِسابُ﴾**.

﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

١٠٨ - يقول الله تعالى ناهياً لرسولهﷺ و المؤمنين، عن سبِّ آلهة المشركين، و إنْ كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، و هي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين، وهو ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا يا محمد لتَنتهينَّ عن سبك آلهتنا، أو لنهجونَّ ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ روى عبد الرزاق عن قتادة نحوه.

و من هذا القبيل، و هو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «ملعونٌ مَنْ سبَّ والديه» قالوا: يا رسول الله، و كيف يسبُّ الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، و يسبُّ أمه فيسبُّ أُمَّهُ» أو كما قالﷺ.

و قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: و كما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، و المحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة، أي: من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، و لله الحجة البالغة، و الحكمة التامة، فيما يشاؤه و يختاره ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: معادهم و مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيهم بأعمالهم، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

١٠٩ - يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكَّدة ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: معجزة و خارق ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات، تعنتاً و كفراً و عناداً، لا على سبيل الهدى و الاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها، و إن شاء ترككم.

و قال الله تعالى: ﴿وَ مَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ الآية. و قوله تعالى: ﴿وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ قيل المخاطب بما يشعركم: المشركون، و إليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: و ما يدريكم بصدقهم في هذه الأيمان التي تُقسمون بها. و على هذا فالقراءة ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بكسر «إنَّ» على أنها على استئناف الخبر عنهم، بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، و قرأ بعضهم ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء المثناة من فوق، و قيل المخاطب بقوله: ﴿و مَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون، يقول: و ما يدريكم أيها المؤمنون، و على هذا فيجوز في قوله: ﴿أَنَّهَا﴾ الكسر كالأول، و الفتح على أنها معمول يشعركم، وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ صلة، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وقوله: ﴿و حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون، وتقديره في هذه الآية: و ما يدريكم ـ أيها المؤمنون الذين تودّون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم ـ أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

١١٠ - و قوله تعالى: ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لَمْ تَثْبتْ قلوبهم على شيء، و رُدَّت عن كل أمر. وقال

مجاهد في قوله : ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ﴾ : و نحول بينهم و بين الإيمان ، و لو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم و بين الإيمان أول مرة . و كذا قال عكرمة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، و عملهم قبل أن يعملوه ، وقال : ﴿و لاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ جل و علا ، و قال : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ ـ إلى قوله ـ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله سبحانه : أنهم لو رُدوا لم يقدروا على الهدى ، و قال : ﴿وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ و قال تعالى : ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال : ولو ردوا إلى الدنيا ، لحيل بينهم و بين الهدى ، كما حلنا بينهم و بينه أول مرة و هم في الدنيا .

و قوله : ﴿وَ نَذَرُهُمْ﴾ أي : نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس و السدي : في كفرهم ، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس و قتادة : في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش : يلعبون ، و قال ابن عباس و مجاهد وأبو العالية و الربيع و أبو مالك و غيره : في كفرهم يترددون .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

١١١ - يقول تعالى : و لو أننا أجبنا سؤال هؤلاء ، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، فنزلنا عليهم الملائكة ، تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل ، كما سألوا فقالوا : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَ الْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ ﴿وَ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ ﴿و قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَ عَتَوا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ .

﴿وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ أي : فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿وَ حَشَرْنَا عَلَيهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ قرأ بعضهم : قِبلاً بكسر القاف و فتح الباء ، من المقابلة و المعاينة ، و قرأ آخرون بضمهما ، قيل معناه : من المقابلة والمعاينة أيضاً ، كما رواه علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس ، و به قال قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . و قال مجاهد ﴿قُبُلاً﴾ : أي : أفواجاً ، قبيلاً قبيلاً ، أي : تعرض عليهم كل أمة بعد أمة ، فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ أي : إن الهداية إليه لا إليهم ، بل يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، و هو الفعَّال لما يريد ﴿لا يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسأَلُونَ﴾ لعلمه و حكمته ، و سلطانه وقهره وغلبته . و هذه الآية كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾

١١٢ - يقول تعالى : و كما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك و يعادونك و يعاندونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، كما قال تعالى : ﴿و لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا﴾ الآية ، و قال تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو

عِقابٍ أليم﴾ و قال تعالى: **﴿وكذلِكَ جعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾** الآية. و قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنّه لم يأتِ أحدٌ بمثل ما جئت به، إلا عُودي. و قوله: **﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ و الجِنِّ﴾** بدل من **﴿عَدُوّاً﴾** أي: لهم أعداء من شياطين الإنس و الجن، و الشياطين: كل من خرج عن نظيره بالشر، و لا يعادى الرسل إلا الشياطين، من هؤلاء و هؤلاء، قبحهم الله و لعنهم. روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله: **﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ والجِنِّ﴾** قال: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يُوحي بعضهم إلى بعض، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت النبي ﷺ و هو في المسجد فجلست، فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل» قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر، تَعَوَّذْ بالله من شر شياطين الإنس و الجن» قال: قلت: يا رسول الله و للإنس شياطين؟ فقال: «نعم» و ذكر تمام الحديث بطوله، و كذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه و ابن جرير من طريق أخرى، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة. فهذه طرق لهذا الحديث و مجموعها يفيد قوته وصحته، و الله أعلم. و عن عكرمة في قوله: **﴿يُوحِي بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ﴾**. أما شياطين الإنس: فالشياطين التي تُضل الإنس، و شياطين الجن: التي تضل الجن، يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه: أني أضللت صاحبي بكذا و كذا، فأضلَّ أنتَ صاحبك بكذا و كذا، فيُعَلِّم بعضهم بعضاً، فهم ابن جرير من هذا: أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة و السدي: الشياطين الجن الذين يضلون الناس، لأن المراد منه شياطين الإنس منهم، و لا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، و أما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى و هو محتمل. وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه، و على كل حال، فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر: إن للإنس شياطين منهم، و شياطين كل شيء مَارده، و لهذا جاء في صحيح مسلم: عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «الكلبُ الأسودُ شيطان» و معناه ـ و الله أعلم ـ شيطان في الكلاب.

و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قدمت علي المختار فأكرمني و أنزلني، حتى كاد يتعاهد مبيتي بالليل، قال فقال لي: اخرج إلى الناس فحدثهم، قال فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى **﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيكَ هَذا القُرْآنَ﴾** و قال تعالى: **﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ و الجِنِّ يُوحِي بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾** قال: فهمُّوا بي أن يأخذوني، فقلت لهم: مالكم ذاك إني مفتيكم وضيفكم، فتركوني. و إنما عرّض عكرمة بالمختار، و هو ابن أبي عبيد قبّحه الله، و كان يزعم أنه يأتيه الوحي، و قد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر، و كانت من الصالحات، و لما أُخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يُوحى إليه، قال: صدق، قال الله تعالى: **﴿و إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾**.

و قوله تعالى: **﴿يُوحِي بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾** أي: يُلقي بعضهم إلى بعض القول المزيّن المزخرف، و هو: المزوّق، الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره **﴿و لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾** أي: و ذلك كله بقدر الله و قضائه، و إرادته و مشيئته، أن يكون لكل نبي عدوّ من هؤلاء **﴿فَذَرْهُمْ﴾** أي: فدعهم **﴿وَ مَا يَفْتَرُونَ﴾** أي: يكذبون، أي دع أذاهم، و توكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك و ناصرك عليهم.

١١٣- و قوله تعالى: **﴿و لِتَصْغَى إِلَيهِ﴾** و لتميل إليه. قاله ابن عباس: **﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾** أي: قلوبهم و عقولهم و أسماعهم. و قال السدي: قلوب الكافرين **﴿و لِيَرْضَوْهُ﴾** أي: يحبوه ويريدوه، و إنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى **﴿فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ ۞ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ**

بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ و قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

و قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: و ليكتسبوا ما هم مكتسبون. و قال السدي و ابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾

١١٤- يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي: بيني و بينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ أي: مبيناً ﴿و الذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: من اليهود و النصارى ﴿يعلمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحَقِّ﴾، أي: بما عندهم من البشارات بك، من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله ﴿فإِنْ كنتَ في شكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ و هذا شرط، و الشرط لا يقتضي وقوعه، و لهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك و لا أسأل»[(١)].

١١٥- و قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ قال قتادة: صدقاً فيما قال، و عدلاً فيما حكم. يقول صدقاً في الأخبار، و عدلاً في الطلب، فكل ما أخبره به فحق، لا مرية فيه و لا شك، و كل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، و كل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسده، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ إلى آخر الآية ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا و لا في الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم و سكناتهم، الذي يُجازي كل عامل بعمله.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾

١١٦- يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم، أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ و قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ و هم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، و إنما هم في ظنون كاذبة، و حُسْبان باطل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ فإن الخَرْص: هو الحَزْر، و منه خَرْص النخل: و هو حزر ما عليها من التمر، و ذلك كله عن قدر الله و مشيئته.

١١٧- و ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ فييسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فييسرهم لذلك، وكلٌّ ميسر لما خُلِقَ له.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ

---

(١) رواه ابن جرير (١٥/ ٢٠٢) عن قتادة مرسلاً، و انظر الدرر المنثور (٤/ ٣٨٩). و رواه عن سعيد بن جبير بلفظ: ما شك و ما سأل. و نحوه عن الحسن.

عليه وقد فصَّلَ لكم مَّا حرَّمَ عليكم إلاَّ ما اضطُرِرتُمْ إليه وإنَّ كثيراً لَّيضلُّونَ بأهوائهم بغير علم إنَّ ربَّكَ هو أعلمُ بالمُعتدين (١١٩) ﴾

١١٨ - هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذُكر عليه اسمه، و مفهومه: أنه لا يباح مالم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش، من أكل الميتات، و أكل ما ذُبح على النُّصب وغيرها.

١١٩ - ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بيّن لكم ما حرَّم عليكم و وضَّحه، و قرأ بعضهم ﴿فصَّل﴾ بالتشديد، و قرأ آخرون بالتخفيف، و الكل بمعنى البيان و الوضوح ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بيّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، و ما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم و كذبهم و افترائهم.

﴿ وذروا ظاهرَ الإثمِ وباطنَهُ إنَّ الَّذين يكسِبونَ الإثمَ سيُجزَوْنَ بما كانوا يقترفونَ (١٢٠) ﴾

١٢٠ - قال مجاهد ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ معصيته في السر و العلانية. و في رواية عنه: هو ما ينوي مما هو عامل. و قال قتادة: أي: سره و علانيته، قليله و كثيره، و قال السدي: ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات، و باطنه الزنا مع الخليلة و الصدائق و الأخدان. و قال عكرمة: ظاهره نكاح ذوات المحارم. والصحيح: أن الآية عامة في ذلك كله، و هي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية. و لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه. و روى ابن أبي حاتم: عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثمُ مَاحاكَ في صدرك، و كرهتَ أن يطَّلعَ الناسُ عليه».

﴿ ولا تأكلوا ممَّا لم يُذكرِ اسمُ اللَّه عليه وإنَّه لفسقٌ وإنَّ الشَّياطين ليوحونَ إلى أوليائهم ليجادلوكم وإنْ أطعتموهم إنَّكم لمشركون (١٢١) ﴾

١٢١ - استدل بهذه الآية الكريمة: من ذَهبَ إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يُذكَر اسم الله عليها، و إن كان الذابح مسلماً، و قد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، و سواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، و هو مروي عن ابن عمر، و نافع مولاه و عامر الشعبي ومحمد بن سيرين، و هو رواية عن الإمام مالك، و رواية عن أحمد بن حنبل، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين و المتأخرين، و هو اختيار أبي ثور و داود الظاهري، و اختار ذلك أبو الفتوح من متأخري الشافعية.

و احتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، و بقوله في آية الصيد ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ و الضمير قيل: عائد على الأكل، و قيل: عائد على الذبح

لغير الله، و بالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة و الصيد، كحديثي عدي بن حاتم و أبي ثعلبة: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله عليه، فكُل ما أمسك عليك» و هما في الصحيحين، و حديث رافع بن خديج: «ما أنهرَ الدم، و ذُكر اسمُ الله عليه فكلوه» و هو في الصحيحين أيضاً، و حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن «لكم كل عَظم ذُكر اسم الله عليه» رواه مسلم. و عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إنَّ قوماً يأتوننا باللحم، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سَمُّوا عليه أنتم وكلوا» قالت: و كانوا حديثي عهد بالكفر، رواه البخاري. و وجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، و خشوا أن لا تكون وُجدت من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح، إن لمْ تكن وُجدت، و أمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، و الله أعلم.

و المذهب الثاني في المسألة: أنه لا يُشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإنْ تركها عمداً أو نسياناً لا يضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله و جميع أصحابه، و رواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل، وهو رواية عن الإمام مالك، و نص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، و حُكي عن ابن عباس و أبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، و الله أعلم. و حمل الشافعي الآية الكريمة ﴿وَ لاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ وَ إِنَّهُ لَفِسقٌ﴾ على ما ذُبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أو فسقاً أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ﴾ و قال ابن جريج عن عطاء ﴿و لاَ تَأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ﴾ قال: يَنهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، و يَنهى عن ذبائح المجوس. و هذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي. و روى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذَبح المسلم و لم يَذكر اسم الله، فليأكل، فإنَّ المسلم فيه اسم من أسماء الله». و احتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: أن ناساً قالوا: يا رسول الله إن قوماً حديثي عهد بجاهلية، يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه، أم لا؟ فقال: «سَمُّوا أنتم و كلوا» قالوا: فلو كان وجود التمسية شرطاً، لم يُرخِّص لهم إلا مع تحققها، و الله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: إنْ تركَ البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، و إنْ تركها عمداً لم تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك و أحمد بن حنبل، و به يقول أبو حنيفة و أصحابه، و إسحق بن راهويه، و هو محكي عن علي و ابن عباس و سعيد بن المسيب و عطاء و طاوس و الحسن البصري و أبي مالك و عبد الرحمن بن أبي ليلى و جعفر بن محمد و ربيعة بن أبي عبد الرحمن، و قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: مَنْ حرَّمَ ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة، و خالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك. يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه إنْ نسي أن يُسمى حين يذبح فليذكر اسم الله و ليأكل» و هذا الحديث رفعه خطأ، (والموقوف) أصح، نص عليه البيهقي و غيره من الحفاظ. ثم نقل ابن جرير و غيره عن الشعبي و محمد بن سيرين أنهما: كرها متروك التسمية نسياناً. و السلف يُطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، و الله أعلم، إلا أن من قاعدة ابن جرير، أنه لا يعتبر قول الواحد و لا الاثنين، مخالفاً لقول الجمهور، فيعده إجماعاً، فليُعلم هذا، و الله الموفق.

و احتج لهذا المذهب، بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه: عن ابن عباس و أبي هريرة و أبي ذر

وعقبة بن عامر و عبد الله بن عمرو: عن النبي ﷺ: «إن الله وَضَع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا إليه» و فيه نظر، و الله أعلم.

قال ابن جرير: و قد اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نُسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم يُنسخ منها شيء، و هي محكمة فيما عنيت به، و على هذا قول مجاهد و عامة أهل العلم، و روي عن الحسن البصري و عكرمة قالا: قال الله: ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ و قال: ﴿و لا تأكلوا مما لم يُذكر اسمُ الله عليه و إنه لفسق﴾ فنسخ و استثنى من ذلك، فقال: ﴿و طعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم﴾. و روى ابن أبي حاتم: عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن ﴿و لا تأكلوا مما لم يُذكر اسمُ الله عليه﴾ ثم نسخها الرب، و رحم المسلمين، فقال: ﴿اليوم أُحلَّ لكم الطيبات و طعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم﴾ فنسخها بذلك، و أحل طعام أهل الكتاب، ثم قال ابن جرير: و الصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، و بين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه.

و هذا الذي قاله صحيح، و من أطلق من السلف النسخ ههنا، فإنما أراد التخصيص، و الله سبحانه وتعالى أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و إنَّ الشياطين ليُوحون إلى أوليائهم ليُجادلوكم﴾ روى ابن أبي حاتم: عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يُوحى إليه! قال: صدق، و تلا هذه الآية ﴿و إنَّ الشياطين ليُوحون إلى أوليائهم﴾. و قوله: ﴿ليُجادلوكم﴾ روى أبو داود: عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، و لا نأكل مما قَتَل الله؟ فأنزل الله: ﴿و لا تأكلوا مما لم يُذكر اسمُ الله عليه﴾ الآية، وكذا رواه ابن جرير، و رواه البزار، و هذا فيه نظرٌ من وجوه ثلاثة: **(أحدها)**: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا. **(الثاني)**: أن الآية من الأنعام، وهي مكية **(الثالث)**: أن هذا الحديث رواه الترمذي بلفظ: أتى ناسٌ النبي ﷺ فذكره. و قال: حسن غريب [1]. و روى (أبو داود) و ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس، و ليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ لأن الآية مكية، و اليهود لا يحبون الميتة. و قال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضات الله، فما قتل الله فلا تأكلونه، و ما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: ﴿و إن أطعتموهم﴾ في أكل الميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ وهذا قاله مجاهد و الضحاك و غير واحد من علماء السلف.

و قوله تعالى: ﴿و إن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم و شرعه، إلى قول غيره، فقدَّمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: ﴿اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً من دون الله﴾ الآية. و قد روى الترمذي في تفسيرها: عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم! فقال: «بلى، إنهم أَحَلُّوا لهم الحرام، و حَرَّموا عليهم الحلال، فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾

---

(١) و قال العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٤٥): صحيح، لكن ذِكْر اليهود فيه منكر، و المحفوظ: المشركين.

١٢٢ – هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن، الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، و هداه له، و وفقه لاتباع رسله ﴿وَ جَعلنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك، و كيف يتصرف به، و النور: هو القرآن. كما رواه العوفي و ابن أبي طلحة عن ابن عباس. و قال السدي: الإسلام، و الكل صحيح ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: الجهالات و الأهواء و الضلالات المتفرقة ﴿لَيسَ بِخَارِجٍ مِّنهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ، و لا مخلص مما هو فيه.

و في مسند الإمام أحمد: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رشَّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، و من أخطأه ضلّ». كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، و قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمشِي مُكِبّاً عَلَى وَجهِهِ أَهدَى أَمَّن يَمشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾، و قال تعالى: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَينِ كَالأَعمَى وَالأَصَمِّ وَ البَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَل يَستَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ و قال تعالى: ﴿و مَا يَستَوِي الأَعمَى و البَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ و لاَ النُّورُ * وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الحَرُورُ * و مَا يَستَوِي الأَحيَاءُ وَ لا الأَموَاتُ إِنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشَاءُ وَ مَا أَنتَ بِمُسمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ و الآيات في هذا كثيرة، و وجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور و الظلمات، ما تقدم في أول السورة ﴿وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ﴾.

و زعم بعضهم: أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. و قيل: عمار بن ياسر. و أما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله. و الصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن و كافر.

و قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ أي: حَسَّنَّا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدراً من الله، و حكمة بالغة، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾

١٢٣ – يقول تعالى: و كما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين، و رؤساء و دعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، و إلى مخالفتك و عداوتك، و كذلك كانت الرسل من قبلك يُبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿و كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المُجرِمِينَ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَريَةً أَمَرنَا مُترَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ الآية، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعة فخالفوا، فدمرناهم. و قيل: أمرناهم أمراً قدرياً، كما قال ههنا ﴿لِيَمكُرُوا فِيهَا﴾.

و قوله تعالى: ﴿أَكَابِرَ مُجرِمِيهَا لِيَمكُرُوا فِيهَا﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: سلَّطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. و قال مجاهد وقتادة: ﴿أَكَابِرَ مُجرِمِيهَا﴾: عظماؤها.

قلت: و هكذا قوله تعالى: ﴿و مَا أَرسَلنَا فِي قَريَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُترَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحنُ أَكثَرُ أَموَالاً وَ أَولاَداً وَ مَا نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ و قال تعالى: ﴿و كَذَلِكَ مَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ فِي قَريَةٍ مِّن

نَّذير إلاَّ قالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إنَّا عَلَى آثارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ و المراد بالمكر هٰهنا: دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال و الفعال، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿و مكروا مكراً كباراً﴾، و كقوله تعالى: ﴿وَ لَو تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ مَوقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرجِعُ بَعضُهُمْ إلَى بَعضٍ القَوْلَ يَقولُ الذينَ اسْتُضعِفُوا لِلَّذينَ اسْتَكبَرُوا لَوْ لاَ أنتمْ لَكُنَّا مُؤمنينَ ❁ قالَ الذينَ اسْتَكبَرُوا لِلَّذينَ اسْتُضعِفُوا أنحنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمينَ ❁ و قالَ الذينَ اسْتُضعِفُوا لِلذِينَ اسْتَكبَرُوا بَلْ مَكرُ اللَّيلِ وَ النَّهارِ إذْ تَأمُرُونَنَا أن نَّكفُرَ باللهِ وَ نَجعَلَ لَهُ أندَاداً﴾ الآية. و روى ابن أبي حاتم: عن سفيان قال: كل مكر في القرآن، فهوعمل.

و قوله تعالى: ﴿وَ مَا يَمكُرُونَ إلاَّ بِأنفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: و ما يعود وبال مكرهم ذلك، وإضلالهم من أضلوه، إلا على أنفسهم، كما قال تعالى ﴿و لَيَحمِلُنَّ أثقَالَهُمْ وَ أثقالاً مَّعَ أثقَالِهِمْ﴾، و قال: ﴿وَ مِنْ أوزارِ الذينَ يُضِلُّونَهُم بغيرِ عِلمٍ ألاَ ساءَ مَا يزِرُونَ﴾.

و قوله تعالى: ﴿وَ إذا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤمِنَ حتَّى نُؤتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان، و حجة قاطعة، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رُسل الله، أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل و علا: ﴿و قالَ الذينَ لاَ يَرجُونَ لِقاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَينا الْمَلاَئِكَةُ أوْ نَرى رَبَّنا﴾ الآية، و قوله: ﴿اللهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته، و من يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: ﴿و قالُوا لَولاَ نُزِّلَ هَذا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَريتينِ عظيمٍ ❁ أهُمْ يَقسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ الآية، يعنون: لولا نُزِّل هذا القرآن، على رجل عظيم كبير، جليل مُبَجَّل في أعينهم ﴿من القريتين﴾ أي: من مكة و الطائف، و ذلك أنهم ـ قبحهم الله ـ كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله و سلامه عليه بغياً وحسداً، و عناداً و استكباراً، كقوله تعالى مخبراً عنه: ﴿و إذا رَآكَ الذينَ كفَرُوا إن يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً أهَذَا الذي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ و قال تعالى: ﴿و إذا رَأوكَ إن يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً أهذَا الذي يَذكُرُ آلِهَتَكُمْ و هُم بِذِكرِ الرَّحمنِ هُمْ كَافِرونَ﴾ و قال تعالى: ﴿و لَقَدِ اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبلِكَ فَحَاقَ بالذينَ سَخِرُوا مِنهُم مَّا كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ هذا و هم معترفون بفضله و شرفه و نسبه، و طهارة بيته و مرباه، و منشئه صلى الله و ملائكته والمؤمنون عليه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أنْ يُوحى إليه «الأمين»، و قد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان، حين سأله «هرقل» ملك الروم: و كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا ـ الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بظاهر صفاته ﷺ، على صدق نبوته، و صحة ما جاء به.

و روى الإمام أحمد: عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله اصطفى مِنْ ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، و اصطفى من بني كنانة قريشاً، و اصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم» انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي، وهو: عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه.

و في صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ من خير قرون بني آدم، قرناً فقرناً، حتى بُعثتُ من القرن الذي كنتُ فيه».

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: إنَّ الله نَظَرَ في قلوب العباد فوجَدَ قلبَ محمدٍ ﷺ

خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، و ما رآه المسلمون سيئاً، فهو عند الله سيء. و ذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجلٌ ابن عباس و هو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

و قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الآية، هذا وعيد شديد من الله، و تهديد أكيد، لمن تكبَّرَ عن اتباع رسله، و الانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صَغَار، و هو: الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا، أعقبهم ذلك ذُلاً يوم القيامة، لَمَّا استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله تعالى: ﴿وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لَمَّا كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، و هو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة، جزاء وفاقاً ﴿وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تظهر المستترات و المكنونات و الضمائر.

و جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لكل غادر لواءٌ عند إسته يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرة فلان بن فلان». و الحكمة في هذا: أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

١٢٥- يقول تعالى: فمن يُرد الله أن يهديه شرح صدره للإسلام، أي: ييسره له و ينشطه، و يسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ الآية، و قال تعالى ﴿وَ لَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ و قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: يوسِّع قلبه للتوحيد و الإيمان به، و كذا قال أبو مالك و غير واحد، و هو ظاهر.

و قوله تعالى: ﴿وَ مَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ قرئ: بفتح الضاد و تسكين الياء، والأكثرون ﴿ضَيِّقاً﴾ بتشديد الياء و كسرها، و هما لغتان كهيِّن و هيْن، و قرأ بعضهم ﴿حَرِجاً﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل بمعنى: أثم، قاله السدي. و قيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجاً﴾ بفتح الحاء و الراء، و هو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، و لا يخلص إليه شيءٌمّا ينفعه من الإيمان، و لا ينفذ فيه. و قد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج، عن الحرجة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية، و لا وحشية و لا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير. وقال مجاهد و السدي: ﴿ضَيِّقاً حَرَجاً﴾: شاكاً. و قال ابن المبارك عن ابن جريج: ضيقاً حرجاً بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه وقال السدي:

من ضيق صدره .

و عن عكرمة عن ابن عباس ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، فكذلك لا يستطيع أنْ يدخل التوحيد و الإيمان قلبه ، حتى يدخله الله في قلبه . و قال الأوزاعي : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كيف يستطيع مَن جعل الله صدره ضيقاً ، أن يكون مسلماً .

و قال الإمام أبو جعفر بن جرير : و هذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر ، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، يقول : فمثله في امتناعه من قبول الإيمان و ضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه ، لأنه ليس في وسعه و طاقته ، و قال في قوله : ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول : كما يجعل الله صَدر مَن أراد إضلاله ضيقاً حرجاً ، كذلك يسلِّط الله الشيطان عليه ، و على أمثاله ممن أبى الإيمان بالله و رسوله ، فيغويه و يصدره عن سبيل الله . و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿الرِّجْسَ﴾ الشيطان . و قال مجاهد : ﴿الرِّجْسَ﴾ كل ما لا خير فيه . و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿الرِّجْسَ﴾ العذاب .

﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) ﴾

١٢٦ - لَمَّا ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها ، نبَّه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى و دين الحق ، فقال تعالى : ﴿و هَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال ، أي : هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ، هو صراط الله المستقيم ، كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نعت القرآن : «هو صراط الله المستقيم ، و حبل الله المتين ، و هو الذكر الحكيم» رواه أحمد والترمذي بطوله . ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي : وضحناها و بيناها و فسرناها ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي : لمن له فهم ووعي ، يعقل عن الله و رسوله .

١٢٧ - ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ و هي الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي : يوم القيامة ، و إنما وصف الله الجنة هنا بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء و طرائقهم ، فكما سلِموا من آفات الاعوجاج ، أفضوا إلى دار السلام ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي : حافظهم و ناصرهم و مؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي : جزاء على أعمالهم الصالحة ، تولاَّهم ، و أثابهم الجنة بمنِّه و كرمه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) ﴾

١٢٨ - يقول تعالى : و اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم و تنذرهم به ﴿وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني : الجن وأولياءهم من الإنس ، الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، و يعوذون بهم و يطيعونهم ، و يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ أي : ثم يقول : يا معشر الجن ، و سياق

الكلام يدل على المحذوف، و معنى قوله: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإنسِ﴾ من إغوائهم و إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ❁ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ❁ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإنسِ﴾ يعني: أضللتم منهم كثيراً. و كذا قال مجاهد و الحسن و قتادة. ﴿و قَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني: أن أولياء الجن من الإنس، قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. روى ابن أبي حاتم عن الحسن في هذه الآية، قال: استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة، فقال: ألياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض، قال الحسن: و ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أنَّ الجن أمرت و عملت الإنس. وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا به يوم القيامة، و أما استمتاع الجن بالإنس: فإنه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الإنس، من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون قد سُدْنا الإنس و الجن.

﴿و بَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال السدي: يعني الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أي: مأواكم و منزلكم، أنتم و إياهم و أولياؤكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مكثاً مخلداً، إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ، و قال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا، و قيل غير ذلك من الأقوال، التي سيأتي تقريرها عند قوله تعالى في سورة هود ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ و الأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. و قد روى ابن جرير و ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، و لا ينزلهم جنة و لا ناراً.

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

١٢٩- قال قتادة في تفسيرها: إنما يُولّي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن، أين كان و حيث كان، والكافر ولي الكافر، أينما كان و حيثما كان، ليس الإيمان بالتّمني و لا بالتّحلي. و اختاره ابن جرير، وقال قتادة في تفسير الآية: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في النار، يتبع بعضهم بعضاً. و قال مالك بن دينار: قرأتُ في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، و ذلك في كتاب الله، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ قال: ظالمي الجن و ظالمي الإنس، و قرأ ﴿وَ مَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قال: و نُسلِّط ظَلَمَةَ الجن على ظَلَمة الإنس.

و معنى الآية الكريمة: كما وَلَّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس، تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلّط بعضهم على بعض، و نهلك بعضهم ببعض، و ننتقم من بعضهم ببعض، جزاءً على ظلمهم و بغيهم.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

قالوا شَهِدْنا علىٰ أنفسنا وغرّتهم الحياة الدُّنيا وشهدوا علىٰ أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين (١٣٠) ﴾

١٣٠ ـ و هذا أيضاً: مما يُقرِّع الله به كافري الجن و الإنس يوم القيامة، حيث يسألهم ـ و هو أعلم ـ هل بلَّغتهم الرسل رسالاته؟ و هذا استفهام تقرير ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، و ليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد و ابن جُريج و غير واحد من الأئمة، من السلف و الخلف. و قال ابن عباس: الرسل من بني آدم، و من الجن نذر. و حكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً، و احتج بهذه الآية الكريمة، و فيه نظر! لأنها محتملة وليست بصريحة، و هي ـ و الله أعلم ـ كقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ﴾ و معلوم أن اللؤلؤ و المرجان، إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو، و هذا واضح و لله الحمد، و قد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير.

و الدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ـ إلى قوله ـ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ و قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿و جعلنا في ذريته النبوة و الكتاب﴾ فحصر النبوة و الكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: أن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، و قال تعالى: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ و قال: ﴿و مَا أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ و معلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، و لهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَ مَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

و قد جاء في الحديث: الذي رواه الترمذي و غيره: أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، و فيها قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

و قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أنَّ الرسل قد بلّغونا رسالاتك، و أنذرونا لقاءك، و أن هذا اليوم كائنٌ لا محالة، و قال تعالى: ﴿وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: و قد فرَّطوا في حياتهم الدنيا، و هلكوا بتكذيبهم الرسل، و مخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا، و زينتها وشهواتها ﴿و شهدوا على أنفسهم﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله و سلامه عليهم.

﴿ ذَلكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ القُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾

١٣١ ـ يقول تعالى: ﴿ذلكَ أن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أي: إنما أعذرنا إلى

الثقلين بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، لئلا يُؤاخذ أحداً بظلمه، و هو لم تبلغه دعوة، و لكن أعذرنا إلى الأمم، و ما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: **﴿و إن مِّن قريةٍ إلاَّ خلا فيها نذيرٌ﴾** و قال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله و اجتنِبُوا الطَّاغوتَ﴾** كقوله: **﴿و ما كنا معذِّبينَ حتَّى نبعثَ رَسولاً﴾** و قال تعالى: **﴿كلَّما أُلقيَ فيها فَوجٌ سألَهُمْ خزنَتُها ألمْ يأتِكُمْ نذيرٌ﴾ قالُوا بَلَى قدْ جاءَنا نذيرٌ فكذَّبْنا﴾** والآيات في هذا كثيرة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: و يحتمل قوله تعالى **﴿بظُلْم﴾** وجهين: **(أحدُهما)**: ذلك من أجل **﴿أن لَّمْ يكن رَّبُّكَ مُهلِكَ القُرَى بظُلم﴾** أهلها بالشرك و نحوه **﴿وَهُمْ غافِلُونَ﴾** يقول: أن لم يكن يعالجهم بالعقوبة، حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم، و ينذرهم عذاب الله يوم معادهم، و لم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة، فيقولوا ما جاءنا من بشير و لا نذير. **(و الوجه الثاني)**: لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه، و التذكير بالرسل و الآيات و العبر، فيظلمهم بذلك، و الله غير ظلام لعبيده. ثم شرع يرجّح الوجه الأول، و لا شك أنه أقوى، و الله أعلم.

قال: و قوله تعالى: **﴿و لِكلٍّ دَرجاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾** أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته، مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها، و يثيبه بها، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر. **(قلت)**: و يحتمل أن يعود قوله: **﴿و لِكلٍّ دَرجاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾** أي: من كافري الجن و الإنس، أي: و لكلٍّ درجة في النار بحسبه، كقوله **﴿قالَ لِكلٍّ ضِعفٌ﴾**، و قوله: **﴿الذينَ كفَرُوا وَ صدُّوا عَن سَبيلِ الله زِدْنَاهُمْ عذاباً فوقَ العَذابِ بِما كَانُوا يُفسِدُونَ﴾ ﴿وَ مَا ربُّكَ بغافلٍ عمَّا يَعملُونَ﴾** قال ابن جرير: أي: و كل ذلك من عملهم يا محمد، بعلمٍ من ربك يُحصيها و يثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه، و معادهم إليه.

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) ﴾

١٣٣ – يقول تعالى: **﴿وَ رَبُّكَ﴾** يا محمد **﴿الغَنِيُّ﴾** أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم **﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾** أي: و هو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: **﴿إنَّ الله بالنَّاسِ لَرؤوفٌ رَّحيمٌ﴾ ﴿إن يَشأْ يُذْهِبْكُمْ﴾** أي: إذا خالفتم أمره **﴿وَ يَستَخلِفْ مِن بَعدِكُم مَّا يشاءُ﴾** أي: قوماً آخرين، أي: يعملون بطاعته **﴿كَمَا أنشأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قومٍ آخرِينَ﴾** أي: هو قادرٌ على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى، و أتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء و الإتيان بآخرين، كما قال تعالى: **﴿إن يَشأْ يُذْهِبْكُمْ أيها النَّاسُ وَ يأتِ بآخَرينَ وَ كانَ اللهُ علَى ذلكَ قَديراً﴾** و قال تعالى: **﴿يا أيُّها النَّاسُ أنتُم الفُقَراءُ إلَى اللهِ و اللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَميدُ * إن يَشأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يأتِ بِخَلقٍ جَديدٍ * وَ مَا ذلكَ عَلَى اللهِ بعزيزٍ﴾**.

و قال تعالى: **﴿و اللهُ الغَنِيُّ وَ أنتمُ الفُقَراءُ وَ إن تتَولَّوا يَستَبْدِلْ قَوماً غيرَكُم ثُمَّ لاَ يَكونُوا أمثالَكُم﴾** و روى محمد بن إسحاق عن أبان بن عثمان قال في هذه الآية: **﴿كَمَا أنشأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قومٍ آخرِينَ﴾** الذرية: الأصل، و الذرية: النسل.

١٣٤ – و قوله تعالى: **﴿إنَّما تُوعَدُونَ لآتٍ وَ مَا أنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾** أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون

به، من أمر المعاد، كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: و لا تعجزون الله، بل هو قادرٌ على إعادتكم، و إنْ صرتم تراباً رفاتاً و عظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

١٣٥ـ و قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم و ناحيتكم، إنْ كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أتكون لي، أو لكم.

و قد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله و سلامه عليه، فإنه تعالى مكّنه في البلاد، و حكّمه في نواصي مخالفيه من العباد، و فتح له مكة، و أظهره على من كذّبه من قومه و عاداه و ناوأه، و استقر أمره على سائر جزيرة العرب، و كذلك اليمن و البحرين، و كل ذلك في حياته، ثم فُتحت الأمصار و الأقاليم والرساتيق بعد وفاته، في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، و قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، و قال تعالى إخباراً عن رسله ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، و قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية، و قد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية، و له الحمد و المنة، أولاً و آخراً، و ظاهراً و باطناً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾

١٣٦ـ هذا ذمٌ و توبيخ من الله، للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً و كفراً و شركاً، و جعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه، و هو خالق كل شيء سبحانه و تعالى، و لهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق و برأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزرع و الثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي: جزءاً و قسماً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾، و قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حَرَثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً، و للوثن منه جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه و أحصوه، و إنْ سقط منه شيء فيما سُمِّي للصَّمد ردّوه إلى ما جعلوه للوثن، و إنْ سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، و إن سقط شيءٌ من الحرث و الثمرة التي جعلوها لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير، و لم يردّوه إلى ما جعلوه لله، و إن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سُمي للوثن، تركوه للوثن، و كانوا يحرمون من أموالهم: البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام،

فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربةً لله، فقال الله تعالى: ﴿وَ جَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأنعام نَصِيباً﴾ الآية. وهكذا قال مجاهد و قتادة و السدي و غير واحد.

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، و ما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، و قرأ الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطأوا أولاً القسم، لأن الله تعالى هو رب كل شيء و مليكه وخالقه، و له الملك، و كل شيء له، و في تصرفه و تحت قدرته و مشيئته، لا إله غيره و لا ربَّ سواه، ثم لما قسموا ـ فيما زعموا ـ القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل و علا: ﴿و يَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، و قال تعالى: ﴿وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إنَّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾، و قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ و قوله: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾

١٣٧ - يقول تعالى: و كما زَيَّنت الشياطين لهؤلاء، أن يجعلوا لله مما ذَرَأ من الحرث و الأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، و وأد البنات خشية العار، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: زينوا لهم قتل أولادهم. و قال مجاهد: شركاؤهم: شياطنهم، يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العَيْلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات، و أما ليردوهم فيهلكوهم، و أما ليلبسوا عليهم دينهم، أي: فيخلطون عليهم دينهم و نحو ذلك، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و قتادة: و هذا كقوله تعالى: ﴿و إذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسوداً وَ هُوَ كَظيم ۞ يَتوارَى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ الآية، و كقوله: ﴿وإذا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ و قد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، و هو الفقر، أو خشية الإملاق، أن يحصل لهم في تلف المال، و قد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك و إنما كانوا هذا كله من تزيين الشياطين و شرعهم ذلك، قوله تعالى: ﴿وَ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: كان هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، و له الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل و هم يسئلون ﴿فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فدعهم و اجتنبهم و ما هم فيه، فسيحكم الله بينك و بينهم.

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) ﴾

١٣٨ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الحجر الحرام، حرموا من الوصيلة و تحريم ما حرموا، و كذلك قال مجاهد و الضحاك و السدي و قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهما. و قال قتادة ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ و حَرْثٌ حِجْرٌ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم؛ و قال السدي: ﴿لاَ يَطْعَمُهَا إلاَّ مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا، و هذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً و حَلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَم عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ و كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ و لاَ سَائِبَةٍ و لاَ وَصِيلَةٍ و لاَ حَامٍ و لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ و أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

و قال السدي : أما الأنعام التي حُرِّمت ظُهورها فهي : البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام ، و أما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها ، لا إذا ولدوها ، و لا إن نحروها . و عن عاصم بن أبي النجود قال لي أبو وائل : أتدري ما في قوله : ﴿و أنعامٌ حُرِّمتْ ظُهُورها و أنعامٌ لاَّ يذْكُرونَ اسْمَ اللهِ عليْهَا﴾؟ قلت : لا ، قال : هي البحيرة ، كانوا لا يحجون عليها ، و قال مجاهد : كان من إبلهم طائفةٌ لا يذكرون اسم الله عليها ، ولا في شيءٍ من شأنها ، لا إنْ ركبوا ، و لا إنْ حلبُوا ، و لا إنْ حملوا ، و لا إن نتجوا ، و لا إنْ عملوا شيئاً ﴿افتِراءً عليْهِ﴾ أي : على الله ، وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ، ولا رضيه منهم ﴿سيَجْزِيهِم بمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي : عليه ، و يسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾

١٣٩ – عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس و قالوا : ﴿مَا فِي بُطونِ هذهِ الأنعام خَالصَةٌ لِّذُكورِنَا﴾ الآية ، قال : اللبن . و قال العوفي عن ابن عباس ﴿و قالُوا مَا فِي بُطونِ هذهِ الأنعام خَالصَةٌ لِّذُكورِنَا﴾ فهو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ، و يشربه ذكرانهم ، و كانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، و كان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تُركت فلم تذبح ، و إن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . و كذا قال السدي ، و قال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، و إن مات منها شيء أكله الرجال و النساء ، و كذا قال عكرمة وقتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، و قال مجاهد : هي السائبة و البحيرة .

و قال أبو العالية و مجاهد و قتادة في قول الله ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي : قولهم الكذب في ذلك ، يعني كقوله تعالى : ﴿وَ لا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الْكَذِبَ هذَا حَلالٌ و هَذَا حَرامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلى اللهِ الكَذِبَ إنَّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ علَى الله الكذِبَ لاَ يُفْلِحونَ ۞ مَتاعٌ﴾ الآية ، ﴿إنَّهُ حكيمٌ﴾ أي : في أفعاله و شرعه و قدره ﴿عَليمٌ﴾ بأعمال عباده من خير و شر ، و سيجزيهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾

١٤٠ – يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا و الآخرة ، أما في الدنيا : فخسروا أولادهم بقتلهم ، و ضيقوا عليهم في أموالهم ، فحَرَّموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، و أما في الآخرة : فيصيرون إلى أسوأ المنازل ، بكذبهم على الله و افترائهم ، كقوله : ﴿إنَّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ علَى الله الكَذِبَ لاَ يُفْلِحونَ ۞ مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إليْنَا مَرجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُم الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِما كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ . و روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين و المائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتراءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ و هكذا رواه البخاري منفرداً ، في كتاب مناقب قريش من صحيحه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ﴾

١٤١- يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء، من الزروع و الثمار و الأنعام، التي تَصرَّفَ فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، و قسموها و جزؤوها، فجعلوا منها حراماً و حلالاً، فقال: **﴿وَ هو الذِي أنشأَ جنَّاتٍ مَّعرُوشَاتٍ وَ غَيرَ مَعرُوشَاتٍ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: معروشات مسموكات، و في رواية: فالمعروشات: ما عرَّش الناس، و غير معروشات ما خرج في البر و الجبال من الثمرات، و قال ابن جريج: متشابهاً و غير متشابه، قال: متشابهاً في المنظر، و غير متشابه في المطعم، و قال محمد بن كعب **﴿كُلوا مِن ثَمرِهِ إذَا أثْمَرَ﴾** قال: من رطبه و عنبه.

و قوله تعالى: **﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾** قال ابن جرير: قال بعضهم هي الزكاة المفروضة، قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾** يعني: الزكاة المفروضة، يوم يكال و يعلم كيله، و كذا قال سعيد بن المسيب، و قال العوفي عن ابن عباس **﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾** و ذلك أنالرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده، لم يخرج مما حصد شيئاً، فقال الله تعالى: **﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾** و ذلك أن يُعلم ما كيلُه وحقه من كل عشرة واحد، و ما يلقط الناس من سنبله، و قد روى الإمام أحمد و أبو داود في سننه: عن جابر بن عبد الله: «أن النبيﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر، بقنو يعلق في المسجد للمساكين»[1]، و هذا إسناد جيد قوي، وقال طاوس و أبو الشعثاء و قتادة و الحسن و الضحاك و ابن جريج: هي الزكاة.

و قال الحسن البصري هي: الصدقة من الحب و الثمار، و كذا قال ابن زيد بن أسلم.

و قال آخرون: هو حقٌّ آخر سوى الزكاة. روى عبد الله بن المبارك و غيره عن عطاء بن أبي رباح في قوله: **﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾** قال: يُعطي مَنْ حضره يومئذ ما تيسر، و ليس بالزكاة. و قال مجاهد: إذا حضرك المساكين، طَرحتَ لهم منه. و روى عبد الرزاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد **﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾** قال: عند الزرع يُعطي القبضة و عند الصرام يعطي القبضة، و يتركهم فيتبعون آثار الصِّرام، و روى الثوري عن إبراهيم النخعي قال: يعطي مثل الضغث.

و قال آخرون: هذا شيء كان واجباً، ثم نسخه الله بالعُشْر، أو نصف الْعُشر. حكاه ابن جرير: عن ابن عباس و محمد بن الحنفية، و إبراهيم النخعي و الحسن و السدي و عطية العوفي و غيرهم، و اختاره ابن جرير رحمه الله، قلت: و في تسمية هذا نسخاً نظر! لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فصّل بيانه وبيّن مقدار المخرج و كميته، قالوا: و كان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم.

و قد ذم الله سبحانه الذين يَصْرمون و لا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن» **﴿إذْ أقسَمُوا لَيصرِمُنَّهَا مُصبِحينَ ❁ وَ لاَ يَستَثْنُونَ ❁ فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمونَ ❁ فَأصبَحَتْ كالصَّرِيمِ﴾**

(١) - (جاد عشرة أوسق) قال الحربي: يريد قدراً من النخل يجذُّ منه عشرة أوسق، و تقديره: مجذوذ. و أراد بالقنو: العذق بما عليه من الرطب و البسر، يعلق للمساكين يأكلونه، و هذا من صدقة المعروف، دون الصدقة التي هي فرض واجب (خطابي).

أي : كالليل المدلهم، سوداء محترقة ﴿فتنادوا مصبحين ۝ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ۝ فانطلقوا وهم يتخافتون ۝ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ۝ وغدوا على حرد﴾ أي : قوة و جلد و همّة ﴿قادرين ۝ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ۝ بل نحن محرومون ۝ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ۝ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ۝ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ۝ قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين ۝ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ۝ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ .

و قوله تعالى : ﴿و لا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ قيل معناه : لا تسرفوا في الإعطاء ، فتعطوا فوق المعروف . و قال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تباروا فيه و أسرفوا ، فأنزل الله ﴿و لا تسرفوا﴾ و قال ابن جريج عن عطاء : نُهوا عن السرف في كل شيء ، و قال إياس بن معاوية : ما جاوزتَ به أمر الله فهو سرف ، و قال السدي : لا تعطوا أموالكم ، فتقعدوا فقراء . و قال سعيد بن المسيب و محمد بن كعب في قوله : ﴿و لا تسرفوا﴾ قال : لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ، ثم اختار ابن جرير قول عطاء ، أنه نهى عن الإسراف في كل شيء ، و لا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر ـ و الله أعلم ـ من سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر و آتوا حقه يوم حصاده و لا تسرفوا﴾ أن يكون عائداً على الأكل ، أي : لا تسرفوا في الأكل ، لما فيه من مضرة العقل و البدن ، كقوله تعالى : ﴿كلوا و اشربوا و لا تسرفوا﴾ الآية ، و في صحيح البخاري تعليقاً : «كلوا و اشربوا و البسوا ، من غير إسراف و لا مَخيلة» و هذا من هذا ، و الله أعلم .

١٤٢ـ و قوله عز وجل : ﴿و من الأنعام حمولة و فرشاً﴾ أي : و أنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة ، وما هو فرش . قيل : المراد بالحمولة : ما يُحمل عليه من الإبل ، و الفرش : الصغار منها ، كما روى الثوري عن عبد الله . و رواه الحاكم ، و قال صحيح الإسناد و لم يخرجاه . و كذا قال ابن عباس و مجاهد . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و من الأنعام حمولة و فرشاً﴾ أما الحمولة : فالإبل و الخيل و البغال والحمير ، و كل شيء يحمل عليه ، و أما الفرش : فالغنم ، و اختاره ابن جرير ، قال : و أحسبه إنما سُمّي فرشاً لدنوه من الأرض ، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، و الفرش ما تأكلون و تحلبون ، شاة لا تحمل ، تأكلون لحمها ، و تتخذون من صوفها لحافاً و فرشاً . و هذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن ، يشهد له قوله تعالى : ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ۝ وذللناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون﴾ ، و قال تعالى : ﴿و إن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث و دم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ إلى أن قال : ﴿و من أصوافها و أوبارها و أشعارها أثاثاً و متاعاً إلى حين﴾ و قال تعالى : ﴿الله الذي جعل لكم من الأنعام لتركبوا منها و منها تأكلون ۝ و لكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم و عليها و على الفلك تحملون ۝ و يريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ أي : من الثمار و الزروع و الأنعام ، فكلها خلقها الله ، و جعلها رزقاً لكم ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي : طريقه و أوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله أي من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿إنه لكم﴾ أي : إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿عدو مبين﴾ أي : مبين ظاهر العداوة ، كما قال : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب

السعير﴾، وقال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿أفتتخذونه و ذريته أولياء من دوني و هم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾.
والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٤٤)﴾

١٤٣ - هذا بيانٌ لجهل العرب قبل الإسلام، فيما كانوا حرّموا من الأنعام، و جعلوها أجزاء و أنواعاً، بحيرة وسائبة و وصيلة و حاماً، و غير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام و الزروع و الثمار، فبيّن تعالى أنه أنشأ جنات معروشات و غير معروشات، و أنه أنشأ من الأنعام حمولة و فرشاً. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم، و هو بياض و هو الضأن، و سواد و هو المعز ذكره و أنثاه، و إلى إبل ذكورها و إناثها، و بقر كذلك، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك، و لا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً و ركوباً، و حمولة وحَلباً، و غير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ ردٌ عليهم في قولهم ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا و محرمٌ على أزواجنا﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حرّم الله عليكم ما زعمتم تحريمه، من البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام و نحو ذلك؟.

و قوله تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ تهكمٌ بهم فيما ابتدعوه و افتروه على الله، من تحريم ما حرّموه من ذلك ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ منه ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ و أول مَن دخل في هذه الآية: عمرو بن لحي بن قمعة، لأنه أول من غيّر دين الأنبياء، وأول من سبَّ السوائب، و وصل الوصيلة، و حمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

﴿قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم (١٤٥)﴾

١٤٥ - يقول تعالى آمراً عبده و رسوله محمداً ﷺ ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله، افتراء على الله ﴿لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه﴾ أي: آكل يأكله، قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حرّمتم حراماً سوى هذه. و قيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة، و في الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية، و من الناس من يسمي هذا: نسخاً، و الأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً، لأنه من باب رفع مُباحِ الأصل، و الله

أعلم.

و قال عكرمة في قوله: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾: لولا هذه الآية، لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود، وعن عمران بن حدير قال: سألت أبا مِجلَز عن الدم و ما يتلطخ من الذبيح من الرأس، و عن القِدْر يُرى فيها الحُمرة؟ فقال: إنما نَهى الله عن الدم المسفوح. و قال قتادة: حرَّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به.

و روى الحميدي، عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله ﷺ و لكن أبى ذلك البحر يعني ابن عباس و قرأ ﴿قُل لاَّ أجدُ فِيمَا أُوحِيَ إليَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية، و كذا رواه البخاري.

و روى أبو بكر بن مردويه و الحاكم: عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء، و يتركون أشياء تقذُّراً، فبعث الله نبيه، و أنزل كتابه، و أحل حلاله و حرَّم حرامه، فما أحل فهو حلال، و ما حرم فهو حرام، و ما سكت عنه فهو عفو، و قرأ هذه الآية ﴿قُل لاَّ أجدُ فِيمَا أُوحِيَ إليَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية، و هذا لفظ ابن مردويه و رواه أبو داود، و قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة، تعني: الشاة، قال: «فلم لا أخذتم مَسكها»؟ قالت: نأخذ مَسْكَ شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُل لاَّ أجدُ فِيمَا أُوحِيَ إليَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أن يَكونَ ميتَةً أوْ دَماً مَّسْفُوحاً أوْ لَحْمَ خِنزيرٍ﴾ و إنكم لا تَطعمونه، إنْ تَدبغوه فتنتفعوا به» فأرسلت فسلخت مسكها فاتخذت منه قِرْبَةً، حتى تخرَّقت عندها، رواه أحمد و رواه البخاري و النسائي.

و قوله تعالى: ﴿فَمَن اضطُرَّ غَيرَ باغٍ وَ لاَ عَادٍ﴾ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، و هو غير متلبس ببغي و لا عدوان ﴿فإنَّ رَبَّكَ غَفورٌ رَّحيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به، و قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية، و الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين، الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم، بآرائهم الفاسدة، من البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أنْ يخبرهم: أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه، أن ذلك محرم، و إنما حرَّم ما ذكر في هذه الآية من الميتة، و الدم المسفوح، و لحم الخنزير، و ما أهل لغير الله به، و ما عدا ذلك فلم يحرم، و إنما هو عفوٌ مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام؟ و من أين حرمتموه و لم يحرمه الله؟

وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أُخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية، و لحوم السباع، و كل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾

١٤٦ – قال ابن جرير: يقول تعالى: و حَرَّمنا على اليهود كل ذي ظفر، و هو البهائم و الطير، مالم يكن

مشقوق الأصابع، كالإبل و النعام و الأوز و البط، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و على الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر﴾ و هو البعير و النعامة، و كذا قال مجاهد و السدي في رواية، و قال سعيد بن جبير: هو الذي ليس منفرج الأصابع، و في رواية عنه: كل مفترق الأصابع، و منه الديك. و قال قتادة: و كان يقال البعير و النعامة، و أشياء من الطير و الحيتان، و في رواية: البعير و النعامة، و حرم عليهم من الطير: البط وشبهه، و كل ليس بمشقوق الأصابع.

و قوله تعالى: ﴿وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ شُحومَهُمَا﴾ قال السدي: يعني الثَّرْب و شحم الكُليتين، و كانت اليهود تقول: إنه حرَّمه إسرائيل، فنحن نحرمه. و كذا قال ابن زيد، وقال قتادة: الثرب، وكل شحم كان كذلك ليس في عظم، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إلاّ مَا حمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحوم، و قال السدي و أبو صالح: الألية مما حملت ظهورهما. و قوله تعالى: ﴿أوِ الحَوَايَا﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: الحوايا جمعٌ واحدها حاوياء و حاوية و حوية، و هو ما تَحوَى من البطن فاجتمع واستدار، و هي بنات اللبن و هي المباعر، و تسمى المرابض و فيها الأمعاء. قال: و معنى الكلام: و من البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، و ما حملت الحوايا. قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أوِ الحَوَايَا﴾ و هي المبعر. و قال مجاهد: الحوايا المبعر و المربض، و كذا قال سعيد بن جبير و الضحاك و قتادة و أبو مالك و السدي، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غير واحد، الحوايا: المرابض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها و هي بنات اللبن، و هي في كلام العرب تدعى المرابض.

و قوله تعالى: ﴿أوْ مَا اختَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم، و قال ابن جريج: شحم الألية ما اختلط بالعُصْعُص، فهو حلال، و كل شيء في القوائم و الجنب و الرأس و العين، و ما اختلط بعظم فهو حلال. و نحوه قال السدي.

و قوله تعالى: ﴿ذلكَ جَزيناهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم، و ألزمناهم به، مجازاةً على بغيهم، و مخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾. و قوله: ﴿إنَّا لَصادِقُونَ﴾ أي: و إنا لعادلون فيما جزيناهم به، و قال ابن جرير: و إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد، من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أنَّ إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، و الله أعلم.

و قال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سمرة باع خمراً، فقال: قاتل الله . سمرة، ألم يعلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لعن اللهُ اليهودَ، حُرِّمتْ عليهم الشحوم، فجَملوها فباعوها» أخرجاه.

و عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ عام الفتح ـ: «إنَّ اللهَ و رسوله حرَّم بيع الخمر والميتةَ و الخنزير و الأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيتَ شحوم الميتة، فإنها يُدهن بها الجلود، وتُطلى بها السفن، و يَستصبح بها الناس، فقال: «لا، هو حرامٌ» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إنَّ الله لما حرّم عليهم شحومها جَمَلوه، ثم باعوه و أكلوا ثمنه» رواه الجماعة.

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحِجْر، فنظر

إلى السماء فضحك، فقال: «لَعَنَ الله اليهود، حُرِّمتْ عليهم الشحوم، فباعوها و أكلوا أثمانها، و إنَّ الله حَرَّمَ على قومٍ أكل شيء، حرّم عليهم ثمنه» و رواه أبو داود.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾

١٤٧- يقول تعالى: فإنْ كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين، و اليهود و من شابههم، فقل: **﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾** و هذا ترغيبٌ لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، و اتباع رسوله **﴿و لاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾** ترهيبٌ لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، و كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: **﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** و قال: **﴿وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ و إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** و قال تعالى: **﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾** و قال تعالى: **﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَ قَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾** و قال: **﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ * وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾** والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) ﴾

١٤٨- هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، و شبهة تشبث بها المشركون في شركهم، و تحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه، من الشرك و التحريم لما حرموه، و هو قادرٌ على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويَحُول بيننا و بين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته و إرادته و رضاه منا بذلك، و لهذا قالوا: **﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لاَ آبَاؤُنَا وَ لاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾** كما في قوله تعالى: **﴿و قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾** الآية، و كذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: **﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾** أي: بهذه الشبهة ضلَّ مَنْ ضل قبل هؤلاء، و هي حجةٌ داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، و دمَّر عليهم، و أدال عليهم رسله الكرام، و أذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه **﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾** أي: فَتُظهروه لنا وتبينوه و تبرزوه **﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾** أي: الوهم و الخيال، والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد **﴿و إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾** تكذبون على الله فيما ادعيتموه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **﴿و لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾**، وقال **﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾**، ثم قال **﴿وَ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾** فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، فقوله: **﴿وَ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾** يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

و قوله تعالى: **﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** يقول تعالى لنبيه ﷺ: **﴿قُلْ﴾** لهم يا

محمد ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، و الحجة البالغة، في هداية مَنْ هدى، و إضلال من ضل ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته، و مشيئته و اختياره، و هو مع ذلك يرضى عن المؤمنين، ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿و لو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾، و قال تعالى: ﴿و لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن في الأرض﴾، و قوله: ﴿وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. قال الضحاك: لاحجة لأحدٍ عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده. و قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُم﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: هذا الذي حرّمتموه، و كذبتم و افتريتم على الله فيه ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون و الحالة هذه، كذباً و زوراً ﴿و لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَ هُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به، و يجعلون له عديلاً.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

١٥١ - قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ أراد أنْ ينظرَ إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ـ إلى قولِه ـ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. و أما تفسيرها: فيقول تعالى لنبيه و رسوله محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، و حرّموا ما رزقهم الله، و قتلوا أولادهم، و كل ذلك فعلوه بآرائهم، و تسويل الشياطين لهم ﴿قل﴾ لهم ﴿تعالوا﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصُّ عليكم، و أخبركم بما حَرَّم ربكم عليكم حقاً، لا تخرصاً و لا ظناً، بل وحياً منه، و أمراً من عنده ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ و كأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: و أوصاكم ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ و لهذا قال في آخر الآية ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. و تقول العرب: أمرتك ألا تقوم.

و في الصحيحين: من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فبشّرني: أنه مَنْ مات لا يُشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة» قلت: و إنْ زنى و إنْ سرق؟! قال: «و إنْ زنى و إنْ سرق» قلت: وإنْ زنى و إنْ سرق؟ قال: «و إنْ زنى و إن سرق» قلت: و إنْ زنى و إنْ سرق و إنْ شرب الخمر؟ قال: «و إنْ زنى وإنْ سرق و إنْ شرب الخمر». و في بعض الروايات أنَّ قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ و أنه عليه الصلاة و السلام قال في الثالثة: «و إنْ رغم أنفُ أبي ذر»، فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: «و إنْ رغم أنف أبي ذر».

و في بعض المسانيد و السنن: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، فإني أغفرُ لك على ما كان منك و لا أُبالي، و لو أتيتني بِقُراب الأرض خطيئةً، أتيتك بقرابها مغفرة مالم تشرك بي شيئاً، و إنْ أخطأت حتى تبلغَ خطاياك عنانَ السماء، ثم استغفرتني غفرت لك».

ولهذا شاهدٌ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

وفي صحيح مسلم: عن ابن مسعود «مَنْ ماتَ لا يُشركُ بالله شيئاً دخل الجنة». و الآيات و الأحاديث في هذا كثيرة جداً، و روى ابن مردويه من حديث عبادة و أبي الدرداء: «لا تشركوا بالله شيئاً، و إنْ قُطِّعْتم أو صُلّبتم أو حُرِّقتم» و رواه ابن أبي حاتم.

و قوله تعالى: ﴿و بالوَالِدَينِ إحْسَاناً﴾ أي: و أوصاكم و أمركم بالوالدين إحساناً، أي: أنْ تُحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿و قَضَى رَبُّكَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيَّاهُ و بِالوَالِدَينِ إحْسَاناً﴾ و قرأ بعضهم «و وصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً» أي: أحسنوا إليهم، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته و بر الوالدين، كما قال: ﴿أنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيكَ إليَّ المَصيرُ * وَ إنْ جَاهدَاكَ عَلَى أن تُشْرِكَ بِي مَا لَيسَ لكَ بِهِ عِلمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنَابَ إليَّ ثُمَّ إليَّ مَرجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأمر بالإحسان إليهما، و إنْ كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿و إذْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاّ اللهَ و بِالوَالِدَينِ إحْسَاناً﴾ الآية، و الآيات في هذا كثيرة.

و في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصلاةُ على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ و لو استزدته لزادني.

و روى ابن مردويه بسنده: عن أبي الدرداء و عن عبادة بن الصامت كل منهما يقول: أوصاني خليلي رسول الله ﷺ «أطعْ والديك، و إنْ أمراك أن تَخرجَ لهما من الدنيا فافعل» و لكن في إسنادهما ضعف[1] و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَقْتُلُوا أولاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إيَّاهُمْ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء و الأحفاد، فقال تعالى: ﴿و لاَ تَقْتُلُوا أولاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم، كما سوّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، و ربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، و لهذا ورد في الصحيحين: من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعل لله نداً و قد خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتلَ ولدك خشية أن يَطعمَ معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿و الَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ وَ لاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَ لاَ يَزْنُونَ﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿مِّنْ إمْلاَقٍ﴾ قال ابن عباس و قتادة و السدي و غيره: هو الفقر، أي: و لا تقتلوهم من فقركم الحاصل، و قال في سورة الإسراء: ﴿و لاَ تَقْتُلُوا أولاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ﴾ أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر في الآجل، لهذا قال هناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله، و أما هنا فلما كان الفقر حاصلاً، قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم ههنا، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَ مَا بَطَنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَ مَا بَطَنَ وَ الإثْمَ وَ البَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَ أن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ أن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ و قد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿و ذَرُوا ظَاهِرَ الإثْمِ وَ بَاطِنَهُ﴾.

---

(١) و قد قوّاه الشيخ الألباني رحمه الله في «الترغيب» بشواهده (٥٦٧ ـ ٥٦٨).

و في الصحيحين: عن ابن مسعودﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «لا أحدَ أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن». و قال سعد بن عبادة: لو رأيتُ مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُصْفح، فبلغ ذلك رسول اللهﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟! فو الله، لأنا أغيرُ من سعد، و اللهُ أغيرُ منّي، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن»، أخرجاه.

و روى الترمذي: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين».

و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ و هذا مما نص تبارك و تعالى عن النهي عنه تأكيداً، و إلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، فقد جاء في الصحيحين: عن ابن مسعودﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، و أني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، النفس بالنفس، و التارك لدينه المفارق للجماعة» و في لفظ لمسلم «و الذي لا إله غيره، لا يحل دم رجل مسلم».

و عن أمير المؤمنين عثمان بن عفانﷺ أنه قال ـ و هو محصور ـ: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس» فو الله ما زنيتُ في جاهلية و لا إسلام، و لا تمنيتُ أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، و لا قتلت نفساً، فبم تقتلونني؟! رواه الإمام أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجه.

و قد جاء النهي و الزجر و الوعيد في قتل المعاهد، و هو: المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: عن النبيﷺ مرفوعاً: «منْ قَتَلَ معاهداً، له ذمة الله و ذمة رسوله، فقد أخفَرَ بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، و إن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً» رواه ابن ماجه و الترمذي وقال حسن صحيح.

و قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا مما وصاكم به ﴿لعلكم تعقلون﴾ عن الله أمره ونهيه.

﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾

١٥٢ - عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﴿و لاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ الآية، فانطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، و شرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيُحبس له حتى يأكله و يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول اللهﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيرٌ وَ إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود.

و قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي و مالك و غير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم.

و قوله تعالى: ﴿و أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ و الإعطاء، كما

توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ❁ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ❁ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ❁ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ❁ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ❁ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و قد أهلك الله أمةً من الأمم، كانوا يبخسون المكيال و الميزان. و في الترمذي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل و الميزان: «إنكم وُلِّيتم أمراً، هلكتْ فيه الأمم السابقة قبلكم» ثم قال لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين و هو ضعيف في الحديث. و قد رُوي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً.

و قوله تبارك و تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد في أداء الحق و أخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وُسْعه، و بذل جهده، فلا حرج عليه.

و قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، و كذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعال و المقال، على القريب والبعيد، و الله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، و في كل حال، و قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول: و بوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، و إيفاء ذلك بأنْ تُطيعوه فيما أمركم و نهاكم، وتعلموا بكتابه و سنة رسوله، و ذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا أوصاكم به و أكّد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون و تنتهون مما كنتم فيه قبل هذا، و قرأ بعضهم بتشديد الذال، و آخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

١٥٣ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ و في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ و نحو هذا في القرآن، قال: أمرَ الله المؤمنين بالجماعة، و نهاهم عن الاختلاف و التفرقة، أخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء و الخصومات في دين الله، و نحو هذا قاله مجاهد و غير واحد. و روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً» و خطَّ عن يمينه و شماله، ثم قال: «هذه السُّبُل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطانٌ يدعوا إليه» ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ وكذا رواه النسائي و الحاكم، ورُوي موقوفاً عليه: فروى ابن جرير أن رجلاً قال لا بن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، و طَرفه في الجنة، و عن يمينه جواد و عن يساره جواد، ثمَّ رجال يدعون من مَرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد، انتهت به إلى النار، و مَنْ أخذ على الصراط، انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الآية.

و قد روي من حديث النواس بن سمعان نحوه، فروى الإمام أحمد: عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضربَ الله مثلاً صراطاً مستقيماً، و عن جَنْبي الصراط سُوران فيهما أبوابٌ مفتحة، و على الأبواب ستورٌ مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً و لا تفرقوا، و داعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إنْ

تَفْتحه تلجه ، فالصراط : الإسلام ، و السوران : حدود الله ، و الأبواب المفتحة : محارم الله ، و ذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، و الداعي من فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم» و رواه الترمذي والنسائي .

و قوله تعالى : ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ إنما وحَّدَ سبيله لأن الحقَّ واحد ، و لهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) ﴾

١٥٤ - قال ابن جرير ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره : ثم قل يا محمد مخبراً عنَّا بأنا آتينا موسى الكتاب ، بدلالة قوله : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قلت : وفي هذا نظر ، و «ثم» ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب ههنا .

و ههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله : ﴿و أنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ عَطَفَ بمدح التوراة ورسولها ، فقال : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ و كثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن و التوراة ، كقوله تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً﴾ و قوله أول هذه السورة ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ الآية ، وبعدها ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية ، و قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ و قال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا : ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الآية .

و قوله تعالى : ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً﴾ أي : آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً ، جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته ، كقوله : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية . و قوله تعالى : ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي : جزاء على إحسانه في العمل ، و قيامه بأوامرنا و طاعتنا ، كقوله : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ و كقوله : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ و كقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وقال الربيع بن أنس : أحسن فيما أعطاه الله . و قال قتادة : مَنْ أحسن في الدنيا ، تمَّم له ذلك في الآخرة . و اختار ابن جرير أن تقديره ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً﴾ على إحسانه ، فكأنه جعل «الذي» مصدرية ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي : كخوضهم .

و قال آخرون : «الذي» ههنا بمعنى «الذين» قال ابن جرير : و ذكر عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها : «تماماً على الذي أحسنوا» ، و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : على المؤمنين و المحسنين ، و كذا قال أبو عبيدة ، و قال البغوي : المحسنون الأنبياء و المؤمنون ، يعني أظهرنا فضله عليهم . قلت : كقوله تعالى : ﴿قَالَ

يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَ بِكَلامِي﴾، و لا يلزم اصطفاؤه على محمدﷺ خاتم الأنبياء، والخليل عليهما السلام، لأدلة أخرى.

و قوله تعالى: **﴿و تفصيلاً لِكُلِّ شيءٍ وَ هُدًى وَ رَحمَةً﴾** فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه **﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤمنونَ﴾ و هذا كتابٌ أنزلناهُ مُبارَكٌ فاتَّبعوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرحَمُونَ﴾** فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يُرغِّب سبحانه عباده في كتابه، و يأمرهم بتدبره، و العمل به، و الدعوة إليه، و وصفه بالبركة لمن اتبعه، وعَمِل به في الدنيا و الآخرة، لأنه حَبْلُ الله المتين.

﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾

١٥٦ - قال ابن جرير: معناه: و هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا **﴿إنَّما أُنزِلَ الكتابُ على طائفتَينِ مِن قَبلِنَا﴾** يعني: لينقطع عذركم، كقوله تعالى: **﴿و لولا أنْ تُصيبَهُم مُّصيبَةٌ بما قَدَّمتْ أيديهِمْ لَقَالُوا رَبَّنا لَوْلاَ أَرسلتَ إلينا رَسولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ﴾** الآية. و قوله تعالى: **﴿على طائفتين مِن قَبلِنَا﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم اليهود و النصارى، و كذا قال مجاهد و السدي و قتادة و غير واحد. و قوله: **﴿و إن كنا عن دراستهم لغافلين﴾** أي: و ما كنا نفهم ما يقولون، لأنهم ليسوا بلساننا، و نحن في غفلة و شغل مع ذلك عما هم فيه.

و قوله: **﴿أو تَقُولُوا لَوْ أنَّا أُنزِلَ علَينَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنهُمْ﴾** أي: و قَطَعنا تعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم، لكنَّا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: **﴿و أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيمانِهِمْ لَئِن جاءهمْ نذيرٌ لَيكونُنَّ أَهدَى مِنْ إِحدَى الأُمَمِ﴾** الآية، و هكذا قال ههنا: **﴿فَقَدْ جاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ﴾** يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمدﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيانٌ للحلال و الحرام، و هدى لما في القلوب، و رحمة من الله لعباده الذين يتبعونه، و يقتفون ما فيه. و قوله تعالى: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنهَا﴾** أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، و لا اتبع ما أرسل به، و لا ترك غيره، بل صَدَف عن اتباع آيات الله، أي: صَرَف الناس و صدَّهم عن ذلك، قاله السدي، و عن ابن عباس و مجاهد و قتادة **﴿وَصَدَفَ عَنهَا﴾** أعرض عنها، و قول السدي ههنا فيه قوة، لأنه قال: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنهَا﴾** كما تقدم في أول السورة **﴿وَهُمْ يَنهَونَ عَنهُ وَ ينأَونَ عَنهُ وَ إن يُهلِكُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾** و قال تعالى: **﴿الذينَ كفرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبيلِ الله زِدْناهُمْ عَذاباً فَوقَ العَذابِ﴾**، وقال في هذه الآية الكريمة **﴿سَنجزِي الذينَ يَصْدِفونَ عَنْ آياتِنَا سُوءَ الْعذَابِ بِمَا كانُوا يَصدِفُونَ﴾**.

و قد يكون المراد فيما قاله ابن عباس و مجاهد و قتادة **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنهَا﴾** أي: لا آمن بها و لا عمل بها، كقوله تعالى: **﴿فلا صدَّقَ و لا صَلَّى﴾ و لَكِن كَذَّبَ و تَوَلَّى﴾** و غير ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه، و ترك العمل بجوارحه، و لكن كلام السدي أقوى وأظهر ـ و الله أعلم ـ لأن الله قال: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنهَا﴾** كقوله تعالى: **﴿الذينَ**

كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ زِدنَاهُمْ عَذَاباً فَوقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفسِدُونَ﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾

١٥٨ – يقول تعالى متوعداً للكافرين به، و المخالفين لرسله، و المكذبين آياته، و الصادّين عن سبيله ﴿هَل يَنظُرُونَ إلاّ أن تَأتِيَهُم المَلائِكَةُ أو يَأتِيَ رَبُّكَ﴾ و ذلك كائنٌ يوم القيامة ﴿أو يَأتِيَ بَعضُ آياتِ رَبِّكَ يَومَ يَأتِي بَعضُ آياتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفساً إيمَانُها﴾ و ذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة و أشراطها، كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا رآها الناس آمن مَنْ عليها» فذلك حين ﴿لاَ يَنفَعُ نَفساً إيمَانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾.

و روى أيضاً «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمسُ من مغربها» و في لفظ «فإذا طلعتْ و رآها الناس آمنوا أجمعون، و ذلك حين لا يَنفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبل» ثم قرأ هذه الآية. و رواه مسلم.

(حديث آخر) عن أبي ذر الغفاري في الصحيحين و غيرهما: قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهبُ الشمسُ إذا غربت؟» قلت: لا أدري! قال: «إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدةً، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت» و ذلك حين ﴿لاَ يَنفَعُ نَفساً إيمَانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾.

(حديث آخر) عن حذيفة بن أسيد بن أبي شريحة الغفاري رضي الله عنه: روى الإمام أحمد بن حنبل: عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة و نحن نتذاكر الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تَروا عشر آياتٍ: طلوعَ الشمس من مغربها، و الدُّخان، و الدابّة، و خروج يأجوج مأجوج، و خروج عيسى ابن مريم، و خروج الدجال، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، و خسفٌ بالمغرب، و خسفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرجُ من قعر عَدن تسوق أو تحشر الناس، تَبيتُ معهم حيث باتوا، و تَقيلُ معهم حيث قالوا»! و هكذا رواه مسلم و أهل السنن الأربعة.

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو: روى الإمام أحمد عن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة من المسلمين إلى مروان بالمدينة، فسمعوه وهو يحدِّث عن الآيات، يقول: إنَّ أولها خروج الدجال، قال: فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو، فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات، فقال: لم يقل مروان شيئاً، حفظتُ من رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، و خروج الدابة ضحى، فأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها» ثم قال عبد الله: و كان يقرأ الكتب، و أظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، و ذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش و سجدت، و استأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع، حتى إذا بدا الله أن تَطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أَتَتْ تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يردّ عليها شيء ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، و عرفت أنه إذا أُذِنَ لها في الرجوع لم تُدرك المشرق، قالت: رب ما أبعد

المشرق ! مَنْ لي بالناس ؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع ، فيقال لها : من مكانك فاطلعي ، فطلعت على الناس من مغربها ، ثم تلا عبد الله هذه الآية : ﴿لاَ ينفَعُ نفْساً إيمَانُها لَمْ تكُنْ آمنَتْ مِن قَبْلُ﴾ الآية .

و أخرجه مسلم في صحيحه و أبو داود و ابن ماجه .

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو و عبد الرحمن بن عوف و معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين : روى الإمام أحمد عن ابن السعدي : أنّ رسول اللهﷺ قال : «لا تنقطع الهجرة مادام العدو يُقاتل» فقال معاوية و عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عمرو بن العاص : أن رسو ل اللهﷺ قال : «إنَّ الهجرةَ خصلتان : إحداهما تهجر السيئات ، و الأخرى تُهاجر إلى الله و رسوله ، و لاتنقطع ما تُقُبِّلت التوبة ، و لا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلبٍ بما فيه ، و كفِي الناس العمل» هذا الحديث حسن الإسناد ، و لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، و الله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿لاَ ينفَعُ نفْساً إيمَانُها لَمْ تكُنْ آمنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ ، لا يُقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإنْ كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، و إن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تُقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة ، و عليه يحمل قوله تعالى : ﴿أو كسَبَتْ في إيمَانِها خَيراً﴾ أي : و لا يقبل منها كسبُ عملٍ صالح ، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك .

و قوله تعالى : ﴿قُلِ انتَظِرُوا إنَّا مُنتَظِرونَ﴾ تهديدٌ شديد للكافرين ، ووعيد أكيد ، لمن سوّف بإيمانه وتوبته ، إلى وقت لا ينفعه ذلك ، و إنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب الساعة ، وظهور أشراطها ، كما قال : ﴿فهَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ أن تَأتِيَهُم بَغتَةً فَقَدْ جاءَ أشْرَاطُها فَأنَّى لَهُمْ إذا جَاءتْهُمْ ذِكْراهم﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فلمَّا رَأوْا بَأسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشرِكينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانُهمْ لَمَّا رَأوْا بَأسَنَا﴾ الآية .

﴿ إنَّ الَّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾

١٥٩ – قال مجاهد و قتادة و الضحاك و السدي : نزلت هذه الآية في اليهود و النصارى ، و قال العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿الذينَ فَرَّقُوا دِينَهم وَ كَانُوا شِيَعاً﴾ و ذلك أن اليهود و النصارى اختلفوا قبل مبعث محمدﷺ فتفرقوا ، فلما بُعث محمدﷺ ، أنزل الله عليه ﴿إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهم وَ كَانُوا شِيَعاً لَّستَ مِنهُمْ في شَيءٍ﴾ الآية ، وقال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله : ﴿وَ كَانُوا شِيَعاً﴾ قال : هم الخوارج ، و رُوي عنه مرفوعاً و لايصح .

و الظاهر أن الآية عامة في كل مَنْ فارق دين الله ، و كان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى و دين الحق ليُظهره على الدين كله ، و شرعه واحد لا اختلاف فيه و لا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿و كانوا شيعاً﴾ أي : فرقاً كأهل الملل و النحل ، و الأهواء و الضلالات ، فإنَّ الله تعالى قد برأ رسولهﷺ مما هم فيه ، و هذه الآية كقوله تعالى ﴿شَرَعَ لكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الذِي أوْحَينَا إليكَ﴾ الآية .

و في الحديث : «نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت ديننا واحد» [1] فهذا هو الصراط المستقيم ، و هو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، و التمسُّك بشريعة الرسول المتأخر ، و ما خالف ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه

فضلالات وجهالات، و آراء و أهواء، و الرسل برآء منها، كما قال الله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾.

و قوله تعالى: ﴿إنّما أمرُهم إلى اللهِ ثُمَّ يُنبئُهم بما كانُوا يفعلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ آمنُوا و الذينَ هادُوا و الصَّابئينَ والنَّصارَى و المَجُوسَ و الذينَ أشرَكُوا إنَّ اللهَ يَفصِلُ بينَهُمْ يومَ القِيامةِ﴾ الآية.

ثم بيَّن لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾

١٦٠- و هذه الآية الكريمة مُفَصِّلة لما أُجمل في الآية الأخرى، و هي قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالحَسَنةِ فَلهُ خيرٌ مِّنهَا﴾ و قد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك و تعالى: «إنَّ ربكم عز و جل رحيم، مَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها، كُتبتْ له حسنة، فإنْ عملها كتبتْ له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة. و من هَمَّ بسيئة فلم يعملها، كتبتْ له حسنة، فإنْ عملها كتبتْ له واحدة، أو يمحوها الله عز وجل، و لا يهلك على الله إلا هالك» و رواه البخاري و مسلم والنسائي.

و روى أحمد أيضاً: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل مَنْ عَملَ حسنةً فله عشر أمثالها وأزيد، و من عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر، و من عمل قُراب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يُشرك بي شيئاً، جعلت له مثلها مغفرة، و مَن اقتربَ إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، و من اقتربَ إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، و من أتاني يمشي أتيته هرولة» و رواه مسلم.

و اعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تُكتب له حسنة علي كفه عنها لله تعالى، و هذا عملٌ و نية، و لهذا جاء: أنه يُكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها مِنْ جرائي» أي: من أجلي، و تارة يتركها نسياناً و ذهولاً عنها، فهذا لا له ولا عليه، لأنه لم ينو خيراً، ولا فعل شراً، و تارة: يتركها عجزاً و كسلاً عنها، بعد السعي في أسبابها، والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؟ فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

و روى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: عن النبي ﷺ قال: «يَحضر الجمعة ثلاثةُ نفر: رجلٌ حضرها يلغو فهو حظه منها، و رجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه و إنْ شاء منعه، و رجل حضرها بإنصاتٍ و سكون، و لم يتخطَّ رقبةَ مسلم، و لم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها، و زيادة ثلاثة أيام» و ذلك لأن الله عز وجل يقول: ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها﴾.

و عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَام ثلاثة أيام من كل شهر، فقد صام الدهر كله» رواه الإمام أحمد وهذا لفظه، و النسائي و ابن ماجه و الترمذي، و زاد: فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها﴾ اليوم بعشرة أيام. و قال ابن مسعود ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها﴾ من جاء بلا إله إلا الله، و من جاء بالسيئة، يقول: بالشرك. و هكذا جاء عن جماعة من السلف رضي الله عنهم أجمعين.

و الأحاديث و الآثار في هذا كثيرة جداً، و فيما ذكر كفاية إن شاء الله، و به الثقة.

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾

١٦١- يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين، أن يخبر بما أنعم به عليه، من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه و لا انحراف ﴿ديناً قيماً﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ كقوله ﴿و من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾، و قوله: ﴿و جاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾، و قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه و هداه إلى صراط مستقيم * و آتيناه في الدنيا حسنة و إنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ و ليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفة، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، و أكملت له إكمالاً تاماً، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، و لهذا كان خاتم الأنبياء، و سيد ولد آدم على الإطلاق، و صاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام.

و قد روى ابن مردويه: عن ابن أبزى عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، و كلمة الإخلاص، و دين نبينا محمد، و ملة أبينا إبراهيم حنيفاً، و ما كان من المشركين».

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة».

و روى أحمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: وَضَعَ رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زَفْن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. قال عروة إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لِتَعلم يهودُ أن في ديننا فُسحة، إني أُرسلت بحنيفية سمحة» أصل الحديث مخرج في الصحيحين، و الزيادة لها شواهد من طرق عدة، و قد استقصيتُ طرقها في شرح البخاري، و لله الحمد و المنة.

١٦٣- وقوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، و يذبحون لغير الله، و يذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، و هذا كقوله تعالى: ﴿فصل لربك و انحر﴾ أي: أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، و يذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، و الإقبال بالقصد و النية و العزم على الإخلاص لله تعالى. قال مجاهد: النسك: الذبح في الحج والعمرة، و قال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير ﴿و نسكي﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي و الضحاك.

و قوله: ﴿و أنا أول المسلمين﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، و أصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿و ما أرسلنا من قبلك من

رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ، و قد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : **﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله و أمرت أن أكون من المسلمين﴾** و قال تعالى : **﴿و من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه و لقد اصطفيناه في الدنيا و إنه في الآخرة لمن الصالحين ۞ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ۞ ووصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾** وقال يوسف عليه السلام **﴿رب قد آتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً و ألحقني بالصالحين﴾** ، و قال موسى **﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ۞ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ۞ و نجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾** وقال تعالى : **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾** الآية ، و قال تعالى : **﴿و إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي و برسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾** فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ، و لكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة ، التي ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نُسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تُنسخ أبد الآبدين ، و لا تزال قائمة منصورة ، وأعلامها منشورة ، إلى قيام الساعة .

و لهذا قال عليه السلام : «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاّت ديننا واحد» . فإنّ أولاد العلات : هم الأخوة من أب واحد و أمهات شتى ، فالدين واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، و إن تنوّعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، و الأخوة الأعيان : الأشقاء : من أب واحد و أم واحدة ، و الله أعلم .

و قد روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان إذا كبّر استفتح ، ثم قال : «وَجَّهت وجهي للذي فَطَر السموات و الأرض ، حنيفاً مسلماً و ما أنا من المشركين ، إنّ صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين ، لا شريك له و بذلك أمرت و أنا من المسلمين ، اللهم أنتَ المَلِكُ ، لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي و اعترفت بذنبي ، فاغفرلي ذنوبي جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت ، و اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، و اصْرِفْ عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، تباركت و تعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك» ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع و السجود و التشهد ، و قد رواه مسلم في صحيحه .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾

١٦٤- يقول تعالى : **﴿قل﴾** يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، في إخلاص العبادة له ، و التوكل عليه : **﴿أغير الله أبغي رباً﴾** أي : أطلب رباً سواه **﴿و هو رب كل شيء﴾** يُربيني و يحفظني و يكلؤني ، و يدبر أمري ، أي : لا أتوكل إلا عليه ، و لا أنيب إلا إليه ، لأنه ربُّ كل شيء و مليكه ، و له الخلق و الأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، و هذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن ، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : **﴿إياك نعبد و إياك نستعين﴾** ، و قوله :

﴿فاعبُدْهُ وَ تَوكَّلْ عليهِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمنَّا بِهِ وَ عليهِ توكَّلْنَا﴾، و قوله: ﴿ربُّ المشرِقِ و المَغربِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكيلاً﴾ وأشباه ذلك من الآيات.

و قوله تعالى: ﴿و لا تكسِبُ كُلُّ نفسٍ إلاَّ عليهَا وَ لا تزرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة، في جزاء الله تعالى و حكمه و عدله، أن النفوس إنما تُجازى بأعمالها، إن خيراً فخيراً، و إن شراً فشراً، و أنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، و هذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿و إنْ تَدْعُ مُثقلةٌ إلى حِمْلِها لاَ يُحمَلْ مِنهُ شيءٌ وَ لَوْ كانَ ذَا قُربَى﴾ و قوله تعالى: ﴿فلاَ يخافُ ظُلماً وَ لاَ هَضْماً﴾ قال علماء التفسير: أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، و لا يهضم بأن ينقص من حسناته، و قال تعالى: ﴿كُلُّ نفسٍ بِمَا كَسبَتْ رهِينَةٌ إلاَّ أَصْحابَ اليَمينِ﴾ معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيء، إلا أصحاب اليمين، فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم و قراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿و الذينَ آمنُوا و اتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهم بإيمانٍ ألحقنا بهِمْ ذُرِيتهُم وَ ما أَلَتْنَاهُم مِّنْ عمَلِهِم مِّن شيءٍ﴾ أي: ألحقنابهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، و إنْ لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، و ما ألتناهم، أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً، حتى ساويناهم، و هؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء، ببركة أعمالهم، بفضله و منته، ثم قال: ﴿كُلُّ امرئٍ بما كسبَ رهِينٌ﴾ أي: من شر.

و قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستُعرضون و نعرض عليه، و ينبئنا و إياكم بأعمالنا و أعمالكم، و ما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿قُل لاَّ تُسألُونَ عَمَّا أجرَمْنَا وَ لاَ نُسألُ عمَّا تعمَلُونَ ❁ قُلْ يَجمَعُ بَينَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفتحُ بَينَنَا بِالحَقِّ وَ هُوَ الفَتَّاحُ العَليمُ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)﴾

١٦٥- يقول تعالى: ﴿وَ هُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلائفَ الأرضِ﴾ أي: جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، و خلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد و غيره، كقوله تعالى: ﴿و لَوْ نشاءُ لَجعَلْنَا مِنكُم مَّلائكةً في الأرضِ يَخلُفُونَ﴾، و كقوله تعالى: ﴿وَ يَجعَلُكُمْ خُلفاءَ الأرضِ﴾، و قوله ﴿إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ وقوله: ﴿عسَى رَبُّكُمْ أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَستَخلِفَكُمْ في الأرضِ فينظُرَ كَيفَ تعمَلُونَ﴾ و قوله: ﴿وَ رفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ﴾ أي: فاوتَ بينكم في الأرزاق، و الأخلاق و المحاسن، و المساوئ و المناظر، والأشكال والألوان، و له الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهم بَعضاً سُخْرياً﴾ و قوله: ﴿انظُرْ كيفَ فَضَّلْنا بَعضَهُمْ عَلَى بعضٍ وَلَلآخِرَةُ أكبَرُ دَرجاتٍ و أكبَرُ تَفضِيلاً﴾.

و قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتاكُمْ﴾ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، و امتحنكم به، ليختبر الغنى في غناه و يسأله عن شكره، و الفقير في فقره و يسأله عن صبره. و في صحيح مسلم: من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوةٌ خضرةٌ، و إن الله مستخلفكم فيها

فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء، فإنّ أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

و قوله تعالى: ﴿إنّ رَبّكَ سريعُ الْعِقَابِ و إنّهُ لَغَفورٌ رّحيمٌ﴾ ترهيبٌ و ترغيب، أن حسابه و عقابه سريع فيمن عصاه، و خالف رسله ﴿و إنّهُ لَغفورٌ رّحيمٌ﴾ لمن والاه، و اتبع رسله فيما جاؤا به من خبر و طلب. و قال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم.

و كثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله: ﴿و إنّ ربّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ و إنّ رَبّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾، إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب و الترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة، و صفة الجنة و الترغيب فيما لديه، و تارة يدعوهم إليه بالرهبة، وذِكر النار و أنكالها و عذابها، و القيامة و أهوالها، وتارة بهما لينجع في كلٍّ بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، و ترك ما عنه نهى و زجر، و صدَّقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب، سميع الدعاء، جواد كريم وهاب.

و قد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول اللهﷺ قال: «لو يَعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة، ما طمعَ بجنته أحدٌ، و لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قَنطَ أحدٌ من الجنة، خلق اللهُ مائة رحمةٍ، فوضع واحدةً بين خلقه يتراحمون بها، و عند الله تسعة و تسعون» و رواه مسلم و الترمذي.

و عنه أيضاً قال: قال رسول اللهﷺ: «لما خلقَ الله الخلق، كَتبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش إنّ رحمتي تغلبُ غضبي». و عنه أيضاً قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «جَعلَ الله الرحمةَ مائةَ جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، و أنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تَتَراحم الخلائق، حتى ترفعَ الدابةُ حافرها عن ولدها، خشيةَ من أن تُصيبه» رواه مسلم.

ترتيبها ٧ — سورة الأعراف مكية — آياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾

١ – قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف و بسطه، و اختلاف الناس فيه.

٢ – قوله: ﴿كتابٌ أُنزِلَ إليكَ﴾ أي: هذا كتابٌ أنزل إليك، أي من ربك ﴿فلا يكُن في صدرِكَ حرجٌ منهُ﴾ قال مجاهد و قتادة و السدي: شك منه، و قيل: لا تتحرَّج به في إبلاغه و الإنذار به ﴿فاصبِرْ كما صبرَ أُولُو العزمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ و لهذا قال: ﴿لتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿و ذِكرَى للمؤمنينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتبِعُوا مَا أُنزِلَ إليكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي، الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم، من رب كلِّ شيءٍ و مليكه ﴿وَ لاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قليلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿ومَا أكثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، و قوله: ﴿وَ إن تُطِعْ أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية، و قوله: ﴿وَ مَا يُؤمِنُ أكثَرُهُم باللهِ إلاَّ وَ هُم مُّشْرِكُونَ﴾.

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) ﴾

٤ – يقول تعالى: ﴿وَ كَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا و تكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا، موصولاً بذلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِئُونَ﴾ و كقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾. و قوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَو هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه و نقمته ﴿بَيَاتاً﴾ أي: ليلاً ﴿أو هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة و هي الاستراحة وسط النهار، و كلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ❖ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، و قال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ❖ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ❖ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

٥ – و قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: فما كان قولهم عند

مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، و أنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكمْ قصمْنَا من قريةٍ كانتْ ظالِمةً - إلى قوله - خَامِدِينَ﴾.

و قوله: ﴿فلنسألَنَّ الذينَ أُرسِلَ إليهمْ﴾ الآية، كقوله ﴿و يَومَ يُناديهِمْ فيَقُولُ ماذا أَجَبْتُمُ المُرسَلينَ﴾ وقوله: ﴿يومَ يَجمعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لنا إنكَ أنتَ علاَّمُ الغُيُوبِ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة، عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، و يسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، و لهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فلنسألَنَّ الذين أُرسِلَ إليهمْ و لنسألَنَّ الْمُرسَلينَ﴾ قال: عما بَلَّغوا.

قال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عليهِمْ بِعلِمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يُوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة، بما قالوا و بما عملوا، من قليل وكثير وجليل و حقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، و لا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين و ما تخفي الصدور ﴿و ما تَسقُطُ من وَرَقةٍ إلاَّ يَعلمُهَا و لا حبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ و لا رَطْبٍ و لا يابسٍ إلاَّ في كِتابٍ مُبينٍ﴾.

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) ﴾

٨، ٩- يقول تعالى: ﴿و الوزنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحداً كقوله: ﴿ونَضَعُ المَوازينَ القِسطَ ليوم القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً و إن كانَ مثقالَ حبَّةٍ منْ خردلٍ أتَينَا بها و كفَى بنَا حاسِبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لاَ يَظلِمُ مثقالَ ذرةٍ و إن تكُ حسنةً يُضاعِفْهَا و يُؤتِ مِن لَدُنْهُ أجْراً عَظيماً﴾ وقال تعالى: ﴿فأمَّا مَن ثَقُلتْ مَوازينُه فَهو في عيشةٍ راضيةٍ * و أمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينُه فأمُّه هاويةٌ * و ما أدراكَ ماهِيه * نَارٌ حامِيةٌ﴾ و قال تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصُّورِ فلاَ أنسابَ بينَهُمْ يومَئذٍ ولاَ يتساءَلُونَ * فَمن ثقُلَتْ موازينُه فأولئكَ هُم الْمُفْلِحونَ * وَمَنْ خَفَّتْ موازينُهُ فأولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهمْ في جَهنَّمَ خَالِدونَ﴾.

(فصل) و الذي يوضع في الميزان يوم القيامة، قيل: الأعمال و إن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أنَّ البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صوافٍّ. و من ذلك في الصحيح [1] قصة القرآن، و إنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرتُ ليلك وأظمأت نهارك. و في حديث البراء في قصة سؤال القبر «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول أنا عملك الصالح» و ذكر عكسه في شأن الكافر و المنافق.

و قيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يُؤتى به و يُوضع له في كفة تسعة و تسعون سجلاً، كل سجل مدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لاإله إلا الله، فيقول: يا رب، و ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلم، فَتُوضع تلك البطاقة في كِفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتِ السجلات و ثقلت البطاقة» رواه الترمذي بنحو من هذا و صححه.

و قيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يُؤتى يومَ القيامة بالرجل السمين، فلا يَزِنُ عند الله

---

(١) الحديث ليس في الصحيح! و إنما رواه ابن ماجه في سننه (٣٧٨١).

جناح بعوضة» ثم قرأ: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لهمْ يومَ القيامةِ وَزناً﴾. و في مناقب عبد الله بن مسعود أن النبيﷺ قال: «أتعجبونَ من دقّة ساقيه، و الذي نفسي بيده، لهما في الميزان أثقلُ من أُحد». و قد يمكن الجمع بين هذه الآثار، بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، و تارة تُوزن محالّها، و تارة يوزن فاعلها، و الله أعلم.

﴿ ولَقدْ مكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾

١٠- يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم، من أنه جعل الأرض قراراً، و جعل فيها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل و بيوتاً، أباح لهم منافعها، و سخّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها ﴿مَعايِشَ﴾، أي: مكاسب و أسباباً، يكسبون بها و يتّجرون فيها، و يتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليلُ الشكر على ذلك، كقوله: ﴿و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ وقد قرأ الجميع: ﴿مَعايِشَ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، فإنه همزها، و الصواب الذي عليه الأكثرون: بلا همز، لأن ﴿مَعايِشَ﴾ جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، و الياء أصلية في الكلمة، بخلاف مدائن وصحائف، فإن الياء فيها زائدة، و لهذا تجمع على فعائل.

﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾

١١- ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام، على شرف أبيهم آدم، و يبيّن لهم عداوةَ عدوهم إبليس، و ما هو منطو عليه من الحسد لهم و لأبيهم آدم، ليحذروه و لا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿و لَقدْ خَلقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْملائكةِ اسْجُدُوا لآدمَ فَسجَدُوا﴾، و هذا كقوله تعالى: ﴿و إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْملائِكةِ إنّي خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ و ذلك أنه تعالى لما خلق آدمعليه السلام بيده، من طين لازب، وصوّره بشراً سوياً، و نفخ فيه من روحه، أمرَ الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى و جلاله، فسمعوا كلهم و أطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين، و قد تقدّم الكلام على إبليس في أول سورة البقرة، و هذا الذي قررناه، هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدمعليه السلام.

و روى الثوري عن ابن عباس ﴿و لَقدْ خَلقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خُلقوا في أصلاب الرجال، وصوّروا في أرحام النساء، رواه الحاكم و قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، و نقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية.

و قال الربيع بن أنس و السدي و قتادة و الضحاك في هذه الآية ﴿و لَقدْ خَلقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر! لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلملائِكةِ اسجُدُوا لآدمَ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم، و إنما قيل ذلك بالجمع، لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبيﷺ ﴿وَظَلَّلْنا عَليكُم الغمامَ و أنزلْنَا عليكُم المَنَّ و السَّلوَى﴾ و المراد بالآباء آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منّةً على الآباء، الذين هم أصلٌ، صار كأنه واقع على الأبناء، و هذا بخلاف قوله: ﴿و لَقدْ خَلقْنا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة، و ذريته

مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد في خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، و الله أعلم.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

١٢- قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا هنا زائدة، و قال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر: «ما إن رأيت و لا سمعت بمثله» فأدخل «إن» و هي للنفي على «ما» النافية لتأكيد النفي، قالوا و كذا هنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ حكاهما ابن جرير وردهما، و اختار أن «منعك» مضمن معنى فعل آخر، تقديره: ما أحرجك و ألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، و نحو هذا. و هذا القول قوي حسن، و الله أعلم.

و قول إبليس لعنه الله ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: و أنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خُلق من نار، و النار أشرف مما خلقتَه منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، و لم ينظر إلى التشريف العظيم، و هو أن الله تعالى خلق آدم بيده، و نفخ فيه من روحه، و قاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة، فأخطأ - قبحه الله - في قياسه و دعواه: أن النار أشرفُ من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، و الأناة و التثبت، و الطين محل النبات، و النمو و الزيادة و الإصلاح، و النار من شأنها الإحراق، والطيش و السرعة، ولهذا خان إبليس عنصره، و نفع آدم عنصره بالرجوع و الإنابة، و الاستكانة والانقياد، والاستسلام لأمر الله، و الاعتراف و طلب التوبة و المغفرة.

و في صحيح مسلم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقَتْ الملائكة من نُور، وخُلق إبليس من مَارج من نار، و خُلق آدم مما وصف لكم». و روى ابن جرير: عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. و روى عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، و ما عُبِدَتْ الشمس و القمر، إلا بالمقاييس. إسناده صحيح أيضاً.

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

١٣- يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ و. قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها، في الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين معاملةً له بنقيض قصده، و مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين، و سأل النظرة إلى يوم الدين، قال:

١٤- ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة و المشيئة، التي لا تخالف و لا تمانع، و لا معقب لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

١٦- يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و استوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾ أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني، لأقعدنّ لعبادك الذين تخلقهم، من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه، على ﴿صراطك المستقيم﴾ أي: طريق الحق، و سبيل النجاة، و لأضلنهم عنها لئلا يعبدوك و لا يوحدوك، بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي، لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: يعني: الحق، و قال عون بن عبد الله: يعني طريق مكة، قال ابن جرير: الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك.

(قلت) لما روى الإمام أحمد: عن سبرة بن أبي فَاكِه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الشيطان قَعدَ لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم و تذر دينك و دين آبائك، قال: فعصاه و أسلم، قال: و قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتُهاجر و تَدع أرضكَ و سماءك، و إنما مثل المهاجرين كالفرس في الطِّوَل، فعصاه و هاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس و المال، فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة و يقسم المال، قال: فعصاه و جاهد» و قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، و إنْ قُتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، و إنْ غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

و قوله: ﴿ثم لآتينّهم مِن بين أيديهمْ و مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ثُمّ لآتينّهم مِن بين أيديهمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿و مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿و عَنْ أيمَانِهِمْ﴾ أُشبِّه عليهم أمر دينهم ﴿و عَنْ شَمَائِلهِمْ﴾ أشهِّي لهم المعاصي. و قال ابن أبي طلحة في رواية، و العوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما من بين أيديهم، فمن قِبل دنياهم و أما من خلفهم فأمر آخرتهم، و أما عن أيمانهم فمن قِبل حسناتهم، و أما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم.

و قال قتادة: أتاهم من بين أيديهم، فأخبرهم أنه لا بعث و لا جنة و لا نار، و من خلفهم من أمر الدنيا فزيّنها لهم، و دعاهم إليها، و عن أيمانهم من قِبل حسناتهم بطّأهم عنها، و عن شمائلهم زيّنَ لهم السيئات والمعاصي، و دعاهم إليها، و أمرهم بها، آتاك يا ابن آدم من كل وجهٍ، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك و بين رحمة الله. و كذا روى عن إبراهيم النخعي و الحكم بن عتيبة و السدي و ابن جريج، إلا أنهم قالوا: ﴿مِن بينِ أيديهمْ﴾ الدنيا، ﴿و مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآخرة، و قال مجاهد: ﴿مِن بينِ أيديهمْ﴾ ﴿وَعَن أيمَانهمْ﴾، من حيث يبصرون، ﴿وَ مِن خلفهمْ﴾ ﴿وَ عَن شَمائِلِهِمْ﴾ حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير و الشر، فالخير يصدهم عنه، و الشر يحسنه لهم. و قال عكرمة عن ابن عباس: لم يقل: من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و لا تجدُ أكثرَهمْ شاكرينَ﴾ قال: موحدين، و قول إبليس هذا إنما هو ظنٌّ منه و توهم، و قد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿و لقدْ صدَّقَ عليهمْ إبليسُ ظنَّه فاتَّبعوهُ إلا فريقاً من المؤمنينَ * و ما كان لهُ عليهم من سُلطانٍ إلا لنعلمَ من يؤمنُ بالآخرةِ ممنْ هوَ منهَا في شكٍّ و ربُّكَ على كُلِّ شيءٍ حَفيظٌ﴾ و لهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان، من جهاته كلها. كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية، في الدنيا و الآخرة، اللهم إني أسألك العفو و العافية، في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي و آمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، و عن يميني و عن شمالي، و من فوقي، و أعوذ بعظمتك أنْ أُغتال من تحتي» قال وكيع: من تحتي: الخسف. ورواه أبو داود والنسائي و ابن ماجه و ابن حبان و الحاكم.

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾

١٨- أكد تعالى عليه اللعنة و الطرد و الإبعاد و النفي، عن محل الملأ الأعلى بقوله: ﴿اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾ قال ابن جرير: أما المذءوم فهو المعيب، و الذأم غير مشدّد العيب، يقال ذأمه ذأماً فهو مذءوم، ويتركون الهمز فيقولون: ذمته أذيمه ذيماً و ذاماً، والذام و الذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور المُقْصى و هو المبعد المطرود. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم و المذموم إلا واحداً، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: صغيراً مقيتاً، و قال السدي: مقيتاً مطروداً، و قال قتادة: لعيناً مقيتاً، و قال مجاهد: منفياً مطروداً.

و قوله تعالى: ﴿لمن تَبِعكَ منهمْ لأملأنَّ جهنَّمَ منكمْ أجمَعينَ﴾ كقوله: ﴿قالَ اذْهبْ فمَن تَبِعكَ منهمْ فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكمْ جزاءً موفوراً * و استَفززْ مَنِ استَطعْتَ منهمْ بصوْتكَ و أَجْلِبْ عَليهمْ بخيْلكَ و رَجِلكَ وشَارِكْهمْ في الأموالِ و الأولادِ و عِدْهمْ و مَا يَعِدُهُم الشَّيطانُ إلا غُرُوراً * إنَّ عِبادي ليسَ لكَ عليهمْ سُلطانٌ وكفَى بربِّكَ وكيلاً﴾.

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) ﴾

١٩، ٢٠- يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ و لزوجته حوّاء الجنة، أن يأكلا منها من جميع ثمارها، إلا شجرة واحدة، و قد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، و سعى في المكر والوسوسة و الخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة و اللباس الحسن ﴿وقال﴾ كذباً و افتراء ﴿مَا نهاكُما ربُّكُمَا عنْ هذهِ الشَّجرةَ إلا أنْ تكونَا مَلكَينِ﴾ أي: لئلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا و لو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قالَ يَا آدمُ هلْ أَدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ و مُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ أي: لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبيِّنُ اللهُ لكُم أنْ تَضِلُّوا﴾ أي: لئلا تضلوا ﴿و ألقَى في الأرضِ رواسيَ أن تميدَ بِكمْ﴾ أي: لئلا تميد

بكم، و كان ابن عباس و يحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿إلا أن تكونا مَلِكين﴾ بكسر اللام، و قرأه الجمهور بفتحها.

٢١- ﴿و قاسمهما﴾ أي: حلفَ لهما بالله ﴿إني لكما من الناصحين﴾ فإني مِنْ قَبْلكما ههنا، و أعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، و المراد أحد الطرفين. أي: حلف لهما بالله على ذلك، حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله. و قال قتادة في الآية: حلف بالله إني خُلقت قبلكما، و أنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما. و كان بعض أهل العلم يقول: مَنْ خدَعَنَا بالله انخدعنا له.

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾

٢٢- عن الحسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان آدم رجلاً طُوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة، بدتْ له عورته عند ذلك، و كان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني، فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم، أمنّي تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك. و قد رواه ابن جرير و ابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ مرفوعاً، و الموقوف أصح إسناداً.

و روى الثوري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ورق التين. صحيح إليه. و قال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب. و قال وهب بن منبه: كان لباس آدم و حوّاء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما. رواه ابن جرير بسند صحيح إليه. وروى عبد الرزاق: عن قتادة قال: قال آدم: أي رب، أرأيتَ إنْ تُبتُ و استغفرتُ؟ قال: إذاً أُدخلك الجنة، و أما إبليس فلم يسأله التوبة، و سأله النظرة، فأعطَى كل واحد منهما الذي سأله. و روى ابن جرير: عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلتَ من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً، و لا تضع إلا كرهاً، قال: فرنَّتْ عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك و على ولدك.

و قال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ هي: الكلمات التي تلقّاها آدم من ربه.

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾

٢٤- قيل المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾ آدم و حواء و إبليس و الحية، و منهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. والعمدة في العداوة: آدم و إبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿اهبطا منها جميعاً﴾ الآية، وحواء تَبَعٌ لآدم، و الحية إنْ كان ذكرها صحيحاً فهي تبعٌ لإبليس، و قد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كلٌّ منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، و الله أعلم بصحتها، و لو كان في تعيين تلك البقاع

فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه، أو رسولهﷺ.

و قوله: ﴿ولكمْ فِي الأرضِ مُستقرٌ و مَتاعٌ إلى حِينٍ﴾ أي: قرار و أعمار مضروبة، إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، و أحصاها القدر، وسُطرت في الكتاب الأول. و قال ابن عباس ﴿مُستقرٌ﴾: القبور، وعنه قال: ﴿مُستقرٌ﴾ فوق الأرض و تحتها. رواهما ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿قالَ فِيها تَحيَوْنَ و فيهَا تَموتُونَ و مِنها تُخرجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنهَا خَلقْناكمْ و فِيهَا نُعيدُكُمْ ومِنها نُخرِجُكُم تَارةً أُخرَى﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، و فيها مماتهم و قبورهم، و منها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين و الآخرين، و يجازي كلاً بعمله.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾

٢٦- يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس و الريش، فاللباس: ستر العورات، و هي: السوآت، و الرياش و الريش: ما يُتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، و الريش من التكملات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث، و ما ظهر من الثياب. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس و حكاه البخاري عنه: الريش المال. و هكذا قال مجاهد و عروة بن الزبير و السدي و الضحاك وغير واحد.

و قوله تعالى: ﴿و لِباسُ التَّقْوَى ذلكَ خيرٌ﴾ قرأ بعضهم: و لباسَ التقوى بالنصب، و قرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و ﴿ذلكَ خيرٌ﴾ خبره. و اختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم، و قال زيد بن علي و السدي و قتادة و ابن جريج: ﴿وَ لِباسُ التَّقْوَى﴾: الإيمان، وقال العوفي عن ابن عباس: العمل الصالح، وعن عروة بن الزبير: خشية الله، و كلها متقاربة.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾

٢٧- يحذر تعالى بني آدم من إبليس و قبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدمعليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة، التي هي دار النعيم، إلى دار التعب و العناء، و التسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، و ما هذا إلا عن عداوة أكيدة، و هذا كقوله تعالى: ﴿أفتَتَّخِذونَه و ذُرِّيَّتَه أولياءَ مِن دُوني وهمْ لكمْ عَدُوٌّ بِئسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً﴾.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ﴾

٢٨- قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْعة أو الشيء، و تقول:

اليوم يَبدو بعضُه أو كلُّه ... و ما بدا منه فلا أُحلّه

فأنزل الله: ﴿وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيهَا آبَاءَنا و اللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب ـ ما عدا قريشاً ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك: أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها! وكانت قريش ـ و هم الحُمْس ـ يطوفون بالبيت في ثيابهم، و من أعاره أحمسى ثوباً طاف فيه، و من معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملَّكه أحدٌ، و من لم يجدْ ثوباً جديداً و لا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً، و ربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر، فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلُّه ... و ما بدا منه فلا أُحلّه

و أكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، و كان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستندٌ إلى أمر من الله و شرع! فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَ إِذَا فَعلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجدْنَا عَلَيها آبَاءَنا و اللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن ادّعى ذلك ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، و الله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعلَمونَ﴾ أي: أتُسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته؟!

٢٩- و قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل و الاستقامة ﴿وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله، و ما جاءوا به من الشرائع، و بالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، و أن يكون خالصاً من الشرك.

و قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إلى قوله ﴿الضَّلاَلَةُ﴾ اختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم، و قال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. و قال قتادة: بدأ فخلقهم و لم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا ثم يعيدهم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً. و اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، و أيده بما رواه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلا، كما بدأنا أول خلقٍ نُعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين» و هذا الحديث مخرج في الصحيحين.

و عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يبعث المسلمُ مسلماً، و الكافرُ كافراً. و قال أبو العالية ﴿كَمَا بدأكمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلى علمه فيهم. و قال سعيد بن جبير: كما كُتب عليكم تكونون. وفي رواية: كما

كنتم عليه تكونون. و قال محمد بن كعب القرظي: مَن ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، و من ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه، و إن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدؤا عليه.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً و كافراً، كما قال: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَ مِنكُم مُّؤمِنٌ﴾** ثم يعيدهم يوم القيامة، كما بدأ خلقهم مؤمناً و كافراً.

(قلت): ويتأيد هذا القول: بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فو الذي لا إله غيره، إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه و بينها إلا باعٌ أو ذراع، فَيَسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، و إنَّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه و بينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة». و روى أبو القاسم البغوي: عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللهﷺ: «إنَّ العبدَ لَيعملُ فيما يرَى الناس بعمل أهل الجنة، و إنه من أهل النار، و إنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار، و هو من الجنة، و إنما الأعمال بالخواتيم» هذا قطعة من حديث البخاري في قصة قزمان يوم أحد. و روى ابن جرير: عن جابر عن النبيﷺ أنه قال: «تُبعَثُ كل نفسٍ على ما كانت عليه» و هذا الحديث رواه مسلم و ابن ماجه ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» و عن ابن عباس مثله. **(قلت)**: و يتأيد بحديث ابن مسعود.

(قلت): و لا بد من الجمع بين هذا القول ـ إنْ كان هو المراد من الآية ـ و بين قوله تعالى: **﴿فأقِمْ وجْهكَ للدِّين حَنيفاً فِطرتَ اللهِ الَّتي فَطرَ النَّاسَ عليها﴾** و ما جاء في الصحيحين: عن أبي هريرةرضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه». و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار قال: قال رسول اللهﷺ: يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم» الحديث. و وجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن، و كافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته و توحيده، و العلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك، وجعله في غرائزهم و فطرهم، و مع هذا قَدَّر أن منهم شقياً و منهم سعيداً **﴿هُو الذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤمِنٌ﴾**. و في الحديث: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». و قَدَرُ اللهِ نافذٌ في بريّته، فإنه هو **﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾** و **﴿الذِي أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدى﴾**. و في الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسَيُيسَّر لعمل أهل السعادة، و أما من كان من أهل الشقاوة، فسَيُيسَّر لعمل أهل الشقاوة».

٣٠- و لهذا قال تعالى: **﴿فَرِيقاً هَدَى و فَرِيقاً حَقَّ عَليهِمْ الضَّلالةُ﴾** ثم علل ذلك، فقال: **﴿إنَّهم اتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دونِ اللهِ﴾**.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها، لأنه لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة ـ الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد ـ و فريق الهدى فرقٌ، و قد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)﴾

٣١- هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُراة، كما رواه مسلم والنسائي و ابن جرير و اللفظ له، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال و النساء و الرجال بالنهار، والنساء بالليل، و كانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه و ما بدا منه فلا أُحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُم عندَ كُلِّ مَسجدٍ﴾. و قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسجدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، و الزينة: اللباس، و هو ما يُواري السوأة، و ما سوى ذلك من جيد البز و المتاع، فأُمِروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وهكذا قال مجاهد و عطاء و إبراهيم النخعي و سعيد بن جبير و قتادة و السدي و الضحاك و مالك عن الزهري، و غير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة، و لهذه الآية و ماورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، و لا سيما يوم الجمعة و يوم العيد، و الطِّيب: لأنه من الزينة، والسواك: لأنه من تمام ذلك، و من أفضل اللباس البياض، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، و كَفِّنوا فيها موتاكم، و إنَّ خير أكحالكم الأثمد، فإنه يجلو البصر، و يُنبت الشعر» هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه. و روى الطبراني بسند صحيح: أن تميماً الداري اشترى رداء بألف، وكان يصلي فيه.

و قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسرِفُوا﴾. و قال البخاري: قال ابن عباس: كُلْ ماشئتَ، و البس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرفٌ و مخيلة. وروى ابن جرير: عن ابن عباس قال: «أحلَّ الله الأكل و الشرب، مالم يكن سَرَفاً أو مخيلة» إسناده صحيح، و روى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول اللهﷺ قال: «كلوا والبسوا و تصدقوا، من غير مخيلةٍ و لا سرفٍ، فإنَّ الله يُحب أن يرى نعمته على عبده» ورواه النسائي و ابن ماجه. و روى الإمام أحمد: عن المقدام بن معديكرب العبدي قال: سمعت رسول الله يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسبُ ابن آدم أكلاتٍ يُقمن صُلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلثٌ لطعامه، و ثُلثٌ لِشرَابه، و ثُلثٌ لِنفَسه» و رواه النسائي و الترمذي.

و قال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عُراة، يحرّمون عليهم الودك، ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿كُلُوا وَاشرَبُوا﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم. و قال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَلاَ تُسرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. و قال ابن جرير: و قوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحبُّ المُسرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المعتدين حدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرّم، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، و لكنه يحب أن يُحلّل

ما أحل، و يُحرّم ما حرّم، و ذلك العدل الذي أمر به.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾

٣٢- يقول تعالى رداً على من حَرَّم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله، قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يحرّمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة و ابتداعهم **﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِه﴾** الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله، و عَبَده في الحياة الدنيا، و إن شَرَكهم فيها الكفار، حسًّا في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحدٌ من الكفار، فإنَّ الجنة محرمة على الكافرين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

٣٣- روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغيرُ من الله، فلذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و لا أحد أحبُّ إليه المدح من الله» أخرجاه في الصحيحين. و تقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها و ما بطن في سورة الأنعام. و قوله: **﴿و الإثم و البغي بغير الحق﴾** قال السدي: أما الإثم: فالمعصية، و البغي: أن تبغي على الناس بغير الحق. و قال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، و أخبر أن الباغي بغيه على نفسه. و حاصل ما فُسّر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، و البغي: هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا و هذا. و قوله تعالى: **﴿و أنْ تُشرِكُوا بالله مالم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾** أي: تجعلوا له شركاء في عبادته **﴿وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعلَمُونَ﴾** من الافتراء و الكذب، من دعوى أن له ولداً، و نحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: **﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثَانِ﴾** الآية.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) ﴾

٣٤- يقول تعالى: **﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ﴾** أي: قرن و جيل **﴿أَجَلٌ فإذا جَاءَ أجلُهمْ﴾** أي: ميقاتهم المقدر لهم **﴿لاَ يستأخِرُونَ ساعةً و لاَ يَستقْدِمونَ﴾**.

٣٥- ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، و بشّر و حذّر، فقال: **﴿فَمَن اتَّقَى وأَصْلَحَ﴾** أي: تَرك المحرمات و فَعَل الطاعات **﴿فَلاَ خوفٌ عليهِمْ و لاهُمْ يَحزنُونَ ﴿ و الذينَ كذَّبُوا بآياتِنا واستكبَرُوا عنهَا﴾** أي: كذبت بها قلوبهم، و استكبروا عن العمل بها **﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** أي: ماكثون فيها مكثاً مخلدا.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا

جاءَتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (٣٧) ﴾

٣٧- يقول: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذّب بآياته المنزلة ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي: ينالهم ما كتب لمن كذب على الله، أن وجهه مسوداً. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نصيبهم من الأعمال: من عمل خيراً جُزي به، و من عمل شراً جزي به. و قال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر. و كذا قال قتادة و الضحاك و غير واحد، و اختاره ابن جرير.

و قال محمد بن كعب القرظي ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾: عمله و رزقه و عمره، و كذا قال الربيع بن أنس و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. و هذا القول قوي في المعنى، و السياق يدل عليه، و هو قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾. و يصير المعنى في هذه الآية، كقوله: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، و قوله: ﴿و من كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلاً﴾ الآية.

و قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ الآية، يخبر تعالى: أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت، و قبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله، ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه، قالوا ﴿ضلوا عنا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجوا نفعهم و لا خيرهم ﴿و شهدوا على أنفسهم﴾ أي: أقروا و اعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾.

﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (٣٨) وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (٣٩) ﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي: من أمثالكم، و على صفاتكم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿من الجن والإنس في النار﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿في أمم﴾ و يحتمل أن يكون ﴿في أمم﴾ أي: مع أمم.

وقوله ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ كما قال الخليل عليه السلام ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب * و قال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم و ماهم بخارجين من النار﴾. وقوله: ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ أي: أخراهم دخولاً، وهم: الأتباع لأولاهم، و هم: المتبوعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿ربنا هؤلاء

الذينَ أضلُّونا فآتِهمْ عذاباً ضِعفاً مِّن النَّار﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: **﴿يومَ تُقلَّبُ وُجوهُهمْ في النَّار يقولونَ يا ليتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا الرَّسولاً * وَ قالُوا ربَّنا إنَّا أطعْنا سادَتَنا وَ كُبراءَنا فأضلُّونا السَّبيلاً * ربَّنا آتِهمْ ضِعفَينِ مِنَ الْعذاب﴾** الآية.

و قوله: **﴿قالَ لِكُلٍّ ضِعفٌ﴾** أي: قد فعلنا ذلك، و جازينا كلا بحسبه، كقوله: **﴿الذينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً﴾** الآية، و قوله: **﴿وَ ليَحمِلُنَّ أثقالَهُمْ وَ أثقالاً مَّعَ أثقالِهِمْ﴾**، و قوله: **﴿وَمِنْ أوزارِ الذينَ يُضِلُّونَهُم بغَيرِ عِلمٍ﴾** الآية.

٣٩- **﴿و قالَتْ أُولاهُمْ لأُخراهُمْ﴾** أي: قال المتبوعون للأتباع **﴿فَمَا كانَ لَكُمْ عَلينَا مِن فَضلٍ﴾** قال السدي: قد ضللتم كما ضللنا **﴿فَذُوقُوا العَذابَ بِما كُنتُمْ تَكسِبونَ﴾**. و هذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله: **﴿ولوتَرى إذ الظالمون مَوقُوفونَ عِندَ ربِّهِمْ يَرجِعُ بَعضُهُمْ إلَى بَعضٍ القَولَ يقولُ الذينَ استُضعِفُوا لِلَّذينَ استَكبَرُوا لَولاَ أنتُمْ لَكُنَّا مُؤمِنينَ * قالَ الذينَ استَكبَرُوا لِلَّذينَ استُضعِفُوا أنَحْنُ صددناكم عن الهُدَى بعد إذْ جاءكم بل كنتم مُجرمين * و قالَ الذينَ استُضعِفُوا للذين استَكبَرُوا بَلْ مَكرُ اللَّيلِ و النَّهار إذْ تأمُرونَنا أن نَّكفُرَ باللهِ وَ نجعَلَ لَهُ أنداداً وَ أسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رأوُا العذابَ وَ جَعلنَا الأغلالَ في أعناقِ الذينَ كفَرُوا هَلْ يُجزَونَ إلاَّ مَا كانُوا يَعمَلونَ﴾**.

﴿ إنَّ الَّذين كذَّبُوا بآياتنا واسْتكْبرُوا عنْها لا تُفتَّحُ لهُمْ أبْوابُ السَّماء ولا يدْخُلُون الْجنَّة حتَّىٰ يلج الْجملُ في سمِّ الْخياط وكذٰلك نجْزي الْمُجْرمين (٤٠) لهُم مِّن جهنَّم مهادٌ ومن فوْقهمْ غواشٍ وكذٰلك نجْزي الظَّالمين (٤١) ﴾

٤٠- قوله: **﴿لا تُفتَّحُ لهمْ أبوابُ السماءِ﴾** قيل المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح و لا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، و رواه العوفي و علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. و قيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، و قاله السدي و غير واحد. و يؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء: أن رسول الله ﷺ ذَكَرَ قبضَ روح الفاجر، و أنه يُصعد بها إلى السماء، فيصعدون بها فلا تمر على ملأٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿لا تُفتَّحُ لهمْ أبوابُ السَّماءِ﴾** الآية، هكذا رواه و هو قطعة من حديث طويل، رواه أبو داود و النسائي و ابن ماجه.

و قد رواه الإمام أحمد بطوله عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر و لمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ و جلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، و في يده عود يَنكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال: إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال إلى الآخرة، نَزَلَ إليه ملائكةٌ من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، و حَنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله و رضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين، حتى

يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، و في ذلك الحنوط، و يخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، و أعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم و فيها أعيدهم و منها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: مَنْ ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: و ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به و صدقت، فينادي مناد من السماء: أنْ صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، و ألبسوه من الجنة، و افتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من رَوحها و طيبها، ويفسح له في قبره مد البصر، قال: و يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي و مالي، قال: و إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سُود الوجوه معهم المُسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله و غضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها، كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، و يخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمي بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيُستفتح فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿لاتُفتَّح لَهمْ أبْوابُ السماءِ و لا يَدْخلُونَ الجنَّةَ حتَّى يلجَ الجملُ في سَمِّ الخياطِ﴾** فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرض السفلى، فتُطرح روحه طرحاً، ثم قرأ **﴿و من يُشرِكْ باللهِ فكأنَّما خَرَّ من السماء فتَخطَفُه الطَّيرُ أو تَهوي بهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحيقٍ﴾** فتعاد روحه في جسده، و يأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كَذَبَ عبدي، فأفرشوه من النار، و افتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها و سمومها، و يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، و يأتيه رجلٌ قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تقم الساعة».

و قد قال ابن جريج في قوله: **﴿لَا تُفتَّحُ لهُمْ أبْوابُ السَّماءِ﴾** لا تفتح لأعمالهم و لا لأرواحهم، و هذا فيه جمع بين القولين، و الله أعلم.

و قوله تعالى: **﴿و لا يدْخلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يلِجَ الْجمَلُ في سَمِّ الخِياطِ﴾** هكذا قرأه الجمهور، و فسروه بأنه: البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، و في رواية: زوج الناقة. و قال الحسن البصري: حتى

يدخل البعير في خرق الإبرة. و كذا قال أبو العالية و الضحاك، و كذا روى علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس. و قال مجاهد و عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرؤها ﴿يلج الجُمَّل في سم الخياط﴾ بضم الجيم وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرق الإبرة. و هذا اختيار سعيد بن جبير، و في رواية: يعني قلوس السفن، وهي الحبال الغلاظ.

٤١- و قوله: ﴿لَهُم مِن جهَنَّم مِهادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظي ﴿مِهاد﴾ قال: الفرش ﴿و مِن فَوقهم غَواش﴾ قال: اللحف، و كذا قال الضحاك بن مزاحم و السدي ﴿و كذلكَ نَجزي الظَّالِمين﴾.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

٤٢- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر حال السعداء فقال ﴿وَ الذينَ آمنُوا و عَمِلُوا الصَّالحَات﴾ أي: آمنت قلوبهم، و عملوا الصالحات بجوارحهم، ضد ﴿أُولئكَ الذينَ كفرُوا بآياتِ اللهِ و استكبَرُوا عنهَا﴾ وينبه تعالى: على أن الإيمان و العمل به سهل، لأنه تعالى قال: ﴿لا نُكلِّف نَفساً إلا وُسعَها أولئكَ أصحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيهَا خَالدونَ * و نَزَعْنا مَا في صُدورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حَسَد و بغض، كما جاء في صحيح البخاري: من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار، حُبسوا على قنطرة بين الجنة و النار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا و نقوا، أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده إنَّ أحدَهم بمنزله في الجنة، أدلّ منه بمسكنه كان في الدنيا».

و قال قتادة: قال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا و عثمان و طلحة و الزبير، من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿و نَزعْنَا ما في صُدورهم مِّن غِلٍّ﴾. رواه ابن جرير. و روى عبد الرزاق عن الحسن يقول: قال علي: فينا و الله أهل بدر نزلت ﴿و نَزعْنَا ما في صُدورهم مِّن غِلٍّ﴾[1].

و روى النسائي و ابن مردويه و اللفظ له: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أهلِ الجنة يَرَى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً و كل أهل النار يَرَى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة».

و لهذا لما أُورثوا مقاعد أهل النار من الجنة، نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة، فدخلتم الجنة و تبوّأتم منازلكم بحسب أعمالكم. و إنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين: عنه ﷺ أنه قال: «و اعلموا أنَّ أحدكم لن يُدخله عملُه الجنة» قالوا: و لا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أنْ يتغمدني الله برحمةٍ منه و فضل».

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ

---

(١) الأثران رجالهما ثقات، لكن في سماع قتادة و الحسن عن علي رضي الله عنه نظر، و الله أعلم.

حَقًّا قَالُوا نعم فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُم أَن لَّعْنَةُ اللَّه عَلَى الظَّالمين ﴿٤٤﴾ الَّذين يَصُدُّونَ عن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَة كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

٤٤ - يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة به أهل النار، على وجه التقريع و التوبيخ، إذا استقروا في منازلهم، ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و «قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، كما أخبر تعالى في سورة الصافات، عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ❁ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ ❁ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ❁ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ❁ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: يُنكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، و يقرعه بما صار إليه من العذاب و النكال، و كذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ❁ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ❁ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

و كذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، و يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة ـ و سمّى رؤوسهم ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» و قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيَّفوا! فقال: «و الذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»[(١)].

و قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم، و نادى مناد ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم.

٤٥ - ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله و شرعه، و ما جاءت به الأنبياء، و يبغون أن يكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: و هم بلقاء الله في الدار الآخرة ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه و لا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول و العمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه و لا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً و أعمالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

٤٦ - لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبّه أن بين الجنة و النار حجاباً، و هو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: و هو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ و هو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ثم روى بإسناده: عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ هو: السور، و هو الأعراف، و قال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة و النار، سور له باب، قال ابن جرير: و الأعراف جمع

(١) الحديث في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما.

عُرْف ، و كل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرفاً ، و إنما قيل لعرف الديك عُرفاً : لارتفاعه (ثم روى) عن عبد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : الأعراف هو الشيء المشرف . و في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأعراف : تَلٌّ بين الجنة و النار ، حُبس عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة و النار ، و في رواية عنه : هو سور بين الجنة والنار ، وكذا قال الضحاك و غير واحد من علماء التفسير ، و قال السدي : إنما سمى الأعراف أعرافاً ، لأن أصحابه يعرفون الناس .

و اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف : من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو : أنهم قومٌ استوت حسناتهم و سيئاتهم ، نصَّ عليه حذيفة و ابن عباس و ابن مسعود ، و غير واحد من السلف والخلف رحمهم الله .

و روى ابن جرير : عن حذيفة أنه سُئل عن أصحاب الأعراف؟ فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، و خلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال : فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

و قوله تعالى : ﴿يعرفونَ كلاً بسيماهم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : يَعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، و أهل النار بسواد الوجوه . و كذا روى الضحاك عنه ، و قال العوفي عن ابن عباس : أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة و النار ، و ليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، و يتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم في ذلك يُحيُّون أهل الجنة بالسلام ، لم يدخلوها و هم يطمعون أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله . و كذا قال مجاهد و الضحاك و السدي و الحسن و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . و قال معمر عن الحسن أنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يدخُلوهَا و هُمْ يَطمَعُونَ﴾ قال : و الله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم ، إلا لكرامة يريدها بهم . و قال قتادة : قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع .

٤٧- و قوله : ﴿و إذا صُرِفتْ أبْصارُهمْ تِلقاءَ أصْحابِ النَّارِ قَالُوا ربَّنا لاَ تَجعلنَا مَعَ القومِ الظَّالِمينَ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار ، و عرفوهم ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . و قال السدي : و إذا مروا بهم ـ يعني بأصحاب الأعراف ـ بزمرة يُذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . و قال عكرمة : تحدد وجوههم للنار ، فإذا رأوا أصحاب الجنة ، ذهب ذلك عنهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿و إذا صُرِفتْ أبصارُهمْ تلقاءَ أصحابِ النارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة ، و أعينهم مزرقة ﴿قالُوا ربَّنا لاَ تجعلْنا مَع القَومِ الظَّالِمينَ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٨- يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف ، لرجال من صناديد المشركين و قادتهم ، يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿مَا أغنَى عنكمْ جَمعُكمْ﴾ أي : كثرتكم ﴿وَ ما كُنتمْ تَستكبرونَ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم و لا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب و النكال .

٤٩ - ﴿أَهؤلاءِ الذينَ أقْسمتمْ لا ينالهم الله برحمةٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿ادخلُوا الجنَّةَ لاَ خوفٌ عليكمْ و لاَ أنتمْ تحزنونَ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾

٥٠ - يخبر تعالى عن ذلة أهل النار، و سؤالهم أهل الجنة من شرابهم و طعامهم، و أنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي ﴿أوْ ممَّا رزقَكمُ اللهُ﴾ يعني: الطعام. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، و عن سعيد بن جبير في هذه الآية، قال: يُنادي الرجل أباه أو أخاه، فيقول له: قد احترقت فأفض علي من الماء، فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: ﴿إنَّ اللهَ حرَّمهمَا علَى الكافِرينَ﴾ و قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ﴿إنَّ اللهَ حرَّمهمَا علَى الكافِرينَ﴾ يعني: طعام الجنة و شرابها.

٥١ - ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا، باتخاذهم الدين لهواً و لعباً، و اغترارهم بالدنيا وزينتها و زخرفها، عما أُمروا به من العمل للآخرة، و قوله ﴿فاليومَ ننساهمْ كمَا نسُوا لِقاءَ يومِهمْ هذَا﴾ أي: يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء، و لا ينساه، كما قال تعالى ﴿في كتابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَ لاَ يَنسَى﴾ و إنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كقوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ و قال: ﴿كذلكَ أتتكَ آياتُنا فَنَسِيتَهَا وَكذَلِكَ الْيَومَ تُنسَى﴾ و قال تعالى ﴿و قيلَ الْيومَ نَنسَاكمْ كمَا نَسيتُمْ لقاءَ يَومِكمْ هَذَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا، و قال مجاهد: نتركهم في النار، و قال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، و في الصحيحين: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أُزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أُسخر لك الخيل و الإبل و أذرك تَرأس و تَربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننتَ أنك مُلاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[1].

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) ﴾

٥٢ - يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين، بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، و أنه كتاب مفصل مبين، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحكمتْ آياتُه ثمَّ فُصِّلتْ﴾ الآية، و قوله: ﴿فصلناه على علم﴾ للعالمين، أي: على علم منا بما فصلناه به، كقوله: ﴿أنزلَهُ بعلْمِهِ﴾ قال ابن جرير: و هذه الآية مردودة على قوله: ﴿كتابٌ أُنزلَ إليكَ فَلا يكُن فِي صَدْرِكَ حَرجٌ مِنهُ﴾ الآية، ﴿و لقَدْ جِئنَاهمْ بِكتابٍ﴾ الآية، و هذا الذي قاله فيه نظر! فإنه قد طال الفصل، و لا دليل عليه، و إنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، كقوله: ﴿و ما كنا معذِّبينَ حتَّى نَبعَثَ رَسولاً﴾ و لهذا قال: ﴿هَل يَنظرُونَ إلاَّ تأويلَه﴾ أي: ما وُعدوا به من العذاب و النكال، و الجنة و النار، قاله

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مجاهد و غير واحد. وقال مالك: ثوابه. و قال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمرٌ، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

و قوله: ﴿يَومَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي: يوم القيامة. قاله ابن عباس ﴿يَقُولُ الذينَ نَسوهُ مِن قَبلُ﴾ أي: تركوا العمل به، و تناسوه في الدار الدنيا ﴿قَدْ جاءتْ رسلُ رَبِّنا بِالحَقِّ فَهلْ لنا مِن شُفَعَاءَ فيَشفَعُوا لنا﴾ أي: في خلاصنا مما صرنا إليه، و مما نحن فيه ﴿أو نُردُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنعمَلُ غَيرَ الذي كنَّا نَعمَلُ﴾ كقوله: ﴿وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيتَنَا نُرَدُّ وَ لاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا و نَكونَ مِنَ المُؤمِنِينَ * بَلْ بَدا لهمْ مَا كَانُوا يُخفُونَ مِن قَبلُ و لَو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهوا عَنهُ و إِنَّهم لَكاذِبونَ﴾ كما قال ههنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهمْ و ضَلَّ عَنهمْ مَا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار، و خلودهم فيها ﴿و ضَلَّ عَنهمْ مَا كَانُوا يَفترُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا يشفعون فيهم، و لا ينصرونهم، و لا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾

٥٤- يخبر تعالى أنه خالق العالم، سمواته و أرضه، و ما بين ذلك، في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، و الستة أيام هي: الأحد و الاثنين و الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة، و فيه اجتمع الخلق كله، و فيه خلق آدمﷺ. و اختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، و الإمام أحمد بن حنبل، و يروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس. فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، و منه سمى السبت، و هو: القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: أخذ رسول اللهﷺ بيدي، فقال: «خَلَقَ اللهُ التربةَ يوم السبت، و خلق الجبال فيها يوم الأحد، و خلق الشجر فيها يوم الاثنين، و خلق المكروه يوم الثلاثاء، و خلق النور يوم الأربعاء، و بَثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم في صحيحه و النسائي من غير وجه. و فيه استيعاب الأيام السبعة، و الله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ و لهذا تكلم البخاري و غير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، و الله أعلم[1].

و أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ استَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، و إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك و الأوزاعي و الثوري و الليث بن سعد والشافعي و أحمد و إسحاق بن راهويه، و غيرهم من أئمة المسلمين قديماً و حديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف و لا تشبيه، ولا تعطيل، و الظاهر المتبادر إلى أذهان المُشبِّهينَ منفي عن الله، فإن الله

---

(١) الحديث صحيح لا مطعن فيه، و لا يخالف القرآن، لأن الحديث يبين كيفية الخلق على الأرض وحدها، و نص القرآن في خلق السماوات و الأرض و مابينهما. و راجع تعليق العلامة الألباني على المشكاة (٥٧٣٤) و الصحيحة (١٨٣٣).

لايُشبهه شيء من خلقه ، و ليس كمثله شيء ﴿وَهوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي ـ شيخ البخاري ـ قال : مَنْ شبَّهَ الله بخلقه كَفَرَ، و مَن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه و لا رسوله تشبيه .

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ، و نفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى .

و قوله تعالى : ﴿يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثيثاً﴾ أي : يذهبُ ظلام هذا بضياء هذا ، و ضياء هذا بظلام هذا ، و كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، أي : سريعاً لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، و عكسه ، كقوله : ﴿و آيةٌ اللَّيلِ نَسلَخُ مِنهُ النَّهارَ فإذا هُم مُّظلِمُونَ ❁ و الشَّمسُ تَجري لِمُستقرٍّ لَها ذلكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ ❁ والقمرَ قدَّرناهُ مَنازِلَ حتَّى عادَ كالعُرجونِ القَديمِ ❁ لا الشَّمسُ يَنبَغِي لَهَا أن تُدرِكَ القَمرَ و لاَ اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ﴾ فقوله : ﴿و لا اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ﴾ أي : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ، و لهذا قال : ﴿يطلبُهُ حَثِيثاً و الشَّمسَ و القَمرَ و النُّجومَ مُسَخَّراتٍ بأمرِهِ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع ، و كلاهما قريب المعنى ، أي : الجميع تحت قهره و تسخيره و مشيئته ، و لهذا قال منبهاً ﴿ألا لَه الخلق و الأمر﴾ أي : له الملك و التصرف ﴿تباركَ اللهُ ربُّ العالَمينَ﴾ كقوله : ﴿تباركَ الذِي جعَلَ في السَّماءِ بُروجاً﴾ الآية .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾

٥٥- أرشد تبارك و تعالى عباده إلى دعائه ، الذي هو صلاحهم في دنياهم و أخراهم ، فقال : ﴿ادعُوا رَبَّكم تَضرُّعاً و خُفْيةً﴾ قيل : معناه تذللاً و استكانة ، كقوله : ﴿و اذْكُر ربَّكَ في نفسِكَ﴾ الآية ، وفي الصحيحين : عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : «أيها الناس اربْعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ و لا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب» الحديث ، وقال عطاء الخراساني [1] عن ابن عباس في قوله : ﴿تَضرُّعاً و خُفْيَةً﴾ قال : السر . و قال : ابن جرير : ﴿تَضرُّعاً﴾ تذللاً واستكانة لطاعته ، ﴿و خُفيَةً﴾ يقول : بخشوع قلوبكم ، و صحة اليقين بوحدانيته و ربوبيته ، فيما بينكم و بينه ، لا جهاراً و لا مراءاةً . و عن الحسن قال : إنْ كان الرجلُ لقد جمع القرآن و ما يشعر به الناس ، و إنْ كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير و ما يشعر به الناس ، و إن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ، و عنده الزوار و ما يشعرون به ، و لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عملٍ يقدرون أن يعملوه في السر ، فيكون علانيته أبداً ، لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، و ما يُسْمع لهم صوتٌ ، إن كان إلا همساً بينهم و بين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ادعُوا رَبَّكمْ تَضرُّعاً و خُفْيَةً﴾ و ذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً ، رضي فعله ، فقال : ﴿إذْ نادَى ربَّه نِداءً خَفيّاً﴾ .

و قال ابن جريج : يُكْرَه رفع الصوت و النداء و الصياح في الدعاء ، و يؤمر بالتضرع و الاستكانة . ثم

---

(١) روايته عن ابن عباس مرسلة .

روى عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء، و لا في غيره، و قال أبو مجلز ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء.

و روى أحمد: عن مولى لسعد: أن سعداً سمع ابناً له يدعو و هو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها، و نحواً من هذا، و أعوذ بك من النار و سلاسلها و أغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوّذت به من شر كثير، و إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء» و في لفظ «يعتدون في الطهور و الدعاء» و قرأ هذه الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ الآية، و إنَّ بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنةَ و ما قرَّب إليها من قول أو عمل، و أعوذ بك من النار و ما قرب إليها من قول أو عمل. و رواه أبوداود.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل نحوه. و هكذا رواه ابن ماجه و أبو داود، و هو إسناد حسن لا بأس به، و الله أعلم.

٥٦- و قوله تعالى: ﴿و لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، و ما أضره بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك، و أمر بعبادته و دعائه و التضرع إليه، والتذلل لديه، فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، و طمعا فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره، و يتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿و رحمتِي وسِعتْ كُلَّ شيءٍ فَسأكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية. و قال: قريب، و لم يقل: قريبة، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال قريب من المحسنين. و قال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾

٥٧- لما ذكر تعالى أنه خالق السموات و الأرض، و أنه المتصرف الحاكم المدبّر المسخر، و أرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر، نبه تعالى على أنه الرزاق، و أنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿و هُوَ الَّذِي يُرسِلُ الرِّيَاحَ نشراً﴾ أي: منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، و منهم من قرأ ﴿بُشراً﴾، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ و قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رحْمتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿و هوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِن بَعدِ ما قَنَطُوا و يَنشُرُ رحمَتَهُ و هوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ و قال: ﴿فانظُرْ إِلَى آثَارِ رحمةِ اللهِ كيفَ يُحيي الأرضَ بَعدَ مَوتِها إنَّ ذلكَ لَمُحيِي الْمَوتَى و هُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ و قوله: ﴿حتَّى إذَا أقلَّتْ سحاباً ثِقالاً﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة.

و قوله: ﴿سقناهُ لبلدٍ ميّتٍ﴾ أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: ﴿وَآيةٌ لَهُمُ الأرضُ المَيْتَةُ أحييْنَاهَا﴾ الآية، و لهذا قال: ﴿فأخرجنا به مِن كُلِّ الثَّمراتِ كذلكَ نُخرِجُ المَوتَى﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، يُنزل الله سبحانه و تعالى ماءً من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب في الأرض، و هذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، و لهذا قال: ﴿لعلَّكمْ تَذكَّرونَ﴾.

و قوله: ﴿و البَلدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَباتُهُ بإذنِ رَبِّهِ﴾ أي: و الأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كقوله: ﴿وأنبتَها نباتاً حَسناً﴾. ﴿و الذي خَبُثَ لا يَخرجُ إلاَّ نَكِداً﴾ قال مجاهد و غيره: كالسِّباخ و نحوها. و قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن و الكافر.

و روى البخاري: عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيّةٌ قَبلتْ الماء، فأنبتت الكلأ و العشب الكثير، و كانت منها أجادب أمسكتِ الماءَ، فنفع اللهُ بها الناسَ، فشربوا و سقوا و زرعوا، و أصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً و لا تنبت كلأً، فذلك مثل مَنْ فَقُهَ في دين الله، و نفعه ما بعثني الله به، فعلمَ و علَّم، ومثل مَنْ لم يَرفع بذلك رأساً، و لم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به» رواه مسلم و النسائي.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾

٥٩ـ لمّا ذكر الله تعالى قصة آدم في أول السورة، و ما يتعلق بذلك و ما يتصل به، و فرغ منه، شَرَعَ تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام، فإنه أولُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، و قد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس و غير واحد من علماء التفسير: و كان أول ما عُبِدتْ الأصنام، أو قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، و صَوَّروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم و عبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان، جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين: وَدّاً و سواعاً و يغوثَ و يعوقَ و نسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى ـ و له الحمد و المنَّة ـ رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يا قوم اعبُدُوا اللهَ مَالكُم مِن إلهٍ غيرُهُ إنّي أخافُ عليكمْ عذابَ يوم عظيم﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله و أنتم مشركون به.

٦٠ ـ ﴿قالَ الملأُ مِن قومِهِ﴾ أي: الجمهور و السادة و القادة و الكبراء منهم ﴿إنَّا لَنراكَ في ضلالٍ مُبينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام، التي وجدنا آباءنا عليها، و هكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة، كقوله: ﴿و إذا رأوهمْ قالُوا إنَّ هؤلاءِ لضالُّونَ﴾، ﴿و قال الذينَ كفرُوا للذينَ آمنُوا لَو كانَ خيراً ما سبقُونا إليهِ و إذْ لمْ يهتدُوا بهِ فسيَقُولونَ هذا إفكٌ قديمٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٦١ – ﴿قالَ يا قومِ ليسَ بي ضلالةٌ و لكنّي رسولٌ ربِّ العالَمين﴾ أي: ما أنا ضال، و لكن أنا رسول من رب العالمين، رب كل شيء و مليكه.

٦٢ – ﴿أبلِّغُكمْ رسالاتِ ربِّي و أنصحُ لكمْ و أعلمُ من اللهِ ما لا تعلمونَ﴾ و هذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً، ناصحاً عالماً بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ـ و هم أوفر ما كانوا و أكثر جمعاً ـ «أيها الناس، إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهدُ أنك قد بلَّغتَ و أديتَ و نصحتَ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء و ينكسها عليهم، و يقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد».

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾

٦٣ – يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أوعجبتمْ﴾ الآية، أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب، أن يُوحي الله إلى رجل منكم، رحمةً بكم و لطفاً و إحساناً إليكم، لينذركم و لتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به ﴿لعلَّكمْ تُرحَمونَ﴾.

٦٤ – قال الله تعالى: ﴿فكذَّبُوهُ﴾ أي: تمادوا على تكذيبه و مخالفته، و ما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه في موضع آخر ﴿فأنجيناهُ و الذينَ معهُ في الفُلْكِ﴾ أي: السفينة، كما قال: ﴿فأنجيناهُ و أصحابَ السَّفينةِ﴾. ﴿و أغرقْنا الذينَ كذَّبوا بآياتِنا﴾ كما قال ﴿ممَّا خطيئاتِهم أغرِقُوا فأُدخِلُوا ناراً فلمْ يجِدوا لهمْ من دونِ اللهِ أنصاراً﴾. و قوله: ﴿إنهمْ كانوا قوماً عَمِينَ﴾ أي: عن الحق لا يبصرونه و لا يهتدون له، فبيَّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله و المؤمنين، و أهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: ﴿إنَّا لننصرُ رُسلَنا﴾ الآية. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا و الآخرة: أن العاقبة فيها للمتقين، و الظفر و الغلب لهم، كما أهلكَ قوم نوح بالغرق، و نجّى نوحاً و أصحابه المؤمنين. و قال مالك عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل و الجبل. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوماً، إلا والأرض ملأى بهم، و ليس بقعة من الأرض، إلا و لها مالك و حائز.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

٦٥ – يقول تعالى: و كما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، و هم أولاد عاد بن إرم، الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى: ﴿ألم ترَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بعادٍ ﴿ إرمَ

ذات العماد* التي لم يُخلقْ مِثلُها في البلادِ﴾ و ذلك لشدة بأسهم و قوتهم، كما قال تعالى: **﴿فأمّا عادٌ فاستكبرُوا في الأرضِ بغيرِ الحقِّ و قالُوا مَنْ أشدُّ منّا قوّةً أولمْ يروْا أنّ اللهَ الذي خلقهمْ هو أشدُّ منهمْ قوّةً و كانُوا بآياتنا يجحدُونَ﴾** و قد كانت مساكنهم باليمين بالأحقاف، وهي حبال الرمل[1]. هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمين فإن هوداً عليه السلام دفن هناك، و قد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، و لكن كان قومه كما شُدِّد خَلْقهم شدد على قلوبهم، و كانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، و إلى طاعته و تقواه.

٦٦ـ **﴿قالَ الملأُ الذينَ كفرُوا من قومِهِ﴾** و الملأ هم الجمهور و السادة و القادة منهم **﴿إنّا لنراكَ في سفاهةٍ و إنا لنظنُّكَ من الكاذبينَ﴾** أي: في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام، و الإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: **﴿أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً﴾** الآية.

٦٧ـ **﴿قالَ يا قومِ لَيْسَ بي سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّي رسولٌ من ربِّ العالَمينَ﴾** أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله، الذي خَلقَ كل شيء، فهو رب كل شيء و مليكه.

٦٨ـ **﴿أبلِّغكمْ رِسَالاتِ ربِّي و أنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أمينٌ﴾** و هذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ والنصح والأمانة.

٦٩ـ **﴿أوَعَجِبْتُمْ أن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَبِّكم عَلَى رَجُلٍ منكمْ لِيُنذِرَكمْ﴾** أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم، لينذركم أيام الله و لقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم **﴿و اذكرُوا إذ جعلَكمْ خُلفاءَ مِن بعدِ قوْمِ نوحٍ﴾** أي: و اذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلكَ الله أهل الأرض بدعوته، لمَّا خالفوه وكذبوه **﴿و زَادَكُمْ في الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾** أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت **﴿وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ﴾**. **﴿وَ اذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾** أي: نعمته و منته عليكم **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** و الآلاء جمع ألىً، و قيل: إلىً[2].

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾

٧٠ـ يخبر تعالى عن تمردهم و طغيانهم و عنادهم، و إنكارهم على هود عليه السلام **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾** الآية، كقول الكفار من قريش **﴿و إذ قالُوا اللهمَّ إنْ كانَ هذَا هوالحقَّ مِن عِندِكَ فأمطِرْ علينَا حِجارةً مِّنَ السماءِ أو ائتنَا بعذابٍ أليمٍ﴾** و قد ذكر محمد بن إسحاق و غيره، أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صداً، وآخر يقال له: صموداً، و آخر يقال له: الهنا، و لهذا قال هود عليه السلام **﴿قدْ وقعَ عليكم مِن ربِّكمْ رِجسٌ وغَضبٌ﴾** أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، قيل: هو مقلوب من: رجز، و عن ابن عباس معناه: سخطٌ و غضب **﴿أتُجادِلونني في أسماءٍ سمَّيتُموهَا أنتمْ و آباؤُكمْ﴾** أي: أتحاجوني في هذه

(١) حبال بالحاء جمع حبل، و هو الرمل المستطيل. (القاموس).

(٢) انظر ضبطها في تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٧).

الأصنام التي سميتموها أنتم و آباؤكم آلهة، وهي لا تضر و لا تنفع، و لا جعل الله لكم على عبادتها حجة و لا دليلاً، و لهذا قال: ﴿ما نزّلَ اللهُ بها من سُلطانٍ فانتظِروا إنّي معكم مِن المُنتظِرينَ﴾ و هذا تهديد و وعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله:

٧١- ﴿فأنجيناهُ و الذينَ معهُ برحمةٍ منّا و قطعنا دابرَ الذينَ كذّبوا بآياتنا و ما كانُوا مؤمنينَ﴾ و قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذرمن شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿و أمّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ* سخّرها عليهمْ سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّام حُسوماً فترى القومَ فيها صَرعَى كأنهمْ أعجازُ نخلٍ خَاوية* فهلْ ترى لهمْ من بَاقيةٍ﴾ لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه، حتى تبينه من جثته، و لهذا قال: ﴿كأنّهمْ أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾.

و قال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عُمَان و حضرموت، و كانوامع ذلك قد فشوا في الأرض، و قهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، و كانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، و هو من أوسطهم نسباً، و أفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله، و لا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه و كذبوه، و قالوا: من أشد منا قوة، و اتبعه منهم ناس و هم يسير، يكتمون إيمانهم، فلما عتت عادٌ على الله، و كذبوا نبيه، و أكثروا في الأرض الفساد، و تجبروا و بنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أتبنونَ بكلِّ ريعٍ آيةٍ تعبثونَ* و تتخذون مصانعَ لعلكم تخلدونَ* و إذا بطشتم بطشتم جبارين* فاتّقُوا اللهَ و أطيعونِ* قالُوا يا هودُ مَا جئتَنا ببينةٍ و مَا نَحنُ بتاركي آلهتِنا عن قَولكَ و مَا نَحنُ لكَ بمُؤمنينَ* إن نَّقولُ إلاّ اعتراكَ بعضُ آلهتِنا بسوءٍ﴾ أي: بجنون ﴿قالَ إنّي أُشهدُ اللهَ و اشهدُوا أنّي بريءٌ ممّا تُشركونَ* مِن دونِهِ فكيدوني جميعاً ثم لاَ تُنظِرونِ* إنّي توكلتُ على اللهِ ربّي وربِّكم ما مِن دابّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتِها إنّ ربِّي على صراطٍ مُستقيمٍ﴾. قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين يما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: و كان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، و طلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحرمته و مكان بيته، و كان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح.

و قد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، فروى الإمام أحمد: عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مُبلّغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاصٌ بأهله، و إذا راية سوداء تخفق، و إذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً، قال: فجلست، قال: فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه، فأذن لي فدخلت و سلمت، فقال: هل بينكم و بين تميم شيء؟ قلت: نعم، و كانت لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، و ها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحَميت العجوز واستوفزت و قالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟

قال: قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: «معزى حملت حتفها» حملت هذه و لا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله و برسوله أن أكون كوافد عاد، قال لي: «و ما وافد عاد؟» ـ و هو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه ـ قلت: إن عادا قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، و لا إلى أسير فأفاديه، اللهم أسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سُود فنُودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمْدَدَا، لا تُبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدْر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق، قال: و كانت المرأة و الرجل إذا بعثوا وافداً لهم، قالوا: لاتكن كوافد عاد. و رواه الترمذي والنسائي و ابن ماجه و ابن جرير.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾

٧٣- قال علماء التفسير و النسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، و هو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، و كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز و الشام إلى وادي القرى وما حوله، و قد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم، و هو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، و نصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، و علفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، و نهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبُوا، و قال: «إنِّي أخشى أنْ يُصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

و روى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ و هو بالحِجْر: «لا تَدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا بَاكين، فإنْ لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يُصيبكم مثل ما أصابهم».

و أصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

و روى الإمام أحمد: عن أبي الزبير عن جابر قال: لمّا مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قومُ صالحٍ فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج، و تَصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، و كانت تشرب ماءهم يوماً، و يشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» فقالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال، فلما خرج من الحرم، أصابه ما أصاب قومه» و هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، و هو على شرط مسلم.

قوله تعالى: **﴿و إلى ثمودَ﴾** أي: و لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً **﴿قالَ يا قوم اعبُدوا اللهَ مالكمْ مِن إلهٍ غيرُهُ﴾** فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: **﴿و ما أرسلنَا مِن قبلكَ مِن رسولٍ إلا نوحِي إليهِ أنهُ لا إلهَ إلاَّ أنَا فاعبُدونِ﴾** و قال: **﴿و لقدْ بعثنَا في كلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدُوا اللهَ واجتنبُوا الطاغوتَ﴾**.

و قوله: **﴿قدْ جاءتكم بَينةٌ من ربِّكمْ هذِهِ ناقةُ اللهِ لكمْ آيةً﴾** أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، و كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، و اقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ـ و هي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر يقال لها: الكاتبة ـ فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمخضُ، فأخذ عليهم صالح العهودَ و المواثيق، لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، و أجابهم إلى طلبتهم، ليؤمنن به و ليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم و مواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته، و دعا الله عزوجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو، و من كان معه على أمره، و أراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، و الحباب صاحب أوثانهم . . .

و أقامت الناقة و فصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب من بئرها يوماً، و تَدَعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملئون ما شاؤا من أوعيتهم و أوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: **﴿ونبِّئهمْ أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهمْ كلُّ شِربٍ مُحتضَرٌ﴾** و قال تعالى: **﴿هذِهِ ناقةٌ لهَا شِربٌ و لكمْ شِربُ يومٍ مَعلومٍ﴾** و كانت تسرح في بعض تلك الأدوية، ترد من فج و تصدر من غيره، ليسعها، لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم و اشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام، عزموا على قتلها ليسأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن و على الصبيان. قلت: و هذا هو الظاهر لقوله تعالى: **﴿فكذَّبوهُ فعقرُوهَا فدَمدمَ عليهمْ ربُّهمْ بذنبِهمْ فسوَّاهَا﴾** و قال: **﴿و آتينَا ثمودَ النَّاقةَ مُبصِرةً فظلَموا بِهَا﴾** و قال: **﴿فعقرُوا النَّاقةَ﴾** فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، و الله أعلم.

فلما فعلوا ذلك، و فرغوا من عقر الناقة، و بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم و هم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، و قال: **﴿تمتَّعوا في داركمْ ثلاثةَ أيامٍ﴾** الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، و قالوا إنْ كان صادقاً عجلناه قبلنا، و إن كان كاذباً ألحقناه بناقته **﴿قالُوا**

تقاسمُوا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ و أهله ثم لنقولَنَّ لوليِّه ما شهدنا مَهْلِكَ أهلِهِ و إنَّا لصادِقونَ﴾ و مكرُوا مكراً و مكرنَا مكراً وهمْ لا يشعُرونَ﴾ فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهمْ﴾ الآية فلما عزموا على ذلك، و تواطؤا عليه، و جاؤا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله سبحانه و تعالى ـ وله العزة و لرسوله ـ عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، و أصبح ثمود يوم الخميس، و هو اليوم الأول من أيام النظرة و وجوههم مصفرَّة، كماوعدهم صالح عليه السلام، و أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، و هو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع، و هو يوم السبت و وجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا و قعدوا ينتظرون نقمة الله و عذابه ـ عياذاً بالله من ذلك ـ لا يدرون ماذا يُفعل بهم، و لا كيف يأتيهم العذاب، و أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء، و رجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، و زهقت النفوس في ساعة واحدة **﴿فأصبحُوا في دارهمْ جاثِمينَ﴾** أي: صرعى لا أرواح فيهم، و لم يفلت منهم أحد، لا صغير و لا كبير، و لا ذكر و لا أنثى . . .

قال علماء التفسير: و لم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح عليه السلام و من تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال، كان لما وقعت النقمة بقومه، مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحِلِّ، جاءه حَجَرٌ من السماء فقتله، و قد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك. و ذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف، الذين كانوا يسكنون الطائف.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾

٧٩- هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه و تمردهم على الله، و إبائهم عن قبول الحق، و إعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك، بعد هلاكهم تقريعاً و توبيخاً و هم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لمّا ظَهَر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب «بدر» فجعل يقول: «يا أبا جهل ابن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، و يا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلّم من أقوام قد جَيَّفوا؟ فقال: «و الذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، و لكن لا يجيبون». و في السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني و صدقني الناس و أخرجتموني و آواني الناس، و قاتلتموني و نصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم».

و هكذا صالح عليه السلام قال لقومه **﴿لقدْ أبلغتُكمْ رسالةَ ربِّي و نصحتُ لكمْ﴾** أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق، و لا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: **﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** و قد ذكر بعض المفسرين: أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة، و الله أعلم.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) ﴾

٨٠ ، ٨١- يقول تعالى ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ أو تقديره ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطاً إذ قال لقومه﴾ و لوط هو ابن هاران بن آزر ، و هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، و كان قد آمن مع إبراهيمﷺ ، و هاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم و ما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، و يأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم و المحارم و الفواحش التي اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم و لا غيرهم ، و هو إتيان الذكور دون الإناث ، و هذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده و لا تألفه ، و لا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله .

و قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً . و لهذا قال لهم لوطﷺ : ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالَمين﴾ ﴿إنكم لتأتونَ الرجالَ شهوةً من دونِ النساءِ﴾ أي : عدلتم عن النساء ، و ما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال ، و هو إسراف منكم و جهل ، لأنه وضع الشيء في غير محله ، و لهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿قالَ هؤلاءِ بناتِي إن كنتمْ فاعلينَ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قالوا لقدْ علمتَ مالَنا في بناتكَ من حقٍ و إنكَ لتعلمُ ما نريدُ﴾ أي : لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء و لا إرادة ، و إنك لتعلم مرادنا من أضيافك ، و ذكر المفسرون : أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، و كذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً .

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾

٨٢- أي : ما أجابوا لوطاً لا أن هموا بإخراجه ، و نفيه و من معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى : ﴿إنهمْ أناسٌ يتطهَّرونَ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب . و قال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال و أدبار النساء . ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾

٨٣- يقول تعالى فأنجينا لوطاً و أهله ، و لم يؤمن به أحدٌ منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى : ﴿فأخرجنَا مَن كانَ فيهَا مِن المُؤمنينَ﴾ ﴿فما وجدنَا فيها غيرَ بيتٍ من المُسلمينَ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تُمالئهم عليه ، و تعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه ، بإشارات بينها و بينهم ، و لهذا لما أُمر لوطﷺ ليسري بأهله ، أُمرَ أنْ لا يُعلمها و لا يخرجها من البلد ، و منهم من يقول : بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم ، و الأظهر أنها لم تخرج من البلد ، و لا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿إلا امرأتهُ كانتْ من الغابرينَ﴾ أي : الباقين ، و قيل : من الهالكين ، و هو تفسير باللازم .

٨٤- و قوله : ﴿و أمطرنَا عليهم مطراً﴾ مفسر بقوله : ﴿و أمطرنَا عليهَا حجارةً من سجِّيلٍ مَنضودٍ﴾ ﴿مسوَّمةً عند ربكَ و ما هيَ من الظالمينَ ببعيدٍ﴾ و لهذا قال : ﴿فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُجرمينَ﴾ أي : انظر يا محمد ، كيف كان عاقبة مَن يَجترئ على معاصي الله عز وجل ، و يكذّب رسله . و قد ذهب الإمام أبو حنيفة

رحمه الله : إلى أن اللائط يُلقى من شاهق ، و يُتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، و ذهب آخرون من العلماء : إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن ، و هو أحد قولي الشافعي رحمه الله ، و الحجة ما رواه الإمام أحمد وأبوداود و الترمذي و ابن ماجه : من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ وَجدتموه يَعمل عَملَ قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به» . و قال آخرون : هو كالزاني فإنْ كان محصناً رجم ، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة و هو القول الآخر للشافعي .

و أما إتيان النساء في الأدبار : فهو اللوطية الصغرى و هو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف ، و قد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ ، و قد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) ﴾

٨٥- قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم ، و شعيب هو ابن ميكيل بن يشجر ، قال : واسمه بالسريانية : يثرون . **(قلت)** : مدين تطلق على القبيلة ، و على المدينة ، و هي التي بقرب «مَعَان» من طريق الحجاز ، قال الله تعالى : **﴿و لما وردَ ماءَ مدينَ وجدَ عليهِ أمةً من الناسِ يَسقونَ﴾** و هم أصحاب الأيكة ، كما سنذكره إن شاء الله ، و به الثقة . **﴿قال يَا قوم اعبُدو اللهَ مالكمْ مِن إلهٍ غيرُهُ﴾** هذه دعوة الرسل كلهم ، **﴿قدْ جاءتكمْ بينةٌ من ربّكمْ﴾** ، أي : قد أقام الله الحجج و البينات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم في معاملتهم الناس ، بأن يوفوا المكيال و الميزان ، و لا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي : لا يخونوا الناس في أموالهم ، ويأخذوها على وجه البخس ، و هو نقص المكيال و الميزان خفية و تدليساً ، كما قال تعالى : **﴿ويلٌ للمُطفّفينَ ـ إلى قوله ـ لربِّ العالَمينَ﴾** و هذا تهديد شديدٌ ، ووعيد أكيد ، نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب ، الذي يقال له : خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته ، و جزالة موعظته .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾

٨٦- ينهاهم شعيب ﷺ عن قطع الطريق الحسي و المعنوي ، بقوله **﴿و لا تقعُدُوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدونَ﴾** أي : تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم . قال السدي و غيره : كانوا عشَّارين ، و عن ابن عباس و مجاهد و غير واحد **﴿و لا تقعدُوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدونَ﴾** أي : تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، و الأوّل أظهر ، لأنه قال : **﴿بكلِّ صراطٍ﴾** و هو الطريق ، وهذا الثاني هو قوله : **﴿و تصدّونَ عن سبيلِ اللهِ مَن آمنَ بهِ وتَبغُونها عِوَجاً﴾** أي : وتودّون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة **﴿و اذكرُوا إذ كنتمْ قليلاً فكثّرَكمْ﴾** أي : كنتم مستضعفين لقلتكم ، فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك **﴿و انظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدِينَ﴾** أي : من الأمم الخالية و القرون الماضية ، و ما حل بهم من العذاب و النكال ،

باجترائهم على معاصي الله، و تكذيب رسله.

٨٧- و قوله: ﴿و إنْ كانَ طائفةٌ منكمْ آمنوا بالذي أرسلتُ بهِ و طائفةٌ لمْ يؤمنُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليَّ ﴿فاصبرُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حتى يحكمَ اللهُ بيننَا﴾ و بينكم، أي: يفصل ﴿و هوَ خيرُ الحاكمينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، و الدمار على الكافرين.

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾

٨٨- هذا خبر من الله تعالى، عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً، و من معه من المؤمنين، في توعدهم إياه و من معه بالنفي عن القرية، أو الإكره على الرجوع في ملتهم، والدخول معهم فيما هم فيه، و هذا خطاب مع الرسول و المراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، و قوله: ﴿أولوْ كانوا كارهينَ﴾ يقول: أوَأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه، فإنا إنْ رجعنا إلى ملتكم، و دخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله، في جعل الشركاء معه أنداداً، و هذا تنفير منه عن اتباعهم ﴿و ما يكونُ لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاءَ اللهُ ربّنَا﴾ وهذا رد إلى الله المسبب، فإنه يعلم كل شيء، و قد أحاط بكل شيء.

٨٩- ﴿على اللهِ توكلنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها و ما نذر ﴿ربَّنَا افتحْ بيننَا وبينَ قومِنا بالحقِّ﴾ أي: احكم بيننا و بين قومنا، و انصرنا عليهم ﴿و أنتَ خيرُ الفاتحينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) ﴾

٩٠- يخبر تعالى عن شدة كفرهم و تمردهم و عتوهم، و ماهم فيه من الضلال، و ما جُبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، و لهذا أقسموا، وقالوا ﴿لَئِنِ اتَّبعتُمْ شُعَيباً إنَّكُمْ إذاً لَّخاسِرُونَ﴾.

٩١- فلهذا عقَّبه بقوله: ﴿فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً و أصحابه، و توعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال: ﴿ولَمَّا جَاءَ أمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ والمناسبة هناك ـ و الله أعلم ـ أنهم لما تهكَّموا به في قولهم ﴿أصَلاتُكَ تَأمُرُكَ﴾ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتتهم، و قال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ و ما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماءِ﴾ الآية، فأخبر

أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، و قد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ و هي سحابة أظلتهم، فيها شررٌ من نار و لهب و وهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، و رجَّة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، و فاضت النفوس، و خمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

٩٢- ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم، التي أرادوا إجلاء الرسول و صحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾

٩٣- أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام، بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب و النقمة و النكال، و قال مُقَرِّعاً لهم وموبخاً: ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أديت إليكم ما أُرسلت به، فلا آسف عليكم، و قد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾

٩٤- يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ﴾ يعني بالبأساء: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض و أسقام، و الضراء: ما يصيبهم من فقر و حاجة، و نحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون و يخشعون، و يبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. و تقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء، ليختبرهم فيه.

٩٥- ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: حوّلنا الحال من شدة إلى رخاء، و من مرض وسقم إلى صحة و عافية، و من فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا، و قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا، وكثرت أموالهم و أولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا و هذا ليتضرعوا، وينيبوا إلى الله، فما نجع فيهم لا هذا و لا هذا، و لا انتهوا بهذا و لا بهذا، و قالوا قد مسنا من البأساء و الضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان و الدهر، و إنما هو الدهر تارات و تارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، و لا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، و هذا بخلاف حال المؤمنين، الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء.

كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن لا يَقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، و إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له»[1]. فالمؤمن مَنْ يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، ولهذا جاء في الحديث «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، و المنافق مثله كمثل

(١) الحديث في مسلم فقط بنحوه، رواه في الزهد (٤/ ٢٢٩٥)، و نبه عليه الألباني رحمه الله في السلسلة (١٤٨).

الحمار، لا يدري فيم ربطه أهله، و لا فيم أرسلوه» أو كما قال[1].

و لهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة و عدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة، كما في الحديث «موتُ الفجأة رحمة للمؤمن، و أخذةُ أسف للكافر»[2].

﴿ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾

٩٦- يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى، الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فلو لا كانتْ قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانُها إلا قومَ يُونُسَ لمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا و ذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿و لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، و صدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات، وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ﴾ أي: قطر السماء و نبات الأرض، قال تعالى: ﴿و لكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: و لكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم و المحارم، ثم قال تعالى مخوفاً و محذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره.

٩٧، ٩٨- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا و نكالنا ﴿بَيَاتاً﴾ أي: ليلاً ﴿وهمْ نائمونَ * أوأمنَ أهلُ القُرَى أن يأتيهمْ بأسُنا ضُحًى و همْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في حال شغلهم و غفلتهم.

٩٩- ﴿أفأمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ أي: بأسه و نقمته و قدرته عليهم، و أخذه إياهم في حال سهوهم و غفلتهم ﴿فلاَ يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الْخَاسِرونَ﴾ و لهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات و هو مشفق وَجلٌ خائف، و الفاجر يعمل بالمعاصي و هو آمن.

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

١٠٠- قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿أولمْ يهدِ للذينَ يرثونَ الأرضَ من بعدِ أهلِها﴾ أولم يتبين لهم، أنْ

---

(١) أما أوله فهو نحو حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما يزال البلاء بالمؤمن و المؤمنة في نفسه و ولده و ماله، حتى يلقى الله و ما عليه خطيئة» رواه الترمذي (٢٥٢٣) و قال حسن صحيح، و هو كما قال. و أما الشطر الثاني «و المنافق مثله كمثل الحمار...» فقد روى أبو داود (٣٠٨٩) حديث عامر الرام مرفوعاً: «إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه، كان كفارةً لما مضى من ذنوبه، وموعظةً له فيما يستقبل، و إن المنافق إذا مرض ثم أُعفيَ كان كالبعير عَقَلَه أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لمَ عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه» وفيه أبو منظور مجهول، و ضعفه الألباني في المشكاة (١٥٧١).

(٢) ضعيف بهذا اللفظ، و قد روى أحمد (٣/ ٤٢٤) و أبو داود (٣١١٠) عن عبيد بن خالد مرفوعاً: «موت الفجأة أخذة أسف» و هو صحيح.

لو نشاء أصبناهم بذنوبهم . و كذا قال مجاهد و غيره . و قال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها : أولم يتبين للذين يستخلفون في الأرض ، من بعد إهلاك آخرين قبلهم ، كانوا أهلها فساروا سيرتهم و عملوا أعمالهم ، و عتوا على ربهم **﴿أن لو نشاءُ أصبْناهمْ بذُنوبهمْ﴾** يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم ، كما فعلنا بمن قبلهم **﴿و نطبعُ على قلوبهمْ﴾** يقول و نختم على قلوبهم **﴿فهمْ لا يسمَعونَ﴾** موعظة و لا تذكيراً .

(قلت) : و هكذا قال تعالى : **﴿أفلمْ يهدِ لهمْ كمْ أهلكناَ قبلهمْ من القرونِ يمشونَ في مساكنهمْ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ أفلا يسمعونَ﴾** و قال : **﴿أولمْ تكونُوا أقسمتُمْ مِن قَبلُ مالكمْ مِّنْ زوالٍ﴾ و سكنتمْ في مساكنِ الذينَ ظلمُوا أنفسهمْ﴾** الآية ، و قال تعالى : **﴿و كمْ أهلكنَا قبلهمْ من قرنٍ هلْ تُحسُّ منهمْ مِّنْ أحدٍ أو تسمعُ لهمْ ركزًا﴾** أي : هل ترى لهم شخصاً ، أو تسمع لهم صوتاً ، و قال تعالى : **﴿أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّنّاهمْ في الأرضِ ما لمْ نمكّن لكمْ و أرسلنَا السماءَ عليهمْ مدراراً و جعلنا الأنهارَ تجري من تحتهمْ فأهلكناهمْ بذنوبهمْ وأنشأنَا من بعدهمْ قرناً آخرينَ﴾** و قال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد **﴿فأصبحُوا لا يُرى إلاَّ مساكنهمْ كذلكَ نجزي القومَ المُجرمينَ﴾ و لقد مكّنّاهمْ فيمَا إن مكّنّاكمْ فيهِ و جعلنا لهمْ سمعاً و أبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهمْ سمعهمْ و لا أبصارهمْ و لا أفئدتهمْ من شيءٍ إذ كانوا يجحدُونَ بآياتِ اللهِ و حاقَ بهمْ ما كانوا به يستهزئونَ﴾ ولقد أهلكنا ما حولكم من القُرَى و صرّفنا الآياتِ لعلهمْ يرجعونَ﴾** و قال تعالى : **﴿وكذّبَ الذينَ من قبلهمْ و ما بلغُوا مِعشارَ ما آتيناهمْ فكذّبوا رُسلي فكيفَ كانَ نكيرِ﴾** وقال تعالى : **﴿و لقدْ كذّبَ الذينَ من قبلهمْ فكيفَ كانَ نكيرِ﴾** و قال تعالى : **﴿فكأين من قريةٍ أهلكناها و هيَ ظالمةٌ فهيَ خاويةٌ على عروشهَا وبئرٍ مُعطّلةٍ و قصرٍ مشيدٍ﴾ أفلمْ يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنها لا تعمَى الأبصارُ و لكن تعمَى القلوبُ التي في الصُّدورِ﴾** و قال تعالى : **﴿و لقد استُهزئَ برُسلٍ من قبلكَ فحاقَ بالذينَ سخرُوا منهم ما كانُوا بهِ يستهزئونَ﴾** إلى غير ذلك من الآيات ، الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، و حصول نعمه لأوليائه ، و لهذا عقب ذلك بقوله ، و هو أصدق القائلين ، و رب العالمين :

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾

١٠١ ، ١٠٢– لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبرَ قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب ، و ما كان من إهلاكه الكافرين ، و إنجائه المؤمنين ، و أنه تعالى أعذر إليهم ، بأن بيَّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالى : **﴿تلك القُرَى نقصُّ عليكَ﴾** أي : يا محمد **﴿مِنْ أنبائها﴾** أي : من أخبارها **﴿ولقد جاءتهم رسلهمْ بالبيناتِ﴾** أي : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، كما قال تعالى **﴿وَ مَا كنَّا مُعذِّبينَ حتَّى نبعثَ رسولاً﴾** و قال تعالى : **﴿ذلكَ من أنباءِ القُرَى نقُصُّهُ عليكَ منها قائمٌ و حَصيدٌ﴾ وماظلمناهمْ و لكنْ ظلموا أنفسهمْ﴾** و قوله تعالى : **﴿فما كانُوا ليؤمنوا بما كذّبوا بهِ من قبلُ﴾** الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن كقوله : **﴿و ما يُشعركمْ أنها إذا جاءتْ لا يؤمنونَ﴾ و نُقلّبُ أفئدتهمْ و أبصارهمْ كما لم يؤمنوا**

بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية، و لهذا قال هنا **﴿كذلكَ يَطْبَعُ اللهُ علَى قُلُوبِ الكافرينَ ﴾ و ما وجدنَا لأكثرهم﴾** أي: لأكثر الأمم الماضية **﴿مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾** أي: و لقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال. و العهد الذي أخذه: هو ما جبلهم عليه، و فطرهم عليه، و أخذ عليهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكهم، و أنه لا إله إلا هو و أقروا بذلك، و شهدوا على أنفسهم به و خالفوه و تركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل و لاحجة لا من عقل و لا شرع، و في الفِطَرِ السليمةِ خلاف ذلك، و جاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم: يقول الله تعالى: «إني خلقتُ عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، و حرَّمت عليهم ما أحللت لهم».

و في الصحيحين: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه و ينصرانه و يمجسانه» الحديث.

و قال تعالى في كتابه العزيز: **﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**، و قوله تعالى: **﴿وَ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾**، و قال تعالى: **﴿و لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** إلى غير ذلك من الآيات.

و قد قيل في تفسير قوله تعالى: **﴿فما كانُوا ليُؤمنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾** ما رُوي عن أُبي بن كعب في قوله: **﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبلُ﴾** قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا، لعلم الله منهم ذلك. و كذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. و قال السدي: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً، وقال مجاهد في قوله: **﴿فَمَا كَانُوا لِيؤمنوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قبل﴾** هذا كقوله: **﴿و لَوْ رُدُّوا لعادُوا﴾** الآية.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾

١٠٣- يقول تعالى: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾** أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح و هود و صالح و لوط وشعيب صلوات الله و سلامه عليهم، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين **﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾** أي: بحججنا و دلائلنا البينة إلى فرعون، و هو ملك مصر في زمن موسى **﴿وَمَلَئِهِ﴾** أي: قومه **﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾** أي: جحدوا و كفروا بها، ظلماً منهم و عناداً، كقوله تعالى: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾** أي: الذين صدوا عن سبيل الله، و كذبوا رسله، أي: انظر يا محمد كيف فعلنا بهم، و أغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى و قومه، و هذا أبلغ في النكال بفرعون و قومه، و أشفى لقلوب أولياء الله موسى و قومه من المؤمنين به.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) ﴾

١٠٤-يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، و إلجامه إياه بالحجة، و إظهاره الآيات البينات، بحضرة

فرعون و قومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿و قالَ موسى يا فرعونُ إني رسولٌ من ربِّ العالمينَ﴾ أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء و ربه و مليكه.

١٠٥- ﴿حقيقٌ علَى أن لا أقولَ على اللهِ إلا الحقَّ﴾ فقال بعضهم معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: جديرٌ بذلك و حري به، قالوا: و «الباء» و «على» يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس و على القوس، و جاء على حال حسنة و بحال حسنة، و قال بعض المفسرين معناه: و حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، و قرأ آخرون من أهل المدينة: «حقيق عليَّ» بمعنى واجب و حق علي ذلك، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق و صدق، لما أعلم من عز جلاله، و عظيم شأنه ﴿قدْ جئتكمْ بينةٍ من ربِّكمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فأرسِلْ معيَ بني إسرائيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك و قهرك، ودعهم و عبادة ربك و ربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، و هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

١٠٦- ﴿قالَ إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إنْ كنتَ من الصادقينَ﴾ أي: قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت، و لا بمعطيك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة، فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٧- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ثعبانٌ مبينٌ﴾ الحية الذكر، و كذا قال السدي والضحاك. و قال السدي: الثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل في الأرض، و الآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها و وثب و أحدث، ولم يكن يحدث قبل ذلك، و صاح: يا موسى خذها و أنا أومن بك، و أرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا، و روي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا.

١٠٨- و قوله: ﴿و نزعَ يدهُ فإذا هي بيضاءُ للناظرينَ﴾ أي: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص و لا مرض، كما قال تعالى: ﴿و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ الآية، وقال ابن عباس ـ في حديث الفتون ـ من غير سوء يعني: من غير برص، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول، و كذا قال مجاهد و غير واحد.

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) ﴾

١٠٩، ١١٠- أي: قال الملأ، و هم: الجمهور و السادة من قوم فرعون، موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه، و استقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إن هذاَ لساحرٌ عليمٌ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته، و تشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره، و كيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره، و إخماد كلمته وظهور كذبه و افترائه، و تخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى ﴿و نُريَ فرعونَ و هامانَ وجنودَهما منهمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ فلما تشاوروا في شأنه و ائتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾

١١١ ، ١١٢ – قال ابن عباس: **﴿أرجه﴾** أخّره. و قال قتادة: احبسه **﴿و أرسل﴾** أي: ابعث **﴿في المدائن﴾** أي في الأقاليم و مدائن ملكك **﴿حاشرين﴾** أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد، و يجمعهم، وقد كان السحر في زمانهم غالباً، كثيراً ظاهراً، و اعتقد من اعتقد منهم، و أوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى بهعليه السلام من قَبيل ما تُشعبذه سحرتُهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: **﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ❁ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا موعداً لا نُخلفه نحن و لا أنت مكاناً سُوى ❁ قال موعدكم يوم الزينة و أن يحشر الناس ضحى ❁ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾**، و قال تعالى ههنا:

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾

١١٣ ، ١١٤ – يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعونُ و السحرة، الذين استدعاهم لمعارضة موسىعليه السلام، إن غلبوا موسى ليثيبنَّهم و ليعطينهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومَنَّاهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾

١١٥ – هذه مبارزة من السحرة لموسىعليه السلام في قولهم **﴿إمَّا أن تُلقِيَ و إمَّا أن نكونَ نحنُ المُلقِينَ﴾** أي: قَبلك، كما قال في الآية الأخرى **﴿و إمَّا أن نكونَ أولَ مَنْ ألقَى﴾**.

١١٦ – فقال لهمعليه السلام: ألقوا، أي أنتم أولاً، قيل: الحكمة في هذا ـ و الله أعلم ـ ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من من بهرجهم و محالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي، بعد التطلب له و الانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، و كذا كان، و لهذا قال تعالى: **﴿فلمَّا ألقَوا سَحَرُوا أعيُنَ النَّاسِ واستَرْهَبُوهُمْ﴾** أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، و لم يكن إلا مجرد صنعة و خيال، كما قال تعالى: **﴿فإذا حِبالُهمْ و عِصِيُّهمْ يُخَيَّلُ إليهِ مِن سِحرِهِمْ أنَّها تَسْعَى ❁ فأوجَسَ في نفسهِ خيفةً مُوسَى ❁ قُلْنا لا تَخَفْ إنَّكَ أنتَ الأعلَى ❁ و ألقِ ما في يمينِكَ تَلقفْ ما صَنَعُوا إنَّ ما صَنَعُوا كيدُ ساحرٍ و لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حيثُ أتَى﴾**.

روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً، و خشباً طوالاً، قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. و قال محمد بن إسحاق: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله و عصيه، وخرج موسىعليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع و فرعون في مجلسه مع إشراف أهل مملكته ثم قال السحرة: **﴿يا موسى إما أن تلقي و إما أن نكون أول من ألقى ❁ قال بل ألقوا فإذا حبالهم و عصيهم﴾** فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى و بصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال و العصى، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾

١١٧-١٢٠- يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده و رسوله موسى ﷺ في ذلك الموقف العظيم، الذي فرّق الله تعالى فيه بين الحق و الباطل، يأمره بأن يلقي مافي يمينه و هي عصاه ﴿فإذا هي تلقف﴾ أي: تأكل ﴿ما يأفكون﴾ أي: ما يلقونه و يوهمون أنه حق و هو باطلٌ. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم و لا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً.

١٢١، ١٢٢- و قالوا ﴿آمنّا بربِّ العالمينَ ۞ ربِّ موسَى و هارونَ﴾ و قال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الحبال و العصى واحدة واحدة، حتى ما يُرى بالوادي قليل و لا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى و هارون، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾

١٢٣- يخبر تعالى عما توعد به فرعون ـ لعنه الله ـ السحرة لما آمنوا بموسى ﷺ، و ما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إن هذا لمكرٌ مكرتموهُ في المدينةِ لتُخرِجُوا منهَا أهْلهَا﴾ أي: إنْ غلبته لكم في يومكم هذا، إنما كان عن تشاور منكم، و رضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى ﴿إنهُ لكبيرُكم الذِي علَّمكمْ السِّحْرَ﴾ وهو يعلم و كل من له لب، أنَّ هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإنَّ موسى ﷺ بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، و أظهر المعجزات الباهرة، و الحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه و معاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو و الملأ من قومه، و أحضرهم عنده، و وعدهم بالعطاء الجزيل، و لهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، و على الظهور في مقامهم ذلك، و التقدم عند فرعون. و موسى ﷺ لا يعرف أحداً منهم و لا رآه و لا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، و إنما قال هذا تستراً و تدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتخَفَّ قوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ فإنَّ قوماً صدقوه في قوله: ﴿أنَا ربُّكم الأعْلَى﴾ من أجهل خلق الله و أضلهم. وقوله: ﴿لتُخرِجُوا منهَا أَهلهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم و هو، و تكون لكم دولة و صولة، و تخرجوا منها الأكابر والرؤساء، و تكون الدولة و التصرف لكم ﴿فسوفَ تعلَمونَ﴾ أي: ما أصنع بكم.

١٢٤- ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطِّعنَّ أيديَكمْ و أرجلَكمْ مِن خلافٍ﴾ يعني يقطع يد الرجُل اليمنى ورجله اليسرى، أو بالعكس ﴿و لأُصَلِّبنَّكمْ أجْمعينَ﴾ و قال في الآية الأخرى ﴿في جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على

الجذوع. قال ابن عباس: و كان أول من صَلَبَ و أول من قَطَعَ الأيدي و الأرجل من خلاف: فرعون.

١٢٥- و قول السحرة ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون و عذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم و ما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبر اليوم على عذابك، لنخلص من عذاب الله.

١٢٦- و لهذا قالوا: ﴿ربَّنَا أفرغْ علينَا صَبْراً﴾ أي: عمنا بالصبر على دينك، و الثبات عليه ﴿و توفَّنَا مُسلِمينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام. و قالوا لفرعون ﴿فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تقضِي هذهِ الحياةَ الدُّنيَا﴾ ﴿إنَّا آمنَّا بربِّنَا ليغفرَ لنَا خطايانَا و ما أكرَهتَنَا عليهِ مِنَ السِّحرِ و اللهُ خيرٌ و أبقَى﴾ ﴿إنَّهُ مَن يأتِ ربَّهُ مُجرماً فإنَّ لهُ جهنَّمَ لاَ يموتُ فيهَا و لاَ يحيَى﴾ ﴿و مَنْ يأتِهِ مُؤمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحاتِ فأولئكَ لهم الدرجاتُ العُلَى﴾ فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قاله ابن عباس و عبيد بن عمير و قتادة و ابن جريج.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾

١٢٧- يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون و ملأه، و ما أضمروه لموسى عليه السلام و قومه من الأذى و البغضة ﴿وقالَ الملأُ مِن قومِ فرعونَ﴾ أي: لفرعون ﴿أتذرُ مُوسَى و قومَهُ﴾ أي: أتَدَعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك، و يدعوهم إلى عبادة ربهم دونك. ياالله العجب! صار هؤلاء يُشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون و قومه هم المفسدون، و لكن لا يشعرون، و لهذا قالوا: ﴿و يذرَكَ و آلهتَكَ﴾ قال بعضهم: «الواو» هاهنا حالية، أي: أتَذَره و قومه يفسدون في الأرض و قد ترَك عبادتك؟ و قرأ ذلك أبي بن كعب «و قد تركوك أن تعبد و آلهتك» حكاه ابن جرير. و قال آخرون: هي عاطفة، أي: أتدعهم يصنعون من الفساد، ما قد أقررتم عليه و على ترك آلهتك. و قرأ بعضهم «إلاهتك» أي: عبادتك، وروي ذلك عن ابن عباس و مجاهد وغيره. و على القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده، قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر، فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله ﴿سَنُقتِّلُ أبناءَهمْ و نَستحيِي نِساءَهمْ﴾ و هذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكَّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام، حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه، وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضاً، لما أراد إذلال بني إسرائيل و قهرهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد؛ أعزّهم الله، وأذله و أرغم أنفه، و أغرقه و جنوده.

١٢٨- و لما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قالَ موسَى لقومِهِ استعينُوا باللهِ واصبرُوا﴾ ووعدهم بالعاقبة، و أن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إنَّ الأرضَ للهِ يورثُها مَن يشاءُ مِنْ عبادِهِ والعاقبةُ للمُتَّقينَ﴾ ﴿قالُوا أُوذِينَا مِن قبلِ أن تأتِيَنَا و مِن بعدِ مَا جِئتَنَا﴾ أي: قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال، من قبل ما جئت يا موسى و من بعد ذلك.

١٢٩- فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر، و ما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿عسَى ربُّكمْ أن يُهلِكَ

عدوكم﴾ الآية ، هذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم و زوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) ﴾

١٣٠ - يقول تعالى : **﴿ولقدْ أخذنَا آلَ فرعونَ﴾** أي : اختبرناهم و امتحناهم و ابتليناهم **﴿بالسِّنِينَ﴾** و هي سِني الجوع ، بسبب قلة الزروع **﴿و نقصٍ من الثمراتِ﴾** قال مجاهد : و هو دون ذلك ، و قال رجاء بن حيوة : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة **﴿لعلَّهمْ يذَّكَّرونَ﴾** .

١٣١ - **﴿فإذا جاءتْهم الحَسنةُ﴾** أي : من الخصب و الرزق **﴿قالُوا لنَا هذهِ﴾** أي : هذا لنا بما نستحقه **﴿وإنْ تُصِبْهمْ سيِّئةٌ﴾** أي : جدب و قحط **﴿يطَّيَّروا بمُوسَى و مَن معهُ﴾** هذا بسببهم و ما جاؤا به **﴿ألا إنَّما طائرُهمْ عندَ اللهِ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : **﴿ألاَ إنَّما طائرُهمْ عندَ اللهِ﴾** يقول : مصائبهم عند الله ، **﴿ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَعلمونَ﴾** و قال ابن جريج عن ابن عباس قال : **﴿ألاَ إنَّما طائرُهمْ عندَ اللهِ﴾** أي : من قِبَل الله .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) ﴾

١٣٢ - هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون ، وعتوهم و عنادهم للحق ، و إصرارهم على الباطل ، في قولهم : **﴿مهمَا تأتِنَا بهِ مِنْ آيةٍ لِتَسْحَرَنَا بهَا فمَا نحنُ لكَ بمُؤمنينَ﴾** يقولون : أي : آية جئتنا بها ، ودلالة وحجة أقمتها ، رددناها فلا نقبلها منك ، و لا نؤمن بك و لا بما جئت به ، قال الله تعالى **﴿فأرسلْنَا عليهِم الطُّوفانَ﴾** اختلفوا في معناه ، فعن ابن عباس في رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع و الثمار . وبه قال الضحاك بن مزاحم ، و عن ابن عباس في رواية أخرى : هو كثرة الموت ، و كذا قال عطاء ، و قال مجاهد : الطوفان : الماء و الطاعون على كل حال . و قال ابن عباس في رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ **﴿فطافَ عليهَا طائفٌ مِّن ربكَ و همْ نَائمونَ﴾** .

و أما الجراد : فمعروف مشهور ، و هو مأكول ، لما ثبت في الصحيحين : عن أبي يعفور قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد؟ فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ، و روى الشافعي وأحمد بن حنبل و ابن ماجه : عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «أُحلَّتْ لنا ميتتان ودمان : الحوت و الجراد ، والكبد و الطحال» . و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : في قوله تعالى : **﴿فأرْسلْنَا عليهِم الطُّوفانَ و الجَرادَ﴾** قال : كانت تأكل مسامير أبوابهم ، و تدع الخشب . و أما القمّل : فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من

الحنطة، وعنه: أنه الدبا، و هو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، و به قال مجاهد و عكرمة و قتادة. و عن الحسن و سعيد بن جبير: القمل: دواب سود صغار، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القمل البراغيث. وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر و التمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين و أرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات.

فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا و لا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك **﴿قالُوا يا مُوسَى ادعُ لَنا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤمِنَنَّ لَكَ و لَنُرسلَنَّ معكَ بَنِي إسرائيلَ﴾** فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل عليهم القمل فذكر لي أن موسى ﷺ أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت و الأطعمة و منعهم النوم و القرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت و الأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً و لا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر، و لا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً. و قال زيد بن أسلم: يعني بالدم الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾

١٣٦- يخبر تعالى أنهم لما عتوا و تمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة، واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، و هو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه و بنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه، ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، و ذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله، وتغافلهم عنها.

١٣٧- و أخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون و هم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى: **﴿و نريدُ أن نَمُنَّ علَى الذينَ استُضعفُوا في الأرضِ و نَجعلَهمْ أئمَّةً و نَجعلَهم الوارثِينَ* ونُمَكِّنَ لهمْ في الأرضِ و نُرِيَ فرعونَ و هامانَ و جنودَهمَا منهم مَا كانُوا يَحذرونَ﴾** و قال تعالى: **﴿كَم تَركُوا مِن جناتٍ وعُيونٍ* و زروعٍ و مقامٍ كريمٍ* و نَعمةٍ كانُوا فيهَا فاكِهينَ* كذلكَ و أورثناهَا قوماً آخَرينَ﴾** و عن الحسن البصري و قتادة في قوله: **﴿مشَارقَ الأرضِ و مغاربَها التِي باركنَا فِيهَا﴾** يعني: الشام، وقوله: **﴿و تمتْ كلمةُ ربكَ الحُسنَى علَى بني إسرائيلَ بما صبرُوا﴾** قال مجاهد و ابن جرير: و هي قوله تعالى:

﴿و نُريدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استُضعِفُوا في الأرضِ و نَجعلَهمْ أئمةً و نَجعلهم الوارثينَ ۞ و نُمَكِّنَ لهمْ في الأرضِ و نُريَ فرعونَ وهامانَ و جنودَهمَا منهم ما كانُوا يَحذرُونَ﴾ و قوله: ﴿و دمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه﴾ أي: وخربنا ما كان فرعون و قومه يصنعونه، من العمارات و المزارع ﴿و ما كانوا يعرشون﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿يَعرِشونَ﴾: يبنون.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ﴾

١٣٨ – يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى ﷺ، حين جاوزوا البحر، و قد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فأتَوا﴾ أي: فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، و قيل: كانوا من لخم. قال ابن جرير: و كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يا مُوسَى اجعل لنَا إلهاً كمَا لهمْ آلهةٌ قالَ إنَّكُمْ قومٌ تجهلون﴾ أي: تجهلون عظمة الله و جلاله، و ما يجب أن ينزه عنه، من الشريك و المثيل.

١٣٩ – ﴿إن هؤلاء متبّر ما هم فيه﴾ أي: هالك ﴿و باطل ما كانوا يعملون﴾ وروى الإمام أبو جعفر بن جريرفي تفسير هذه الآية من حديث أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: و كان للكفار سِدْرَة يعكفون عندها، و يُعَلِّقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، قال فمررنا بسدرةٍ خضراء عظيمة، قال فقلنا يا رسول الله: اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، فقال: «قلتم و الذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبّر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون». و رواه الإمام أحمد و لفظه: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم» أورده ابن جرير.

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾

١٤٠، ١٤١ – يُذكِّرهم موسى ﷺ نعمَ الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون و قهره، و ما كانوا فيه من الهوان و الذلة، و ما صاروا إليه من العزة و الاشتفاء من عدوهم، و النظر إليه في حال هوانه و هلاكه، وغرقه و دماره، و قد تقدم تفسيرها في البقرة.

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾

١٤٢ – يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ﷺ، و إعطائه

التوراة، و فيها أحكامهم و تفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى ﷺ و طواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين. و قد اختلف المفسرون في هذه العشر ماهي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين: هي ذو القعدة، و العشر عشرذي الحجة، قاله مجاهد و مسروق و ابن جريج، و رُوي عن ابن عباس و غيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى ﷺ، و فيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾. فلما تم الميقات، و عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كماقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ الآية، فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، و وصّاه بالإصلاح و عدم الإفساد. هذا تنبيه و تذكير، وإلا فهارون ﷺ نبي شريف، كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله و سلامه عليه، و على سائر الأنبياء.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾

١٤٣- يخبر تعالى عن موسى ﷺ أنه لما جاء لميقات الله تعالى، و حصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أنْ ينظر إليه فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ و قد أشكل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا و الآخرة، و هذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ و قوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ و قيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية و بين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام، كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ و قد تقدم ذلك في الأنعام. و في الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى ﷺ «يا موسى، إنه لا يراني حيٌّ إلا مات، و لا يابس إلا تدهده». و لهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾.

روى أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾ قال: «و وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره» قال: «فساخ الجبل» قال حميد لثابت يقول: هكذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، و يقوله أنس وأنا أكتمه؟. و هذا رواه الإمام أحمد في مسنده و الحاكم في مستدركه، حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، و رواه أبو محمد الخلال و قال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. و عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكّاً﴾ قال: تراباً ﴿وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ قال: مغشياً عليه، رواه ابن جرير. و قال قتادة: ﴿وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ قال: ميتاً. و قال سفيان الثوري: ساخ الجبل في الأرض

حتى وقع في البحر فهو يذهب معه. و قال الربيع بن أنس ﴿فلمَّا تجلّى ربُّه للجَبَل جَعلَهُ دَكّاً و خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ و ذلك أن الجبل حين كشف الغطاء و رأى النور صار مثل دك من الدكاك. و قال مجاهد في قوله: ﴿ولكِن انظُرْ إلَى الْجَبَلِ فإنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فسوفَ تَرَانِي﴾ فإنه أكبر منك و أشد خلقاً ﴿فلمَّا تَجلَّى ربُّهُ للْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، و أقبل الجبل فدك على أوله، و رأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً. وقال عكرمة «جعله دكَّاء» قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً. و قد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير.

و المعروف أن الصعق: هو الغشي ههنا، كما فسره ابن عباس و غيره، لا كما فسره قتادة بالموت، و إنْ كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَ نُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرْضِ إلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخرَى فإذا هُمْ قيامٌ ينظُرُونَ﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت، كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، و هي قوله: ﴿فلمَّا أفاقَ﴾ و الإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً و إجلالاً، أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، و قوله: ﴿تُبتُ إلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿و أنَا أوَّلُ المُؤمِنينَ﴾ قال ابن عباس و مجاهد: من بني إسرائيل، و اختاره ابن جرير. و في رواية أخرى عن ابن عباس ﴿و أنَا أوَّلُ المُؤمنينَ﴾ أنه لا يراك أحد. و كذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، و لكن يقول: أنا أوّل من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. و هذا قول حسن له اتجاه، و قد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب و عجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار، و كأنه تلقاه من الإسرائيليات، و الله أعلم.

و قوله: ﴿و خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ فيه أبو سعيد و أبو هريرة: عن النبيﷺ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبيﷺ قد لُطم وجهه، و قال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال: ادعوه، فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إني مررت باليهود فسمعته يقول: و الذي اصطفى موسى على البشر، فقلت: وعلى محمد؟! و أخذتني غضبة فلطمته، قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإنَّ الناسَ يَصعَقون يوم القيامة فأكون أولَ من يُفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جُوزي بصعقة الطور» و قد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، و مسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه.

و أما حديث أبي هريرة: فروى الإمام أحمد عنه قال: استب رجلان، رجل من المسلمين و رجل من اليهود فقال المسلم: و الذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: و الذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه فأتى اليهودي رسول اللهﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول اللهﷺ فاعترف بذلك فقال رسول اللهﷺ فذكر نحو الحديث السابق، أخرجاه في الصحيحين.

و الكلام في قولهﷺ «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله: «لاتفضلوني على الأنبياء و لا على يونس بن مَتّى» قيل: من باب التواضع، و قيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب و التعصُّب، و قيل: على وجه القول بمجرد الرأي و التشهي، والله أعلم. و قوله «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عَرَصَات القيامة، يحصل أمرٌ يصعقون منه، و الله أعلم به، و قد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك و تعالى لفصل القضاء، و تجلى للخلائق الملك الديان، كما صعق

موسى من تجلي الرب تبارك و تعالى، و لهذا قال ﷺ «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور».

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾

١٤٤ – يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته و كلامه، و لا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين و الآخرين، و لهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء و المرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، و أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء كلهم، و بعده في الشرف و الفضل إبراهيم الخليل، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﷺ، و لهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام و المناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: على ذلك و لا تطلب ما لا طاقة لك به.

١٤٥ – ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلاً لكل شيء. قيل: كانت الألواح من جوهر، و أن الله تعالى كتب له فيها مواعظ و أحكاماً، مفصلة مبينة للحلال و الحرام، و كانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾. و قيل: الألواح أُعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم، و على كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا و منع منها، و الله أعلم. و قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ رُوي عن ابن عباس قال: أُمر موسى ﷺ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. و قوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري و خرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار و التباب.

قال ابن جرير: و إنما قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد و الوعيد، لمن عصاه و خالف أمره، نقل معنى ذلك عن مجاهد و الحسن البصري. و قيل: معناه: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أي: من أهل الشام، و أعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون. و الأول أولى، و الله أعلم، لأن هذا كان بعد انفصال موسى و قومه عن بلاد مصر، و هو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، و الله أعلم.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

١٤٦ – يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحُجَج، والأدلة الدالة على عظمتي و شريعتي و أحكامي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، و يتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق، أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ

وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ و قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ و قال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. و قال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان ابن عيينة في قوله ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي، قال ابن جرير: و هذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. **(قلت)**: ليس هذا بلازم، لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد و أحد في هذا، و الله أعلم.

و قوله: ﴿و إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون* و لو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ و قوله: ﴿و إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي: و إنْ ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، و إنْ ظهر لهم طريق الهلاك و الضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مما فيها.

١٤٧- و قوله: ﴿و الذين كذبوا بآياتنا و لقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ أي: من فعل منهم ذلك و استمر عليه إلى الممات، حبط عمله. و قوله: ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إنْ خيراً فخير، و إن شراً فشر، و كما تدين تدان.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) ﴾

١٤٨- يخبر تعالى عن ضلال مَن ضَلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حُلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب، التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، و الخوار: صوت البقر، و كان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك و هو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك و أضلهم السامري﴾. و قد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً و دماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيُصوِّتُ كالبقر؟ على قولين، و الله أعلم. و يقال: إنهم لمّا صوَّت لهم العجل رقصوا حوله، و افتتنوا به و قالوا: هذا إلهكم و إله موسى فنسي، قال الله تعالى: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً و لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلاً﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، و ذهولهم عن خالق السموات و الأرض، و رب كل شيء و مليكه، أنْ عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم و لا يرشدهم إلى خير، و لكن غطَّى على أعين بصائرهم عَمَى الجهل و الضلال.

١٤٩- و قوله: ﴿و لما سقط في أيديهم﴾ أي: ندموا على ما فعلوا ﴿و رأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا و يغفر لنا﴾ و قرأ بعضهم ﴿لئن لم ترحمنا﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿ربنا﴾ منادى ﴿و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: من الهالكين. و هذا اعتراف منهم بذنبهم، و التجاء إلى الله عز وجل.

﴿ ولَمَّا رجعَ مُوسىٰ إلىٰ قومِه غضْبانَ أسفًا قال بئسما خلفتمُوني من بعْدي أعجلْتُم أمرَ ربِّكُم وألقى الألواحَ وأخذ برأسِ أخيه يجرُّه إليه قال ابن أمَّ إنَّ القومَ استضْعفُوني وكادُوا يقتلُونني فلا تُشمت بي الأعْداء ولا تجعلْني مع القوْمِ الظَّالمين (١٥٠) قال ربِّ اغفر لي ولأخي وأدخلْنا في رحْمتك وأنت أرحمُ الرَّاحمين (١٥١) ﴾

١٥١ - يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى، و هو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، و قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، و هو مقدر من الله تعالى. و قوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ و في هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة» [1]. ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، و هذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، و روى ابن جرير: عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، و قد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء و هو جدير بالرد، و كأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، و فيهم كذابون و وضاعون وأفاكون وزنادقة.

و قوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصَّر في نهيهم، قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و قال ههنا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسوقني سياقهم و تجعلني معهم، وإنما قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق و أنجع عنده، و إلا فهو شقيقه لأبيه و أمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله مُوسى، ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فُتنوا بعده فلم يُلق الألواح، فلما رآهم و عاينهم، ألقى الألواح».

﴿ إنَّ الَّذين اتَّخذُوا الْعجْل سينالُهُم غضبٌ من ربِّهم وذلَّةٌ في الْحياة الدُّنْيا وكذلك نجْزي الْمُفْترين (١٥٢) والَّذين عملُوا السَّيِّئات ثُمَّ تابُوا من بعْدها وآمنُوا إنَّ ربَّك من بعْدها لغفُورٌ رَّحيمٌ (١٥٣) ﴾

١٥٢ - أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. و أما الذلة فأعقبهم ذلك ذلة و صغاراً في الحياة الدنيا.

وقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذلَّ البدعة و مخالفة الرشاد، متصلة

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (١/ ٢٧١) و غيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إنَّ ذل البدعة على أكتافهم و إن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية ﴿و كذلك نجزي المفترين﴾ فقال: هي و الله لكل مفتر إلى يوم القيامة. و قال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

١٥٣ - ثم نبه تعالى عباده و أرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، و لهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿و الذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها و آمنوا إن ربك﴾ أي: يا محمد يا رسول التوبة، و نبي الرحمة ﴿من بعدها﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لغفور رحيم﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: أنه سُئل عن ذلك ـ يعني عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ـ فتلا هذه الآية ﴿و الذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها و آمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها، ولم ينههم عنها.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾

١٥٤ - يقول تعالى: ﴿وَ لما سكت عن موسى الغضب﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أخذ الألواح﴾ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله و غضباً له ﴿و في نسختها هدى و رحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك، و لهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى و رحمة، و أما التفصيل فذهب، و زعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، و الله أعلم بصحة هذا. و أما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة، فقد أخبر تعالى أنه لما بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هدى و رحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع، و لهذا عدّاها باللام.

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

١٥٥ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرزهم ليدعوا ربهم، و كان فيما دعوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا، و لا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل و إياي﴾ الآية، و قال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، و وعدهم موعداً ﴿وَ اختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لن نؤمن لك﴾ يا موسى ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ فإنك قد كلمته فأرناه ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ فقام موسى يبكي و يدعو الله، و يقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، و قد أهلكت

خيارهم ﴿ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ و إيَّايَ﴾.

و قال ابن عباس و قتادة و مجاهد و ابن جريج: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يُزايلوا قومهم في عبادتهم العجل، و لا نهوهم، و يتوجه هذا القول بقول موسى ﴿أتُهلِكُنا بما فعلَ السفهاءُ منّا﴾. و قوله: ﴿إنْ هيَ إلاّ فتنتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك و اختبارك و امتحانك، قاله ابن عباس و سعيد بن جبير و أبو العالية و ربيع بن أنس و غير واحد من علماء السلف و الخلف، و لا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، و إن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تُضل من تشاء و تهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، و لا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، و الحكم كله لك، لك الخلق و الأمر. و قوله: ﴿أنتَ وليُّنا فاغفرْ لنا وَ ارحَمْنا و أنتَ خيرُ الغافرينَ﴾ الغفر: هو الستر، و ترك المؤاخذة بالذنب. و الرحمة إذا قرنت مع الغفر، يُراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿و أنتَ خيرُ الغافرينَ﴾ أن لا يغفر الذنوب إلا أنت.

١٥٦ - ﴿وَ اكتُبْ لنا في هذهِ الدُّنيا حَسَنةً و في الآخرةِ﴾ هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَ اكتُبْ لنا في هذهِ الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخرةِ﴾ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة. ﴿إنّا هُدنا إليكَ﴾ أي: تبنا و رجعنا و أنبنا إليك، قاله ابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك و إبراهيم التيمي والسدي وقتادة وغير واحد، وهو كذلك لغة.

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾

١٥٦ - يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله: ﴿إنْ هيَ إلاّ فتنتُكَ﴾ الآية، قال ﴿عذابي أُصيبُ بهِ مَنْ أشاءُ ورحمتي وَسِعتْ كُلَّ شيءٍ﴾ أي: أفعل ما أشاء و أحكم ما أريد، ولي الحكمة و العدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو، و قوله تعالى: ﴿ورحمتي وَسِعتْ كُلَّ شيءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش، و من حوله أنهم يقولون: ﴿ربَّنا وَسِعتَ كُلَّ شيءٍ رحمةً و عِلماً﴾.

و روى أحمد: عن سلمان عن النبيﷺ قال: «إنَّ لله عز وجل مائةَ رحمة، فمنها رحمة يَتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، و أخَّر تسعةً و تسعينَ إلى يوم القيامة» تفرد بإخراجه مسلم.

و قوله: ﴿فسأكتُبها للَّذينَ يتَّقونَ﴾ الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي، مِنَّة مني، و إحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ربُّكمْ على نفسِهِ الرَّحمةَ﴾ و قوله: ﴿للَّذينَ يتَّقونَ﴾ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، و هم أمة محمدﷺ ﴿الذينَ يتَّقونَ﴾ أي: الشرك و العظائم من الذنوب.

قوله: ﴿و يؤتون الزكاة﴾ قيل: زكاة النفوس، و قيل: الأموال، و يحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية ﴿و الذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي: يُصدِّقون.

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

١٥٧ - ﴿الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوراةِ و الإِنجِيلِ﴾ وهذه صفة محمدﷺ في كتب الأنبياء، و بشّروا أممهم ببعثه، و أمروهم بمتابعته، و لم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم و أحبارهم. كما روى الإمام أحمد: عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول اللهﷺ فلما فرغت من بيعي، قلت: لألقينّ هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر و عمر يمشون، فبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها، يُعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان و أحسنها، فقال رسول اللهﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي و مخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا، فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك و مخرجك، و إني أشهد أن لا إله إلا الله، و أشهد أنك رسول الله، فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفنه و الصلاة عليه.

هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس.

و رى ابن جرير: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللهﷺ في التوراة، قال: أجل، و الله إنه لموصوفٌ في التوراة، كصفته في القرآن ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً و نَذِيراً﴾ و حرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ و لا غليظ، و لا صخّاب في الأسواق، و لا يجزي بالسيئة السيئة، و لكن يعفو و يصفح و لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، و يفتح به قلوباً غلفاً، و آذاناً صماً، وأعيناً عمياً. قال عطاء ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفاً، إلا أن كعباً قال: بلغته قال: قلوباً غلوفياً، و آذاناً صمومياً و أعيناً عمومياً.

و قد رواه البخاري نحوه. ويقع في كلام كثير من السلف، إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، و قد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، و الله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالمَعرُوفِ و يَنهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هذه صفة الرسولﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة و السلام، لا يأمر إلا بخير، و لا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك و أعظمه: ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿و لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن أبي حميد و أبي أسيد رضي الله عنهما: أن رسول اللهﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، و تلين له أشعارُكم و أبشارُكم، و ترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، و إذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، و تنفر منه أشعاركم و أبشاركم، و ترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» رواه الإمام أحمدرحمه الله بإسناد جيد، و لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

و روى الإمام أحمد: عن عليرضي الله عنه قال: إذا سمعتم رسول اللهﷺ حدثنا، فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنأ و الذي هو أتقى.

و قوله ﴿و يُحِلُّ لَهمُ الطَّيِّبَاتِ و يُحرِّمُ علَيهِمُ الخَبائِثَ﴾ أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم،

من البحائر و السوائب و الوصائل و الحام، و نحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، و يحرم عليهم الخبائث. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كلحم الخنزير و الربا، و ما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين، و كل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن و الدين، و قد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، و أجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له، و كذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم يُنَص على تحليلها و لا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته، و فيه كلام طويل أيضاً.

و قوله: ﴿و يَضعُ عنهُمْ إصْرَهُمْ و الأغْلالَ التي كانتْ عليهِمْ﴾ أي: أنه جاء بالتيسير و السماحة، كما ورد الحديث من طرق: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بُعِثتُ بالحنيفية السمحة». و قال ﷺ لأميريه معاذ و أبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «بشِّرا و لا تُنفِّرا، و يسِّرا ولا تُعسِّرا، وتطاوعا و لا تختلفا»[1].

و قال صاحبه أبو برزة الأسلمي إني صحبت رسول الله ﷺ و شهدت تيسيره.

و قد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسَّع الله على هذه الأمة أمورها و سهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حَدَّثت به أنفسها، مالم تَقل أو تعمل»[2]. و قال: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه»[3].

و لهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ربَّنا لاَ تُؤاخِذْنا إن نَسِينا أوْ أخْطأْنا ربَّنا و لاَ تَحمِلْ علَينَا إصْراً كمَا حَمَلْتَهُ علَى الذينَ مِن قَبلِنا ربَّنا و لاَ تَحْمِلْنَا مَالاَ طاقَةَ لَنا بِهِ واعفُ عَنَّا وَ اغفِرْ لنَا وَ ارْحَمْنَا أنتَ مَولاَنَا فَانصُرْنَا علَى القَومِ الكَافِرِينَ﴾. و ثبت في صحيح مسلم: أن الله تعالى قال بعد كل سؤالٍ من هذه: قد فعلت قد فعلت.

و قوله: ﴿فالذينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ﴾ أي: عظموه و وقروه، و قوله: ﴿و اتَّبَعُوا النُّورَ الذِي أُنزِلَ معَهُ﴾ أي: القرآن و الوحي، الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

١٥٨- يقول تعالى لنبيه و رسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و هذا خطاب للأحمر والأسود، و العربي والعجمي ﴿إنِّي رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَمِيعاً﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه و عظمته ﷺ أنه خاتم النبيين، و أنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بيني وبينكُمْ وأُوحِيَ إليَّ هذَا القُرآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَ مَن يَكفُرْ بِهِ مِنَ الأَحزَابِ فَالنَّارُ مَوعِدُهُ﴾ و قال تعالى: ﴿و قُل لِّلذينَ أُوتُوا الكِتابَ و الأُمِّيينَ ءَأَسلمتُمْ فإنْ أسلَمُوا فقَد اهتدَوْا و إن تولَّوْا فإنَّمَا عليكَ البلاَغُ﴾ و الآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة، أنه صلوات الله

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه. (٣) سبق تخريجه في الجزء الأول.

وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

روى البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية عن أبي الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً فأتبعه أبوبكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبوالدرداء و نحن عنده فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبُكم هذا فقد غَامَرَ» أي: غاضب و حاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلَّم وجلس إلى النبي ﷺ و قص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبوالدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: و الله يارسول الله لأنا كنتُ أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تَاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبتَ، وقال أبوبكر: صدقتَ» انفرد به البخاري.

و روى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أُعطيتُ الليلة خمساً ما أُعطيهن أحدٌ قبلي، أما أنا: فأُرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، و نُصرت على العدو بالرعب، و لو كان بيني و بينهم مسيرة شهر لملئ مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها، و كان مَن قبلي يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، و جُعلتْ لي الأرض مسجداً و طهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت و صليت، و كان من قبلي يُعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بِيَعهم و كنائسهم، والخامسة هي ماهي، قيل لي: سَلْ فإنَّ كل نبي قد سأل، فأخَّرتُ مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم، و لمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناد جيد قوي أيضاً، و لم يخرجوه.

و روى أيضاً: «مَنْ سَمِعَ بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يُؤمن بي لم يدخل الجنة» و هذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر. و قوله: **﴿الذِي لَهُ مُلكُ السَّموات و الأرضِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ يُحيِي ويُميتُ﴾** صفة الله تعالى، في قوله: **﴿رَسولُ الله﴾** أي: الذي أرسلني: هو خالق كل شيء و ربه و مليكه، الذي بيده الملك و الإحياء و الإماتة، وله الحكم. و قوله: **﴿فَآمِنُوا بِاللهِ و رَسولِه النَّبيِّ الأُمِّي﴾** أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه و الإيمان به **﴿النَّبيِّ الأُمِّي﴾** أي: الذي وُعدتم به، و بشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال: **﴿النَّبيِّ الأُمِّي﴾**.

و قوله: **﴿الذِي يُؤمِنُ باللهِ و كَلِماتِه﴾** أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه **﴿واتَّبِعُوهُ﴾** أي: اسلكوا طريقه، و اقتفوا أثره **﴿لعلَّكُمْ تَهتدُونَ﴾** أي: الصراط المستقيم.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) ﴾

١٥٩- يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل، إن منهم طائفة يتبعون الحق، و يعدلون به، كما قال تعالى: **﴿مِنْ أَهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ يَتلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ وهُمْ يَسجُدونَ﴾** و قال تعالى: **﴿و إن مِّنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَن يُؤمِنُ باللهِ و مَا أُنزِلَ إلَيكُمْ و مَا أُنزِلَ إليهِمْ خَاشِعينَ للهِ لاَ يَشْتَرونَ بآياتِ اللهِ ثَمَناً قليلاً أُولئكَ لَهُمْ أجرُهُمْ عِندَ ربِّهِمْ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾** و قال تعالى: **﴿الذينَ آتيناهُم الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤمِنُونَ ۞ و إذا يُتْلَى عَليهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إنَّه الحَقُّ مِن رَبِّنَا إنَّا كنَّا مِن قَبلِه مُسلِمينَ ۞ أولئكَ يُؤتَونَ أجرَهُم مَرَّتَينِ بِمَا صَبَرُوا﴾** الآية،

وقال تعالى: ﴿الذينَ آتيناهُم الكِتابَ يَتلُونَهُ حقَّ تِلاوته أولئكَ يُؤمنونَ به﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قبْلِه إذَا يُتْلَى عَليهِمْ يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً ❁ ويَقولونَ سُبحانَ ربِّنا إن كانَ وعدُ ربِّنا لَمفعولاً ❁ ويَخرُّونَ لِلأذقانِ يَبكونَ وَ يزيدُهمْ خُشوعاً﴾.

﴿ وقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾

١٦٠ - ١٦٢ - تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، و هذا السياق مكي، و نبهنا على الفرق بين هذا السياق، و ذاك بما أغنى عن إعادته هنا، و لله الحمد و المنة.

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾

١٦٣ - هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ولَقدْ عَلِمتمْ الذينَ اعتدَوا مِنكُمْ في السَّبتِ﴾ الآية، يقول تعالى لنبيه صلوات الله و سلامه عليه ﴿و اسْألْهُمْ﴾ أي: و اسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك، عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم، و اعتدائهم و احتيالهم في المخالفة، و حذّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحل بهم ما حلَّ بإخوانهم و سلفهم، وهذه القرية هي «أيلة» وهي على شاطئ بحر القزم، روي عن ابن عباس و كذا قال عن عكرمة و مجاهد و قتادة و السدي.
وقوله: ﴿إذْ يَعْدُونَ في السَّبتِ﴾ أي: يعتدون فيه، و يخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إذْ تَأتيهِمْ حِيتانُهمْ يومَ سبتِهمْ شُرَّعاً﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء، و قال العوفي عن ابن عباس: شُرَّعاً من كل مكان.

قال ابن جرير: و قوله: ﴿وَ يومَ لاَ يَسْبِتونَ لاَ تأتِيهمْ كذلكَ نَبلُوهمْ﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء، في اليوم المحرم عليهم صيده، و إخفائها عنهم، في اليوم الحلال لهم صيده و إخفائها عنهم، في اليوم الحلال لهم صيده ﴿كذلكَ نبلُوهمْ﴾ نختبرهم ﴿بِما كانُوا يَفسُقونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها، و هؤلاء قومٌ احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة، التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

و قد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَرتكبوا ما ارتكبَ اليهود، فتستحلُّوا محارمَ الله بأدنى الحيل» و هذا إسناد جيد.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴾

١٦٦ - يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، و احتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة، و فرقة نهت عن ذلك و اعتزلتهم، و فرقة سكتت فلم تفعل و لم تنه، و لكنها قالت للمُنكِرة **﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكُهمْ أوْ معذِّبُهمْ عَذاباً شَديداً﴾** أي: لم تنهون هؤلاء و قد علمتم أنهم قد هلكوا، و استحقوا العقوبة من الله، فلا فائدة في نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: **﴿مَعذِرةً إلَى رَبِّكُمْ﴾** قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة، و قرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك **﴿مَعذِرةً إلَى رَبِّكُمْ﴾** أي: فيما أخذنا علينا من الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر. **﴿و لَعلَّهمْ يَتَّقونَ﴾** يقولون: و لعل لهذا الإنكار يتقون ماهم فيه، و يتركونه و يرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم و رحمهم.

١٦٧ - قال تعالى **﴿فلمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾** أي: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة **﴿أنجَيْنَا الذينَ يَنهونَ عَنِ السُّوءِ و أَخذْنَا الذينَ ظَلمُوا﴾** أي: ارتكبوا المعصية **﴿بِعذابٍ بئِيسٍ﴾** فنصَّ على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، و سكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يَستحقون مدحاً فيمدحوا، و لا ارتكبوا عظيماً، فيذموا، و مع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين، أو من الناجين؟ على قولين.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿و إذْ قالتْ أُمَّةٌ مِنهم لِمَ تعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكهُمْ أوْ مُعذِّبُهم عَذاباً شَديداً﴾** هي قرية على شاطئ البحر بين مصر و المدينة، يقال لها: أيلة، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، و كانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً، في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إنَّ طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة و قالوا: تأخذونها وقد حرَّمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً و عتواً، و جعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النُهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم حقَّ عليهم العذاب **﴿لِمَ تعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكهُمْ﴾** وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: **﴿مَعذِرةً إلَى رَبِّكُمْ و لعلَّهمْ يتَّقونَ﴾** وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، و الذين قالوا معذرة إلى ربكم، و أهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة، و روى العوفي عن ابن عباس عنه قريباً من هذا. و قد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع و كفاية، و لله الحمد و المنة.

و **(القول الثاني)** أن الساكتين كانوا من الهالكين.

قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نَهوا، و ثلث قالوا: **﴿لِمَ تعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكهُمْ﴾** و ثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا و هلك سائرهم، و هذا إسناد جيد عن ابن عباس، و لكن رجوعه إلى قول

عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا، لأنه تبين حالهم بعد ذلك، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿وَ أَخذنَا الذينَ ظَلَمُوا بعذابٍ بئيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و﴿بئيسٍ﴾ فيه قرآآت كثيرة، و معناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية: أليم، و قال قتادة: موجع. و الكل متقارب والله أعلم، و قوله ﴿خاسِئينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) ﴾

١٦٧- ﴿تأذَّنَ﴾ تَفعَّل من الأذان، أي: أعلم، قاله مجاهد، و قال غيره: أمر، و في قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، و لهذا أتبعت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعثَنَّ عليهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إلَى يومِ القِيامَةِ مَن يسُومُهمْ سُوءَ العذابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم و مخالفتهم أوامر الله و شرعه، و احتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، و كان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين و الكشدانيين و الكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم، و أخذهم منهم الجزية و الخراج، ثم جاء الإسلام و محمد ﷺ فكانوا تحت قهره و ذمته، يؤدون الخراج و الجزية.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الجزية، و الذي يسومهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة، و كذا قال سعيد بن جبير و ابن جريج و السدي و قتادة، و روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، و ذلك آخر الزمان.

و قوله: ﴿إنَّ ربَّكَ لسَريعُ العِقابِ﴾ أي: لمن عصاه و خالف شرعه ﴿و إنَّهُ لَغفورٌ رحيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه و أناب، و هذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب و الترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾

١٦٨- يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً، أي: طوائف و فرقاً، كما قال: ﴿و قُلنَا مِن بَعدِهِ لِبَني إسرائيلَ اسْكُنُوا الأرضَ فإذا جاءَ وعدُ الآخرةِ جئنَا بكمْ لفيفاً﴾.

﴿مِنهُم الصَّالِحونَ و مِنهمْ دونَ ذلكَ﴾ أي: فيهم الصالح و غير ذلك، كقول الجن: ﴿و أنَّا منَّا

الصَّالحونَ و منَّا دونَ ذلكَ كنَّا طرائِقَ قِدَداً﴾. **﴿وبَلوناهُم﴾** أي: اختبرناهم **﴿بالْحسَناتِ و السَّيئاتِ﴾** أي: بالرخاء و الشدة، و الرغبة و الرهبة، و العافية والبلاء **﴿لعلَّهُم يَرجِعونَ﴾**.

١٦٩ - ثم قال تعالى: **﴿فَخلفَ مِن بعدِهمْ خَلفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدْنَى﴾** الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح و الطالح، خَلْفٌ آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب، وهو التوراة. و قال مجاهد: همَ النصارى. و قد يكون أعم من ذلك **﴿يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدْنَى﴾** أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، و يسوفون أنفسهم و يعدونها بالتوبة، و كلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، و لهذا قال: **﴿و إن يَأتِهمْ عَرَضٌ مِثلُهُ يَأخُذوهُ﴾** و كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه و يعترفون لله، فإنْ عَرَضَ ذلك الذنب أخذوه.

و قال مجاهد في قوله تعالى: **﴿يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدْنَى﴾** قال: لا يَشْرف لهم شيء من الدنيا، إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة **﴿وَ يقولونَ سَيُغفَرُ لَنا و إن يَأتِهمْ عَرَضٌ مِثلُهُ يَأخُذوهُ﴾** و قال قتادة في الآية: أي و الله لخلف سوء **﴿وَرِثُوا الكِتابَ﴾** بعد أنبيائهم و رسلهم أورثهم الله و عهد إليهم، و قال الله تعالى في آية أخرى: **﴿فَخلفَ مِن بعدِهمْ خلفٌ أضاعوا الصلاةَ﴾** الآية، قال: **﴿يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدْنَى ويَقولونَ سَيُغفَرُ لَنا﴾** تمنوا على الله أماني، و غرة يغترون بها **﴿و إن يَأتِهمْ عَرَضٌ مِثلُهُ يَأخُذوهُ﴾** لا يشغلهم شيء عن شيء، و لا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

و قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، و إن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا و لا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفرلي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع و جعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: و إن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: **﴿ألَمْ يُؤخَذْ عَليهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أن لاَ يقُولُوا علَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ﴾** الآية، يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم الميثاق، ليبين الحق للناس ولا يكتمونه، كقوله: **﴿و إذْ أخذَ اللهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبيِّنُنَّهُ للنّاسِ و لاَ تكتُمونَهُ فَنَبذُوهُ وراءَ ظُهورِهمْ واشتَروْا بهِ ثَمناً قَليلاً فَبِئسَ مَا يَشترُونَ﴾** الآية، و قال ابن جريج: قال ابن عباس: **﴿ألَمْ يُؤخَذْ عَليهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أن لاَ يقُولُوا علَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ﴾** قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم، التي لا يزالون يعودون فيها و لا يتوبون منها، و قوله تعالى: **﴿و الدَّارُ الآخرةُ خيرٌ للذينَ يتَّقونَ أفلاَ تعقِلُونَ﴾** يرغبهم في جزيل ثوابه، و يحذرهم من وبيل عقابه، أي: و ثوابي و ما عندي خير لمن اتقى المحارم، و ترك هوى نفسه، و أقبل على طاعة ربه **﴿أفلاَ تَعقِلُونَ﴾** يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي، عقلٌ يردعهم عمَّا هم فيه من السفه و التبذير.

١٧٠ - ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمدﷺ كماهو مكتوب فيه، فقال تعالى: **﴿وَ الذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتابِ﴾** أي: اعتصموا به، و اقتدوا بأوامره، و تركوا زواجره **﴿و أقامُوا الصَّلاةَ إنَّا لاَ نُضيعُ أجرَ المُصْلِحينَ﴾**.

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾

١٧١ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، و هو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ و روى الثوري عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، و هو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾.

و رُوي عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، و أخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، و أمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم و أبوا أنْ يُقروا بها، حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله[١].

ورُوي عن الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خَرَّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، و نظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرَقًا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفعت بها العقوبة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾

١٧٢ - يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، و أنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، و جبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ و في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة» و في رواية: «على هذه الملة، فأبواه يهودانه و ينصرانه ويمجسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، و حرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم».

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوتُ مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: «ما بالُ أقوام يتناولون الذرية» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إنَّ خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا وُلدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبينُ عنها لسانها، فأبواها يهوّدانها و ينصّرانها» قال الحسن: و لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، و قد رواه الإمام أحمد و النسائي.

و قد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، و تمييزهم إلى أصحاب اليمين و أصحاب

---

(١) وهو حديث الفتون و في سنده ضعف.

الشمال، و في بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم: روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنتَ مفتدياً به؟ قال: فيقول نعم، فيقول: قد أردتُ منكَ أهونَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه في الصحيحين.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنشرها بين يديه، ثم كلهم قُبُلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا ـ إلى قوله ـ الْمُبْطِلُونَ﴾.

و قد روى هذا الحديث النسائي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الآية، فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سُئل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون» فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار» و هكذا رواه أبو داود و النسائي و الترمذي.

(حديث آخر): روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبيصاً من نور، ثم عَرَضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم، فأعجبه وبيص مابين عينيه، قال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم يقال له داود، قال: رب و كم جعلتَ عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربٍّ، قد وهبتُ له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمرُ آدم جاءه ملك الموت قال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود، قال: فجحد آدمُ فجحدت ذريته، و نسي آدم فنسيت ذريته، و خطئ آدم فخطئت ذريته» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، و رواه الحاكم و ابن أبي حاتم.

و روي عن مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير والحسن و قتادة والسدي، و غير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، و ميّز بين أهل الجنة و أهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث ابن عباس و في حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، و من ثمَّ قال قائلون من السلف و الخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة و عياض بن حمار المجاشعي، و من رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسَّر الحسن الآية بذلك، قالوا: و لهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ

﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾ و لم يقل: من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ و لم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، و قرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿و هوَ الذِي جَعلكُمْ خَلائفَ الأرضِ﴾ و قال: ﴿و يجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقال: ﴿كمَا أنشأكم مِن ذُرِّيَّةِ قوم آخرينَ﴾.

ثم قال: ﴿و أشهدَهمْ على أنفُسهمْ ألستُ بربِّكمْ قالُوا بلَى﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً و قالاً، و الشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قالُوا شهدْنَا علَى أنفُسِنَا﴾ الآية، وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿مَا كانَ للمُشركينَ أن يَعمرُوا مَساجِدَ الله شَاهدينَ عَلَى أنفسِهِمْ بِالكُفرِ﴾ أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، و كذا قوله تعالى: ﴿و إنَّه علَى ذلكَ لَشهيدٌ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كقوله: ﴿و آتاكُم مِن كُلِّ ما سألتُمُوهُ﴾ قالوا: و مما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال، لكان كل أحد يَذكره ليكون حجة عليه.

فإن قيل: إخبار الرسولﷺ به كافٍ في وجوده. فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا و غيره، و هذا جعل حجةً مستقلةً عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد.

١٧٢ - و لهذا قال: ﴿أن تقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إنَّا كُنَّا عنْ هذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَافلينَ * أوْ تقُولُوا إنَّما أشْركَ آباؤنَا﴾ الآية.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾

١٧٥ - روى عبد الرزاق: عن عبد الله بن مسعودؓ في قوله تعالى: ﴿و اتلُ عليهمْ نبأ الذِي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ مِنهَا﴾ الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن باعوراء. و روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، و كذا قال مجاهد و عكرمة. و روى ابن جرير عن ابن عباس قال: هو بلعام، وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت.

و عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿و اتلُ عليهمْ نبأ الذِي آتيناهُ آياتنَا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت. و قد روى من غير وجه عنه، و هو صحيح إليه، و كأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يُشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، و لكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول اللهﷺ وبلغته أعلامه و آياته و معجزاته، و ظهرت لكل من له بصيرة، و مع هذا اجتمع به و لم يتبعه، و صار إلى موالاة المشركين و مناصرتهم و امتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله. و قد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه و لم يؤمن قلبه، فإن له أشعاراً ربانية، و حكماً و فصاحة، و لكنه

لم يشرح الله صدره للإسلام.

و أما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود و غيره من السلف. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين و من معه أتاه ـ يعني بلعم ـ بنو عمه و قومه، فقالوا: إنَّ موسى رجل حديد و معه جنود كثيرة، و إنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى و من معه، قال: إني إنْ دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي و آخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فانسلخَ مِنهَا فأتبَعهُ الشَّيطانُ﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿فأتبَعهُ الشَّيطانُ﴾ أي: استحوذ عليه و على أمره، فمهما أمره امتثل و أطاعه، و لهذا قال: ﴿فكانَ مِن الغَاوِينَ﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين. و قد ورد في معنى هذه الآية حديث، رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: عن حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما أخاف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رُؤيتْ بهجته عليه، و كان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه و نبذه وراء ظهره، و سعى على جاره بالسيف، و رماه بالشرك» قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»، هذا إسناده جيد.

و قوله تعالى: ﴿و لوْ شِئنَا لرَفعْناهُ بِهَا و لكِنّهُ أخلدَ إلَى الأرضِ و اتّبعَ هواهُ﴾ يقول تعالى: ﴿ولوْ شئنَا لرفَعناهُ بهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا، بالآيات التي آتيناه إياها ﴿و لكِنّهُ أخلدَ إلَى الأرضِ﴾ أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا و زهرتها، و أقبل على لذاتها و نعيمها، وغرَّته كما غرت غيره من أولي البصائر والنُّهى.

و قوله تعالى: ﴿فَمَثَلهُ كمَثَلِ الكَلبِ إنْ تحمِلْ عليهِ يلهثْ أو تَترُكهُ يَلهثْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتي حالتيه، إنْ زُجر و إنْ تُرك ظاهر، و قيل: معناه: فصار مثله في ضلاله و استمراره فيه، و عدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان، و عدم الدعاء، كالكلب في لهيثه في حالتين: إن حملت عليه، و إن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة و الدعوة إلى الإيمان، و لا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سواءٌ عليهمْ أأنذَرتَهم أمْ لمْ تُنذِرهمْ لاَ يُؤمِنونَ﴾ ﴿استغفرْ لهمْ أو لاَ تَستغفِرْ لَهمْ إن تَستغفرْ لهمْ سبعِينَ مرةً فلَن يغفِرَ اللهُ لهمْ﴾ و نحو ذلك: و قيل: معناه: أن قلب الكافر و المنافق و الضال: ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري و غيره.

و قوله تعالى: ﴿فاقْصُصِ القَصَصَ لعلّهمْ يتَفكّرونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿فَاقصُصِ القَصَصَ لَعلّهمْ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، و ما جرى له في إضلال الله إياه، و إبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه، في تعليمه الاسم الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، و إذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، و شَعْب الإيمان، أتباع عبده و رسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، و لهذا قال: ﴿لعلّهمْ يتَفكّرونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً، و ميزهم على من عداهم من الأعراب، و جعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون

أبناءهم، فهم أحق الناس و أولاهم باتباعه و مناصرته و موازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك و أمرتهم به، ولهذا مَن خالف منهم مافي كتابه، و كَتَمهُ فلم يعلم به العباد، أَحلَّ الله به ذلاً في الدنيا، موصولاً بذل الآخرة.

١٧٧- و قوله: ﴿سَاءَ مَثَلاً القومُ الذين كذَّبُوا بآياتنا﴾ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب، التي لاهمة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم و الهدى، و أقبل على شهوة نفسه، و اتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، و بئس المثل مثله. و لهذا ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العَائدُ في هبته كالكلب يعود في قيئه».

و قوله: ﴿و أنفسَهمْ كانُوا يَظلِمونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، و لكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، و طاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، و الإقبال على تحصيل اللذات، وموافقة الهوى.

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾

١٧٨- يقول تعالى: مَن هداه اللهُ فإنه لا مضل له، و من أضله فقد خاب و خسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، و مالم يشأ لم يكن، و لهذا جاء في حديث ابن مسعود «إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستهديه ونستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله» الحديث بتمامه، رواه الإمام أحمد و أهل السنن و غيرهم.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

١٧٩- يقول تعالى: ﴿و لقدْ ذرأْنَا لِجهنَّمَ﴾ أي: خلقنا و جعلنا لجهنم ﴿كثيراً مِن الجنِّ و الإنسِ﴾ أي: هيأناهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، عَلِم ماهم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب، قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قَدَّر مقادير الخلق، قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة، كان عرشُه على الماء»[1].

و في صحيح مسلم أيضاً: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعي النبي ﷺ إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء و لم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أوغير ذلك يا عائشة؟ إنَّ الله خلق الجنةَ و خلق لها أهلاً، و هم في أصلاب آبائهم، و خلق النار، و خلق لها أهلاً، و هم في أصلاب آبائهم».

وفي الصحيحين: من حديث ابن مسعود «ثم يبعث الله إليه الملك فيُؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه وأجله و عمله، و شقي أم سعيد». و تقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين أصحاب اليمين و أصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة و لا أبالي، و هؤلاء للنار و لا أبالي». و الأحاديث في هذا كثيرة، و مسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

و قوله تعالى: ﴿لهمْ قلوبٌ لاَ يفقهونَ بهَا و لهمْ أعينٌ لا يُبصرونَ بها و لهمْ آذانٌ لا يَسمعونَ بهَا﴾ يعني

(١) لفظه عند مسلم: «كتبَ الله مقادير الخلائق...» إلخ، في القدر (٤/ ٢٠٤٤).

ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: **﴿و جعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنَى عنهمْ سمعُهمْ و لا أبصارُهمْ و لا أفئدتُهمْ من شيءٍ إذْ كانُوا يَجْحدونَ بآياتِ اللهِ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿صُمٌّ بكمٌ عُميٌ فهُمْ لاَ يَرجعونَ﴾** هذا في حق المنافقين، و قال في حق الكافرين **﴿صُمٌّ بكمٌ عُميٌ فهمْ لاَ يعقِلونَ﴾** و لم يكونوا صماً و لا بكماً و لا عمياً، إلا عن الهدى، كما قال تعالى: **﴿و لَوْ عَلِمَ اللهُ فيهمْ خيراً لأَسمعَهمْ وَ لوْ أسْمعَهُمْ لَتولَّوْا وَهمْ مُعرِضُونَ﴾** و قال: **﴿فإنَّها لاَ تَعمَى الأبصارُ و لكنْ تَعمَى القُلوبُ التِي فِي الصُّدورِ﴾** و قال: **﴿و مَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شَيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ﴾ و ﴿إنَّهمْ لَيَصدُّونَهم عنِ السَّبيلِ و يَحْسَبونَ أنَّهمْ مُهتدُونَ﴾**.

و قوله تعالى: **﴿أولئكَ كالأنعامِ﴾** أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق و لا يعرفونه، و لا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة، التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتها من ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: **﴿ومثَلُ الذينَ كفرُوا كَمثَلِ الذِي يَنعِقُ بمَالاَ يَسمَعُ إلاَّ دعَاءً و نداءً﴾** أي: و مثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان: كمثل الأنعام إذا دعا راعيها، لا تسمع إلا صوته، و لا تفقه ما يقول، و لهذا قال في هؤلاء **﴿بَلْ همْ أضلُّ﴾** أي: من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها[1]، و إنْ لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خُلقت له، إما بطبعها و إما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويُوحده، فكفر بالله و أشرك به.

و لهذا مَنْ أطاع الله من البشر، كان أشرف من مثله من الملائكة في مَعاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، و لهذا قال تعالى: **﴿أولئكَ كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئكَ هُمُ الغَافِلونَ﴾**.

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾

١٨٠ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تسعاً و تسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنة، و هو وترٌ يحب الوتر» أخرجاه في الصحيحين، و أخرجه الترمذي في جامعه مثله و زاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام . . . .» الحديث. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، و قد روى من غير وجه عن أبي هريرة، و لا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. و رواه ابن حبان في صحيحه، و رواه ابن ماجه مرفوعاً، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة و نقصان، والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ: أنَّ سرد الأسماء في هذا الحديث مدرجٌ فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم و عبد الله بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد، أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم، أنهم قالوا: ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، و الله أعلم.

ثم ليُعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة و تسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط همٌ و لا حزن، فقال: اللهم إني عبدُك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أنْ تجعلَ القرآن

(١) هو قول الراعي لها: بس بس (مثلثة الباء).

العظيم ربيع قلبي ، و نور صدري ، و جلاء حزني ، و ذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه و همه و أبدل مكانه فرحاً» فقيل : يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال : «بلى ، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» و قد أخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان البستي في صحيحه بمثله .

و ذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوذي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب و السنة ، من أسماء الله ألف اسم ، فالله أعلم .

و قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَ ذَرُوا الذينَ يُلحِدونَ في أسمَائِهِ﴾ قال : إلحاد الملحدين أنْ دعوا اللات في أسماء الله ، و قال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَ ذَرُوا الذينَ يُلحِدونَ في أسمَائِهِ﴾ قال : اشتقوا اللات من الله ، و العُزى من العزيز ؛ و قال قتادة : يلحدون يشركون في أسمائه . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الإلحاد التكذيب ، وأصل الإلحاد في كلام العرب : العدول عن القصد ، و الميل و الجور والانحراف ، و منه اللحد في القبر ، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾

١٨١ - يقول تعالى : ﴿و مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي : بعض الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق قولاً و عملاً ﴿يَهدونَ بِالْحَقِ﴾ يقولونه و يدعون إليه ﴿و به يَعدِلونَ﴾ يعملون و يقضون ، و قد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية ، هي : هذه الأمة المحمدية ، و في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول اللهﷺ : «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ و لا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة» و في رواية «حتى يأتي أمرُ اللهِ و هم على ذلك» و في رواية «وهم بالشام» .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾

١٨٢ ، ١٨٣ - يقول تعالى : ﴿و الذينَ كذّبُوا بآياتِنَا سَنَستدرِجهمْ مِنْ حيثُ لاَ يعلَمونَ﴾ و معناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ، و وجوه المعاش في الدنيا ، حتى يغتروا بما هم فيه ، و يعتقدون أنهم على شيء ، كما قال تعالى : ﴿فلمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتحنَا عليهمْ أبْوابَ كلِّ شيءٍ حتّى إذَا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أخَذناهُمْ بَغتةً فَإذا هُم مُبلِسونَ ۝ فَقُطِعَ دابِرُ القَومِ الذينَ ظَلَمُوا وَ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾ و لهذا قال تعالى : ﴿و أُملِي لهم﴾ أي : وسأملي لهم ، أي : أطوّل لهم ما هم فيه ﴿إنَّ كيدِي مَتينٌ﴾ أي : قوي شديد .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) ﴾

١٨٤ - يقول تعالى : ﴿أوَلَمْ يَتفكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداًﷺ ﴿مِن جِنَّةٍ﴾ أي : ليس به جنون ، بل هو رسول الله حقاً ، دعا إلى حق ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي : ظاهر لمن كان لبٌ و قلب يعقل به ، و يعي به ، كما قال تعالى : ﴿وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجنُونٍ﴾ و قال تعالى : ﴿قُلْ إنَّما أَعِظُكُم بِواحِدةٍ أن تقُومُوا للهِ مَثنَى و فُرادَى ثُمَّ تتفكَّرُوا مَا بِصاحِبِكمْ مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلاَّ نَذيرٌ لَكمْ بَينَ يَدَيْ عذابٍ شَديدٍ﴾ يقول : إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ، ليس فيه تعصب و لا عناد ، مثنى و فرادى ، أي : مجتمعين ومتفرقين ، ثم تتفكروا في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله ، أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك ،

بان لكم و ظهر أنه رسول الله حقاً و صدقاً.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾

١٨٥ - يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا، في ملك الله و سلطانه في السموات و الأرض، و فيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، و يعتبروا به، و يعلموا أن ذلك لمن لا نظير له و لا شبيه، و من فعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة و الدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، و يصدقوا رسوله، و ينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد و الأوثان، و يحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، و يصيروا إلى عذاب الله، وأليم عقابه.

و قوله: ﴿فبأيّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويفٍ و تحذير و ترهيب، بعد تحذير محمدﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله، في آي كتابه يصدقون، إنْ لم يصدقوا بهذا الحديث، الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟

ثم قال تعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾

١٨٦ - يقول تعالى: من كُتب عليه الضلالة، فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿و مَن يُردِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَملِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيئاً﴾ و كما قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمواتِ والأرضِ و مَا تُغنِي الآياتُ و النُّذُرُ عَن قومٍ لاَ يُؤمِنونَ﴾.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾

١٨٧ -يقول تعالى: ﴿يَسألُونَكَ عَنِ السَّاعةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسألُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعةِ﴾ قيل: نزلت في قريش، و قيل: في نفر من اليهود، الأول أشبه، لأن الآية مكية، و كانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، و تكذيباً بوجودها، كماقال تعالى: ﴿و يقولُونَ مَتَى هذَا الْوَعدُ إنْ كُنتمْ صادِقينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَستعجِلُ بِها الذينَ لاَ يؤمِنونَ بها والذينَ آمنُوا مُشفِقونَ مِنها و يَعلمونَ أنَّها الْحقُ ألاَ إنَّ الذينَ يُمارونَ في السَّاعةِ لَفي ضَلالٍ بعيدٍ﴾ و قوله: ﴿أيَّانَ مُرسَاها﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: منتهاها، أي: متى محطها، و أيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿قُلْ إنَّما عِلمُها عندَ ربِّي لاَ يُجَلِّيها لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ﴾ أمرَ تعالى رسولهﷺ إذا سُئل عن وقت الساعة، أنْ يَرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي ﴿يُجَلِّيها لِوَقْتِها﴾ أي: يعلم جلية أمرها، و متى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، و لهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ في السَّمواتِ وَ الأرضِ﴾.

روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّموات و الأرضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات و الأرض، أنهم لا يعلمون. و قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات و الأرض، يقول: كبرت عليهم، و قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّموات و الأرضِ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، و قال ابن جريج: إذا جاءت: انشقت السماء، و انتثرت النجوم، وكورت الشمس، و سيرت الجبال، و كان ما قال الله عزوجل، فذلك ثقلها. و اختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثَقُل علمُ وقتها على أهل السموات و الأرض، كما قال قتادة، و هو كما قالاه، كقوله: ﴿لا تأتيكمْ إلاّ بَغتةً﴾ ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات و الأرض، و الله أعلم.

و روى البخاري: عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت و رآها الناس، آمنوا أجمعون، فذلك حين لا يَنفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، و لتقومنَّ الساعة و قد نَشَر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه و لا يطويانه، و لتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحته فلا يَطعمه، و لتقومنَّ الساعة و هو يَليط حوضه فلا يَسقي فيه، ولتقومنَّ الساعة و الرجل قد رَفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» ورواه مسلم (مختصراً).

و قوله: ﴿يَسألُونكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال العوفي عن ابن عباس: كأن بينك و بينهم مودة، كأنك صديق لهم. و قال قتادة: قالت قريش لمحمدﷺ إن بيننا و بينك قرابة، فأسرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يَسألُونكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنهَا﴾ و كذا رُوي عن مجاهد وعكرمة و أبي مالك و السدي، و هذا قول، و الصحيح عن مجاهد من رواية ابن نجيح و غيره ﴿يَسألُونكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنهَا﴾ قال: استَحْفَيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، و كذا قال الضحاك عن ابن عباس ﴿يَسألُونكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنهَا﴾ يقول كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إنَّما عِلمُها عِندَ اللهِ﴾ و كذا قال معمر وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم و قرأ: ﴿إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلمُ السَّاعةِ﴾ الآية، وهذا القول أرجح في المقام الأول، والله أعلم، و لهذا قال: ﴿قُلْ إنَّما عِلمُها عِندَ اللهِ وَ لكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمونَ﴾.

و لهذا لما جاء جبريلعليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول اللهﷺ مجلس السائل المسترشد و سألهﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول اللهﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك، و لا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبيﷺ ﴿إنَّ اللهَ عِندَهُ عِلمُ السَّاعةِ﴾ الآية، و في رواية: فسأله عن أشراط الساعة، فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله» و قرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول بعد كل جواب: صدقت، و لهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله و يصدقه، ثم لما انصرف قال رسول اللهﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

و لما سأله ذلك الأعرابي و ناداه بصوت جهوري، فقال: يا محمد، قال له رسول اللهﷺ: «هاؤم» على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول اللهﷺ: «ويحك إن الساعة آتيةٌ فما أعددتَ لها» قال: ما أعددتُ لها كبير صلاة و لا صيام، و لكني أحب الله و رسوله، فقال له رسول اللهﷺ: «المرءُ معَ مَنْ أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. و هذا له طرق متعددة في الصحيحين و غيرهما، عن

جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» و هي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين. ففيه أنه ﷺ كان إذاسئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ماهو الأهم في حقهم، و هو الاستعداد لوقوع ذلك، و التهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

و لهذا روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسانٍ منهم، فيقول: «إنْ يَعشْ هذا لم يُدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم» يعني بذلك موتهم، الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. و عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة! و إنما علمها عند الله، و أُقسم بالله، ما على ظهر الأرض اليوم، من نفسٍ منفوسة تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم. و في الصحيحين عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: و إنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن.

وروى الإمام أحمد: عن حذيفة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي عز وجل، لا يجليها لوقتها إلا هو، و لكن سأخبركم بمشاريطها، و ما يكون بين يديها، إنَّ بين يديها فتنةً و هرجاً» قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال بلسان الحبشة «القتل»، قال: «ويُلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحداً» لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

و عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾** الآية. و رواه النسائي، و هذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبي الأمي سيد الرسل و خاتمهم محمد صلوات الله عليه و سلامه، نبي الرحمة، و نبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب، و المقفى، و الحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح: من حديث أنس و سهل بن سعد رضي الله عنهما: «بُعثتُ أنا و الساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه السبابة و التي تليها، و مع هذا كله، قد أمره الله أنْ يردَّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: **﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**.

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾

١٨٨ - أمره الله تعالى أن يفوِّض الأمور إليه، و أن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، و لا اطلاع له على شيء من ذلك، إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾** الآية، وقوله: **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾** روى عبد الرزاق: عن مجاهد قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعلمتُ عملاً صالحاً. و كذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد، و قال مثله ابن جريج، وفيه نظر! لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمةً [1]، و في رواية: كان إذا عَمل عملاً أثبته، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله عزوجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أنْ يُرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.

---

(١) أي: دائماً.

و الأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعلمُ الْغَيبَ لاسْتكثَرتُ مِنَ الْخَيرِ﴾** أي: من المال، و في رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، و لا يصيبني الفقر، وقال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك: لو كنتُ أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، و لوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم **﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** قال: لاجتنبت ما يكون من الشر، قبل أن يكون واتقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير و بشير، أي: نذير من العذاب، و بشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: **﴿فَإِنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلسانِكَ لِتُبشِّرَ بِه الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِه قَوماً لُدّاً﴾**.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) ﴾

١٨٩ – ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، و أنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: **﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾** و قال تعالى: **﴿يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُمْ مِن نَفسٍ واحِدةٍ وَخَلقَ مِنهَا زَوجَها﴾** الآية، و قال في هذه الآية الكريمة: **﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾** أي: ليألفها و يسكن بها، كقوله تعالى: **﴿وَمِنْ آياتِه أَنْ خلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِليهَا وَجعَلَ بَينَكُمْ مَودَّةً وَرَحْمَةً﴾** فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، و لهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصَّل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه. **﴿فلمَّا تَغشَّاها﴾** أي: وطئها حملت حملاً خفيفاً، و ذلك أو ل الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة. و قوله: **﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾** قال مجاهد: استمرت بحمله، و روي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، و قال قتادة **﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾**: استبان حملها، و قال ابن جرير: معناه استمرت بالماء، قامت به وقعدت **﴿فلمَّا أثقلَتْ﴾** أي: صارت ذات ثقل بحملها، و قال السدي: كبر الولد في بطنها **﴿دَعَوُا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتيتَنا صَالِحاً﴾** أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. و كذلك قال أبوالبختري و أبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً. و قال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً **﴿لَنَكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جَعلاً لَهُ شُرَكاءَ فِيمَا آتاهُمَا فَتَعالَى اللهُ عمَّا يُشركونَ﴾** يذكر المفسرون ههنا آثاراً و أحاديث، سأوردها و أبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

و روى الإمام أحمد: عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لايعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، و كان ذلك من وحي الشيطان و أمره» و هكذا رواه ابن جرير و الترمذي و الحاكم و ابن أبي حاتم و ابن مردويه. و هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه[1].

و روى ابن جرير: عن الحسن: عَنِي بها ذرية آدم من أشرك منهم بعده، يعني **﴿جَعلاً لَهُ شُرَكاءَ فِيمَا**

(١) انظر تفصيلها في الأصل إن شئت.

آتاهُمَا﴾ . وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود و النصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا و نصّروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، و هو من أحسن التفاسير، و أولى ما حملت عليه الآية، و لو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه، هو ولا غيره، و لا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه و غيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار: فروّي عن ابن عباس قال: كانت حوّاء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله، و يسميهم عبد الله وعبيد الله و نحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** ـ إلى قوله ـ **جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾** إلى آخر الآية.

و قد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة، و من الطبقة الثانية قتادة و السدي و غير واحد من السلف و جماعة من الخلف، و من المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، و كأنه ـ و الله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم.

و هذه الآثار يظهر عليها ـ و الله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب، و قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم و لا تكذبوهم» ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، و منها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، و منها ما هو مسكوتٌ عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» و هو الذي لا يُصدَّق ولا يكذَّب لقوله: «فلا تصدّقوهم و لا تكذّبوهم» و هذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث، فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث.

و أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، و أنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، و إنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، و لهذا قال الله: **﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: **﴿و لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾** الآية، و معلوم أن المصابيح و هي النجوم التي زينت بها السماء، ليست هي التي يرمي بها، و إنما هذا استطراد من شخص المصابيح، إلى جنسها، و لهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ

أَرجلٌ يمشُونَ بها أم لَهُم أيدٍ يبطشُونَ بها أم لهم أعينٌ يبصرونَ بها أم لهم آذانٌ يسمعونَ بها قُلِ ادعُوا شُركَاءكُم ثُمَّ كيدُونِ فلا تنظرُونِ (١٩٥) إنَّ وليِّيَ اللَّهُ الَّذي نزَّلَ الكتابَ وهُوَ يتولَّى الصَّالحينَ (١٩٦) والَّذينَ تدعُونَ من دُونه لا يستطيعُونَ نصرَكُم ولا أنفُسَهُم ينصرُونَ (١٩٧) وإن تدعُوهُم إلى الهُدى لا يسمعُوا وتراهُم ينظرُونَ إليكَ وهُم لا يُبصرُونَ (١٩٨) ﴾

١٩١ – هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد و الأصنام و الأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، و لا تضر و لا تنفع، و لا تبصر و لا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك، ولا تسمع و لا تبصر، و عابدوها أكمل منها بسمعهم و بصرهم و بطشهم، و لهذا قال: ﴿أيُشركونَ مالاَ يَخلُقُ شيئاً وَ هُمْ يُخلَقُونَ﴾ أي: أتشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً، و لا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لهُ إنَّ الذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخلُقُوا ذُباباً ولَو اجتَمَعُوا لهُ وَ إنْ يَسلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لاَ يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ و المَطلُوبُ* مَا قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عزيزٌ﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم و طارت، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته و حاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ و لهذا قال تعالى: ﴿لاَ يَخلُقُ شَيئاً وَ هُمْ يُخلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل ﴿أتعبُدونَ مَا تَنحِتُونَ﴾ الآية.

١٩٢ – ثم قال تعالى: ﴿وَ لاَ يَستَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ أي: لعابديهم ﴿وَ لاَ أنفُسَهمْ يَنصُرُونَ﴾ يعني: و لا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة و السلام يكسر أصنام قومه، و يهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فراغَ عليهمْ ضَرباً باليَمينِ﴾ و قال تعالى: ﴿فجعلهمْ جُذاذاً إلاَّ كبيراً لهمْ لعلَّهمْ إليهِ يرجِعُونَ﴾، و كما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ـ و كانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها و يتلفانها، ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك، و يرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ و كان سيداً في قومه ـ صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه و يلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله و يطيبه، و يضع عنده سيفاً و يقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، و يعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، و دلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح و رأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، و قال:

تالله لو كنتَ إلهاً مُستَدن   لم تكُ و الكلبُ جميعاً في قَرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، و قتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

١٩٣ – و قوله: ﴿وَ إن تَدعوهُمْ إلَى الهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاءَ مَن دعاها، و سواء لديها من دعاها و من دحاها، كما قال إبراهيم ﴿يَا أبَتِ لِمَ تَعبدُ مالاَ يَسمعُ و لاَ يُبصِرُ وَ لاَ يُغنِي عَنكَ شَيئاً﴾.

١٩٤، ١٩٥ – ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها،

لأنها تسمع و تبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

و قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها عليّ، فلا تؤخروني طرفة عين، و اجهدوا جهدكم.

١٩٦ - ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي: الله حسبي و كافيني، و هو نصيري، وعليه متكلي و إليه ألجأ، و هو وليي في الدنيا و الآخرة، و هو ولي كل صالح بعدي، و هذا كما قال هود ﷺ لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ و كقول الخليل ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الآيات، و كقوله لأبيه و قومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١٩٧ - و قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذاك بصيغة الغيبة، و لهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

١٩٨ - و قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ الآية، و قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، و هي جماد، و لهذا عاملهم معاملة من يعقل، لأنها على صورة مصورة كالإنسان، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فعبر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، وروى عن مجاهد نحوه، و الأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، و قاله قتادة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾

١٩٩ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني خذ ما عفي لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذه، و كان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات و تفصيلها، و ما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي، و قال الضحاك عن ابن عباس ﴿خذ العفو﴾ أنفق الفضل، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿خذ العفو﴾ قال: الفضل، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خذ العفو﴾ أمره الله بالعفو و الصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، و اختار هذا القول ابن جرير، و قال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس و أعمالهم من غير تجسس، وقال هشام بن عروة عن أبيه بنحوه.

و في صحيح البخاري: عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس. و هذا أشهر الأقوال. و قال البخاري قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ العرف: المعروف، ثم روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة

فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، و كان من النفر الذين يدنيهم عمر، و كان القُرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فدخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿**خُذِ العَفوَ وَ أْمُرْ بالعُرفِ و أعرضْ عَنِ الجَاهِلِينَ**﴾ و إن هذا من الجاهلين، و الله ما جاوزها عمر حين تلا عليه، و كان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل.

انفرد بإخراجه البخاري.

و روى ابن أبي حاتم: أن سالم بن عبدالله بن عمر مَرَّ على عير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهيٌ عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجُلجُل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم، وقال: ﴿**و أعرضْ عَنِ الجَاهِلِينَ**﴾.

و قول البخاري: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير و السدي و قتادة و ابن جرير و غير واحد، حكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفاً و عارفاً و عارفةً، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: و قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، و بالإعراض عن الجاهلين، و ذلك و إن كان أمراً لنبيه ﷺ، فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم و اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله و جهل وحدانيته، و هو للمسلمين حرب.

و قال قتادة: هذه أخلاقٌ أَمَرَ الله بها نبيه ﷺ، و دلّ عليها.

و قال بعض العلماء: الناس رجلان فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، و لا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يحرجه، و إما مسيء فمره بالمعروف، فإنْ تمادى على ضلاله و استعصى عليك، و استمر في جهله، فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿**ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ السيئةَ نحنُ أعلمُ بما يَصِفونَ * وقُل رَبِّ أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشَّياطينِ * وَ أعوذُ بكَ ربِّ أن يَحضُرونِ**﴾ و قال تعالى: ﴿**وَ لا تَستَوي الحَسنةُ ولاَ السَّيئةُ ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ فإذَا الذِي بينكَ و بينهُ عداوةٌ كأنَّهُ وليٌ حَميمٌ * وَ ما يُلَقَّاهَا إلاَّ الذينَ صَبرُوا وَمَا يُلقَّاها إلاّ ذو حظٍ عَظيمٍ**﴾ أي: هذه الوصية ﴿**و إمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَيطانِ نَزغٌ فَاستعِذْ باللهِ إنَّهُ هوَ السَّميعُ العليمُ**﴾ و قال في هذه السورة الكريمة أيضاً ﴿**وَ إمَّا ينزغَنَّكَ مِن الشَّيطانِ نزغٌ فَاستعِذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عليمٌ**﴾ فهذه الآيات الثلاث، في الأعراف و المؤمنون و حم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، و لهذا قال: ﴿**فإذَا الذي بينكَ و بينهُ عداوةٌ كأنّهُ وليٌ حَميمٌ**﴾ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، و إنما يريد هلاكك و دمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك، و لأبيه من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله ﴿**و إمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ**﴾: و إما يغضبنك من الشيطان غضب، يصدك عن الإعراض عن الجاهل، و يحملك على مجازاته ﴿**فَاستعِذْ باللهِ**﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿**إنَّهُ سَميعٌ عليمٌ**﴾ سميع لجهل الجاهل عليك، و الاستعاذة به من نزغه، و لغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، ﴿**عليمٌ**﴾ بما يُذهب عنك نزغ الشيطان، و غير ذلك من أمور خلقه.

(قلت) : و قد تقدم في أول الاستعاذة : حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبيﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمرغ غضباً ، فقال رسول اللهﷺ «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل له فقال : مابي من جنون .

و أصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : **﴿وقُل لِعبادِي يَقولُوا التِي هِيَ أحسنُ إنَّ الشيطانَ ينزغُ بينَهمْ﴾** والعياذ : الالتجاء و الاستناد و الاستجارة من الشر ، و أما الملاذ ففي طلب الخير .

و قد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) ﴾

٢٠١- يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، و تركوا ما عنه زجر ، أنهم إذا مسهم أي : أصابهم طيف ، و قرأ الآخرون **﴿طائفٌ﴾** وقد جاء فيه حديث ، و هما قراءتان مشهورتان فقيل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، و منهم من فسَّر ذلك بالغضب ، و منهم من فسَّره بمس الشيطان بالصرع و نحوه ، و منهم من فسَّره بالهمِّ بالذنب ، و منهم من فسّره بإصابة الذنب ، وقوله : **﴿تذكَّروا﴾** أي : عقاب الله و جزيل ثوابه ، ووعده و وعيده ، فتابوا و أنابوا واستعاذوا بالله ، و رجعوا إليه من قريب **﴿فإذَا هُمْ مُبصِرُونَ﴾** أي : قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

و قد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا : حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبيﷺ و بها طيف ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يشفيني ، فقال : «إنْ شئتِ دعوتُ الله فشفاك ، و إن شئتِ فاصبري ولا حساب عليك» فقالت : بل أصبر و لا حساب علي . و رواه غير واحد من أهل السنن ، و عندهم : قالت يارسول الله ، إني أصرع و أتكشف ، فادع الله أن يشفيني ، فقال : «إنْ شئتِ دعوت الله أن يشفيك و إن شئتِ صبرت و لك الجنة» فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، و لكن ادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها فكانت لا تتكشَّف . وأخرجه الحاكم .

٢٠٢- و قوله تعالى : **﴿و إخوانُهم يَمدُّونَهم﴾** أي : و إخوان الشياطين من الإنس كقوله : **﴿إنَّ المُبذِّرينَ كـانُوا إخوانَ الشَّياطينِ﴾** و هم أتباعهم ، و المستمعون لهم القابلون لأوامرهم **﴿يَمدُّونهمْ في الغَيِّ﴾** أي : تساعدهم الشياطين على المعاصي ، و تُسهِّلها عليهم و تحسنها لهم . و قال ابن كثير : المد الزيادة ، يعني يزيدونهم في الغي ، يعني الجهل و السفه **﴿ثُمَّ لاَ يُقصِرونَ﴾** قيل : معناه : إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : **﴿و إخوانُهمْ يَمدُّونَهمْ في الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقصِرونَ﴾** الآية ، قال : لا ، الإنس يقصرون عما يعملون ، و لا الشياطين تُمسك عنهم .

و قيل : معناه . كما رواه العوفي عن ابن عباس قال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس **﴿ثُمَّ لاَ يُقصِرونَ﴾** يقول : لا يسأمون ، و كذا قال السدي و غيره : إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، و لا تسأم من إمدادهم في الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم و سجية **﴿لاَ يُقصِرونَ﴾** لا تفتر فيه و لا تبطل عنه ، كما قال تعالى : **﴿ألَمْ ترَ أنَّا أرسلْنَا الشَّياطينَ علَى الكافرينَ تؤزُّهُمْ أزّاً﴾** قال ابن عباس و غيره تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾

٢٠٣- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لو لا تلقيتها، و قال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وروى ابن جرير عن مجاهد قال: لولا اقتضيتها، قالوا تخرجها عن نفسك، و كذا قال قتادة و السدي و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و اختاره ابن جرير. و قال الضحاك ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، و معنى قوله تعالى: ﴿و إذا لم تأتهم بآية﴾ أي: معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله، حتى نراها و نؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، و إنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها، و إن منعها لم أسأله ابتداء إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم.

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، و أبين الدلالات، و أصدق الحجج و البينات، فقال: ﴿هذا بصائر من ربكم و هدى و رحمة لقوم يؤمنون﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾

٢٠٤- لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس و هدى و رحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته، إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون، في قولهم ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه﴾ الآية، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم في صحيحه: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» و كذا رواه أهل السنن. و روى ابن جرير عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان، و سلام على فلان، فجاء القرآن ﴿و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا لعلكم ترحمون﴾.

و قد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحدٌ منكم معي آنفاً»؟ قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقولُ مالي أنازع القرآن» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ[1]، و قال الترمذي: هذا حديث حسن، و صححه أبو حاتم الرازي.

و عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام و إن لم يسمعهم صوته، و لكنهم يقرؤن فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، و لا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به، سراً و لا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا لعلكم ترحمون﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء، أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام، لا الفاتحة ولا غيرها، و هو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك، و رواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من

---

(١) قوله: «فانتهى الناس عن القراءة . . . إلخ. ليس مرفوعاً في الحديث، و إنما هو مدرج من قول الزهري، بينه الخطيب و اتفق عليه البخاري في التاريخ و أبوداود و يعقوب بن سفيان و الذهلي و الخطابي، انظر التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر (١/ ٢٣١).

الأدلة المتقدمة. و قال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. و قال أبو حنيفة و أحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية و لا الجهرية، بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له»، و هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً و هو عن جابر موقوفاً، و هذا أصح و هذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع، و قد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية و الجهرية أيضاً، و الله أعلم[1].

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قوله: ﴿و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا﴾ يعني في الصلاة المفروضة، كذا رُوي عن عبد الله بن المغفل. و روى ابن جرير: عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: رأيت عبيد بن عمير و عطاء بن أبي رباح يتحدثان و القاص يقص، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إليّ ثم أقبلا على حديثهما، قال فأعدت فنظرا إلي و أقبلا علي حديثهما، قال: فأعدت الثالثة قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة ﴿و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا﴾، وكذا روى سفيان الثوري عن مجاهد في قوله: ﴿و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا﴾ قال: في الصلاة، وكذا رواه غير واحد عن مجاهد، و كذا قال سعيد بن جبير و الضحاك و إبراهيم النخعي و قتادة و الشعبي والسدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

و روى شعبة عن مجاهد في هذه الآية ﴿و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة، و كذا روى ابن جريج عن عطاء مثله، وعن سعيد بن جبير قال: الإنصات يوم الأضحى و يوم الفطر و يوم الجمعة، و فيما يجهر به الإمام من الصلاة.

و هذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة و في الخطبة، كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام و حال الخطبة. وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾

٢٠٥- يأمر تعالى بذكره أول النهار و آخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب﴾ و قد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية؛ و قال ههنا ﴿بالغدو﴾ و هو أول النهار ﴿و الآصال﴾ جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين، و أما قوله: ﴿تضرعاً و خفية﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة و رهبة، بالقول لا جهراً، و لهذا قال: ﴿و دون الجهر من القول﴾ و هكذا يُستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداءً و جهراً بليغاً.

و في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ و لا غائباً، إن الذي تدعونه سميعٌ قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

---

(١) وهذا هو الصواب الراجح في المسألة، و الله أعلم.

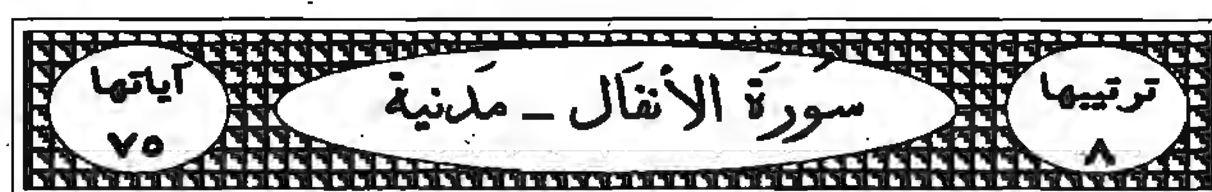
و قد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: **﴿وَ لا تَجهرْ بِصلاتِكَ و لاَ تُخافِتْ بهَا و ابْتغِ بينَ ذلكَ سَبِيلاً﴾** فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، و سبوا من أنزله، و سبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسمعهم، و ليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار؛ و كذا قال في هذه الآية الكريمة **﴿و دُونَ الجَهرِ مِنَ القولِ بِالغُدُوِّ وَ الآصالِ وَ لا تكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ﴾**.

و قد زعم ابن جرير و قبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة.

و هذا بعيدٌ مناف للإنصات المأمور به، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم، أو في الصلاة والخطبة، و معلوم أن الإنصات إذْ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قالاه لم يُتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو و الآصال، لئلا يكونوا من الغافلين.

و لهذا مدح الملائكة، الذين يسبحون الليل و النهار لا يفترون، فقال: **﴿إنَّ الذينَ عِندَ ربِّكَ لاَ يَستكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾** الآية، و إنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم و عبادتهم؛ و لهذا شرع لنا السجود ههنا، لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث «ألا تَصفُّون كما تصف الملائكة عند ربها، يُتِمُّون الصفوف الأول فالأول، و يَتراصُّون في الصف».

و هذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها و مستمعها السجود بالإجماع.



و هي مدنية . آياتها سبعون و ست آيات[١] . كلماتها ألف كلمة و ستمائة كلمة و إحدى و ثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف و مائتان و أربعة و تسعون حرفاً، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾

١ـ قال البخاري : قال ابن عباس : الأنفال المغانم (ثم روى) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال؟ قال : نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس ، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : «الأنفال» الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ، و كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء و الضحاك و قتادة و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : أنها المغانم .

و روى عبد الرزاق : عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا سئل عن شيء قال لا آمرك و لا أنهاك ، ثم قال ابن عباس : و الله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً آمراً محللاً محرماً . قال القاسم : فسلط على ابن عباس رجل ، فسأله عن الأنفال ، فقال ابن عباس : كان الرجل يُنفَّل فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسَّر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص ، من سلب أو نحوه بعد قَسم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم .

و قال ابن مسعود و مسروق : لا نفل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف . رواه ابن أبي حاتم عنهما ، وروى ابن المبارك و غير واحد عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال ، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . و هذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفَيء ، وهو ما أُخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هي أنفال السرايا . و معنى هذا : ما ينفله الإمام لبعض السرايا ، زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وقد صرح بذلك الشعبي . و اختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم . و يشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية و هو ما رواه الإمام أحمد : عن سعد بن مالك قال : قلت يا رسول الله ، قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : «إن هذا السيف لا لك ولا لي ، ضعه» قال : فوضعته ، ثم رجعت

---

(١) كذا ، و في تعداد آياتها في المصحف الذي بين أيدينا : خمس و سبعون .

فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلى بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: «كنتَ سألتني السيف، و ليس هو لي، و إنه قد وُهب لي فهو لك» قال: و أنزل الله هذه الآية ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِ و الرَّسُولِ﴾ و رواه أبو داود و الترمذي النسائي و قال الترمذي حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: عن سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبيﷺ فقلت: نَفِّلْنِيه، فقال: «ضَعْه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبيﷺ «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ الآية، و قد رواه مسلم في صحيحه.

(سبب آخر في نزول الآية)

روى أبو داود و النسائي و ابن جرير و ابن مردويه و اللفظ له و ابن حبان و الحاكم من طرق: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول اللهﷺ: «من صَنَع كذا و كذا فله كذا وكذا، فتسارع في ذلك شبان القوم، و بقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم، لو انكشفتم لفئتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾.

و قال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال الشرعية و بيان جهاتها ومصارفها: أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول اللهﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنَ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَ الرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله، من غير أن يُخَمِّسَها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى.

قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء؛ و به قال مجاهد و عكرمة و السدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: و في ذلك آثار، و الأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخُمس منها مخصوص لأهله، على ما نزل به الكتاب و جرت به السنة. و معنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه؛ فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوّهم، و إنما هو شيء خصهم الله به تطوّلاً منه عليهم، بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل؛ قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين: عن جابرﷺ: أن رسول اللهﷺ قال: «أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي ـ فذكر الحديث إلى أن قال ـ و أُحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي» و ذكر تمام الحديث: ثم قال أبو عبيد: و لهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، و هو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء، سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام، و النكاية في العدو.

و في النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع الأخرى: (فإحداهن): في النفل لاخُمس فيه، و ذلك السلب. (و الثانية): النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، و هو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس. (والثالثة): في النفل من الخمس نفسه، و هو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخُمس في يدي الإمام، نفَّل منه على قدر ما يرى. (و الرابعة): في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، و هو أن

يعطي الأدلاء و رعاة الماشية و السواق لها ، و في كل ذلك اختلاف .

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب . قال أبوعبيد : و الوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم ، و ذلك من خمس النبيﷺ فإن له خُمس الخمس من كل غنيمة ، فينبغي للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو و اشتدت شوكتهم ، و قل مَن بإزائه من المسلمين ، نَفَّل منه اتباعاً لسنة رسول اللهﷺ و إذا لم يكن ذلك لم ينفل (و الوجه الثالث) من النفل إذا بَعَث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللقاء : مَنْ غنم شيئاً فهو له بعد الخمس ، فهو لهم على ما شرط الإمام ، لأنهم على ذلك غزوا ، و به رضوا انتهى كلامه ، و فيما تقدّم من كلامه و هو قوله إن غنائم بدر لم تخمس نظر ، و يرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شَارِفَيه اللذين حصلا له من الخُمس يوم بدر ، و قد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً ، و لله الحمد و المنة .

و قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي : و اتقوا الله في أموركم ، و أصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا و لا تخاصموا و لا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى و العلم ، خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَه﴾ أي : في قسمه بينكم على ما أراد الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف . و قال ابن عباس : هذا تحريج من الله و رسوله أن يتقوا و يصلحوا ذات بينهم ، و كذا قال مجاهد ، و قال السدي ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي : لا تستبوا .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، و لا يؤمنون بشيء من آيات الله ، و لا يتوكلون و لا يصلون إذا غابوا ، و لا يؤدّون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدّوا فرائضه ﴿و إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ يقول : زادتهم تصديقاً ﴿وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول : لا يرجون غيره ، و قال مجاهد ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت ، أي : فزعت و خافت ، و كذا قال السدي و غير واحد ، و هذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه ، أي : خاف منه ، ففعل أوامره ، و ترك زواجره ، كقوله تعالى : ﴿وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ و كقوله تعالى : ﴿وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

و لهذا قال سفيان الثوري : سمعت السدي يقول في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال : هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال : يهم بمعصية ، فيقال له : اتق الله ، فيجل قلبه .

و قوله : ﴿و إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ كقوله : ﴿وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ و قد استدل البخاري و غيره من الأئمة بهذه

الآية وأشباهها: على زيادة الإيمان و تفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة، كالشافعي و أحمد بن حنبل و أبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، و لله الحمد و المنة.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، و لا يقصدون إلا إياه، و لا يلوذون إلا بجانبه؛ و لا يطلبون الحوائج إلا منه؛ و لا يرغبون إلا إليه؛ و يعلمون أنه ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن؛ و أنه المتصرف في الملك لا شريك له، و لا معقب لحكمه و هو سريع الحساب.

و لهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله: جماع الإيمان.

٣- و قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، و هذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة و هو حق الله تعالى، و قال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها و وضوئها و ركوعها و سجودها، وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها و إسباغ الطهور فيها، و تمام ركوعها و سجودها، وتلاوة القرآن فيها، و التشهد و الصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، و سائر الحقوق للعباد، من واجب ومستحب. و الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عوارى و ودائع عندك يا ابن آدم، أوشكت أن تفارقها.

٤- و قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات، هم المؤمنون حق الإيمان.

وقال عمرو بن مرة: إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، و في القوم سادة، و فلان تاجر حقاً وفي القوم تجار، و فلان شاعر حقاً، و في القوم شعراء.

و قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات و درجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، و يشكر لهم الحسنات. و قال الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق، فضله على الذي هو أسفل منه، و لا يرى الذي هو أسفل منه، أنه فُضِّل عليه أحد.

و لهذا جاء في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم، فقال: «بلى و الذي نفسي بيده، لرجال آمنوا بالله، و صدقوا المرسلين». و في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، و إن أبابكر و عمر منهم و أَنْعَمَا»[1].

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(١) و أنعما: أي زادا على المنزلة أو المرتبة. و قيل: حق لهما ذلك.

٥- قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فقال بعضهم: شُبِّهَ به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، و إصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا، و معنى هذا: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها اللهُ منكم، و جعلها إلى قسمه و قسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، و كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، و هم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، و إحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال، بأن قدَّره لكم و جمع به بينكم و بين عدوكم على غير ميعاد، رشداً و هدى، و نصراً و فتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. و قال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر و مجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعير و لم تعلمنا قتالاً فنستعد له.

(قلت): رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين، مَنْ خَفَّ منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، و طلب نحو الساحل من على طريق بدر، و علم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا، و جاء النفير فوردوا «ماء بدر» و جمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين، و نصرهم على عدوهم، و التفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

و الغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يَعده إحدى الطائفتين: إما العير و إما النفير، و رغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسبٌ بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: عن أبي أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ و نحن بالمدينة: «إني أُخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير، لعل الله أن يغنمناها؟» فقلنا: نعم، فخرج و خرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في قتال القوم إنهم قد أُخبروا بخروجكم؟» فقلنا: لا و الله، مالنا طاقة بقتال العدو، و لكنا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: و إذاً لا نقول لك يا رسول الله، كما قال قوم موسى لموسى ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قال: فتمنينا معشر الأنصار، أن لو قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن

يكون لنا مال عظيم ، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ و ذكر تمام الحديث . و رواه ابن أبي حاتم .

و قال مجاهد ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في القتال ، و قال محمد بن إسحاق أي : كراهية للقاء المشركين ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا له ، و قال السدي ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي : بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به . قال ابن جرير : و قال آخرون : عَنَى بذلك المشركين ، (ثم روى) عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركين ، جادلوه في الحق ، كأنما يساقون إلى الموت حين يُدْعون إلى الإسلام ، و هم ينظرون . قال : و ليس هذا من صفة الآخرين . هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير : و لا معنى لما قاله ، لأن الذي قبل قوله ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان ، و الذي يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس و ابن إسحاق : أنه خبر عن المؤمنين .

و هذا الذي نصره ابن جرير هو الحق ، و هو الذي يدل عليه سياق الكلام ، و الله أعلم . و روى الإمام أحمد رحمه الله : عن ابن عباس قال : قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق و هو أسير في وثاقة ـ إنه لا يصلح لك . قال : ولم؟ قال : لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين ، و قد أعطاك الله ما وعدك . إسناد جيد و لم يخرجه .

و معنى قوله تعالى : ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي : يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة و لا قتال تكون لهم ، و هي العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة و القتال ، ليظفركم بهم و ينصركم عليهم ، و يظهر دينه ، يرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالباً على الأديان ، و هو أعلم بعواقب الأمور ، و هوالذي يدبركم بحسن تدبيره ، و إن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

٩- روى الإمام أحمد : عن ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه و هم ثلثمائة و نيف ، و نظر إلى المشركين فإذا هم ألفٌ و زيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة و عليه رداؤه و إزاره ، ثم قال : «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلا تعبد في الأرض أبداً» قال : فما زال يستغيث ربه و يدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين ، فَقُتل منهم سبعون رجلاً و أسر منهم سبعون رجلاً ، و استشار رسول الله ﷺ أبابكر وعمر وعلياً ، فقال أبوبكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم و العشيرة و الإخوان ، و إني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، و عسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ :

«ماترى ياابن الخطاب؟» قال: قلت: و الله ماأرى ما رأى أبوبكر، و لكني أرى أن تمكّني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، و تمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه؛ و تمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هَوَادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم و أئمتهم و قادتهم. فهوى رسول الله ﷺ ماقال أبوبكر و لم يهو ما قلت، و أخذ منهم الفداء فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ و أبي بكر وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنتَ و صاحبكَ؟ فإنْ وجدتُ بكاء بكيت، وإنْ لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، قال النبي ﷺ: «للذي عَرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ و أنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً﴾ فأحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، و فرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، و هشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بأخذكم الفداء.

رواه مسلم وأبو داود و الترمذي و ابن جرير و ابن مردويه.

و هكذا روى علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ في دعاء النبي ﷺ و كذا قال يزيد بن يُثيع و السدي و ابن جريج. و روى البخاري في كتاب المغازي: باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد ابن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ و هو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ و لكنا نقاتل عن يمينك و عن شمالك و بين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه و سرَّه، يعني قوله.

ثم روى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك و وعدك، اللهم إنْ شئت لم تُعبد» فأخذ أبوبكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع و يولون الدبر» و رواه النسائي.

و قوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: يردف بعضهم بعضاً. كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين. و يحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم، أي: نجدةً لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يقول: المدد، كما تقول أنت للرجل: زده كذا وكذا. و هكذا قال مجاهد و ابن كثير القارئ و ابن زيد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ مُمِدِّين، وقال قابوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿يُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال: وراء كل ملك ملك. و في رواية بهذا الإسناد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال بعضهم على أثر بعض، و كذا قال أبو ظبيان والضحاك و قتادة. و المشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: و أمد الله نبيه ﷺ و المؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، و ميكائيل في خمسمائة مجنبة.

و روى الإمام أبوجعفر ابن جرير و مسلم: عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذْ سمع ضربةً بالسوط فوقه، و صوت الفارس يقول: أقْدمْ حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، قال: فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه و شُق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا

يومئذ سبعين و أسروا سبعين.

و قال البخاري: باب شهود الملائكة بدراً: (ثم روى) عن معاذ بن رفاعة رافع الزرقي عن أبيه ـ و كان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهلَ بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها» قال: «و كذلك مَنْ شهد بدراً من الملائكة» انفرد بإخراجه البخاري.

و في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

و قوله تعالى: ﴿وَ مَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى﴾ الآية. أي: و ما جعل الله بعث الملائكة، و إعلامه إياكم بهم، إلا بشرى ﴿وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ و إلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ، وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، و قال تعالى: ﴿وَ تِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ واللهُ لاَيُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ فهذه حِكَمٌ شرَعَ الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، و عاداً الأولى بالدبور، و ثمود بالصيحة، و قوم لوط بالخسف والقلب و حجارة السجيل، و قوم شعيب بيوم الظُّلَّة، فلما بعث الله تعالى موسى و أهلك عدوه فرعون و قومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، و استمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ﴾.

و قَتْلُ المؤمنين للكافرين: أشد إهانة للكافرين، و أشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ و لهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم، الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم، و أشفى لصدور حزب الإيمان، فقَتل أبي جهل في معركة القتال و حومة الوغى، أشد إهانة له من موته على فراشه، بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، و إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، و رجموه حتى دفنوه، و لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة و لرسوله و للمؤمنين بهما في الدنيا و الآخرة، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم و إهلاكهم، بحوله و قوته سبحانه وتعالى.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ

(١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴾

١١ - يُذكِّرُهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أماناً أمَّنَهم به من خوفهم، الذي حصل لهم من كثرة عدوهم و قلة عددهم، و كذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾** الآية. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، و لقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط و آخذه، و يسقط و آخذه، و لقد نظرت إليهم يميدون، و هم تحت الحجف.

و روى الحافظ أبويعلى: عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا و ما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة و يبكي حتى أصبح[١]. و روى سفيان الثوري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. و قال قتادة: النعاس في الرأس، و النوم في القلب.

(قلت): أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، و أمر ذلك مشهور جداً، و أما الآية الشريفة إنماهي في سياق قصة بدر، و هي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة اليأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، و هذا من فضل الله و رحمته بهم، و نعمته عليهم، و كما قال تعالى: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**. و لهذا جاء في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذتْ رسول الله ﷺ سِنَةٌ من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشر يا أبابكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: **﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾**.

و قوله: **﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر و المشركون بينهم و بين الماء رملة دعصة[٢] و أصاب المسلمين ضعف شديد، و ألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى، و فيكم رسوله، و قد غلبكم المشركون على الماء، و أنتم تصلون مُجْنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون و تطهروا، و أذهب الله عنهم رجز الشيطان، و ثبت الرمل حين أصابه المطر و مشى الناس عليه و الدواب، فساروا إلى القوم، و أمد الله نبيه ﷺ و المؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، و ميكائيل في خمسمائة مجنبة.

وكذا قال العوفي عن ابن عباس، و نحو ذلك روي عن قتادة و الضحاك و السدي، و قد روى عن سعيد ابن المسيب و الشعبي و الزهري و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش أصابهم يوم بدر. و قال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، و تلبدت به الأرض، و طابت نفوسهم، و ثبتت به أقدامهم.

و روى ابن جرير: عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر و الحجف نستظل تحتها من المطر، و بات رسول الله ﷺ و حرَّض

---

(١) و هذا يدل على شدة اهتمامه بحصول النصر في تلك المعركة، وحرصه على نجاح دعوته، و لجوئه إلى الله تعالى في وقت الكربة والشدة.

(٢) الدِّعصُ و الدِّعصة: قطعة من الرمل مستديرة، او الكثيب منه، المجتمع او الصغير. (القاموس)

على القتال.

و قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَ يُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيء و هو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي: مطهراً لما كان من غلٍ أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن و طهارته ﴿وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن ﴿وَ يُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر، و الله أعلم.

١٢- وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و هذه نعمة خفية، أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، هو أنه تعالى و تقدّس و تبارك و تمجد أوحى إلى الملائكة، الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه و بينهم، أنْ يُثبتوا الذين آمنوا، قال ابن إسحاق: و آزروهم، وقال غيره: قاتلوا معهم، و قيل: كثِّروا سوادهم، و قيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجلَ من أصحاب النبيﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم ـ يعني المشركين ـ يقولون: و الله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدّث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

و قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي: ثبتوا أنتم المؤمنين، و قوُّوا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب و الذلة و الصغار على من خالف أمري، و كذب رسولي ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، و احتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم و أرجلهم. و قد اختلف المفسرون في معنى ﴿فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرءوس. قاله عكرمة. و قيل معناه: أي: على الأعناق، و هي الرقاب. قاله الضحاك و عطية العوفي، ويشهد لهذا المعنى: أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. و اختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب و فلق الهام. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق و على البنان، مثل سمة النار قد أحرق به. و قوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه و اضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف و مفصل، من أطراف أيديهم و أرجلهم، و البنان جمع بنانة.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان الأطراف. و كذا قال الضحاك و ابن جرير و السدي، و قال عكرمة و عطية العوفي و الضحاك في رواية أخرى: كل مفصل، و قال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضربوا منه الوجه و العين و ارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك. فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة و ستين رجلاً، و أسر عقبة بن أبي معيط فقُتل صَبْراً، فوفَّى ذلك سبعين يعني قتيلاً.

١٤- و لهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَ رَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، و تركوا الشرع والإيمان به و اتباعه في شق، و مأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه و ناوأه، لا يفوته شيء، و لا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا خطاب

للكفار، أي: ذوقوا هذا العذاب و النكال في الدنيا، و اعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار (١٥) ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير (١٦) ﴾

١٥ - يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي: تقاربتم منهم و دنوتم إليهم ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي: تفروا و تتركوا أصحابكم.

١٦ - ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه، فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير و السدي. و قال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه، ليرى غِرة من العدوّ فيصيبها ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي: فر من ههنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره، أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. و كذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة، لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيَّز إليَّ لكنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، و في رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال: لما قتل أبو عبيدة قال عمر: أيها الناس أنا فئتكم، وقال مجاهد قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

و روى ابن أبي حاتم: عن نافع أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نَثبت عند قتال عدونا، و لا ندري من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ، فقلت: إن الله يقول: ﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها و لا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ المتحيز الفار إلى النبي و أصحابه، و كذلك من فر اليوم إلى أميره و أصحابه، فأما إن كان الفرار لاعن سب من هذه الأسباب، فإنه حرام و كبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري و مسلم في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، و ماهن؟ قال: الشرك بالله، و السحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، و التولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» و له شواهد من وجوه أخر، و لهذا قال تعالى: ﴿فقد باء﴾ أي: رجع ﴿بغضب من الله و مأواه﴾ أي: مصيره و منقلبه يوم ميعاده ﴿جهنم و بئس المصير﴾.

و روى الطبراني: عن بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت أبي يحدث عن جدي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو و أتوبُ إليه، غُفر له، و إنْ كان قد فرَّ من الزحف» وهكذا رواه أبو داود و الترمذي[1].

و قد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة، لأنه كان فرض عين عليهم، و قيل: على الأنصار خاصة، لأنهم بايعوا على السمع و الطاعة في المنشط المكره. و قيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة. يروى هذا عن عمر و ابن عمر و ابن عباس و أبي هريرة و أبي سعيد و أبي نضرة و نافع مولى ابن عمر

(١) أبو داود (١٥١٧) و الترمذي (٣٨٣٠) بزيادة: «الحي القيوم».

وسعيد بن جبير و الحسن البصري و عكرمة و قتادة و الضحاك وغيرهم ، و حجتهم في هذا : أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك ، كما قال النبي ﷺ : «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة ، لا تعبد في الأرض» .

و لهذا روى عبد الله المبارك عن الحسن في قوله : ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال : ذلك يوم بدر ، فأما اليوم فإنْ انحاز إلى فئة أو مصر ، أحسبه قال : فلا بأس عليه ، و روى ابن المبارك عن يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك ، قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ . و في سنن أبي داود و النسائي و مستدرك الحاكم و تفسير ابن جرير و ابن مردويه عن أبي سعيد : أنه قال في هذه الآية : ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ إنما أُنزلت في أهل بدر .

و هذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف من الموبقات ، كما هو مذهب الجماهير ، و الله أعلم .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) ﴾

١٧ – بين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، و أنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك و أعانهم ، و لهذا قال : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي : ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم ، مع كثرة عددكم ، أي : بل هو الذي أظفركم عليهم ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يُعلم تبارك و تعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ، و لا بلبس اللأمة و العدد ، و إنما النصر من عنده تعالى ، كما قال تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حَصَبَ بها وجوه الكافرين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه و تضرعه و استكانته ، فرماهم بها ، و قال : «شاهت الوجوه» ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، و لهذا قال تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، و كبتهم بها لا أنت .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر ، فقال : «يا رب إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه و منخريه و فمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين . و قد روي في هذه القصة عن عروة عن مجاهد و عكرمة و قتادة و غير واحد من الأئمة ، أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر ، و إن كان قد فَعَل ذلك يوم حنين أيضاً ، و ههنا قولان آخران غريبان جداً (أحدهما) روى ابن جرير : عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر

دعا بقوس فأتي بقوس طويلة، وقال: «جيئوني بقوس غيرها» فجاءوه بقوس كبداء فرمى النبيﷺ الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ و هذا غريب، و إسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم. (والثاني) روى ابن جرير أيضاً و الحاكم في مستدركه بإسناد صحيح: إلى سعيد بن المسيب الزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية النبيﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة، وهو في لأمته فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً، حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم، موصولاً بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة، و هذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جدا، و لعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

و روى محمد بن إسحاق: عن عروة بن الزبير في قوله ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: لِيُعرِّف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم، و قلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. و هكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث «وكل بلاء حسن أبلانا».

و قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر و الغلب.

١٨- وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، و أنهم كل مالهم في تبار و دمار، ولله الحمد و المنة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

١٩- يقول تعالى للكفار ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تستنصروا و تستقضوا الله و تستحكموه، أنْ يفصل بينكم و بين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما روى محمد بن إسحاق و غيره، أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، و آتانا بمالا يعرف، فأحنه الغداة. و كان استفتاحاً منه، فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. و رواه الإمام أحمد و النسائي و الحاكم. و قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله و التكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا و الآخرة، و قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ معناه: و إن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر و الضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. و قال السدي ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ أي: إلى الفتح لمحمدﷺ والنصر له، وتظفيره على أعدائه. و الأول أقوى. ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإنَّ مَن كان الله معه، فلا غالب له ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي، و الجناب المصطفوي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ

عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

٢٠ - يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله، و يزجرهم عن مخالفته و التشبه بالكافرين به، المعاندين له، و لهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته و امتثال أوامره، و ترك زواجره ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعا كم إليه.

٢١ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد المشركون. و اختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يُظهرون أنهم قد سمعوا و استجابوا، و ليسوا كذلك.

٢٢ - ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم سيء الخلق و الخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، و هؤلاء خُلقوا للعبادة فكفروا، و لهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ الآية، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش. رُوي عن ابن عباس و مجاهد، و اختاره ابن جرير. و قال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: و لا منافاة بين المشركين و المنافقين في هذا، لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، و القصد إلى العمل الصالح.

٢٣ - ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فُرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، و تقدير الكلام: ﴿وَ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم، لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ عن ذلك قصداً و عناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

٢٤ - قال البخاري ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. (ثم روى) عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنتُ أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أنْ تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنّك أعظمَ سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له، و قال: «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثاني» و قد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة.

و قال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه النجاة و البقاء والحياة. وقال السدي: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر، وروى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزّكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوّاكم بها بعد الضعف، و منعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

و قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن و بين الكفر، وبين الكافر و بين الإيمان، رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح و لم يخرجاه. و كذا

قال مجاهد وسعيد و عكرمة و الضحاك و أبو صالح و عطية و مقاتل بن حيان و السدي ، وفي رواية عن مجاهد في قوله : ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي : حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدي : يحول بين الإنسان و قلبه فلا يستطيع أن يؤمن و لا يكفر إلا بإذنه . و قال قتادة هو كقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ .

و قد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية ، وروى الإمام أحمد : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول : «يا مُقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك» قال : فقلنا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال : «نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها» و هكذا رواه الترمذي .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن النَّواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : «مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أنْ يُقيمه أقامه ، و إذا شاء أنْ يُزيغه أزاغه» وكان يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال : «و الميزان بيد الرحمن يخفضه و يرفعه» .

و هكذا رواه النسائي و ابن ماجه .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو : أنه سمع رسول الله يقول : «إنَّ قلوبَ بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يُصَرِّفها كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم مُصرِّفَ القُلُوبِ ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا إلى طاعتك» انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري ، فرواه مع النسائي .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾

٢٥- يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أي اختباراً و محنة يعم المسيء و غيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب ، بل يعمهما حيث لم تدفع و ترفع ، كما روى الإمام أحمد : عن مُطرِّف قال : قلنا للزبير : يا أباعبدالله ، ما جاء بكم! ضيعتم الخليفة الذي قُتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ و أبي بكر و عمر و عثمان رضي الله عنهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها ، حتى وقعت منا حيث وقعت . و قد رواه البزار . و روى النسائي عن الزبير نحو هذا ، وروى ابن جرير نحوه . و عن الحسن في هذه الآية قال : نزلت في علي و عمار و طلحة والزبير رضي الله عنهم ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة . و قال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين أنْ لا يُقروا المنكرين بين ظهرانيهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ هي أيضاً لكم ، و كذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب ، و غير واحد ، و قال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن [1] رواه ابن جرير .

و القول بأن هذا التحذير يعم الصحابة و غيرهم ـ و إن كان الخطاب معهم ـ هو الصحيح ، و يدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ؛ و لذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى ، كما فعله الأئمة

(١) و معنى قوله تعالى : ﴿إنما أموالكم و أولادكم فتنة﴾ أي : اختبار وابتلاء .

وأفردوه بالتصنيف ؛ و من أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد : عن عدي بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنَّ الله عز وجل لاَ يُعَذِّب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أنْ يُنكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك ، عذَّب الله الخاصة و العامة» .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله قال : «و الذي نفسي بيده ، لتَأمُرُنَّ بالمعروف ، و لَتَنهَوُنَّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» ، (و في رواية) «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد أيضاً : عن النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول - و أومأ بأصبعيه إلى أذنيه يقول : مَثَلُ القائم على حدود الله و الواقع فيها و المداهن فيها ، كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضُهم أسفلها و أوعرها و شرها ، و أصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء ، مروا على من فوقهم فآذوهم ، فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا خرقاً ، فاستقينا منه و لم نُؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم و أمرهم هلكوا جميعاً ، و إنْ أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً» . انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم و الترمذي .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من قوم يعملون بالمعاصي ، و فيهم رجل أعزُّ منهم و أمنع ، لا يُغيِّره إلا عَمَّهم الله بعقاب ، أو أصابهم العقاب» و رواه أبو داود وابن ماجه ، و روى الإمام أحمد : عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ : «إذا ظَهَرَ السوء في الأرض ، أنزلَ اللهُ بأهل الأرض بأسه» فقالت : و فيهم أهل طاعة الله ؟ قال : «نعم ، ثم يصيرون إلى رحمة الله» .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾

٢٦- ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، و إحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم ، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم و نصرهم ، و فقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، و استشكرهم فأطاعوه و امتثلوا جميع ما أمرهم . و هذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة : قليلين مستخفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك و مجوسي و رومي ، كلهم أعداء لهم لقلتهم و عدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم ، حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة ، فآواهم إليها ، و قيض لهم أهلها آووا و نصروا يوم بدر و غيره ، وواسوا بأموالهم ، و بذلوا مهجهم في طاعة الله و طاعة رسوله ﷺ .

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا ، و أشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، و أبينه ضلالاً ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم رُدِّي في النار ، يؤكلون و لا يأكون ، و الله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم ، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ، و وسع به في الرزق ، و جعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، و بالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، و أهل الشكر في مزيد من الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾

٢٧- قال عبد الله بن أبي قتادة و الزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، و أشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة و رأى أنه قد خان الله و رسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، و انطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، و أرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال يا رسول الله ﷺ: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أنْ تصدق به»[1].

و في الصحيحين: قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش، يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، و استحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله و رسوله و المؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بدراً، و ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

(قلت): و الصحيح أن الآية عامة، و إنْ صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. و الخيانة تعم الذنوب الصغار و الكبار اللازمة و المتعدية.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾** الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة، يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها. و قال في رواية: **﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** يقول: بترك سنته، وارتكاب معصيته.

و روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير في هذه الآية: أي: لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، و خيانة لأنفسكم. و قال السدي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم. و قال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله و الرسول كما صنع المنافقون.

٢٨- و قوله: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** أي: اختبار و امتحان منه لكم، إذْ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها و تطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، و تعتاضون بها منه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** و قال: **﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾** وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** و قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾** الآية.

وقوله: **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** أي: ثوابه و عطاؤه و جناته خير لكم، من الأموال و الأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، و أكثرهم لا يغني عنك شيئاً، و الله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا و الآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. و في الأثر يقول الله تعالى: «يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإنْ وجدتَني وجدتَ كل شيء، و إن فتك فاتك كل شيء، و أنا أحب إليك من كل شيء» و في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه الطبري في تفسيره.

«ثلاثٌ من كن فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان : مَن كان اللهُ وَ رَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مما سواهما ، و من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان أنْ يُلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر ، بعد إذ أنقذه الله منه» .

بل حب رسول الله ﷺ مقدَّم على الأولاد و الأموال و النفوس ، كما ثبت في الصحيح : أنه ﷺ قال : «والذي نفسي بيده ، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحب إليه من نفسه و أهله و ماله و الناس أجميعن» .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

٢٩- قال ابن عباس و السدي و مجاهد و عكرمة و الضحاك و قتادة و السدي و مقاتل بن حيان ﴿فُرْقَاناً﴾ : مخرجاً ، زاد مجاهد : في الدنيا و الآخرة ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿فُرْقَاناً﴾ : نجاة ، و في رواية عنه : نصراً وقال محمد بن إسحاق ﴿فُرْقَاناً﴾ أي : فصلاً بين الحق و الباطل . و هذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم ، وهو يستلزم ذلك كله ، فإنَّ من اتقى الله بفعل أوامره ، و ترك زواجره ، وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ، ونجاته و مخرجه من أمور الدنيا و سعادته يوم القيامة ، و تكفير ذنوبه وهو محوها ؛ و غفرها سترها عن الناس ، و سبباً لنيل ثواب الله الجزيل ، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

٣٠- قال ابن عباس و مجاهد و قتادة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك ، وقال عطاء و ابن زيد : ليحبسوك ، وقال السدي : الأثبات هو الحبس و الوثاق . و هذا يشمل ما قاله هؤلاء و هؤلاء ، وهو مجمع الأقوال ، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء . إن هذه القصة و اجتماع قريش على هذا الائتمار و المشاورة ، على الإثبات أو النفي أو القتل ، إنما كان ليلة الهجرة سواء ، و كان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترءوا عليه ، بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه و ينصره و يقوم بإعبائه .

و الدليل على صحة ماقلنا : ما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس : أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا له : من أنت؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ، و لن يعدمكم رأيي و نصحي ، قالوا : أجل ادخل ، فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل ، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره ، فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به ريب المنون ، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ، زهير و النابغة إنما هو كأحدهم ؛ قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ماهذا لكم برأي ، و الله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ؛ قالوا : صدق الشيخ ، فانظروا في غير هذا ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع . إذا غاب عنكم أذاه ، واسترحتم و كان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدي : و الله ما هذا لكم برأي ألم

تروا حلاوة قوله، و طلاقة لسانه، و أخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ و الله لئن فعلتم ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، و يقتل أشرافكم؛ قالوا: صدق و الله، فانظروا رأياً غير هذا، قال: فقال أبوجهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره؛ قالوا: و ما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل و استرحنا و قطعنا عنا أذاه؛ قال: فقال الشيخ النجدي: هذا و الله الرأي، القول ما قال الفتى لا أرى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، و أخبره بمكر القوم فلم يَبِتْ رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، و أذن الله له عند ذلك بالخروج، و أنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال»، يذكر نعمه عليه و بلاءه عنده، **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** و أنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء **﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾** فكان ذلك اليوم يسمى يوم «الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي. و عن السدي نحو هذا السياق، و أنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى: **﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾** و كذا روى العوفي عن ابن عباس، و روى عن مجاهد و عروة بن الزبير و موسى ابن عقبة و قتادة ومقسم و غير واحد نحو ذلك.

و قد روى ابن حبان في صحيحه و الحاكم: من حديث ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت، ومالي لا أبكي، و هؤلاء الملأ من قريش في الحجر، يتعاهدون باللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عَرَفَ نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية ائتيني بوَضُوء» فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، فطأطؤا رؤوسهم و سقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، و قال: «شاهَت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته، إلا قُتل يوم بدر كافراً؛ ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه و لا أعرف له علة. و روى محمد بن إسحاق: عن عروة بن الزبير في قوله: **﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾

٣١- يخبر تعالى عن كفر قريش و عتوهم و تمردهم و عنادهم، و دعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم، أنهم يقولون: **﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾** و هذا منهم قول بلا فعل، و إلا فقد تُحدّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، و إنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم، و من

تبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو: النضر بن الحارث لعنه الله، كما قد نص على ذلك سعيد ابن جبير والسدي و ابن جريج و غيرهم، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس و تعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، و لما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر، فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ و لهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر، ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تُضرب رقبته صبراً بين يديه، فَفُعل ذلك و لله الحمد، و كان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير.

و معنى ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ و هو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها و يتلوها على الناس. و هذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب، فإنه يتقبل منه و يصفح عنه.

٣٢- و قوله: ﴿وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من كثرة جهلهم، و شدة تكذيبهم، و عنادهم و عتوهم، و هذا مما عيبوا به، و كان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له و وفقنا لاتباعه، و لكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب و تقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَ هُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ و قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ و كذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ و قال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ رواه البخاري. ورُوي عن ابن عباس قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة، قال: فأنزل الله ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ و كذا قال مجاهدو عطاء و سعيد بن جبير و السدي: إنه النضر بن الحارث، زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ- و قال- وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ- وقال- سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ﴾ قال عطاء: و لقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل.

وروى ابن مردويه: عن ابن بريدة عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول: اللهم إنْ كان ما يقول محمد حقاً، فاخسف بي و بفرسي. و قال قتادة: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائدته و رحمته على سفهة هذه الأمة و جهلتها.

٣٣- و قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: ما كان الله ليعذب قوماً و أنبياؤهم بين أظهرهم، حتى يخرجهم، ثم قال:

﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: و فيهم من قد سَبَقَ له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار، يستغفرون يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة، و روى عن مجاهد و عكرمة و عطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك، و قال الضحاك و أبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين، لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ماداما بين أظهرهم، فأمانٌ قبضه الله إليه، و أمانٌ بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

و روى ابن مردويه و ابن جرير: عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا، و كذا رُوي عن قتادة و أبي العلاء النحوي المقرئ.

و يشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده و الحاكم في مستدركه: من حديث عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: و عزتك يا رب، لا أبرح أُغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: و عزتي و جلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾

٣٤- يخبر تعالى أنهم أهلٌ لأنْ يعذّبهم، و لكن لم يُوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، و لهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم و أسر سراتهم، و أرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم ملتبسون بها من الشرك و الفساد، و قال قتادة و السدي و غيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا، و اختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذي لا يُردُّ، و لكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

و قد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم، روى ابن جرير: عن عكرمة و الحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ـ إلى قوله ـ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع و الضر، و كذا رواه ابن أبي حاتم. و روى أيضاً: عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ

﴿الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: و كيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده و الطواف به، و لهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، و إنما أهله النبيﷺ و أصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ❁ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، و قال تعالى: ﴿وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ الآية. و قال عروة والسدي و محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمدﷺ و أصحابه رضي الله عنهم. و قال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا و حيث كانوا.

٣٥- ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، و ما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَ مَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً﴾ قال عبد الله بن عمرو و ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير وأبورجاء العطاردي و محمد بن كعب القرظي و حجر بن عنبس و نبيط بن شريط و قتادة و عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هو الصفير، و زاد مجاهد: و كانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم، و قال السدي: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له: المكاء، و يكون بأرض الحجاز، و التصدية: التصفيق.

روى ابن أبي حاتم: عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَ مَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر و تصفق، و المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. و هكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس، و كذا روى عن ابن عمر ومجاهد و محمد بن كعب و أبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك و قتادة و عطية العوفي و حجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا، و قال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهد: و إنما كانوا يصنعون ذلك، ليخلطوا بذلك على النبيﷺ صلاته، و قال الزهري يستهزئون بالمؤمنين، و عن سعيد بن جبير و عبد الرحمن بن زيد ﴿وَ تَصْدِيَةً﴾ قال: صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل.

قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك و ابن جريج و محمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل و السبي، و اختاره ابن جرير و لم يحك غيره، و روى ابن أبي حاتم: عن مجاهد: قال عذاب أهل الإقرار بالسيف، و عذاب أهل التكذيب بالصيحة و الزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾

٣٦- قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري و محمد بن يحيى بن حبان و عاصم بن عمر بن قتادة والحصين عبد الرحمن قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر و رجع فلهم إلى مكة، و رجع أبوسفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة و عكرمة بن أبي جهل و صفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم و أبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أباسفيان ابن حرب و من كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر

قريش إن محمداً قد وتركم و قتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم ـ كما ذكر عن ابن عباس ـ أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ و كذا روى عن مجاهد و سعيد بن جبير و الحكم بن عيينة و قتادة و السدي و ابن أبزى: أنها نزلت في أبي سفيان و نفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ، و قال الضحاك: نزلت في أهل بدر.

و على كل تقدير فهي عامة: و إنْ كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة حيث لم تُجد شيئاً، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، و ظهور كلمتهم على كلمة الحق، و الله متم نوره ولو كره الكافرون، و ناصر دينه، و معلن كلمته و مظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه، و سمع بأذنه ما يسوءه، ومَن قُتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي، و العذاب السرمدي؛ و لهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، و قال السدي: يميز المؤمن من الكافر، و هذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، و تكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: مَن يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: ﴿وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ و نظيرتها في براءة أيضاً.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، و أقدرناهم على إنفاق الأموال و بذلها في ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ أي: متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا و الآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾

٣٨- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ أي: عمَّاهم فيه من الكفر و المشاقة و العناد،

ويدخلوا في الإسلام و الطاعة و الإنابة ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: من كفرهم، و ذنوبهم و خطاياهم، كما جاء في الصحيح: من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحسن في الإسلام، لم يُؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول و الآخر» و في الصحيح أيضاً: أن رسول الله قال: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله، و التوبة تَجبُّ ما كان قبلها». وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ أي: يستمروا على ماهم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين: أنهم إذا كذبوا و استمروا على عنادهم، أنا نعاجلهم بالعذاب و العقوبة. قال مجاهد في قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: في قريش يوم بدر، وغيرها من الأمم، و قال السدي و محمد بن إسحاق: أي: يوم بدر.

٣٩- و قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ روى البخاري: عن ابن عمر: أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية، فما يمنعك أنْ لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أُعيَّر بهذه الآية و لا أقاتل، أحب إلى من أعيَّر بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً﴾ إلى آخر الآية، قال: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، إذْ كان الإسلام قليلاً، و كان الرجل يفتن في دينه، إما أنْ يقتلوه و إما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام قليلاً فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولكم في علي و عثمان؟ قال ابن عمر: ماقولي في علي و عثمان؟ أما عثمان، فكان الله قد عفا عنه، و كرهتم أن يعفو الله عنه، و أما علي فابن عم رسول الله ﷺ و ختنه، و أشار بيديه، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

و روي: عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضي الله عنهما فقال: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، و كان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على المُلْك. هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى. و روى أبو عوانة: عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: قال ذو البطين ـ يعني أسامة بن زيد ـ: لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال سعد بن مالك: و أنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه، و قال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: لايكون شرك، و كذا قال أبو العالية و مجاهد و الحسن و قتادة والربيع بن أنس و السدي و مقاتل بن حيان و زيد بن أسلم. و قال الحسن و قتادة و ابن جريج ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أن يقال: لا إله إلا الله. و قال محمد بن إسحاق: و يكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، و يخلع ما دونه من الأنداد.

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا يكون مع دينكم كفر، و يشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم، إلا بحقها و حسابها على الله عز وجل». و فيهما عن أبي موسى الأشعري قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة و يُقاتل حمية، و يُقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «مَنْ قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل».

و قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أي: بقتالكم عماهم فيه من الكفر، فكفوا عنه و إن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كقوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ الآية، و في الآية الأخرى ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ و قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. و في الصحيح أن رسول الله قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة»؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «هلا شققتَ عن قلبه»؟ و جعل يقول و يكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة»؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

٤٠ـ و قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: و إن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، فاعلموا أن الله مولاكم و سيدكم، و ناصركم على أعدائكم، فنعم المولى و نعم النصير.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾

٤١ـ يبين تعالى تفصيل ما شرعه، مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة، بإحلال الغنائم. و الغنيمة هي: المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل و الركاب، و الفيء: ما أُخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها و لا وارث لهم، و الجزية و الخراج و نحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف و الخلف، و من العلماء من يُطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، وبالعكس أيضاً، و لهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية، قال: فنسخت آية الأنفال تلك، و جعلت الغنائم: أربعة أخماس للمجاهدين، و خمساً منها لهؤلاء المذكورين. و هذا الذي قاله بعيد، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، و لا خلاف بين علماء السير و المغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر، و هذا أمرٌ لا يُشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء و الغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء، وهذه في الغنائم. و من يجعل أمر الغنائم و الفيء راجعاً إلى رأي الإمام، يقول: لا منافاة بين آية الحشر، و بين التخميس إذا رآه الإمام، و الله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ توكيدٌ لتخميس كل قليلٍ و كثير، حتى الخيط و المِخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ و قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون ههنا: فقال بعضهم: لله نصيبٌ من الخمس، يجعل في الكعبة. و قال آخرون: ذِكْرُ الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، و سهمٌ لرسوله ﷺ. (روي) عن ابن عباس رضي الله عنهما، و هكذا قال إبراهيم النخعي و الحسن بن محمد بن الحنفية و الحسن البصري و الشعبي وعطاء بن أبي رباح و عبد الله بن أبي بريدة و قتادة و مغيرة و غير واحد: أن سهم الله و رسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبوبكر البيهقي بإسناد صحيح: عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبيﷺ وهو بوادي القرى وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش» قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

ثم اختلف قائلوا هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، و خمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربع لله وللرسولﷺ، فما كان لله و للرسول: فهو لقرابة النبيﷺ، و لم يأخذ النبيﷺ من الخمس شيئاً.

و روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن بريدة قال: الذي لله فلنبيه، و الذي للرسول لأزواجه، و قال عطاء بن أبي رباح: خمس الله و الرسول واحد، يحمل منه و يصنع فيه ما شاء، يعني النبيﷺ. و هذا أعم وأشمل، وهو أنهﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، و يرده في أمته كيف شاء.

و يشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد: عن المقدام بن معديكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت و أبي الدرداء و الحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول اللهﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول اللهﷺ في غزوة كذا وكذا، في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول اللهﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول اللهﷺ فتناول وَبَرة بين أنملتيه، فقال: «إنَّ هذه من غنائمكم، و إنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، و الخمس مردودٌ عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، و أكبر من ذلك و أصغر، و لا تغلوا، فإن الغلول عارٌ و نار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب و البعيد، و لا تبالوا في الله لومة لائم، و أقيموا حدود الله في السفر و الحضر، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، يُنجي الله به من الهم و الغم» هذا حديث حسن عظيم، و لم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه، و لكن روى الإمام أحمد أيضاً و أبو داود و النسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو عن رسول اللهﷺ نحوه، في قصة الخمس و النهي عن الغلول.

و قد كان للنبيﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبدٌ أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، كما نص عليه محمد بن سيرين و عامر الشعبي، و تبعهما على ذلك أكثر العلماء. و روى الإمام أحمد و الترمذي وحسنه: عن ابن عباس أن رسول الله تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد.

و عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كانت صفيةُ من الصَّفي. رواه أبو داود في سننه.

و روى أيضاً بإسناده و النسائي أيضاً: عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالْمِرْبد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها، فإذا فيها «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش: إنكم إنْ شهدتم أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله، و أقمتم الصلاة، و آتيتم الزكاة، و أديتم الخمس من المغنم، و سهم النبيﷺ، و سهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله و رسوله» فقلنا: مَنْ كَتَبَ هذا؟ فقال: رسول اللهﷺ.

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا و ثبوته، و لهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، و قال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: و هذا قول مالك و أكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا و علم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله ﷺ من الخمس، ماذا يُصنع به بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، روى هذا عن أبي بكر و علي وقتادة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع، و قال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين، و قال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل، اختاره ابن جرير. و قال آخرون: بل سهم النبي ﷺ و سهم ذوي القربى، مردودان على اليتامى و المساكين و ابن السبيل. قال ابن جرير: و ذلك قول جماعة من أهل العراق. و قيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير: عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا و الآخرة.

ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده، و قال قائلون: لقرابة النبي ﷺ، وقال آخرون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، و اجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل و العدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما، قال إبراهيم: كان أبوبكر و عمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع و السلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه. و هذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله.

و أما سهم ذوي القربى فإنه يُصرف إلى بني هاشم و بني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، و دخلوا معهم في الشِّعْب غضباً لرسول الله ﷺ و حماية له، مسلمهم طاعة لله و لرسوله، و كافرهم حميةً للعشيرة، و أنفة و طاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ، و أما بنو عبد شمس و بنو نوفل، و إن كانوا بنو عمهم فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم و نابذوهم ومالؤا بطون قريش على حرب الرسول، و لهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية، أشد من غيرهم لشدة قربهم.

و قال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا و عثمان بن عفان يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر و تركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم و بنو المطلب شيءٌ واحد» رواه مسلم. و في بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية و لا إسلام». و هذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم و بنو المطلب.

قال ابن جرير: و قال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال: علم الله أن في هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، و في رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك، قال ابن جرير: و قال آخرون: بل هم قريش كلها. ثم روى عن أبي معشر عن سعيد المقبري قال: كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله: عن ذوي القربى فكتب إليه ابن عباس كنا نقول: إنَّا هم، فأبى علينا ذلك قومنا، و قالوا: قريش كلهاذو قربى. وهذا الحديث صحيح رواه مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي، من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرمز: أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره، إلى قوله: فأبى ذلك علينا قومنا، والزيادة من أفراد أبي معشر نجيح ابن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف، و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغبتُ

لكم عن غُسَالة الأيدي، لأنَّ لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم» هذا حديث حسن الإسناد، و الله أعلم.

و قوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: أيتام المسلمين، و اختلف العلماء: هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء و الفقراء؟ على قولين، و المساكين: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم و مسكنتهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر، أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، و ليس له ما ينفقه في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة، إن شاء الله تعالى، و به الثقة و عليه التكلان.

و قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم، من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر، و ما أنزلنا على رسوله. و لهذا جاء في الصحيحين: من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم: «و آمركم بأربع، و أنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و أن تؤدوا الخمس من المغنم» الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوَّب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه، فقال: (باب أداء الخُمس من الإيمان) ثم أورد حديث ابن عباس هذا، و قد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري، ولله الحمد المنة.

وقال مقاتل بن حيان ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي: في القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبه تعالى على نعمته و إحسانه إلى خلقه، بما فرق به بين الحق والباطل ببدر، و يسمى «الفرقان» لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، و أظهر دينه، و نصر نبيه وحزبه، قال علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرَّق الله فيه بين الحق والباطل، رواه الحاكم. و كذا قال مجاهد و مقسم و عبيد الله بن عبد الله و الضحاك و قتادة و مقاتل بن حيان وغير واحد: أنه يوم بدر، وروى عبد الرزاق: عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿يوم الفرقان﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، و كان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، و أصحاب رسول الله يومئذ ثلثمائة و بضعة عشر رجلاً، و المشركون بين الألف و التسعمائة، فهزم الله المشركين، و قُتل منهم زيادة على السبعين، و أسر منهم مثل ذلك، و قد روى الحاكم: عن ابن مسعود قال في ليلة القدر: تحروها لإحدى عشر يبقين، فإن في صبيحتها يوم بدر. و قال: على شرطهما.

و روى ابن جرير: عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، إسناد جيد قوي [١] و رواه ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة، لسبع عشر مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي و السير. و قال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين، ولم يتابع على هذا، و قول الجمهور مقدم عليه، و الله أعلم.

---

(١) مع أن ابن جرير رواه عن ابن حميد محمد الرازي، وهو حافظ ضعيف.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾

٤٢ - يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا، القريبة إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبوسفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: أنتم و المشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ قال محمد بن إسحاق وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم و منهم، ثم بلغكم كثرة عددهم و قلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام و أهله، و إذلال الشرك و أهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ و المسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد [1].

و قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قال محمد بن إسحاق: أي لِيَكفُرَ مَنْ كَفَرَ بعد الحجة، لما رأى من الآية و العبرة، و يؤمن من آمن على مثل ذلك. و هذا تفسير جيد. و بسط ذلك: أنه تعالى يقول إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم و يرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، و الحجة قاطعة، و البراهين ساطعة، و لا يبقى لأحد حجة و لا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره، أنه مبطل، لقيام الحجة عليه ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة و بصيرة، و الإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ و قالت عائشة في قصة الأفك: فهلك فيَّ من هلك، أي: قال فيها ما قال من البهتان و الإفك. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم و تضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم، و أنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾

٤٣ - قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، و أخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم. وكذا قال ابن إسحاق و غيرواحد، و حكى ابن جرير عن بعضهم: أنه رآهم بعينه التي ينام بها، و قد روى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك. و هذا القول غريب، و قد صرح بالمنام ههنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. و قوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي:

(١) رواه البخاري في المغازي (٧/ ٢٨٥) و مسلم في التوبة (٤/ ٢١٢١).

لجبنتم عنهم ، واختلفتم فيما بينكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي : من ذلك بأن أراكهم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : بما تجنه الضمائر ، و تنطوي عليه الأحشاء ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ .

٤٤ - وقوله : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ و هذا أيضاً من لطفه تعالى بهم ، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين ، فيجرؤهم عليهم و يُطمعهم فيهم (روي) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قُلّلوا في أعيننا يوم بدر ، حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين؟ قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه ، فقال : كنا ألفاً . رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير . و قوله : ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ الآية ، قال : حضض بعضهم على بعض . إسناد صحيح .

و قال محمد بن إسحاق : حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى : ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي : ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، و الإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته . و معنى هذا : أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر ، و قلّله في عينه ليطمع فيه ، و ذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال ، و أيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلاً منهما حق و صدق ، ولله الحمد و المنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾

٤٥ - هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، و طريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ثبت في الصحيحين : عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوّ ، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم ، فقال : «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدوّ ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، و اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قام النبي ﷺ و قال : «اللهم مُنزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم و انصرنا عليهم» .

و قال قتادة في هذه الآية ، قال : افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف .

و روى ابن أبي حاتم : عن عطاء قال : وجب الإنصات و ذكر الله عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر؟ قال : نعم .

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء ، و الصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا و لا ينكلوا و لا يجبنوا ، و أن يذكروا الله في تلك الحال و لا ينسوه ، بل يستعينوا به ، و يتوكلوا عليه ، و يسألوه النصر على أعدائهم ، و أن يطيعوا الله و رسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا ، و ما نهاهم عنه انزجروا ، و لا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا ، فيكون سبباً لتخاذلهم و فشلهم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي : قوتكم و حدتكم ، و ما كنتم فيه من الإقبال ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .

و قد كان الصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة و الائتمار بما أمرهم الله و رسوله ، و امتثال ما

أرشدهم إليه، مالم يكن لأحدٍ من الأمم و القرون قبلهم، و لا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسولﷺ و طاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب و الأقاليم، شرقاً و غرباً، في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم و الفرس و التركِ و الصقالبة و البربر و الجيوش و أصناف السودان و القبط و طوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، و ظهر دينه على سائر الأديان، و امتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض و مغاربها، في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم و أرضاهم أجمعين، و حشرنا في زمرتهم، إنه كريم تواب.

﴿ولا تكونوا كالَّذينَ خرجوا من ديارهم بطراً ورئاءَ النَّاسِ ويَصُدُّونَ عن سَبيلِ اللَّهِ واللَّهُ بما يعملُونَ مُحيطٌ (٤٧) وإذْ زيَّنَ لهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُمْ وقالَ لا غالبَ لكُمُ اليومَ من النَّاسِ وإنِّي جارٌ لَّكُمْ فلمَّا تراءتِ الفِئتانِ نكصَ علىٰ عقبيْهِ وقالَ إنِّي بريءٌ منكُمْ إنِّي أرىٰ ما لا ترونَ إنِّي أخافُ اللَّهَ واللَّهُ شديدُ العقابِ (٤٨) إذْ يقولُ المُنافقونَ والَّذين في قلوبهم مَّرضٌ غرَّ هؤلاءِ دينُهُمْ ومن يتوكَّلْ على اللَّهِ فإنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ (٤٩)﴾

٤٧- يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، و كثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً، أي: دفعاً للحق ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة و التكبر عليهم، كما قال أبوجهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله، لا نرجع حتى نَرِدَ ماء بدر و ننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، و تعزف علينا القيان، و تتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام، و رُكموا في أطواء بدر مهانين أذلاء؛ صغرة أشقياء، في عذاب سرمدي أبدي، و لهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤا به وله، و لهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و السدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول اللهﷺ يوم بدر.

٤٨- و قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية، حَسَّنَ لهم ـ لعنه الله ـ ما جاؤا له، و ماهموا به، و أطعمهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: إني جار لكم، و ذلك أنه تبدَّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشيطان، معه رايته، في صورة رجلٍ من مدلج، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، و إني جار لكم، فلما اصطف الناس، أخذ رسول اللهﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، و أقبل جبريلعليه السلام إلى إبليس؛ فلما رآه و كانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً و شيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى مالا ترون، إني

أخاف الله، و الله شديد العقاب، و ذلك حين رأى الملائكة.

و روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير (نحوه). و هكذا روى عن السدي و الضحاك و الحسن البصري و محمد بن كعب القرظي و غيرهم رحمهم الله، وقال قتادة: وَ ذُكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، و كذب عدو الله، و الله ما به مخافة الله، و لكن علم أنه لا قوة له و لا منعة، و تلك عادة عدو الله لمن أطاعه و استقاد له، حتى إذا التقى الحق و الباطل، أسلمهم شر مسلم، و تبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾** و قوله تعالى: **﴿وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

فلما نزلت الملائكة و رآها إبليس، وأوحى الله إليهم: إني معكم فثبتوا الذين آمنوا، و تثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، و الله معكم فكروا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، و قال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، وهو في صورة سراقة، و أقبل أبو جهل يحضض أصحابه و يقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد و أصحابه، ثم قال: و اللات و العزى لا نرجع حتى نقرن محمداً و أصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً. هذا من أبي جهل لعنه الله، كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: **﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾** و كقوله: **﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾** و هو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبوجهل فرعون هذه الأمة.

و قوله: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض: قلَّل الله المسلمين في أعين المشركين، و قلَّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرّ هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**.

و قال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: غرّ هؤلاء دينهم. و كذا قال معمر.

و روى ابن جرير: عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين.

و قوله: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾** أي: يعتمد على جنابه **﴿فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾** أي: لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيزٌ منيع الجناب، عظيم السلطان **﴿حَكِيمٌ﴾** في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، و يخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾

٥٠- يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، إذ يضربون وجوههم و أدبارهم، و يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. قال مجاهد: ﴿أَدْبَارَهُمْ﴾ أستاههم، قال: يوم بدر. و روى وكيع عن مجاهد و عن سعيد بن جبير: يضربون وجوههم و أدبارهم، قال: و أستاههم، ولكن الله يكني. وكذا قال عمر مولى غُفْرة.

و هذا السياق و إن كان سببه وقعة بدر، و لكنه عام في حق كل كافر، و لهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَ لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ﴾ و في سورة القتال مثلها، و تقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، بأمر ربهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد، أن تخرج قهراً، و ذلك إذا بشَّروهم بالعذاب و الغضب من الله، كما في حديث البراء: أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، إلى سَموم وحميم، و ظلٍّ من يَحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق و العصب، و لهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

٥١- و قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء، بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحَكَم العدل، الذي لا يجور تبارك و تعالى و تقدس و تنزه، الغني الحميد. و لهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم رحمه الله: من رواية أبي ذر رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «يا عبادي إنّي حَرَّمتُ الظُّلم على نفسي، و جعلته بينكم مُحَرَّماً فلا تظالموا . . . يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، فمن وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومَن وَجَد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه». و لهذا قال تعالى:

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾

٥٢- يقول تعالى: فَعَلَ هؤلاء ـ من المشركين المكذبين ـ بما أرسلت يا محمد، كما فَعَلَ الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا و سنتنا في أمثالهم، من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، و أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، و لا يفوته هارب.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾

٥٣- يخبر تعالى عن تمام عدله و قسطه في حُكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب

ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

٥٤- و قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون و أمثالهم، حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم، و سلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات و عيون، و زروع و كنوز و مقام كريم، و نعمة كانوا فيها فاكهين، و ما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾

٥٥، ٥٦- أخبر تعالى أن شر ما دبَّ على وجه الأرض: هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، و كلما أكَّدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام.

٥٧- ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم و تظفر بهم في حرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكَّل بهم. قاله ابن عباس و الحسن البصري و الضحاك و السدي و عطاء الخراساني و ابن عيينة، و معناه: غلِّظ عقوبتهم، و أثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب و غيرهم، و يصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ و قال السدي: لعلهم يحذرون أن ينكثوا، فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾

٥٨- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضاً لما بينك و بينهم من المواثيق و العهود ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم على سواء، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك و علمهم بأنك حرب لهم، و هم حرب لك، و أنه لا عهد بينك و بينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك.

و عن الوليد بن مسلم ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: على مهل ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكفار، لا يحبها أيضاً.

روى الإمام أحمد: عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم و كان بينه و بينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «و مَن كان بينه و بين قوم عهد، فلا يحلنَّ عقدة و لا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ: عمرو بن عبسة رضي الله عنه. وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي وأبو داود و الترمذي و النسائي و ابن حبان في صحيحه.

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا

مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾

٥٩- يقول تعالى لنبيه ﷺ **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ﴾** يا محمد **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾** أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** أي: يظنون. وقوله: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** و قوله تعالى: **﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾**.

٦٠- ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب، لمقاتلتهم حسب الطاقة و الإمكان و الاستطاعة، فقال: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾** أي: مهما أمكنكم **﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾**.

روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول و هو على المنبر: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾** «ألا إنَّ القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي» رواه مسلم و أبو داود و ابن ماجه.

و روى الإمام مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ لثلاثةٍ، لرجلٍ أجرٌ، و لرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، و لو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين، كانت آثارها و أرواثها حسنات له، و لو أنها مرت بنهر فشربت منه، و لم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، و رجل ربطها تغنياً و تعففاً، ولم ينس حقَّ الله في رقابها و لا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً و رياء و نواءً، فهي على ذلك وزر» و سئل رسول الله ﷺ عن الْحُمُر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئاً، إلا هذه الآية الجامعة الفاذة **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** رواه البخاري و هذا لفظه، ومسلم.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيلُ ثلاثةٌ: ففرسٌ للرحمن، و فرس للشيطان، و فرس للإنسان، فأما فرس الرحمن: فالذي يُربط في سبيل الله، فعلفه و روثه و بوله و ذكر ما شاء الله، و أما فرس الشيطان: فالذي يُعاقر أو يراهن عليه، و أما فرس الإنسان: فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من الفقر».

و قد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، و ذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، و قول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

و روى الإمام أحمد: أن معاوية بن خديج مرَّ على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسأله: ما تعاني من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: و ما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده ما من فرسٍ إلا وهو يدعو كل سَحَر، فيقول: اللهم أنت خَوَّلتني عبداً من عبادك، و جعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله و ماله و ولده.

و روى (أيضاً): عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرسٍ عربي، إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين، يقول: اللهم إنك خَوَّلتني من خوّلتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله و ماله إليه،

أو أحب أهله و ماله إليه» رواه النسائي.

و روى أبو القاسم الطبراني: عن الحسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعني سهلاً ـ حدّثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، و أهلها مُعانون عليها، و مَن ربَطَ فرساً في سبيل الله، كانت النفقة عليه، كالمادِّ يده بالصدقة لا يقبضها».

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة.

و في صحيح البخاري: عن عروة بن أبي الجعد البارقي: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر و المغنم».

و قوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي: تخوفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَ آخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني بني قريظة، و قال السدي: فارس، و قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. و قال مقاتل ابن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، و هذا أشبه الأقوال، و يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

و قوله: ﴿وَ مَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفي إليكم على التمام و الكمال، (و لهذا جاء) أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَ اللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

٦١- يقول تعالى إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿و إن جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة و المصالحة و المهادنة ﴿فاجنح لها﴾ أي: فمل إليها، و اقبَل منهم ذلك، و لهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، و وضع الحرب بينهم وبين الرسول ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

و قال ابن عباس و مجاهد و زيد بن أسلم وعطاء الخراساني و عكرمة و الحسن و قتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية. و فيه نظر أيضاً، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة و لا نسخ و لا تخصيص، و الله أعلم. و قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك و ناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقووا و يستعدوا.

٦٢، ٦٣- ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ أي: كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين، المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على

الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك و موازرتك **﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** أي: لما كان بينهم من العداوة و البغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: **﴿و اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**.

و في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، و كنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً، قالوا: الله و رسوله أمنُّ، و لهذا قال تعالى: **﴿و لكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، ، حكيم في أفعاله و أحكامه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** الآية، قال: هم المتحابون في الله، و في رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي و الحاكم في مستدركه، و قال: صحيح، و روى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: إن الرحم لَتُقطع، و إنَّ النعمة لتكفر، و إنَّ الله إذا قارب بين القلوب، لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: **﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** رواه الحاكم أيضاً. و عن عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد ـ ولقيته فأخذ بيدي ـ فقال: إذا التقى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، و ضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: **﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. و كذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، و قال ابن عون عن عمير بن إسحاق قال: كنا نتحدث أن أول ما يُرفع من الناس: الألفة، و روى الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتتْ عنهما ذنوبهما، كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة، في يوم ريح عاصف، و إلا غفر لهما ذنوبهما، ولو كانت مثل زبد البحار»[1].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾

٦٤ ـ يُحرِّضُ تعالى نبيه ﷺ و المؤمنين على القتال، و مناجزة الأعداء، ومبارزة الأقران، و يخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم و ناصرهم، و مؤيدهم على عدوهم، و إنْ كثرت أعدادهم، وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: **﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾** قال: حسبك الله، و حسب من شهد معك. قال: و روى عن عطاء الخراساني و عبد الرحمن بن زيد مثله.

(١) المعجم الكبير (٦/ ٢٥٦) و فيه: «مثل زبد البحر».

٦٥- و لهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم أو مُرهم عليه، و لهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم و مواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم و عددهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض. فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بَخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكَسَر جفن سيفه، و أخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، و قال: لئن أنا حييتُ حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

٦٦- ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين، و آمراً: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نُسخ هذا الأمر و بقيت البشارة. روى ابن المبارك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حتى فَرَضَ الله عليهم أن لا يفر واحدٌ من عشرة، ثم جاء التخفيف فقال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة، و نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. و روى البخاري نحوه. وروى سعيد بن منصور: عن ابن عباس في هذه الآية قال: كُتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين. وروى البخاري نحوه. و روى علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن مجاهد و عطاء و عكرمة و الحسن و زيد بن أسلم و عطاء الخراساني و الضحاك وغيرهم نحو ذلك.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴾

٦٨- روى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرِب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم، و إنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، و أن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم و قبل منهم الفداء، قال: و أنزل الله عز وجل: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. و قد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

و روى ابن مردويه أيضاً و اللفظ له و الحاكم عن ابن عمر عن النبي ﷺ لمّا أسر الأسارى يوم بدر، أُسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، و قد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فقال عمر:

أفآتهم؟ فقال: «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا، و الله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإنْ كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يُسلم الخطاب، و ماذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبابكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ الآية، قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

و عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: خيِّر أصحابك في الأسارى، إنْ شاءوا الفداء، و إن شاءوا القتل، على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء و يقتل منا. رواه الترمذي والنسائي و ابن حبان، و هذا حديث غريب جداً[1].

و روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب مَنْ عصاني، حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. و كذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد. و قال الأعمش: سبق منه أن لا يُعذب أحداً شهد بدراً. و رُوي نحوه عن سعد بن أبي وقاص و سعيد بن جبير و عطاء، و قال شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لهم بالمغفرة، ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلالٌ لكم، لمسكم فيما أخذتم من الأسارى عذاب عظيم.

٦٩- قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية، و كذا روى العوفي عن ابن عباس، وروى مثله عن أبي هريرة و ابن مسعود و سعيد بن جبير و عطاء و الحسن البصري و قتادة و الأعمش أيضاً أن المراد ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، و يستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، و جُعلتْ لي الأرض مسجداً و طهوراً، و أُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، و أعطيتُ الشفاعة، و كان النبي يُبعث إلى قومه و بُعثتُ إلى الناس عامة».

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرءوس غيرنا»[2]. و لهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

و قد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، و إن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أُسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية و ابنتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما و أخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، و إن شاء استرقَّ من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي و طائفة من العلماء، و في المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

---

(١) رجال إسناده ثقات، و قد صححه الألباني كما في الإرواء (٥/ ٤٨).

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٢٩١) لكن فيه: «من قبلكم»، و تمامه: «كانت تنزل نارٌ من السماء فتأكلها».

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

٧٠- في صحيح البخاري عن أنس بن مالك: أن رجالاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله، ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال: لا، «والله لا تذرون منه درهماً» و روى يونس بن بكير عن الزهري عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فإنَّ الله يجزيك، و أما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك و ابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد الله، و حليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر»، قال: ماذاك عندي يا رسول الله؟ قال: «فأين المال الذي دفنته أنت و أم الفضل؟ قلتَ لها: إنْ أصبتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل و عبد الله و قثم» قال: و الله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري و غير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه و ابني أخويه و حليفه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية، في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل. و قد روى ابن إسحاق أيضاً عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطاني الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، و إني لأرجو المغفرة التي وعدنا الله عز وجل.

(حديث آخر في ذلك) روى الحافظ أبوبكر البيهقي: عن أنس بن مالك قال: أُتي رسول الله بمالٍ من البحرين فقال: «انثروه في مسجدي»، قال: و كان أكثر مال أتى به رسول الله فخرج إلى الصلاة و لم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة و جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، و فاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقلُّه فلم يستطع، فقال: مُر بعضهم يرفعه إلي، قال: «لا»، قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا» فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره، حتى خفي عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم. و قد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، و في بعض السياقات أتم من هذا.

٧١- وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فيما أظهروا

لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: بالأسارى يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بفعله، حكيم فيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾

٧٢- ذكر تعالى أصناف المؤمنين، و قسمهم إلى مهاجرين: خرجوا من ديارهم و أموالهم، و جاءوا لنصر الله و رسوله، و إقامة دينه، و بذلوا أموالهم و أنفسهم في ذلك، و إلى أنصار و هم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، و نصروا الله و رسوله بالقتال معهم، فهؤلاء ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، و لهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين و الأنصار، كل اثنين إخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث. ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس، و رواه العوفي و علي بن أبي طلحة عنه، وقاله مجاهد و عكرمة و الحسن و قتادة و غير واحد.

روى الإمام أحمد: عن جرير هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، و الطلقاء من قريش و العتقاء من ثقيف، بعضهم أولياءُ بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد. و رواه الحافظ أبو يعلى عن ابن مسعود.

و قد أثنى الله و رسوله على المهاجرين و الأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية، وقال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية.

و أحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، و هذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك.

و قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم﴾ قرأ حمزة ﴿وِلايتهم﴾ بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدِلالة و الدَلالة ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا و لم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، و لا في خمسها، إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى أحمد: عن بريدة بن الحُصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بَعثَ أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، و بمن معه من المسلمين خيراً،

وقال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كَفرَ بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصالٍ أو خلال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقْبَل منهم، و كُفَّ عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، و أعلمهم إنْ فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإنْ أبوا و اختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، و لا يكون لهم في الفيء و الغنيمة نصيب إلا أنْ يجاهدوا مع المسلمين، فإنْ هم أَبَوا فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإنْ أجابوا فاقبل منهم و كفّ عنهم، فإنْ أبوا فاستعن بالله و قاتلهم» انفرد به مسلم و عنده زيادات أخر.

و قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ الآية، يقول تعالى، و إن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدوٍّ لهم، فانصروهم، فإنه واجبٌ عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، أي: مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم، و لا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. و هذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ وَالَّذينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) ﴾

٧٣- لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قَطَع الموالاة بينهم و بين الكفار، كما روى الحاكم: عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، و لا يَرِثُ مسلمٌ كافراً، و لا كافر مسلماً، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه. قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلمُ الكافرَ، و لا الكافرُ المسلم».

و في المسند و السنن: من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» و قال الترمذي حسن صحيح.

و قد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا بريءٌ من كل مسلمٍ بين ظهراني المشركين» ثم قال: «لا يتراءى ناراهما»(١).

و روى أبو داود في آخر كتاب الجهاد: عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «مَن جامع المشرك و سكن معه فإنه مثله».

و ذكر الحافظ أبوبكر بن مردويه: عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم مَن تَرضونَ دينه و خُلُقَه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض و فساد عريض» قالوا: يا رسول الله، و إنْ كان فيه؟ قال: قال: إذا أتاكم من ترضون دينه و خلقه فأنكحوه» ثلاث مرات، أخرجه أبو داود و الترمذي، ثم روى عن أبي هريرة رضي الله عنه (بنحوه).

و معنى قوله: «إلا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض و فساد عريضٌ» أي: إنْ لم تجانبوا المشركين و توالوا المؤمنين، و إلا وقعت فتنةٌ في الناس، وهو التباس الأمر، و اختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس

(١) رواه أبو داود (٢٦٤٥) و الترمذي (١٦٠٤) و النسائي (٨/ ٣٦) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه. وهو حديث حسن.

فساد منتشر عريض طويل.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

٧٤- لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة، والصفح عن الذنوب إنْ كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسْأم ولا يُمل، لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أنَّ الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان، والعمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿ والسَّابِقونَ الأَوَّلونَ ﴾ الآية، وقال: ﴿ والذينَ جاؤاْ مِن بعدهِم ﴾ الآية.

وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر، من طرق صحيحة: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْمرءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ» وفي الحديث الآخر: «مَنْ أَحبَّ قوماً فَهُوَ مِنْهُمْ» وفي رواية: حُشِرَ معهم.

وروى الإمام أحمد: عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة».

أما قوله تعالى: ﴿ بَعضُهمْ أَولَى بِبعضٍ فِي كِتابِ اللهِ ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فَرْضَ لهم ولاهم عصبة، بل يُدْلون بوارثٍ كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة، تشتمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحِلْف والإخاء، اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومَنْ لم يورثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حق حقه، فلا وصيةَ لوارث» قالوا: فلو كان ذاحق، لكان ذافرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأنفال، ولله الحمد والمنة وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ترتيبها ٩ — سورة التوبة ـ مدنية — آياتها ١٢٩

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

١ ، ٢- هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما روى البخاري عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وآخر سورة نزلت براءة. وإنما لم يبسمل في أولها، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه [1]. و أول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبابكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ﴿براءة من الله ورسوله﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له، كما سيأتي بيانه.

فقوله تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهدٌ مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ الآية، ولما سيأتي في الحديث. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته. وهذا أحسن الأقوال وأقوالها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاؤا، وأجّل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأُمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر، إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام.

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾

٣- يقول تعالى: وإعلام ﴿من الله ورسوله﴾ وتقدمٌ وإنذار إلى الناس ﴿يوم الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي: بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فإن تبتم﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فهو

(١) و هو رضي الله عنه متابع في هذا لرسول الله ﷺ إذ كانوا يكتبون الوحي بين يديه و بأمره.

﴿خَيرٌ لَّكُمْ وَ إِن تَوَلَّيْتُم﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعلَمُوا أَنَّكُمْ غَيرُ مُعجِزِي اللهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

روى البخاري رحمه الله: عن حميد عن أبي هريرة قال: بعثني أبوبكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: أنْ لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان. (و زاد في رواية) : ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر» من أجل قول الناس الحج الأصغر، فَنَبَذَ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، لم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد.

و روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله بعثه ببراءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذاالحليفة، قال: لا يُبلِّغها، إلا أنا، أو رجلٌ من أهل بيتي، فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواه الترمذي في التفسير.

و روى الإمام أحمد عن زيد بن يثيع رجل من همدان: سألنا علياً: بأي شيءٍ بُعثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة ـ قال: بُعثتُ بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومَن كان بينه وبين النبي ﷺ عهدٌ فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا، ورواه الترمذي.

وروى عبد الرزاق: عن أبي إسحاق: سألت أباجحيفة عن يوم الحج الأكبر؟ قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك. وروى عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة. وهكذا روى عن ابن عباس وعبدالله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاووس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر. وقد ورد فيه حديث مرسل.

و القول الثاني: أنه يوم النحر. فعن علي رضي الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى عبد الرزاق: عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، و كذا روى عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبدالله ابن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، واختاره ابن جرير، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر.

وروى ابن جرير: عن أبي بكرة قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير به، وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في الصحيح.

و قال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: مالكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ، فخرج بالناس، رواه ابن أبي حاتم.

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾

٤ ـ هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث، ومَن كان له عهدٌ مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وذلك بشرط: أن لا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يُوفَّى له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حَرَّضَ تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

٥ ـ اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ماهي، فذهب ابن جرير: إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة، المنصوص عليها بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة، التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عَوْد العهد على مذكور، أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة، سيأتي بيان حكمها في آية أخرى، بعدُ في هذه السورة الكريمة.

و قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحَرَم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم إنْ شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، الرصد في طرقهم ومسالكهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

و لهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة، على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإنَّ أشرَف أركان الإسلام بعد الشاهدتين: الصلاة الي هي حق الله عزوجل، وبعدها أداء الزكاة، التي هي نفعٌ متعدٍ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة،

وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة» الحديث .

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبابكر ما كان أفقهه .

روى الإمام أحمد : عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا فقد حَرُمتْ علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه .

و هذه الآية الكريمة هي آية السيف ، التي قال فيها الضحاك بن مزاحم : إنها نَسَخت كل عهدٍ بين النبي ﷺ وبين أحدٍ من المشركين ، وكل عقد وكل مدة .

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد ، إنْ لم يدخلوا في الإسلام ، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق ؛ وأذهب الشرط الأول . وروى ابن أبي حاتم : عن علي بن أبي طالب : بُعث النبي ﷺ بأربعة أسياف : سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى : **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾** هكذا رواه مختصراً[1] ، وأظن أن السيف الثاني : هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** ، (و السيف الثالث) قتال المنافقين في قوله : **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾** الآية . (والرابع) قتال الباغين في قوله : **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾** .

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه ، فقال الضحاك والسدي : هي منسوخة بقوله تعالى : **﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾** وقال قتادة بالعكس .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾

٦- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم **﴿اسْتَجَارَكَ﴾** أي : استأمنك فأجبه إلى طُلبته حتى يسمع كلام الله ، أي : القرآن تقرؤه عليه ، وتَذْكر له شيئاً من أمر الدين ، تقيم به عليه حجة الله **﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾** أي : وهو آمن مستمر الأمان ، حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾** أي : إنما شَرَعْنا أمانَ مثل هؤلاء ، ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله في عباده .

و من هذا كان رسول الله ﷺ يُعْطي الأمان لمن جاءه مسترشداً ، أو في رسالة ، كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم : عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم ، واحداً بعد واحد ، يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسولَ الله ﷺ ما بهرهم ، ومالم

---

(١) وفيه انقطاع .

يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

و لهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لو لا أن الرسل لا تقتل، لضربت عنقك» وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، و أمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه.

و الغرض: أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أُعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه؛ لكن قال العلماء: لا يجوز أن يُمكَّن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكَّن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي، وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) ﴾

٧- يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين، ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان ويُتركون فيماهم فيه، وهم مشركون بالله، كافرون به وبرسوله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد، ومالؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومَكَّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا: الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، و من استمر على كفره، وفرَّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان، والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾

٨- يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم، والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهدٌ لشركهم بالله تعالى، وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين، وأديلوا عليهم، لم يُبقوا

ولم يَذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعوفي عن ابن عباس: الإل: القرابة، والذمة: العهد، وكذا قال الضحاك والسدي. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الإل الله؛ وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره، وروى ابن جرير: عن أبي مجلز قال: مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل، كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول أظهر وأشهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً (الإل): العهد. وقال قتادة: (الإل): الحلف.

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑨ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⑩ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑪ ﴾

٩ ـ ١١ ـ يقول تعالى ذماً للمشركين، وحثاً للمؤمنين على قتالهم **﴿اشتروا بايات الله ثمناً قليلاً﴾** يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله، بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة **﴿فصدوا عن سبيله﴾** أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق **﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ* لاَ يَرقُبُونَ فِي مُؤمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾** تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها **﴿فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾** إلى آخرها تقدمت.

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ⑫ ﴾

١٢ ـ يقول تعالى: **﴿و إنْ نَّكثُ﴾** هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم **﴿و طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾** أي: عابوه وانتقصوه، ومن ههنا: أُخذ قتلُ من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص، ولهذا قال: **﴿فقاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهونَ﴾** أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدَّد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر! فقال سعيد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه. وروى عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد. وروى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه مثله، والصحيح أن الآية عامة، وإنْ كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم، و قال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس، حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فو الله لأنْ أقتل رجلاً منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: **﴿فقاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ﴾** رواه ابن أبي حاتم.

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑬ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

١٣- وهذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك، استمروا على وجههم طلباً للقتال، بغياً وتكبيراً، كما تقدم بسط ذلك، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة، أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد والمنة.

و قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أنْ يَخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر، وما شئت كان ومالم أشأ لم يكن.

١٤ ، ١٥- ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم، الذي لا يجور أبداً، ولا يُضيِّع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه في الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

١٦- يقول تعالى أم حسبتم أيها المؤمنين أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين، كما قال الشاعر:

و ما أدري إذا يممت أرضاً ... أريد الخير أيهما يليني

و قد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

و الحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بيّن أن له فيه حكمة، وهو: اختبار عبيده من يطيعه ممن

يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ماهو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدَّره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾

١٧- يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله، التي بينت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ، والمشرك لقال: مشرك ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بشركهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. وروى عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمدﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يُكرم مَن زاره فيها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، رواه ابن مردويه. وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر، ليس هذا موضع بسطها[1].

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

١٨- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول: مَن وحَّد الله وآمن باليوم الآخر، يقول: من آمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيهﷺ ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهي: الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: و«عسى» من الله حق.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) والحديث قد صح مرفوعاً، ولله الحمد والمنة، ولفظه: «من سمعَ النداء فلم يأته، فلا صلاة له إلا من عُذر» رواه ابن ماجه (٧٩٣) والحاكم (١/ ٢٤٥، ٢٤٦) فقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وكذا قال الحافظ في بلوغ المرام، وانظر الإرواء (٥٥١).

اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

١٩- وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب، حين أسر ببدر قال: لأنْ كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، و نسقي ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ـ إلى قوله ـ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. يعني: أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وروى عبد الرزاق عن الشعبي قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلما في ذلك، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية كلها، وهكذا قال السدي وذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، فعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول اللهﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أُبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خيرٌ مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللهﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول اللهﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ـ إلى قوله ـ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ رواه مسلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾

٢٣- أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإنْ كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾، أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية.

٢٤- ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته، على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إنْ كانتْ هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ماذا يحلُّ بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

و روى الإمام أحمد: عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول اللهﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله يا رسول الله، لأنتَ أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول اللهﷺ «لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله:

«الآن ياعمر» انفرد بإخراجه البخاري. وقد ثبت في الصحيح عنهﷺ أنه قال: «و الذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

و روى الإمام أحمد: وأبو داود واللفظ له: من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سَلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)﴾

٢٥- قال ابن جريج عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة.

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم، وإحسانه لديهم، في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بعددهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإنَّ يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول اللهﷺ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده، وإنْ قلَّ الجمع، فكم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

و قد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ: «خيرُ الصحابة أربعة، وخيرُ السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قِلَّة» وهكذا رواه أبو داود والترمذي.

و قد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة، في شوال سنة ثمان من الهجرة. وذلك لما فرغﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول اللهﷺ، فبلغه أنَّ هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول اللهﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف، يقال له: حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم، فعند ذلك وَلَّى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبتَ رسول اللهﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو

ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة، ويقول: «إليَّ يا عباد الله، إليَّ أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، ثم أمر ﷺ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يعني: شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على أن لا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: ياأصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ، أمرهم ﷺ أنْ يَصْدُقُوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»، ثم رَمَى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ. وروى الإمام أحمد (نحو ما سبق) وهكذا البيهقي في دلائل النبوة وابن إسحاق.

و في الصحيحين: عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذٌ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان.

٢٦- ولهذا قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾** أي: طمأنينته وثباته على رسوله **﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** أي: الذين معه **﴿وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾** وهم الملائكة، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى أم برثن[1]: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجالٌ بيض حِسان الوجوه، فقالوا لنا: «شاهت الوجوه، ارجعوا» قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

و روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولَّى عنه الناس، وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نُوَلِّهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدُماً، فحادت بغلته فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله، قال: «ناولني كفاً من التراب»، فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً،

(١) في الأصل: مولى ابن برثن، و التصويب من تفسير ابن جرير (١٤/ ١٨٦)، و التهذيب و غيرهما، وهو ابن آدم، تابعي صدوق.

قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك، قال: «اهتف بهم» فهتفت فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أدبارهم، ورواه الإمام أحمد. وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نُصرتُ بالرعب، وأتيت جوامع الكلم» ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٧- وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير، ما بين صبي وامرأة، فردَّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونَفَّل أُناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة: مالك بن عوف النَّصْري واستعمله على قومه، كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله   في الناس كلِّهم بمِثل محمد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾

٢٨- أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً، بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين. أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً. وروى عبد الرزاق: عن جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة.

و قال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه: فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحلَّ طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

و قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنّا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من وجهٍ غير ذلك ﴿إِن شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من

الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي : بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي : فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ، ولهذا عوّضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

٢٩- وقوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لمَّا كفروا بمحمد ﷺ ، لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً ، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، لأن جميع الأنبياء بشّروا به وأمروا باتباعه ، فلما جاء كفروا به وهو أشرف الرسل ، عُلم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ، لأنه من الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم أفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ .

و هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب ، بعد ما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واستقامت جزيرة العرب ، أمرَ الله ورسوله بقتال أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم ، فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك فنزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَنْ يرى أنه لا تُؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجرَ ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه ، و قال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك ، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا ، والله أعلم .

و قوله : ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي : إنْ لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي : عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي : ذليلون حقيرون مهانون ، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ، ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء ، كما جاء في صحيح مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه» . ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة ، في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحي منها ما كان خططاً للمسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحدٌ من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل مَن رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زيناً حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقَبلنا عليه الأمان، فإنْ نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾

٣٠- وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى، فأما اليهود: فقالوا في العزير: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادّعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

٣١- وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق: عن عَدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَديّ إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء

وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول؟ أيُفرُّك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرُّك، أيفرُّك أن يقال لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إنَّ اليهودَ مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

و هكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً﴾ أي: الذي إذا حرَّم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء، والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

٣٢- يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ﴾ أي: ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بدَّ أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل كافراً، لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً لأنه يُغطِّي الحب في الأرض، كما قال: ﴿يُعْجِبُ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.

٣٣- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملكُ أمتي ما زُوِي لي منها».

و روى الإمام أحمد: عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين، يُعزُّ عزيزاً، ويذلُّ ذليلاً، عزاً يعزه الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر» فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية.

و في المسند أيضاً: عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت: إني من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنتَ أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألستَ من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت: بلى! قال: «فإنَّ هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم

يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم مالذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعَفةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعتُ بها، قال: «فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظَّعينة من الحيرة حتى تطوفَ بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُبذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

و روى مسلم: عن عائشة رضي الله قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللاتَ والعزى» فقلت: يا رسول الله، إنْ كنتُ لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ الآية أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يَبعثُ الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خَير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)** ﴾

٣٤- قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال، فإنَّ الأحبار: هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿**لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾ والرهبان: عباد النصارى، و القسيسون علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً**﴾. والمقصود: التحذير من علماء السوء، وعُبَّاد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: مَنْ فَسَد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.

و في الحديث الصحيح: «لتركبنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**لَيَأْكُلُونَ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرفٌ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار، وباؤا بغضب من الله تعالى.

و قوله تعالى: ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ**

اللهِ﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

و هل أفسد الدين إلا الملوك　　　و أحبار سوء ورهبانها

و أما الكنز: فروى مالك عن ابن عمر: هو المال لا تؤدى زكاته، وروى الثوري وغيره عنه قال: ما أُدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وقال عمر بن الخطاب نحوه، وروى البخاري: عن خالد ابن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها اللهُ طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبدالعزيز وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

و قد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة، وذم التكثرمنهما، أحاديث كثيرة، ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي.

روى الإمام أحمد: عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل. قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال: «قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تُعين أحدكم على أمر الآخرة» ورواه الترمذي وابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلاً فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة نعبث بها، فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت، إلا وأنا أخطمها وأزمها، غير كلمتي هذه فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كَنَزَ الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم، ولهذا يقال: مَنْ أحبَّ شيئاً وقدَّمه على طاعة الله عُذِّب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عُذِّبوا بها، كما كان أبولهب لعنه الله جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً، في جيدها، أي: عُنُقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ أي: تجمع من الحطب في النار، وتُلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه، ممن هو أشفق عليه في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. روى سفيان عن عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته. وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرةمرفوعاً، ولا يصح رفعه، والله أعلم.

و روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول: «مَن تَرَكَ بعده كنزاً مُثِّل له يوم

القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزُك الذي تركته بعدك، ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيَقضمها ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان، وأصل هذا الحديث في الصحيحين.

و في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يُؤدي زكاة ماله، إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فَيُكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث.

و روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: فقلت: إنها لفينا وفيهم، ورواه ابن جرير فذكره، وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أنْ أُقبل إليه، قال: فأقبلت إليه، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال: لي تنح قريباً، قلت: والله لن أدع ما كنتُ أقول.

(قلت): كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله، فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها، فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب، فقال: ويحك إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

و هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها عامة، وقال السدي: هي في أهل القبلة.

و قال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشِّر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حَلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً، قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيتُ هؤلاء إلا كرهوا ما قلتَ لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً.

و في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يَسُرُّني أن عندي مثل أحد ذهباً، يمر على ثلاثة أيام وعندي منه شيء، إلا دينار أرصده لدين». فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي حَدَا بأبي ذر على القول بهذا.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية، فجعلت تقضي حوائجه ففضلتْ معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً، قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تنوبك وللضيف ينزل بك؛ قال: إن خليلي عَهِدَ إلي أن أيما ذهبٍ أو فضةٍ أُوكئ عليه فهو جمرٌ على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل. وزاد (في رواية) إفراغاً.

و روى الإمام أحمد: عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة فوُجِد في مئزره دينار، فقال رسول الله: «كية» ثم توفى رجل آخر، فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»[1].

و قال ابن أبي حاتم: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جَعل الله بكل قيراطٍ صفحةً من نار، يُكوى بها من قدمه إلى ذقنه».

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾

٣٦- روى الإمام أحمد: عن أبي بكرة: أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال: «ألا أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذاالحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم ـ وأحسبه قال ـ وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلَّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، فلعل مَن يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» رواه البخاري في التفسير وغيره ومسلم.

و قوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» تقريرٌ منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيتٌ للأمر على ما جعله الله في أول الأمر، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسئ ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض».

و قد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة. وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء.

و قوله تعالى: **﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾** فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم «البَسْل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً، وأما قوله: «ثلاثة متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبيَّن ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهراً

---

(١) قال العلماء: هذا من التشديد على المدين إذا لم يُرد الوفاء، و عدم صلاة الفاضل عليه.

وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرَّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، ويشتغلون بأداء المناسك، وحرَّم بعده شهراً آخر وهو المحرم، ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرَّم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يَقْدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

و قوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحذو بها على ما سبق من كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة، لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قَتَل في الحرم أو قتل ذا محرم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً، وعظَّم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإنْ كان الظلم على كل حال عظيماً، و لكن الله يُعظِّم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه: اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذِكْره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظِّموا ما عظَّم الله، فإنما تعظم الأمور ما عظَّمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

و قال محمد بن إسحاق ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وهذا القول اختيار ابن جرير.

و قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام، هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: (أحدهما): وهو الأشهر: أنه منسوخ، لأنه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، ولو كان محرماً في الشهر الحرام، لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم، لجؤوا إلى الطائف، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

و القول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

و أما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه

حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام، إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿**الشَّهرُ الحرامُ بالشَّهرِ الحرامِ والحُرماتُ قِصاصٌ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلا تُقاتلوهُمْ عندَ المسجدِ الحرامِ حتّى يُقاتلوكُمْ فيهِ فإن قَاتَلوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**﴾ الآية.

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم، لأنه يُغتفر في الدوام مالا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك[1].

وقد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

٣٧- هذا مما ذم الله تعالى به المشركين، من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغَضَبية والشهامية والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم، المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم، فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرَّم الله: الأشهر الأربعة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النسيء: أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يُوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحلّه للناس، فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: ﴿**إنَّمَا النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفرِ**﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه. وروى العوفي عن ابن عباس نحوه.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً مفيداً حسناً، فقال: كان أول من نَسَأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله عز وجل: القَلَمَّس، وهو: حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك... فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً، فحرَّم رجباً وذا القعدة وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرَّم الله، فيحل ما حرَّم الله، يعني ويحرم ما أحل الله. والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ

(١) لم يذكر المصنف رحمه الله الأحاديث التي وعد بها!

الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

٣٨- هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال، في شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله**﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿**اثاقلتم إلى الأرض**﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض، وطيب الثمار ﴿**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة**﴾ أي: مالكم فعلتم هكذا؟ أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة، ثم زهّد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغّب في الآخرة، فقال: ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ كما روى الإمام أحمد: عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يَجعلُ أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة، انفرد بإخراجه مسلم. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الأعمش: ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ قال: كزاد الراكب. وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني الذي أُكفن فيه أنظر إليه، فلما وُضع بين يديه نظر إليه، فقال: أمالي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار، إنْ كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك في غرور.

٣٩- ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿**ويستبدل قوماً غيركم**﴾ أي: لنصرة نبيه، وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾.

﴿**ولا تضروه شيئاً**﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

و قد قيل: إن هذه الآية وقوله: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾ وقوله: ﴿**ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله**﴾ أنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة**﴾ روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم، ورده ابن جرير، وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

٤٠- يقول تعالى: ﴿**إلا تنصروه**﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين**﴾ أي: عام الهجرة، لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه،

فخرج منهم هارباً، صحبة صدّيقه وصديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثار، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبوبكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكّنه ويثبته، و يقول: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما». كما روى الإمام أحمد: عن أنس: أن أبابكر حدَّثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» أخرجاه في الصحيحين.

و لهذا قال تعالى: **﴿فأنزلَ اللهُ سكينَتهُ عليهِ﴾** أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول ﷺ، في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر، وروى عن ابن عباس وغيره قال: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة. وهذا لا ينافي تجدُّد سكينة خاصة بتلك الحال، ولهذا قال: **﴿وَ أيَّدهُ بِجنُودٍ لَّمْ تَروهَا﴾** أي: الملائكة **﴿وَ جعلَ كَلمةَ الذينَ كفرُوا السُّفْلَى وَ كلمةُ اللهِ هيَ العُلْيَا﴾** قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا: الشِّرك، وكلمة الله هي: لا إله إلا الله.

و في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله». وقوله: **﴿و اللهُ عزيزٌ﴾** أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يضام مَن لاذَ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه **﴿حَكيمٌ﴾** في أقواله وأفعاله.

﴿ انفرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

٤١- أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله، من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، فقال: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾**. وعن أنس: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدُوا بأموالكمْ وأنفُسكمْ في سبيلِ اللهِ﴾** فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً، جهِّزوني يَا بنِيَّ، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحرفمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها، إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير فدفنوه فيها[1]. وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل ابن حيان والشعبي وزيد بن أسلم، أنهم قالوا: في تفسير هذه الآية **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** كهولاً وشباناً، وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد، وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين، وكذا قال أبو صالح وغيره، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضا: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

و قال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر، الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل، نفر إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة، وقد روى عن

(١) حديث صحيح، رواه أحمد في الزهد (٢٥٠، ٢٥١) و ابن سعد (٣/ ٥٠٧) و الحاكم (٣/ ٣٥٣) و قال: صحيح على شرط مسلم.

ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾** وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله.

و روى ابن جرير عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدراً، ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاماً واحداً، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً. وروى ابن جرير: عن أبي راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عِظَمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة البعوث[1] **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾**.

ثم رغَّب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: **﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تَغرمون في النفقة قليلاً، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفَّل الله للمجاهد في سبيله إنْ توفاه، أن يُدخله الجنة، أو يَرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»[2]، ولهذا قال الله تعالى: **﴿كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تُحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**.

و من هذا القبيل: ما رواه الإمام أحمد: عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسْلم»، قال: أجدني كارهاً، قال: «أسلم ولو كنتَ كارهاً».

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾

٤٢- يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك، فقال: **﴿لو كان عرضاً قريباً﴾** قال ابن عباس: غنيمة قريبة **﴿وسفراً قاصداً﴾** أي: قريباً أيضاً **﴿لاتبعوك﴾** أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، **﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾** أي: المسافة إلى الشام **﴿وسيحلفون بالله﴾** أي: لكم إذا رجعتم إليهم **﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾** أي: لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: **﴿يُهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾**.

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾

٤٣- روى ابن أبي حاتم: عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة، فقال: **﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾** وكذا قال مورق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إنْ شاء، فقال: **﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾** الآية. وكذا روى عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا

(١) في ابن جرير (١٤/ ٢٦٨): البحوث، و انظر التعليق عليه.

(٢) الحديث في الصحيحين.

رسول الله ﷺ فإنْ أذن لكم فاقعدوا، وإنْ لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: **﴿حتَّى يَتبيَّنَ لكَ الذينَ صَدَقُوا﴾** أي: في إبداء الأعذار **﴿وتعلمَ الكاذِبينَ﴾** يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو، وإنْ لم تأذن لهم فيه.

٤٤- ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو، أحدٌ يؤمن بالله ورسوله، فقال: **﴿لاَ يَستأذِنُكَ﴾** أي: في القعود عن الغزو **﴿الذينَ يؤمنونَ باللهِ واليوم الآخرِ أن يُجاهِدُوا بأموالهِمْ وأنفسهِمْ﴾** لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا **﴿واللهُ عليمٌ بالمتقِينَ * إنَّما يَستأذِنُكَ﴾** أي: في القعود ممن لا عذر له **﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم **﴿وارتابتْ قلوبُهمْ﴾** أي: شكت في صحة ما جئتهم به **﴿فهمْ في رَيبِهِمْ يترَدَّدونَ﴾** أي: يتحيرون، يُقدِّمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدمٌ ثابتة في شيء، فهم قومٌ حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

٤٦- يقول تعالى: **﴿وَلو أرادُوا الخُروجَ﴾** أي: معك إلى الغزو **﴿لأعَدُّوا لهُ عُدَّةً﴾** أي: لكانوا تأهبوا له **﴿ولكِن كرِهَ اللهُ انبِعاثَهمْ﴾** أي: أبغض أن يخرجوا معكم قدراً **﴿فَثبَّطهمْ﴾** أي: أخَّرهم **﴿وَقيلَ اقعُدوا مَعَ القاعِدينَ﴾** أي: قَدراً.

٤٧- ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: **﴿لوْ خرجُوا فيكُم مَّا زادُوكُمْ إلاَّ خَبالاً﴾** أي: لأنهم جبناء مخذولون **﴿وَلأوضَعُوا خِلالَكمْ يبغُونكُمُ الفِتنَةَ﴾** أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة **﴿وَفيكُمْ سَمَّاعونَ لهمْ﴾** أي: مطيعون لهم، ومستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شرٍّ بين المؤمنين، وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير **﴿وَفيكُمْ سَمَّاعونَ لهمْ﴾** أي: عيون يسمعون لهم الأخبار، وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عامٌّ في جميع الأحوال.

و المعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه، فقال: **﴿وَاللهُ عليمٌ بالظَّالمينَ﴾** فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: **﴿لو خَرجُوا فيكُم مَّا زادُوكمْ إلاَّ خَبالاً﴾** فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا، ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: **﴿وَلو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنهُ وإنَّهمْ لكاذِبونَ﴾** وقال تعالى: **﴿ولو علمَ اللهُ فيهمْ خيراً لأسمَعهمْ ولوْ أسمعهمْ لتولَّوا وَّهُم مُّعرضُونَ﴾** وقال تعالى: **﴿وَلوْ أنَّا كتَبْنا علَيهِمْ أنِ اقتُلوا أنفُسكمْ أو اخرُجُوا مِن دِيارِكُم مَّا فَعلوهُ إلاَّ قليلٌ مِّنهمْ ولَو أنَّهمْ فعلُوا مَا يُوعظونَ بهِ لكانَ خيراً لَّهمْ وأشدَّ تثبِيتاً * وإذاً لآتيناهُم مِّن لَّدُنَّا أجْراً عظيماً * ولهَدَيناهُمْ صِراطاً مُّستقِيماً﴾** والآيات في هذا

كثيرة.

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾

٤٨- يقول تعالى مُحرِّضاً لنبيه ﷺ على المنافقين ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك وإخماده، مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة، رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نَصَره الله يوم بدر، وأعلا كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمرٌ قد توجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى جاءَ الحقُّ وظهرَ أمرُ اللهِ وهمْ كارهونَ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾

٤٩- يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿ائْذَن لِّي﴾ في القعود ﴿ولاَ تفتِنِّي﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿ألاَ في الفتنةِ سقطُوا﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة «هل لك يا جدُّ العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله لقد عَرَف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه ﴿و مِنهم مَّن يقولُ ائْذَن لِّي ولاَ تفتِنِّي﴾ الآية.

أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد ابن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة. وفي الصحيح[1]: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، على إنا نُبخِّله. فقال رسول الله ﷺ: «و أي داءٍ أدوأُ من البخل! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض: بشر بن البراء بن معرور».

و قوله تعالى: ﴿و إنَّ جهنَّمَ لمُحيطةٌ بالكافِرينَ﴾ أي: لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾

٥٠- يُعْلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من حسنة، أي: فتحٌ ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك ﴿و إن تُصبكَ مُصيبةٌ يقولُوا قدْ أخذْنا أمرَنا مِن قبلُ﴾ أي:

(١) الحديث ليس في الصحيح! و إنما رواه الحاكم (٣/ ٢١٩) و أبو الشيخ في الأمثال (٩٤) و غيرهما بسند حسن. و له شاهد من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب مرسلاً، رواه يعقوب بن سفيان في تاريخه، و أبو الشيخ أيضاً. و له طرق و شواهد غير ما ذكرنا، راجع الإصابة (١/ ١٥٥). و لعل قد اشتبه على المصنف حديث جابر الذي رواه البخاري في الخمس (٦/ ٢٣٦) و في المغازي (٨/ ٩٥) لما سأل أبا بكر ثلاثاً ثم قال: إما أن تعطيني و إما أن تبخل عني، قال أبو بكر: قلتَ تبخل عني؟ و أي داء أدوأ من البخل..؟

قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَ يتولّوا وّهُمْ فَرحونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول اللهﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنا إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئته وقدره ﴿وهوَ مولاَنَا﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَ عَلَى اللهِ فليتَوكّل المُؤمنونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾

٥٢- يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَبَّصونَ بِنا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحُسنيَين﴾ شهادة أو ظَفرٌ بكم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. ﴿و نحنُ نتربصُ بكمْ﴾ أي: ننتظر بكم ﴿أن يُصيبَكم اللهُ بعذابٍ مِّنْ عِندِهِ أوْ بأيدِينَا﴾ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما ﴿أن يُصيبَكُم اللهُ بعذابٍ مِّن عندِهِ أوْ بأيدِينا﴾ بسبي أو بقتل ﴿فتربَّصُوا إنَّا معكم مُّتربِّصونَ﴾.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿قلْ أنفقُوا طوعاً أو كَرهاً﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَن يَتَقبَّلَ منكمْ إنَّكمْ كُنتمْ قوماً فَاسقينَ﴾.

٥٤- ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، لأنهم ﴿كفروا بالله وبرسوله﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَ لاَ يأتونَ الصَّلاةَ إلاَّ وهمْ كُسالى﴾ أي: ليس لهم قَدَم صحيح، ولا هِمَّةَ في العمل ﴿ولاَ يُنفِقونَ﴾ نفقة ﴿إلاَّ وهمْ كارهونَ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوقﷺ «أن الله لا يَملُّ حتى تملُّوا»[1] و «أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»[2] فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة، ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾

٥٥- يقول تعالى لرسولهﷺ ﴿فلاَ تُعجبْكَ أموالهمْ ولا أولادُهمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿و لاَ تمدنَّ عينيْكَ إلىَ ما متَّعنا بهِ أزواجاً مِّنهمْ زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لنَفتِنَهمْ فيهِ ورزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبْقَى﴾ وقال: ﴿أيحسَبونَ أنَّمَا نُمدُّهم بهِ من مالٍ وبنينَ ۞ نُسارعُ لهم في الخيراتِ بَل لاَّ يشعرونَ﴾.

و قوله: ﴿إنَّما يريدُ اللهُ ليعذِّبهم بها في الحياةِ الدُّنيا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القولُ القوي الحسن.

و قوله: ﴿وتزهقَ أنفسُهم وهمْ كافرونَ﴾ أي: ويُريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم، وأشد لعذابهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٠١)، (٣/ ٣٦) و مسلم (١/ ٥٤٢).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (٢/ ٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾

٥٦- يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم، وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ يميناً مؤكدة ﴿وما هم منكم﴾ أي: في نفس الأمر ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف.

٥٧- ﴿لو يجدون ملجأً﴾ أي: حصناً يتحصنون به، وحرزاً يتحرزون به ﴿أو مغارات﴾ وهي التي في الجبال ﴿أو مدخلاً﴾ وهو السرَّب في الأرض والنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سرَّ المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال: ﴿لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴾

٥٨- يقول تعالى ﴿ومنهم﴾ أي: ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾ أي: يعيب عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ أي: يغضبون لأنفسهم، وقال قتادة: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وهذا الذي ذكره قتادة، يشبه ما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة ـ واسمه حرقوص ـ لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل! فقال: «لقد خبتُ وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرجُ من ضئضئ هذا قومٌ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شرُّ قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث.

٥٩- ثم قال تعالى منبهاً لهم، على ما هو خير لهم من ذلك، فقال: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده. وهو قوله ﴿قالوا حسبنا الله﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ، وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾

٦٠ - لمَّا ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبيﷺ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بيَّنَ تعالى أنه هو الذي قسمها، وبيَّن حكمها، وتولَّى أمرها بنفسه، ولم يكل قَسْمها إلى أحد غيره، فجزَّأها لهؤلاء المذكورين.

و قد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها، أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: **(أحدهما)** أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة **(و الثاني)** أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويُعطَى جميع الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذُكرتْ الأصناف ههنا لبيان المصرف، لا لوجوب استيعاب الإعطاء، ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

و إنما قدَّم الفقراء ههنا على البقية، لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، والجمهور على خلافه، وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد: أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف يتبع الناس، وقال قتادة: الفقير مَن به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم.

و لنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية، فأما الفقراء: فعن ابن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سَوي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وعن أبي هريرة مثله.

و عن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبيﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب» رواه أحمد وأبوداود والنسائي بإسناد جيد قوي. و أما المساكين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «ليس المسكينُ بهذا الطوَّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غِنىً يُغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً» رواه الشيخان.

و أما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة، يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول اللهﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم: عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسو اللهﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحلُّ لمحمدٍ ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس».

و أما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم مَن يُعطى ليُسلم، كما أعطى النبيﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إلي، كما روى الإمام أحمد: عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول اللهﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي. ورواه مسلم والترمذي. ومنهم مَن يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة، من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، مائة من

الإبل، وقال: «إني لأُعطي الرجلَ وغيره أحبُّ إليَّ منه، خشية أنْ يكبه الله على وجهه في نار جهنم».

و في الصحيحين: عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبيﷺ بذُهيبة في تُربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم». ومنهم مَن يُعطى لما يُرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

و هل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبيﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر الشعبي وجماعة، أنهم: لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يعطون، لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

و أما الرقاب: فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما. وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة. وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق، أي: أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالاً، و قد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها، حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿و ما تُجزَونَ إلاّ ما كُنتُمْ تَعملونَ﴾. وعن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيﷺ قال: «ثلاثةٌ حقٌ على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يُريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود.

و في المسند: عن البراء بن عازب، قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دُلَّني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني من النار، فقال: «أعتق النَّسمة، وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أوليسا واحداً؟ قال: «لا، عتقُ النسمة أن تَفرَّدَ بعتقها، وفكُّ الرقبة أن تعين في ثمنها».

و أما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمَّل حمالةً، أو ضمن ديناً فلزمه، فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه، أو في معصيةٍ ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب: حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمَّلت حمالة فأتيت رسول اللهﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجلٌ تحمَّل حمالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحتْ ماله، فحلت له المسألة حتى يُصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، ورجل أصابته فَاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة، سُحتٌ يأكلها صاحبها سحتاً» رواه مسلم.

و عن أبي سعيد قال: أُصيب رجل في عهد رسول اللهﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي: «تصدَّقوا عليه» فتصدق الناس عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبيﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم.

و أما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحديث، وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلدٍ، ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيُعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده، وإنْ كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفراً من بلده، وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجلٍ اشتراها بماله، أو غارمٍ، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكينٍ تُصدِّقُ عليه منها فأهدى لغني».

و قوله: ﴿فريضةً مِّن اللهِ﴾ أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿و اللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها، وبمصالح عباده ﴿حكيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه، ويحكم به لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

٦١- يقول تعالى: ومن المنافقين قومٌ يؤذنون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئاً صدَّقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو أُذنُ خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤمِنُ باللهِ ويُؤمِنُ لِلْمُؤمنينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين ﴿وَ رحمةٌ للذينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿وَ الذينَ يُؤذونَ رسولَ اللهِ لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) ﴾

٦٢- قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يحلِفونَ باللهِ لكمْ ليُرضُوكمْ﴾ الآية. قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فأنزل الله الآية [1].

٦٣- وقوله تعالى: ﴿ألمْ يعلمُوا أنَّه مَن يُحادِدِ اللهَ ورسولَه﴾ الآية، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حد، والله ورسوله في حد ﴿فأنَّ لهُ نارَ جهنَّمَ خالداً فيها﴾ أي: مهاناً معذباً و﴿ذلكَ الخِزيُ العظيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

---

(١) أخرجه عنه ابن جرير (١٤/ ٣٢٩) بإسناد حسن، و أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٦) عن أسباط عن السدي. و أسباط هو ابن نصر فيه ضعف، و لم أره مرفوعاً، و الله أعلم. و عزاه السيوطي في الدرر المنثور (٤/ ٢٢٨) لابن المنذر.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾

٦٤- قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيّوك بما لم يُحيّك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يُعذّبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ وقال في هذه الآية: ﴿قل استهزؤا إنّ الله مُخرجٌ مّا تحذرون﴾ أي: إنّ سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أم حسِبَ الذين في قلوبهم مّرضٌ أن لّن يُخرجَ اللهُ أضغانهم﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ولتعرفنّهمْ في لحنِ القولِ﴾ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة: الفاضحة، فاضحة المنافقين.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾

٦٥- روى عبد الله بن وهب: عن عبد الله بن عمر قال: قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تنكبُه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أبالله وآياته ورسوله كُنتمْ تستهزئونَ؟﴾ الآية. وقد رواه الليث بنحو من هذا.

و قوله: ﴿لاَ تعتذروا قَدْ كفرتُم بعدَ إيمانكمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إن نّعفُ عن طائفة مّنكمْ نُعذّبْ طائفةً﴾ أي: لا يُعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) ﴾

٦٧- يقول تعالى منكراً على المنافقين، الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يأمرونَ بالمُنكرِ وينهَونَ عن المَعروفِ ويَقبضُونَ أيديَهمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فنَسِيَهمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿فاليومَ ننساكُمْ كما نسيتُم لقاءَ يومِكُمْ هذا﴾.

﴿إنّ المنافقينَ هُم الفاسِقونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

٦٨- وقوله: ﴿وعدَ اللهُ المُنافقينَ والمنافقاتِ والكُفّارَ نارَ جهنّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خالدينَ فيها﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هيَ حسبُهم﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿ولَعنهُم اللهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم ﴿ولهُمْ عذابٌ مُّقيمٌ﴾.

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) ﴾

٦٩- يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما أصاب من قبلهم، وقوله: ﴿بِخَلاقِهِمْ﴾ قال الحسن: بدينهم. وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: في الكذب والباطل ﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها، لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتتبعُنَّ سَنَن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحرَ ضب لدخلتموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب، قال: «فمن». وهذا الحديث له شاهد في الصحيح[1].

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

٧٠- يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تخبروا خبر مَنْ كان قبلكم، من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذَّبوا هوداً عليه السلام ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام، وعقروا الناقة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نَصَره الله عليهم، وأيّده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة، وعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ أي: الأمة المؤتفكة. وقيل: أم قراهم، وهي: سدوم. والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإزاحة العلل.

﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

٧١- لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال:

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام (١٣/ ٣٠٠) من حديث أبي هريرة و أبي سعيد رضي الله عنهما. و رواه مسلم في العلم (٤/ ٢٠٥٤) من حديث أبي سعيد.

﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهمْ أولياءُ بعضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه، وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

و قوله: **﴿يأمرونَ بالمعروفِ وينهَونَ عَنِ المُنكَرِ﴾** كقوله تعالى: **﴿وَ لتكُن مِّنكمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إِلَى الْخَيرِ ويَأمرونَ بالمعروفِ وينهَونَ عَنِ المُنكَرِ﴾** الآية. وقوله: **﴿و يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ﴾** أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه **﴿و يُطيعونَ اللهَ ورسولَه﴾** أي: فيما أَمَرَ، وترك ما عنه زجر **﴿أولئكَ سَيَرْحمُهمُ اللهُ﴾** من اتصف بهذه الصفات. **﴿إنَّ اللهَ عزيزٌ﴾** أي: يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين **﴿حكيمٌ﴾** في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾

٧٢- يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات، من الخيرات والنعيم المقيم في **﴿جناتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها﴾** أي: ماكثين فيها أبداً **﴿و مساكنَ طيِّبةً﴾** أي: حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين: من حديث أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أنْ يَنظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

و به قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجوَّفة، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه.

و فيهما أيضاً: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو حبس في أرضه التي وُلد فيها» قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إنَّ في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». و عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراؤون الكوكب في السماء» أخرجاه في الصحيحين.

ثم ليُعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة. كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علي فَسَلُوا الله لي الوسيلة» قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ واحد، وأرجو أن أكون أنا هو».

و في صحيح مسلم: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه مَن صلَّى علي صلاةً واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا

لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة يوم القيامة».

و في مسند الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنةُ ذهبٍ ولبنةُ فضة، ومِلاَطها المسكُ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَن يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»، وروى عن ابن عمر مرفوعاً نحوه.

و عند الترمذي: من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لغُرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأَدَامَ الصيام، وصلَّى بالليل والناس نيام» ثم قال حديث غريب. ورواه الطبراني من حديث عبد الله ابن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكلٌّ من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبومالك الأشعري، فالله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم، مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك رحمه الله: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عز وجل يقول لأهل الجنة: فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا مالم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾

٧٣- أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعِثَ رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وسيف للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

و قال ابن مسعود في قوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال بيده: «فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[1] فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم؛ وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين

بالكلام وهو مجاهدتهم؛ وعن مقاتل والربيع مثله.

و قال الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم.

٧٤- وقوله: ﴿يَحلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾. روى موسى بن عقبة عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: حزنت على من أُصيب بالحرة من قومي، فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار، قال ـ ابن الفضل ـ: فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بإذنه» قال: وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب: لئن كان صادقاً، فنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد، يعني قوله: ﴿يَحلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾ الآية، رواه البخاري في صحيحه ـ إلى قوله ـ هذا الذي أوفى الله له بإذنه.

و لعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة المصطلق، فلعل الراوي وَهِم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

و روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً تحت ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أنْ طلع رجلٌ أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنتَ وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿يَحلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ. وقيل في عبد الله بن أُبي، هم بقتل رسول الله ﷺ، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يُتَوِّجُوا عبد الله بن أبي، وإنْ لم يرض رسول الله ﷺ، وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي، في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلاً. قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بين فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فَغَشَوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار هل عرفت القوم؟» فقال: لقد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون، قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أنَّ الأثنى عشر

(١) الزيادة من تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٨) و رجاله ثقات، سوى شيخ الطبري و هو ابن وكيع، لكن عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبي الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في الشعب.

الباقين، حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

و يشهد لهذه القصة بالصحة: ما رواه مسلم: عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذْ سألك، فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنتَ منهم، فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذَرَ ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة يمشي، فقال: «إنَّ الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد» فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ.

و ما رواه مسلم أيضاً: عن حذيفة عن النبيﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يَلج الجمل في سم الخياط: ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبيلَة، سراجٌ من نار تظهر بين أكتافهم، حتى ينجم في صدورهم» ولهذا كان حذيفة يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول اللهﷺ دون غيره، والله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب، إلا أن الله أغناهم ببركته، ويُمن سعادته، ولو تَمَّت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قالﷺ للأنصار: «ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنُّ.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ الآية، وقولهﷺ: «ما يَنقم ابنُ جميل إلا أنْ كان فقيراً فأغناه الله».

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَالآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

٧٥- يقول تعالى: ومن المنافقين مَن أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله، ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وَفَّى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع: نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة، عياذاً بالله من ذلك.

و قد ذكر كثير من المفسرين منهم: ابن عباس والحسن البصري، أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في

ثعلبة بن حاطب الأنصاري. وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم: عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة ابن حاطب الأنصاري: أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». . الحديث[1].

و قوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية، أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

٧٨- وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم، وإنْ أظهروا أنه إنْ حصل لهم أموال تصدقوا منها، وشكروا عليها، فإنَّ الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علاَّم الغيوب، أي: يعلم كلَّ غيبٍ وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾

٧٩- وهذا أيضاً من صفات المنافقين، لا يَسْلَم أحدٌ من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إنْ جاء أحدٌ منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُراء، وإنْ جاء بشيء يسير، قالوا: إنَّ الله لغني عن صدقة هذا. كما روى البخاري: عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل على ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدَّق بشيءٍ كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدَّق بصاع، فقالوا: إنَّ الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية. وقد رواه مسلم أيضاً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ، وجاء رجلٌ من الأنصار بصاعٍ من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع. و هكذا روي عن مجاهد وغير واحد.

و روى الحافظ أبو بكر البزار: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدَّقوا، فإني أريد أن أبعثَ بعثاً» قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت» وبات رجل من الأنصار، فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله أصبت صاعين من تمر، صاعٌ أقرضه لربي، وصاع لعيالي، قال: فلمزه المنافقون، وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ الآية.

و قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم، واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل.

---

(١) وهو حديث ضعيف منكر، علي بن يزيد هو الألهاني متروك، و معان لين الحديث، و قد ضعفه الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف فقال: إسناده ضعيف جداً، و كذا شيخه الحافظ العراقي في تخريج الأحياء، انظر الضعيفة للعلامة الألباني رحمه الله (١٦٠٧).

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾

٨٠- يخبر تعالى نبيهﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إنَّ السبعين إنما ذكرت حَسْماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما روى الشعبي: لمَّا ثُقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبيﷺ فقال: إن أبي قد احْتُضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه... فانطلق معه، حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلّى عليه، فقيل له: أتصلي عليه؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين».

و كذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير وقتادة بن دعامة، ورواه ابن جرير بأسانيده[1].

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

٨١- يقول تعالى ذامّاللمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول اللهﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه و﴿كَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحرّ، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسولهﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما روى الإمام مالك: عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «نارُ بني آدم التي توقدونها جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إنْ كانت لكافية، فقال: «فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين.

و روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «إنَّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضُرِبتْ في البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحد». وهذا أيضاً إسناده صحيح.

و عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللهﷺ: «إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً يوم القيامة لَمَن له نعلان وشِرَاكان من نار جهنم، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، لا يَرَى أنَّ أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً» أخرجاه في الصحيحين.

و الأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

و قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون

---

(١) وهو بنحوه في الصحيحين، و سيأتي عند قوله تعالى: ﴿و لا تصل على أحدٍ منهم...﴾ (٨٤).

ويفهمون، لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به من حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كالمُسْتجير مِن الرَّمْضاءِ بالنار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضحكُوا قَليلاً﴾ الآية، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا، وصاروا إلى الله عزوجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾

٨٣- يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿فإن رَّجعكَ اللهُ﴾ أي: ردَّك الله من غزوتك هذه ﴿إلى طائفةٍ مِّنهمْ﴾ قال قتادة: ذُكر لنا أنهم كانوا اثنا عشر رجلاً ﴿فاستأذَنوكَ لِلخُروجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً﴾ أي: تعزيزاً لهم، وعقوبةً ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إنَّكمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿و نُقَلِّبُ أفئدَتَهمْ وأبصَارهمْ كَما لم يُؤمنُوا به أوَّل مرَّةٍ﴾ الآية. فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله في عُمرة الحديبية ﴿سَيَقولُ المُخلَّفُونَ إذا انطَلَقتمْ إلى مغانِمَ لتَأخُذوهَا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿فاقْعدُوا مع الخالِفينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة ﴿فاقْعدُوا معَ الخالِفينَ﴾ أي: مع النساء، قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾

٨٤- أمر الله تعالى رسولهﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحدٍ منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكمٌ عامٌ في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما روى البخاري: عن ابن عمر قال: لمَّا تُوفِّي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول اللهﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول اللهﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول اللهﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول اللهﷺ: «إنما خيَّرني الله فقال: ﴿استَغفِرْ لَهُمْ أوْلا تَستَغفِرْ لهُمْ إن تَستغفِرْ لَهمْ سَبعينَ مرَّةً فَلَن يَغفِرَ اللهُ لهمْ﴾ وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول اللهﷺ، فأنزل الله عز وجل آية ﴿و لا تُصلِّ على أحدٍ منهمْ ماتَ أبداً ولاَ تَقُمْ علَى قبرِهِ﴾ وكذا رواه مسلم.

و قد رُوي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا: فروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما تُوفي عبدالله بن أُبي، دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة، تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي، القائل يوم كذا كذا وكذا ـ يُعدِّد أيامه ـ؟ قال: ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرتُ عليه، قال: «أخِّرْ عني ياعمر، إنِّي خُيِّرتُ فاخترت، قد قيل لي: ﴿استغفِرْ لهمْ﴾ الآية. لو أعلم أني لو زدتُ على السَّبعين غُفرَ له لزدتُ» قال: ثم صلَّى عليه، ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم. قال: فوالله ماكان إلا يسيراً، حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ولا تُصَلِّ على أحدٍ مِّنهم مَّاتَ أبداً﴾ الآية، فما صلَّى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل.

و هكذا رواه الترمذي في التفسير ورواه البخاري.

و روى الإمام أحمد: عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إنْ لم تأته، لم تنزلْ نُعيَّر بهذا، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أُدخل في حفرته، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه؟» فأُخرج من حفرته، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه. ورواه النسائي، وروى البخاري ومسلم نحوه. و قد ذكر بعض السلف: إنما كساه قميصه، لأن عبد الله بن أُبي لما قدِمَ العباس، طُلبَ له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبي، لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له، فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه، لا يصلي على أحد من المنافقين، ولايقوم على قبره، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دُعِي إلى جنازة سأل عنها، فإن أُثني عليها خيراً، قام فصلى عليها، وإنْ كان غير ذلك، قال لأهلها: «شأنكم بها» ولم يصل عليها.

و كان عمر بن الخطاب لا يُصلي على جنازة مَنْ جهل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره، أي: من الصحابة، وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر إنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه حذيفة، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، كما ثبت في الصحاح وغيرها: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن شهِد الجنازة حتى يُصلي عليها فله قيراط، و من شَهدها حتى تُدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أُحُد».

و أما القيام عند قبر المؤمن من إذا مات، فروى أبو داود: عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فَرغَ من دفن الميت، وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التَّثبيت، فإنَّه الآن يُسئل» انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله.

﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٨٥) ﴾

٨٥- تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، ولله الحمد والمنة.

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين (٨٦) رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٨٧) ﴾

٨٦- يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار، والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، كما قال الشاعر:

أفي السِّلم أعياراً جفاءً وغلظةً و في الحرب أشباهُ النساءِ العوارك؟

و قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ويقول الذين آمنوا لو لا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم ❁ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ الآية.

وقوله: ﴿وطبع على قلوبهم﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد، والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي: لا يفهمون مافيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون (٨٨) أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٨٩) ﴾

٨٨، ٨٩- لما ذكر تعالى ذمَّ المنافقين، وبيّن ثناءه على المؤمنين، ومالهم في آخرتهم، فقال: ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي: في الدار الآخرة في جنات الفردوس، والدرجات العلى.

﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم (٩٠) ﴾

٩٠- ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبيّنون له ما هم فيه من الضّعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك عن ابن عباس: إنه كان يقرأ ﴿وجاء المعذرون﴾ بالتخفيف، ويقول هم أهلُ العذر، وكذا عن مجاهد سواء.

و هذا القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي: لم

يأتوا فيعتذروا، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر، والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده ﴿وقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار. ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾

٩١، ٩٢- ثم بيَّن تعالى الأعذارَ التي لا حَرَج على مَن قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازمٌ للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه: العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ماهو عارضٌ بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرجٌ إذا قعدوا، ونصحوا في حال قعودهم، ولم يُرجِفوا بالناس ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهم بلال ابن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر: ألستم مُقرِّين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة، فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم، فَسُقُوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة. (وقيل غيرهم). وفي الصحيحين: من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتم مسيراً، إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: «نعم، حبسهم العذر».

وروى الإمام أحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خَلَّفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً، إلا شَرَكوكم في الأجر، حبسهم المرض» ورواه مسلم وابن ماجه.

٩٣- ثم ردَّ تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم، بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرِّحال ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

٩٤- أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة، أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سَيُظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

٩٥- ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم، معتذرين لتعرضوا عنهم، فلا تُؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، أي: خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون، أي: من الآثام والخطايا.

٩٦- وأخبر أنهم إنْ رضوا عنهم بحلفهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإنَّ الفسق هو الخروج، ومنه سُميت الفأرة فويسقة، لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة، إذا خرجت من أكمامها.

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

٩٧- أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم، أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: أحرى أنْ لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «مَن سَكنَ البادية جَفَا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن» ورواه أبوداود والترمذي والنسائي.

ولما كانت الغِلْظة والجفاء في أهل البوادي، لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾.

ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ، فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممتُ أن لا أقبل هديةً، إلا من قرشي، أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي» لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

(حديث الأعراب في تقبيل الولد): روى مسلم: عن عائشة قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنَّا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأَمْلكُ إن كان الله نَزَع منكم الرحمة!» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بمن يستحق أن يُعلِّمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين

عباده من العلم والجهل، والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

٩٨- وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يتخذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغرمًا﴾ أي: غرامة وخسارة ﴿وَيتربَّصُ بكُم الدَّوائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَليهِمْ دائرةُ السَّوءِ﴾ أي: هي منعكسةٌ عليهم، والسوءُ دائرٌ عليهم ﴿وَ اللهُ سميعٌ عليمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

٩٩- وقوله: ﴿وَ مِنَ الأعرابِ مَن يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ وَ يتخذُ مَا يُنفِقُ قُرُباتٍ عِندَ اللهِ وصَلواتِ الرَّسولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ألاَ إنَّها قُربةٌ لهمْ﴾ أي: ألا إنَّ ذلك حاصل لهم ﴿سَيُدخِلُهُمُ اللهُ في رَحمتِهِ إنَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ﴾.

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾

١٠٠- يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم؛ قال الشعبي: السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار: من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رَضيَ عن السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل مَن أبغضهم أو سبّهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول، وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم: أبابكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإنَّ الطائفة المخذولة من الرافضة، يُعادون أفضل الصحابة، ويبغضونهم ويسبونهم، عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة: فإنهم يترضَّون عمن رضي الله عنه، ويسبون مَن سبه الله ورسوله، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾

١٠١- يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه: أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عَتَا وتجبر، وقوله: ﴿لاَ تعلمُهمْ نحنُ نعلمُهمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشاءُ لأريناكَهُمْ فلَعرفتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعرِفنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْلِ﴾، لأن هذا من باب التوسُّم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يَعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، و قد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإنْ كان يراه صباحاً ومساء، وتقدم في تفسير قوله: ﴿وهَمُّوا بِما لَم يَنالُوا﴾

أنهﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

و روى عبد الرزاق: عن قتادة في هذه الآية أنه قال: مابال أقوام يتكلفون عِلمَ الناس؟ فلانٌ في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه، قال: لا أدري، لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلَّفتَ شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوحﷺ: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال نبي الله شعيبﷺ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى لنبيهﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

و قال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: النار، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وكذا قال قتادة. وقال عبد الرحمن ابن زيد: أما عذاب في الدنيا: فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار.

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) ﴾

١٠٢ - لما بيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبةً عنها، وتكذيباً وشكّاً، شرَع في بيان حال المذنبين، الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بها، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أُخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين، المخلطين المتلوثين، و قد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذَّبح، وأشار بيده إلى حلقه.

و قال ابن عباس[1]: ﴿وَآخَرُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن رسول اللهﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه؛ فلما رجع رسول اللهﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحَلَفوا لا يحلُّهم إلا رسول اللهﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول اللهﷺ وعفا عنهم.

و روى البخاري: عن سمرة بن جندب قال: قال رسول اللهﷺ لنا: «أتاني الليلةَ آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينةٍ مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجالٌ، شطرٌ مَنْ خَلْقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ، وهذا منزلكِ، قالا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حَسَن، وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم» هكذا رواه البخاري

---

(١) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه، كما في تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨).

مختصراً في تفسير هذه الآية.

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

١٠٣ – أمر تعالى رسوله ﷺ بأنْ يأخذ من أموالهم صدقة، يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام، وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب: أنَّ دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وقد ردَّ عليهم هذا التأويل، والفهم الفاسد، أبوبكر الصديق، وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عَنَاقاً ـ وفي رواية: عقالا ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنهم على منعه.

و قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه: عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قومٍ صلّى عليهم[1]، فأتاه أَبي بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى».

وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صَلِّ علي وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»[2].

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قرأ بعضهم ﴿صَلَوَاتِكَ﴾ على الجمع، وآخرون قرءوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الإفراد. ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك، ومن هو أهل له.

١٠٤ – وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة، اللتين كل منهما يحط الذنوب، ويُمحِّصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومَن تصدَّق بصدقة من كسب حلال، فإنَّ الله تعالى يتقبلها بيمينه، فيربيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أُحُد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، كما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيُربِّيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أُحُد» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، وقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

و روى الثوري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل، قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

---

(١) أي: دعا لهم.
(٢) رواه أبوداود (١٥٣٣).

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٥ - قال مجاهد: هذا وعيدٌ يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستُعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين. وهذا كائنٌ لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ وقال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ وقال: ﴿وحصّل ما في الصدور﴾ وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا.

و قال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حُسْن عملِ امرئ مسلم، فقل: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. و قد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أنْ تُعجبوا بأحدٍ حتى تنظروا بم يُختم له، فإنَّ العامل يَعمل زماناً من عمره، أو برهة من دهره بعملٍ صالح، لو مات عليه دخل الجنة، ثم يَتحوَّل فيعمل عملاً سيئاً، وإنَّ العبدَ ليعمل البرهة من دهره بعملٍ سيء، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحوَّل فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يُوَفِّقه لعملٍ صالح، ثم يقبضه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) ﴾

١٠٦ - قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خُلِّفُوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة مَنْ قَعَد، كسلاً وميلاً إلى الدَّعة، والحفظ، وطيب الثمار والظلال، لا شكّاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأُرجئ هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار﴾ الآية، ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتّى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

و قوله: ﴿إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم﴾ أي: هم تحت عفو الله، إنْ شاء فعل بهم هذا، وإنْ شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٧ - سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها، رجلٌ من الخزرج، يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في

الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِقَ اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفارمكة من مشركي قريش، يُمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، وكُسرت رباعيتهُ اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر؛ وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أنْ يُسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أنْ يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومنّاه، وأقام عنده، و كتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يَعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه، ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك؛ فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «إنا على سَفَر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر، والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ـ مسجد قباء ـ الذي أُسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَن هدمه قبل مقدمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار، بنوا مسجداً فقال لهم أبوعامر: ابنوا مسجداً، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجندٍ من الروم، وأُخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: **﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾** إلى قوله: **﴿الظَّالِمِينَ﴾** وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

و روى محمد بن إسحاق بن يسار: عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو ابن قتادة وغيرهم (نحو ما سبق) وفيه: فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن ابن عدي، أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان، فقال: «انطَلِقا إلى هذا المسجدِ الظالم أهله، فاهْدماه وحَرِّقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد، وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا**

﴿مَسْجِداً ضِراراً وكُفراً﴾ إلى آخر القصة.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَى﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيراً، ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو: أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: الراهب لعنه الله.

١٠٨- وقوله: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ نهي له ﷺ والأمة تَبَعٌ له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي أبداً. ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء، الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي: طاعة الله وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاةٌ في مسجد قباء كعمرة».

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً.

وروى أبوداود: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية. رواه الترمذي وابن ماجه.

وروى الإمام أحمد: عن عويم بن ساعدة الأنصاري: أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال: «إنَّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطُّهور، في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيرانٌ من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا، ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق عن عروة بن الزبير، وقاله عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد: عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال: أحدهما هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي» وكذا رواه الترمذي والنسائي، ورواه مسلم كما سيأتي.

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد: عن حميد الخراط المدني: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: إني أتيتُ رسول الله ﷺ فدخلتُ عليه في بيتٍ لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله: أين المسجد الذي أُسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا» ثم قال: سمعت أباك يذكره، رواه مسلم منفرداً به.

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وابنه

عبدالله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير.

و قوله: ﴿لَمسجدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أوَّلِ يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيه فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتطهَّرُوا واللهُ يُحبُّ المُطَّهِّرينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة، المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين، المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

و قد روى الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فَأَوْهَمَ، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن: إنَّ أقواماً منكم يصلون معنا لا يُحسنون الوضوء، فمن شَهِد الصلاة معنا فليُحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين.

فدلَّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهِّل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها، وإكمالها والقيام بمشروعاتها، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿و اللهُ يُحبُّ المُطَّهِّرينَ﴾ إنَّ الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش: التوبة من الذنب والتطهر من الشرك، وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها: أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾

١٠٩ - يقول تعالى: لا يستوي مَن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ، ومَن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جُرف هارٍ، أي: طرف حفيرة مثاله ﴿في نارِ جهنَّمَ واللهُ لا يهدِي القومَ الظَّالمينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين، قال جابر بن عبدالله: رأيت المسجد الذي بُني ضراراً، يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ، وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه، وكذا قال قتادة.

١١٠ - وقوله تعالى: ﴿لا يزالُ بُنيانُهم الذِي بَنَوْا رِيبَةً في قُلوبِهمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أُشرب عابدو العجل حبه، وقوله: ﴿إلاَّ أن تَقطَّعَ قُلُوبُهمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف ﴿و اللهُ عليمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه ﴿حكيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾

١١١ - يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم، إذْ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قَبِل العوض عما يملكه، بما تفضل به على عبيده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم - والله - فأغلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وَفَّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: مَن حَمَل في سبيل الله بايع الله، أي: قبِل هذا العقد ووفى به.

و قوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قَتَلوا أو قُتِلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة. ولهذا جاء في الصحيحين: «و تكفَّل الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلي، وتصديقٌ برسلي، بأن توفاه أن يُدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه، نائلاً مانالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ».

و قوله: ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيدٌ لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزَّلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد. هذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر مَن قام بمقتضى هذا العقد، و وفَّى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾

١١٢ - هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، بهذه الصفات الجميلة، والخلال الجليلة ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم، محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال. فمن أخص الأقوال: الحمد، فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال: الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام، والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النبيﷺ بذلك، في قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله، بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق، ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام): روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم: الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء وعبدالرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين:

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام): روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿**السائحون**﴾: الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم: الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء وعبدالرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون، وقال الحسن البصري ﴿**السائحون**﴾ الصائمون شهر رمضان، وقال أبو عمرو العبدي ﴿**السائحون**﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين، وهذا أصح الأقوال وأشهرها.

و جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد: وهو ما روى أبوداود في سننه: من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يارسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبيﷺ: «سياحةُ أمتي: الجهاد في سبيل الله». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم.

و ليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرّد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلزال في الدّين، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللهﷺ قال: «يُوشك أن يكون خيرُ مالِ الرجل: غَنمٌ يتْبعُ بها شَعفَ الجبال، ومواقع القطر، يَفر بدينه من الفتن».

و قال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿**و الحافظون لحدود الله**﴾ قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية ﴿**الحافظون لحدود الله**﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾

١١٣ - روى الإمام أحمد: عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طلب الوفاة دخل عليه النبيﷺ وعنده أبوجهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبدالمطلب، فقال النبيﷺ: «لأستغفرن لك مالم أنه عنك» فنزلت ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ قال: ونزلت فيه ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ أخرجاه.

و روى الإمام أحمد: عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبيﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألفِ راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه. وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألتُ ربي عزَّ وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فَدَمعتْ عيناي رحمةً لها من النار، وإني كنتُ نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ماشئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية،

فاشربوا في أي وعاء شئتم ، ولا تشربوا مُسْكراً» .

و روى ابن جرير : عن سليمان بن بريدة عن أبيه : أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رَسْمَ قبرٍ فجلس إليه فجعل يخاطب ، ثم قام مستعبراً ، فقلنا : يا رسول الله ، إنا رأينا ما صنعت . قال : «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رُئي باكياً أكثر من يومئذ . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فأمْسَكُوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله ﴿وَ ما كانَ استِغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ﴾ الآية .

و عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مات رجلٌ يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه ، فذُكر ذلك لابن عباس ، فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ، ويدعو له بالصلاح مادام حياً ، فإذا ماتَ وَكَلَه إلى شأنه ، ثم قال ﴿و ما كانَ استغفارُ إبراهيمَ ـ إلى قوله ـ تَبرأَ منهُ﴾ لم يدع .

و شهد له بالصحة : ما رواه أبو داود وغيره : عن علي رضي الله عنه ؛ لما مات أبو طالب ، قلت : يا رسول الله ، إنَّ عمك الشيخ الضال قد مات ، قال : «اذهَبْ فَوَارِه ولا تحدثنَّ شيئاً حتى تأتيني» فذكر تمام الحديث .

و قال عطاء بن أبي رباح : ما كنتُ لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا ، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين ، يقول الله عز وجل : ﴿ما كانَ لِلنَّبيِّ والذينَ آمنُوا أن يَستغفِرُوا للمُشرِكينَ﴾ الآية .

و قوله : ﴿فلمَّا تبيَّنَ لهُ أنَّهُ عدوٌّ للهِ تَبرأَ مِنهُ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفي رواية : لما مات تبين له أنه عدو لله . وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله . وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه ، وعلى وجه أبيه القَتَرة والغبرة ، فيقول : يا إبراهيم ، إني كنت أعصيك ، وإني اليوم لا أعصيك ، فيقول : أي رب ، ألم تعدني أن لا تُخزني يوم يبعثون؟ فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال : انظر إلى ما وراءك ، فإذا هو بذيخ متلطخ ـ أي : قد مُسخ ضبعاً ـ ثم يسحب بقوائمه ويُلقى في النار(١) .

و قوله : ﴿إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ﴾ روى سفيان الثوري وغير واحد : عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الأواه الدَّعَّاء . وكذا روي من غير وجه عن ابن مسعود . و روى الثوري : عن أبي العُبيدين أنه سأل ابن مسعود عن الأواه ، فقال : هو الرحيم . وبه قال مجاهد وأبي ميسرة عمرو بن شرحبيل والحسن البصري وقتادة وغيرهما ، أي : الرحيم ، أي : بعباد الله ، وروى ابن المبارك عن ابن عباس قال : الأواه الموقن ، بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه : الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك . وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس : الأواه المؤمن ، زاد علي بن أبي طلحة عنه : هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة ، وكذا قال ابن جريج . وقال سعيد بن جبير والشعبي : الأواه : المسبح . وروى ابن وهب عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : المحافظ على سبحة الضحى : الأواه .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال : إنه الدَّعَّاء ، وهو المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدةٍ وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء ، حليماً

---

(١) ـ رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٣٨٧) و في التفسير (٨/ ٤٩٩) مختصراً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿أراغِبٌ أنتَ عنْ آلِهتِي يا إبراهيمُ لئن لمْ تَنتهِ لأرجُمنَّكَ واهجُرني مَليّاً * قالَ سأستغفرُ لكَ ربِّي إنَّهُ كانَ بي حَفيّاً﴾ فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حليمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

١١٥ - يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، وحُكمه العادل، إنه لا يُضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿فأمَّا ثَمودُ فَهَدَيناهُمْ﴾ الآية، وقال مجاهد: بيان الله عزوجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدَّم إليكم بالنهي عنه فَتتركوا، فأما قبل أن يُبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه، فلم تضيعوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يَحكم عليكم بالضلال، فإنَّ الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما مَن لم يُؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

١١٦ - وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لهُ مُلكُ السّمواتِ وَ الأرضِ يُحيي وَ يُميتُ ومَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَليٍّ وَلاَ نَصيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريضٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه، فإنه لأولى لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

و روى ابن أبي حاتم: عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: وما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمعُ أطيطَ السماء، وما تلام أنْ تئط، وما فيها من موضع شبرٍ، إلا وعليه ملكٌ ساجد أو قائم».

﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)﴾

١١٧ - قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، في سنة مُجْدبة، وحر شديد وعسر من الزاد والماء. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

روى ابن جرير: عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العُسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قَيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا

ستنقطع ، وحتى إنْ كان الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إنَّ الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبوبكر الصديق : يا رسول الله ، إنَّ الله عزوجل قد عَوَّدك في الدعاء خيراً ، فادع لنا ، فقال : تحبُّ ذلك؟» قال : نعم ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ثم سكنت ، فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

و قال ابن جرير في قوله : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي : من النفقة والظهر والزاد والماء . ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي : عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب ، للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾

١١٨ - روى الإمام أحمد : عن عبيد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غَزَاة غزاها قط ، إلا في غزاة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، لقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام وما أُحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خَبَري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، واللهِ ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وعدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد أنْ يتغيب إلا ظنَّ أن ذلك سيخفى عليه ، مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فَصَلُوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أنْ ارتحل فألحقهم وليتني أني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عَذَره الله عزوجل ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : «ما فعل

كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله بُرداه، والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك: قد بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك حضرني بثي وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أَنجُ منه بشيء أبداً فأجمعت صِدْقَه فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلَّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خَلَّفك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟» فقلت: يارسول الله، إني لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله، لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أنْ يسخطك علي، و لئن حدثتك بصدق تَجِدُ علي فيه، إني لأرجو عُقبى ذلك من الله عزوجل، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وقام إليَّ رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فو الله ما زالوا يؤنبوني حتى أردتُ أنْ أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلتُ لهم: هل لقي معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: حرَّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني؛ حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين، مشيت حتى تسوَّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضتْ عيناي وتوليت حتى تسوَّرت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا أنا بنبطي من أنباط ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَن يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرته به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من

الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزلَ امرأتك ، قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك ، قال : فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم ، حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنَّ هلالاً شيخٌ ضعيفٌ ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : «لا ، ولكن لا يقربك» قالت : فإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال : فقال لي بعضُ أهلي : لو استأذنت فيها رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذِن لامرأة بلال ابن أمية أن تخدمه ، قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب ، قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليتُ صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخررت ساجداً وعرفت أنْ قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرساً ، و سعى ساعٍ من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني ، نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته له ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بتوبة الله ، يقولون : ليَهْنِك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله ، فقام إلي طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلَّمت على رسول الله قال وهو يبرق وجهه من السرور : «أبشرْ بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك» قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله؟ قال : «لا ، بل من عند الله» قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قَمَر ، حتى يُعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال : «أمسكْ عليك بعض مالك ، فهو خيرٌ لك» قال : فقلت : فأنى أمسك سهمي الذي بخيبر ، وقلت : يا رسول الله ، إنما نجاني الله بالصدق ، وإنَّ من توبتي أن لا أُحدِّث إلا صدقا ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدتُ كذبةً منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

قال : وأنزل الله تعالى : **﴿لقد تَّابَ اللهُ علَى النَّبيِّ والمُهاجرينَ والأنصارِ الذينَ اتَّبعوهُ في ساعةِ العُسْرةِ مِن بعدِ ما كادَ يَزيغُ قلوبُ فريقٍ مِّنهمْ ثُمَّ تابَ عَليهمْ إنَّهُ بهمْ رءوفٌ رَّحيمٌ * وَعلَى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا حتَّى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبتْ وضاقَتْ عليهمْ أنفُسُهمْ وظَنُّوا أن لاَ مَلْجأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إليهِ ثُمَّ تابَ عليهمْ ليَتوبُوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ * يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ﴾** إلى آخر الآيات .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ، ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه ، فإنَّ الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل

الوحي شرٌ ماقال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قَبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا، بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حَلفَ له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم، فقد تضمن هذا الحديث: تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا رُويَ عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما قال جابر ابن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد. وقوله: فسموا رجلين شهدا بدراً. قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً، والله أعلم.

١١٩ - ولما ذكر تعالى ما فرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: اصدقوا والزموا الصِّدق تكونوا من أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

و قد روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البر، وإنَّ البر يَهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق، حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب يَهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب، حتى يكتبَ عند الله كذاباً» أخرجاه في الصحيحين.

و عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جدٌّ ولا هزل، اقرأوا إنْ شئتم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إنْ أردتَ أنْ تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

١٢٠ - يُعاتب تبارك وتعالى المُتخلِّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لاَ يُصيبُهُمْ ظمأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَ لاَ نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلاَ مَخْمَصةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَ لاَ يَطئُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلاً يُرهب عدوهم ﴿وَ لاَ يَنالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ بهذه الأعمال، التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إنَّ اللهَ لاَ يُضيعُ أجْرَ الْمُحسنينَ﴾ كقوله ﴿إنا لاَ نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسنَ عملاً﴾.

﴿ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

١٢١ - يقول تعالى: ﴿و لاَ يُنفِقونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقةً صَغيرةً وَ لا كَبيرةً﴾ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿ولاَ يَقطعونَ وادياً﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ ولم يقل ههنا به، لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجزِيَهُم اللهُ أحسنَ مَا كانُوا يَعملونَ﴾ وقد حَصَل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظٌ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه، حتى جهَّز النبي ﷺ جيش «العُسرة» قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقبِّلها يده، ويقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً.

و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولاَ يَقطعونَ وادياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ الآية، ما ازداد قومٌ في سبيل الله بُعداً من أهليهم، إلا ازدادوا قُرباً من الله.

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

١٢٢ - هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفافاً وثِقالاً﴾ وقال: ﴿مَا كانَ لأهلِ المدينةِ وَمَنْ حَولَهم مِّنَ الأعرابِ﴾ الآية، قال: فنسخ ذلك بهذه الآية، وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشِرْذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، لِيَتَفَقَّه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي، إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلولاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقةٍ مِّنهُمْ طَائفةٌ﴾ يعني: عصبة، يعني: السرايا ولا يَتسروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا

وقد أُنزل بعدهم قرآنٌ تعلمه القاعدون مع النبيﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلّمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلّموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

و قال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبيﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا مَنْ وَجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم، حتى دخلوا على النبيﷺ فقال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

و قال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول اللهﷺ الجيوش، أمرهم الله أنْ لا يُعَرُّوا نبيهﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم. وقال الضحاك: كان رسول اللهﷺ إذا غزا بنفسه، لم يحل لأحدٍ من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار، وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن، تلاه نبي اللهﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول اللهﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً، فَيُقرِئونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي اللهﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرَّت السرايا، وقعد معه معظم الناس.

و قال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس في الآية: إنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول اللهﷺ على مضر بالسنين، أجدبت بلادهم، و كانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها حتى يحلّوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول اللهﷺ عليه وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول اللهﷺ إلى عشائرهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآية[1].

و قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو، الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبيﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقَّه الذين خرجوا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾

(١) و قد اختار الطبري أن معنى الآية: أن الله نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا في غزو وجهادٍ و غير ذلك من أمورهم و يدعوا رسول اللهﷺ وحيداً، و لكن عليهم إذا سرَّى رسول اللهﷺ سريةً أن ينفر معها من كل قبيلة طائفة. وهو القول الأول عن ابن عباس هنا، و قول قتادة و الضحاك، و الله أعلم.

١٢٣ – أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شَرَعَ في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام، لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جَهْد الناس، وجَدْب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته ﷺ. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

و قام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلةً كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطَّد القواعد، وثبت الدعائم، وردّ شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغَام، و بيَّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

و كان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده: الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمَعَ الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحُملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرَّقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيداً، وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة، وامتدت الدعوة في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم، من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾.

و قوله تعالى: ﴿وَ ليجدوا فيكم غلظة﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم، في قتالكم لهم، فإنَّ المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال»[1] يعني أنه ضَحوك في وجه وليه، قتَّال لهامة عدوه.

و قوله: ﴿و اعلموا أنَّ الله مع المتقين﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أنَّ الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة ـ الذين هم خير هذه الأمة ـ في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار.

ثم لما وقعت الفتن والأهواء، والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها

(١) لم أجده مرفوعاً، و قد ذكره بعض العلماء في أسمائه كابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (١/ ٨٧)، وهو من أوصافه عليه الصلاة و السلام.

فلم يمانعوها، لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملكٌ من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسئول المأمول أن يمكِّن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يُعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾

١٢٤- يقول تعالى: ﴿وإذا ما أُنزلت سورةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَن يقولُ أيُّكمْ زادَتْهُ هذهِ إيمَاناً؟﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيماناً، قال الله تعالى: ﴿فأمَّا الَّذينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إيماناً وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك. وقد بُسط الكلام على هذه المسئلة في أول شرح البخاري رحمه الله.

١٢٥- ﴿وأمَّا الَّذينَ في قُلوبِهم مَّرضٌ فزادَتْهُمْ رِجساً إلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: زداتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ونُنزل من القرآن ما هو شفاء﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالذينَ لا يُؤمِنونَ في آذانِهِمْ وَقرٌ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمًى أُولئكَ يُنادَونَ مِن مَكانٍ بَعيدٍ﴾ وهذا من جملة شقائهم، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غُذِّي بما غذي به، لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾

١٢٦- يقول تعالى أَوَلا يَرى هؤلاء المنافقون ﴿أنَّهمْ يُفْتَنونَ﴾ أي: يختبرون ﴿في كُلِّ عامٍ مَّرةً أوْ مَرَّتينِ ثُمَّ لا يَتوبونَ ولا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذّكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وفي الحديث عن أنس: ... وما من عام إلا والذي بعده شر منه. سمعته من نبيكم ﷺ.

١٢٧- وقوله: ﴿وَ إذا مَا أُنزلتْ سورةٌ نَّظرَ بعضُهُمْ إلَى بَعضٍ هَلْ يَراكُم مِّنْ أحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفقَهونَ﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين، أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نظرَ بَعضُهُمْ إلَى بَعضٍ﴾ أي: تلفتوا ﴿هَلْ يَراكُم مِّنْ أحدٍ ثُمَّ انصَرفُوا﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كقوله تعالى: ﴿فَمالَهُمْ عَنِ التَّذْكِرةِ مُعرِضينَ﴾

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ وقوله تعالى: **﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۞ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾** أي: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يميناً وشمالاً، هروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل.

و قوله: **﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾** كقوله: **﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾** أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه، ونفور منه، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

١٢٨ - يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾** وقال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾** وقال تعالى: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾** أي: منكم وبِلُغتكم. كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إنَّ الله بعث فينا رسولاً منَّا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

و قال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾** قال: لم يُصبه شيء من ولادة الجاهلية. وقال ﷺ: «خرجتُ من نكاحٍ، ولم أخرج من سِفاح»[1]. و قد وصل هذا من وجه آخر، كما روى الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»: عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجتُ من نكاحٍ، ولم أخرج من سفاح، من لدنْ آدم إلى أنْ ولدني أبي وأمي، لم يمسني من سفاح الجاهلية شيء».

و قوله تعالى: **﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾** أي: يعز عليه الشيء الذي يَعنتُ أمَّته، ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بُعثتُ بالحنيفية السَّمحة»[2].

و في الصحيح: «إنَّ الدين يسر» وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على مَن يسَّرها الله تعالى عليه. **﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾** أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وروى الطبراني عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلِّب جناحيه في الهواء، إلا وهو يَذْكر لنا منه علماً. قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيءٌ يُقرِّبُ من الجنة، ويباعد من النار، إلا وقد بُيِّن لكم».

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لم يُحرِّم حُرمةً، إلا وقد علمَ أنه سيطلِّعها منكم مطلعٌ، ألا وإني آخذ بحجزكم أنْ تهافتوا في النار، كتهافت الفراش أو الذباب».

و قوله: **﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** كقوله: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾**.

١٢٩ - وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: **﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾** أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة، المطهرة الكاملة الشاملة **﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾** أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٥١) من حديث ابن عباس و عائشة رضي الله عنهم.

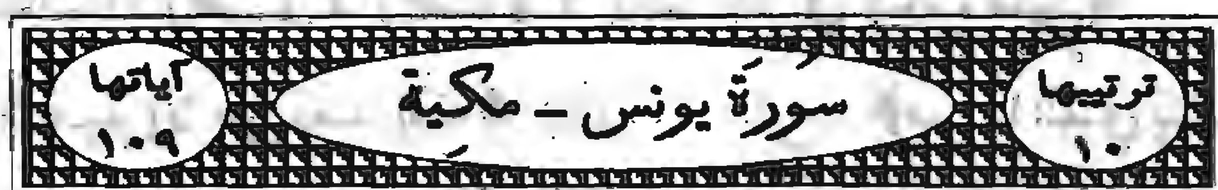
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة مطولاً و أوله: «إني لم أبعث باليهودية و لا بالنصرانية، و لكني بعثت بالحنيفية السمحة...»، و له شواهد أخرى عند ابن سعد (١/ ١٥١) و غيره.

عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ المَشرقِ والمغربِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وكِيلاً﴾.

﴿وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين ومافيهما وما بينهما، تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

و د تقدم الكلام أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه، وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك.

وفي الصحيح: أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة سورة براءة مع خزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة. وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم (١) أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين (٢) ﴾

١ ـ أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة.

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين.

٢ ـ وقوله: ﴿أكان للناس عجبا﴾ الآية. يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار، من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم: ﴿أبشر يهدوننا﴾ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفّار قريش، أنهم قالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

و قوله: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلفوا فيه: فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وقال العوفي عن ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا، وكذا قال الضحاك والربيع ابن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ الآية. وقال مجاهد ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال قتادة أو الحسن: ومحمدﷺ يشفع لهم، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان، وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد، أنها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال له: قدم في الإسلام، كقول حسان: لنا القدَمُ العُليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

و قوله تعالى: ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) ﴾

٣ ـ يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام. قيل: كهذه الأيام، وقيل: يوم كألف سنة مما تعدّون كما سيأتي بيانه، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

و قوله: ﴿يدبر الأمر﴾ أي: يدبر أمر الخلائق ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ ولا يشغله شأنه عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار، والعمران والقفار ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الآية ﴿وما تسقط من ورقة

﴿إلاَّ يَعلَمُهَا وَ لاَ حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرضِ وَ لاَ رَطبٍ وَ لاَ يابِسٍ إلاَّ في كِتابٍ مُّبِينٍ﴾.

و قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعدِ إذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الذِي يَشفَعُ عِندَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَ كَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّموات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهمْ شيئاً إلاَّ مِن بَعد أن يَأذَنَ اللهُ لِمَن يَشاءُ وَ يَرضَى﴾ وقوله: ﴿ولاَ تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِندَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة، وحده لا شريك له ﴿أفلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرّد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلئِن سَألْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّموات السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إلَيْه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّه حَقًّا إنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ليَجْزيَ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات بِالْقِسْطِ وَالَّذين كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾

٤- يخبر تعالى أنَّ إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق، كذلك يُعيده ﴿وَهُوَ الذِي يَبدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهُوَ أهْوَنُ عَلَيهِ﴾ ﴿لِيَجْزِيَ الذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَ الذينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب، من سموم وحميم، وظل من يحموم ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ ۞ وَ آخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ ﴿هذِهِ جهنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِها الْمُجْرِمُونَ ۞ يَطوفُونَ بَيْنَها وَ بَينَ حَمِيمٍ آنٍ﴾.

﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾

٥- يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص، حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَ القَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً﴾ الآية.

و قوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَ قَدَّرَهُ﴾ أي: القمر ﴿مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ﴾ فبالشمس تُعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلاَّ بالحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَ مَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأرضَ وَ مَا بَينَهُمَا باطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذينَ كَفَرُوا فَوَيلٌ لِّلَّذينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلينا لاَ تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

و قوله: ﴿نُفَصِّلُ الآياتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقومٍ يَعلمونَ﴾.

٦- وقوله: ﴿إنَّ في اختلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ أي: تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُغشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ وقال: ﴿لا الشَّمسُ يَنبَغِي لَها أن تُدرِكَ القمرَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فالقُ الإصباحِ وجَعلَ اللَّيلَ سَكَناً﴾ الآية.

و قوله: ﴿وما خَلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وكأيِّن مِّنْ آيةٍ في السَّمواتِ والأرضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ وما تُغني الآياتُ والنُّذُرُ عَن قومٍ لا يُؤمنونَ﴾ وقال: ﴿أفلَمْ يَرَوا إلى مَا بَيْنَ أيديهِمْ ومَا خَلفَهُم مِّنَ السَّماءِ والأرضِ﴾ وقال: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ﴾ أي: العقول، وقال ههنا: ﴿لآياتٍ لِّقَومٍ يتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾

٧، ٨- يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء، الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنت إليها نفوسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، فإن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم، من الآثام والخطايا والإجرام، مع ماهم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

٩- هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أنْ تكون الباء ههنا سببية، فتقديره أي: بسبب إيمانهم في الدنيا، يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به.

و قال ابن جريج في الآية: يمثَّل له عمله في صورة حسنة، وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة، وريح منتنة، فيلزم صاحبه ويلادّه حتى يقذفه في النار. ورُوي نحوه عن قتادة مرسلاً، فالله أعلم.

١٠- وقوله: ﴿دَعواهُمْ فِيهَا سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعواهُمْ أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أُخبرت بأن قوله: ﴿دَعواهُمْ فِيهَا سُبحانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم المَلَكُ بما يشتهونه، فيسلم عليهم

فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال مقاتل بن حيان وسفيان الثوري نحوه. وهذه الآية فيها شَبَهٌ من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الآية. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حَمِدَ نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد، كما يُلهمون النَّفس»[1].

و إنما يكون ذلك كذلك، لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

١١- يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يَعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه، لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الآية، أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُوا على أنفسكم، لا تَدْعُوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا تُوافقوا من الله ساعةً فيها إجابة، فيستجيب لكم» ورواه أبو داود.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يُعجّل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

١٢- يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسّه الشر، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة: قلق لها وجزع منها، وأكثرَ الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته، وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

(١) رواه مسلم في الجنة و صفة نعيمها و أهلها (٤/ ٢١٨١) من حديث جابر رضي الله عنه.

ثم ذمَّ تعالى مَن هذه صفته وطريقته، فقال: ﴿كذلكَ زُيِّنَ لِلمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعملونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ الذينَ صَبرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له: إنْ أصابته ضراءُ فصبر، كان خيراً له، وإنْ أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين»[1].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

١٣، ١٤ - أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات، والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾

١٥ - يخبر تعالى عن تَعَنُّتِ الكفار، من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة، قالوا له: ﴿ائتِ بقُرآنٍ غيرِ هذا﴾ أي: رد هذا، وجئنا بغيره من نمط آخر ﴿أو بَدِّلْهُ﴾ إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَا يَكونُ لِي أنْ أُبدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نَفسِي﴾ أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسول مبلغ عن الله ﴿إنْ أتَّبعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ إنِّي أخافُ إنْ عَصيتُ ربِّي عذابَ يَومٍ عَظيمٍ﴾.

١٦ - ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَوْ شاءَ اللهُ مَا تَلوتُهُ عَليكُمْ وَ لاَ أدرَاكُم بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك، ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوّله من عندي، ولا افتريته: أنكم عاجزون عن معارضته، وإنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم، إلى حين بعثني الله عزوجل، لا تنتقدون علي شيئاً تغمصونيَ به، ولهذا قال: ﴿فقدْ لبثتُ فيكُمْ عُمُراً مِّن قَبلِهِ أفلاَ تَعقِلونَ﴾ أي: أفليس لكم عقولٌ تعرفون بها الحق من الباطل؟!

و لهذا لما سأل هِرَقْل - ملك الروم - أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبوسفيان إذْ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضلُ ما شَهِدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أَعرفُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) بنحوه، و أحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣)، (٦/ ١٥، ١٦) و غيرهما.

و قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بَعَثَ الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثاً وأربعين سنة، والصحيح المشهور الأول.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾

١٧ - يقول تعالى: لا أحدَ أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً **﴿ممن افترى على الله كذباً﴾** وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جُرماً، ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟ فإنَّ مَن قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً، فلا بد أن الله يَنْصب عليه من الأدلة، على بره أو فجوره ما هو أظهره من الشمس، فإنَّ الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما، أظهر من بين وقت الضحى، وبين نصف الليل في حنْدس الظلماء، فمِن شِيَم كلٍّ منهما وأفعاله وكلامه، يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ، وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي. قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنتُ فيمن انجفل، فلما رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه رجلٍ كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[1].

و لما قدم وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر، قال لرسول الله فيما قال له: مَنْ رفع هذه السماء؟ قال: «الله»، قال: ومَن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله»، قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله»، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض، آلله أرسلك إلى الناس كلِّهم؟ قال: «اللهم نعم»، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام. ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلفُ له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، وقال حسَّان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبينة كانت بديهته تأتيك بالخَبَر

و أما مسيلمة فمن شاهده من ذي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرقٍ بين قوله تعالى: **﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾** إلى آخرها، وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين. وقوله قبحه الله: لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منه نسمة تسعى، من بين صفاق وحشاً. وقوله خلده الله في نارجهنم، وقد فعل: الفيل، وما أدراك ما الفيل؛ له خرطوم طويل. وقوله أبعده الله عن رحمته: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون. إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم الحديقة

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥١) و الترمذي (٢٦١٦) و ابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١).

حتفه، ومزّق شمله، ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاءوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه، أنْ يقرءوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أنْ يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أنْ يقرءوا شيئاً منه، ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرءوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه: ويحكم أين يذهب بعقولكم؟ والله إنَّ هذا لم يخرج من إلٍّ[(١)].

و ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو! ماذا أنزل على صاحبكم يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرءون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وماهي فقال: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلى آخر السورة، ففكّر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قد أنزل علي مثله، فقال: وماهو؟ فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذان وصدر، وسائرك حفر نقر. كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك تعلم أني أعلم أنك تكذب.

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنُّهى؟ وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجا؟

و لهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كذباً أو قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شيءٌ وَمَن قالَ سأُنزِلُ مِثْلَ ما أنزَلَ اللهُ﴾، و قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كذباً أو كذَّبَ بآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفلِحُ المُجرِمونَ﴾ وكذلك مَن كذَّب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعتى الناس على الله: رجلٌ قَتَل نبياً أو قتله نبي»[(٢)].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

١٨- ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعلَمُ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ﴾. وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟

ثم نزّه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبحانَه وتعالَى عَمَّا يُشرِكونَ﴾.

١٩- ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادثٌ في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. ثم وقع

(١) أي: لم يخرج من ربوبية و إلهية (اللسان).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٧) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، و لفظه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجلٌ قتله نبيٌ أو قتل نبياً، و إمام ضلالة، و ممثلٌ من الممثلين». أما ما ذكره المصنف هنا، فقريبٌ منه ما رواه أحمد أيضاً (٢/ ١٨٧) (٤/ ٣٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «إنَّ أعتى الناس على الله عز وجل: مَن قَتَل في الحرم، أو قَتَل غير قاتله، أو قتل بذُحول الجاهلية» وهو حديث صحيح أيضاً.

الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته، وحججه البالغة، وبراهينه الدامغة ﴿لِيهلِكَ مَنْ هَلكَ عَن بَيِّنَةٍ ويَحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾. وقوله: ﴿ولَولا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَبِّكَ﴾ الآية، أي: لولا ما تقدم من الله تعالى: أنه لا يُعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجَّل الخلق إلى أجلٍ معدود، لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾

٢٠- أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أُنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يُحَوِّل لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين أو نهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذِي إن شاءَ جَعلَ لَكَ خَيراً مِن ذَلِكَ جنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحتِها الأنهارُ ويَجعل لَكَ قُصوراً * بَل كَذَّبوا بالسَّاعةِ وأَعتَدنا لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ سَعيراً﴾ وكقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنا أن نُرسِلَ بالآياتِ إلاَّ أن كذَّبَ بِها الأوَّلونَ﴾ الآية. يقول تعالى: إنَّ سنتي في خلقي: أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خُيِّر رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا، فإنْ آمنوا وإلا عُذِّبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا ﴿فَقُلْ إنَّما الغَيبُ للهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿فانتَظِرُوا إنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرينَ﴾ أي: إنْ كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم، فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم.

هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا، حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق اثنتين: فرقة من وراء الجبل، فرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية، مما سألوا ومالم يسألوا.

و لو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن عَلِمَ أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ حَقَّتْ عليهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنونَ ولَوْ جاءَتهُمْ كُلُّ آيةٍ﴾ الآية. و قوله تعالى: ﴿و لَوْ أنَّنا نزَّلنا إليهِمُ المَلائكةَ وكَلَّمَهُمُ المَوتَى وحَشَرْنا عَليهِمْ كُلَّ شيءٍ قُبلاً مَّا كانُوا لِيُؤمِنُوا إلاَّ أن يشاءَ اللهُ﴾ الآية، و لما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: ﴿ولَوْ فَتحنا عَليهِم باباً مِّنَ السَّماءِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإن يَروا كِسفاً مِّنَ السَّماءِ ساقِطاً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولَوْ نَزَّلنا عَليكَ كِتاباً في قِرطاسٍ فلَمَسوهُ بأيديهِمْ لقالَ الذينَ كفَروا إنْ هذا إلاَّ سِحرٌ مُّبينٌ﴾.

فمثل هؤلاء أقل من أنْ يُجابوا إلى ما سألوا، لأنه لا فائدة في جوابهم، لأنه دائرٌ على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فَانتَظِرُوا إنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرينَ﴾.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ

يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾

٢١- يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أو قائماً﴾ الآية؛ وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل ـ أي مطر ـ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمنٌ بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا، وكذا فذاك كافرٌ بي ومؤمن بالكوكب».

و قوله: ﴿قل اللهُ أسرعُ مَكراً﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غِرَّة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويُحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير، والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هو الذي يُسيِّرُكُمْ في البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حتَّى إذا كُنتُمْ في الفُلْكِ وَجَرينَ بهم بريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينماهم كذلك إذ ﴿جاءَتْها﴾ أي: تلك السفن ﴿ريحٌ عاصفٌ﴾ أي: شديدة ﴿وجاءهُم المَوْجُ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهمْ أُحيطَ بِهِمْ﴾ أي: هلكوا ﴿دعَوا اللهَ مُخلصِينَ لَهُ الدينَ﴾ أي: لايدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وَإذا مَسَّكم الضُّرُّ في البَحرِ ضلَّ مَن تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ فَلمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ أعرَضتُمْ وكان الإنسانُ كَفوراً﴾ وقال هنها: ﴿دعَوا اللهَ مُخلصِينَ لَهُ الدينَ لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي: هذه الحال ﴿لَنكونَنَّ مِن الشَّاكرينَ﴾ أي: لا نشرك بك أحداً، ولَنُفردنَّك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء ههنا.

٢٣- قال تعالى: ﴿فلمَّا أنجاهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إذاهُمْ يَبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ﴾ أي: كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كأن لَّمْ يَدْعُنا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناسُ إنَّما بَغيُكمْ على أنفُسكُمْ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذَنب أجدر من أنْ يُعجِّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدَّخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»[1].

و قوله: ﴿متاعُ الحياةِ﴾ أي: إنما لكم متاع، في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إلينا مَرجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فنُنبِّئُكمْ﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٢) و الترمذي (٢٦٤٢) و ابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

٢٤- ضَرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، بماء أنزل الله من السماء، مما يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقَضْب وغير ذلك ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: حَسُنت بما خرج في رُباها من زهور نضرة، مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جُذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك، إذْجاءتها صاعقة، أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ أي: يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك.

و قال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

و لهذا جاء في الحديث: «يُؤتى بأنعمِ أهلِ الدنيا فيُغمس في النار غمسةً، فيقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا، ويُؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا، فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا» (١).

و قال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها، ونقلتها عنهم، فإنَّ من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك، مثل الحياة الدنيا.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾ الآية. لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغَّب في الجنة في الجنة ودعا إليها، وسمَّاها دار السلام، أي: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت في المنام، كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضربْ له مثلاً، فقال: اسْمع سمعتْ أذنك، واعقل عَقَل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك: كمثل ملكٍ اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير.

و عن أبي الدرداء مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعتْ فيه الشمس، إلا وبجَنَبتيها ملكان يُناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هَلُمُّوا إلى ربكم، إنَّ ما قَلَّ وكفى، خيرٌ مما كثر وألهى» قال: وأنزل في ذلك القرآن، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) و مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢) و ابن ماجه و اللفظ له تقريباً، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾

٢٦- يُخبر تعالى أنَّ لمن أحسن العمل في الدنيا، بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هلْ جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسانُ﴾. وقوله: ﴿و زيادة﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادةٌ أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته.

و قد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم: عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبيﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن صهيبرَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول اللهﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذينَ أحسنُوا الحُسنَى وزيادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إنَّ لكم عند الله موعداً يريد أنْ يُنجزكموه، فيقولون: وماهو؟ ألم يُثقِّل موازيننا؟ ألم يبيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجرْنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعينهم» وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة.

و قوله تعالى: ﴿و لا يرهَقُ وجوهَهمْ قتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عَرَصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة، من القترة والغبرة ﴿ولا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانةٌ في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقَاهُم اللهُ شرَّ ذلكَ اليومِ ولقَّاهُمْ نضرةً وسُروراً﴾ أي: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾

٢٧- لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك ﴿وترهقهم﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلك، من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿و تراهم يُعرَضُونَ علَيهَا خاشعينَ مِن الذُّلِّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولا تَحسَبنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يعمَلُ الظالمونَ ۞ إنَّما يُؤخِّرُهُمْ ليومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبصارُ ۞ مُهْطعين مُقْنعِي رُءوسِهِمْ﴾ الآيات.

و قوله: ﴿ما لَهم مِّنَ اللهِ مِنْ عاصمٍ﴾ أي: مانع، ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المَفرُّ ۞ كلاَّ لاَ وزرَ ۞ إلى ربِّكَ يومئذٍ المُستقرُّ﴾.

و قوله: ﴿كأنما أُغشيَتْ وُجوهُهمْ﴾ الآية، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأمَّا الذينَ اسودَّتْ وجوهُهمْ أكفرتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ فذُوقُوا العذابَ بِما كُنتمْ

تكفُرونَ﴾ وَ أَمَّا الذينَ ابيضَّتْ وجوهُهمْ ففِي رحمةِ اللهِ هُمْ فِيها خَالِدونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وُجوهٌ يومئذٍ مُسفِرةٌ﴾ ضَاحكةٌ مُسْتبشِرةٌ﴾ وَوُجوهٌ يومئذٍ علَيها غَبَرةٌ﴾ الآية.

﴿ ويومَ نحشُرُهُمْ جميعًا ثُمَّ نقولُ للَّذينَ أشْرَكُوا مكانَكُمْ أنتُمْ وشُركاؤُكُمْ فزيَّلْنا بيْنهُمْ وقالَ شُركاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إيَّانا تعْبُدُونَ (٢٨) فكفَىٰ باللَّه شَهيدًا بيْننا وبيْنكُمْ إن كُنَّا عنْ عبادتكُمْ لغافلينَ (٢٩) هُنالكَ تبْلُو كُلُّ نفسٍ مَّا أسْلفَتْ ورُدُّوا إلى اللَّه مولاهُمُ الْحقِّ وضلَّ عنْهُم مَّا كانُوا يفْترُونَ (٣٠) ﴾

٢٨- يقول تعالى: ﴿و يومَ نَحشُرهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من جنٍّ وإنس وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَحشَرْناهُمْ فلَمْ نُغادِرْ مِنهُمْ أحَداً﴾. ﴿ثُمَّ نقُولُ لِلذينَ أشرَكُوا﴾ الآية، أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿و امتازُوا اليومَ أيُّها المُجرِمونَ﴾ وقوله: ﴿وَ يومَ تقومُ السَّاعةُ يَومئذٍ يَتفرَّقونَ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿يومئذٍ يَصَّدَّعونَ﴾ أي: يصيرون صِدْعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل: ذلك [1] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى، أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس» [2].

و قال الله تعالى في هذه الآية الكريمة، إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿مَكانَكم أنتُمْ وَشُركاؤُكُمْ فزيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم، وتبرءوا منهم، كقوله: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرونَ بِعبادتِهِمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿إذْ تبرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا﴾ وقوله: ﴿و مَنْ أضلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَستجيبُ لهُ إلَى يومِ القيامةِ وَهُمْ عَن دُعائِهِمْ غَافِلونَ﴾ وَ إذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أعداءً﴾ الآية، وقوله في هذه الآية، إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم، عند ادعائهم عباداتهم:

٢٩- ﴿فكفَى باللهِ شَهيداً بيْنَنَا وبيْنَكُمْ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به، ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقتِ أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿و لقَدْ بَعثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أنِ اعبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنهُم مَّنْ هَدَى اللهُ ومِنهُم مَّنْ حَقَّتْ عَليهِ الضَّلالَةُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَ مَا أرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إليهِ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنا فَاعبُدُونِ﴾ وقال: ﴿وَ اسألْ مَنْ أرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسلِنا أجَعلْنا مِن دُونِ الرَّحمَنِ آلِهةً يُعبَدونَ﴾ والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيّن أحوالهم وأقوالهم، وردَّ عليهم فيما هم فيه أتم رد.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿هُنالِكَ تَبلُو كُلُّ نفسٍ مَّا أسْلفتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة، تُختبر كل نفس، وتعلم ما سلف من عملها، من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿يومَ تُبلَى السَّرائِرُ﴾ وقال تعالى: ﴿يُنبَّأُ الإنسانُ يومَئذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّرَ﴾ وقال تعالى: ﴿و نُخرِجُ لَهُ يومَ القيامَةِ كِتاباً يَلقَاهُ مَنشُوراً﴾ اقرأْ كِتابَكَ كَفَى

(١) بياض بالأصل.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٤٥) و مسلم في الإيمان (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه. و الكوم: المكان المرتفع العالي.

بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

وقد قرأ بعضهم ﴿هنالك تتلو كلُّ نفسٍ مَّا أسلفت﴾ وفسرها بعضهم: بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى: تَتْبعُ ما قدمت من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «لِتَتْبع كل أُمَّةٍ ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمس، ويتبع مَن كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث[1].

و قوله: ﴿و ردُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النار النار ﴿و ضلَّ عنهم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كانوا يفترون﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾

٣١- يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته، على وحدانيته الإلهية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يرزقكم مِّن السَّماءِ والأرضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبّاً ◆ وَ عِنَباً وقَضْباً ◆ وزيتوناً ونخلاً ◆ وحدائق غُلْباً ◆ وفاكهةً وَ أبّاً﴾ أإله مع الله؟ فسيقولون: الله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾. وقوله: ﴿أمَّن يَملكُ السَّمْعَ وَ الأبصار﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة؛ ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أنشأكُمْ وَ جَعلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأبصارَ﴾ الآية؛ وقال: ﴿قُلْ أرأيْتُمْ إنْ أخذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَ أبصارَكُمْ﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَمَن يُخرجُ الحيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخرجُ المَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة لذلك كله.

و قوله: ﴿وَمَن يُدبِّرُ الأمْر﴾ أي: مَن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴿يسألُهُ مَن في السَّموات والأرضِ كُلَّ يومٍ هُوَ في شأنٍ﴾ فالملك كله العُلوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيدٌ له، خاضعون لديه ﴿فَسيقُولونَ اللهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك، ويعترفون به ﴿فَقُلْ أفلا تَتَّقونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه، أن تعبدوا معه غيره، بآرائكم وجهلكم.

٣٢- وقوله: ﴿فذَلِكُم اللهُ ربُّكم الحَقُّ﴾ الآية، أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله، هو ربكم وإلهكم الحق، الذي يستحق أنْ يُفرد بالعبادة ﴿فمَاذا بعدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ﴾ أي: فكل معبودٍ سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له ﴿فأنَّى تُصرَفونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟ وأنتم تعلمون أنه الربُّ الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء.

٣٣- وقوله: ﴿كَذلِكَ حقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذِينَ فَسَقُوا﴾ الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم، وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق، المتصرف في الملك

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٤) من حديث أبي هريرة، و نحوه أيضاً من حديث أبي سعيد (١/ ١٦٧).

وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله: أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: **﴿قالُوا بَلَى ولَكِنْ حقَّتْ كَلِمَةُ العذابِ علَى الكَافِرينَ﴾**.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

٣٤- وهذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد **﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** أي: مَنْ بدأ خلق هذه السموات والأرض؟ ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق؛ ويفرِّق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ **﴿قُلِ اللهُ﴾** هو الذي يفعل هذا، ويستقبل به وحده لا شريك له **﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل.

٣٥- **﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلحَقِّ﴾** أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضُّلاَّل، ويقلِّب القلوب من الغي إلى الرشد: الله الذي لا إله إلا هو **﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾** أي: أفيتبع العبدُ الذي يَهدي إلى الحق، ويُبصِّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: **﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾** وقال لقومه: **﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: **﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾** أي: ما بالكم أنْ يُذهب بعقولكم، كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرَّبَّ جلَّ جلاله ـ المالك الحاكم الهادي من الضلالة ـ بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟

٣٦- ثم بيَّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌّ منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً **﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** تهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) ﴾

٣٧- هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أنْ يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من

مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته، ووجازته، وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا تكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمناً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وبيّنا الأحكام، والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً، حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين.

٣٨- وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إنْ ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً وميناً إن هذا من عند محمد، فمحمدٌ بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورةٍ مثله، أي: من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه، من إنس وجان؛ وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إنْ كانوا صادقين في دعواهم، أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا.

و أخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكذا في سورة البقرة ـ وهي مدنية ـ تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله مالا قِبَل لأحدٍ به، ولهذا آمن منهم بما عَرَف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له، وأشهرهم له انقياداً، كما عَرَف السحرة ـ لعلمهم بفنون السحر ـ أنَّ هذا الذي فعله موسى عليه السلام، لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد، مرسل من الله، وأن هذا لا يُستطاع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى عليه السلام بُعث في زمان علماء الطب، ومعالجة المرضى، فكان يُبرئ الأكمه والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله.

و لهذا جاء في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات، ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرهم تابعاً».

٣٩- وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق، إلى حين تكذيبهم به، جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أنْ

يُصيبكم ما أصابكم.

٤٠ - وقوله: ﴿وَمِنهُم مَّن يُؤمِنُ بِهِۦ﴾ الآية، أي: ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد، مَن يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أُرسلت به ﴿وَمِنهُم مَّن لَّا يُؤمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك، ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعلَمُ بِالمُفسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، و مَن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور؛ بل يُعطي كلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

٤١ - يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإنْ كذَّبك هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها؛ وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

٤٢ - وقوله: ﴿وَمِنهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة، النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة؛ ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تَقدر على إسماع الأصم، وهو: الأطرش، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

٤٣ - ﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التُّؤدة، والسمت الحسن، والخُلُق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوّتك، لأولى البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية.

٤٤ - ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإنْ كان قد هَدَى به من هدى، وبصَّر به من العمى، وفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غُلفاً، و أضلَّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

و في الحديث: عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ـ إلى أن قال في آخره: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفيكم إياها، فمن وَجَد خيراً فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» رواه مسلم بطوله.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ

وما كانوا مهتدين (٤٥) ﴾

٤٥- يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة ﴿و يوم يحشرهم﴾ الآية، كقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ وكقوله: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ وقال تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور و نحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾ وقال تعالى: ﴿و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

و قوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كلٌّ مشغول بنفسه ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿و لا يسأل حميم حميما﴾ الآيات.

و قوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله و ما كانوا مهتدين﴾ كقوله تعالى: ﴿ويل للمكذبين﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، ولا خسارة أعظم من خسارة مَن فُرِّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿ وإمَّا نُرينَّكَ بعضَ الَّذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتوفَّينَّكَ فَإلينا مرجعهم ثُمَّ اللَّهُ شهيدٌ علىٰ ما يفعلون (٤٦) ولكلِّ أُمَّة رَّسولٌ فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يُظلَمون (٤٧) ﴾

٤٦- يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ ﴿و إما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك، لتقرَّ عينك منهم ﴿أو نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

٤٧- وقوله: ﴿و لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قضي بينهم بالقسط﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿و أشرقت الأرض بنور ربها﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر، موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة، وإنْ كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضي لهم، كما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق». فأمته إنما حازت قَصَب السبق، بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين.

﴿ ويقولون متىٰ هذا الوعدُ إن كنتم صادقين (٤٨) قل لاَّ أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلاَّ ما شاء اللَّهُ لكلِّ أُمَّة أجلٌ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون (٤٩) قل أرأيتم إنْ أتاكم عذابه بياتًا أو نهارًا مَّاذا يستعجل منه المجرمون (٥٠) أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون (٥١) ثُمَّ قيل للَّذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تُجزون إلاَّ بما كنتم تكسبون (٥٢) ﴾

٤٨- يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين، في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، وواقعة وإنْ لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسولهﷺ إلى جوابهم، فقال:

٤٩- ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ الآية، أي: لا أقول إلا ما علّمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة، وأنها كائنة، ولم يُطلعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكل قرن مدة من العمر مقدَّرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ الآية.

٥٠، ٥١- ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾ أي: ليلاً أو نهاراً. ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة، يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾

٥٣- يقول تعالى: ويستخبرونك: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المعاد، والقيامة من الأجداث، بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم تراباً، بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، فإنما ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن، إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أنْ يُقسم به، على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٥٤- ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة، يودُّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ﴾

٥٥ ، ٥٦ - يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنَّ وعده حقٌ كائن لا محالة ، وأنه يحيي الموتى وإليه مرجعهم ؛ وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرّق من الأجسام ، وتمزق في سائر أقطار الأرض ، والبحار والقفار .

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

٥٧ - يقول تعالى ممتناً على خلقه ، بما أنزله من القرآن العظيم ، على رسوله الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : زاجر عن الفواحش ، وشفاء لما في الصدور ، أي : من الشُّبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي : يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ؛ وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدّقين ، الموقنين بما فيه ، كقوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ وقوله : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ الآية .

٥٨ - وقوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي : بهذا الذي جاءهم من الله ، من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي : من حُطام الدنيا ، ومافيها من الزهرة الفانية ، الذاهبة لا محالة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾

٥٩ - قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، و غيرهم : نزلت إنكاراً على المشركين ، فيما كانوا يحلون ويحرمون ، من البحائر والسوائب والوصايل ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ الآيات . وروى الإمام أحمد : عن أبي الأحوص ـ وهو عوف ابن مالك بن نضلة ـ يحدث عن أبيه قال : أتيتُ رسول الله ﷺ وأنا رَثُّ الهيئة ، فقال : «هل لك مال؟» قلت : نعم ، قال : «من أي المال؟» قال : قلت : من كل المال ؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم ، فقال : «إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك» وقال : «هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها ، فتقول : هذه بُحُر ، وتشق جلودها وتقول : هذه صُرُم ، وتُحرِّمُها عليك وعلى أهلك» قال : نعم ، قال : «فإن ما آتاك الله لك حلٌ ، ساعد الله أشد من ساعدك ، وموسى الله أحدُّ من موساك» وذكر تمام الحديث . و هذا حديث جيد قوي الإسناد .

وقد أنكر الله تعالى على مَن حرَّم ما أحل الله ، أو أحلَّ ما حرم ، بمجرد الآراء والأهواء ، التي لا مستند لها ولا دليل عليها .

٦٠ - ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة ، فقال : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي : ما ظنهم أنْ يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير : في تركهِ مُعاجلتهم بالعقوبة في الدنيا . قلت : ويحتمل أن يكون المراد : لذو فضل على الناس فيما أباح

لهم، مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يُحرِّم عليهم إلا ماهو ضارٌّ لهم، في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيِّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾

٦١- يخبر تعالى نبيهﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة، في حقارتها وصغرها، في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر، إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار، وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء، نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قالﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تَعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإن لم تَكُن تراه فإنه يراكَ»[1].

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾

٦٢- يخبر تعالى أن أولياءه: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسَّرهم ربهم، فكل مَنْ كان تقياً، كان لله ولياً فـ ﴿لاَ خَوْفٌ عليهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلا هُمْ يَحزَنونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رُؤوا، ذُكِر الله. وقد ورد هذا في حديث مرفوع، كما روى البزار: عن ابن عباس قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، مَن أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا، ذُكر الله».

و روى ابن جرير: عن أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهﷺ: «إنَّ من عباد الله عباداً، يَغبطهم الأنبياءُ والشهداء»، قيل: مَنْ هم يا رسول الله، لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قومٌ تحابوا في الله، من غير أموالٍ ولا أنساب، وجوههم نورٌ على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ ﴿أَلاَ إِنَّ أَولِيَاءَ اللهِ لاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحزَنونَ﴾. ثم رواه أيضاً أبو داود من حديث عمر بمثله.

و روى الإمام أحمد: عن أبي الدرداءرَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيﷺ في قوله: ﴿لَهُم الْبُشرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٣٧) من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الآخرة﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يَراها المسلم، أو تُرى له» ورواه ابن جرير.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أنه قال: يا رسول الله، الرجل يَعمل العمل، ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بُشرى المؤمن» رواه مسلم.

وروى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: **﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**: «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن، جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة».

وروى أيضاً ابن جرير: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ **﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾** قال: «في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي في الآخرة الجنة».

وروى ابن جرير: عن أم كُرز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبتْ النبوة، وبقيتْ المبشرات».

وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، أنهم فسروا ذلك: بالرؤيا الصالحة. وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن، عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾**.

وفي حديث البراء رضي الله عنه: أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة، إلى رَوْحٍ وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السِّقاء، وأما بشراهم في الآخرة: فكما قال تعالى: **﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** وقال تعالى: **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**.

وقوله: **﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾** أي: هذا الوعد لا يبدّل ولا يخلف، ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة **﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

٦٥- يقول تعالى لرسوله ﷺ **﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾** قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإنَّ العزة لله جميعاً، أي: جميعها له ولرسوله ﷺ وللمؤمنين **﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** أي: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

٦٦- ثم أخبر تعالى أنَّ له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً، ولا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم، وكذبهم وإفكهم.

٦٧- ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليَسكُنوا فيه، أي: يستريحون من نصبهم، وكلالهم وحركاتهم

﴿والنَّهارَ مُبصِراً﴾ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يَسمَعونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومُقدِّرها ومُسيرها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

٦٨- يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿وَلَداً سُبحانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿لهُ ما في السَّمواتِ وَما في الأرضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوكٌ له، عبدٌ له، ﴿إنْ عِندَكُم مِّن سُلطانٍ بِهذا﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أتقولونَ على الله مالا تعلمون﴾ إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئتُمْ شَيئاً إدّاً * تَكادُ السَّمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرضُ وَتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً * أن دَعَوْا للرَّحمنِ وَلَداً * وَما يَنبَغِي للرَّحمنِ أن يَتَّخِذَ وَلَداً * إن كُلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرَّحمنِ عَبْداً * لَقَدْ أحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَومَ القِيامَةِ فَرْداً﴾.

٦٩- ثم توعَّد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا، ولا في الآخرة، فأما في الدنيا؛ فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم، متَّعهم قليلاً ﴿ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ كما قال تعالى ههنا:

٧٠- ﴿مَتاعٌ في الدُّنيا﴾ أي: مدة قريبة ﴿ثُمَّ إلينا مَرجِعُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُذيقُهُم العَذابَ الشَّديدَ﴾ أي: الموجع المؤلم ﴿بِما كانُوا يَكفرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم، وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾

٧١- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاتْلُ عَلَيهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبأَ نُوحٍ﴾ أي: خَبَرَه مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله، ودمَّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أنْ يصيبهم من الهلاك والدمار، ما أصاب أولئك ﴿إذْ قالَ لِقَومِهِ يا قَومِ إن كانَ كَبُرَ عليكُم﴾ أي: عظم عليكم ﴿مَّقامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذكِيري﴾ إياكم ﴿بآياتِ اللهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعلَى اللهِ تَوكَّلتُ﴾ أي: فإني لا أبالي، ولا أكف عنكم، سواء عَظُم عليكم أولا ﴿فأجْمِعُوا أمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم، الذين تدعون من دون الله، من

صنم ووثن ﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإنْ كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ﴿وَ لاَ تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تتأخرون ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء.

كما قال هود لقومه ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ۞ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ﴾ الآية.

٧٢- وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيتُمْ﴾ أي: كذَّبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نُصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَ أُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإنْ تنوعت شرائعهم، وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَ مِنهَاجاً﴾ قال ابن عباس: سبيلاً وسنة. فهذا نوح يقول ﴿وَ أُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل ﴿إِذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ۞ وَ وَصَّى بِها إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسلِمُونَ﴾ وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيتَنِي مِنَ المُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السمواتِ والأَرضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنيا وَالآخِرةِ تَوَفَّنِي مُسلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وقال موسى: ﴿يا قَومِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيهِ تَوكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسلِمِينَ﴾ وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَينَا صَبْراً وَ تَوَفَّنَا مُسلِمِينَ﴾ وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفسِي وَ أَسلَمْتُ مَعَ سُلَيمانَ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوراةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَ إِذْ أَوحَيتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ اشهَدْ بِأَنَّنَا مُسلِمُونَ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرتُ وَ أَنَا أَوَّلُ المُسلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة.

ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علاَّت، وديننا واحد»[1].

أي: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإنْ تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات» وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّينَاهُ وَ مَن مَّعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾ أي: في الأرض ﴿وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد، كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

٧٤- يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح، ﴿رُسُلاً إِلَى قَومِهِمْ فَجَاؤُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾، أي: الحجج والأدلة والبراهين، على صدق ما جاؤهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أو ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبصارَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٤٧٨) و مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٧) من حديث أبي هريرة بنحوه.

المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

و المراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإنَّ الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أنْ أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنتَ أولُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية، وفي هذا إنذارٌ عظيم لمشركي العرب، الذين كذبوا سيد الرسل، وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذَّب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

٧٥- يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وهارونَ إِلَى فِرعونَ وَملئِهِ﴾ أي: قومه ﴿بآياتنا﴾ أي: حججنا وبراهيننا ﴿فاستكبَرُوا وكانُوا قَوماً مُّجرِمينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، وكانوا قوماً مجرمين.

٧٦- ﴿فلمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أنَّ ما قالوه كذبٌ وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَ جَحَدُوا بها وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً﴾ الآية.

٧٧، ٧٨- ﴿قالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ منكراً عليهم: ﴿أتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحرٌ هذَا وَ لاَ يُفلِحُ السَّاحِرونَ ۞ قَالُوا أَجِئتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تُثْنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا﴾ أي: الدِّين الذي كانوا عليه ﴿وَ تَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الأرضِ وما نحنُ لَكُمَا بِمُؤمِنِينَ﴾.

و كثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذِر من موسى كُلَّ الحذر، فسَخَّره القَدَر أنْ ربَّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته، بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله تعالى، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرّد فرعون واستكبر؛ وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوي رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله وعَتى وبغى، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون، ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام؛ و لم تزل المحاجَّة والمجادلة، والآيات تقوم على يد موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا مَن هو مؤيد من الله ﴿وَ مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ

﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وصمم فرعون وملؤه ـ قبحهم الله ـ على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين **﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾

٧٩، ٨٠- ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ أراد أنْ يبهرج على الناس، ويُعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام **﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾** فظنَّ فرعونُ أنه يستنصر بالسحَّار؛ على رسول الله عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾** وإنما قال لهم ذلك، لأنهم لمَّا اصْطفُّوا وقد وُعدوا من فرعون بالتقريب، والعطاء الجزيل **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾** فأراد موسى أنْ تكون البداءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم. ولهذا لما أَلقوا، **﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾** **﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾**.

٨١، ٨٢- فعند ذلك قال موسى لما ألقوا **﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾**. وروى ابن أبي حاتم: عن ليث وهوابن أبي سليم قال: بلغني أنَّ هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تُقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾** والآية الأخرى **﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** إلى آخر أربع آيات، وقوله: **﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾**[1].

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾

٨٣- يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم: الشباب، على وَجَل وخوف منه ومن ملئه، أنْ يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأنَّ فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً.

---

(١) و سنده فيه لين.

و روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول : بني إسرائيل ، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة : الذرية القليل ، وقال مجاهد : أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم . واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية ، أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون ، لعود الضمير على أقرب المذكورين . وفي هذا نظر ، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب ، وأنهم من بني إسرائيل ، فالمعروف أنَّ بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ﷺ واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته ، والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأنَّ الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ، ويظهرهم عليه ، ولهذا لما بلغ هذا فرعون ، حذرَ كل الحذر ، فلم يُجْدِ عنه شيئاً ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى ، و﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وإذا تقرر هذا ، فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي : وأشراف قومه أن يفتنهم ، ولم يكن في بني إسرائيل مَن يُخاف منه أن يَفتن عن الإيمان ، سوى قارون ، فإنه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ لكنه كان طاوياً إلى فرعون ، متصلاً به متعلقاً بحباله . ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن ، قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾

٨٤- يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي : فإن الله كافٍ مَن توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل ، كقوله تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك ، فقالوا :

٨٥- ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا تُظفرهم بنا ، وتُسلِّطهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سُلِّطوا ، لأنهم على الحق ونحن على الباطل ، فيفتنوا بذلك . هكذا رُوي عن أبي مجلز وأبي الضحى ، وقال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد : لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق ما عُذِّبوا ، ولا سُلِّطنا عليهم ، فيُفتنوا بنا ، وروى عبد الرزاق : عن مجاهد ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تُسلِّطهم علينا فيفتنونا .

٨٦- وقوله : ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي : خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي : الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

٨٧- يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أنَّ الله

تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوّآ أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ فروى الثوري وغيره: عن ابن عباس ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ قال: أُمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيّقوا عليهم، أُمروا بكثرة الصلاة، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا استَعِينُوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ﴾.

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر صلى، أخرجه أبو داود.

ولهذا قال تعالى في هذه الآية ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ المُؤمِنينَ﴾ أي: بالثواب والنصر القريب. وقال مجاهد ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ لمَّا خاف بنو إسرائيل من فرعون أنْ يُقتلوا في الكنائس الجامعة، أُمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد، مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سراً. وكذا قال قتادة والضحاك. وقال سعيد بن جبير ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ أي: يقابل بعضها ببعض.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

٨٨- هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال: ﴿رَبَّنا إنَّكَ آتيتَ فِرعَونَ وَمَلأَهُ زينةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَموالاً﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿في﴾ هذه ﴿الحياةِ الدُّنيا رَبَّنا لِيَضِلُّوا عَن سَبيلِكَ﴾ بفتح الياء، أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم، كقوله تعالى: ﴿لِنَفتِنَهُمْ فيهِ﴾. وقرأ آخرون ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم مَن شئتَ مِنْ خَلقك، ليظن مَن أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتنائك بهم ﴿رَبَّنا اطْمِسْ عَلى أَموالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل سُكَّرهم حجارة.

وقوله: ﴿واشْدُدْ عَلى قُلوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: اطبع عليها ﴿فَلا يُؤمِنوا حَتّى يَرَوُا العَذابَ الأَليمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرضِ مِنَ الكافِرينَ دَيّاراً * إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إلا فاجِراً كَفّاراً﴾ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون.

٨٩- فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجيبَت دَّعوَتُكُما﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. وقد يحتج بهذه

الآية: مَن يقول: إنَّ تأمين المأموم على قراءة الفاتحة، يُنَزَّل منزلة قراءتها، لأن موسى دعا وهارون أمَّنَ، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعوَتُكُمَا فَاستَقِيمَا﴾ الآية، أي: كما أجيبت دعوتكما، فاستقيما على أمري.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾

٩٠- يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإنَّ بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام، وهم فيما قيل: ستمائة ألف مقاتل، سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة، لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحدٌ ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألحَّ أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال: كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أنْ أسلك ههنا، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضربَ البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبطٍ واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ وتخرَّق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين، لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم [(١)] سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب، وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل [(٢)] فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، وتقدَّم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلُّهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهَمَّ أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

٩١- ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون، حين قال ما قال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا

(١) الأدهم: الأسود من الخيل.

(٢) الفرس الوديق: التي أرادت الفَحْل. و الحائل: التي لم تلقح (القاموس).

الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس ﴿وجَعَلْناهُمْ أئِمَّةً يَدعونَ إلَى النَّارِ ويومَ القِيامةِ لاَ يُنصَرونَ﴾ وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك، من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسولهﷺ، ولهذا روى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر[1] فأدسُّه في فم فرعون، مخافة أنْ تُدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير.

و قوله: ﴿فاليومَ نُنجِّيكَ بِبَدَنكَ لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفكَ آيةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل شَكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أنْ يلقيه بجسده سوياً بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض ـ وهو المكان المرتفع ـ ليتحققوا موته وهلاكه. ولهذا قال تعالى: ﴿فاليومَ نُنجِّيكَ﴾ أي: نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِبَدَنكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبدالله بن شداد: سوياً صحيحاً، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك.

و كل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم، والله أعلم.

و قوله: ﴿لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفكَ آيةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم ﴿لِتكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيةً وَ إنَّ كَثيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنا لَغافِلُونَ﴾ أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما روى البخاري: عن ابن عباس قال: قدم النبيﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ ظهرَ فيه موسى على فرعون. فقال النبيﷺ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم، فصوموه».

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾

٩٣- يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل، من النعم الدينية والدنيوية. وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإنَّ الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده، استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَ أورَثْنَا القَومَ الذينَ كَانُوا يُستَضعفُونَ مَشارِقَ الأرضِ وَ مغارِبَها الَّتِي بَارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسنَى عَلَى بَنِي إسرَائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصنَعُ فِرعَونُ وَ قَومُهُ وَ مَا كَانُوا يَعرِشُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿فَأخْرَجْناهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيونٍ۞ وَ كُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ۞ كَذلِكَ وَ أورَثْنَاهَا بَنِي إسرَائِيلَ﴾ وقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَ عُيونٍ﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسىﷺ طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليلﷺ، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فَنَكِل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشرَّدهم الله تعالى في التِّيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسىﷺ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أنْ أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى بن مريمﷺ في تلك المدة، فاستعانت اليهود قبحهم الله على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أنَّ هذا يُفسد عليكم الرعايا، فبعثوا مَن يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك فدخل في دين النصارى، قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس، والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر، على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامة والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران، كبصرى وغيرها من البلدان، بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد، إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً، وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أنْ يختلفوا وقد بَيَّن الله لهم، وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقةً، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار» قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) ﴾

٩٤، ٩٥- قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشُكُّ ولا أسأل» وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أنَّ صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبِّسون

ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به، مع قيام الحجة عليهم.

٩٦- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام فرعون وملأه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾

٩٨- يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة، الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول، إلا كذَّبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «عُرِضَ عليَّ الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي.

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم، ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس ـ وهم أهل نينوى ـ وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب، الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأُخِّروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين: أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية. والثاني: فيهما، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۞ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذٌ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة: وذُكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل. وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف. وكان ابن مسعود يقرؤها ﴿فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾.

وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا

كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)﴾

٩٩- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى: هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله.

١٠٠- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخَبَال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية مَنْ هدى، وإضلال من ضل.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

١٠١- يُرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق الله في السموات والأرض، من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار، واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار، وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخَّر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها، الدالة على صدقها ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

١٠٢، ١٠٣- وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد، من النقمة والعذاب، إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم، من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ۞ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسل ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقاً أوجبه الله على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ

ربكم على نفسه الرحمة﴾ وكما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله كتَبَ كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي سبقت غضبي».

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾

١٠٤- يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي، فأنا لا ﴿أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإنْ كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع، هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

١٠٥، ١٠٦- وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ الآية، أي: أخلص العبادة لله وحده ﴿حنيفاً﴾ أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠٧- وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر، إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

و قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه، وتوكل عليه، من أي ذنبٍ كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

١٠٨- يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس: أن الذي جاءهم به من عند الله، هو الحق الذي لا مرية فيه، و لا شك فيه، فمن اهتدى به واتبعه، فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم، حتى تكونوا مؤمنين به، و إنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

١٠٩- وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أي: تَمَسَّكْ بما أنزل الله عليك، وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين، بعدله وحكمته.

ترتيبها ١١ — سورة هود ـ مكية — آياتها ١٢٣

روى أبو عيسى الترمذي: عن ابن عباس قال: قال أبوبكر: يا رسول الله، قد شِبْتَ. قال: «شيبتني هودٌ والواقعةُ و المرسلات وعم يتساءلون و إذا الشمس كورت». وفي رواية: «هودٌ و أخواتها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على حروف الهجاء، في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا، و بالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى؛ هذا معنى ماروى عن مجاهد و قتادة، و اختاره ابن جرير. و معنى قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم، في أقواله و أحكامه، خبير بعواقب الأمور.

٢ - ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل، لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. و قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، و بشير بالثواب إن أطعتموه. كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش، الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو خبرتكم أنَّ خيلاً تُصَبِّحكم، ألستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

٣- و قوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: و آمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، و التوبة منها إلى الله عزوجل فيما تستقبلونه، و أن تستمروا على ذلك ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة. قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ الآية، وقد جاء في الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ قال لسعد: و إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله، إلا أُجرتَ بها، حتى ما تجعل في في امرأتك».

و قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديدٌ شديد، لمن تولّى عن أوامر الله تعالى، و كذَّب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معادكم و مرجعكم يوم

القيامة ﴿وهُوَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء، من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، و إعادة الخلائق يوم القيامة؛ وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾

٥- قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. روى البخاري: أن ابن عباس قرأ ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدورُهم﴾ الآية، فقلت يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي، أو يتخلى فيستحيي، فنزلت ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدورُهم﴾.

وفي لفظ آخر له: قال ابن عباس: أناسٌ كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، و أن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. ثم روى عن عمرو قال: قرأ ابن عباس ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يُثنوني صُدورهم لِيستَخفُوا مِنهُ ألاَ حينَ يَستغشُونَ ثِيابَهُمْ﴾. قال البخاري: و قال غيره عن ابن عباس ﴿يَستَغشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم.

و قال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد و الحسن و غيرهم، أي: أنهم كانوا يثنون صدورهم، إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول ﴿مَا يُعلِنونَ إنَّهُ عليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ﴾ أي: يعلم ما تكن صدورهم، من النيات و الضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتُمنَّ الله مافي قلوبكم	ليخفى ومهما يُكتم الله يَعلم
يُؤخَّر فيوضع في كتاب فيُدَّخر	ليوم حساب أو يُعجل فيُنقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع، وعلمه بالجزئيات، و بالمعاد و بالجزاء، و بكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة.

و عود الضمير إلى الله أولى، لقوله: ﴿أَلاَ حينَ يستَغشُونَ ثِيابَهمْ يعلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعلِنونَ﴾ و قرأ ابن عباس ﴿ألا إنَّهمْ تُثنوني صدورُهم﴾ برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾

٦- أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها و كبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿يَعلَمُ مُستَقَرَّها و مُستَودَعَها﴾ أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، و أين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها. وقال علي بن أبي طلحة و غيره عن ابن عباس ﴿وَيَعلَمُ مُستَقَرَّها﴾ أي: حيث تأوى ﴿ومُستَودَعَها﴾ حيث تموت، وعن مجاهد ﴿مُستَقَرَّها﴾ في الرحم ﴿ومُستَودَعَها﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام، وكذا روي عن ابن عباس و الضحاك و جماعة، و ذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، و أن جميع ذلك في كتاب عند الله، مبين عن جميع ذلك، كقوله: ﴿ومَا مِن دَابَّةٍ فِي الأرضِ ولاَ طائرٍ يطيرُ بجناحيهِ إلاَّ أُمَمٌ أمثالُكم مَّا فَرَّطْنَا في الْكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحشَرونَ﴾ وقوله:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾

٧- يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، و أنه خلق السموات و الأرض في ستة أيام، و أن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشَّرتنا فأعطنا، قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن» قالوا: قد قَبِلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان اللهُ قبل كلِّ شيءٍ، و كان عرشهُ على الماء، و كَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكرَ كل شيءٍ» قال: فأتاني آتٍ، فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال: فخرجتُ في إثرها فلا أدري ما كان بعدي. فهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري و مسلم بألفاظ كثيرة.

و في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قَدَّرَ مقاديرَ الخلائق، قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة، و كان عرشه على الماء».

و روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنفقْ أُنفق عليك» و قال: «يدُ الله ملأى، لا يغيضها نفقةٌ، سحَّاءَ الليل و النهار» و قال: «أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض، فإنه لم يَغض مافي يمينه، وكان عرشه على الماء، و بيده الميزان يخفض و يرفع».

و قال مجاهد ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: قبل أن يخلق شيئاً، و كذا قال وهب بن منبه و ضمرة وقتادة وابن جرير و غير واحد، و قال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه، قبل أن يخلق السموات و الأرض. و قال ابن عباس: إنما سمى العرش عرشاً لارتفاعه.

و قال محمد بن إسحاق: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء و عليه العرش، و على العرش ذو الجلال و الإكرام، و العزة و السلطان، و الملك و القدرة، و الحلم و العلم، و الرحمة و النعمة، الفعَّال لما يريد.

و عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على مَتْن الريح.

و قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي: خَلَق السموات و الأرض لنفع عباده، الذين خلقهم ليعبدوه و لا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ و قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ و قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ و لم يقل أكثر عملاً، بل أحسن

عملاً، و لا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فَقَدَ العمل واحداً من هذين الشريطين، حبط و بطل.

و قوله: ﴿و لئن قُلتَ إنكُم مَّبعوثُونَ مِن بَعدِ المَوتِ﴾ الآية، يقول تعالى، و لئن أخبرتَ يا محمد هؤلاء المشركين، أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَ لئِن سَألتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ ﴿وَ لئِن سَألتَهُم مَّنْ خلَقَ السَّموات وَالأرضَ و سَخَّرَ الشَّمسَ وَ القَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث و المعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي يَبدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أهْوَنُ عليهِ﴾ و قال تعالى: ﴿مَا خَلقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفسٍ واحدَةٍ﴾. وقولهم ﴿إنْ هذَا إلاَّ سِحرٌ مُّبينٌ﴾ أي: يقولون كفراً وعناداً: ما نصدقك على وقوع البعث، و ما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْته، فهو يتبعك على ما تقول.

٨- و قوله: ﴿و لَئِنْ أخَّرْنَا عَنهُمُ العَذابَ إلَى أُمَّةٍ مَّعدُودَةٍ﴾ الآية. يقول تعالى: و لئن أخَّرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين، إلى أجل معدود و أمد محصور، و أوعدناهم إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَحبِسهُ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألِفت التكذيب و الشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و «الأمة» تستعمل في القرآن و السنة في معادن متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية ﴿إلَى أُمَّةٍ مَّعدُودَةٍ﴾، و قوله في يوسف ﴿وَ قالَ الَّذِي نَجَا مِنهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ﴾. و تُستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ المُشركينَ﴾. و تُستعمل في الملة و الدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا ﴿إنَّا وَجَدنا آباءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَ إنَّا علَى آثارِهِم مُّقتَدونَ﴾. و تستعمل في الجماعة، كقوله: ﴿و لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَديَنَ وَجَدَ عَلَيهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسقُونَ﴾، و قوله: ﴿و لقَدْ بعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ و اجْتَنِبوا الطَّاغوتَ﴾ وقال تعالى: ﴿و لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فإذا جاءَ رسُولُهُم قُضيَ بَينَهُم بالقِسطِ وَهُمْ لاَ يُظلَمونَ﴾.

و المراد من الأمة ههنا: الذين يُبعث فيهم الرسول، مؤمنهم و كافرهم، كما في صحيح مسلم: «و الذي نفسي بيده، لا يَسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ و لا نصرانيٌّ، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

و أما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. و في الصحيح: «فأقول أمتي أمتي». و تُستعمل الأمة في الفرقة و الطائفة، كقوله تعالى: ﴿ومِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بالْحَقِّ وَبِه يَعدِلونَ﴾ و كقوله: ﴿مِنْ أهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ﴾ الآية.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾

٩، ١٠- يخبر تعالى عن الإنسان و ما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حَصَل له يأسٌ و قنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، و كفرٌ و جحود لماضي

الحال، كأنه لم ير خيراً، و لم يرج بعد ذلك فرجاً، و هكذا إنْ أصابته نعمة بعد نقمة **﴿لَيَقولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي﴾** أي: يقول ما ينالني بعد هذا ضيمٌ و لا سوء **﴿إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** أي: فرحٌ بما في يده، بطرٌ فخور على غيره.

١١- قال الله تعالى: **﴿إلاَّ الذينَ صَبَرُوا﴾** أي: على الشدائد و المكاره **﴿وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾** أي: في الرخاء والعافية **﴿أولَئكَ لَهُم مَّغفِرةٌ﴾** أي: بما يصيبهم من الضراء **﴿و أجْرٌ كبيرٌ﴾** بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «و الذي نفسي بيده، لا يصيبُ المؤمن همٌّ و لا غمٌّ، و لا نصبٌ و لا وَصَبَ، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه»[1].

و في الصحيحين: «و الذي نفسي بيده، لا يَقضي الله للمؤمن قضاءً، إلا كان خيراً له: إنْ أصابته سرَّاء فشكر، كان خيراً له، و إنْ أصابته ضرَّاء فصبر، كان خيراً له، و ليس ذلك لأحد غير المؤمن»[2].

و لهذا قال الله تعالى: **﴿و العَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ إلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ و تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**. و قال تعالى: **﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾** الآيات.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾

١٢- يقول تعالى مسلياً لرسولهﷺ عما كان يتعنَّت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: **﴿وَ قَالُوا مَا لِهَذا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعامَ وَ يَمشِي في الأسْواقِ لَولاَ أُنزِلَ إليهِ مَلَكٌ فَيكونَ مَعهُ نَذِيراً أو يُلقَى إليهِ كَنزٌ أوْ تَكونُ لهُ جَنَّةٌ يَأكلُ مِنها و قالَ الظَّالِمونَ إن تَتَّبِعونَ إلاَّ رَجُلاً مَّسْحوراً﴾** فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله و سلامه عليه و أرشده إلى [illegible] يَضيق بذلك منهم صدرُه، ولا يصدَّنه ذلك، و لا يُثنِينَّهُ عَن دعائهم إلى الله عز وجل، آناء الليل و أطراف النهار، كما قال تعالى: **﴿و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بِمَا يَقُولونَ﴾** الآية. و قال هاهنا: **﴿فلعلَّكَ تاركٌ بَعضَ ما يُوحَى إليكَ و ضائقٌ بِهِ صَدرُكَ أن يَقُولُوا﴾** أي: لقولهم ذلك، فإنما أنتَ نذير، و لك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبوا و أوذوا، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

١٣- ثم بين تعالى إعجاز القرآن، و أنه لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، و لا بعشر سور مثله، و لا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يُشبه كلام المخلوقين، كما أنَّ صفاته لا تشبه صفات المحدثات، و ذاته لا يُشبهها شيء، تعالى و تقدس و تنزه، لا إله إلا هو، و لا رب سواه.

١٤- ثم قال تعالى: **﴿فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾** أي: فإنْ لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، و أنَّ هذا الكلام منزلٌ من عند الله، متضمن علمه و أمره و نهيه **﴿وَ أن لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَهَلْ أنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في البر (٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣) بألفاظ مقاربة عن عائشة و أبي هريرة و أبي سعيد رضي الله عنهم.

(٢) الحديث بنحوه في صحيح مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) و لم يخرجه البخاري كما سبق التنبيه عليه.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

١٥ ، ١٦ – قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: إنَّ أهل الرياء يُعطون بحسناتهم في الدنيا، و ذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: مَنْ عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أُوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، و حبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. و هكذا روي عن مجاهد و غير واحد. و قال أنس بن مالك و الحسن: نزلت في اليهود و النصارى.

و قال قتادة: مَنْ كانت الدنيا همه و سَدَمه[1] و نيته و طلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعْطى بها جزاء، و أما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، و يثاب عليها في الآخرة، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا[2].

و قال تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾** وقال تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾**.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾

١٧– يخبر تعالى عن حال المؤمنين، الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجهَكَ للدينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها﴾** الآية.

و في الصحيح: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»؟ الحديث.

و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، و أمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً».

و في المسند و السنن: «كلُّ مولودٍ يولد على هذه الملة، حتى يُعْربَ عنه لسانه» الحديث.

فالمؤمن باق على هذه الفطرة.

و قوله: **﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾** أي: وجاءه شاهدٌ من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع

---

(١) السدم: الولوع بالشيء و اللهج به.

(٢) يريد ما أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطى بها في الدنيا و يجزى بها في الآخرة، و أما الكافر فَيُطعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنةٌ له يُجزى بها».

المطهرة، المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين. و لهذا قال ابن عباس ومجاهد و عكرمة و أبو العالية و الضحاك و إبراهيم النخعي و السدي و غير واحد أنه: جبريل عليه السلام، و عن علي رضي الله عنه و الحسن و قتادة: هو محمد ﷺ. و كلاهما قريب في المعنى، لأن كلاً من جبريل و محمد صلوات الله عليهما بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، و محمد إلى الأمة، و قيل: هو علي! وهو ضعيف، لا يَثبت له قائل، و الأول و الثاني هو الحق، و ذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، و التفاصيل تُؤخذ من الشريعة، و الفطرة تصدقها و تؤمن بها، و لهذا قال تعالى: ﴿**أفمَن كانَ على بيّنةٍ من ربّه ويتلوهُ شاهدٌ منهُ**﴾ وهو القرآن، بلَّغه جبريل إلى النبي ﷺ، و بلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿**ومِن قبلهِ كتابُ موسى**﴾ أي: و من قبل القرآن: كتاب موسى، وهو التوراة ﴿**إماماً ورحمةً**﴾ أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، و قدوة يقتدون بها، و رحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان، قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، و لهذا قال تعالى: ﴿**أولئكَ يؤمنونَ به**﴾. ثم قال متوعداً لمن كذَّب بالقرآن، أو بشيء منه ﴿**ومَن يكفرْ به منَ الأحزابِ فالنّارُ موعدُهُ**﴾ أي: ومَن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، و مشركهم و كافرهم و أهل الكتاب، وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم و أجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿**لأنذرَكُم به ومَن بلغَ**﴾ و قال تعالى: ﴿**قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنّي رسولُ اللهِ إليكُم جميعاً**﴾ و قال تعالى: ﴿**ومَن يكفرْ به منَ الأحزابِ فالنّارُ موعدُهُ**﴾.

و في صحيح مسلم: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، ثم لا يُؤمن بي، إلا دخلَ النار».

و عن سعيد بن جبير قال: كنتُ لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه، إلا وجدت مصداقه، أو قال: تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، فلا يؤمن بي إلا دخل النار» فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: و قلما سمعت رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدتُ هذه الآية ﴿**ومَن يكفرْ به منَ الأحزابِ فالنّارُ موعدُهُ**﴾ قال: من الملل كلها.

و قوله: ﴿**فلا تكُ في مريةٍ منهُ إنّهُ الحقُّ من ربّكَ**﴾ الآية، أي: القرآن حقٌّ من الله لا مرية و لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿**الم * تنزيلُ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين**﴾ وقال تعالى: ﴿**الم * ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه**﴾.

و قوله: ﴿**و لكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يؤمنونَ**﴾ كقوله تعالى: ﴿**وما أكثرُ النّاسِ ولو حرصتَ بمؤمنينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وإن تُطعْ أكثرَ مَن في الأرضِ يُضلّوكَ عن سبيلِ اللهِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**و لقدْ صدّقَ عليهم إبليسُ ظنَّهُ فاتّبعوهُ إلا فريقاً منَ المؤمنينَ**﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ

أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

١٨- يبين تعالى حال المفترين عليه، و فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، من الملائكة والرسل و الأنبياء و سائر البشر و الجان، كما روى الإمام أحمد: عن صفوان بن محرز قال: كنتُ آخذاً بيد ابن عمر، إذ عَرضَ له رجلٌ، قال: كيفَ سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجْوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إنَّ الله عزوجل يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه، و يستره من الناس، و يُقرِّره بذنوبه، و يقول له: أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه، و رأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سَتَرتُها عليك في الدنيا، و إني أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته، و أما الكفار و المنافقون فيقول: **﴿الأشهادُ هؤلاءِ الذينَ كَذَبُوا علَى رَبِّهِمْ ألا لَعْنةُ اللهِ علَى الظالمينَ﴾** الآية.

أخرجه البخاري و مسلم في الصحيحين.

١٩- و قوله: **﴿الذينَ يَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ و يبغُونهَا عِوَجاً﴾** أي: يردُّون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، و يجنبونهم الجنة **﴿و يبغُونهَا عِوَجاً﴾** أي: و يريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة **﴿وهم بالآخرةِ هم كافرون﴾** أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها و كونها.

٢٠- **﴿أولئكَ لم يَكُونوا مُعْجِزِينَ في الأرضِ و ما كانَ لهم من دونِ اللهِ من أولياءَ﴾** أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته و سلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة **﴿و لكن يُؤخِّرُهم ليومٍ تَشخصُ فيه الأبصارُ﴾**. و في الصحيح: «إنَّ الله لَيُمْلي للظالم، حتى إذا أَخَذه لم يُفْلته».

و لهذا قال تعالى: **﴿يُضاعَفُ لَهمُ العذابُ﴾** الآية، أي: يُضاعف عليهم العذاب، و ذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم و لا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار، كقوله: **﴿و قالُوا لَو كنا نَسْمعُ و نَعْقِلُ ما كُنَّا في أصْحابِ السَّعيرِ﴾** و قال تعالى: **﴿الذينَ كَفرُوا و صَدُّوا عن سَبيلِ اللهِ زِدْنَاهُم عذاباً فوقَ العذابِ﴾** الآية، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، و على كل نهي ارتكبوه، و لهذا كان أصح الأقوال: أنهم مكلفون بفروع الشرائع، أمرها و نهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

٢١- و قوله: **﴿أولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسهم و ضَلَّ عَنهمْ ما كانوا يفترونَ﴾** أي: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يُفتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: **﴿كُلَّما خَبَتْ زِدْناهمْ سَعِيراً﴾** **﴿و ضَلَّ عنهمْ﴾** أي: ذهب عنهم **﴿ما كانُوا يَفْترونَ﴾** من دون الله من الأنداد و الأصنام، فلم تُجدِ عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: **﴿ و إذا حُشِرَ الناسُ كانُوا لهمْ أعداءً و كانُوا بعِبادتِهمْ كافِرينَ﴾** و قال تعالى: **﴿و اتَّخذوا من دونِ اللهِ آلهةً ليكونُوا لهم عِزاً ۞ كلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهمْ ويَكُونُونَ عليهمْ ضدًا﴾**.

و قال الخليل لقومه **﴿إنَّما اتَّخذتُم مِّن دُونِ اللهِ أوثاناً مَّودَّةَ بينكمْ في الحَيَاةِ الدُّنيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامةِ يَكفرُ بَعضُكم بِبَعْضٍ ويَلْعَنُ بعضُكمْ بَعضاً و مَأْوَاكُمُ النَّارُ و ما لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** و قوله: **﴿إذْ تبرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ

﴿الَّذِينَ اتُّبِعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم و دمارهم.

٢٢- و لهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، و اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، و عن شرب الرحيق المختوم، بسموم و حميم، و ظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن و رؤيته، بغضب الديان و عقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾

٢٣- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، قولاً و فعلاً، من الإتيان بالطاعات، و ترك المنكرات، و بهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، و السرر المصفوفات، و القطوف الدانيات، و الفرش المرتفعات والحسان الخيرات، و الفواكه المتنوعات، و المآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، و النظر إلى خالق الأرض و السموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون و لا يهرمون، ولا يمرضون و لا ينامون، ولا يتغوطون و لا يبصقون و لا يتمخطون، إنْ هو إلا رَشحُ مِسْكٍ يَعْرقون.

٢٤- ثم ضرب تعالى مثل الكافرين و المؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى و الأصم و هؤلاء كالبصير و السميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق، في الدنيا و في الآخرة، لا يهتدي إلى خير و لا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية، و أما المؤمن: ففطنٌ ذكيٌ لبيبٌ بصيرٌ بالحق يُميِّزُ بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميعٌ للحجة، يفرق بينها و بين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا و هذا؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفترقون بين هؤلاء و هؤلاء، كما قال في الآية الأخرى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ و كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾

٢٥- يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، من المشركين عبدة الأصنام، أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله، إنْ أنتم عبدتم غير الله؛ و لهذا قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ و قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إن استمررتم على ما

أنتم عليه، عذَّبكم الله عذاباً أليماً، موجعاً شاقاً، في الدار الآخرة.

٢٦ - **﴿فقالَ الملأُ الذينَ كفروا من قومِه﴾** و الملأ هم السادة و الكبراء من الكافرين منهم **﴿ما نراكَ إلاَّ بَشراً مِثلنا﴾** أي: لست بِمَلَك و لكنك بشرٌ، فكيف أوحي إليك من دوننا، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا، كالباعة و الحاكة و أشباههم، و لم يتبعك الأشراف و لا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك، لم يكن عن تروٍّ منهم و لا فِكرٍ و لا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك، و لهذا قالوا **﴿وَ مَا نَرَاكَ اتبعكَ إلا الذينَ هم أراذلُنا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾** أي: في أول بادئ الرأي **﴿وما نَرى لكمْ علينا مِن فَضْلٍ﴾** يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق و لا خلق، و لا رزق و لا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا.

﴿بل نَظُنُّكمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر و الصلاح، و العبادة و السعادة، في الدار الآخرة إذ صرتم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوح ﷺ و أتباعه، وهو دليل على جهلهم و قلة علمهم و عقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإنَّ الحق في نفسه صحيحٌ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه: أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، و الذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، و الغالب على الأشراف والكُبراء مخالفته، كما قال تعالى: **﴿و كذلكَ مَا أَرْسلنا مِن قبْلِكَ في قَريةٍ مِن نَذيرٍ إلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا على أُمَّةٍ و إنَّا عَلَى آثارِهم مُقْتَدُونَ﴾**. و لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخربن حرب، عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضُعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

و قولهم: **﴿بادِيَ الرَّأْيِ﴾** ليس بمذمة و لا عيب، لأن الحق إذا وَضُح، لا يبقى للرأي و لا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق و الحالة هذه، لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكِّر ههنا إلا غبي أو عَيي، والرسل ـ صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين ـ إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

و قوله: **﴿وما نَرى لَكمْ علينا مِن فَضْلٍ﴾** هم لا يرون ذلك، لأنهم عميٌ عن الحق، لا يسمعون و لا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾

٢٨ - يقول تعالى مخبراً عما ردَّ به نوح على قومه في ذلك **﴿أرأيتمْ إن كُنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي﴾** أي: على يقين وأمر جلي، و نبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به و بهم **﴿فعُمِّيَتْ عَليكُمْ﴾** أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، و لا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها و ردها **﴿أنلزمُكُموها﴾** أي: نغصبكم بقبولها، وأنتم لها كارهون!

﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾

٢٩، ٣٠ - يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً، أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله

عز وجل ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كأنهم طلبوا منه أنْ يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً و نفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسلﷺ أنْ يطرد عنهم جماعة من الضعفاء، و يجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الآية.

﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣١) ﴾

٣١- يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، و لا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو مَن لقيه من شريف و وضيع، فمن استجاب له فقد نجا، و يخبرهم أنه لا قُدرة له على التصرف في خزائن الله، و لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، و ليس هو بمَلَك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، و لا أقول عن هؤلاء الذين تحقرونهم و تزدرونهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فإنْ كانوا مؤمنين باطناً ـ كما هو الظاهر من حالهم ـ فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحدٌ بشرٍ بعد ما آمنوا، لكان ظالماً، قائلاً مالا علم له به.

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٣٢) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين (٣٣) ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون (٣٤) ﴾

٣٢، ٣٣- يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله، و عذابه و سخطه، و البلاء مُوكَّلٌ بالمنطق. ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، و نحن لا نتبعك ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ أي: من النقمة و العذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعونا به ﴿إن كنت من الصادقين* قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم و يعجلها لكم: الله الذي لا يُعجزه شيء.

٣٤- ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: أيُّ شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم، و إنذاري إياكم ونصحي ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: إغواءكم و دماركم ﴿هو ربكم و إليه ترجعون﴾ أي: هو مالك أزمَّة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق و له الأمر، هو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون (٣٥) ﴾

٣٥- هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها، مقرر لها، يقول تعالى لمحمدﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا، و افتعله من عنده ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾ أي: فإثم ذلك عليَّ ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً و لا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (٣٦) واصنع

الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾

٣٦- يخبر تعالى أنه أوحي إلى نوح، لما استعجل قومه نقمة الله بهم و عذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته، التي قال الله تعالى مخبراً عنه، أنه قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ فلا تحزن عليهم، و لا يهمنَّك أمرهم.

٣٧- ﴿و اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: تعليمنا لك ما تصنعه ﴿و لاَ تُخَاطِبْنَا فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمَرَه الله تعالى أن يغرز الخشب و يقطعه و ييبسه، فكان ذلك في مائة سنة، و نجرها في مائة سنة أخرى. وقيل: في أربعين سنة، و الله أعلم. و ذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، و أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً و عرضها خمسين ذراعاً، و أن يُطلي باطنها وظاهرها بالقار، و أن يجعل لها جؤجؤاً أزوراً يشق الماء، و قال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين.

قالوا كلهم: و كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب و الوحوش، و الوسطى للإنس، و العليا للطيور، و كان بابها في عرضها، و لها غطاء من فوقها مطبق عليها.

٣٨- و قوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يهزءون به، و يكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ الآية. وعيدٌ شديد و تهديد أكيد.

٣٩- ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبداً.

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾

٤٠- هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، و الهتّان الذي لا يُقلع ولا يفتر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * و فَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ و دُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

و أما قوله: ﴿و فَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عُيُوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير، التي هي مكان النار صارت تفور ماءً. و هذا قول جمهور السلف و علماء الخلف. فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أنْ يحمل معه في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: و غيرها من النباتات اثنين ذكراً و أنثى.

و قوله: ﴿و أهلكَ إلاَّ مَن سبقَ عليه القولُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته و قرابته ﴿إلاَّ مَن سبقَ عليه القولُ منهُمْ﴾ ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، و امرأة نوح و كانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿وَ مَنْ آمنَ﴾ أي: من قومك ﴿وَ ما آمَنَ معَهُ إلاَّ قليلٌ﴾ أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين و سبعين نفساً، و قيل: كانوا عشرة، و قيل: إنما كان نوح و بنوه الثلاثة: سام وحام و يافث، وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة، و امرأة يام، و قيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة! وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت، لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، و الله أعلم و أحكم.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

٤١ -يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿اركَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْريهَا وَ مُرْسَاهَا﴾ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، و بسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوّها، و قرأ أبو رجاء العطاردي ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَ مُرْسِيهَا﴾ و قال تعالى: ﴿فإذَا اسْتَوَيْتَ أنتَ وَمَن مَعكَ عَلَى الفُلْك فَقُل الحمدُ للهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَقُل رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً و أنتَ خَيْرُ المُنْزلينَ﴾ و لهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور. عند الركوب على السفينة، و على الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالذي خَلَقَ الأزْواجَ كُلَّهَا و جَعلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ* لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الآية، و جاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه، كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله، و به الثقة.

و قوله: ﴿إنَّ ربِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين، بإغراقهم أجمعين، فذكر أنه غفورٌ رحيم، كقوله: ﴿إنَّ ربَّكَ لسَرِيعُ العِقَابِ* و إنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ و قال: ﴿و إنَّ ربَّكَ لذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ و إنَّ ربَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، التي يقرن فيها بين رحمته و انتقامه.

٤٢- و قوله: ﴿و هيَ تَجْرِي بِهِمْ في مَوجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، و ارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، و قيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله، وتحت كنفه و عنايته و حراسته و امتنانه، كما قال تعالى: ﴿إنَّا لمَّا طَغَى الماءُ حَملنَاكُمْ في الجَارِيَةِ* لِنَجعَلهَا لكُمْ تَذكرَةً وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ و قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلى ذَاتِ أَلْواحٍ و دُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جزاءً لمنْ كانَ كُفِرَ* و لقدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فهلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾.

و قوله: ﴿و نَادَى نُوحٌ ابنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع، و اسمه يام، و كان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة، أن يؤمن و يركب معهم، و لا يغرق مثل ما يغرق الكافرون.

٤٣- فـ ﴿قال سآوِي إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُني من الماءِ﴾ و قيل: إنه اتخذ له مركباً من زجاج، وهذا من

الإسرائيليات، و الله أعلم بصحته، و الذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، و أنه لو تعلق في رأس جبل لَنَجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح ﷺ ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلا مَن رَحِمَ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، و قيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم و مكسو ﴿و حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾

٤٤- يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم، إلا أصحاب السفينة، أمَرَ الأرض أن تبلع ماءها، الذي نبع منها، و اجتمع عليها، و أمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿و غِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: شَرَع في النقص ﴿وقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فُرِغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله لم يبق منهم دَيَّار ﴿و اسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق و تطاولت، وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق، و أرست عليه سفينة نوح ﷺ. و قال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها. قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح ﷺ على الجودي من أرض الجزيرة[1]، عبرة و آيةً، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت و صارت رماداً.

و قال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور!

و قوله: ﴿و قِيلَ بُعداً لِلقَومِ الظَّالِمينَ﴾ أي: هلاكاً و خساراً لهم، و بعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾

٤٥- هذا سؤال استعلام و كشف، من نوح ﷺ عن حال ولده الذي غرق، و قال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: و قد وعدتني بنجاة أهلي، و وعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق و أنت أحكم الحاكمين؟

٤٦- ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتُ إنجاءهم، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، و لهذا قال: ﴿و أَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره، و مخالفته أباه نبي الله نوحاً ﷺ، و قد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، و إنما كان ابن زنْية، و يحكى القول بأنه ليس بابنه، و إنما كان ابن امرأته، عن مجاهد والحسن و عبيد بن عمير و أبي جعفر الباقر و ابن جريج، و احتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فممن قاله: الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين و بعضهم يقول ابن امرأته، وهذا

---

(١) الجُودي: جبل في الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر، و الجزيرة: محافظة في الشمال الشرقي من سورية.

يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، و أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

و قال ابن عباس و غير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال و قوله: **﴿إِنَّهُ لَيسَ مِن أَهلِكَ﴾** أي: الذين وعدتك نجاتهم. و قول ابن عباس في هذا هو الحق لا محيد عنه، فإن الله تعالى أَغيرُ من أن يُمكّن امرأة نبي هذه الفاحشة، و لهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبيﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا و أشاعوه، و لهذا قال تعالى: **﴿إِنَّ الذينَ جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكمْ لا تَحْسَبوهُ شراً لكمْ بلْ هو خيرٌ لكمْ لِكلِّ امْرِئٍ منهمْ ما اكْتَسَبَ مِن الإثمِ و الذي تَوَلَّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيمٌ﴾** ـ إلى قوله ـ **﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بألْسِنَتِكمْ و تقولونَ بأفْواهِكمْ ما ليس لكم به علمٌ وتحسَبُونَهُ هيناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ﴾**. و روى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: هو ابنه، غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة في بعض الحروف: «إنه عَمِلَ عملاً غير صالح»، و الخيانة تكون على غير باب. و روى عبد الرزاق أيضاً: عن سليمان ابن قَتّة قال: سمعت ابن عباس سئل ـ وهو إلى جنب الكعبة ـ عن قول الله **﴿فخَانَتَاهما﴾** قال: أما إنه لم يكن بالزنا، و لكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ **﴿إِنَّه عمل غير صالح﴾**. (وجاء) عن سعيد بن جبير قال: كان ابن نوح، إنَّ اللهَ لا يكذبُ، قال تعالى: **﴿و نَادى نوحٌ ابنه﴾** قال: و قال بعضُ العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط. و كذا روي عن مجاهد أيضاً و عكرمة و الضحاك و ميمون ابن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) ﴾

٤٨ـ يخبر تعالى عما قيل لنوحعليه السلام حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه و على من معه من المؤمنين، و على كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة. كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، و كذلك في العذاب و المتاع، كل كافر و كافرة إلى يوم القيامة.

و قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان، أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر، و أبواب السماء، يقول الله تعالى: **﴿و قيلَ يا أرضُ ابْلعي ماءكِ﴾** الآية، فجعل الماء ينقص و يغيض و يدبر.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾

٤٩ـ يقول تعالى لنبيهﷺ: هذه القصة و أشباهها **﴿مِن أنباءِ الغيبِ﴾** يعني: مِن أخبار الغيوب السالفة، نوحيها إليكَ على وجهها، كأنك شاهدها **﴿نُوحِيها إليكَ﴾** أي: نُعلمك بها وحياً منا إليكَ **﴿ما كُنتَ تَعلمُها أنتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا﴾** أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب مَن كذَّبك مِن قومِك، و أذاهم لك، فإنا سننصرك و نحوطك بعنايتنا، و نجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا و الآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم **﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا و الذينَ**

آمنوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَ لقدْ سَبقتْ كلمتُنا لعبادِنا المُرْسَلينَ ۞ إنَّهمْ لهمُ المَنصُورُونَ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿فاصبرْ إنَّ العاقبةَ للمُتَّقين﴾.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾

٥٠، ٥١- يقول تعالى: ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عادٍ أخاهمْ هُوداً﴾ آمراً لهمْ بعبادةِ الله وحدهُ لا شريكَ له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها، و اختلفوا لها أسماء الآلهة، و أخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح و البلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿أفلا تَعْقِلونَ﴾ مَن يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة، من غير أجره.

٥٢- ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، و بالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسَّر الله عليه رزقه، و سهَّل عليه أمره، وحفظ شأنه، و لهذا قال: ﴿يُرسلُ السماءَ عليكمْ مِدراراً﴾.

و في الحديث: «مَنْ لزمَ الاستغفارَ، جعلَ اللهُ له مِن كُلِّ همٍّ فرجاً، ومِن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، و رزقه مِن حيثُ لا يحتسبُ»(١).

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾

٥٣- يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم ﴿ما جِئتَنا بِبيِّنةٍ﴾ أي: بحجة و برهان على ما تدعيه ﴿و ما نَحنُ بِتارِكِي آلهتِنا عَن قولِكَ﴾ أي: بمجرد قولكَ اتركوهم نتركهم ﴿و ما نحنُ لكَ بمُؤمنينَ﴾ بمصدقين.

٥٤، ٥٥- ﴿إن نَّقُولُ إلاَّ اعتَراكَ بعضُ آلهتِنَا بسوءٍ﴾ يقولون ما نظنُّ إلا أنَّ بعضَ الآلهة أصابكَ بجنون وخبل في عقلك، بسبب نهيكَ عن عبادتها، و غيبك لها ﴿قالَ إنِّي أُشهِدُ اللهَ و اشْهَدُوا أنِّي بَريءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِ﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد و الأصنام، ﴿فكيدُوني جميعاً﴾ أي: أنتمْ وآلهتكمْ إنْ كانت حقاً ﴿ثم لا تُنظرونِ﴾ أي: طرفة عين.

٥٦- وقوله: ﴿إني توكَّلت على اللهِ ربِّي و ربِّكمْ ما مِن دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخذٌ بناصيَتِها﴾ أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

و قد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، و بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع و لا تضر، بل هي جماد لا تسمع و لا تبصر، و لا توالي و لا تعادي، و إنما يستحق إخلاص العبادة: الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، و له التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه،

(١) رواه أبو داود (١٥١٨)، و ابن ماجه (٣٨١٩)، و أحمد (١/ ٢٤٨)، و الحاكم (٤/ ٢٦٢) و صححه و غيرهم، و صححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى، و في سنده الحكم بن مصعب، مجهول، لكن تشهد له ظواهر الكتاب و السنة، و قد احتج به شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع.

وقهره و سلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

٥٧ - يقول لهم هود **﴿فَإِنْ تَوَلَّوا﴾** عما جئتكم به من عبادة الله ربكم، وحده لا شريك له، فقد قامت الحجة، بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها **﴿و يستخلفُ ربِّي قوماً غيرَكم﴾** يعبدونه وحده لا يشركون به، و لا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم **﴿إنَّ ربِّى على كلِّ شيءٍ حفيظ﴾** أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده و أفعالهم، و يجزيهم عليها إنْ خيراً فخير، و إن شراً فشر.

٥٨ - **﴿و لما جاءَ أمرُنا﴾** وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، و نجَّى هوداً و أتباعه، من عذاب غليظ، برحمته تعالى و لطفه.

٥٩ - **﴿و تلكَ عادٌ جَحَدُوا بآيات ربِّهم﴾** كفروا بها، و عصوا رسل الله، و ذلك أنَّ من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحدٍ منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهود، فنزِّل كفرهم منزلةَ مَن كفر بجميع الرسل. **﴿و اتَّبعُوا أمرَ كلِّ جبَّارٍ عنيد﴾** تركوا اتباع رسولهم الرشيد، و اتبعوا أمر كل جبار عنيد.

٦٠ - فلهذا **﴿اتبعوا في هذهِ الدُّنيا لعنةً﴾** من الله و من عباده المؤمنين، كلما ذُكروا، و يُنادَى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد **﴿ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم﴾** الآية، قال السدي: ما بُعث نبي بعد عاد، إلا لعنوا على لسانه.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾

٦١ - يقول تعالى ولقد أرسلنا **﴿إلَى ثَمُودَ﴾**، وهم الذين كانوا يسكنون مدائن «الحِجْر» بين تبوك والمدينة، و كانوا بعد عاد فبعث الله منهم **﴿أخاهُمْ صَالِحاً﴾**، فأمرهم بعبادة الله وحده، و لهذا قال: **﴿هو أنشأكمْ من الأرض﴾** أي: ابتدأ خلقكم منها، خَلَق منها أباكم آدم **﴿و استعمَرَكمْ فيها﴾** أي: جعلكم عُمَّاراً تعمرونها و تستغلونها **﴿فاستغفروه﴾** لسالفِ ذُنُوبكم **﴿ثم تُوبوا إليه﴾** فيما تستقبلونه **﴿إنَّ ربِّي قريبٌ مُجيبٌ﴾** كما قال تعالى: **﴿و إذا سألكَ عِبادِي عنِّي فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعانِ﴾** الآية.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾

٦٢ - يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام و بين قومه، و ما كان عليه قومه من الجهل و العناد

في قولهم ﴿قد كنتَ فينا مرجُوّاً قبل هذا﴾ أي: كنا نرجوكِ في عقلك، قبل أن تقول ما قلت ﴿أتنهانا أن نعبدَ ما يَعبدُ آباؤنا﴾ و ما كان عليه أسلافنا ﴿و إنّنا لفي شكٍّ مما تَدْعُونا إليهِ مُريب﴾ أي: شك كثير.

٦٣ - ﴿قال يَا قوم أرأيتُمْ إن كنتُ على بيّنةٍ من ربّي﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين و برهان ﴿و آتاني منه رحمةً فمن يَنصرُني من اللهِ إنْ عَصيتُه﴾ و تركتُ دعوتكم إلى الحق، و عبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني و لما زدتموني ﴿غيرَ تَخْسِير﴾ أي خسارة.

﴿ ويَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾

٦٤ - ٦٨- تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته، فلله الحمد و المنة[1].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾

٦٩- يقول تعالى: ﴿و لما جاءتْ رُسلُنا﴾ و هم الملائكة ﴿إبراهيمَ بالبُشْرى﴾ قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، و يشهد للأول قوله تعالى: ﴿و لمّا ذهبَ عَنْ إبراهيمَ الرَّوْعُ و جاءَتْهُ البُشْرى يُجادلُنا في قومِ لوطٍ﴾. ﴿قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ﴾ أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به، لأن الرفع يدل على الثبوت و الدوام ﴿فما لبِثَ أن جاءَ بعِجْلٍ حنيذٍ﴾ أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر ﴿حنيذ﴾ مشوي على الرضْف، وهي الحجارة المحماة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس و قتادة و غير واحد، كما قال في الآية الأخرى ﴿فراغَ إلى أهْلهِ فجاءَ بعِجْلٍ سَمينٍ * فقرّبهُ إليهمْ قال ألاَ تأكُلون﴾ و قد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

٧٠- و قوله: ﴿فلمَّا رَأى أيديَهمْ لا تَصِلُ إليهمْ نكِرَهمْ﴾ تنكرهم ﴿و أوجَسَ منهم خيفةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همّةَ لهم إلى الطعام، و لا يشتهونه و لا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وَ أوْجسَ منهمْ خِيفَةً﴾. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلهم ﴿فراغَ إلى أهلهِ فجاءَ بعِجْلٍ سمينٍ﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف و أتاهم به، فقعد معهم و قامت سارة تخدمهم، فذلك حين

(١) انظر (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧) من هذا المجلد.

يقول «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود **﴿فلمّا قرّبهُ إليهمْ قال ألا تأكُلُونَ﴾** قالوا يا إبراهيم: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: و ما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، و تحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُقّ لهذا أنْ يتخذه ربه خليلاً. **﴿فلمّا رأى أَيديَهمْ لا تَصلُ إليهم نكرهمْ﴾** يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم و أوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارّة أنه قد أكرمهم و قامت هي تخدمهم، ضحكت و قالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، و هم لا يأكلون طعامنا!

و قوله تعالى إخباراً عن الملائكة **﴿قَالُوا لا تَخفْ﴾** أي: قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم.

٧١- فضحكت سارّة استبشاراً بهلاكهم، لكثرة فسادهم، و غلظ كفرهم و عنادهم، فلهذا جُوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس، و قال قتادة: ضحكت و عجبت أنّ قوماً يأتيهم العذاب، وهم في غفلة.

و قوله: **﴿وَ مِن وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾** قال العوفي عن ابن عباس: فضحكت أي: حاضت. وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. و هذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها **﴿فبشرناها بإسحاقَ وَ مِن وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾** أي: بولدٍ لها، يكون له ولد و عَقِبٌ و نسل، فإنّ يعقوب ولد إسحاق، كما قال في سورة البقرة **﴿أم كنتمْ شهداءَ إذ حضرَ يعقُوبَ الْمَوتُ إذ قالَ لبنيهِ مَا تَعبُدُونَ من بعدي قالوا نَعْبُدُ إلهكَ و إلهَ آبائكَ إبراهيمَ و إسحاقَ إلهاً واحداً و نحنُ لهُ مُسلمُونَ﴾**.

و من ههنا استدل من استدل بهذه الآية: على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، و أنه يمتنع أنْ يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، و أنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعدُ يعقوب الموعود بوجوده، و وعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أنْ يُؤمر بذبح هذا و الحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال و أصحه و أبينه، ولله الحمد.

٧٢- **﴿قالتْ يَا وَيلَتى أألدُ و أنا عجوزٌ و هذا بَعْلي شيخاً﴾** الآية، حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها **﴿قالتْ يا وَيْلَتى أألدُ و أنا عَجوزٌ﴾** و في الذاريات **﴿فأقبلت امرأتُه في صَرّةٍ فصكّتْ وَجهَها و قالتْ عجوزٌ عقيمٌ﴾** كما جرت به عادة النساء، في أقوالهن و أفعالهن عند التعجب.

٧٣- **﴿قالُوا أتعجبينَ مِن أمرِ اللهِ﴾** أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له «كن» فيكون. فلا تعجبي من هذا، و إن كنتِ عجوزاً عقيماً، و بعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير **﴿رحمةُ اللهِ و بركاته عليكم أهلَ البيتِ إنهُ حميدٌ مجيدٌ﴾** أي: هو الحميد في جميع أفعاله و أقواله، محمود ممجد في صفاته و ذاته، و لهذا ثبت في الصحيحين: أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا اللهم صَلِّ على محمدٍ و على آل محمد، كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم، وبارك على محمد و على آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

٧٤- يخبر تعالى عن إبراهيم ﷺ أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، و بشروه بعد ذلك بالولد، و أخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريل و من معه، قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم ﷺ عند ذلك ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الآية، فسكت عنهم و اطمأنت نفسه، و قال قتادة و غيره قريباً من هذا.

و قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مدحٌ لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، و قد تقدم تفسيرها[1].

٧٦- وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: إنه قد نَفذَ فيهم القضاء، وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك، و حلول البأس الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) ﴾

٧٧- يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة، بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم و فارقوه، و أخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً ﷺ، وهو على ما قيل في أرض له، و قيل: في منزله، و وردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شُبَّان حسان الوجوه، ابتلاء من الله، و له الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم، و ضاقت نفسه بسببهم، و خشي إنْ لم يضفهم، أن يضيفهم أحدٌ من قومه فينالهم بسوء ﴿و قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس و غير واحد: شديدٌ بلاؤه، و ذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم و يشق عليه ذلك، و ذكر قتادة: أنهم أتوه و هو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم، وقال لهم في أثناء الطريق كالمُعرِّض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه و الله يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: و قد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك، وقال السدي: و كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحدٌ إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه.

٧٨- وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُسرعون و يُهرولون من فرحهم بذلك. وقوله: ﴿و مِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيتهم، حتى أُخِذوا وهم على ذلك الحال. و قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يُرشدُهم إلى نسائهم، فإنَّ النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا و الآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ألم ننهك

---

(١) انظر الآية (١١٤) من سورة التوبة، في هذا المجلد.

عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ و قال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يكنَّ بناته، و لكن كنَّ من أمته، و كل نبي أبو أمته. وكذا روي عن قتادة و غير واحد.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، و لم يَعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم هن بناته، هو نبيهم، و يقال في بعض القراآت «النبيُّ أولَى بالمؤمِنِينَ مِن أنفُسِهِمْ و أزواجُهُ أمهاتُهُمْ وهوَ أبٌ لهمْ» و كذا روي عن الربيع بن أنس و قتادة و السدي و محمد بن إسحاق وغيرهم.

و قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ و لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي: فيه خير يقبل ما آمره به، و يترك ما أنهاه عنه؟

٧٩- ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن، و لا نشتهيهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، و أنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

٨٠- يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام: إنَّ لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ الآية، أي: لكنتُ نَكَّلْتُ بكم، و فعلت بكم الأفاعيل، بنفسي و عشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمةُ اللهِ على لوط، لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بَعَثَ الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»[1].

٨١- فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، و أنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ و أمروه أنْ يسري بأهله من آخر الليل، و أن يتبع أدبارهم، أي: يكون ساقة لأهله ﴿وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتَ ما نزل بهم، و لا تهولنَّكمْ تلك الأصوات المزعجة، و لكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ قال الأكثرون: هو استثناءٌ من المثبت، وهو قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ و كذلك قرأها ابن مسعود، و نصب هؤلاء ﴿امْرَأَتَكَ﴾ لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، و قال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فجوزوا الرفع و النصب، و ذكر هؤلاء: أنها خرجتْ معهم، و أنها لما سمعت الوجْبة التفتت، وقالت: وا قوماه، فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له، لأنه قال: لهم أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

هذا و قوم لوط وقوفٌ على الباب عكوف، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، و لوط واقف على الباب يدافعهم و يردعهم و ينهاهم عماهم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه و يتهددونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى:

---

(١) عجز حديث رواه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٤٨) و البخاري في الأدب المفرد (٦٠٥) والترمذي (٣٣٣٢) و غيرهم. و أصله في البخاري (٦/ ٤١٧) (٨/ ٣٦٢) دون ذكر لوط، و مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٩).

﴿ولقدْ راودُوه عن ضيفِهِ فطمسْنا أعينَهمْ فذُوقُوا عذابي و نُذُرِ﴾ الآية.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾

٨٢- يقول تعالى: ﴿فلما جَاءَ أمرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جعلْنَا عاليَها﴾ وهي سدوم ﴿سافِلَها﴾ كقوله: ﴿فغشَّاها ما غشّى﴾ أي: أمطرنا عليها حجارةً من سجيل، وهي بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس و غيره. و قال بعضهم: أي: من «سنك» هو الحجر و «كل» وهو الطين، و قد قال في الآية الأخرى: ﴿حجارةً مِن طينٍ﴾ أي: مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، و قال البخاري: «سجيل» الشديد الكبير، سجيل و سجين، اللام و النون أختان.

و قوله: ﴿مَنضُودٍ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء، أي: معدة لذلك. وقال آخرون ﴿مَنضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مُسوَّمَةً﴾ أي: معلَّمة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجرٍ مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، و قال قتادة و عكرمة ﴿مسوَّمَةً﴾: مطوقة بها نَضْحٌ من حمرة، و ذكروا: أنها نزلت على أهل البلد، و على المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذْ جاء حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمّره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد، و قال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوطٍ من سَرْحهم و دورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، و رفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها، و كان حملهم على خوافي جناحه الأيمن، قال: و لما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها.

و قال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جوّ السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمّر بعضهم على بعض، ثم أتبع شُذّاذ القوم صخراً، قال: و ذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مائة ألف، وفي رواية: ثلاث قرى، الكبرى منها: سدوم.

وقوله: ﴿وما هيَ مِن الظَّالمينَ ببعيدٍ﴾ أي: و ما هذه النقمة، ممن تشبَّه بهم في ظلمهم ببعيد عنه، و قد ورد في الحديث المروي في السنن: عن ابن عباس مرفوعاً: «مَن وَجدتموه يعملُ عملَ قوم لوطٍ، فاقتلُوا الفاعلَ والمفعُولَ به». و ذهب الإمام الشافعي في قول عنه و جماعة من العلماء: إلى أنَّ اللائطَ يُقتل، سواء كان مُحصناً أو غيرَ مُحصن، عملاً بهذا الحديث، و ذهب الإمام أبو حنيفة: إلى أنه يُلقَى من شاهق، و يُتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، و الله سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾

٨٤- يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى «مدين» وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز و الشام، قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً، و كان من أشرفهم نسباً، و لهذا قال: ﴿أخاهمْ شُعيباً﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، و ينهاهم عن التطفيف في المكيال و الميزان ﴿إني أراكمْ بخير و إني أخافُ عليكمْ عذابَ يومٍ محيطٍ﴾ أي: في معيشتكمْ و رزقكم، و إني أخافُ أنْ تُسلبوا

ما أنتمْ فيه، بانتهاككمْ محارم الله ﴿و إنّي أخافُ عليكمْ عذابَ يوم محيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾

٨٥- ينهاهمْ أولاً: عن نقص المكيال و الميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل و الوزن بالقسط، آخذين و معطين، و نهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، و قد كانوا يقطعون الطريق.

٨٦- وقوله: ﴿بقيةُ اللهِ خيرٌ لكمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. و قال الحسن: رزق الله خير لكمْ من بخسكمْ الناس، و قال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم، و قال مجاهد: طاعة الله، و قال قتادة: حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة، و قال أبو جعفر بن جرير ﴿بقيةُ اللهِ خيرٌ لكمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل و الميزان، خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس، قال: و قد روي هذا عن ابن عباس.

قلت: و يشبه قوله تعالى: ﴿قُل لا يَسْتوِي الخبيثُ والطيبُ و لو أعْجبكَ كثْرةُ الخبيثِ﴾ الآية.

و قوله: ﴿و ما أنا عليكمْ بحفيظٍ﴾ أي: برقيب و لا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه ليراكم الناس، بل الله عز وجل.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾

٨٧- يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله: ﴿أصلواتُكَ﴾ قال الأعمش: أي: قراءتك ﴿تأمرُكَ أن نَتْركَ ما يَعبدُ آباؤُنا﴾ أي: الأوثان و الأصنام ﴿أو أن نفعلَ في أموالنَا ما نشاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك، وهي أموالنا نفعل ما نريد، قال الحسن في قوله: ﴿أصلواتُكَ تأمركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا﴾: إي والله، إنَّ صلاته لتأمرهم أنْ يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، و قال الثوري في قوله: ﴿أو أن نَفْعلَ في أمْوالنَا ما نشاءُ﴾ يعنون: الزكاة. و قولهم ﴿إنّكَ لأنتَ الحليمُ الرشيدُ﴾ قال ابن عباس و ميمون بن مهران و ابن جريج و أسلم و ابن جرير: يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء قبحهم الله، و لعنهم عن رحمته، و قد فعل.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾

٨٨- يقول لهم أرأيتم يا قوم إن كنت ﴿على بيِّنةٍ من ربِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿و رزقني منهُ رزقاً حسناً﴾ قيل: أراد النبوة، و قيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، و قال الثوري ﴿ومَا أُريدُ أنْ أُخالفكمْ إلَى مَا أنهَاكمْ عنهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن الشيء و أخالف أنا في السر، فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿و مَا أُريدُ أنْ أُخالفكمْ إلى ما أنْهاكمْ عنهُ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم عن أمرٍ وأرتكبه ﴿إنْ أُريدُ إلا الإصْلاحَ ما استَطَعْتُ﴾ أي: فيما آمركم و أنهاكم، إنما أريد إصلاحكم جهدي و طاقتي ﴿وما توْفيقِي﴾ أي: في إصابةِ الحق فيما أريده ﴿إلا باللهِ عليهِ توكلتُ﴾ في جميع أموري ﴿و إليه أُنيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد.

روى الإمام أحمد: عن حكيم بن معاوية عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاوية إن محمداً أَخذَ جيراني، فانطلق إليه فإنه قد كلَّمك و عرفك، فانطلقت معه، فقال: دع لي جيراني، فقد كانوا أسلموا، فأعرض عنه فقام مغضباً، فقال: أما والله لئن فعلتَ، إنَّ الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر و تخالف إلى غيره!! وجعلت أجرّه وهو يتكلم، فقال رسول الله: «ما تقول؟» فقال: إنك و الله لئن فعلتَ ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر، وتخالف إلى غيره، قال فقال: «أو قد قالوها ـ أو قائلهم ـ و لئن فعلتُ ذاك، ما ذاك إلا عليَّ، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه».

و من هذا القبيل: الحديث الذي رواه الإمام أحمد: سمعت أباحميد و أبا أسيد عنه ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم الحديثَ عني تعرفُه قُلوبُكم، و تَلينُ له أشعارُكمْ و أبشارُكمْ، وترون أنه منكمْ قريبٌ، فأنا أولاكم به، و إذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبُكم، و تنفر منه أشعارُكم وأبشارُكم، و ترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» إسناده صحيح. و معناه ـ و الله أعلم ـ مهما بلغكم عني من خير، فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه، فأنا أبعدكم منه **﴿وما أُريدُ أنْ أُخالفَكمْ إلى ما أنهاكمْ عنه﴾**.

و عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: تنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، قالت: فَعَله بعض نسائك، فقال: ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً **﴿وما أُريدُ أنْ أُخالفكمْ إلى ما أنْهاكمْ عنه﴾**.

و روى عثمان بن أبي شيبة: عن أبي سليمان الضبي قال: كانت تجيئنا كتبُ عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: و ما كنتُ من ذلك، إلا كما قال العبد الصالح **﴿ومَا تَوفيقِي إلاَّ باللهِ عليهِ توكلتُ وإليهِ أُنيبُ﴾**.

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾

٨٩- يقول لهم: **﴿ويَا قومِ لا يَجْرِمَنَّكمْ شقَاقي﴾** أي: لا تحملنكم عداوتي و بغضي، على الإصرار على ما أنتمْ عليه من الكفر و الفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قومَ نوحٍ و قوم هودٍ و قوم صالح و قوم لوطٍ، من النقمة و العذاب، و قال قتادة: لا يحملنكم فراقي، و قال السدي: عداوتي، على أن تمادوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

و روى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي ليلى الكندي قال: كنتُ مع موْلاي أُمْسكُ دابته، و قد أحاط الناس بعثمان بن عفان، إذْ أشرف علينا من داره، فقال: **﴿يا قوم لا يَجْرِمنَّكمْ شقَاقي أن يُصيبَكمْ مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ﴾** يا قوم لا تقْتلوني، إنكم إنْ قتلتموني كنتم هكذا: و شبَّك بين أصابعه.

و قوله: **﴿و ما قومُ لوطٍ منكمْ ببعيدٍ﴾** قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، و قيل: في المكان، و يحتمل الأمران.

٩٠- **﴿و استغْفِرُوا ربَّكمْ﴾** من سالف الذنوب **﴿ثمَّ تُوبُوا إليه﴾** فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة.

وقوله: **﴿إنَّ ربِّي رحيمٌ ودودٌ﴾** أي: لمن تاب.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ

عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

٩١- يقولون ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهمُ ﴿كَثِيراً﴾ من قولك ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: وكان ضرير البصر[1] وقال الثوري: كان يقال له خطيب الأنبياء. قال السدي ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾: أنت واحد؛ وقال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: قومك لولا معزتهم علينا ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس عندنا لك معزة.

٩٢- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى، أن تنالوا نبيه بمساءة، وقد اتخذتم كتاب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم.

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

٩٣- لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له، قال يا قوم ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على طريقتي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

٩٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي: هامدين لا حراك بهم، وذكر هٰهنا: أنه أتتهم صيحةٌ، وفي الأعراف: رجفةٌ، وفي الشعراء: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهٰهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم، ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

٩٥- وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ

(١) في الطبري (١٥/ ٤٥٨) عن الثوري: كان ضعيف البصر. وفي وصفه بالعمي نظر! فإنَّ الأنبياءَ أكملُ الناس خلقاً وخُلُقاً، والله أعلم.

لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾

٩٦، ٩٧- يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته و دلالاته الباهرة، إلى فرعون ملك القبط و ملئه ﴿فاتَّبعُوا أمرَ فرعونَ﴾ أي: منهجه و مسلكه، و طريقته في الغي ﴿وَما أمرُ فِرعونَ بِرشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، و إنما هو جهلٌ و ضلال، و كفر و عناد، و كما أنهم اتبعوه في الدنيا و كان مقدمهم و رئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، و شربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعصَى فِرعونُ الرَّسُولَ فأخَذْنَاهُ أخذاً وبيلاً﴾، و قال تعالى: ﴿فكَذَّبَ وعصَى ۞ ثُمَّ أدْبَرَ يَسعَى ۞ فحشَرَ فَنادَى ۞ فَقالَ أنا ربُّكمُ الأعْلَى ۞ فأخَذَهُ اللهُ نَكالَ الآخرةِ وَ الأُولَى ۞ إنَّ في ذلكَ لعِبرةً لِمَن يَخْشَى﴾.

٩٨- و قال تعالى: ﴿يقدُمُ قومَه يومَ القيامةِ فأوردَهُمُ النَّارَ و بِئسَ الوِردُ المَوْرُود﴾. و كذلك شأن المتبوعين، يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِكل ضِعف ولَكن لا تَعْلَمُون﴾ و قال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿ربَّنا إنَّا أطعْنا سادتَنا و كُبَراءَنا فأضَلُّونَا السَّبيلاَ ۞ ربَّنا آتِهِمْ ضِعْفَينِ مِن العَذابِ﴾ الآية.

٩٩- و قوله: ﴿و أُتبِعُوا في هذهِ لَعنةً و يومَ القِيامةِ﴾ الآية، أي: أتبعناهم زيادة على عذاب النار، لعنة في الدنيا ﴿ويومَ القيامةِ بِئس الرفدُ المَرْفودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لعنة الدنيا و الآخرة، و كذا قال الضحاك و قتادة، وهو كقوله: ﴿و جعلنَاهمْ أئمةً يدعونَ إلى النار ويومَ القيامةِ لا يُنصرُونَ ۞ و أتبعناهمْ في هذه الدُّنيا لعنةً و يومَ القيامةِ همْ مِن المَقْبوحينَ﴾، وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعرَضُونَ عليهَا غُدُوّاً و عَشياً و يومَ تقومُ الساعةُ أدخِلُوا آلَ فِرعونَ أشدَّ العذابِ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾

١٠٠- لما ذكر تعالى خبر الأنبياء، و ما جرى لهم مع أممهم، و كيف أهلكَ الكافرين، و نَجَّى المؤمنين، قال: ﴿ذلكَ مِن أنباءِ القُرَى﴾ أي: أخبارهم ﴿نَقصُّهُ عليكَ مِنها قائمٌ﴾ أي: عامر ﴿و حَصيدٌ﴾ أي: هالك.

١٠١- ﴿و ما ظَلمنَاهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَ لكنْ ظَلمُوا أنفُسَهمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا، و كفرهم بهم ﴿فمَا أغنتْ عنهمْ آلِهتُهمْ﴾ أوثانهم التي يعبدونها و يدعونها ﴿مِن دونِ اللهِ مِن شيءٍ﴾ ما نفعوهم، و لا أنقذوهم لما جاءَ أمرُ الله بإهلاكهم ﴿و مَا زادُوهمْ غيرَ تَتْبيب﴾ قال مجاهد و قتادة و غيرهما: أي غير تخسير، و ذلك أن سبب هلاكهم و دمارهم، إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا و الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾

١٠٢- يقول تعالى: و كما أهلكنا أولئك القرون الظالمة، المُكذِّبة لرسلنا، كذلك نفعلُ بأشباههم ﴿إنَّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾ و في الصحيحين: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ ليُملِي للظَّالم، حتى

إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿و كذلكَ أخذُ ربِّكَ إذا أخذَ القُرى وهيَ ظالِمةٌ﴾ الآية .

﴿ إنَّ في ذَلكَ لآيَةً لِمَنْ خافَ عذَابَ الآخرَةِ ذَلكَ يومٌ مَّجمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يومَ يأتِ لا تكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بِإذْنِه فمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾

١٠٣ – يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين ، و إنجائنا المؤمنين ﴿لآيةً﴾ أي : عظة و اعتباراً ، على صدق موعودنا في الآخرة ﴿إنَّا لَننصرُ رُسُلَنا و الذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا و يومَ يقومُ الأشهادُ﴾ ، و قال تعالى : ﴿فأوحَى إليهمْ ربُّهمْ لَنُهلِكَنَّ الظَّالمِينَ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ذلكَ يومٌ مَّجْموعٌ لهُ النَّاسُ﴾ أي : أولهم و آخرهم ، كقوله : ﴿وَ حشَرْناهُمْ فَلمْ نُغادِرْ مِنهُمْ أحداً﴾ . ﴿و ذلكَ يومٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي : عظيم تحضره الملائكة ، و يجتمع فيه الرسل ، و تحشر الخلائق بأسرهم من الإنس و الجن ، و الطير و الوحوش و الدواب ، و يحكم فيه العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، و إنْ تكُ حسنةً يُضاعفها .

١٠٤ – وقوله : ﴿و مَا نُؤَخِّرُهُ إلاَّ لأجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي : ما نُؤخر إقامة القيامة ، إلا أنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين ، من ذرية آدم ، و ضرب مدة معينة ، إذا انقطعت و تكامل وجود أولئك المقدر خروجهم ، قامت الساعة ، و لهذا قال : ﴿و مَا نُؤخِّرُهُ إلاَّ لأجَلٍ معدودٍ﴾ أي : لمدةٍ مؤقتة ، لا يزاد عليها و لا ينتقص منها .

١٠٥ – ﴿يومَ يأتِ لا تكَلَّمُ نفسٌ إلاَّ بإذْنِهِ﴾ أي : يوم يأتي يوم القيامة ، لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله ، كقوله : ﴿لا يَتكلَّمونَ إلاَّ مَنْ أذِنَ لهُ الرَّحمنُ و قالَ صَواباً﴾ وقال : ﴿و خَشعَتِ الأصواتُ للرَّحْمنِ﴾ الآية .

و في الصحيحين من حديث الشفاعة : «ولا يتكلّم يومئذٍ إلا الرُّسلُ ، و دعوى الرسل يومئذ : اللهمَّ سَلِّم سَلِّم» . وقوله : ﴿فمنهمْ شقيٌّ و سعيدٌ﴾ أي : فمن أهل الجمع شقي ، و منهم سعيد ، كما قال : ﴿فريقٌ في الجنةِ و فريقٌ في السعيرِ﴾ .

﴿ فَأَمَّا الَّذينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾

١٠٧ – يقول تعالى لهم : ﴿فيهَا زَفيرٌ و شَهيقٌ﴾ قال ابن عباس : الزفير في الحلق ، و الشهيق في الصدر ، أي : تنفسهم زفير ، و أخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياذاً بالله من ذلك ﴿خَالِدينَ فِيهَا مَا دامَتِ السَّمواتُ و الأرْضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً ، قالت : هذا دائم دوام السموات و الأرض ، و كذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل و النهار ، و ما سَمَر أبناء سمير ، و ما لألأت العير بأذنابها . يعنون بذلك كله أبداً ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بهم ، فقال : ﴿خالدينَ فِيهَا مَا دَامت السَّموات و الأرْضُ﴾ .

قلت : و يحتمل أن المراد بما دامت السموات و الأرض الجنس ، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض ، كما قال تعالى : ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ و السمواتُ﴾ و لهذا قال الحسن البصري : سماءٌ غير هذه السماء ، و أرض غير هذه ، فما دامت تلك السماء و تلك الأرض . و قال ابن أبي حاتم : ذكر عن مجاهد عن ابن عباس قوله : ﴿مَا دَامت السمواتُ و الأرضُ﴾ قال : لكل جنة سماء و أرض ، و قال عبد الرحمن بن

يزيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً، و السماء سماء.

و قوله: ﴿إلا مَا شاءَ ربُّكَ إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لِما يُريدُ﴾ كقوله: ﴿النارُ مثْواكُمْ خالدينَ فِيهَا إلا ما شاءَ اللهُ إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ﴾ و قد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير، و غيره من علماء التفسير، و نقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه، و اختار هو: ما نقله عن خالد بن معدان و الضحاك و قتادة و أبي سنان، و رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس و الحسن أيضاً، أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة و النبيين و المؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمةُ أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، و قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك، من حديث أنس و جابر و أبي سعيد وأبي هريرة و غيرهم من الصحابة، و لا يبقى بعد ذلك في النار إلا مَن وَجَب عليه الخلود فيها، و لا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً و حديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

و قد رُوي في تفسيرها (عن الصحابة و التابعين و غيرهم من الأئمة) أقوال غريبة، و ورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير: عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي، و لكن سنده ضعيف، و الله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بثنياه. و قال السدي: منسوخة بقوله: ﴿خالدينَ فيهَا أبداً﴾.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

١٠٨- يقول تعالى: ﴿و أمَّا الذينَ سُعِدُوا﴾ و هم أتباع الرسل ﴿فَفي الجنة﴾ أي: فمأواهم الجنة ﴿خالدينَ فِيها﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿ما دَامت السَّموات و الأرضُ إلاَّ مَا شاءَ ربُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح و التحميد كما يلهمون النَّفَس. و قال الضحاك و الحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين، الذين كانوا في النار ثم أُخرجوا منها، و عقب ذلك بقوله: ﴿عطاءً غيرَ مجذوذٍ﴾ أي: غير مقطوع، قاله مجاهد و ابن عباس و أبو العالية و غير واحد، لئلاّ يُتوهَّم بعد ذكره المشيئة، أن ثَمَّ انقطاعٌ أو لبس أو شيء، بل حتم له بالدوام و عدم الانقطاع، كما بيَّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، و أنه بعدله و حكمته عذبهم، و لهذا قال: ﴿إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لِما يُريدُ﴾ كما قال: ﴿لا يُسئلُ عمَّا يَفعلُ وهمْ يُسئلون﴾ و هنا طيَّب القلوب، و ثَبَّتَ المقصودُ بقوله: ﴿عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ﴾.

و قد جاء في الصحيحين: «يُؤتى بالموتِ في صورة كبشٍ أملح، فيذبح بين الجنة و النار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، و يا أهل النار خلود فلا موت». و في الصحيحين أيضاً: «فيقال يا أهل الجنة، إنَّ لكم أنْ تعيشوا فلا تموتوا أبداً، و إنَّ لكم أنْ تشبوا فلا تَهرموا أبداً، و إنَّ لكم أنْ تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، و إنَّ لكم أنْ تَنعمُوا فلا تَبأسوا أبداً».

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ

غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾

١٠٩ – يقول تعالى: ﴿فلا تكُ في مِريةٍ مما يَعْبدُ هؤلاءِ﴾ المشركون إنه باطل و جهل و ضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستندٌ فيما هم فيه، إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً، و إن كان لهم حسنات، فقد وفّاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. رُوي عن ابن عباس ﴿و إنّا لمُوفُّوهمْ نصيبَهم غيرَ منقُوصٍ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص.

١١٠ – ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به و من كافر به؛ فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يَغيظنَّك تكذيبهم لك، و لا يهمنك ذلك، ﴿ولَو لاَ كلمةٌ سبقتْ من ربكَ لقُضيَ بينَهمْ﴾ قال ابن جرير: لو لا ما تقدَّم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بـ «الكلمة» أنه لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، و إرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿و ما كنّا معذِّبينَ حتى نَبْعثَ رسولاً﴾ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿ولَولاَ كلمةٌ سبقت مِن ربِّكَ لَكانَ لزاماً و أجلٌ مُسمّى ❁ فاصبرْ علَى ما يقُولونَ﴾.

١١١ – ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم، و يجزيهم بأعمالهم إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿و إنّ كلاً لمَّا ليُوفِّينَّهمْ ربُّكَ أعْمالَهم إنّه بمَا يَعْملونَ خبيرٌ﴾ أي: عليمٌ بأعمالهم جميعاً، جليلها و حقيرها، صغيرها و كبيرها، و في هذه الآية قرآات كثيرة، يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿و إن كلٌّ لمَّا جميعٌ لدينَا مُحضَرُونَ﴾.

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾

١١٢ – يأمر تعالى رسوله و عباده المؤمنين، بالثبات و الدوام على الاستقامة، و ذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، و مخالفة الأضداد، و نهى عن الطغيان وهو: البغي، فإنه مصرعة، حتى ولو كان على مشرك، و أعلَم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، و لا يخفى عليه شيء.

١١٣ – وقوله: ﴿و لا تَركَنُوا إلَى الذينَ ظَلمُوا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تداهنوا.

وقال العوفي عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك، و قال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، و قال ابن جريج عن ابن عباس: و لا تميلوا إلى الذين ظلموا. و هذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فتَمسَّكمُ النارُ وما لكمْ مِن دونِ اللهِ مِن أولياءَ ثم لا تُنصرونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، و لا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾

١١٤- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿و أقم الصَّلاةَ طَرَفَيِ النهارِ﴾** قال: يعني الصبح والمغرب. وكذا قال الحسن و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و قال الحسن ـ في رواية ـ و قتادة و الضحاك وغيرهم: هي الصبح و العصر. و قال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، و الظهر و العصر مرة أخرى **﴿وزُلَفاً مِن اللَّيلِ﴾** قال ابن عباس و مجاهد و الحسن و غيرهم: يعني صلاة العشاء، وقال الحسن ـ في رواية ـ يعني: المغرب و العشاء، و كذا قال مجاهد و محمد بن كعب و قتادة و الضحاك.

و قد يحتمل أنْ تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، و في أثناء الليل قيام عليه و على الأمة، ثم نُسخ في حق الأمة و ثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً في قول، و الله أعلم.

و قوله: **﴿إنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾** يقول: إنَّ فعل الخيرات يكفر الذنوبَ السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد و أهل السنن: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، و إذا حدَّثني عنه أحدٌ استحلفته، فإذا حَلَفَ لي صدقته، وحدثني أبو بكر ـ و صدق أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن مُسلمٍ يُذنبُ ذنباً، فيتوضأ و يصلي ركعتين إلا غفر له». و في الصحيحين: عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضَّأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، و قال: «مَن توضأ وضوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه».

و روى الإمام أحمد و أبو جعفر بن جرير: عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يوماً و جلسنا معه، فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماءٍ في إناءٍ، أظنه سيكون فيه قدر مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «مَن توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفرَ له ما بينه و بين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غُفر له ما بينه و بين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه و بين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه و بين صلاة المغرب، ثم لعله يَبيتُ يتمرَّغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ و صلى الصبح غُفر له ما بينها و بين صلاة العشاء، وهنَّ الحسنات يذهبن السيئات».

و في الصحيح: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أنَّ بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمس مرات، هل يُبقي من درنه شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «كذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب و الخطايا».

و روى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس، و الجمعة إلى الجمعة، و رمضان إلى رمضان، مُكفِّراتٌ لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

وروى البخاري عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله **﴿فأقِم الصلاةَ طَرَفَي النهارِ وزُلَفاً مِن الليلِ إنَّ الحسَناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ﴾** فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». و رواه مسلم و أحمد و أهل السنن إلا أبا داود.

و رواه الإمام أحمد و مسلم و الترمذي والنسائي و ابن جرير و هذا لفظه: عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدتُ امرأةً في بستان، ففعلتُ بها كلَّ شيءٍ غير أني لم

أجامعها، قبلتها و لزمتها و لم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت؛ فلم يَقلْ رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد سَتَرَ الله عليه، لو سَتَر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره، ثم قال: «ردُّوه علي» فرده عليه، فقرأ عليه ﴿أَقِمِ الصلاةَ طَرَفَي النهارِ و زُلَفاً مِن اللَّيلِ إنَّ الحسَناتِ يُذْهِبْنَ السيِّئاتِ ذلكَ ذِكْرَى للذَّاكِرِينَ﴾ فقال معاذ ـ و في رواية عمر ـ : يا رسول الله أله وحده؟ أم للناس كافَّة؟ فقال: «بل للناس كافة».

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾

١١٦- يقول تعالى: فهَلاَّ وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور، و المنكرات و الفساد في الأرض، و قوله: ﴿إلاَّ قليلاً﴾ أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، و فجأة نقمته، و لهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة، أنْ يكون فيها مَن يأمر بالمعروف، و ينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿و لْتكن مِنكم أُمَّةٌ يَدْعونَ إلَى الخَيرِ و يأمُرونَ بالمَعْروفِ و يَنهوْنَ عَنِ المُنكرِ و أُولئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾.

و في الحديث: «إنَّ الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلمْ يُغيِّروه، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب».

و لهذا قال تعالى: ﴿فلَولاَ كانَ مِنَ القُرونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَونَ عَنِ الفَسادِ في الأرضِ إلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أنجَيْنَا مِنهُمْ﴾ و قوله: ﴿و اتَّبعَ الذينَ ظَلَمُوا ما أُترِفُوا فيه﴾ أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، و لم يَلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجأهم العذابُ ﴿و كانوا مُجرمينَ﴾.

١١٧- ثم أخبر تعالى أنه لم يُهلك قريةً، إلا وهي ظالمة لنفسها، و لم يأت قرية مُصلحة بأسه و عذابه قطُّ، حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿و ما ظَلَمْناهم و لكن ظَلَمُوا أنفسَهمْ﴾، و قال: ﴿و ما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيدِ﴾.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾

١١٨- يخبر تعالى أنه قادرٌ على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان و كفران، كما قال تعالى: ﴿ولوْ شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرْضِ كُلُّهمْ جَميعاً﴾. و قوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلفِينَ * إلاَّ مَن رَحِمَ ربُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم، و اعتقادات مللهم و نحلهم، و مذاهبهم و آرائهم، و قال عكرمة: مختلفين في الهدى. و قال الحسن البصري: مختلفين في الرزق، سخَّر بعضهم بعضاً، و المشهور الصحيح الأول.

و قوله: ﴿إلاَّ مَن رحِمَ ربُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، و لم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي و خاتم الرسل و الأنبياء، فاتبعوه وصدقوه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا و الآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في

المسانيد والسنن من طرق يشد بعضه بعضاً: «إنَّ اليهودَ افترقتْ على إحدى و سبعين فِرْقة، و إنَّ النصارى افترقتْ على ثنتين و سبعين فرقة، و ستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ و سبعين فِرقةً، كلُّها في النار إلاَّ فرقةً واحدة» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه و أصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.

و قال عطاء ﴿ولاَ يزالُونَ مُختَلفِينَ﴾ يعني: اليهود و النصارى و المجوس ﴿إلاَّ مَن رحِمَ ربُّكَ﴾ يعني: الحنيفية. و قال قتادة: أهلُ رحمة الله: أهل الجماعة، و إنْ تفرقتْ ديارهم و أبدانهم، و أهل معصيته: أهل فرقة، و إن اجتمعت ديارهم و أبدانهم.

وقوله: ﴿و لذلكَ خلَقَهمْ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه: و للاختلاف خَلَقهم، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: خَلَقَهم فريقين، كقوله: ﴿فمِنهمْ شقيٌّ و سعيدٌ﴾ و قيل: للرحمة خلقهم. و عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم و لم يخلقهم للعذاب، و كذا قال مجاهد و الضحاك وقتادة.

و يرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿و مَا خَلقتُ الجنَّ و الإنسَ إلاَّ ليعبُدونِ﴾.

و قيل: بل المراد: و للرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إلاَّ مَن رحمَ ربُّكَ﴾ فمن رَحمَ ربُّكَ غير مختلف، فقيل له ﴿ولذلكَ خلقهمْ﴾ قال: خلق هؤلاء لجنته، و خلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه و كذا قال عطاء بن أبي رباح و الأعمش. و قال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿و لاَ يزالونَ مُختلفينَ* إلاَّ مَن رَحِمَ ربُّكَ وَ لذلكَ خَلقهمْ﴾ قال: فريق في الجنة، و فريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير و أبو عبيد و الفراء.

و قوله: ﴿و تمتْ كلمةُ ربِّكَ لأملأنَّ جهنمَ مِن الْجنَّةِ و النَّاسِ أجْمعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام، و حكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، و منهم من يستحق النار، و أنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين: الجن و الإنس، و له الحجة البالغة، و الحكمة التامة.

و في الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة و النار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضُعفاءُ الناس و سقطهم، و قالت النار: أُوثرت بالمتكبرين و المتجبرين، فقال اللهُ عز وجل للجنة: أنتِ رحمتي أرحمُ بك من أشاء، و قال للنار: أنتِ عذابي أنتقم بك ممن أشاء، و لِكلٍّ واحدةٍ منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فَضْلٌ، حتى يُنشِء الله لها خَلْقاً يسكن فضْلَ الجنة، و أما النار فلا تزال تقول: هل مِنْ مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قَدَمه فتقول: قَطْ قَطْ و عزتك».

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾

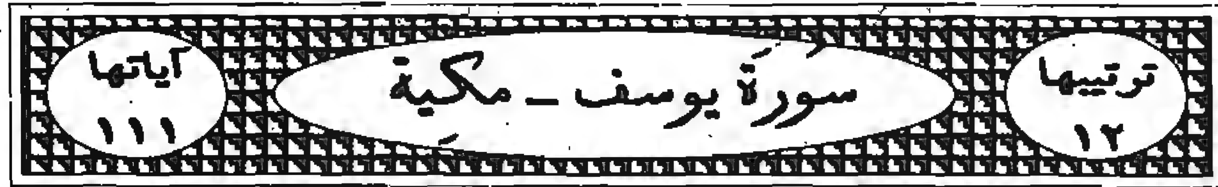
١٢٠ - يقول تعالى: و كل أخبارٍ نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، و كيف جرى لهم من المحاجات و الخصومات، و ما احتمله الأنبياء من التكذيب و الأذى، و كيف نَصَر الله المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرون، كل هذا مما نُثبت به فؤادكَ يا محمد، أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة.

و قوله: ﴿وَجاءَكَ في هذه الحقُّ﴾ أي: هذه السورة، قاله ابن عباس و مجاهد و جماعة من السلف،

وعن الحسن في رواية عنه و قتادة في هذه الدنيا، و الصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله المؤمنين بهم، و أهلك الكافرين، جاءك فيها قصصُ حقٍ، ونبأ صدق، و موعظة يرتدع بها الكافرون، و ذكرى يتذكّر بها المؤمنون.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾

١٢٣- يخبر تعالى: أنه عالم غيب السموات و الأرض، و أنه إليه المرجع و المآب، و سيؤتي كل عاملٍ عمله يوم الحساب، فله الخلق و الأمر؛ فزمر بعبادته و التوكل عليه، فإنه كافٍ من توكّل عليه و أناب إليه، و قوله: **﴿و ما ربُّكَ بغافلٍ عمَّا تعملونَ﴾** أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذّبوك يا محمد، بل هو عليمٌ بأحوالهم وأقوالهم، و سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا و الآخرة، و سينصرك و حزبك عليهم في الدارين.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾

١ - أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾** أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أي: الواضح الجلي، الذي يُفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

٢ - **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه.

٣ - ولهذا قال: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾** بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات، ما رواه ابن جرير: عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: أُنزلَ على النبيﷺ القرآن، قال، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل **﴿الر تلك آياتُ الكتابِ المُبينِ﴾** إلى قوله: **﴿لعلكمْ تعقِلُونَ﴾** ثم تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل: **﴿اللهُ نزَّلَ أحسنَ الحديثِ﴾** الآية، وذكر الحديث، ورواه الحاكم.

و مما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب، ما رواه الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب أتى النبيﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبيﷺ قال: فغضب، وقال: «أمُتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍ فتكذبونه، أو بباطلٍ فتصدقونه؛ والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني».

و رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررتُ بأخ لي من قريظة، فكتبَ لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول اللهﷺ، قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول اللهﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّيَ عن النبيﷺ، وقال: «و الذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظِّي من الأمم، وأنا حظُّكم من النبيين».

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾

٤- يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد، في قصصك عليهم من قصة يوسف، إذ قال لأبيه، وأبوه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفرد بإخراجه البخاري. وروى البخاري أيضاً: عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهمْ عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرمُ الناس: يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي.

و قد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أنَّ الأحد عشر كوكباً، عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره، وإخوته بين يديه **﴿و خَرُّوا لهُ سُجَّداً وقالَ يا أبتِ هذا تأويل رُؤيايَ مِنْ قبلُ قدْ جعَلَهَا ربِّي حقاً﴾**.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف، حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه، تعظيماً زائداً بحيث يخرّون له ساجدين، إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يُحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته، فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: **﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ علَى إخوتكَ فيكيدُوا لكَ كيداً﴾** أي: يحتالون لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فليحدِّث به، وإذا رأى ما يكره فليتحوّل إلى جنبه الآخر، وليَتْفِلْ عن يساره ثلاثاً، وليَستعذْ بالله من شرِّها، ولا يحدِّث بها أحداً، فإنها لن تضره».

و في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن: من رواية معاوية بن حميد القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رِجْل طائرٍ ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرتْ وقعتْ».

و من هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة، حتى تُوجد وتظهر، كما ورد في حديث: «اسْتعينوا على قضاءِ الحوائج بكتمانها، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود»(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

٦- يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف، إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع

---

(١) رواه ابن حبان في روضة العقلاء (ص ١٨٧) و السهمي في تاريخ جرجان (ص ١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و حسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٤٥٣).

الشمس والقمر ساجدة لك ﴿كذلكَ يَجْتبيكَ ربُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿و يُعلِّمكَ مِن تأويلِ الأحاديثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا ﴿و يُتِمُّ نِعْمتَهُ عليكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك. ولهذا قال: ﴿كما أتمَّها على أبوَيْكَ مِن قبلُ إبراهيمَ﴾ وهو الخليل ﴿و إسْحاقَ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح [1] ﴿إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما في الآية الأخرى.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾

٧- يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته ﴿آياتٌ﴾ أي: عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرٌ عجيب يستحق أنْ يستخبر عنه.

٨- ﴿إذْ قالُوا لَيوسفُ وأخُوهُ أحبُّ إلَى أبينَا منَّا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أحبُّ إلَى أبينَا مِنَّا ونَحنُ عُصْبةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحبَّ ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مُبينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليلٌ على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس مَن يزعم أنه أُوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مُدَّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قولُوا آمنَّا باللهِ وما أُنزلَ إلينَا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ﴾ وهذا فيه احتمال، لأنَّ بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سِبْط من نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دليلٌ على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم.

٩- ﴿اقتُلُوا يُوسفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرضاً يَخلُ لكمْ وجهُ أبيكمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، اعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأنْ تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي، تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿و تكونُوا مِن بعدِهِ قوماً صالِحينَ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب.

١٠- ﴿قالَ قائلٌ منهم﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون. ﴿لاَ تَقْتُلُوا يُوسفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأنَّ الله تعالى كان يريد منه أمراً، لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه، وإشارته عليهم بأنْ يلقوه في ﴿غَيابةِ الجُبِّ﴾ وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس.

﴿يلتَقِطْهُ بعضُ السيارةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إنْ كنتمْ فاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتمْ عازمين على ما تقولون.

---

(١) و إنما الراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه، على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)﴾

١١- لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام، فقالوا: ما بالك ﴿لاَ تأْمنَّا علَى يُوسفَ وإنَّا له لَناصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له.

١٢- ﴿أرسِلْهُ معَنا﴾ أي: ابعثه معنا ﴿غداً نرتعْ ونلعبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يرتعْ ويَلعبْ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم ﴿و إنَّا لهُ لحافِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤)﴾

١٤- يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب، أنه قال لنبيه في جواب ما سألوا، من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إنِّي لَيحْزُنُني أنْ تذْهَبوا بهِ﴾ أي: يشقُّ عليَّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أنْ يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿و أخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنه غافِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أنْ تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون.

فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: ﴿لئنْ أكلَهُ الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنَّا إذاً لخاسرُونَ﴾ يقولُون: لئن عَدَا عليه الذئب، فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذاً لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾

١٥- يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه، بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿و أجمعوا أنْ يَجعلُوهُ في غيابةِ الجبِّ﴾ هذا فيه تعظيمٌ لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له، إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه. فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له.

و قوله: ﴿و أوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته، وإنزاله اليسر في حال العسر، أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإنّ لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويُعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

و قوله: ﴿و هم لا يشعرون﴾ قال مجاهد وقتادة: ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

١٦ - يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويَتَغممون لأبيهم.

١٧ - وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿إنَّا ذهبْنا نستبق﴾ أي: نترامى ﴿و تركنا يوسفَ عندَ متاعنا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا ﴿فأكلهُ الذئبُ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه. وقوله: ﴿و ما أنتَ بمؤمنٍ لنا ولوْ كنّا صادقينَ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

١٨ - ﴿و جاءوا على قميصِهِ بدمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة ـ فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد ـ فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أنَّ هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لمْ يرُجْ هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم، إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بل سوَّلتْ لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميلٌ﴾ أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿و اللهُ المستَعانُ على ما تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

و روى الثوري: عن ابن عباس ﴿وَ جاءُوا علَى قَميصِهِ بدمٍ كذبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد، وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه. وقال عبد الرزاق، قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك. وذكر البخاري ههنا: حديث عائشة في الإفك، حتى ذكر قولها: والله، لا أجدُ لي ولكم مَثَلاً، إلا كما قال أبو يوسف ﴿فصبرٌ جميلٌ والله المُستعانُ علَى ما تصِفُونَ﴾.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ

﴿بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾

١٩ - يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف ﷺ حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف ﷺ فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يا بُشرَى هذا غُلام﴾.

و قرأ بعض القراء ﴿يا بُشْراي﴾ فزعم السدي أنه اسم رجل، ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً، وهذا القول من السدي غريب! لأنه لم يُسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا، إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. و إنما معنى القراءة على هذا النحو، يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: يا نفس اصبري، ويا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتُفسّرها القراءة الأخرى ﴿يا بُشْراي﴾ والله أعلم.

و قوله: ﴿و أسَرُّوهُ بِضاعةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء، مخافة أن يشاركوهم فيه. إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير. هذا قول، وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿و أسروه بضاعة﴾ يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه، مخافة أنْ يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿يا بُشرى هذا غلام﴾ يباع فباعه إخوته.

وقوله: ﴿و اللهُ عليمٌ بما يَعملُونَ﴾ أي: عليمٌ بما يفعله إخوةُ يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمةٌ وقَدَر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدَّره وقضاه ﴿ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ﴾. وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمد ﷺ وإعلام له، بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة، والحُكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

و قوله: ﴿وَ شَرَوهُ بِثَمنٍ بَخْسٍ دراهمَ معدُودة﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قال مجاهد وعكرمة: والبخس هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فلاَ يَخافُ بَخْساً ولاَ رَهَقاً﴾ أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، ومع ذلك ﴿كانُوا فيهِ مِنَ الزاهِدينَ﴾ أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك إن الضمير في قوله: ﴿و شَروهُ﴾ عائد على إخوة يوسف؛ وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. و الأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَ كانُوا فيهِ مِن الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به، وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شروه﴾ إنما هو لإخوته.

و قيل: المراد بقوله: ﴿بخس﴾ الحرام؛ وقيل: الظلم، وهذا وإنْ كانَ كذلك، لكن ليس هو المراد

هنا ، لأن هذا معلوم يعرفه كلُّ أحدٍ ، أن ثمنه حرامٌ على كل حال وعلى كل أحد ، لأنه نبيٌّ ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وإنما المراد هنا بالبخس : الناقص أو الزيوف أو كلاهما ، أي : إنهم إخوته وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان ، ولهذا قال : ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فعن ابن مسعود رضي الله عنه : باعوه بعشرين درهماً ، وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً ، وقال محمد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهماً .

وقال الضحاك في قوله : ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل ، وقال مجاهد : لمَّا باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوثقوا منه لا يأبق ، حتى وقفوه بمصر ، فقال : مَن يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً .

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾

٢١- يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام ، أنه قيَّضَ له الذي اشتراه من مصر ، حتى اعتنى به وأكرمه ، وأوصى أهله به ، وتوسَّم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير ؛ قال العوفي عن ابن عباس : وكان اسمه : قطفير . وقال محمد بن إسحاق : اسمه : اطفير بن روحيب ، وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان ابن الوليد رجل من العماليق ، قال واسم امرأته : راعيل بنت رعائيل ، وقال غيره : اسمها زليخا . وعن عبد الله ابن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيزُ مصر حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ الآية ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما [(١)] .

يقول تعالى : كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي : هو تعبير الرؤيا . ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي : إذا أراد شيئاً فلا يرد ، ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد ابن جبير ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي : فعال لما يشاء ، وقوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ يقولون : لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه ، وفعله لما يريد .

٢٢- وقوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي : يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي : استكمل عقله ، وتم خلقه ، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني : النبوة ، أنه حَبَاه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي : إنه كان مُحْسِناً في عمله ، عاملاً بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، وعن ابن عباس : بضع وثلاثون (وقيل غير ذلك) . وقال الإمام مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : الأشد الحلم ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

---

(١) هو من رواية أبي عبيدة عنه ، وفيها انقطاع ، ولكني أبقيته لصحة معناه وحسنه .

أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾

٢٣- يخبر تعالى عن امرأة العزيز، التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجمَّلت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ﴿وقالتْ هيت لكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ﴿وقال مَعاذَ الله إنهُ ربِّي أحسنَ مثوايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إنَّ بعلك ربي أحسن مثواي، أي: منزلي، وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إنَّه لا يُفْلحُ الظالِمونَ﴾ قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

و قد اختلف القراء في قوله: ﴿هيتَ لكَ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان التاء، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ﴿هيتَ لك﴾ تقول: هلم لك، وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة، وقال السدي: أي: هلم لك، وهي بالقبطية، وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها، وقال البخاري: وقال عكرمة ﴿هيت لك﴾ أي: هلم لك بالحورانية، هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحب هذه القراءة - يعني ﴿هيت لك﴾ - ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال، وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

و قرأ ذلك آخرون: ﴿هِئتُ لك﴾ بكسر الهاء والهمز وضم التاء، بمعنى تتهيأت لك، وممن روي عنه هذه القراءة: ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة، وقرأ عبد الله بن إسحاق: ﴿هَيتِ﴾ بفتح الحاء وكسر التاء وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة ﴿هيتُ﴾ بفتح الهاء وضم التاء.

روى عبد الرزاق: عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود - وقد سمع القراء متقاربين - فاقرؤا كما عُلِّمتمْ وإياكم والتنطع والاختلاف، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال. ثم قرأ عبد الله: ﴿هيت لك﴾ فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يقرؤنها ﴿هيتُ﴾ قال عبد الله: أن أقرأها كما علمت أحب إلي، وروى ابن جرير: عن ابن مسعود قال: ﴿هيتَ لكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا تهمز، وقال آخرون: ﴿هِيتُ لك﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: هيت لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيت لك، وهيت لكم، وهيت لكما وهيت لكُنَّ، وهيت لهن.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾

٢٤- اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره، والله أعلم، وقيل: المراد بهمه بها خَطَرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنةٍ فاكتبوها له حسنة، فإنْ عملَها فاكتبوها له بعشرِ أمثالها، وإنْ

همَّ بسيئة فلم يعملها ، فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جَرائي ، فإنْ عملها فاكتبوها بمثلها» هذا الحديث مخرَّج في الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة هذا منها .

و قيل : هم بضربها ، وقيل : تمناها زوجة ، وقيل : ﴿همَّ بهَا لَوْلا أن رأى بُرهانَ ربِّه﴾ أي : فلم يهم بها ، وفي هذا القول نظر من حيث العربية ! حكاه ابن جرير وغيره . وأما البرهان الذي رآه ، ففيه أقوال أيضاً ، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم : رأى صورة أبيه يعقوب ، عاضاً على أصبعه بفمه . وقيل عنه في رواية : فضرب في صدر يوسف .

قال ابن جرير : والصواب أنْ يقال : إنه رأى آية من آيات الله ، تزجره عما كان همَّ به ؛ وجائز أن يكون صورة يعقوب ، وجائز أن يكون صورة المَلَك ، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيئ من ذلك ، فالصواب أنْ يُطلق كما قال الله تعالى .

و قوله : ﴿كذلكَ لنصرفَ عنه السوءَ والفحشاءَ﴾ أي : كما أريناه برهاناً صرَفَه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء ، في جميع أموره ﴿إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُخلَصينَ﴾ أي : من المجتبين المطهرين ، المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾

٢٥- يخبر تعالى عن حالهما ، حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقه في أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه ، فقدته قداً فظيعاً ، يقال : إنه سقط عنه ، واستمر يوسف هارباً ذاهباً وهي في إثره ، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة ، وقاذفة يوسف بدائها ﴿ما جزاءُ مَن أرادَ بأهلِكَ سوءًا﴾ أي : فاحشة ﴿إلاَّ أنْ يُسجَنَ﴾ أي : يحبس ﴿أو عذابٌ أليم﴾ أي : يضرب ضرباً شديداً موجعاً .

٢٦- فعند ذلك انتصر يوسف ﷺ بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، و﴿قال﴾ باراً صادقاً ﴿هيَ راوَدَتْني عن نفسِي﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها ، حتى قدَّت قميصه ﴿و شهدَ شاهدٌ مِنْ أهْلِها إن كانَ قميصهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي : من قُدَّامه ﴿فَصدَقتْ﴾ أي : في قولها إنه راودها عن نفسها ، لأنه يكون لما دعاها وأبَتْ عليه ، دفعته في صدره فقدت قميصه ، فيصح ما قالت .

٢٧- ﴿و إنْ كانَ قميصه قُدَّ مِن دُبُرٍ فكذَبَتْ وهُوَ مِن الصَّادِقينَ﴾ وذلك يكون كما وقع ، لما هرب منها وتطلبته ، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها ، فقدت قميصه من ورائه ؛ وقد اختلفوا في هذا الشاهد : هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف : فعن ابن أبي مليكة عن ابن عباس : كان من خاصة الملك . وكذا

قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وقال العوفي عن ابن عباس قال: كان صبياً في المهد، وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير، وقد ورد فيه حديث مرفوع (١).

٢٨- وقوله: **﴿فلمَّا رأى قميصهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾** أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف، وكذبها فيما قذفته ورمته به **﴿قال إنَّهُ مِن كيدِكُنَّ﴾** أي: إنَّ هذا البُهت واللطخ، الذي لطخت عرض هذا الشاب به، من جملة كيدكن **﴿إنَّ كيدكُنَّ عظيمٌ﴾**.

٢٩- ثم قال آمراً ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع **﴿يوسفُ أعرِضْ عنْ هذا﴾** أي: اضرب عن هذا صفحاً، أي: فلا تذكره لأحد **﴿و استغفِري لذنبكِ﴾** يقول لامرأته ـ وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عَذَرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه ـ فقال لها: **﴿استغفِري لذنبكِ﴾** أي: الذي وقع منك من إرادةِ السوء بهذا الشباب، ثم قذفه بما هو بريءٌ منه **﴿إنَّكِ كُنتِ مِن الخاطئينَ﴾**.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾

٣٠- يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث به الناس **﴿وقالَ نِسوةٌ في المَدينةِ﴾** مثل نساء الكُبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز ـ وهو الوزير ـ ويعبن ذلك عليها **﴿امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاهَا عَن نفسِهِ﴾** أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها **﴿قَدْ شغفَهَا حُبّاً﴾** أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو: غلافه. قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغف: الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب **﴿إنَّا لنَرَاهَا في ضَلالٍ مُّبينٍ﴾** أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

٣١- **﴿فلمَّا سَمِعتْ بِمَكرِهِنَّ﴾** قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حُسْن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك **﴿أرْسلَتْ إليهِنَّ﴾** أي: دعتهنَّ إلى منزلها لتضيفهن **﴿و أعتدتْ لهنَّ مُتَّكأً﴾** قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين، من أُترج ونحوه.

---

(١) و هو ضعيف سنداً، و من جهة النظر أيضاً، إذ لو كان كذلك لكان برهاناً قاطعاً، و معجزة ظاهرة ليوسف ﷺ و صدقه، و روى البخاري في صحيحه (٦/ ٤٧٦) و مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...» فذكر عيسى ﷺ و صبي جريج وصبي بني إسرائيل. و انظر الضعيفة للعلامة الألباني رحمه الله (٨٨٠).

ولهذا قال تعالى: **﴿وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّيناً﴾** وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته **﴿و قالتْ اخرجْ عليهنَّ﴾** وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر **﴿فلما﴾** خرج و **﴿رأينَهُ أكْبَرْنَه﴾** أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين. والمراد: أنهن حَزَزْن أيديهن بها، قاله غير واحد. وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله أعلم.

و قد ذكر غير واحد: أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكنَّ في النَّظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرجْ إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يُوَلْولن، فقالت: أنتنَّ من نظرة واحدة فعلتن هذا؟ فكيف ألام أنا؟ **﴿فقُلن حاشَ للهِ ما هذَا بَشَراً إنْ هذا إلا ملكٌ كريمٌ﴾** ثم قلن لها: وما نرى عليكِ من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه، ولا قريباً منه، فإنه ﷺ كان قد أُعطيَ شَطرَ الحُسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح: في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مَرَّ بيُوسف ﷺ في السماء الثالثة قال: «فإذا هو قد أُعطي شطر الحُسْن».

و عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِي يُوسُف وأمُّه شطر الحُسن»(1). قال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف ﷺ كان على النصف من حسن آدم ﷺ، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أُعطي شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته **﴿حاشَ للهِ﴾** قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله **﴿ما هذَا بَشراً﴾** وقرأ بعضهم ماهذا **﴿بِشِرى﴾** أي: بمشترى بشراء **﴿إنْ هذَا إلاَّ ملَكٌ كريمٌ﴾**.

٣٢- **﴿قالتْ فذلكنَّ الذي لُمتُنَّني فيه﴾** تقول هذا معتذرة إليهن، بأن هذا حقيقٌ أن يُحبَّ لجماله وكماله **﴿و لقدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ﴾** أي: فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة، التي تخفى عنهن وهي «العفة» مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده **﴿و لَئِن لمْ يفعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسجَنَنَّ ولَيكوناً من الصَّاغِرينَ﴾**.

٣٣- فعند ذلك استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن، وقال: **﴿ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدْعُونَنِي إليه﴾** أي: من الفاحشة **﴿و إلاَّ تصرفْ عنِّي كيدَهُنَّ أصبُ إليهنَّ﴾** أي: إنْ وكلتني إلى نفسي، فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿أصبُ إليهنَّ وأكُن من الجاهلينَ ﴿ فاسْتجَابَ له ربُّه﴾ الآية. وذلك أن يوسف ﷺ عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله، تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله، ورجاء ثوابه.

و لهذا ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «سبعةٌ يظلهم في ظله، يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه مُعلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلمَ شماله ما أنفقت يمينه، ورجلٌ

---

(1) رواه الطبراني في تفسيره (١٢/ ١٢٣) - ط بولاق - والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٠).

دعَته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال ، فقال : إنِّي أخافُ الله ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناه» .

﴿ ثُمَّ بدَا لَهُم مِّنْ بعْد مَا رَأَوُا الآيَات لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حين (٣٥) ﴾

٣٥- يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه ، أنهم يسجنونه إلى ﴿حِينٍ﴾ ، أي : إلى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات ، وهي : الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته ، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لمَّا شاع الحديث ، إيهاماً أنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك ، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة ، امتنع من الخروج ، حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرّر ذلك ، خرج وهو نقي العِرْض ، صلوات الله وسلامه عليه ، وذكر السدي : أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ، ويبرأ عرضه فيفضحها .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾

٣٦- قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه .

قال السدي : كان سبب حبس الملك إياهما ، أنه توهَّم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث ، وحسن السمت وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم ، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به ، وأحباه حباً شديداً ، وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً ، قال : بارك الله فيكما ، إنه ما أحبني أحد ، إلا دخل علي من محبته ضرر ، أحبتني عمتي فدخل علي الضرر بسببها ، وأحبني أبي فأُوذيت بسببه ، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك ، ثم إنهما رأيا مناماً ، فرأى الساقي : أنه يعصر خمراً - يعني عنباً - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود (إني أراني أعصر عنباً) ورواه ابن أبي حاتم . (وكذا قال الضحاك وزاد) : وأهل عمان يسمون العنب خمراً .

و قال عكرمة : قال له : إني رأيت فيما يرى النائم : أني غرست حَبَلَة من عنب ، فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ، ثم سقيتهن الملك ، فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقه خمراً ، وقال الآخر وهو الخباز : ﴿إنِّي أراني أحمِلُ فوقَ رأسِي خُبزاً تأكلهُ الطيرُ منهُ نبِّئنَا بتأويلِهِ﴾ الآية . والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه ، أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره .

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾

٣٧- يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿لا يأتيكما طعامٌ ترزقانِهِ إلاَّ نبأتُكمَا بتأويلِهِ﴾ قال مجاهد : يقول ﴿لا يأتيكمَا طعامٌ

﴿تُرزقانِه﴾ في يومكما **﴿إلاَّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾**، وكذا قال السدي.

٣٨- ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد **﴿و اتبعْتُ ملةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ﴾** الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال مَن سلك طريق انهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يُقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد **﴿ما كانَ لنا أن نُشركَ بالله من شيء ذلكَ مِن فضل اللهِ علينَا وعلى الناس﴾** هذا التوحيد، وهو: الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، **﴿مِن فضلِ الله علينا﴾** أي: أوحاه إلينا وأمرنا به **﴿و على الناس﴾** إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك **﴿و لكنَّ أكثرَ الناس لا يشكرون﴾** أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم، بإرسال الرسل إليهم، بل **﴿بدلوا نعمة الله كُفراً وأحلوا قومَهمْ دارَ البوارِ﴾**.

و روى ابن أبي حاتم: عن عطاء عن ابن عباس: أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: والله لمن شاء لاعنته عند الحِجْر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى ـ يعني إخباراً عن يوسف ـ: **﴿و اتَّبعتُ مِلَّةَ آبائي إبْراهيمَ وَإسْحاقَ وَيَعقُوبَ﴾**.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

٣٩- ثم إن يوسف ﷺ أقبل على الفتيين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: **﴿أأربابٌ مُتفرِّقونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهّارُ﴾** أي: الذي ذل كل شيء لعز جلاله، وعظمة سلطانه.

٤٠- ثم بيَّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هي جَعلٌ منهم، وتسميه من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستندة من عند الله، ولهذا قال: **﴿ما أنزَلَ اللهُ بها من سُلطانٍ﴾** أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أنَّ الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة، أن لا يعبدوا إلا إياه. ثم قال تعالى: **﴿ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾** أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان، الذي يحبه ويرضاه **﴿و لكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمونَ﴾** أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين **﴿و ما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنينَ﴾**.

و قد قال ابن جريج: إنما عَدَل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرَفَ أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعادوه فأعاد عليهم الموعظة.

و في هذا الذي قاله نظر! لأنه قد وعدهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام، وَصْلَةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير، والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شَرَع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال، فقال:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾

٤١- يقول لهما: ﴿يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أحدكما فيسقي ربَّهُ خَمراً﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يُعيِّنه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿و أمَّا في الآخرُ فيُصلبُ فتأكلُ الطيرُ مِن رأسِهِ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلَمهما أن هذا فُرِغَ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رِجْل طائرٍ ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وقعت.

و روى الثوري: عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تَستَفتِيانِ﴾. وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله: أن من تَحلَّم بباطل وفسَّره، فإنه يلزم بتأويله، والله تعالى أعلم. وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد: عن معاوية بن حيدة عن النبيﷺ قال: «الرؤيا على رجلِ طائرٍ ما لم تُعبر، فإذا عبّرت وقعت».

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

٤٢- ولما ظن يوسفعليه السلام أن الساقي ناجٍ، قال له يوسف خِفْيةً عن الآخر، والله أعلم ـ لئلا يشعره أنه المصلوب ـ قال له: ﴿اذكُرْني عند ربِّك﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملِك فنسي ذلك الموصَى أن يُذكِّرَ مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يَطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فأنساه الشيطانُ ذكرَ ربِّه﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إنَّ الضمير عائد على يوسفعليه السلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم.

و أسند ابن جرير ههنا حديثاً: عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبيﷺ: «لو لم يقل ـ يعني يوسف ـ الكلمة التي قال، ما لَبِثَ في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله!» وهذا الحديث ضعيف جداً، وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا، لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

و أما البضع: فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع.

و قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فلبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال: ثنتا عشرة سنة، وقال الضحاك: أربعة عشرة سنة.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

يابِسات لعلّي أرجعُ إلى النّاسِ لعلّهم يعلمون ﴿٤٦﴾ قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون ﴿٤٧﴾ ثمّ يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلاّ قليلاً ممّا تحصنون ﴿٤٨﴾ ثمّ يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث النّاس وفيه يعصرون ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٣- هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً، وذلك أنَّ الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزّاة، وكبار دولته وأمراءه فقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها:

٤٤- ﴿أضغاثُ أحلام﴾ أي: أخلاط أحلام، اقتضته رؤياك هذه ﴿و ما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالِمين﴾ أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها.

٤٥- فعند ذلك تذكّر الذي نجا، من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف من ذِكْر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بعد أمةٍ﴾ أي: مدة، وقرأ بعضهم ﴿بعد أمِهٍ﴾ أي: بعد نسيان، فقال لهم، أي: للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أنا أنبئكمْ بتأويلِه﴾ أي: هذا المنام ﴿فأرْسِلُون﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام: فبعثوه فجاء فقال:

٤٦- ﴿يوسفُ أيها الصديقُ أفتِنا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها، من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصّاه به، ومن غير استشراط للخروج قبل ذلك.

٤٧، ٤٨- بل قال: ﴿تزرعونَ سبعَ سِنِينَ دأباً﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسّر البقر بالسنين، لأنها تُثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فما حَصدتُم فذروه في سُنبُلِه إلا قليلاً مما تأكُلُونَ﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله ليكون أبقى له، وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل، التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يأكلنَ ما قدمتمْ لهنَّ إلا قليلاً مما تُحصِنُونَ﴾.

٤٩- ثم بشّرهم بعد الجدب العام المتوالي، بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عامٌ فيه يغاثُ الناسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم، من زيت ونحوه وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و فيهِ يعْصِرونَ﴾ يحلبون.

﴿ وقال الملكُ ائتوني به فلمّا جاءه الرّسولُ قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بالُ النّسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليمٌ ﴿٥٠﴾ قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوءٍ قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن

الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾

٥٠- يقول تعالى إخباراً عن الملك، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعَرف فضلَ يوسف ﷺ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على مَنْ ببلده من رعاياه، فقال **﴿ائتوني به﴾** أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج، حتى يتحقَّق الملك ورعيته بَراءةَ ساحته، ونزاهة عرضه، مما نُسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمرٍ يقتضيه، بل كان ظُلماً وعدواناً، فقال: **﴿ارجع إلى ربِّك﴾** الآية.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك مِن إبراهيم، إذ قال **﴿رَبِّ أَرِنِي كيفَ تُحيِي الْمَوتَى﴾** الآية، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف، لأَجَبتُ الداعي».

وفي لفظ لأحمد: عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ في قوله: **﴿فاسألْهُ ما بالُ النِّسوةِ اللاتي قطَّعْنَ أيْديهُنَّ إنَّ ربِّي بكيدِهنَّ عليمٌ﴾** فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابة، وما ابتغيت العذر».

٥١- وقوله تعالى: **﴿قالَ ما خطبُكنَّ إذ راودتنَّ يوسفَ عَن نَّفسِه﴾** إخبارٌ عن الملك، حين جَمَع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، وقال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن **﴿مَا خَطبُكنَّ﴾** أي: شأنكن وخبركن **﴿إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه﴾** يعني: يوم الضيافة **﴿قُلن حاشَ لله ما عَلمنا عليهِ من سُوءٍ﴾** أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسفُ متهماً، والله ما علمنا عليه من سوءٍ، فعند ذلك **﴿قالَت امْرأَةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾** قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق، وظهر وبرز **﴿أنا رَاوَدتُهُ عَن نَّفسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادقينَ﴾** أي: في قوله: **﴿هِيَ رَاوَدَتنِي عَن نَّفسِي﴾**.

٥٢، ٥٣- **﴿ذلك ليعلمَ أني لم أخُنهُ بالغيب﴾** تقول: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقعَ المحذور الأكبر، وإنما راودتُ هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة **﴿و أنَّ الله لا يَهْدِي كَيدَ الْخَائِنِينَ * ومَا أُبرِّئُ نَفْسِي﴾** تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإنَّ النفس تتحدَّث وتتمنى، ولهذا راودته، لأن **﴿النفسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾** أي: إلا من عصمه الله تعالى **﴿إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** وهذا القول هو الأشهر، والأليق والأنسب بسياق القصة، ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة.

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف ﷺ، يقول **﴿ذلك ليعلمَ أني لم أخُنهُ﴾** في زوجته **﴿بالغَيب﴾** الآيتين، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز **﴿أنِّي لم أخُنهُ﴾** في زوجته **﴿بالغَيبِ وأنَّ الله لا يَهدِي كَيدَ الْخائِنينَ﴾** الآية. وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. و هكذا قال

مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي. والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

٥٤- يقول تعالى إخباراً عن الملك، حين تحقق براءة يوسف عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نُسِبَ إليه، قال: **﴿ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾** أي: أجعله من خاصتي، وأهل مشورتي **﴿فلمَّا كلَّمهُ﴾** أي: خاطبه الملك، وعرفه ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خُلُق وخَلق وكمال، قال له الملك: **﴿إنكَ اليومَ لَدينا مَكينٌ أمينٌ﴾** أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة.

٥٥- فقال يوسف عليه السلام **﴿اجعَلني على خَزائنِ الأرضِ إنِّي حفيظٌ عليمٌ﴾** مَدَح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة، وذكر أنه **﴿حفيظٌ﴾** أي: خازن أمين **﴿عليمٌ﴾** ذو علم وبصيرة بما يتولاَّه.

و قال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم بسني الجدب. رواه ابن أبي حاتم.

و سأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعل على خزائن الأرض، وهي: الأهرام التي يُجمع فيها الغَلاَّت، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾

٥٦- يقول تعالى: **﴿و كذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** أي: أرض مصر **﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾** قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرّف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار **﴿نُصيبُ برَحمَتِنا مَن نَّشاءُ ولا نُضيعُ أجرَ المُحسِنينَ﴾** أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد **﴿و لا نُضيعُ أجرَ المُحسِنينَ﴾**.

٥٧- **﴿و لأجرُ الآخرةِ خيرٌ للَّذينَ آمنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ﴾** يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة، أعظم وأكثر وأجل، مما خوّله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان عليه السلام **﴿هذا عَطاؤنَا فامنُن أو أمسكْ بغيرِ حِسابٍ ۞ وإن له عندنَا لزُلفى وحُسنَ مَآبٍ﴾**.

و الغرض أن يوسف عليه السلام ولاَّه ملكُ مصر «الريان بن الوليد» الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر، زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام. قاله مجاهد.

و قال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ

ائتوني بأخٍ لَكُم مَنْ أَبيكُمْ أَلا تروْنَ أَنّي أُوفي الْكَيْلَ وأَنا خيرُ المُنزلين ﴿٥٩﴾ فإن لَّمْ تأْتُوني به فلا
كَيْلَ لَكُمْ عندي ولا تقْربُون ﴿٦٠﴾ قالوا سنُراوِدُ عنْهُ أَباهُ وإنَّا لَفاعلُون ﴿٦١﴾ وقال لفتْيانه اجْعلُوا
بضاعتَهُمْ في رِحالِهِمْ لعلَّهُمْ يعرِفُونها إذا انقلَبُوا إلىٰ أَهْلِهِمْ لعَلَّهُمْ يرْجِعُون ﴿٦٢﴾ ﴾

٥٨- ذكر السدي ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسِّرين: أن السبب الذي أقدَم إخوة يوسف بلاد مصر: أن يوسف ﷺ لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع سنين المخصبة، ثم تلتها السبع سنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب ﷺ وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف ﷺ للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حِمل بعير في السنة، وكان ﷺ لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمةً من الله على أهل مصر.

و الغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يُعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يتعاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب ﷺ عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف ﷺ وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أُبهته ورياسته وسيادته، عَرَفهم حين نظر إليهم ﴿وهُمْ لَهُ مُنكِرونَ﴾ أي: لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغيرٌ حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره: أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هَلكَ في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿و لَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهِمْ﴾ أي: أوفَى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أني أُوفِي الْكَيلَ وَ أَنَا خَيرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه.

٦٠- ثم رهَّبهم فقال ﴿فإن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ الآية، أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة ﴿و لا تَقْرَبُونِ﴾

٦١- ﴿قالوا سنراودُ عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهود لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدي: أنه أخذ منهم رهائن، حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر! لأنه أحسن إليهم ورغَّبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿و قال لفتيانه﴾ أي: غلمانه ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي: التي قدموا بها، ليمتاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لعلَّهمْ يَرجِعونَ﴾ بها؛ قيل: خشي يوسف ﷺ أنْ لا يكون عندهم بضاعة أخرى، يرجعون للميرة بها، وقيل:

تذمم[1] أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم، تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾

٦٣- يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم **﴿قالوا يا أبانا مُنِعَ منّا الكيل﴾** يعنون بعد هذه المرة، إنْ لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون. قرأ بعضهم بالياء، أي: يكتل هو **﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** أي: لا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا في يوسف **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**.

٦٤- ولهذا قال لهم **﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾** أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؛ تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ **﴿فالله خير حفظاً﴾** وقرأ بعضهم **﴿حافظاً﴾** **﴿وهو أرحم الراحمين﴾** أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَري وضعفي، ووَجْدي بولدي، وأرجو من الله أن يَردَّه علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

٦٥- يقول تعالى: ولما فتحَ إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم **﴿قَالُوا يا أبانا مَا نبغي﴾** أي: ماذا نريد **﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾** كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفي لنا الكيل **﴿و نمير أهلنا﴾** أي: إذا أرسلت أخانا معنا، نأتي بالميرة إلى أهلنا **﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾** وذلك أن يوسف ﷺ كان يُعطي كلَّ رجل حِمل بعير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً. كذا قال! **﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يسير﴾** هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير، في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق **﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾** إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه **﴿فلما آتوهُ مَوْثِقَهُمْ﴾** أكّده عليهم فقال: **﴿اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾** قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بُداً من بعثهم، لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا

---

(١) تذمَّم: استنكف. و أخذتني منه مذمَّة: أي: رقة و عار من ترك الحُرمة (القاموس).

عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

٦٧ ، ٦٨ - يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمرَ بنيه لما جهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ، أنْ لا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبوابٍ متفرقة ، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد : إنه خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمالٍ ، وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشي عليهم أنْ يصيبهم الناس بعيونهم ، فإنَّ العينَ حقٌّ ، تستنزل الفارس عن فرسه . وروى ابن أبي حاتم : عن إبراهيم النخعي في الآية قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب .

و قوله : ﴿ وما أغنى عنكم مِّن اللهِ مِن شيءٍ ﴾ أي : أن هذا الاحتراز لا يردُّ قدر الله وقضاءه ، فإنَّ الله إذا أراد شيئاً لا يُخالَفُ ولا يمانع ﴿ إنِ الحُكمُ إلاَّ للهِ عليه توكلتُ وعليه فليتوكلِ المتوكِّلون ۞ ولمَّا دخلوا مِن حيثُ أمَرَهُم أبوهُم مَّا كانَ يُغني عنهُم مِّنَ اللهِ مِن شيءٍ إلاَّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها ﴾ قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وإنَّهُ لذُو عِلمٍ لِّمَا علَّمناهُ ﴾ . قال قتادة والثوري : لذو علم يعلمه ، وقال ابن جرير : لذو علمٍ لتعليمنا إياه ﴿ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾

٦٩- يخبر تعالى عن إخوة يوسف ، لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه «بنيامين» وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له ، وعرَّفه أنه أخوه ، وقال له ﴿ لا تبتئس ﴾ أي : لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمرَه بكتمان ذلك عنهم ، وأنْ لا يُطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده ، معززاً مكرّماً معظماً .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾

٧٠- لما جهَّزهم وحمَّل لهم أبعرتهم طعاماً ، أمر بعض فتيانه أنْ يَضع السقاية ، وهي إناء من فضة ، في قول الأكثرين ، وقيل : من ذهب . قال ابن زيد : كان يَشرب فيه ويكيل للناس به ، من عزّة الطعام إذ ذاك . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : صواع الملك قال : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية ، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى منادٍ بينهم ﴿ أيَّتها العيرُ إنَّكمْ لسارقُونَ ﴾ فالتفتوا إلى المنادي ، وقالوا :

٧١ ، ٧٢- ﴿ ماذا تَفْقِدُونَ ۞ قالوا نفقدُ صُواعَ الملِكِ ﴾ أي : صاعه الذي يكيل به ﴿ ولِمن جاءَ به حِملُ بعيرٍ ﴾ وهذا من باب : الجعالة ﴿ وأنا بهِ زَعيمٌ ﴾ وهذا من باب : الضمان والكفالة .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ

بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

٧٣- لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف ﴿تالله لقدْ علمتمْ ما جئنا لنفسدَ في الأرضِ وما كنَّا سارقينَ﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنَّا ﴿ما جئنا لنُفسِدَ في الأرضِ وما كنَّا سارقينَ﴾ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان:

٧٤- ﴿فما جزاؤهُ﴾ أي: السارق إنْ كان فيكم ﴿إن كنتمْ كاذبينَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ يكون عقوبته، إنْ وجدنا فيكم من أخذه؟

٧٥- ﴿قالُوا جزاؤهُ من وُجدَ في رحلِه فهو جزاؤهُ كذلكَ نَجْزي الظالمينَ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أنَّ السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام.

٧٦- ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتَّشها قبله تورية ﴿ثم استخرجها من وعاءِ أخيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلكَ كِدْنا ليوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد، الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

و قوله: ﴿مَا كانَ ليأخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره: وإنَّما قيَّض اللهُ له أنْ التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نرفعُ درجاتٍ مَّن نشاءُ﴾ كما قال تعالى: ﴿يرفَع الله الذينَ آمنُوا منكم﴾ الآية.

﴿و فوقَ كلِّ ذي علم عليم﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل، وكذا روى عبد الرزاق: عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجَّب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم، فوق كل عالم. وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة ﴿و فوقَ كلِّ ذي عِلم عَليم﴾: حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ وتعلَّمت العلماء، وإليه يعود. وفي قراءة عبد الله: ﴿و فوق كلِّ عالم عَليم﴾.

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾

٧٧- وقال إخوة يوسف، لما رأوا الصواع قد أُخرجَ من متاع بنيامين ﴿إن يَسرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ لَّهُ مِن قبلُ﴾ يتنصَّلون إلى العزيز من التشبُّه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخٌ له من قبل، يعنون به: يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير وقتادة: كان يوسف عليه السلام قد سَرَق صنماً لجده أبي أمه، فكسره.

و قوله: ﴿فأسَرَّها يُوسُفُ في نَفسِه﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أنتمْ شرٌّ مكاناً واللهُ أعلمُ بما تصفونَ﴾ أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يُبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة، في منثورها وأخبارها وأشعارها، قال العوفي عن ابن عباس: ﴿فأسرَّها يوسفُ في نفسه﴾ قال أسر في نفسه: ﴿أنتمْ شرٌّ مكاناً والله أعلمُ بما تصفُونَ﴾.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ

اللَّه أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾

٧٨- لمَّا تعيَّن أخذ بنيامين، وتقرَّر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرَعوا يترقّقون له، ويُعطِّفونه عليهم ﴿فقالوا يا أيُّها العزيزُ إنَّ لهُ أباً شيخاً كبيراً﴾ يعنون: وهو يحبه حباً شديداً، ويتسلَّى به عن ولده الذي فقده ﴿فخُذْ أحدَنا مكانَه﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضاً عنه ﴿إنَّا نَراكَ مِن المُحْسِنينَ﴾ أي: العادلينَ المُنصِفينَ، القابلينَ للخير.

٧٩- ﴿قال معاذَ اللهِ أن نأخذَ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي: كما قلتم واعترفتم ﴿إنَّا إذاً لظالِمُونَ﴾ أي: إنْ أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾

٨٠- يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يَئسوا من تخليص أخيهم «بنيامين» الذي قد التزموا لأبيهم بردِّه إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نجياً﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قال كبيرهم﴾ وهو: روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عند ما همُّوا بقتله، قال لهم ﴿ألمْ تعلمُوا أن أباكمْ قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك، مع ما تقدَّم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أو يحكم الله لي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يُمكِّنني من أخذ أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾.

٨١- ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتنصلوا إليه، ويبرؤا مما وقع بقولهم. وقوله: ﴿و ما كنَّا للغيب حافظينَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ما علمنَا أن ابنك يسرق.

و قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟

٨٢- ﴿و اسأل القريةَ التي كنَّا فيها﴾ قيل: المراد مصر، قاله قتادة. وقيل: غيرها ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا، وحفظنا وحراستنا ﴿و إنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾

٨٣- قال لهم، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب، وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، أسحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ ثم ترجّى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل، الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أنْ يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أنْ يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً إنَّهُ هُوَ العليم﴾ أي: العليم بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

٨٤- ﴿وتولّى عنهم وقال يا أسفا على يوسف﴾ أي: أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم ﴿يا أسفا على يوسف﴾ جدّد له حزن الابنَين، الحزن الدفين. روى عبد الرزاق: عن سعيد بن جبير: أنه قال لم يُعطَ أحدٌ غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوبﷺ ﴿يا أسفا على يوسف وابيضّتْ عيْناهُ من الحُزْن فهو كظيم﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿فهوَ كَظيم﴾ كئيب حزين.

٨٥- فعند ذلك رقّ له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به، والشفقة عليه ﴿تالله تفتؤ تذكرُ يوسفَ﴾ أي: لا تفارق تذكر يوسف ﴿حتّى تكونَ حَرَضاً﴾ أي: ضعيف القوة ﴿أوْ تكونَ مِنَ الهَالِكينَ﴾ يقولون: إن استمرَّ بك هذا الحال، خشينا عليك الهلال والتلف.

٨٦- ﴿قالَ إنّما أشكو بَثّي وحُزْني إلى اللهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إنَّمَا أشْكو بثّي وَحُزْني﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿إلى اللهِ﴾ وحده ﴿وَأعلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعلَمونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وَأعلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعلَمونَ﴾ يعني: رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بدّ أنْ يُظهرها.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

٨٧- يقول تعالى مخبراً عن يعقوبﷺ إنه نَدَبَ بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتّحسس: يكون في الخير، والتجسس: يكون في الشر، ونهّضهم وبشرهم، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرمونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، و﴿لاَ ييأسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إلاَّ القَومُ الكَافِرُونَ﴾.

٨٨- وقوله: ﴿فلمّا دخلوا عليهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قالُوا يَا أيُّها العزيزُ مسّنا وَأهْلَنا الضُّرُّ﴾ يعنون: من الجدب والقحط، وقلة الطعام ﴿وجئنا ببضاعةٍ مُّزجاةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد، وقال ابن عباس: الرديء لا يَنْفَق، مثل خَلَق الغِرارة والحبل والشيء، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة والسدي، وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسول. وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء.

و قوله إخباراً عنهم: ﴿فأوفِ لنا الكيلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل، ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فأوقر ركابنا وتَصدَّق علَينا﴾، وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا، وقال سعيد بن جبير والسدي ﴿و تَصدَّقْ علَينا﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتَجوَّز فيها، وسئل سفيان بن عيينة: هل حُرِّمت الصدقت على أحد من الأنبياء، قبل النبيﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فأوفِ لَنَا الكيلَ وتَصدَّقْ علَينا إنَّ اللهَ يجزي المُتَصدِّقينَ﴾؟ رواه ابن جرير. وروي عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهداً: وسُئل هل يُكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

٨٩- يقول تعالى مخبراً عن يوسفعليه السلام، أنه لما ذَكَرَ له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق، وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة، ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدَرَه البكاء فتعرَّف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة، وقال ﴿هَلْ علِمتُم مَّا فعَلتُم بيُوسفَ وأخيهِ إذْ أنتُمْ جاهِلونَ﴾ يعني: كيف فرَّقوا بينه وبين أخيه ﴿إذْ أنتُمْ جاهِلونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كلُّ مَنْ عَصَى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثم إنَّ ربَّك للذينَ عمِلوا السُّوءَ بجهالةٍ﴾ الآية.

و الظاهر - والله أعلم - أن يوسفعليه السلام إنما تعرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأولين، بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكنْ لما ضاق الحال، واشتد الأمر، فرَّج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً* إنَّ مع العُسْرِ يُسْراً﴾.

٩٠- فعند ذلك قالوا: ﴿أئنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿إنك لأنت يوسف﴾ وقرأ ابن محيصن ﴿أنتَ يُوسُفُ﴾ والقراءة المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: أنهم تعجبوا من ذلك، أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿أئِنكَ لأنتَ يوسفُ قال أنَا يوسفُ وهَذا أخِي﴾. وقوله: ﴿قد منَّ الله علينا﴾ أي: بجمعه بيننا، بعد التفرقة وبُعد المدة ﴿إنَّه مَن يتقِ ويصبرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجر المُحسنينَ﴾.

٩١- ﴿قالُوا تاللهِ لقدْ آثرك اللهُ علينَا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل، والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلق، والسعة والملك والتصرف، والنبوّة أيضاً، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقرّوا بأنهم أساءوا إليه، وأخطأوا في حقه.

٩٢- ﴿قال لا تَثريبَ عليكُم اليومَ﴾ يقول: أي: لا تأنيب عليكم، ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنوبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال ﴿يَغفرُ اللهُ لكُمْ وَهوَ أرحمُ الراحِمينَ﴾

قال السدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم، وقال ابن إسحاق والثوري: أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿يغفر الله لكم﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾.

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

٩٣- يقول، اذهبوا بهذا القميص ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي: بجميع بني يعقوب.

٩٤- ﴿ولما فصلت العير﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿قال أبوهم﴾ يعني: يعقوب ﷺ لمن بقي عنده من بنيه ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ تنسبوني إلى الفَنَد والكِبَر.

روى عبد الرزاق: عن أبي الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿ولما فصلت العير﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريحٌ فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. و قوله: ﴿لولا أن تفندون﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تُسفهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تُهَرِّمُون.

٩٥- وقولهم ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه. قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السدي وغيره.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾

٩٦- قال ابن عباس والضحاك ﴿البشير﴾ البريد، وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به، لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك ﴿ألم أقل لكم إني من الله مالا تعلمون﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إليَّ، وقلت لكم ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾.

٩٧- فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السَّحَر.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ

بي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾

٩٩- يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدَّم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخْبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف، لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إنَّ الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

و قد أشكل قوله: ﴿آوى إليهِ أبوَيْه وقالَ ادْخُلوا مصرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: وقال ادْخُلُوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنِينَ، وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش. وردَّ ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد، قال ﴿ادخُلُوا مصرَ إن شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وفي هذا نظر أيضاً! لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿آوى إليه أخاه﴾ وفي الحديث: «مَنْ آوى محدثاً» وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه، وآواهم إليه: ادخلوا مصر؟ وضمَّنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط؟

و يقال ـ والله أعلم ـ إن الله تعالى رَفَع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة، ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة، حين قال: «اللهمَّ أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف» ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم فرُفعَ عنهم بقيةَ ذلك، ببركة دعائه عليه السلام. وقوله: ﴿آوى إليهِ أبَوَيْه﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أبوه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديماً! وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يقم دليلٌ على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نَصَره هو المتصور الذي يدل عليه السياق.

١٠٠- وقوله: ﴿و رَفعَ أبويْه على العَرْش﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿و خَرُّوا لَهُ سُجداً﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقال يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤيايَ مِن قبلُ﴾ أي: التي كان قصَّها على أبيه من قبل ﴿إنّي رأيتُ أحدَ عَشرَ كَوْكباً﴾ الآية، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سَلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحُرِّمَ هذا في هذه الملة، وجُعل السُّجود مختصاً بجانب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

و في الحديث: أن معاذاً قَدِمَ الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنتَ أحقُّ أنْ يُسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنتُ آمراً أحداً أنْ يسجدَ لأحدٍ، لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجها، لعظم حقه عليها»[(١)].

و الغرض: أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خَرُّوا له سجداً، فعندها قال يوسف. ﴿يا أبتِ هذا

---

(١) رواه ابن ماجة (١/ ١٨٥٣) و ابن حبان (١٢٩٠ ـ زوائد) و غيرهما. انظر تعليقنا على الوصية الكبرى (ص ٥٠).

تأويلُ رُؤْيايَ مِن قبلُ قدْ جعَلَها ربِّي حقاً﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإنَّ التأويل يُطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: **﴿هلْ ينظُرونَ إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾** أي: يوم القيامة يأتيهم ما وُعدوا به من خير وشر.

و قوله: **﴿قد جعلهَا ربِّي حقاً﴾** أي: صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه **﴿و قد أحسنَ بي إذ أخرجني مِن السِّجْنِ وجاءَ بكمْ مِن البَدْوِ﴾** أي: البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا من أهل البادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبات مِن أرض فلسطين من غور الشام، قال: وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل.

﴿مِن بعدِ أن نَّزغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاءُ﴾ أي: إذا أراد أمراً، قيَّضَ له أسباباً، وقدَّره ويسَّره **﴿إنهُ هوَ العليمُ﴾** بمصالح عباده **﴿الحكيمُ﴾** في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده، قال أبو عثمان النهدي عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وروى أيضاً: عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحب إلى الله من يعقوب. وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوبﷺ بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾

١٠١ ـ هذا دعاءٌ من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل، لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا، أنْ يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه **﴿بالصَّالِحينَ﴾** وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

و هذا الدعاء يحتمل أن يوسفﷺ قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول اللهﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهمَّ في الرَّفيق الأعلى» ثلاثاً.

و يحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأله ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: **﴿توفَّني مُسلِماً وألحِقْني بالصالِحينَ﴾** لما جمعَ الله شمله وأقرَّ عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس: يقول ماتمنى نبيٌّ قط الموت قبل يوسفﷺ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال **﴿ربِّ اغفِرْ لي ولوالِديَّ ولِمَن دخَلَ بيتيَ مُؤمناً﴾**.

و يحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا،

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يتَمنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نزل به، فإنْ كانَ ولا بُدَّ مُتَمنِّياً المَوتَ، فليقُل: اللهمَّ أحيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتوَفَّنِي إذا كانت الوفاةُ خيراً لِي» وأخرجاه في الصحيحين.

وعندهما: «لا يتَمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نزَلَ به، إنْ كانَ مُحسناً فيزدادُ، وإنْ كان مُسيئاً فلعلَّه يستعتبُ، ولكنْ ليقلْ: «اللهمَّ أحيِني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي».

و هذا فيما إذا كان الضُّرُّ خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين، فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة، لما أرادهم فرعون عن دينهم، وتهددهم بالقتل **﴿قالوا ربَّنا أفرغ علينا صبراً وتوفَّنا مُسلمين﴾** وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو: الطلق إلى جذع النخلة **﴿يا لَيتَنِي مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسيّاً﴾** لما عَلمتْ من أنَّ الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج، وقد حملت ووضعت، وقد قالوا: **﴿يا مريمُ لقدْ جئتِ شيئاً فَرِيّاً﴾ ﴿يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾** فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبيَّ في المهد بأنه عبد الله ورسوله، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه.

و في حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي: في قصَّة المنام والدعاء الذي فيه «و إذا أردتَ بقوم فتنةً، فاقبضْنِي إليك غيرَ مفتُون».

و روى الإمام أحمد: عن محمود بن لبيد مرفوعاً: أنَّ النبي ﷺ قال: «اثنتان يَكْرَهُهما ابنُ آدم: يكره الموتَ، والموتُ خيرٌ للمؤمن من الفتن، ويكره قلةَ المال، وقلة المال أقل للحساب».

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته، لما رأى أنَّ الأمور لا تَجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهمَّ خُذني إليك، فقد سئمتهم وسئموني. وقال البخاري رحمه الله ـ لما وقعت له تلك الفتنة، وجرى له مع أمير خراسان ما وقع ـ قال: اللهمَّ توفَّني إليك.

و في الحديث: «إنَّ الرجلَ ليمرُّ بالقبر ـ أي في زمان الدجال ـ فيقول يا ليتني مكانك» لما يَرَى من الفتن والزلزال، والبلابل والأمور الهائلة، التي هي فتنة لكل مفترون، قال أبو جعفر بن جرير: وذُكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

و ذكر السدي: أن يعقوب عليه السلام لما حضَرَه الموت، أوصى إلى يوسف بأن يُدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليه السلام.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾

١٠٢ - يقول تعالى لمحمد ﷺ لمَّا قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد، من أخبار الغيوب السابقة **﴿نُوحِيهِ إِلَيكَ﴾** ونعلمك به يا محمد، لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك **﴿وما كُنتَ لديهمْ﴾** حاضراً عندهم، ولا مشاهداً لهم **﴿إذ أجمعُوا أمرَهمْ﴾** أي: على إلقائه في الجب **﴿وهُمْ يَمكُرُونَ﴾**

به، ولكنَّا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كقوله ﴿وما كنتَ لديهم إذ يُلقونَ أقلامَهمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما كنتَ بجانبِ الغربيِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وما كنتَ بجانبِ الطُّورِ إذ نادَيْنا﴾ الآية، وقال: ﴿وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مدينَ تتلُو عليهم آياتنا﴾ الآية، وقال ﴿ما كانَ ليَ منْ علمٍ بالملأ الأعلى إذْ يختصِمُونَ* إنْ يوحَى إليَّ إلا أنَّما أنا نذيرٌ مُّبينٌ﴾.

يقول تعالى: إنه رسوله، وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال:

١٠٣- ﴿وَما أكْثرُ النَّاسِ ولوْ حرصْتَ بمُؤْمنينَ﴾ وقال: ﴿وإنْ تُطعْ أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ اللهِ﴾، كقوله: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثَرُهمْ مُؤْمنينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

١٠٤- وقوله: ﴿وما تسألُهمْ عليهِ منْ أجرٍ﴾ أي: ما تسألهمْ يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد ﴿منْ أجرٍ﴾ أي: من جعالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقه ﴿إنْ هوَ إلاَّ ذكرٌ للعالَمينَ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧)﴾

١٠٥- يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض، من كواكب زاهرات، ثوابت وسيَّارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك.

و قوله: ﴿وما يؤمنُ أكثرُهمْ بالله إلاَّ وهم مُشْركونَ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: مَنْ خلقَ السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين: إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم: إنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد». أي: حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا.

و قال الله تعالى: ﴿إنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيمٌ﴾ وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين: عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعلَ لله نداً وهو خلقكَ».

و قال الحسن البصري في قوله: ﴿وما يُؤْمنُ أكثرُهم باللهِ إلاَّ وهُمْ مُشْركونَ﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿إنَّ المنافقينَ يُخادِعُونَ اللهَ وهوَ خادِعُهمْ وإذا قامُوا إلَى الصلاةِ قامُوا كُسَالَى يُراءُونَ النَّاسَ ولا يذْكُرونَ اللهَ إلاَّ قليلاً﴾ وثَمَّ شرك آخر خفي، لا يشعر به غالباً

فاعله، كما روي عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه ـ أو انتزعه ـ ثم قال: ﴿وما يُؤمنُ أكثرُهمْ باللهِ إلاَّ وهمْ مُشرِكونَ﴾.

و في الحديث: «مَنْ حَلفَ بغير الله فقدْ أشركَ» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر.

و في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرُّقَى والتَّمائم والتِّوَلة شركٌ». وفي لفظ لهما: «الطِّيَرةُ شرك، وما منَّا إلا، ولكن الله يُذْهبهُ بالتوكُّل».

و رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهة أنْ يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الْحُمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً، فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيطٌ رُقي لي فيه، فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرقى والتمائم والتولة شرك» قالت: قلت له: لم تقول هذا؟ وقد كانت عيني تَقذفُ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سَكنتْ؟ فقال: إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقَاها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ: «إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «أذهب البأس، ربَّ الناس، اشفِ وأنتَ الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤكَ، شفاءً لا يغادر سقماً».

و في مسند الإمام أحمد: من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ علَّقَ تميمةً فقد أشْركَ».

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَنْ عَمِلَ عملاً أشركَ فيه معي غيري، تركتُه وشركه» رواه مسلم.

و عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جَمعَ الله الأوَّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه، يُنادي منادٍ: مَنْ كان أشركَ في عملٍ عمله لله، فليطلبْ ثوابَه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنَى الشُّركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد.

و روى أحمد: عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخْوفَ ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم، اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟».

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ردَّتْهُ الطيرةُ عن حاجته فقدْ أشركَ»، قالوا يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خيرَ إلا خيرك، ولا طيرَ إلا طيرك، ولا إله غيرك».

و روى الإمام أحمد: عن أبي علي رجل من بني كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشِّرك، فإنه أخفى من دبيب النَّمل، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: «يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل» فقال له مَنْ شاء الله أن يقول: فكيف

نتقيه ، وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهمَّ إنَّا نعوذُ بكَ من أنْ نُشْركَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفركَ لما لا نعلمه». وقد روي من وجه آخر، وفيه: أن السائل في ذلك هو الصديق.

و قد روى الإمام أحمد: وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي: من حديث أبي هريرة قال: قال أبوبكر الصديق، يا رسول الله، علِّمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي، قال: قل: «اللهمَّ فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيبِ والشهادة، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ أعوذُ بكَ من شرِّ نفسي، ومِن شرِّ الشيطان وشِرْكه». رواه أبو داود والنسائي وصححه، وزاد الإمام أحمد في رواية له: «و أنْ أقترفَ على نفسي سُوءاً، أو أُجرَّه إلى مسلم».

و قوله: **﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله﴾** الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله، أن يأتيهم أمرٌ يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: **﴿أفأمنَ الذينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أنْ يخسفَ اللهُ بهم الأرض أو يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعُرونَ ❁ أو يأخُذَهمْ في تقلُّبهم فما هُمْ بمُعْجزينَ ❁ أو يأخذهمْ على تخوُّفٍ فإنَّ ربَّكمْ لرءوفٌ رحيمٌ﴾**، و قوله: **﴿أفأمِنَ أهلُ القُرَى أنْ يأتيَهمْ بأسُنا بياتاً وهمْ نائِمُونَ ❁ أوَأمنَ أهلُ القُرَى أن يأتِيَهمْ بأسُنا ضُحًى وهمْ يَلْعَبُونَ ❁ أفأمِنُوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأمَنُ مكرَ اللهِ إلاَّ القومُ الخاسِرُونَ﴾**.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٨ - يقول تعالى لرسولهﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، آمراً له أنْ يخبر الناسَ أنَّ هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكلُّ من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول اللهﷺ **﴿على بصيرة﴾** ويقين وبرهان عقلي وشرعي. و قوله: **﴿و سُبحانَ اللهِ﴾** أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه، عنْ أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتقدَّس وتنزَّه، وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً **﴿تُسبِّحُ له السموات السَّبعُ والأرضُ ومنْ فيهنَّ وإن مِّن شيءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحَمدِهِ ولكن لا تفقهونَ تسبيحَهمْ إنَّهُ كانَ حليماً غفوراً﴾**.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

١٠٩ - يخبر تعالى أنه إنما أرسل رُسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة، إنَّ الله تعالى لم يُوح إلى امرأةٍ من بنات آدم وحيَ تشريع، وزعم بعضهم: أنَّ سارّة امرة الخليل، وأمّ موسى، ومريم بنت عمران، وأمّ عيسى نبيات، واحتجوا بأنَّ الملائكة بشَّرت سارّة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: **﴿و أوحينا إلى أمِّ موسى أنْ أرضعيه﴾** الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم، وبشَّرها بعيسىعليه السلام، وبقوله تعالى: **﴿إذْ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ اصطفاكِ وطهَّركِ واصطفاكِ على نساءِ العالَمينَ ❁ يا مريمُ اقنتي لربِّكِ واسجُدي واركَعي معَ الراكِعينَ﴾** وهذا القدر حاصل لهنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أنْ يكنَّ نبيات بذلك، فإنْ أراد القائل بنبوتهنَّ هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى

الكلام معه: في أنَّ هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرّده، أم لا؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهنَّ صدِّيقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهنَّ مريم بنت عمران، حيث قال تعالى: **﴿ما المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ﴾** فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدِّيقة بنص القرآن.

و قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: **﴿وَ ما أرسَلْنا مِن قَبْلِكَ إلاَّ رِجالاً نُوحِي إليهِم مِّنْ أهلِ القُرَى﴾** أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: **﴿و ما أرسلنَا قبلكَ مِنَ المُرسَلينَ إلاَّ إنَّهمْ ليأكُلونَ الطَّعامَ ويَمشُونَ في الأسواقِ﴾** الآية، وقوله تعالى: **﴿و ما جَعلْنَاهمْ جسَداً لا يَأكُلونَ الطَّعامَ وما كانوا خالِدينَ* ثمَّ صدقْناهمُ الوعدَ فأنجيناهمْ ومن نشاءُ وأهلكنا المُسْرِفينَ﴾**، وقوله تعالى: **﴿قُلْ ما كنتُ بدعاً من الرسل﴾** الآية.

و قوله: **﴿مِنْ أهلِ القُرى﴾** المراد بالقرى المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم من أجفى الناس طِباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف، أن أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل بواديهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي. ولهذا قال تعالى: **﴿الأعرابُ أشدُّ كُفراً ونفاقاً﴾** الآية، وقال قتادة في قوله: **﴿مِن أهل القُرَى﴾** لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور.

و في الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يُعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممتُ أن لا أتَّهبَ هبةً، إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقفي، أو دوسي»(١).

و روى الإمام أحمد: عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال الأعمش: هو ابن عمر ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

و قوله: **﴿أفلَمْ يسيرُوا في الأرضِ﴾** يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض **﴿فينظرُوا كيف كان عاقبةُ الذينَ من قبلهمْ﴾** أي: من الأمم المكذِّبة للرسل، كيف دمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها **﴿أفلم يسيرُوا في الأرضِ فتكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بها﴾** الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أنَّ الله قد أهلكَ الكافرين، ونجَّى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، و لهذا قال تعالى: **﴿و لدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا﴾** أي: وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خيرٌ لهم من الدنيا بكثير، كقوله: **﴿إنَّا لننصرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنُوا في الحياةِ الدنيا ويوم يقُومُ الأشهادُ* يوم لا ينفعُ الظالمينَ معذرتُهمْ ولهم اللعنةُ ولهمْ سوءُ الدار﴾**.

و أضاف الدار إلى الآخرة، فقال **﴿و لدارُ الآخرة﴾** كما يقال: صلاة الأولى، ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٩٥)، و معناه: أن لا أقبل هدية إلا من هؤلاء، لأنهم أصحاب مدن و قرى، وهم أعرف بمكارم الأخلاق... (نهاية).

١١٠ - يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال، وانتظار الفرج من الله، في أحوج الأوقات إلى ذلك، كقوله تعالى: **﴿و زُلزلُوا حتى يَقُولَ الرَّسولُ والذينَ آمَنُوا معهُ متى نصرُ الله﴾** الآية، وفي قوله: **﴿كُذِبُوا﴾** قراءتان: إحداهما بالتشديد **﴿قد كُذِّبُوا﴾**، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها. روى البخاري: عن عروة بن الزبير: عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسُل﴾** قال: قلت: أَكُذِبُوا أمْ كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبُوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري، لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: **﴿وَ ظَنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل، الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر **﴿حتى إذا اسْتَيأسَ الرُّسُل﴾** ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك. وروى أيضاً عن عروة: فقلت: لعلها **﴿قد كُذِبُوا﴾** مخففة؟ قالت: معاذ الله، انتهى ما ذكره.

و عن ابن مليكة أن ابن عباس قرأها **﴿و ظَنُّوا أنهم قدْ كُذِبُوا﴾** خفيفة، قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، ثم تلا **﴿حتى يَقُول الرسولُ والذينَ آمَنُوا معه متى نصرُ الله ألا إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾** وقال لي ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعدَ الله محمداًﷺ من شيء، إلا قد علمَ أنه سيكونُ حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل، حتى ظنوا أنَّ مَن معهم من المؤمنين قد كذَّبُوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها **﴿و ظَنُّوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾** مثقلة من التكذيب.

وروى ابن أبي حاتم: عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسانٌ إلى القاسم بن محمد، فقال: إن محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** فقال القاسم: أخبروه عني أني سمعت عائشة زوج النبيﷺ تقول **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** تقول: كذبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضاً. والقراءة الثانية بالتخفيف؛ واختلفوا في تفسيرها فقال ابن عباس ما تقدم.

و عن ابن مسعود: فيما رواه الثوري عنه أنه قرأ **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره. وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما عن ابن عباس: فروى مسلم عنه قال: لما أيست الرُّسل أن يستجيب لهم قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك **﴿فنُجِّي من نشاءُ﴾**. وكذا روي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله.

و روى ابن جرير: عن إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال: أخبرنا أباعبدالله، كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيتُ عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أنْ يصدقوهم، وظنَّ المرسل إليهم أنَّ الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يُدعى إلى علم فيتلكأ لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً. ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر: أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّجَ الله عنك كما فرجت عني، وهكذا روى من غير وجه عن

سعيد ابن جبير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف، حتى أن مجاهداً قرأها ﴿وظنُّوا أنهم قد كَذَبوا﴾ بفتح الذال. رواه ابن جرير.

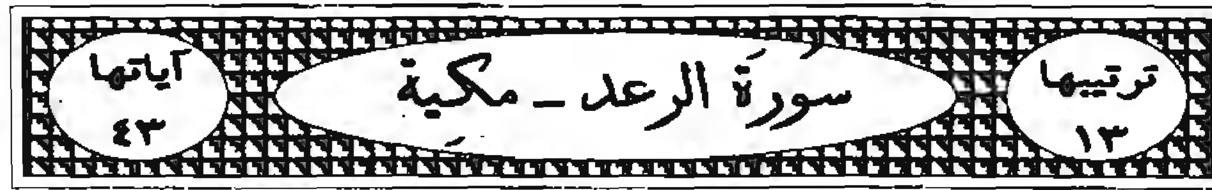
إلا أن بعض من فسرها كذلك، يُعيد الضمير في قوله: ﴿وظنُّوا أنهم قد كُذِبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يُعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا، مخففة فيما وعدوا به من النصر.

و أما ابن مسعود فروى ابن جرير عن تميم بن حذلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أنْ يؤمنوا بهم، وظنَّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذبوا بالتخفيف. فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على مَن فسَّرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزيَّف القول الآخر بالكلية، وردَّه وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

١١١- يقول تعالى لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجَّينا المؤمنين، وأهلكنا الكافرين ﴿عبرةٌ لأولي الألباب﴾ وهي العقول ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أنْ يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق ﴿و لكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي: من الكتب المنزّلة من السماء، هو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿و تفصيلَ كلِّ شيء﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى، بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿هدًى ورحمةً لقوم يؤْمنونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضّة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودَّة وجوههم بالصفقة الخاسرة.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾

١ - أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدَّم في أول سورة البقرة، وقدَّمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف، ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه، ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آياتُ الكتاب﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر! بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿و الَّذي أُنزلَ إليكَ﴾ أي: يا محمد ﴿من ربِّك الحقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿و الَّذي أنزل إليكَ من ربكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة، أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا.

و قوله: ﴿و لكن أكثر الناسِ لا يؤمنونَ﴾ كقوله: ﴿و ما أكثرُ الناسِ ولوْ حرصتَ بمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد والنفاق.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

٢ - يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره، رفعها عن الأرض، بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها، من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبُعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من بُعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ الذي خَلقَ سبْعَ سموات وَمِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية.

و قوله: ﴿بغيرِ عَمدٍ تَروْنَهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا تُرى، وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد. وكذا روي عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿و يُمسكُ السماءَ أن تَقعَ علَى الأرضِ إلا بإذْنِهِ﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترونْها﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

و قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

و قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾. وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة، قُبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأنَّ له قوائمَ وحملة يحملونه، ولا يُتصوَّر هذا في الفلك المستدير، هذا واضحٌ لمن تدبَّر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمدُ والمنة.

و ذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخَّر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مع أنه قد صرَّح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

و قوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: يُوضِّح الآيات والدلالات، الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

٣- لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرَع في ذِكر قدرته وحِكمته، وأحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقي ما جعل فيها من الثمرات، المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من كل شكلٍ صنفان ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان، كما يتصرف في المكان والسُّكَّان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.

٤- وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: أراضٍ يُجاور بعضُها بعضاً، مع أنَّ هذه طيِّبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد، ويدخل في هذه الآية: اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل

متجاورات، فهذه نصفها وهذه نصفها الآخر، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلاهو ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِن أعنابٍ وزرعٌ ونَخيلٌ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وَزَرعٌ ونَخيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

و قوله: ﴿صِنوانٌ وغَيرُ صِنوانٍ﴾ الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك؛ وغير الصنوان ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه».

و روى الثوري: عن البراء رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات. وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد.

و قوله: ﴿يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ونُفَضِّلُ بَعضَها عَلَى بعضٍ في الأُكُلِ﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَى بَعضٍ فِي الأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقل والفارسي والحلو والحامض» رواه الترمذي. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عَفص، وهذا عذب، وهذا جَمَع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوتَ بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقوم يعقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

٥- يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿وإنْ تعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه، ودلائله في خلقه، على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكوَّنها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذِّبون خبره: في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا، ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم ﴿أئذا كنَّا تُراباً أئنَّا لَفي خَلقٍ جديدٍ﴾ وقد علمَ كل عالم وعاقل، أنَّ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن مَنْ بدأ الخلق، فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى ﴿أولمْ يرَوا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ولمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادرٍ عَلَى أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾.

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أولئكَ الذينَ كفرُوا بربهم وأُولئكَ الأغلالُ في أعْناقِهِمْ﴾ أي: يُسحبون بها في النار ﴿وَأولَئكَ أصْحابُ النارِ همْ فيهَا خالدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ

عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾

٦- يقول تعالى: ﴿ويستعجلونك﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون* لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين* ما نُنزِّل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾ وقال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿سأل سائلٌ بعذاب واقع﴾ وقال: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ ﴿وقالوا ربنا عجِّل لنا قطَّنا﴾ الآية، أي: عقابنا وحسابنا، كما قال مخبراً عنهم ﴿وإذ قالوا اللهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله.

قال الله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المَثُلات﴾ أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عِبرةً وعظة لمن اتعظ بهم، ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه، لعاجلهم بالعقوبة، كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابَّة﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وإنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم﴾ أي: أنه تعالى ذو عفوٍ وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار.

ثم قرن هذا الحكم بأنه: شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فإن كذَّبوك فقل ربُّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين﴾ وقال: ﴿إنَّ ربَّك لسريعُ العقاب وإنَّه لغفورٌ رحيم﴾ وقال: ﴿نبِّئْ عبادي أني أنا الغفورُ الرحيم* وأنَّ عذابي هو العذابُ الأليم﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات، التي تجمع الرجاء والخوف.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾

٧- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم يقولون كفراً وعناداً: لو لا يأتينا بآيةٍ من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أنْ يجعل لهم الصَّفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأولون﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾.

وقوله: ﴿ولكلِّ قوم هادٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: لكلِّ قوم داعٍ، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد ﴿ولكلِّ قوم هادٍ﴾ أي: نبي، كقوله: ﴿وإن من أمةٍ إلاَّ خلا فيها نذير﴾ وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد، وقال أبو صالح ويحيى بن رافع ﴿ولكلِّ قوم هاد﴾ أي: قائد، وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل، وعن عكرمة والضحاك ﴿ولكل قوم هاد﴾ قالا: هو محمد ﷺ. وقال مالك: ﴿ولكلِّ قوم هاد﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾

٨- يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: **﴿ويَعلَمُ ما في الأرْحام﴾** أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: **﴿هو أعلمُ بكمْ إذْ أنشأكم من الأرضِ وإذْ أنتم أجنة﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿يَخلُقُكمْ في بطونِ أُمَّهاتِكمْ خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاثٍ﴾** أي: خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: **﴿ولقدْ خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ* ثمَّ جعلْناهُ نُطفةً في قرارٍ مكينٍ* ثمَّ خلقنا النُّطفةَ علقةً فخلقْنا العلقةَ مُضْغةً فخلَقْنا المُضْغةَ عِظاماً فكسونا العظامَ لحماً ثمَّ أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقِينَ﴾**.

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ خلقَ أحدِكمْ يُجْمعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يوماً، ثمَّ يكونُ علقةً مثل ذلك، ثم يكونُ مُضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات: بكَتْبِ رزقِهِ وعمرِه وعمله وشقي أو سعيد» وفي الحديث الآخر: «فيقول: «المَلَكُ»: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك».

وقوله: **﴿ومَا تَغيضُ الأرْحامُ ومَا تَزْدادُ﴾** روى البخاري: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ، لا يعلمهنَّ إلا الله، لا يَعلمُ ما في غدٍ إلاَّ الله، ولا يَعلمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يَعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعة إلا الله».

وقال العوفي عن ابن عباس **﴿ومَا تَغيضُ الأرْحامُ﴾** يعني: السقط **﴿وما تزدادُ﴾** يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت، حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاك عن ابن عباس نحوه.

وقال مجاهد **﴿ومَا تَغيضُ الأرْحامُ ومَا تَزْدادُ﴾** قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر، وبه قال عطية العوفي والحسن البصري وقتادة والضحاك، وقال مجاهد أيضاً: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة، زاد على التسعة مثل أيام الحيض، وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد؛ وقال مجاهد أيضاً **﴿ومَا تَغيضُ الأرْحامُ﴾** إراقة المرأة حتى يخسَّ الولد **﴿ومَا تَزْدادُ﴾** إنْ لم تهرق المرأة، تمَّ الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثمَّ لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه؛ فإذا قُطعتْ سرته حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنَّى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت، قلت: هوالموت أو القتل، أنَّى لي بالرزق؟! ثم قرأ مكحول: **﴿اللهُ يعلمُ ما تَحْملُ كلُّ أنثى﴾** الآية.

وقال قتادة **﴿وكلُّ شيءٍ عندهُ بِمقدارٍ﴾**: أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن

يحضره ، فبعث إليها يقول : «إنَّ لله ما أخَذَ وله ما أعطى ، وكلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى ؛ فَمُرْها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه .

و قوله : **﴿عَالِمُ الغيبِ والشَّهادةِ﴾** أي : يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء **﴿الكبيرُ﴾** الذي هو أكبر من كل شيء **﴿المُتعَالِ﴾** أي : على كل شيء **﴿قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً﴾** وقهر كل شيء ، فخضعت له الرقاب ، ودان له العباد ، طوعاً وكرهاً .

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾

١٠ - يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وإنه سواءٌ منهم من أسرَّ قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء ، كقوله : **﴿و إنْ تجهرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السرَّ وأخفى﴾** وقال : **﴿و يعلمُ ما تُخفُونَ وما تُعْلِنُونَ﴾** وقالت عائشة رضي الله عنها : سبحان الذي وَسِعَ سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في جنب البيت ، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها ، فأنزل الله **﴿قد سَمِعَ قولَ التي تجادِلكَ في زوجِها وتشتكي إلى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاوركمَا إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾** .

و قوله : **﴿و مَن هوَ مُسْتخفٍ بالليلِ﴾** أي : مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل **﴿و ساربٌ بالنَّهارِ﴾** أي : ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه ، فإنَّ كليهما في علم الله على السواء ، كقوله تعالى : **﴿ألا حينَ يستغْشُونَ ثيابَهُمْ﴾** الآية ، وقوله تعالى : **﴿و ما تكونُ في شأنٍ ومَا تَتْلُو منهُ مِن قُرآنٍ ولا تَعْمَلُونَ مِن عملٍ إلاَّ كنَّا عليكمْ شُهوداً إذ تُفيضُونَ فيهِ وما يعزُبُ عن ربِّكَ مِن مثقالِ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبرَ إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ﴾** .

١١ - وقوله : **﴿لهُ مُعقِّباتٌ مِن بينِ يديهِ ومن خلفِهِ يحفظُونه من أمرِ اللهِ﴾** أي : للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل وحرس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون ، لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكاتبان ، كما جاء في الصحيح : «يَتعاقبُون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذينَ باتُوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون» .

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : والمعقبات من أمر الله : هي الملائكة . وقال عكرمة عن ابن عباس **﴿يحفَظونَهُ مِنْ أمرِ اللهِ﴾** قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قَدَر الله خَلَّوا عنه . وقال مجاهد : ما من عبدٍ إلا له ملكٌ موكَّلٌ ، يحفظه في نومه ويقظته ، من الجنِّ والإنس والهوام ، فما منها شيءٌ

يأتيه يريده، إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيءٌ أذِنَ الله فيه فيصيبه.

و روى الثوري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿له مُعقِّباتٌ من بين يديْهِ ومِن خلفِهِ﴾ قال: ذلك ملِكٌ من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس، وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء المواكب من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحاك: هو السلطان المحروس من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا، أنَّ حرس الملائكة للعبد، يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم، وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟! قال: «و إياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير» انفرد بإخراجه مسلم.

و قوله: ﴿يحفظونهُ من أمرِ اللهِ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم. وقال قتادة: وفي بعض القراءات (يحفظونه بأمر الله)، وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإنَّ ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إنَّ مع كلِّ رجلٍ ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدرُ خليا بينه وبينه، وإنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينةٌ. وقال بعضهم ﴿يحفَظونهُ من أمرِ اللهِ﴾ بأمر الله.

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾

١٢ - يخبر تعالى أنَّه هو الذي يسخِّر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع، ساطعاً من خلل السحاب. وقوله: ﴿خوفاً وطمعاً﴾ قال قتادة: خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم، يرجو بركته، ويطمع في رزق الله ﴿و يُنشئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: ﴿السحاب الثقال﴾ الذي فيه الماء.

١٣ - قال: ﴿و يُسبِّحُ الرَّعدُ بحَمدِهِ﴾ كقوله: ﴿و إن مِّن شيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحمدِهِ﴾.

روى الإمام أحمد: عن شيخ من بني غفار: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله يُنشئُ السَّحابَ، فينطقُ أحسنَ النُّطق، ويضحكُ أحسنَ الضحك». والمراد ـ والله أعلم ـ أنَّ نطقها الرعد وضحكها البرق.

و روى عن علي رضي الله عنه: أنه كان إذا سَمِعَ صوت الرعد، يقول: سبحانَ مَن سبَّحتْ لهُ[1]. و كذا روي عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد أنهم كانوا يقولون كذلك، وقال الأوزاعي كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم تصبه الصاعقة. وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. ويقول: إن هذا لوعيدٌ شديد لأهل الأرض. رواه مالك في موطئه والبخاري في كتاب الأدب.

و قوله تعالى: ﴿وَ يُرْسلُ الصَّواعِقَ فيُصيبُ بها مَن يشاءُ﴾ أي: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا

---

(١) رواه عنه ابن جرير (١٦/ ٣٨٩) و سنده ضعيف جداً، لكنه حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تكثر في آخر الزمان، كما روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تكثُرُ الصواعقُ عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم، فيقول: مَنْ صُعق قبلكمْ الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

و قد روى في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «أذهبْ فادعه لي» قال: فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: مَنْ رسول الله ﷺ؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: «ارجع إليه الثانية» أُراه فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال: «ارجعْ إليه فادعه»، فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه، إذْ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدتْ فوقعتْ منها صاعقة فذهبتْ بقحف رأسه، فأنزل الله عز وجل: **﴿و يُرسلُ الصَّواعِقَ﴾** الآية، ورواه ابن جرير والحافظ أبوبكر البزار عن أنس نحوه.

و قوله: **﴿و همْ يجادِلونَ في الله﴾** أي: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو **﴿وَهوَ شديدُ المِحالِ﴾** قال ابن جرير: شديدة مُماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: **﴿ومكرُوا مكراً ومكرنا مكراً وهمْ لا يشعُرونَ* فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ مكرهمْ أنَّا دمَّرناهمْ وقومهمْ أجمعينَ﴾** وعن علي رضي الله عنه **﴿وهوَ شديدُ المحالِ﴾** أي: شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) ﴾

١٤- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **﴿له دعوةُ الحق﴾** قال: التوحيد، رواه ابن جرير، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر **﴿لهُ دعوةُ الحق﴾** لا إله إلا الله **﴿و الذينَ يدعونَ من دونه﴾** الآية، أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله **﴿كباسط كفيه إلى الماءِ ليبلغَ فاهُ﴾** قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد **﴿كباسطِ كفيه﴾** يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه، فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء.

كما قال الشاعر:

فإني وإياكم وشوقاً إليكم كقابض ماء لمْ تسقه أنامله

و معنى الكلام: أن الذي يبسط يده إلى الماء، إمَّا قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً، في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: **﴿و ما دُعاءُ الكافرينَ إلا في ضلالٍ﴾**.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾

١٥- يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل

شيء، طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين **﴿و ظلالُهم بالغدُوِّ﴾** أي: البُكْرات **﴿و الآصَالِ﴾** وهو جمع أصيل، وهو: آخر النهار، كقوله تعالى: **﴿أولمْ يَرَوْا إلى ما خلقَ اللهُ مِن شيءٍ يتفيؤُ ظلالُهُ﴾** الآية.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾

١٦ - يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا نفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي: لا تحصل لهم منفعة، ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي مَنْ عَبَدَ هذه الآلهة مع الله، ومَن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟

و لهذا قال: **﴿قُلْ هلْ يستوِي الأعمى والبَصِيرُ أمْ هلْ تَستوِي الظُّلُماتُ والنورُ أم جَعلُوا للهِ شُركاءَ خَلقُوا كخَلقِهِ فتشابهَ الخلقُ عليهِمْ﴾** أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب، وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له، ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة **﴿تعالَى اللهُ عن ذلكَ علواً كبيراً﴾**، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة، هم معترفون أنها مخلوقةٌ له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبَّيكَ لا شريكَ لكَ، إلاَّ شريكاً هوَ لكَ، تملكهُ وما ملكَ. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: **﴿ما نَعبُدهمْ إلاَّ ليُقرِّبُونَا إلى اللهِ زُلفَى﴾** فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه **﴿و لا تَنفعُ الشفاعةُ عِندَهُ إلا لمنْ أذنَ له﴾** **﴿و كمْ من ملكٍ في السَّمواتِ والأرضِ﴾** الآية، وقال: **﴿إنْ كلُّ مَن في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عَبْداً * لَقدْ أحصاهُمْ وعدَّهمْ عداً * وكلُّهمْ آتيهِ يومَ القيامةِ فرداً﴾**.

فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة **﴿و لا يَظلِمُ ربُّكَ أحداً﴾**.

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾

١٧ - اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين، مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: **﴿أنزلَ مِن السماءِ ماءً﴾** أي: مطراً **﴿فسالتْ أودِيةٌ بقَدرِها﴾** أي: أخذ كل واحد بحسبه، فهذا كبيرٌ وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها **﴿فاحتَملَ السَّيلُ زبداً رابياً﴾** أي: فجاء على وجه

الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عال عليه، هذا مَثَل، وقوله: ﴿و مما يُوقدونَ عليه في النارِ ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسبكُ في النار، من ذهب أوفضة، ﴿ابتغاءَ حليةٍ﴾ أي: لِيُجعل حلية، أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ﴾ أي: إذا اجتمعا، لا ثباتَ للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً﴾ أي: لا يُنتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿و أمَّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿و تلكَ الأمثالُ نَضْربُها للناسِ وما يعقِلُها إلاَّ العالِمونَ﴾ وقال بعضُ السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿و ما يَعقِلُها إلاَّ العالِمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أنزلَ من السماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدَرِها﴾ الآية: هذا مثلٌ ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فأما الزَّبدُ﴾ وهو الشك ﴿فيذهبُ جفاءً وأما ما ينفَعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار، فيؤخذ خالصه ويُترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين، ويترك الشك.

و قال العوفي عن ابن عباس، قوله: ﴿أنزلَ من السماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدَرِها فاحتملَ السيْلُ زَبَداً رَّابياً﴾: احتمل السيل ما في الوادي من عودٍ ودمنة ﴿و مِمَّا يُوقدونَ عَليهِ في النارِ﴾ فهو الذهب والفضة، والحلية والمتاع، والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق.

و هكذا روى في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثلُهمْ كمَثلِ الَّذي استَوْقَدَ ناراً فلمَّا أضاءتْ ما حَولهُ﴾ الآية، ثم قال: ﴿أوْ كصيِّبٍ مِّنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وبَرقٌ﴾ الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين: أحدهما: قوله: ﴿و الذينَ كَفرُوا أعمالُهمْ كسَرابٍ﴾ الآية، والسَّراب إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فأسقنا، فيقال: ألا تَردون؟ فيردون النار، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً».

ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أوْ كَظُلُماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ﴾ الآية، وفي الصحيحين: عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مثلَ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصابَ أرضاً، فكان منها طائفةٌ قبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشَربوا ورعوا وسَقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تُمسكُ ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه الله بما بعثني ونفعَ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»، فهذا مثل مائي.

و قال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثَلي ومَثَلكم كمثل رجلٍ استوْقدَ ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جَعلَ الفَراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها» قال: «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذٌ بحُجَزكم عن النار، هلمَّ عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها» وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾

١٨ - يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: **﴿للذينَ استجابُوا لربِّهمْ﴾** أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم **﴿الحسنى﴾** وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال **﴿أما منْ ظلمَ فسوفَ نُعذِّبه ثم يُردُّ إلى ربِّه فيُعذِّبُه عذاباً نُكراً* وأمَّا منْ آمنَ وَعملَ صالحاً فلهُ جزاءً الحُسْنَى وسَنَقُولُ لهُ مِنْ أمرنَا يُسْراً﴾** وقال تعالى: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾**.

وقوله: **﴿و الذينَ لمْ يستَجيبُوا لهُ﴾** أي: لم يطيعوا الله **﴿لوْ أنَّ لهمْ ما في الأرضِ جميعاً﴾** أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً **﴿أولئكَ لهمْ سوءُ الحِسابِ﴾** أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذِّب، ولهذا قال: **﴿ومأْواهم جهنَّم وبئسَ المهادُ﴾**.

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾

١٩ -يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي **﴿أُنزل إليكَ﴾** يا محمد **﴿من ربك﴾** هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حقٌّ يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: **﴿و تمتْ كلمةُ ربِّكَ صِدقاً وعدلاً﴾** أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب.

فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلي خير لا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولااتبعه، كقوله تعالى: **﴿لاَ يستوي أصْحابُ النَّارِ وَ أصْحابُ الْجَنَّة أصحابُ الْجَنَّةُ هُمُ الفائِزونَ﴾** وقال في هذه الآية الكريمة **﴿أفمنْ يعلمُ أنما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ الحق كمنْ هوَ أعْمى﴾** أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء، وقوله: **﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾** أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل، أولو العقول السليمة

الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾

٢٠ - يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة ، بأن لهم **﴿عُقْبَى الدَّار﴾** وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة **﴿الذينَ يوفونَ بِعَهْدِ اللهِ ولاَ يَنقُضونَ المِيثاقَ﴾** وليسوا كالمنافقينَ الذينَ إذا عاهدَ أحدُهمْ غدر ، وإذا خاصمَ فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان .

٢١ - **﴿و الذينَ يصِلُونَ مـا أمرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ﴾** من صلة الأرحام والإحسان إليهم ، وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف **﴿و يَخْشونَ ربَّهمْ﴾** أي : فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله في ذلك ، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة ، في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

٢٢ - **﴿و الذينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ ربِّهمْ﴾** أي : عن المحارم والمآثم ، ففطموا أنفسهم عنها لله عزوجل ، ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه **﴿و أقَامُوا الصلاةَ﴾** بحدودها ومواقيتها ، وركوعها وسجودها وخشوعها ، على الوجه الشرعي المرضي **﴿و أنفقُوا ممـا رزَقْناهمْ﴾** أي : على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين **﴿سراً وعلانية﴾** أي : في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، آناء الليل وأطراف النهار **﴿و يدْرَءون بالحسنة السيئة﴾** أي : في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار **﴿ويدْرَءون بالحسنة السيئة﴾** أي : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً ، وصفحاً وعفواً ، كقوله تعالى : **﴿ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنهُ وليٌّ حميمٌ ۞ وما يُلقَّاها إلاَّ الذينَ صبرُوا وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيمٍ﴾** ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء ، المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة ، بأن لهم عقبى الدار .

٢٣ - ثم فسر ذلك بقوله : **﴿جنَّات عدن﴾** والعدن الإقامة ، أي : جنات إقامة يخلدون فيها . وقال الضحاك في قوله : **﴿جنات عدن﴾** مدينة الجنة ، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها ، رواه ابن جرير . وقوله : **﴿و منْ صلحَ من آبائهم وأزواجهمْ وذرياتهمْ﴾** أي : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها ، من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقرّ أعينهم بهم ، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، امتناناً من الله وإحساناً ، من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى : **﴿و الذينَ آمنُوا واتبعتْهمْ ذريتُهمْ بإيمانٍ ألحقْنا بهمْ ذريتهمْ﴾** الآية .

و قوله : **﴿والملائكة يدخلُونَ عليهم من كلِّ بابٍ ۞ سلامٌ عليكمْ بما صبَرتمْ فنعمَ عُقْبَى الدَّار﴾** أي :

وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا، للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها ، تفد عليهم الملائكة مُسَلِّمينَ مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

و روى الإمام أحمد رحمه الله : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هل تدرونَ أولَ من يدخُلُ الجنة مِنْ خَلْقِ الله ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «أولُ منْ يدخلُ الجنة مِن خَلْقِ الله الفقراءُ المهاجرون ، الذين تُسدُّ بهم الثُّغُورُ ، وتُتَّقى بهم المكارهُ ، ويمُوتُ أحدُهمْ وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخِيرتك مِن خَلْقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول : إنهم كانُوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتُسدُّ بهم الثغورُ ، وتتقى بهم المكاره ، ويموتُ أحدُهم وحاجته في صدره ، لا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب **﴿سلامٌ عليكمْ بما صبرتمْ فنعمَ عُقْبَى الدارِ﴾**» ، ورواه أبو القاسم الطبراني .

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾

٢٥- هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر مآلهم في الآخرة ، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، و هؤلاء **﴿ينقضُونَ عهدَ اللهِ مِن بَعدِ مِيثاقِهِ ويقْطعُونَ ما أمرَ اللهُ به أن يُوصلَ ويفسدونَ في الأرضِ﴾** ، كما ثبت في الحديث : «آيةُ المنافقِ ثلاث : إذا حدَّثَ كذب ، وإذا وَعَدَ أخلف ، وإذا اؤْتُمنَ خانَ» . وفي رواية : «و إذا عاهَدَ غدرَ ، وإذا خاصمَ فجرَ» .

و لهذا قال : **﴿أولئكَ لهمُ اللعنةُ﴾** وهي : الإبعادُ عن الرحمة **﴿و لهمْ سوءُ الدارِ﴾** وهي : سوءُ العاقبة والمآل **﴿و مأواهمْ جهنم وبئسَ المهادُ﴾** .

و قال أبو العالية في قوله تعالى : **﴿و الذينَ ينقضُونَ عهدَ اللهِ﴾** الآية ، قال : هي ست خصال في المنافقين ، إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفُوا ، وإذا ائتمنوا خانُوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم ، أظهروا الثلاث خصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ﴾

٢٦- يذكر تعالى أنه هو الذي يُوسِّعُ الرزق على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا ، استدراجاً لهمْ وإمهالاً ، كما قال : **﴿أيحْسَبُونَ أنما نُمِدُّهمْ به منْ مالٍ وبنينَ ۞ نُسارعُ لهمْ في الخيراتِ بل لا يَشعُرونَ﴾** . ثم حقَّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما

ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: **﴿و ما الحياةُ الدُّنيا في الآخرة إلا متاع﴾** كما قال: **﴿قُل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتقى ولا تُظلَمُونَ فتيلاً﴾**، وقال: **﴿بل تؤثرونَ الحياةَ الدُّنيا ❁ والآخرة خيرٌ وأبقَى﴾**.

و روى الإمام أحمد: عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعلُ أحدُكم أصبعهُ هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة، رواه مسلم في صحيحه.

و في الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مرَّ بجدي أسك ميت - والأسك الصغير الأذنين - فقال: «و الله، للدنيا أهونُ على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[(١)].

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾

٢٧- يخبر تعالى عن قيل المشركين **﴿لَوْ لا﴾** أي: هلاَّ **﴿أُنزِلَ عَليهِ آيةٌ من ربِّه﴾** كقولهم **﴿فليأتنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولون﴾** وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يُحوِّل لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: «إنْ شئتَ يا محمد أعطيتهم ذلك، فإنْ كفروا أعذِّبهمْ عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإنْ شئتَ فتحتُ عليهم باب التوبة والرحمة» فقال: «بل تفتحُ لهم باب التوبة والرحمة»[(٢)].

و لهذا قال لرسوله: **﴿قُلْ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ ويهدِي إليهِ مَنْ أنابَ﴾** أي: هو المضل والهادي، سواء بَعَثَ الرسل بآية على وفق ما اقترحوا، أولم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: **﴿و مَا تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَن قوم لا يُؤمنونَ﴾**، وقال: **﴿إن الذينَ حقتْ عليهم كلمةُ ربِّكَ لا يؤمنون ❁ ولو جاءتهم كل آيةٍ حتى يروُا العذابَ الأليم﴾**، وقال: **﴿و لوْ أنَّنا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبلاً ما كانوا ليُؤمنوا إلا أن يشاء اللهُ ولكنَّ أكثرَهم يجهلُون﴾**. ولهذا قال: **﴿قُل إنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي إليه منْ أنابَ﴾** أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به وتضرع لديه.

٢٨- **﴿الذينَ آمنُوا وتطمئنُّ قُلُوبُهمْ بذِكرِ اللهِ﴾** أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: **﴿ألا بذِكرِ اللهِ تطمئنُّ القُلوبُ﴾** أي: هو حقيق بذلك.

٢٩- وقوله: **﴿الذين آمنُوا وعملُوا الصالحات طُوبَى لهمْ وحُسنَ مآب﴾** قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فرحٌ وقرة عين. وقال عكرمة: نِعْمَ مالهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: **﴿طُوبَى لَهُمْ﴾**: حسنى لهم. **﴿و حُسْنَ مآب﴾** أي: مرجع. وهذه الأقوال شيءٌ واحد، لا منافاة بينها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس **﴿طُوبَى لَهُمْ﴾** قال: هي أرض الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة

(١) رواه مسلم أيضاً في الزهد (٤/ ٢٢٧٢) بنحوه، و قد ساقه المصنف هنا مختصراً.
(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٤٢) بنحوه.

بالهندية. وكذا روى السدي عن عكرمة ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: الجنة. وبه قال مجاهد.

و روى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وهكذا رُوي عن أبي هريرة وابن عباس ومغيث بن سليمان وأبي إسحاق السبيعي، وغير واحد من السلف، أن طوبى: شجرة في الجنة، في كل دار منها غصن منها. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: «طُوبى لمن رآني وآمن بي، وطُوبى ثم طوبى ثم طوبى، لمن آمن بي ولم يرني» قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرةٌ في الجنة، مسيرتها مائة عام، ثيابُ أهلِ الجنة تخرجُ من أكْمامها».

و روى البخاري ومسلم جميعاً: عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرةً، يسير الراكبُ في ظلِّها مائة عام لا يقطعها». قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرة، يسيرُ الراكبُ الجوادَ المضمَّر السريعَ، مائة عام ما يقطعها».

و في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿و ظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ قال: «في الجنَّة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائةَ عام، لا يقطعها».

و في صحيح مسلم: عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ: عن الله عز وجل: «يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر» الحديث بطوله.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾

٣٠- يقول تعالى، وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتتلُو عليهم الذي أوْحينَا إليكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّبَ الرُّسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإنَّ تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تالله لقدْ أرسلْنا إلَى أُمم من قبلكَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿و لقدْ كُذِّبتْ رُسلٌ من قبلكَ فصبروا علَى ما كُذِّبُوا وأوذُوا حتَّى أتاهُمْ نَصْرُنَا ولا مُبدِّل لكلمات الله ولقدْ جاءكَ من نبإ المرسلين﴾ أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

و قوله: ﴿وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله: بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري مالرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: ﴿قل ادْعُوا اللهَ أوِ ادعُوا الرَّحمنَ أيّاً مَّا تَدعوا فله الأسماء الحسنى﴾. وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله وعبد الرحمن».

﴿قلْ هوَ ربِّي لا إله إلا هوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترفٌ ومقر له بالربوبية

والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكّلتُ﴾ أي: في جميعِ أموري ﴿و إليه مَتاب﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحدٌ سواه.

﴿ ولَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾

٣١- يقول تعالى مادحاً للقرآن، الذي أنزله على محمدﷺ، مفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ولوْ أنَّ قرآناً سيِّرتْ به الجبالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية، كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، مع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل.

و قد يُطلق اسم «القرآن» على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتقٌ من الجمع. روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «خُفِّفَ على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أنْ تُسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عملِ يديه» انفرد بإخراجه البخاري، والمراد بالقرآن هو: الزبور.

و قوله: ﴿أفلمْ ييأسِ الذينَ آمنُوا﴾ أي: من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لَّوْ يشاءُ اللهُ لهدَى الناسَ جميعاً﴾ فإنه ليس ثمَّ حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلا وقدْ أُوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة». معناه: أن معجزة كل نبيٍّ انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصَمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله. وقال قتادة: لو فُعل هذا بقرآن غير قرآنكم، لفعل بقرآنكم.

و قوله: ﴿بل لله الأمرُ جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي: لا يصنع من ذلك إلا ماشاء، ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله ﴿أفلمْ ييأسِ الذينَ آمنُوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنُوا، وقرأ آخرون ﴿أفلمْ يتبيَّن الذين آمنُوا أن لو يشاء اللهُ لهدى الناسَ جميعاً﴾.

و قال أبو العالية: قد يئس الذين آمنُوا أن يهْدُوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

و قوله: ﴿و لا يزالُ الذينَ كفروُا تُصيبُهم بما صنَعُوا قارعةٌ أو تحلُّ قريباً من دارهمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهمْ، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تُصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿و لقدْ أهْلَكْنا مَا حوْلَكم مِّنَ القُرَى وَ صَرَّفْنَا الآياتِ لَعلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾، وقال: ﴿أفلمْ يرَوا أنَّا نأتي الأرضَ ننقُصُها مِنْ

أطْرَافِهَا أفَهُمُ الغالبُونَ﴾ .

قال قتادة عن الحسن **﴿أو تحلُّ قريباً من دارهمْ﴾** أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق، وروى أبو داود الطيالسي: سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: **﴿و لا يزالُ الذينَ كفرُوا تُصيبُهمْ بما صنَعُوا قارعة﴾** قال: سرية **﴿أو تحلُّ قريباً من دارهمْ﴾** قال: محمد ﷺ **﴿حتَّى يأتي وعدُ الله﴾** قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في رواية، وقال العوفي عن ابن عباس **﴿تصيبُهمْ بما صنَعُوا قارعةٌ﴾** قال: عذاب من السماء ينزل عليهم **﴿أو تَحلُّ قريباً من دارهمْ﴾** يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم، وقتاله إياهمْ. وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس **﴿قارعة﴾** أي: نكبة. وكلُّهم قال: **﴿حتى يأتيَ وعدُ الله﴾** فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة.

و قوله: **﴿إنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد﴾** أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصر لهم، ولأتباعهم في الدنيا والآخرة **﴿فلا تحسبنَّ الله مُخلفَ وعدِهِ رُسُلَه إنَّ اللهَ عزيزٌ ذُو انتقام﴾** .

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

٣٢- يقول تعالى مسلياً لرسوله في تكذيب من كذبه من قومه **﴿و لقد استُهزئَ برُسُلٍ من قبلِكَ﴾** أي: فلك فيهم أسوة **﴿فأمليتُ للذينَ كفرُوا﴾** أي: أنظرتهم وأجّلتهم **﴿ثم أخذتُهمْ﴾** أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم، وأمليت لهم، كما قال تعالى: **﴿و كأيِّن من قريةٍ أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتها وَإليَّ المصير﴾** .

و في الصحيحين: «إنَّ اللهَ ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿و كذلكَ أخْذُ ربِّكَ إذا أخذ القُرى وهي ظالمةٌ إن أخذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾** .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾

٣٣- يقول تعالى: **﴿أفمن هوَ قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بمل كسبتْ﴾** أي: حفيظ عليم رقيب، على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية **﴿و ما تكونُ في شأنٍ وما تتلُو منه من قرآنٍ ولا تعملُونَ من عملٍ إلا كُنَّا عليكمْ شُهوداً إذ تُفيضونَ فيه﴾** وقال تعالى: **﴿و ما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُها﴾** وقال: **﴿و ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلا علَى الله رزقُها ويعلمُ مُستقرَّها ومُستودَعها كلٌّ في كتابٍ مُبينٍ﴾** وقال: **﴿سواءٌ منكمْ من أسرَّ القولَ ومن جهرَ به ومن هوَ مُستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهار﴾** وقال: **﴿يعلم السر وأخفى﴾** وقال: **﴿و هوَ معكمْ أينمَا كُنتمْ واللهُ بما تعْلمُونَ بصيرٌ﴾** .

أفمن هو كذلك، كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: **﴿و جعلُوا للهِ شُركاء﴾** أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قل سمُّوهمْ﴾ أي: أعلِمُونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ولهذا قال: ﴿أمْ تُنبِّئُونه بما لاَ يعلمُ في الأرض﴾ أي: لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية. ﴿أم بظاهرٍ من القول﴾ قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة ﴿إنْ هيَ إلاّ أسماء سميتمُوها أنتمْ وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعُون إلاّ الظنّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

﴿بَلْ زُيِّنَ للذِينَ كَفرُوا مَكرُهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم أي: ما هم عليه من الضلال، والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿و قيضنا لهمْ قُرناءَ فزينُوا لهمْ﴾ الآية.

﴿و صَدُّوا عَن السَّبيل﴾ من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنه لما زيَّن لهم ما هم فيه، وأنه حقٌّ دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم، أي: بما زيَّن لهم من صحة ماهم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿و من يُضلل اللهُ فما له من هاد﴾ كما قال: ﴿و من يُرد الله فتنته فلن تملكَ لهُ من الله شيئاً﴾ وقال: ﴿إن تحرصْ على هُداهمْ فإنَّ الله لا يَهْدي من يُضلُّ وما لهمْ من ناصرين﴾.

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾

٣٤- ذكر تعالى عقابَ الكفار، وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين، وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لهمْ عذابٌ في الحياة الدُّنيا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿و لعذابُ الآخرة﴾ أي: المدخر، مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أشقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إنَّ عذابَ الدنيا أهون من عذاب الآخرة» وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه فإنَّ عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً، في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فيومئذٍ لا يعذبُ عذابهُ أحدٌ* ولا يُوثِقُ وثاقَهُ أحدٌ﴾ وقال تعالى: ﴿و أعتدنا لمن كذَّبَ بالساعةِ سعيراً* إذا رأتهمْ من مكانٍ بعيدٍ سمعُوا لها تغيُّظاً وزفيراً* وإذا أُلقُوا منها مكاناً ضيقّاً مُقرَّنينَ دعوا هنالكَ ثُبوراً* لا تدْعُوا اليومَ ثُبُوراً واحداً وادْعُوا ثُبُوراً كثيراً* قُل أذلكَ خيرٌ أمْ جنَّةُ الخُلدِ التي وُعد المتَّقونَ كانتْ لهمْ جزاءً ومصيراً﴾ ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مثلُ الجنَّةِ التي وُعدَ المتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها ﴿تجري مِن تَحْتِها الأنهارُ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاءوا، أين شاءوا، كقوله: ﴿مَثَلُ الجنَّةِ التي وُعدَ المتقونَ فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشاربينَ وأنهارٌ من عسلٍ مصفًى ولهمْ فيها من كلِّ الثمرات ومغفرةٌ﴾ الآية.

و قوله: ﴿أُكُلُهَا دائمٌ وظِلُّها﴾ أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولتَ شيئاً في مقامك هذا، رأيناك تكعكعت، فقال: «إنِّي رأيتُ الجنة ـ أوْ أُريتُ الجنة ـ فتناولت منها عُنقُوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

و عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكلُ أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جُشاء كريح المسك، ويُلهَمُونَ التسبيح والتقديس، كما يُلهمونَ النَّفس» رواه مسلم. وروى الإمام أحمد والنسائي: من حديث زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، تزعم أنَّ أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده، إنَّ الرجلَ منهم، ليُعْطى قوة مائة رجلٍ في الأكلِ والشرب والجماع والشهوة، قال: إن الذي يأكل ويشرب، تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رَشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك، فيضمر بطنه».

و قد قال الله تعالى: **﴿و فاكهةٍ كثيرةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ﴾** وقال: **﴿و دانيةً عليهمْ ظلالها وذُلِّلَتْ قُطوفُها تذليلاً﴾** وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: **﴿و الذينَ آمنُوا وعملُوا الصالحات سنُدْخِلُهمْ جناتٍ تجري من تَحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً لهمْ فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ ونُدْخِلُهمْ ظلاً ظَليلاً﴾**.

و قد تقدم في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرة يسير الراكب المُجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ **﴿و ظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾**.

و كثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة، ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: **﴿تلكَ عُقْبى الذينَ اتقوْا وعُقْبَى الكافِرينَ النار﴾** كما قال تعالى: **﴿لا يَسْتوي أصْحابُ النارِ وأصْحابُ الجنةِ أصْحابُ الجنةِ هُمُ الفَائزُونَ﴾**.

و قال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله: هل جاءكم مخبرٌ يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تقبل منكم، أو أن شيئاً من خطاكم غفرت لكم؟ **﴿أفحسبتمْ أنما خلقْناكمْ عبثاً وأنكمْ إلينا لا تُرْجعونَ﴾** والله لو عَجَّل لكم الثواب في الدنيا، لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أوَ ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة **﴿أُكُلُها دائمٌ﴾** رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾

٣٦- يقول تعالى: **﴿و الذينَ آتيناهم الكتابَ﴾** وهم قائمون بمقتضاه **﴿يفرحونَ بما أُنزلَ إليكَ﴾** أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة به، كما قال تعالى: **﴿الذينَ آتيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونهُ حقَّ تلاوتهِ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿قُلْ آمِنُوا به أو لا تُؤْمِنُوا ـ إلى قوله ـ إن كانَ وَعْدُ ربِّنا لمفعُولاً﴾** أي: إنْ كان ما وعدنا الله به في كتبنا، من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً، مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده **﴿و يخرُّون للأذقانِ يبْكُونَ ويزيدُهمْ خُشُوعاً﴾**.

و قوله: **﴿و مِن الأحزابِ من يُنكرُ بعضَهُ﴾** أي: ومن الطوائف مَن يُكذِّبُ ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد **﴿و من الأحزاب﴾** أي: اليهود والنصارى **﴿من يُنكرُ بعضه﴾** أي: بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: **﴿و إن من أهلِ الكتابِ لمن يؤمن باللهِ﴾** الآية **﴿قُلْ**

إنَّما أُمرتُ أن أعبدَ اللهَ ولا أُشركَ به أي: إنما بُعثتُ بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي **إليه أدْعُو** أي: إلى سبيله أدعو الناس **و إليه مآب** أي: مرجعي ومصيري.

٣٧- وقوله: **﴿و كذلكَ أنزلناهُ حُكماً عربياً﴾** أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به وفضلناك على من سواك، بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي **﴿لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديهِ ولا مِن خلفِه تنزيلٌ من حكيم حميد﴾**. وقوله: **﴿و لئن اتبعتَ أهواءهمْ﴾** أي: آراءهم **﴿بعدَ ما جاءَك من العلم﴾** أي: من الله سبحانه وتعالى: **﴿مالكَ من الله من وليٍّ ولا واقٍ﴾**. وهذا وعيد لأهل العلم، أنْ يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه، من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾

٣٨- يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم **﴿و جعلْنا لهم أزواجاً وذرية﴾** وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم **﴿قل إنَّما أنا بشرٌ مثلُكمْ يوحَى إليَّ﴾**. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصومُ وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمنْ رَغبَ عن سنتي فليس منِّي».

و قوله: **﴿و ما كانَ لِرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ﴾** أي: لم يكن يأتي بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد **﴿لكلِّ أجلٍ كِتاب﴾** أي: لكل مدَّة مضروبة كتاب مكتوبٌ بها، وكل شيء عنده بمقدار **﴿ألم تعلمْ أنَّ اللهَ يعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ إنَّ ذلكَ في كتابٍ إنَّ ذلكَ علَى اللهِ يَسير﴾**. وكان الضحاك ابن مزاحم يقول في قوله: **﴿لكلِّ أجلٍ كتابٌ﴾** أي: لكل كتاب أجل، يعني: لكلِّ كتابٍ أنزله من السماء، مدّة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا **﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ﴾** منها **﴿ويُثبتُ﴾** يعني: حتى نُسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسول صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: **﴿يمحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾** اختلف المفسرون في ذلك، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يدبر أمر السَّنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، و الحياة والموت، وفي رواية: **﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾** قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما، وقال مجاهد **﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾** إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

و قال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم إنْ كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإنْ كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء، فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: **﴿إنا أنزلناهُ في ليلةٍ مُباركةٍ﴾** الآيتين، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة، من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يغير. وقال الأعمش عن أبي وائل شقيق ابن سلمة: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إنْ كنتَ كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء، وإنْ كنتَ كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، رواه ابن جرير.

و روي أيضاً: عن أبي عثمان النهدي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم إنْ كنتَ كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

و عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يُستأنس لهذا القول: بما رواه الإمام أحمد: عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليُحرم الرزق بالذَّنب يُصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» ورواه النسائي وابن ماجه.

و ثبت في الصحيح: أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إنَّ الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض»[1]. وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتابٌ يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. و روي عن سعيد بن جبير: أنها بمعنى ﴿يَغفِرُ لِمن يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ واللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿و عندهُ أُمُّ الكتابِ﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب. وقال قتادة في قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ كقوله: ﴿مَا نَنسخْ مِن آيةٍ أو نُنسِهَا﴾ الآية، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ قال: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿و مَا كانَ لِرَسولٍ أنْ يأتِيَ بآيةٍ إلاَّ بإذْنِ اللهِ﴾ ما نرى محمداً يملكُ شيئاً، وقدْ فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهمْ، إنا إنْ شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونُحدث في كُلِّ رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، من أرزاق الناس ومصائبهمْ، وما يُعْطيهمْ وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ قال: من جاء أجله يذهب، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

و قوله: ﴿و عِندَهُ أُمُّ الكتابِ﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي: جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين؛ وقال ابن جرير: عن ابن عباس ﴿وعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾ قال: الذكر.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

٤٠- يقول تعالى لرسوله: ﴿و إمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد، بعضَ الذي نعد أعداءك، من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أوْ نتوفَّيَنَّكَ﴾ أي: قبل ذلك ﴿فإنَّما عليكَ البلاغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به ﴿و علينَا الحِسابُ﴾ أي: حسابهمْ وجزاؤهمْ، كقوله تعالى: ﴿فذكر إنَّما أنتَ مُذكِّرٌ* لَستَ عليهم بِمُسيطِرٍ* إلاَّ مَن تَولَّى وكَفرَ* فيُعَذِّبُه اللهُ العَذابَ الأكبرَ* إنَّ إلينَا إيَابهمْ* ثُمَّ إنَّ علينَا حِسَابَهمْ﴾.

٤١- وقوله: ﴿أولمْ يرَوْا أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُهـا مِن أطرافِها﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال في رواية: أولم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران في ناحية. وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقُصهَا مِنْ أطْرافِها﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣٣) و الحاكم (١/ ٤٩٢) و غيرهما. و يعتجلان: أي: يتصارَعان (نهاية).

على المشركين، وقال العوفي عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض، وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُّك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص، لم تجد مكاناً تقعد فيه، ولكن هو الموت. وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها، وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء.

و القول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك، قرية بعد قرية، كقوله: **﴿و لقدْ أهْلكْنَا ما حَوْلكمْ مِن القُرى﴾** الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) ﴾

٤٢- يقول تعالى: **﴿و قَدْ مَكَرَ الذينَ مِن قَبْلهِمْ﴾** برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: **﴿و إذْ يَمكرُ بكَ الذينَ كفرُوا لِيُثْبتُوكَ أوْ يَقْتُلوكَ أوْ يُخرِجوكَ ويَمكرُونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ المَاكِرِينَ﴾**، وقوله تعالى: **﴿و مَكرُوا مَكْراً ومَكَرْنَا مكراً وهمْ لا يَشْعُرونَ * فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مَكْرِهمْ أنَّا دمَّرْنَاهمْ وقومَهمْ أجمعِينَ * فتِلْكَ بيُوتُهمْ خاوية بِما ظَلَمُوا﴾** الآيتين.

و قوله: **﴿يَعْلَمُ ما تكسِبُ كلُّ نَفْسٍ﴾** أي: أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزى كل عامل بعمله **﴿وسيعلمُ الكافر﴾** والقراءة الأخرى: الكفار **﴿لمنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾** لمن تكونُ الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾

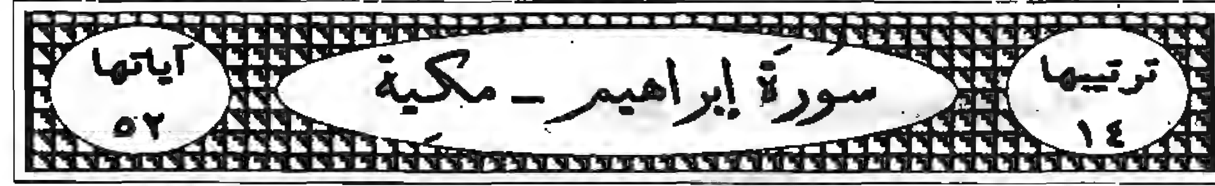
٤٣- يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار، ويقولون **﴿لستَ مُرسَلاً﴾** أي: ما أرسلك الله **﴿قُلْ كفَى باللهِ شهيداً بيني وبينكمْ﴾** أي: حسبي الله، هو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

و قوله: **﴿و مَن عِندهُ عِلمُ الكِتابِ﴾** قيل: نزلت في عبد الله بن سلام. قاله مجاهد، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبيﷺ المدينة، والأظهر في هذا: ما قاله العوفي عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى، وقال قتادة: منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري وقال مجاهد في رواية عنه: هو الله تعالى. وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول هي مكية وكان يقرؤها **﴿و مَن عنده عُلِمَ الكِتابُ﴾** ويقول: من عند الله، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

و الصحيح في هذا أن **﴿و مَنْ عندهُ﴾** اسم جنس علماء أهل الكتاب، الذين يجدون صفة محمدﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: **﴿ورحْمتي وسِعتْ كلَّ شيءٍ فسأكْتُبها للذينَ يتَّقونَ**

ويُؤتونَ الزكاةَ والذينَ همْ بآياتنا يؤمنونَ* الذينَ يتَّبِعُونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجِدُونهُ مَكتُوباً عندهمْ في التَّوراةِ والإنجيلِ﴾ الآية ، وقال تعالى : **﴿أولمْ يكن لهمْ آية أن يعلمهُ علماءُ بني إسرائيلَ﴾** الآية ، وأمثال ذلك مما فيه من الأخبار عن علماء بني إسرائيل ، أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

ترتيبها ١٤ — سورة إبراهيم ـ مكية — آياتها ٥٢



﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. **﴿كتابٌ أنزلناهُ إليكَ﴾** أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها، عربهم وعجمهم **﴿لتُخرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلماتِ إِلَى النُّورِ﴾** أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهُدى والرشد، كما قال تعالى: **﴿اللهُ وليُّ الذينَ آمنُوا يُخرِجهمْ مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ والذينَ كفرُوا أوْلياؤُهم الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونهمْ مِن النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿هُوَ الذي يُنَزِّلُ علَى عَبدِهِ آياتٍ بيِّناتٍ ليُخرجكمْ مِن الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾** الآية. وقوله: **﴿بإذنِ ربِّهِمْ﴾** أي: هو الهادي، لمنْ قَدَّر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره. يهديهم **﴿إِلَى صراطِ العزيزِ الحميدِ﴾** أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه **﴿الحَميدِ﴾** أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

٢ - وقوله: **﴿اللهُ الذِي له مَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ﴾** قرأ بعضهمْ مستأنفاً مرفوعاً، وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: **﴿قُلْ يا أيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكمْ جميعاً الذي لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ﴾** الآية.

و قوله: **﴿و ويلٌ للكافرِينَ مِنْ عذابٍ شديدٍ﴾** أي: ويل لهم يوم القيامة، إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

٣ - ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهمْ **﴿و يصدُّونَ عن سبيلِ اللهِ﴾** وهي اتباع الرسل **﴿و يبغُونها عِوجاً﴾** أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً، مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال، بعيد من الحق، لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾

٤ - هذا من لطفه تعالى بخلقه، أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما

أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «لم يَبعث الله عز وجلَّ نبياً إلا بلغةِ قومه». وقوله: ﴿فيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ ويهدي مَن يشاءُ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿و هوَ العزيزُ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿الحكيمُ﴾ في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه، أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد ابن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس.

كما ثبت في الصحيحين: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعْطهنَّ أحدٌ من الأنبياءِ قبلي: نُصِرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهر، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأُحلتْ لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، وأعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يا أيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكمْ جميعاً﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾

٥- يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد، وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: وهي التسع الآيات ﴿أنْ أخرِجْ قومكَ﴾ أي: أمرناه قائلين له ﴿أخرِجْ قومكَ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿و ذكِّرْهمْ بأيَّامِ اللهِ﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره، وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، و قد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه: عن ابن عباس عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿و ذكِّرْهمْ بأيَّامِ اللهِ﴾ قال: «بنعم الله». ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكلِّ صبَّارٍ شكُورٍ﴾ أي: إنَّ فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة ﴿لكل صبَّارٍ﴾ أي: في الضراء، ﴿شكورٍ﴾ أي: في السراء، كما قال قتادة: نِعْمَ العبدُ عبدٌ إذا ابتلي صبر، وإذا أعطى شكر.

و كذا جاء في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أمرَ المؤمنِ كله عَجَب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) ﴾

٦- يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكَّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذْ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يُذبِّحون من وُجدَ من أبنائهم ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: **﴿و في ذلكُمْ بلاءٌ من ربِّكمْ عظيمٌ﴾** أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل **﴿بلاءٌ﴾** أي: اختبار عظيم، ويحتمل أنْ يكون المراد هذا ـ والله أعلم ـ كقوله تعالى: **﴿وبلَوْناهمْ بالحسَناتِ والسيِّئاتِ لعلَّهمْ يرجعونَ﴾**.

٧- وقوله: **﴿و إذْ تأذَّن ربُّكمْ﴾** أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذْ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: **﴿و إذْ تأذَّن ربُّكَ ليَبعثَنَّ عليهمْ إلى يوم القيامةِ﴾**. وقوله: **﴿لئنْ شكرتُمْ لأزيدَنَّكمْ﴾** أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها **﴿و لئنْ كفرتُمْ﴾** أي: كفرتم النعم، وسترتموها وجحدتموها **﴿إنَّ عذابِي لشديدٌ﴾** وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث: «إنَّ العبدَ ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1].

٨- وقوله تعالى: **﴿و قالَ موسَى إنْ تكفرُوا أنتمْ ومَن في الأرضِ جميعاً فإنَّ اللهَ لغنيٌّ حميدٌ﴾** أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإنْ كفره مَن كفره، كقوله: **﴿إن تكفرُوا فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكمْ﴾** الآية، وقوله: **﴿فكفروا وتولَّوا واستغنَى اللهُ واللهُ غنيٌّ حميدٌ﴾**.

و في صحيح مسلم: عن أبي ذر: عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلكمْ وآخركم، وإنسكمْ وجنكم، كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكمْ، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أولكمْ وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقصَ ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المِخْيط إذا دخل البحر» فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾

٩- قال ابن جرير: هذا من تمام قول موسى لقومه، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل، وفيما قال ابن جرير نظر! والظاهر أنه خبرٌ مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إنَّ قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه، وقصصه عليهم، لأوشك أن تكون هاتان القصتان في التوراة، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل **﴿جاءتهمْ رسلُهمْ بالبيِّناتِ﴾** أي: بالحجج والدلائل، الواضحات الباهرات القاطعات.

و عن عبد الله أنه قال في قوله: **﴿لا يَعْلمهمْ إلاَّ اللهُ﴾**: كذب النسَّابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معدّ بن عدنان. وقوله: **﴿فردُّوا أيديَهمْ في أفْواههمْ﴾** اختلف المفسرون في معناه، قيل:

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢) و ابن ماجة (٩٠) و حسَّنه العراقي، كما في الزوائد للبوصيري.

معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل، يأمرونهم بالسكوت عنهم، لمَّا دعوهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وَضعوا أيديهم على أفواههم، تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذَّبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة، يعنون في الجنة.

قلت: ويؤيد قول مجاهد، تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿و قالوا إنَّا كفرنا بما أُرسلتم به وإنَّا لفي شكٍّ مما تدعُوننا إليه مُريب﴾ فكأن هذا ـ والله أعلم ـ تفسير لمعنى ﴿فردُّوا أيديَهمْ في أفواههمْ﴾، وروى الثوري عن عبد الله قال: عضوا عليها غيظاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجَّهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين ﴿و إذا خلوْا عضُّوا عليكُم الأناملَ من الغيظِ﴾ وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله، عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: ﴿إنَّا كفرْنا بما أُرسلتُمْ به﴾ الآية، يقولون: لا نصدِّقكم فيما جئتم به، فإنَّ عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

١٠ ـ يخبر تعالى عما دار بين الكفار، وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل ﴿أفي اللهِ شكٌّ﴾؟ وهذا يحتمل شيئين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإنَّ الفطر شاهدةٌ بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته، بأنه ﴿فاطرِ السَّموات والأرضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير، ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم ﴿أفي اللهِ شكٌّ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شكٌّ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإنَّ غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط، التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

و قالت لهم رسلهم ﴿يدعوكمْ ليغفرَ لكمْ من ذنُوبكمْ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿و يؤخركمْ إلى أجلٍ مسمًّى﴾ أي: في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿و أن استَغْفِرُوا ربَّكمْ ثمَّ توبوا إليه يُمتِّعْكمْ متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه﴾ الآية، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه ﴿إن أنتمْ إلا بشرٌ مثلنا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولمَّا نر منكم

معجزة ﴿فأتونا بسلطانٍ مُبينٍ﴾ أي: خارق نقترحه عليكم.

١١ - ﴿قالتْ لهمْ رسُلُهمْ إن نحنُ إلاَّ بشرٌ مثلُكمْ﴾ أي: صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ولكنَّ الله يمنُّ على من يشاءُ من عبادهِ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وما كانَ لنا أن نأتيَكمْ بسلطانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك ﴿وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنونَ﴾ أي: في جميع أمورهم.

١٢ - ثم قالت الرسل ﴿وما لنَا ألا نتوكّلَ على اللهِ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ولنَصبرنَّ على ما آذيتُمونَا﴾ أي: من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وعلى اللهِ فليتوكّلِ المُتوَكّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

١٣ - يخبر تعالى عما توعّدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له، ولمن آمن به ﴿لنُخرجنَّك يا شُعيبُ والذينَ آمَنُوا معكَ من قريتنَا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط ﴿أخرجوا آلَ لوطٍ من قريتِكمْ﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وإن كادُوا ليستَفزُّونكَ من الأرضِ ليُخرجُوكَ منها وإذاً لا يَلبثُونَ خِلافكَ إلاَّ قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذْ يَمكرُ بكَ الذينَ كفَرُوا ليُثبتُوكَ أوْ يقتُلوكَ أوْ يُخرجوكَ ويَمكُرونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾.

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة: أنصاراً وأعواناً، وجنداً يقاتلونَ في سبيلِ الله تعالى، ولم يزل يُرقّيه تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، في أيسر زمان، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحَى إليهمْ ربُّهمْ لنُهلِكنَّ الظَّالمِينَ * ولنُسكِننَّهمْ من بعدِهمْ﴾ وكما قال: ﴿ولقدْ سبقتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسلينَ * إنَّهمْ لهمُ المنصُورونَ * وإنَّ جُندَنَا لهمُ الغالبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿كتبَ اللهُ لأغلبنَّ أنا ورُسُلِي إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ﴾ وقال تعالى: ﴿ولقدْ كتَبْنا في الزبُورِ من بعدِ الذِّكْرِ﴾ الآية، ﴿وقالَ موسَى لقومِهِ استَعِينُوا باللهِ واصبِرُوا إنَّ الأرضَ للهِ يورثُها مَن يشاءُ مِن عبادِهِ والعاقبةُ للمُتَّقينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وأورثْنَا القومَ الذينَ كانُوا يُستَضعَفُونَ مَشارقَ الأرضِ ومغَاربَها التي باركْنا فيها وتمَّتْ كلمةُ ربِّكَ الحُسنَى على بني إسرائيلَ بما صبرُوا ودمَّرنا ما كانَ يصنَعُ فرعونُ وقومُهُ وما كانُوا يعرشُونَ﴾.

١٤ - وقوله: ﴿ذلكَ لِمنْ خافَ مقامِي وخافَ وعيدِ﴾ أي: وعيدي هذا: لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو: تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأمَّا مَن طغَى * وآثرَ الحياةَ الدُّنيا * فإنَّ الجحيمَ هِيَ المأْوَى﴾ وقال: ﴿ولِمنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتانِ﴾.

١٥- وقوله: ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا**﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين ﴿**إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ الآية، والله أعلم.

﴿**وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ أي: متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۞ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾.

وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنَّم يوم القيامةِ فتُنادِي الخلائق فتقولُ: إني وُكِّلتُ بكل جبارٍ عنيد» الحديث[١]. خاب وخسر، حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

١٦- وقوله: ﴿**مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ**﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله: ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ وكان ابن عباس يقرؤها ﴿**وكان أمامهم ملك**﴾ أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد. ﴿**وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ**﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿**هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۞ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾ وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم، وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم، وفي حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديدُ أهل النار»[٢]، وفي رواية: «عصارة أهل النار»[٣].

وقوله: ﴿**يَتَجَرَّعُهُ**﴾ أي: يتغصَّصه ويتكرهه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿**وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**﴾. ﴿**وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ**﴾ أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه، وحرارته أو برده، الذي لا يستطاع ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ أي: يألم له جميع بدنه، وجوارحه وأعضائه، قال عمر بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أي: من جسده حتى من أطراف شعره، وقال ابن جرير ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ أي: من أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذِّبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوعٌ، إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لايموت، لأن الله تعالى قال: ﴿**لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا**﴾ ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب، إلا إذا وَرَدَ عليه اقتضى أن يموت منه، لو كان يموت ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ**﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠) والترمذي (٢٧١٣)، والطبراني في الأوسط (٣٢٠) وغيرهم بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦٠) وهو صحيح لغيره.
(٣) المصدر السابق (٥/ ١٧١).

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذه الحال، عذابٌ آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجحيمِ * طلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطينِ * فإنهمْ لآكلونَ منها فمالئونَ منها البُطُون * ثمَّ إنَّ لهمْ عليها لَشَوباً مِن حَميمٍ * ثمَّ إنَّ مرجعَهمْ لإلَى الجحيمِ﴾.

فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردُّون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذهِ جهنَّمُ التي يُكذِّبُ بها المُجْرِمونَ * يطُوفونَ بينها وبينَ حميمٍ آنٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّ شجرةَ الزَّقُّومِ طعامُ الأثيمِ * كالمُهلِ يغلِي في البُطونِ كغلْيِ الحميمِ * خُذُوهُ فاعتِلُوهُ إِلَى سواءِ الجحيمِ * ثمَّ صُبُّوا فوقَ رأسِهِ من عذابِ الحميمِ * ذُقْ إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ * إنَّ هذا ما كنتمْ بهِ تمترُونَ﴾، وقال: ﴿وأصحابُ الشِّمالِ ما أصْحابُ الشِّمالِ * في سَمومٍ وحميمٍ * وظلٍّ مِن يَحْمومٍ * لاَ باردٍ ولا كريمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿هذا وإنَّ للطَّاغينَ لشرَّ مآبٍ * جهنَّمَ يصلونَها فبئسَ المهادُ * هذا فليذُوقُوهُ حَميمٌ وغسَّاقٌ * وآخرُ مِن شكْلِهِ أزْواجٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً ﴿و ما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيدِ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

١٨ - هذا مَثلٌ ضربه الله تعالى لأعمال الكفار، الذين عبدوا معه غيره، وكذَّبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مثلُ الذينَ كفرُوا بربهمْ أعمالُهمْ﴾ أي: مثل أعمالهم يوم القيامة، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً، إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصفٍ﴾ أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿و قدمنا إلى ما عمِلُوا مِن عملٍ فجعلْناهُ هباءً مَّنْثوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿مثلُ ما يُنفقونَ في هذه الحياةِ الدنيا كمثلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابتْ حرثَ قومٍ ظلمُوا أنفسَهم فأهلكتهُ وما ظلمَهمُ اللهُ ولكنْ أنفُسهمْ يَظْلِمونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لاَ تُبطِلُوا صدقَاتِكمْ بالمَنِّ والأذَى كالذِي يُنفقُ مالهُ رئاءَ الناسِ ولا يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فمثلُه كمثَلِ صفوانٍ عليهِ تُرابٌ فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلداً لا يقْدِرونَ على شيءٍ مما كسَبُوا واللهُ لا يهدِي القومَ الكافرينَ﴾.

و قوله في هذه الآية: ﴿ذلكَ هو الضَّلالُ البعيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ذلكَ هو الضَّلالُ البعيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾

١٩، ٢٠- يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قَدَرَ على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها،

وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها ﴿أولمْ يروا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ولم يعيَ بخلقهنَّ بقادرٍ على أن يُحييَ الموتَى بلَى إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾، و قال تعالى: ﴿أولمْ يرَ الإنسانُ أنا خلقناهُ مِن نطفةٍ فإذا هوَ خَصيمٌ مُبينٌ﴾ وضَربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقَهُ قالَ مَن يُحيي العِظامَ وهيَ رميمٌ﴾ قُل يُحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ﴾ الذي جعلَ لكم مِن الشَّجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتمْ مِنهُ تُوقدُونَ﴾ أوليسَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ علَى أن يخلقَ مثلهمْ بلَى وهو الخلاَّقُ العليمُ﴾ إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُن فيكُونُ﴾ فسُبحانَ الذي بيدهِ مَلكوتُ كلِّ شيءٍ وإليهِ تُرجعُونَ﴾.

و قوله: ﴿إنْ يشأْ يُذهبْكمْ ويأتِ بخلقٍ جديدٍ﴾ وما ذلكَ علَى اللهِ بعَزيزٍ﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه، إذا خالفتم أمره، أنْ يذهبكم ويأت بآخرين، على غير صفتكم كما قال: ﴿يا أيها الناسُ أنتم الفُقَراءِ إلى اللهِ واللهُ هو الغنيُّ الحميدُ﴾ إن يشأْ يذهبكمْ ويأت بخلقٍ جديدٍ﴾ وما ذلكَ علَى اللهِ بعَزيزٍ﴾ وقال: ﴿و إن تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيرَكمْ ثمَّ لا يكُونُوا أمثَالَكمْ﴾، وقال: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا مَن يرتدَّ منكمْ عن دينهِ فسوفَ يأتِ اللهُ بقومٍ يُحبُّهمْ ويُحبُّونَهُ﴾، وقال: ﴿إن يشأْ يُذهبْكمْ ويأتِ بآخرينَ وكانَ اللهُ علَى ذلكَ قديراً﴾.

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾

٢١- يقول تعالى: ﴿و برزُوا﴾ أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها، لله الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فقال الضُّعفاءُ﴾ وهم: الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذينَ استكبرُوا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم ﴿إنَّا كنَّا لكم تبعاً﴾ أي: مهما أمرتمونا، ائتمرنا وفعلنا ﴿فهلْ أنتمْ مُغنُونَ عنا مِن عذابِ اللهِ من شيءٍ﴾ أي: فهل تدفعونَ عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا اللهُ لهديناكمْ﴾ ولكن حقَّ علينا قول ربنا، وسبقَ فينا وفيكم قدرُ الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين. ﴿سواءٌ عَلَينا أجزِعنا أمْ صبرْنا ما لنا مِن مَحيصٍ﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه، إنْ صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار، بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿و إذ يَتحاجُّونَ في النارِ فيقُولُ الضعفاءُ للذينَ استَكبرُوا إنَّا كنَّا لكمْ تبعاً فهلْ أنتمْ مُغنُونَ عنا نصيباً من النَّارِ﴾ قال الذينَ استكبروا إنَّا كلٌّ فيها إنَّ اللهَ قدْ حكَمَ بينَ العبادِ﴾، وقال تعالى: ﴿قالَ ادْخُلُوا في أممٍ قدْ خلتْ من قبلِكمْ من الجنِّ والإنسِ في النارِ كلما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أُختها حتى إذا ادَّاركُوا فيها جميعاً قالت أُخْراهمْ لأولاهمْ ربنا هؤلاءِ أضلُّونَا فآتهمْ عذاباً ضِعفاً من النارِ قالَ لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمُونَ﴾ وقالتْ أولاهمْ لأُخراهمْ فما كانَ لكمْ علينا مِن فضلٍ فذُوقُوا العذابَ بما كنتمْ تكسِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ربَّنا أطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءنا فأضلُّونا السبيلاَ﴾ ربنا آتهمْ ضعفينِ مِن العذابِ والعنْهمْ لعناً كبيراً﴾.

و أما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿و لوْ ترَى إذِ الظَّالِمونَ موقُوفونَ عندَ ربهمْ يرجعُ بعضُهمْ

إلى بعض القول يقولُ الذينَ استُضعفوا للذينَ استكبَروا لولاَ أنتمْ لكنَّا مؤمنينَ ۞ قال الذينَ استكبَروا للذينَ استُضعفُوا أنحنُ صددْناكمْ عن الهدى بعدَ إذْ جاءكمْ بل كنتمْ مجرمينَ ۞ وقالَ الَّذينَ استُضعفُوا للذينَ استكبَرُوا بل مكرُ الليلِ والنهارِ إذْ تأمُرونَنا أن نكفرَ بالله ونجعلَ له أنداداً وأسرُّوا الندامةَ لمَّا رأوُا العذابَ وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذينَ كفرُوا هلْ يُجزونَ إلا ما كانُوا يعملونَ﴾ .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾

٢٢- يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغَبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: **﴿إنَّ اللهَ وَعَدَكمْ وَعْدَ الحقِّ﴾** أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال تعالى: **﴿يَعِدُهمْ وَيُمنِّيهمْ وَمَا يعِدُهم الشيطانُ إلاَّ غُروراً﴾**. ثم قال: **﴿و ما كانَ لي عليكمْ من سُلطانٍ﴾** أي: ما كان لي دليل فيما وعدتكم إليه، ولا حجة فيما وعدتكم به **﴿إلاَّ أن دَعَوتُكُمْ فاستَجَبْتُمْ لي﴾** بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل: الحجج والأدلة الصحيحة، على صدق ما جاؤكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه **﴿فلا تلُومُوني﴾** اليوم **﴿و لُومُوا أنفُسكم﴾** فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل **﴿ما أنا بمُصرِخكمْ﴾** أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه **﴿وما أنتمْ بمُصرِخيَّ﴾** أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

﴿إنِّي كَفَرْتُ بما أشرَكْتُمونِ مِن قبلُ﴾ قال قتادة: أي: بسبب ما أشركتمون من قبل.

و قال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل. وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ أضَلُّ ممن يدْعُوا من دون الله من لا يستجيب لهُ إلى يوم القيامةِ وهم عن دُعائهمْ غافِلُونَ ۞ وإذا حُشِرَ الناسُ كانُوا لهمْ أعداءً وكانُوا بعبادتهمْ كافِرينَ﴾**، وقال: **﴿كلاَّ سيَكفُرونَ بعبادتهمْ ويكونونَ عليهمْ ضداً﴾**.

و قوله: **﴿إنَّ الظالِمينَ﴾** أي: في إعراضهمْ عن الحق، واتباعهمْ الباطل، **﴿لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾**. والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا. وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: لما قال أهل النار **﴿سواءٌ علينا أجزعنا أمْ صبرنا ما لنا من مَحيصٍ﴾** قال لهم إبليس **﴿إنَّ اللهَ وعدَكمْ وعْدَ الحقِّ﴾** الآية، فلما سمعوا مقالته، مقتوا أنفُسهم فنُودوا **﴿لمقْتُ اللهِ أكبَرُ مِن مقتكمْ أنفُسكمْ إذْ تُدعَونَ إلى الإيمانِ فتكفُرونَ﴾** وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى

ابن مريم: ﴿أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذُوني وأُمِّيَ إلهينِ مِن دونِ اللهِ﴾ - إلى قوله -: ﴿قال اللهُ هذا يومُ ينفعُ الصادِقينَ صدقُهم﴾ قال: ويقوم إبليس لعنه الله، فيقول ﴿ما كانَ ليَ عليكمْ من سُلطانٍ إلاَّ أن دعوتُكمْ فاستَجبْتُمْ لِي﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء، وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وَ أُدْخِلَ الذينَ آمنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا، وأين ساروا ﴿خالدينَ فيها﴾ ماكثين أبداً، لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذنِ ربِّهمْ تحيَّتُهمْ فيها سلامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حتَّى إذا جاءُوها وفُتِحتْ أبوابها وقال لهمْ خَزَنَتُها سلامٌ عَليكمْ﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكةُ يدخُلونَ عليهمْ مِن كلِّ بابٍ سلامٌ عليكمْ﴾، وقال تعالى: ﴿و يُلَقَّونَ فيهَا تحيةً وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهمْ فيهَا سُبحانكَ اللهُمَّ وتحيَّتهمْ فيها سلامٌ وآخرُ دعواهمْ أن الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾

٢٤- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مثلاً كلمةً طيِّبةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرةٍ طيِّبةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أصلُها ثابتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿و فرعُها في السَّماءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وأنَّ المؤمن كشجرة من النخل، لايزال يرفع له عمل صالح، في كل حين ووقت وصباح ومساء. وهكذا رُوي عن ابن مسعود قال: هي النخلة، وعن أنس، وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم.

و روى البخاري: عن ابن عمر قال: كنا عند رسول اللهﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرةٍ تشبه - أو - كالرجل المسلم - لا يتحاتُّ ورقُها صيفاً ولا شتاءً، وتُؤتي أُكُلها كل حينٍ بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهتُ أن أتكلَّم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول اللهﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهتُ أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحبُّ إلي من كذا وكذا.

و روى أحمد: عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول اللهﷺ إلا حديثاً واحداً، قال: كنا عند رسول اللهﷺ فأُتي بجُمَّار فقال: «من الشجر شجرة، مَثلُها مَثَلُ الرجلِ المسلم» فأردتُ أن أقول هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول اللهﷺ: «هي النخلة» أخرجاه.

٢٥- وقوله: ﴿تؤتي أُكُلها كلَّ حينٍ﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل: كل شهرين، وقيل: كل ستة أشهر، وقيل: كل سبعة أشهر، وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كلِّ وقتٍ، من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يُرفع له

عمل صالح، آناء الليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين ﴿بإذن ربها﴾ أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مَثَلُ الكافر، لا أصل له ولا ثبات، مشبهٌ بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان. رواه أبو بكر البزار عن أنس موقوفاً.

وقوله: ﴿اجتثت﴾ أي: استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾

٢٧- روى البخاري: عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾» ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم.

وروى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنَّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إنَّ العبدَ المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل القطرة مِنْ في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملإ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحِها وطيبها، ويُفسح له في قبره مَدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من

الآخرة، نَزَل إليه ملائكة من السماء سُود الوجوه، معهم المسوح فجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فَتَفرَّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها، لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لا تُفَتَّحُ لهمْ أبوابُ السماءِ ولا يدْخُلونَ الجنةَ حتى يلِجَ الجملُ في سمِّ الخياطِ﴾** فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ **﴿ومَن يُشرِكْ باللهِ فكأنما خرَّ من السماءِ فتخطفُهُ الطَّيرُ أو تَهْوِي بهِ الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾** فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: مَن ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء أنْ كذَب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنتَ تُوعد، فيقول: ومَن أنتَ، فوجهك الوجه يجيء بالشَّر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعة». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

و روى الإمام عبد بن حميد رحمه الله في مسنده: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبدَ إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمعُ قرع نعالهمْ، فيأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهدُ أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك اللهُ به مقعداً من الجنة» قال النبي ﷺ: «فيراهما جميعاً» قال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم عن عبد بن حميد به، وأخرجه النسائي.

و روى ابن حبان في صحيحه: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المؤمن إذا قُبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى رَوْح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه، حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غمٍّ، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح، فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض».

و روى الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبر الميت ـ أو قال أحدُكمْ ـ أتاه ملكانِ أسودان أزرقان، يُقال لأحدهما: منكر والآخر نكير، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسح له في قبره سبعونَ ذراعاً في سبعين، ويُنوَّر له فيه، ثم يقال له:

نَمْ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس، الذي لا يوقظه إلاَّ أحبُّ أهلِه إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإنْ كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، فيقال للأرض: الْتئمي عليه، فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «ذلك إذا قيل له في القبر: من ربُّك، وما دينكَ، ومن نبيك؟ فيقول: ربِّي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشتَ وعليه متَّ، وعليه تُبعث»(١).

و روى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، إنَّ الميت ليسمَع خفق نعالِكمْ حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن يساره، وكان فِعلُ الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قِبل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال: اجلس، فيجلس قد مُثِّلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك فيقول: دعني حتى أصلي، فيقال له: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: عم تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدَّقناه، فيقال له: على ذلك حييتَ، وعلى ذلك متَّ، وعليه تُبعثُ إن شاء الله، ثمَّ يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويُنوَّر له فيه، ويُفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعدَّ الله لك فيها، فيزداد غبطةً وسُروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طيرٌ أخضرُ يعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب» وذلك قول الله عزوجل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ورواه ابن حبان، وذكر جواب الكافر وعذابه.

و روى عبد الرزاق: عن ابن طاوس عن أبيه ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ المسألة في القبر، وقال قتادة: أما الحياة الدنيا: فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في القبر، و كذا روي عن غير واحد من السلف.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾

٢٨، ٢٩- قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين. ثم روى عن عطاء سمع ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة. وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن

(١) رواه ابن جرير (١٥/ ٥٩٦).

عباس هو القول الأول، وإنْ كان المعنى يعم جميع الكفار، فإنَّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قَبِلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفر دخل النار، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول.

و روى ابن أبي حاتم: عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علياً عن **﴿الذينَ بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كفراً وأحلُّوا قومهمْ دار البوار﴾** قال: هم كفار قريش يوم بدر. وفي رواية قال: منافقو قريش. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحدٌ يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني، وإنْ كان من وراء البحار لأتيته؛ فقام عبد الله بن الكواء فقال: مَن **﴿الذينَ بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفراً وَأحلُّوا قومَهمْ دار البوارِ﴾**؟ قال: مشركو قريش، أتتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار.

و قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر. وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر.

٣٠- وقوله: **﴿و جعلُوا للهِ أنداداً ليُضِلُّوا عن سبيلهِ﴾** أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهدداً لهم، ومتوعداً لهم، على لسان نبيه ﷺ **﴿قُلْ تمتَّعُوا فإنَّ مَصيرَكمْ إلَى النارِ﴾** أي: مهما قدرتمْ عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء **﴿فإنَّ مصيركمْ إلى النار﴾** أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: **﴿نُمتِّعهمْ قليلاً ثُمَّ نضطرُّهمْ إلَى عذابٍ غليظٍ﴾**، وقال تعالى: **﴿متاعٌ في الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجعهمْ ثُمَّ نُذيقُهم العذابَ الشديدَ بما كانُوا يكفُرونَ﴾**.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ (٣١) ﴾

٣١- يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القرابات، والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها: هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية والعلانية، وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم **﴿مِن قبلِ أن يأتيَ يوم﴾** وهو يوم القيامة **﴿لا بيعٌ فيهِ ولا خلالٌ﴾** أي: ولا يقبل من أحد فدية أن تباع نفسه، كما قال تعالى: **﴿فاليومَ لاَ يُؤخذُ منكمْ فديةٌ ولا مِن الذينَ كفرُوا﴾**.

و قوله: **﴿و لا خِلالٌ﴾** قال ابن جرير: يقول ليس هنالك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالّته، بل هناك العدل والقسط، و الخلال مصدر، من قول القائل: خاللت فلاناً فأنا أخاله مخالّةً وخلالاً.

و قال قتادة: إن اللهَ قد علمَ أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً، يتخالُّون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا: أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية؛ ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده؛ ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: **﴿و اتقُوا يوماً لا تجزِي نفسٌ**

عن نفسٍ شيئاً ولا يقبلُ منها عَدلٌ ولا تنفعُها شفاعةٌ ولا همْ يُنصرونَ﴾، وقال تعالى: **﴿يا أيها الذينَ آمنُوا أنفِقُوا مِمَّا رزقْناكمْ مِن قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافِرونَ هم الظالِمونَ﴾**.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾

٣٢- يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلقَ لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً **﴿و أنزلَ مِن السماءِ ماءً فأخرجَ به أزواجاً من نباتٍ شتَّى﴾** ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها، ليقطعَ المسافِرونَ بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخَّر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد، من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع.

٣٣- **﴿و سخَّر لكم الشَّمسَ والقمرَ دائبين﴾** أي: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً **﴿لا الشمسُ ينبغِي لها أن تُدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فَلَكٍ يسبَحونَ﴾ ﴿يُغشِي الليلَ النهارَ يطلبُهُ حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنُّجومَ مُسخَّراتٍ بأمرِهِ ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ﴾** فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر **﴿يولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ ويولِجُ النَّارَ في اللَّيلِ وسخَّر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًى ألا هوَ العزيزُ الغفَّارُ﴾**.

٣٤- وقوله: **﴿و آتاكم مِن كلِّ ما سألتُموهُ﴾** يقول هيَّأ لكم كل ما تحتاجون إليه، في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقرأ بعضهم «و آتاكم مِن كلٍّ ما سألتمُوه». وقوله: **﴿و إن تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصُوها﴾** يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إنَّ حق اللهِ أثقل من أنْ يقوم به العباد، وإنَّ نعم الله أكثر من أنْ يُحصيها العباد، ولكن أصبِحوا تائبين وأمسوا تائبين.

و في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهمَّ لك الحمد، غير مكفيٍ ولا مُودَّع، ولا مستغنى عنه ربنا»، وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا تُؤدَّى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمةٍ حادثة تُوجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحةٍ مني لها لغةٌ ... تُثني عليك بما أوليت من حَسَن

لكان ما زاد شكري إذ شكَرتُ به ... إليك أبلغَ في الإحسان والمنن

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾

٣٥- يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة، إنما وُضعت أول ما

وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة، تبرأ ممن عَبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن، فقال: **﴿ربِّ اجعلْ هذا البلد آمناً﴾** وقد استجاب الله له، فقال تعالى: **﴿أولمْ يروا أنَّا جعلنا حرماً آمناً﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿إنَّ أوّل بيتٍ وُضعَ للناس للذي ببكةَ مباركاً وهدًى للعالمينَ * فيه آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيمَ ومَن دخلهُ كانَ آمناً﴾** وقال في هذه القصة **﴿ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً﴾** فعرَّفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: **﴿الحمدُ لله الذي وهبَ لي علَى الكبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ﴾** ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً، فقال: **﴿ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾** كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلاً.

و قوله: **﴿و اجنُبني وبنِيَّ أن نعبدَ الأصنامَ﴾** ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

٣٦- ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله، إن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام **﴿إنْ تعذِّبهمْ فإنهمْ عبادُكَ وإن تغفرْ لهمْ فإنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾** وليس فيه أكثر من الردِّ إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك.

روى عبد الله بن وهب: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام **﴿ربِّ إنهنَّ أضللْنَ كثيراً من الناسِ﴾** الآية، وقول عيسى عليه السلام **﴿إنْ تُعذِّبهمْ فإنهمْ عبادُكَ﴾** الآية، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهمَّ أمتي، اللهمَّ أمتي، اللهمَّ أمتي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد ـ وربك أعلم ـ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أُمتك، ولا نسوؤك.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾

٣٧- وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان، بعد الدعاء الأول الذي دعا به عند ما ولَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: **﴿عندَ بيتكَ المُحرَّمِ﴾**، وقوله: **﴿ربنا لِيُقيمُوا الصلاةَ﴾** قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: **﴿المحرَّمِ﴾** أي: إنما جعلته مُحرَّماً، ليتمكَّن أهله من إقامة الصلاة عنده **﴿فاجعلْ أفئدةً من الناسِ تهوي إليهمْ﴾** قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال أفئدة الناس، لازدحم عليه فارس والروم، واليهود والنصارى، والناس كلهم، و لكن قال: **﴿من الناسِ﴾** فاختص به المسلمون.

وقوله: **﴿و ارزُقهمْ من الثمراتِ﴾** أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: **﴿أولمْ نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقاً من لدُنَّا﴾** وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تُجبي إليها ثمرات ما حولها، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾

٣٨- قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربَّنا إنكَ تعلمُ ما نُخفِي وما نُعلن﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

٣٩- ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الحمدُ لله الذي وهبَ لي على الكبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربِّي لسميعُ الدعاء﴾ أي: أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

٤٠- ثم قال: ﴿ربِّ اجعلْني مقيمَ الصلاةِ﴾ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، ﴿و مِن ذُرِيتي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ربَّنا وتقبَّلْ دعاء﴾ أي: فيما سألتك فيه كله.

٤١- ﴿ربَّنا اغفرْ لِي ولوالدَيَّ﴾ قرأ بعضهم «و لِوالدِي» بالإفراد، وكان هذا أن يتبرأ من أبيه، لما تبين له عداوته لله عزوجل ﴿و للمؤمنينَ﴾ أي: كلهم ﴿يومَ يقُومُ الحِسابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم، إنْ خيراً فخير، فخير وإن شراً فشر.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾

٤٢- يقول تعالى: ولا تحسبنَّ الله يا محمد ﴿غافلاً عمَّا يعملُ الظالمُونَ﴾ أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجَّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم، ويعده عليهم عداً ﴿إنَّما يؤخرهمْ ليوم تَشخصُ فيه الأبْصار﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

٤٣- ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مُهطِعينَ﴾ أي: مُسرعِينَ، كما قال تعالى: ﴿مُهطِعينَ إلى الداعِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذٍ يتبعُون الداعِيَ لا عِوَجَ له ـ إلى قوله ـ وعَنت الوُجوهُ للحيِّ القيُّوم﴾، وقال تعالى: ﴿يومَ يخرجُونَ مِن الأجداثِ سراعاً﴾ الآية.

و قوله: ﴿مُقْنِعِي رءُوسِهمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رءوسهم ﴿لا يَرتدُّ إليهمْ طرفُهمْ﴾ أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة، مديمون النظر لا يطرفون لحظة، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة، و المخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿و أفئدتُهمْ هواء﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية، ليس فيها شيء، لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر، قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف، وقال بعضهم: هيَ خرابٌ لا تعي شيئاً، لشدة ما أخبر به تعالى عنهم. ثم قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ

وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب ﴿ربَّنا أخِّرنا إلى أجلٍ قريب نُجبْ دعوتَكَ ونتَّبِع الرُّسُل﴾ كقوله: ﴿حتَّى إذا جاءَ أحدَهم الموتُ قالَ ربِّ ارجعُونِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تُلهكمْ أموالُكمْ﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم ﴿ولوْ ترَى إذ المُجرِمُونَ ناكِسُوا رُءوسِهِمْ﴾ الآية، وقال: ﴿ولوْ ترَى إذْ وُقِفُوا علَى النارِ فقالوا يا ليتَنا نُردُّ ولا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وهمْ يصطرِخُونَ فيها﴾ الآية، قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أولمْ تكُونُوا أقسمتُم مِّن قبلُ ما لكم مِّن زوالٍ﴾ أي: أولم تكُونُوا تحلفون من قبل هذه الحالة، أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره ﴿ما لكم مِّن زوالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وأقسمُوا باللهِ جهْدَ أيمانِهمْ لا يَبْعثُ اللهُ مَن يموتُ﴾ الآية.

٤٥- ﴿وسكنتُمْ في مساكِنِ الذينَ ظلَمُوا أنفُسهمْ وتبيَّن لكمْ كيفَ فعلنَا بهمْ وضربْنا لكم الأمثالَ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حكمةٌ بالِغةٌ فما تُغني النُّذُرُ﴾. وفي قراءة عبد الله «وإن كادَ مكرُهمْ». قلت: وكذا روي عن أبي ابن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنهما قرآ «وإن كاد» كما قرأ علي (كذلك).

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كانَ مكرُهم لتزُولَ منهُ الجبالُ﴾ يقول: ما كانَ مكرُهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير: بأني هذا الذي فعلوه بأنفسهم، من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم. قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولاً﴾.

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وإن كانَ مكرُهم لتزُولَ منهُ الجبالُ﴾ يقول: شركهم، كقوله: ﴿تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منهُ﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

٤٧- يقول تعالى مقرِّراً لوعده ومؤكِّداً ﴿فلا تحسبنَّ اللهَ مُخلِفَ وعدِهِ رُسُلَه﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، ولا يغالَب، وذو انتقام ممن كَفَر به وجحده ﴿فويلٌ يومئذٍ للمُكذِّبينَ﴾.

ولهذا قال: ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدَّل الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين: من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامةِ على أرض بيضاء عَفْراء، كقُرصة النَّقي ليس فيها مَعْلَم لأحد».

وروى الإمام أحمد: عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي وابن ماجه.

وروى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حَبْر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سَمَّاه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اسمي محمد، الذي سمَّاني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيءٌ إنْ حدَّثتك»؟ قال: أسمع بأذني، فنكتَ رسولُ الله ﷺ بعودٍ معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظُّلْمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازةً؟ فقال: «فقراء المهاجرين» فقال اليهودي: فما تُحْفتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «يُنحرُ لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمَّى سلسبيلاً» قال: صدقتَ، قال: وجئت أسألك عن شيءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل أو رجلان، قال: أينفعك إنْ حدَّثتك؟ قال: «أسمع بأذني»، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعَلاَ منيُّ الرجل مني المرأة، أذْكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا منيُّ المرأة مني الرجل، آنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقتَ، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، ومالي علمٌ بشيءٍ منه، حتى أتاني الله به».

عن عمرو بن ميمون قال: قال عبد الله بن مسعود ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾ قال: أرضٌ كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً حتى يلجمهم العرق، وروي من (وجوه أخر)، أورد ذلك كله ابن جرير. وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾ قال: تبدل الأرض خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وعن قيس بن السكن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نارٌ يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إنَّ الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون.

وقوله: ﴿وبرزُوا لله﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحدِ القهَّار﴾ أي: الذي قَهرَ كل شيءٍ وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾

٤٩- يقول تعالى: ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾ وتبرز الخلائق لديانها، تَرَى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مقرَّنين﴾ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو

الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشُرُوا الذينَ ظَلَمُوا وأزواجَهمْ﴾ وقال: ﴿و إذا النُّفُوسُ زُوِّجتْ﴾ وقال: ﴿و إذا أُلقُوا منهَا مكاناً ضيِّقاً مقرَّنينَ دعوْا هنالكَ ثُبوراً﴾ وقال: ﴿و الشياطينَ كلَّ بنَّاءٍ وغوَّاصٍ ﴿ وآخَرينَ مقرَّنينَ في الأصفادِ﴾ والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة.

٥٠- وقوله: ﴿سَرابِيلُهم مِن قَطِرانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهْنأ به الإبل، أي: تُطلى. قال قتادة: وهوألصق شيء بالنار. ويقال فيه: «قَطِرانٍ» بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء.

و كان ابن عباس يقول: القطران: هو النحاس المذاب، وربما قرأها: ﴿سرابيلهمْ مِن قطرانٍ﴾ أي: من نحاسٍ حارٍ قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

و قوله: ﴿وتغشَى وُجوههم النارُ﴾ كقوله: ﴿تلفَحُ وجوههم النارُ وهمْ فيها كالِحُونَ﴾. وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ في أمتِي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاءُ بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سِرْبالٌ من قطران، ودِرعٌ من جَرَب» انفرد بإخراجه مسلم.

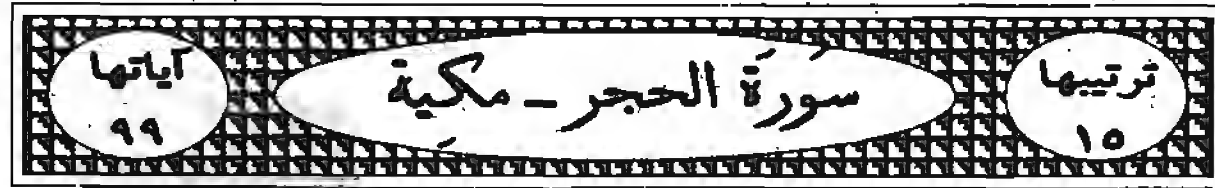
٥١- وقوله: ﴿ليَجْزِي اللهُ كُلَّ نفسٍ ما كسبتْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ليَجزيَ الذينَ أساءُوا بما عمِلُوا﴾ الآية، ﴿إنَّ اللهَ سريع الحسابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقتربَ للنَّاسِ حسابُهمْ وهمْ في غفلةٍ مُعرِضونَ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده، سريع النَّجاز، لأنه يعلم كلَّ شيء، ولا يخفَى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قُدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خَلقكمْ ولا بَعْثُكمْ إلاَّ كنفسٍ واحدةٍ﴾ وهذا معنى قول مجاهد ﴿سريعُ الحسابِ﴾ إحصاء.

و يحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَذا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَروا به وَلِيَعْلَموا أَنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب (٥٢) ﴾

٥٢- يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأُنذِركمْ بِهِ ومَن بلغَ﴾ أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة ﴿الر ﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتُخرجَ الناسَ من الظُّلماتِ إلَى النورِ﴾ الآية، ﴿و ليُنذَرُوا بهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿و ليَعْلمُوا أنَّما هوَ إلهٌ واحدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات، على أنه لا إله إلا هو ﴿و ليذَّكَّرَ أُولُوا الألبابِ﴾ أي: ذوي العقول.

ترتيبها ١٥ — سورة الحجر ـ مكية — آياتها ٩٩



﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى: **﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين، ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور: عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، أن كفار قريش لما عُرضوا على النار تَمنَّوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: إن المراد: أنَّ كل كافر يود عند احتضاره، أنْ لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: **﴿ولَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يا لَيتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين﴾**.

و روى سفيان الثوري: عن عبد الله في قوله: **﴿رُبَما يودُّ الذينَ كفرُوا لوْ كانُوا مُسلِمِينَ﴾** قال: هذا في الجهنميين، إذا رأوهم يخرجون من النار.

و روى عبد الرزاق: عن مجاهد قال: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك، قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، قال: فعند ذلك قوله: **﴿رُبَمَا يودُّ الذينَ كفرُوا لوْ كانُوا مُسلِمينَ﴾** وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة.

فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتَمعَ أهل النار في النار، ومعهم مَنْ شاءَ اللهُ مِن أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخِذْنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمرَ بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك مَن بقي من الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **﴿الر ۞ تلكَ آياتُ الكتابِ وقُرآنٍ مُبينٍ ۞ رُبَما يَودُّ الذينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسلِمينَ﴾** ورواه ابن أبي حاتم، وزاد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» عوض الاستعاذة.

(الحديث الثاني) وروى الطبراني أيضاً: عن صالح بن أبي طريف قال: سألت أباسعيد الخدري فقلت له: هل سمعت رسول الله يقول في هذه الآية **﴿رُبَما يَودُّ الذينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسلِمينَ﴾**؟ قال: نعم، سمعته رسول الله ﷺ يقول: «يُخرج اللهُ ناساً من المُؤمنين من النار، بعدما يأخذ نقمته منهم» وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين، قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذنَ في الشفاعة لهم، فتشفع لهم الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن

الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم؛ قال: فذلك قول الله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فيسمون في الجنة: الجهنميين، من أجل سوادٍ في وجوههم، فيقولون: يا ربِّ، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم».

٣- وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديد شديد لهم، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾

٤، ٥- يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية، إلا بعد قيام الحجة عليها، وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم، ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيهٌ لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه، من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾

٦- يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: الذي تدَّعي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا.

٧- ﴿لَوْمَا﴾ أي: هلاَّ ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به، كما قال فرعون ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۞ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

٨- وكذا قال في هذه الآية ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ بالرسالة والعذاب.

٩- ثم قرّر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر، وهو «القرآن» وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ على النبيﷺ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) ﴾

١٠- يقول تعالى مسلّياً لرسولهﷺ في تكذيب مَن كذَّبه من كفار قريش، إنه أرسلَ من قبله من الأمم الماضية، وأنه ما أتى أُمة من رسول، إلا كذبوه واستهزءوا به.

١١- ثم أخبر أنه سَلكَ التكذيب في قلوب المجرمين، الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى، قال

أنس والحسن البصري ﴿**كذلكَ نسلكهُ في قُلوبِ المُجرِمينَ**﴾ يعني: الشرك.

١٢ - وقوله: ﴿**قدْ خلتْ سُنَّةُ الأوَّلينَ**﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذَّب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)**﴾

١٤، ١٥ - يخبر تعالى عن قوَّة كفرهم وعنادهم، ومكابرتهم للحق، أنه لو فتحَ لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه، لما صدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿**إنَّما سُكِّرَتْ أبْصارُنا**﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أُخذت أبصارنا، وقال العوفي عن ابن عباس: شُبِّه علينا وإنما سحرنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا، وقال ابن زيد ﴿**سُكِّرَتْ أبْصارُنا**﴾ السكران الذي لا يعقل.

﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)**﴾

١٦، ١٧، ١٨ - يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زيَّنها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرَّر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة البروج ههنا: هي الكواكب.

(قلت): وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿**تباركَ الذي جعَلَ في السماءِ بُروجاً**﴾ الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور فيها الحرس.

و جعل الشهب حرساً لها من مَرَدَة الشياطين، لئلا يسَّمَّعُوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع، جاءه شهابٌ مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة يبلغ به النبيﷺ قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمر في السماء، ضربت الملائكةُ بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنه سلسلةٌ على صَفوان» قال علي: وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فُزِّع عَن قُلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر ـ ووصف سفيانُ بيده وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يَرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً، للكلمة التي سمعت من السماء».

١٩ - ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدَّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المناسبة، وقال ابن عباس ﴿**من كُلِّ شيءٍ**

﴿مَّوْزُونٍ﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عيينة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة. ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقال: ما يزنه أهل الأسواق.

٢٠- وقوله: **﴿و جعلنَا لكمْ فيهَا معايِشَ﴾** يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض، في صنوف الأسباب، والمعايش وهي جمع معيشة. وقوله: **﴿و مَن لستُم لهُ برازِقينَ﴾** قال مجاهد: هي الدواب والأنعام، وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.

و القصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسَّر لهم من أسباب المكاسب، ووجوه الأسباب، وصنوف المعايش، وبما سخَّر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾

٢١- يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهلٌ عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، **﴿و ما نُنَزِّلُه إلاَّ بقدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾** كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. وروى ابن جرير: عن الحكم بن عتيبة في قوله: **﴿و ما نُنَزِّلُه إلاَّ بقدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾** قال: ما عام بأكثر مطراً من عام، ولا أقل، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون، وربما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة، أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت.

٢٢- وقوله تعالى: **﴿و أرسَلْنَا الرِّيَاحَ لواقِحَ﴾** أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بـ «العقيم» وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعدا. وعن عبد الله بن مسعود في قوله: **﴿وأرسَلْنَا الرِّيَاحَ لواقِحَ﴾** قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْرِي السحاب، حتى تدر كما تدر اللَّقحة. وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقمُّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: **﴿و أرسَلْنا الرِّيَاحَ لواقِحَ﴾**.

وقوله: **﴿فأسقينَاكُموهُ﴾** أي: أنزلناه لكم عذباً، يمكنكم أن تشربوا منه، لو نشاء جعلناه أجاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: **﴿أفرأيتُم الماءَ الذي تشرَبُونَ* أأنتمْ أنزلتُموهُ مِن المُزْنِ أمْ نحنُ الْمُنزِلُونَ* لوْ نشاءُ جعلناهُ أُجاجاً فلولاَ تَشكُرُونَ﴾** وفي قوله: **﴿هو الذِي أنزلَ مِن السماءِ ماءً لكم مِّنه شرابٌ وَ منهُ شجرٌ فيهِ تُسيمونَ﴾**. وقوله: **﴿و ما أنتمْ لهُ بخازِنينَ﴾** قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل

أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، حفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

٢٣- وقوله: ﴿وإنّا لنحن نُحْيِي ونُميتُ﴾ إخبارٌ عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

٢٤- ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: ﴿ولقدْ علِمنَا المُستَقْدِمينَ مِنكمْ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما «المُستَقدِمُونَ»: كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، و«المُستأخِرونَ» من هو حي، ومن سيأتي إلى يوم القيامة. و روى نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقد ورد فيه حديث غريب جداً: فروى ابن جرير: عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا، يعني: لئلا يروها، وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله ﴿ولقدْ علِمنَا المُستَقْدِمينَ مِنكمْ ولقدْ علِمنَا المُستأخِرينَ﴾ وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما وابن ماجه من طرق، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة [1] وقد رواه عبد الرزاق عن أبي الجوزاء يقول في قوله: ﴿ولقدْ علِمنَا المستَقْدِمينَ مِنكمْ﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿والمُستأخِرينَ﴾ فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾

٢٦- قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خلقَ الإنسانَ مِن صلصالٍ كالفخّار * وخلقَ الجانَّ مِن مارجٍ مِن نارٍ﴾ وعن مجاهد أيضاً ﴿الصَّلْصَال﴾ المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِن حَمَأٍ مسْنُونٍ﴾ أي: الصلصال من حمأ وهو الطين. والمسنون الأملس.

و لهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحاك أن الحمأ المسنون هو: المنتن، وقيل: المراد بالمسنون ههنا: المصبوب.

٢٧- وقوله: ﴿والجَانَّ خلقْنَاهُ مِن قبلُ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِن نار السَّمُوم﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. روى أبو داود الطيالسي: عن عبد الله بن مسعود يقول: هذه السموم جزءٌ من سبعين جزءاً، من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ ﴿والجَانَّ خلقْنَاهُ مِن قبلُ مِن نارِ السَّمُوم﴾. وعن ابن عباس: إن الجان خُلق من لهب

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: تعليل الترمذي و ابن كثير ليس بعلة. (المسند ٤/ ٢٧٨).

النار، وفي رواية: من أحسن النار، وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس.

و قد ورد في الصحيح: «خُلقت الملائكةُ مِن نور، وخُلقت الجان من مَارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم». والمقصود من الآية: التنبيه على شرف آدم ﷺ، وطيب عنصره، وطهارة محتده.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾

٢٨ - ٣٢- يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له، من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل.

٣٣- ولهذا قال: **﴿أَلَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾** كقوله: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** وقوله: **﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾** الآية.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾

٣٤- يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً، لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه **﴿رَجِيمٌ﴾** أي: مرجوم، وأنه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رنَّةً فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها، رواه ابن أبي حاتم.

٣٥- ٣٨- وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل ـ من تمام حَسَده لآدم وذريته ـ النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له، وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾

٣٩- يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه، أنه قال للرب **﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾** قال بعضهم أقسم بإغواء الله له **(قلت)** ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني **﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾** أي: لذرية آدم ﷺ **﴿فِي الأَرْضِ﴾** أي: أحبب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً **﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: كما أغويتني وقدرت على ذلك.

٤٠- **﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** كقوله: **﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾**.

٤١ - قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ أي: مرجعكم كلكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر، كقوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّكَ لبالمرصَادِ﴾ وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي، قاله مجاهد والحسن وقتادة، كقوله: ﴿و علَى اللهِ قصدُ السبيلِ﴾ وقرأ قيس بن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة ﴿هذا صراطٌ عليٌّ مستقيم﴾ كقوله: ﴿و إنَّه في أمِّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيم﴾ أي: رفيع، والمشهور القراءة الأولى.

٤٢ - ﴿إنَّ عبادِي ليسَ لكَ عليهمْ سلطانٌ﴾ أي: الذين قدَّرتُ لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إلاَّ مَن اتَّبعكَ مِن الغاوينَ﴾ استثناء منقطع.

٤٣ - وقوله: ﴿و إنَّ جهنَّم لموعِدُهمْ أجمعينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن ﴿و مَن يَكفُر بِهِ مِن الأحزابِ فالنَّارُ موعِدُهُ﴾.

٤٤ - ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مَّقْسُوم﴾ أي: قد كُتِب لكل بابٍ منها جزءٌ من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر عمله. وعن أبي هارون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إنَّ أبواب جهنَّم هكذا ـ قال أبو هارون ـ أطباقاً بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن يريم عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تمتلئ كلها، وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. روى الضحاك عن ابن عباس نحوه، وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً، وقال قتادة ﴿لها سبعةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهمْ جزءٌ مقسوم﴾: هي والله منازل بأعمالهم، رواهن ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لكلِّ بابٍ منهمْ جزءٌ مقسوم﴾ قال: «إنَّ مِن أهل النار مَن تأخذه النارُ إلى كعبه، وإنَّ منهم مَن تأخُذه النارُ إلى حُجْزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسُوم﴾»[1].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

٤٥ - لما ذكر تعالى حال أهل النار، عَطَف على ذِكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

٤٦ - وقوله: ﴿ادخُلوها بسلام﴾ أي: سالمين من الآفات، مُسلَّمٌ عليكم ﴿آمنينَ﴾ أي: من كل خوفٍ وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

٤٧ - وقوله: ﴿و نزعْنا ما في صُدورِهمْ مِن غلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقَابلينَ﴾، روى سُنيد في تفسيره: عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن، حتى يَنزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح: أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «يَخلُص المؤمنون من النار،

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة (٤/ ٢١٨٥) إلى قوله: «إلى ترقوته» و دون ذكر الآية.

فيحبسون علَى قَنْطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذن لهم في دخول الجنة».

و روى ابن جرير: عن محمد هو ابن سيرين قال: استأذن الأشتر على علي رضي الله عنه، وعنده ابنٌ لطلحة فحبسه ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما حبستني لهذا؟ قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، ممن قال الله تعالى: ﴿و نزعْنا ما في صُدُورهمْ من غِلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقابلين﴾. و روي أيضاً: عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحَّب به، وقال: إني لأرجو أنْ يجعلني الله وأباك، من الذين قال الله: ﴿و نزَعْنا ما في صدورِهمْ مِن غِلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقابِلينَ﴾.

و روى وكيع عن ربعي بن خراش عن علي نحوه، و قال فيه: فقام رجلٌ من همدان، فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال فصاح به عليٌّ صيحة، فظننت أن القصر قد تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟، وروى سفيان الثوري: عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿و نزَعْنا ما في صدورِهمْ مِن غِلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقابِلينَ﴾ وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بنحوه.

و قوله: ﴿متقابِلينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

٤٨- وقوله: ﴿لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيتٍ في الجنة من قَصَب، لا صَخبَ فيه ولا نصب».

و قوله: ﴿و ماهمْ منها بمُخرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: «يقال يا أهل الجنة إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تمرضوا أبداً، وإنَّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تَشبوا فلا تَهرموا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تُقيموا فلاَ تظْعَنُوا أبداً». وقال الله تعالى: ﴿خالِدينَ فيها لا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً﴾.

٤٩- وقوله: ﴿نبِّئْ عِبادِي أنِّي أنا الغفورُ الرَّحيمُ * وأنَّ عذابِي هو العذابُ الأليمُ﴾ أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة، وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾

٥١، ٥٢- يقول تعالى وأخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم، والضيف: يطلق على الواحد والجمع كالزَّوْر والسفر، ، وكيف دخلوا عليه فقالوا: سلاماً ﴿قالَ إنَّا منكمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم، لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ.

٥٣- ﴿قالُوا لا توْجَلْ﴾ أي: لا تخف ﴿و بشَّرُوهُ بغُلامٍ عليمٍ﴾ أي: إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة

هود.

٥٤- ثم ﴿قالَ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته، ومتحققاً للوعد ﴿أبشَّرتُمُوني علَى أن مسَّنِيَ الكِبَرُ فبمَ تُبشِّرُونَ﴾.

٥٥- فأجابوه مؤكدين لما بشروه به، تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قالُوا بشَّرناكَ بالحقِّ فلاَ تكُن مِن القانِطِينَ﴾ وقرأ بعضهم (القنطين) فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإنْ كان قد كبر، وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قُدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾

٥٧- يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، أنه شَرَع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا:

٥٨، ٥٩- ﴿إنَّا أُرسِلْنا إلى قومٍ مُجرِمينَ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجُّون آل لوط من بينهم، إلا امرأته فإنها من الهالكين.

٦٠- ولهذا قالوا ﴿إلاَّ امرأتَهُ قدَّرنا إنَّها لَمِن الغابرينَ﴾ أي: الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) ﴾

٦١- يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره.

٦٢، ٦٣- قال: ﴿إنَّكمْ قومٌ مُنكَرونَ ۞ قالُوا بلْ جئناكَ بما كانُوا فيه يَمْتَرُونَ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم، الذي كانوا يَشكُّون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم.

٦٤- ﴿و أتيناكَ بالحقِّ﴾ كقوله تعالى: ﴿ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلاَّ بالحقِّ﴾. و قوله: ﴿و إنَّا لصادِقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾

٦٥- يذكر تعالى عن الملائكة، أنهم أمروه أنْ يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأنْ يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو، وإنما يكون ساقةً يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿و لاَ يلتفتْ مِنكمْ أحدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال ﴿و امضُوا حيثُ تُؤمَرُونَ﴾ كأنه كان معهمْ من يهديهم السبيل.

٦٦- ﴿و قَضينَا إليه ذلكَ الأمرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ مُصْبِحينَ﴾ أي: وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى ﴿إنَّ موعِدَهُم الصُّبحُ أليسَ الصُّبحُ بقريبٍ﴾.

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ
لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾

٦٧- يخبر تعالى عن مجيئ قوم لوطٍ لمَّا علموا بأضيافه، وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين.

٦٨، ٦٩- ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه.

٧٠، ٧١- فقالوا له مجيبين ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبِّحهم من العذاب المنتظر.

٧٢- ولهذا قال تعالى لمحمدﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض. وعن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خَلَقَ اللهُ وما ذرأ وما برأ نفساً، أكرم عليه من محمدﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ رواه ابن جرير.

و قال قتادة ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لعيشك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يترددون.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

٧٣، ٧٤- يقول تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السِّجيل عليهم، وقد تقدم الكلام على «السِّجيل» في هود بما فيه كفاية.

٧٥- وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: إنّ آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد، لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين، وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: للمتأملين.

و روى ابن جرير: عن أنس بن مالك قال: قال النبيﷺ: «إنَّ لله عباداً يَعْرِفونَ الناسَ بالتَّوسُّم» ورواه الحافظ أبو بكر البزار.

٧٦- وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: وإنَّ قرية سدوم التي أصابها ما أصابها، من القَلْب الصوري

والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة[1]، بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين* وبالليل أفلا تعقلون﴾ وقال مجاهد والضحاك ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ قال: مُعَلَّم، وقال قتادة: بطريق واضح، وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد، وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا، والله أعلم.

٧٧- وقوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجائنا لوطاً وأهله، لدلالة واضحة جلية، للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾

٧٨- أصحاب الأيكة هم: قوم شعيب، قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة، وعذاب يوم الظُّلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان.

٧٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي: طريق مبين، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه، قال في نذارته إياهم: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾

٨٠، ٨١- أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام، ومَن كذَّب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات، ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم، بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها، قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ وقال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾.

٨٢- وذكر تعالى أنهم ﴿كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحِجْر، الذي مرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فقنَّع رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوتَ القوم المعذَّبين، إلاَّ أنْ تكونوا باكين، فإنْ لم تبكوا فتباكوا، خشيةَ أنْ يصيبَكم ما أصابهم»[2].

٨٣- وقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم، التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تُضيِّق عليهم في المياه، فما دفعتْ عنهم تلك الأموال ولا نفعتهمْ، لمَّا جاء أمر ربك.

(١) وهي المعروفة اليوم بـ «البحر الميت» ولا يعيش فيها شيء! نعوذ بالله من سخطه وعذابه.

(٢) الحديث في البخاري في الصلاة (١/ ٥٣٠) وفي الأنبياء (٦/ ٣٧٨ـ ٣٧٩) وفي التفسير (٨/ ٣٨١) ومسلم في الزهد (٤/ ٢٢٨٥ ـ ٢٢٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بألفاظ متقاربة.

وقوله هنا: «فإن لمْ تبكُوا فتباكوا» عزاها الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٠) لأحمد، ولم أجدها عنده، والله أعلم.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾

٨٥- يقول تعالى: ﴿و مَا خَلَقْنَا السَّمواتِ وَ الأَرضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحَقِّ وإنَّ السَّاعةَ لآتيةٌ﴾ أي: بالعدل ﴿ليجزيَ الذينَ أساءوا بما عمِلُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿و مَا خلقْنا السَّماءَ والأرضَ ومَا بَيْنَهُمَا باطلاً ذلكَ ظنُّ الذينَ كفروا فويلٌ للذينَ كفرُوا مِن النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أفحسِبتمْ أنَّما خلقْناكمْ عبثاً وأنَّكمْ إلينا تُرجَعُونَ* فتعالَى اللهُ الملكُ الحقُّ لا إلهَ إلاَّ هوَ ربُّ العرشِ الكريمِ﴾ ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له، وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿فاصفحْ عنهمْ وقُلْ سلامٌ فسوفَ يعْلمونَ﴾.

و قال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال.

وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما شُرع بعد الهجرة.

٨٦- وقوله: ﴿إنَّ ربَّكَ هو الخَلاَّقُ العليمُ﴾ تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه ﴿الخلاَّقُ﴾ الذي لا يعجزه خلق شيء ﴿العليمُ﴾ بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: ﴿أوليسَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مِثْلَهمْ بلى وهوَ الخلاَّقُ العليمُ* إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لهُ كُن فيكُونُ* فسُبحانَ الذي بيَدِهِ ملَكُوتُ كلِّ شيءٍ وإليهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾

٨٧- يقول تعالى لنبيه ﷺ كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، حزناً عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك ﴿و اخفضْ جناحكَ لِمن اتَّبعكَ مِن المؤمنينَ﴾ أي: ألِنْ لهم جانبكَ، كقوله: ﴿لقدْ جاءكمْ رسولٌ مِّنْ أنفُسكمْ عزيزٌ عليهِ ما عنِتُّمْ حريصٌ عليكمْ بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ﴾ وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعودو ابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطُّوَل، يعنون: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد ابن جبير، وقال شعبة: بيَّن فيهنَّ الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر.

و روى ابن أبي حاتم: عن سفيان: «المثاني» المئين: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يعطهنَّ أحد إلا النبي ﷺ وأعطى موسى عليه السلام منهن ثنتين. وقال: أوتي النبي ﷺ سبعاً من المثاني: الطُّوَل، وأوتي موسى عليه السلام ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقي أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطوال، ويقال: هي القرآن العظيم.

(و القول الثاني): أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة وقد خصكم الله بها(١)، وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد

(١) ا رواه الطبري عن ابن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، و هذا سند ضعيف، و الد ابن جريج عبد العزيز بن جريج، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، و قال الحافظ: لين.

ابن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد، وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوّع، واختاره ابن جرير واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، ولله الحمد.

و قد أورد البخاري رحمه الله تعالى ههنا حديثين: أحدهما: عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أُصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، فأتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني»؟ فقلت: كنتُ أُصلي، فقال: ألم يقل الله ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا استجِيبُوا لله وللرَّسولِ إذا دعاكمْ﴾؟ ألا أعلِّمك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرتُ، فقال: «﴿الحمد لله ربِّ العالمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه».

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآنِ هي: السبعُ المثاني والقرآن العظيم».

فهذا نصٌّ في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُّتشابهاً مَّثانِيَ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإنَّ ذكر الشيء لا ينافي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

٨٨- وقوله: ﴿لا تمدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعْنا به أزواجاً منهمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم، عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا مَنْ لم يتغنَّ بالقرآنِ»(١) إلى أنه يستغني به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول التفسير.

قال العوفي عن ابن عباس ﴿لا تمدَّنَّ عينَيكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مالصاحبه. وقال مجاهد ﴿إلى ما متَّعْنا بهِ أزْواجاً منهمْ﴾ هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

٨٩- ٩٠- يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إنِّي أنا النَّذيرُ المُبينُ﴾ البيِّن النذارة، نذير للناس من عذاب أليم، أن يحل بهم على تكذيبه، كما حلَّ بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

و قوله: ﴿المُقْتَسِمينَ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم ﴿قالُوا تقاسَمُوا باللهِ لنُبيِّتَنَّه وأهلَه﴾ الآية، أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿و أقسمُوا بالله جَهْدَ أيمَانهمْ لا يَبعَثُ اللهُ مَن يمُوتُ﴾ ﴿أولمْ تكُونُوا أقسَمتم مِّن قَبْلُ﴾ الآية، ﴿أهؤلاءِ الذينَ أقسمتمْ لا ينَالُهم اللهُ برحمةٍ﴾؟ فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا، إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنَّه

(١) رواه البخاري في التوحيد (١٣/ ٥٠١).

وأهله.

وفي الصحيحين: عن أبي موسى عن النبيﷺ قال: «إنما مثلي ومثلُ ما بعثني الله به، كمثلِ رجلٍ أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيتُ الجيشَ بعيني، وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنَّجاءَ النَّجاءَ، فأطاعه طائفةٌ من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذَّبه طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلُ مَن أطاعني، واتَّبع ما جئتُ به، ومثل مَن عصاني، وكذَّب ما جئتُ به من الحق».

٩١- وقوله: ﴿الذينَ جَعلُوا القُرآن عِضِينَ﴾ أي: جزَّؤا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، روى البخاري: عن ابن عباس ﴿جَعلُوا القُرآن عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزَّءوه أجزاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وعنه قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى، قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك، وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿جَعلُوا القُرآن عِضِينَ﴾ قال: السحر، وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة. وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

٩٢- قوله: ﴿لنسألنَّهمْ أجمعينَ * عمَّا كانُوا يعْملونَ﴾ وروى عبد الرزاق: عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لنسألنَّهمْ أجمعينَ * عمَّا كانُوا يعْملونَ﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فوربِّكَ لنسألنَّهمْ أجمَعينَ * عمَّا كانُوا يعمَلُونَ﴾ ثم قال: ﴿فيومَئذٍ لا يُسئَلُ عن ذنبِهِ إنسٌ ولا جانٌّ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾

٩٤- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه، والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ﴾ أي: امضه، وفي رواية: افعَلْ ما تُؤمَرُ، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبيﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

٩٥- وقوله: ﴿و أعْرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ * إنَّا كَفَيناكَ المُستَهزِئينَ﴾ أي: بلغ ما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّك، ولا تلتفتْ إلى المشركين، الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿وَدُّوا لو تُدهِنُ فيُدْهِنُونَ﴾ ولا تخفهم، فإنَّ الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ وإن لمْ تفْعلْ فما بلَّغْتَ رسالَتَهُ واللهُ يعْصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين ـ كما حدثني يزيد ابن رومان عن عروة بن الزبير ـ خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة كان رسول اللهﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه،

فقال: «اللهمَّ أعم بصره وأثكله ولده» ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بني سهم ابن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة ابن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان، فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فاصدَعْ بما تُؤْمرُ وأعْرِضْ عن المُشْركينَ ❁ إنَّا كفَيْناكَ المُسْتهزِئينَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فسوفَ يَعْلمُونَ﴾ قال ابن إسحاق: فحدَّثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرَّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجرُّ إزاره، وذلك أنه مرَّ برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فتقتله، ومرَّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شِبْرقةٍ فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله.

وكذا روي عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا خمسة، وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

٩٦- وقوله: ﴿الذينَ يَجْعَلُونَ مع اللهِ إلهاً آخرَ فسوفَ يعْلَمُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

٩٧، ٩٨- وقوله: ﴿ولقَدْ نَعْلَمُ أنَّكَ يَضيقُ صَدْرُكَ بما يقُولُونَ ❁ فسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ وكُن مِّنَ السَّاجدينَ﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد، أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه، فإنه كافيك، وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله، وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فسبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ وكُن مِّنَ السَّاجدينَ﴾.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن نعيم بن هَمَّار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار، أَكْفِك آخره» ورواه أبو داود والنسائي بنحوه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

٩٩- وقوله: ﴿واعْبُدْ ربَّكَ حتَّى يأتِيَكَ اليَقِينُ﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما رواه ابن جرير بسنده عنه. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره، والدليل على ذلك قوله تعالى، إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نكُ مِنَ المُصَلِّينَ ❁ ولَمْ نكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ ❁ وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائِضينَ ❁ وكُنَّا نُكذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ ❁ حتَّى أتانا اليَقِينُ﴾.

وفي الصحيح: عن أمِّ العلاء امرأة من الأنصار: أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير».

و يستدل بهذه الآية الكريمة ، وهي قوله : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري : عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «صَلِّ قائماً ، فإنْ لم تستطعْ فقاعداً ، فإنْ لم تستطعْ فعلى جنب» .

و يستدل بها على تخطئة مَن ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين : المعرفة ! فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ! وهذا كفرٌ وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد الناس ، وأكثر الناس عبادةً ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا : الموت كما قدمناه ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله على الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها ، فإنه جواد كريم .

ترتيبها ١٦ | سورة النحل - مكية | آياتها ١٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾

١ - يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي، الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وقوله: ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «الله» ويحتمل أن يعود على «العذاب» وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

و قد ذهبَ الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده. وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكذيباً؛ قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾.

و روى ابن أبي حاتم: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكمْ عند الساعة سحابةٌ سوداءُ مِن المغرب مِثل التِّرْس، فما تزال ترتفعُ في السماء، ثم ينادي مناد فيها: أيها الناس، فيقبل الناس بعضهمْ على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعْضهمْ لبعض: هل سمعتمْ؟ فيقولون: نعم، ثم يُنادي الثالثة: أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعْجلوه» قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإنَّ الرجل ليمدَّنَّ حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشتغل الناس».

ثم إنه تعالى نزَّه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه، من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾

٢ - يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ﴾ أي: الوحي، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

و قوله: ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم: الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

و قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري،

وعَبَد غيري.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾

٣- يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي، وهو: السموات، والعالم السفلي، وهو: الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق، لا للعبث بل **﴿ليجزي الذينَ أساءُوا بما عَمِلُوا ويَجزيَ الذينَ أحسَنُوا بالْحُسْنَى﴾**. ثم نزَّه نفسه عن شرك مَن عَبَد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أنْ يُعْبد وحده لا شريك له.

٤- ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي: مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرَجَ إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خُلقَ ليكون عبداً لا ضداً، كقوله تعالى: **﴿و هوَ الذي خلقَ مِن الماءِ بشراً فجَعَلهُ نَسَباً وصِهْراً وكانَ ربُّكَ قديراً* ويعبُدُونَ مِن دونِ اللهِ مالاَ ينفعُهمْ ولا يضرُّهمْ وكانَ الكافرُ على ربِّهِ ظهيراً﴾** وقوله: **﴿أولمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقْناهُ مِن نُطْفَةٍ فإذا هوَ خصيمٌ مُبينٌ* وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقَهُ قالَ مَن يُحْيِي العِظامَ وهيَ رميمٌ* قُلْ يُحْيِيها الذي أنشأهَا أوَّلَ مرةٍ وهوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ﴾**.

و في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه: عن بشر بن جحاش قال: بَصَقَ رسولُ اللهِ ﷺ في كفِّه، ثم قال: يقول الله تعالى ابن آدم: أنى تُعْجزني وقد خلقْتكَ مِن مثل هذه، حتى إذا سويتُكَ فعدلتُكَ، مشيتَ بين بُرديكَ وللأرض منكَ وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغَتِ الحلقوم، قلتَ: أتصدق؟ وأنى أوان الصدقة؟».

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾

٥، ٦- يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، كما فصَّلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها، يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، ومالهم فيها من الجَمال وهو الزينة، ولهذا قال: **﴿و لكمْ فيها جَمالٌ حِينَ تُريحُونَ﴾** وهو وقت رجوعها عيشاً من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة **﴿و حِينَ تَسرَحونَ﴾** أي: غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

٧- **﴿و تَحْملُ أثقالكمْ﴾** وهي: الأحمال الثقيلة، التي تعجزون عن نقلها وحملها **﴿إلَى بلدٍ لمْ تكُونُوا بالغيهِ إلاَّ بشِقِّ الأنفُسِ﴾** وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعْملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كقوله: **﴿و إنَّ لكمْ في الأنْعامِ لعِبْرةً نُسْقِيكمْ ممَّا في بُطُونِهَا ولكمْ فيهَا منافعُ كثيرةٌ ومِنها تأكُلونَ* وعَلَيْها وعلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾**، وقال تعالى: **﴿اللهُ الذي جَعَلَ لكم الأنعامَ لتَركبُوا مِنها ومِنها تأكُلُونَ* ولكمْ فيهَا مَنافعُ ولتَبلُغُوا عليْهَا حاجةً في صُدُورِكمْ وعلَيْها وعلَى الفُلْكِ تُحمَلُونَ* ويُريكمْ آياتهِ فأيَّ آياتِ اللهِ تُنكِرُونَ﴾**.

ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النِّعم ﴿إنَّ ربَّكمْ لرءوفٌ رحِيمٌ﴾ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: ﴿أولمْ يروْا أنَّا خلقْنا لهمْ ممَّا عملتْ أيدينا أنعاماً فهمْ لها مالِكُونَ ۞ وذلَّلْناها لهمْ فمِنها ركوبُهمْ ومِنها يأكُلُونَ﴾ وقال: ﴿و جعَلَ لكمْ مِنَ الفُلْكِ والأنعام ما تركبُونَ ۞ لِتستَوُوا على ظُهُورِهِ ثُمَّ تذْكُرُوا نِعْمةَ ربِّكمْ إذا استَويْتُمْ عليهِ وتقُولُوا سبْحانَ الذِي سخَّرَ لنَا هذَا ومَا كُنَّا لهُ مُقْرِنينَ ۞ وإنَّا إلَى ربِّنَا لمُنقَلِبُونَ﴾.

قال ابن عباس ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثيابٌ، والمنافع: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة، وقال مجاهد: ﴿لكمْ فِيها دِفْءٌ﴾ أي: لباس يُنسَجُ ﴿و مَنافعُ﴾ مركبٌ ولحم ولبن، وقال قتادة: دفء ومنافع، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾

٨- هذا صنفٌ آخر مما خَلَقَ تبارك وتعالى لعباده، يمتنُّ به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولمَّا فضَّلها من الأنعام وأفردها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك، على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء، بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس: أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿و الأنعامَ خلقَها لكمْ فيها دفءٌ ومنافعُ ومِنها تأكُلونَ﴾ فهذه للأكل ﴿و الخيلَ والبِغالَ والحَميرَ لتَركَبُوها﴾ فهذه للركوب، وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله، وقال مثل ذلك: الحكم ابن عتيبة أيضاً رحمه الله، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم، وفيه كلام(١).

فلو صحَّ هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله قال: نَهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل.

و رواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم: عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل.

و في صحيح مسلم: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة. فهذه أدلُّ وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

و روى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلَّلها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها، مع أنه قد نهى عن إنزاء الحمر على الخيل، لئلا ينقطع النسل، روى الإمام أحمد: عن دحية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً أعلى فرس، فتنتج لك بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعلُ ذلك الذين لا يعْلمونَ».

---

(١) هو ضعيف الحديث، فالحديث لا يصح.

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾

٩- لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السُبل الحسية، نبَّه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: **﴿و تزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** وقال تعالى: **﴿يابَني آدمَ قدْ أنزَلْنا عليكمْ لباساً يُواري سوآتِكمْ وريشاً ولباسُ التَّقْوَى ذلكَ خيرٌ﴾** ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها، ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة، والأسفار الشاقة؛ شرَع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: **﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾** كقوله: **﴿و أنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولاَ تتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكمْ عن سبيلِهِ﴾** وقال: **﴿قالَ هذا صراطٌ عليَّ مُسْتَقيمٌ﴾**. قال مجاهد في قوله: **﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾** قال: طريق الحق على الله، وقال السدي **﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾** الإسلام، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: **﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾** يقول: وعلى الله البيان، أي: يبيِّن الهُدَى والضلالة، وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طرقاً تُسْلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة.

و لهذا قال تعالى: **﴿و مِنْها جائِرٌ﴾** أي: حائد مائل زائغ عن الحق، قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. وقرأ ابن مسعود **﴿و منكمْ جائرٌ﴾**.

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله، كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: **﴿و لوْ شاءَ لهداكمْ أجمَعينَ﴾** كما قال تعالى: **﴿و لوْ شاءَ لآمنَ مَن في الأرضِ كلُّهمْ جميعاً﴾** وقال: **﴿و لوْ شاءَ ربُّكَ لجعَلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالُونَ مُختلفينَ ۞ إلاَّ مَن رحمَ ربُّكَ ولذلكَ خلقَهمْ وتمَّتْ كلمةُ ربِّكَ لأملأَنَّ جهنَّمَ مِن الجنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعينَ﴾**.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾

١٠ - لما ذَكرَ تعالى ما أنعم به عليهمْ من الأنْعام والدواب، شرَعَ في ذكر نِعْمتهِ عليهم، في إنزال المطر من السماء، وهو العلو، مما لهم فيه بُلغةٌ ومتاع لهم ولأنعامهمْ، فقال: **﴿لكمْ مِنْهُ شرابٌ﴾** أي: جعله عذباً زُلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أُجاجاً **﴿و مِنهُ شجرٌ فيهِ تُسيمُونَ﴾** أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله: **﴿فيهِ تُسيمُونَ﴾** أي: ترعون، ومنه: الإبل السائمة، والسوم الرعي.

١١ - وقوله: **﴿يُنبتُ لكمْ بهِ الزرْعَ والزيتُونَ والنَّخِيلَ والأعْنابَ ومِن كلِّ الثَّمراتِ﴾** أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: **﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يتَفكَّرونَ﴾** أي: دلالة وحجة، على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: **﴿أمَّنْ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنزَلَ لكمْ مِّنَ السماءِ ماءً فأنبتْنا بهِ حدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ ما كانَ لكمْ أنْ تُنبِتُوا شَجَرها أَإلهٌ معَ اللهِ بلْ همْ**

قومٍ يَعْدِلُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)﴾

١٢ - يُنَبِّه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت، والسيارات في أرجاء السموات، نوراً وضياءً ليُهْتَدَى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدَّرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه، وتسخيره وتقديره وتسهيله، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ يُغْشِي الليلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حثيثاً والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُوم مسَخَّرات بأمرِهِ ألا لهُ الخَلْقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالَمِينَ﴾. و لهذا قال: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعْقِلُونَ﴾ أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة، وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

١٣ - وقوله: ﴿و ما ذرأَ لكمْ في الأرضِ مُخْتلِفاً ألوانُهُ﴾ لما نبَّه تعالى على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض، من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنبات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يذَّكَّرونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾

١٤ - يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتنُّ على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره بجُؤجئها، وهو صدرها المُسَنَّم، الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح ﷺ، فإنه أول مَن ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيّرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا وما هنا إلى هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿ولِتَبْتغُوا مِن فضلِهِ ولعلَّكمْ تَشكُرُونَ﴾ أي: نعمه وإحسانه.

١٥ - ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿والجبالَ

أرْسَاهَا﴾ روى عبد الرزاق : عن قتادة سمعت الحسن يقول : لما خُلقت الأرض كانت تميد ، فقالوا : ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً ، فأصبحوا وقد خُلقت الجبال ، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال .

و عن الحسن عن قيس بن عُبَاد نحوه .

و روى ابن جرير : عن علي بن طالب رضي الله عنه قال : لما خلق الله الأرض قمصت ، وقالت : أي رب تجعل عليَّ بني آدم يعملون الخطايا ، ويعْملون على الخبث ؟ قال : فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون ومالا ترون ، فكان إقرارها كاللحم يترجرج .

و قوله : **﴿و أنهاراً وسُبُلاً﴾** أي : جعل فيها أنهاراً ، تجري من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار وأودية ، تجري حيناً وتنقطع في وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطئه ، بحسب ما أراد وقدَّر وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا ربَّ سواه .

و كذلك جعل فيها **﴿سُبُلاً﴾** أي : طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل ، حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالى : **﴿و جَعَلْنا فيهَا فِجاجاً سُبُلاً﴾** الآية .

١٦ – وقوله : **﴿و علاَمَاتٍ﴾** أي : دلائل من جبال كبار ، وآكام صغار ، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق . وقوله : **﴿و بالنَّجْمِ همْ يَهْتَدُونَ﴾** أي : في ظلام الليلِ ، قاله ابن عباس . وعن مالك في قوله : **﴿و علاماتٍ وبالنَّجْمِ همْ يهْتدُونَ﴾** يقول : النجوم وهي الجبال .

١٧ – ثمَّ نبَّه تعالى على عظمته ، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له ، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال : **﴿أفمَن يَخلقُ كمَن لا يَخلقُ أفلاَ تذكَّرونَ﴾** ؟

١٨ – ثم نبّههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فقال : **﴿و إن تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إنَّ اللهَ لغفُورٌ رحِيمٌ﴾** أي : يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذَّبكم لعذَّبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويجازي على اليسير . وقال ابن جرير : يقول : **﴿إنَّ اللهَ لغفورٌ﴾** لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك ، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ، **﴿رحِيمٌ﴾** بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾

١٩ – يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعْلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر .

٢٠ – ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يَخلقون شيئاً ، وهم يُخلقون ، كما قال الخليل **﴿أتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ * واللهُ خَلَقَكمْ وما تَعْمَلُونَ﴾** .

٢١ – **﴿أمواتٌ غَيْرُ أحياءٍ﴾** أي : هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعْقل **﴿و مَا**

﴿يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرتجى عند هذه نفعٌ أو ثواب أو جزاء؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

٢٢- يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك **﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾**. وقوله: **﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾** أي: عن عبادة الله، مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**.

٢٣- ولهذا قال هنا: **﴿لَا جَرَمَ﴾** أي: حقاً **﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾** أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء **﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾**.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾

٢٤- يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين **﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾** مُعرضين عن الجواب **﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يُتْلَى علينا أساطيرُ الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: **﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** أي: يفترون على الرسول، ويقولون أقوالا متضادة مختلفة، كلها باطلة، كما قال تعالى: **﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾** وذلك أن كل مَن خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلفه لهم شيخهم الوحيد، المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما **﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾** أي: يُنقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

٢٥- قال الله تعالى: **﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** أي: إنّما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك، ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «مَن دَعا إلَى هُدى كان له من الأجْر، مِثل أُجور من اتَّبعهُ، لا ينقصُ ذلكَ من أُجورهِمْ شيئاً، ومَن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليهِ من الإِثم مِثلَ آثام مَن اتَّبعه، لا ينقص ذلكَ مِنْ آثامهِمْ شيئاً»(١).

وقال تعالى: **﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية (أنها مثلها)، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم، وذنوب من أطاعهمْ، ولا يخفف عمن أطاعهمْ من العذابِ شيئاً.

---

(١) رواه مسلم في العلم (٤/ ٢٠٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

٢٦- قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد نحوه. وروى عبد الرزاق: عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته وهو الذي بنى الصرح إلى السماء، الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

و قال آخرون: بل هو بختنصر، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

و قال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله، وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، و أمالوهم إلى شركهم بكلّ وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ الآية.

و قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، وقال الله ههنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة عند إسته، بقدر غدرته، فيقال: هذه غَدْرةُ فلان بن فلان».

و هكذا هؤلاء يَظهر للناس ما كانوا يُسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مُقرّعا لهم وموبخا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾.

فإذا توجَّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقّت عليهم الكلمة، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به مالا يضره ومالا ينفعه.

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنتم تعمَلُونَ (٢٨) فادخلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدينَ فيها فلبئسَ مثوى المتكبِّرين (٢٩) ﴾

٢٨- يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم، ومجيء الملائكة إليهم، لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فألقَوُا السَّلَم﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين ﴿ما كنَّا نعملُ من سُوءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربِّنا ما كنَّا مُشركينَ﴾ ﴿يوم يبعثُهم اللهُ جميعاً فيحلِفُونَ له كما يحلِفُونَ لكمْ﴾ قال الله مكذِّباً لهمْ في قيلهم ذلك: ﴿بلَى إنَّ اللهَ عليمٌ بما كنتمْ تعملُونَ﴾.

٢٩- ﴿فادخُلُوا أبوابَ جهنَّمَ خالدينَ فيهَا فلبِئسَ مثوَى المتكبِّرينَ﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان، من دار هوانٍ لمن كان متكبراً عن آيات الله، واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم ﴿لا يُقضَى عليهمْ فيمُوتوا ولاَ يُخفَّفُ عنهم مِّن عذابِها﴾ كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعرَضُونَ عليهَا غُدُوّاً وعشِيّاً ويَوْمَ تقُومُ السَّاعةُ أدخِلُوا آلَ فِرعونَ أشدَّ العذابِ﴾.

﴿ وقيلَ للَّذينَ اتَّقوا ماذا أنزلَ ربُّكُم قالُوا خيراً للَّذينَ أحسنُوا في هذه الدُّنيا حسنةٌ ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ ولنعمَ دارُ المُتَّقين (٣٠) جنَّاتُ عدنٍ يدخلُونها تجري من تحتها الأنهارُ لهُم فيها ما يشاءُون كذلكَ يجزي اللَّهُ المُتَّقينَ (٣١) الَّذينَ تتوفَّاهُمُ الملائكةُ طيِّبينَ يقُولُونَ سلامٌ عليكُمُ ادخُلُوا الجنَّةَ بما كُنتُم تعمَلُونَ (٣٢) ﴾

٣٠- هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإنَّ أولئك قيل لهم ﴿ماذَا أنزلَ ربُّكمْ﴾ قالوا مُعرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا أساطيرُ الأولين، وهؤلاء قالوا ﴿خيراً﴾ أي: أنزل خيرا، أي: رحمةً وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وَعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: ﴿للذينَ أحسَنُوا في هذهِ الدُّنيا حسنةٌ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عمِلَ صالِحاً مِّنْ ذكرٍ وأُنثَى وهوَ مُؤمنٌ فلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً ولَنجزِيَنَّهم أجرَهمْ بأحسنِ ما كانُوا يعمَلُونَ﴾ أي: من أحسن عمله في الدنيا، أحسن الله إليه عمله في الآخرة والدنيا، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وقالَ الذينَ أوتُوا العِلْمَ ويْلَكُم ثوابُ اللهِ خيرٌ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما عندَ اللهِ خيرٌ للأبْرارِ﴾ وقال تعالى: ﴿والآخِرةُ خيرٌ وأبْقَى﴾ وقال لرسولهﷺ ﴿وللآخرةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأولَى﴾ ثم وَصف الدار الآخرة فقال: ﴿ولَنِعمَ دارُ المتَّقِينَ﴾.

و قوله: ﴿جنَّاتِ عدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين، أي: لهم في الآخرة جنات عدن، أي: مقام يدخلونها ﴿تجْري مِن تحتِها الأنهارُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿لهمْ فيها ما يشاءُونَ﴾ كقوله: ﴿وفيهَا ما تشتَهيهِ الأنفُسُ وتلذُّ الأعيُنُ وأنتمْ فيها خالِدُونَ﴾، ﴿كذلِكَ يجْزِي اللهُ المتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه، وأحسن عمله.

٣٢- ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ قالُوا ربُّنا اللهُ ثمَّ استقَامُوا تتنزَّلُ

عليهم الملائكةُ أن لا تخافُوا ولا تحزنُوا وأبشِرُوا بالجنةِ التي كُنتمْ توعدُونَ* نحنُ أولياؤُكمْ في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ولكمْ فيهَا ما تَشْتهِي أنفُسكمْ ولكمْ فِيهَا ما تدَّعُونَ* نُزُلاً مِّن غَفُورٍ رَّحِيم﴾ .

و قد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر، عند قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنُوا بالقَولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ويُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾

٣٣- يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل، واغترارهم بالدنيا، هل ينتظرون هؤلاء إلا الملائكة أنْ تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة ﴿أو يأتِيَ أمرُ ربِّكَ﴾ أي: يوم القيامة، وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: ﴿كذلكَ فَعلَ الذينَ مِن قبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم: أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأسَ الله، وحلُّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ومَا ظلَمهم اللهُ﴾ لأنه تعالى أعذَرَ إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال رسله، وإنزال كتبه ﴿و لكِن كانُوا أنفُسهمْ يظلِمُونَ﴾ أي: بمخالفة الرسل، والتكذيب بما جاءوا به.

٣٤- فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿و حاقَ بهمْ﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ما كانُوا بِهِ يستهزئُونَ﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النارُ التِي كُنتمْ بها تُكذِّبُونَ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) ﴾

٣٥- يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقَدَر، بقولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عبَدْنا مِن دونِهِ مِن شيءٍ نَّحنُ ولا آباؤُنا ولا حرَّمْنا مِن دونه مِن شيءٍ﴾ أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكّننا منه!

قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم ﴿فهلْ علَى الرُّسُلِ إلاَّ البلاغُ المُبِينُ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمُون، أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي.

٣٦- وبَعَثَ ﴿في كلِّ أمَّةٍ﴾ أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أن اعبُدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزلْ تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك،

منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** وقوله تعالى: **﴿و اسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** وقال تعالى في هذه الآية الكريمة **﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول **﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾** فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله. وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها، من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: **﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل، وكذب الحق، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فقال: **﴿و لقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾**.

٣٧- ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: **﴿و من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾** وقال نوح لقومه **﴿و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾** وقال في هذه الآية الكريمة **﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾** كما قال الله: **﴿من يضلل فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾** وقال تعالى: **﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾**.

و قوله: **﴿فإن الله﴾** أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: **﴿لا يهدي من يضل﴾** أي: من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد **﴿و ما لهم من ناصرين﴾** أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه، **﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾**.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا **﴿بالله جهد أيمانهم﴾** أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان، على أنه **﴿لا يبعث الله من يموت﴾** أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم، وراداً عليهم **﴿بلى﴾** أي: بلى سيكون ذلك **﴿وعداً عليه حقاً﴾** أي: لا بد منه **﴿و لكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

٣٩- ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد، وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: **﴿ليبين لهم﴾** أي: للناس **﴿الذي يختلفون فيه﴾** أي: من كل شيء **﴿و يجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾** **﴿و ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾** أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يدعون إلى نار جهنم دعاً، وتقول لهم الزبانية: **﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون *﴾**

اصْلَوْهَا فاصبِرُوا أوْ لاَ تَصبِرُوا سواءٌ عليكمْ إنّما تُجزَونَ ما كنتُمْ تَعملُونَ﴾ .

٤٠ - ثم أخر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ، والمعاد من ذلك ، إذا أراد كونه ، فإنما يأمر به مرة واحدة ، فيكون كما يشاء ، كقوله : **﴿و ما أَمْرُنا إلاَّ واحِدةٌ كلمحٍ بِالبَصَرِ﴾** وقال : **﴿ما خلقُكمْ ولاَ بَعْثُكمْ إلاَّ كنفسٍ واحِدةٍ﴾** .

و قال في هذه الآية الكريمة : **﴿إنّما قولُنا لشيءٍ إذا أردْناهُ أن نَقُولَ لهُ كُن فيكُونُ﴾** أي : أن نأمر به مرة واحدة ، فإذا هو كائن .

أي : أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وو روى ابن أبي حاتم : عن أبي هريرة يقول : قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك . فأما تكذيبه إياي فقال : **﴿و أقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهمْ لا يَبْعثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾** قال : وقلت : **﴿بلَى وعداً عليهِ حقاً ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ﴾** وأما شتمه إياي فقال : **﴿إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ﴾** وقلت : **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ ❁ اللهُ الصَّمَدُ ❁ لمْ يلِدْ ولمْ يُولَدْ ❁ ولمْ يَكُن لهُ كُفُواً أحَدٌ﴾** » هكذا ذكره موقوفاً ، وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) ﴾

٤١ - يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه . و يحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة ، الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ، ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صدِّيق وصدِّيقة رضي الله عنهم وأرضاهم ، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة ، في الدنيا والآخرة ، فقال : **﴿لَنُبوِّئَنَّهمْ في الدُّنيا حسنةً﴾** قال ابن عباس والشعبي وقتادة : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد ، ولا منافاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإنَّ من ترك شيئاً لله عوَّضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فإنهم مكَّن الله لهم في البلاد ، وحكَّمهم على رقاب العباد ، وصاروا أمراء حكاماً ، وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا ، فقال : **﴿و لأجْرُ الآخرةِ أكبَرُ﴾** أي : مما أعطيناهمْ في الدنيا **﴿لوْ كانُوا يعْلمونَ﴾** أي : لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم ، يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله .

٤٢ - ثم وصفهم تعالى فقال : **﴿الذينَ صبرُوا وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلُونَ﴾** أي : صبروا على الأذى من قومهم ، متوكلين على الله ، الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ

وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾

٤٣- قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكر العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: **﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾** الآية، وقال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** يعني: أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإنْ كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً، فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً. قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

و كذا روى عن مجاهد عن ابن عباس، أنَّ المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، قاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر: القرآن، واستشهد بقوله: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده أن هذه الأمة: أهل الذكر، صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة. وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء، إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي وابن عباس، وابني علي الحسن والحسين، ومحمد ابن الحنفية، وعلى بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسن وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعَرَف لكل ذي حق حقه، ونزَّل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين.

و الغرض أن هذه الآية الكريمة، أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ، كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: **﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ۝ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾**؟ وقال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾**، وقال: **﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾**، وقال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾**، ثم أرشد الله تعالى مَن شك في كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة، عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم **﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أي: بالحجج والدلائل **﴿وَالزُّبُرِ﴾** وهي: الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زَبرتُ الكتاب إذا كتبته. وقال تعالى: **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾**، وقال: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**.

ثم قال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾** يعني: القرآن **﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾** أي: من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، فتُفصِّل لهمْ ما أُجمل، وتبين لهم ما أَشكل **﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

٤٥- يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة، الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أنْ يخسف بهم الأرض، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

٤٦- وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تقلُّبهمْ في المعايش، واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. قال قتادة والسدي: تقلبهم أي: أسفارهم، وقال مجاهد والضحاك وقتادة ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

و قوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

٤٧- وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد. ولهذا قال العوفي عن ابن عباس ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يُعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبرَ علَى أذًى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم». وفيهما: «إنَّ الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾

٤٨- يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه، الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أنَّ كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس، سجد كل شيء لله عزوجل. وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

٤٩- ونزّلهم منزلة مَن يعقل إذْ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن دابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿ولله يَسْجُدُ مَن في السَّمواتِ والأرضِ طوعاً وكرهاً وظِلالُهمْ بالغُدُوِّ والآصالِ﴾.

وقوله: ﴿والملائكةُ وهمْ لا يستكبِرونَ﴾ أي: تسجد لله، أي: غير مستكبرين عن عبادته.

٥٠- ﴿يخافُونَ ربَّهمْ مِّن فوقِهمْ﴾ أي: يسجدون، خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ويفعلُونَ مايُؤمرونَ﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾

٥١- يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿ولهُ الدِّينُ واصِباً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي: دائماً، وعن ابن عباس أيضاً: أي: واجباً، وقال مجاهد: أي: خالصاً، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أفغيرَ دينِ اللهِ يبْغونَ ولهُ أسْلمَ مَن في السَّمواتِ والأرضِ طوعاً وكرهاً وإليهِ يُرْجعُونَ﴾ هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد، فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أنْ تُشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: ﴿ألا للهِ الدِّينُ الخالِصُ﴾.

٥٣- ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر، فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثمَّ إذا مسَّكم الضُّرُّ فإليهِ تجأرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتُلحُّون في الرغبة إليه، مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسَّكُم الضُّرُّ في البحرِ ضلَّ مَن تدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ فلمَّا نجَّاكمْ إلَى البرِّ أعْرضتُمْ وكانَ الإنسانُ كفوراً﴾.

٥٤- وقال ههنا: ﴿ثمَّ إذا كشَفَ الضُّرَّ عنكمْ إذا فريقٌ مِّنكمْ بربِّهِمْ يُشْرِكونَ ♦ ليكفُرُوا بما آتيناهمْ﴾ قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك.

٥٥- ﴿ليكفُروا﴾ أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فتمتَّعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فسوفَ تعلَمونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾

٥٦- يخبر تعالى عن قبائح المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هذا للهِ بزعمِهِمْ وهذا لشُركائنا فما كانَ لشُركائهِمْ فلا يصِلُ إلى الله وما كانَ للهِ فهوَ يصِلُ إلى شُركائهِمْ ساءَ ما يحكُمونَ﴾ أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضّلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة، ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تاللهِ لتُسألُنَّ عمّا كنتمْ تفترونَ﴾.

٥٧- ثم أخبر تعالى عنهم: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، و جعلوها بنات الله فعبدوها معه، فأخطأوا خطأً كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد، وهو: البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ألكم الذَّكرُ ولهُ الأُنثى* تِلْكَ إذاً قِسمةٌ ضِيزَى﴾ وقوله ههنا: ﴿و يجعلُونَ للهِ البناتِ سُبْحانهُ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم ﴿ألا إنَّهم مِّنْ إفْكِهِمْ ليقُولُونَ* ولدَ اللهُ وإنَّهمْ لكاذِبونَ* أصطَفَى البناتِ علَى البَنِينَ* ما لكمْ تحكُمونَ﴾ وقوله: ﴿و لهُم ما يشْتهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

٥٨- فإنه ﴿إذا بُشِّرَ أحدُهمْ بالأُنثَى ظلَّ وَجهُهُ مُسوداً﴾ أي: كئيباً من الهم ﴿وهوَ كظِيمٌ﴾ ساكتٌ، من شدة ما هو فيه من الحزن.

٥٩- ﴿يتوارَى مِن القومِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سوءِ ما بُشِّرَ به أيُمْسِكُهُ علَى هُونٍ أمْ يدُسُّهُ في التُّرابِ﴾ أي: إنْ أبقاها أبقاها مُهانة، لا يُورثُها ولا يعتني بها، ويفضّل أولاده الذكور عليها ﴿أمْ يَدُسُّهُ في التُّرابِ﴾ أي: يئدها، وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة، ويأنفون لأنفسهم عنه، يجعلونه لله؟! ﴿ألاَ ساءَ ما يَحْكُمونَ﴾ أي: بئسَ ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: ﴿و إذا بُشِّرَ أحدُهم بما ضربَ للرَّحمنِ مثلاً ظلَّ وجْهُهُ مُسوداً وهوَ كظِيمٌ﴾.

٦٠- وقوله ههنا: ﴿للذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ مَثلُ السَّوءِ﴾ أي: النقص إنما يُنسبُ إليهم ﴿و للهِ المثَلُ الأعْلَى﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه ﴿وهوَ العزيزُ الحكيمُ﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾

٦١- يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا، ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض، تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، ويُنظر ﴿إلى أجلٍ مُّسَمّى﴾ أي: لا يعالجهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذك بهم لما أبقى أحداً.

روى سفيان الثوري: عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجُعل أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ الآية: ﴿ولوْ يؤاخِذُ اللهُ الناسَ بظُلْمِهِمْ ما تركَ عليها مِن دابَّةٍ﴾.

٦٢- وقوله: ﴿و يجعلونَ للهِ ما يكرَهونَ﴾ أي: البنات، ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن

يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿و تصفُ ألسنتُهم الكذبَ أنَّ لهمُ الحُسنَى﴾ إنكارٌ عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثَمَّ معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿و لئنْ أذقْنا الإنسانَ منَّا رحمةً ثُمَّ نزعْناها منهُ إنَّهُ ليؤوسٌ كفُورٌ﴾ ولئنْ أذقْناهُ نعْماءَ بعدَ ضرَّاءَ مسَّتْهُ ليقولنَّ ذهبَ السَّيِّئاتُ عنِّي إنَّهُ لفرِحٌ فخورٌ﴾، وقوله: ﴿و لئنْ أذقْناهُ رحمةً منَّا من بعدِ ضرَّاءَ مسَّتْهُ ليقُولنَّ هذَا لي وما أظنُّ السَّاعةَ قائمةً ولئن رُجعتُ إلى ربِّي إنَّ لِي عِندهُ للحُسنَى فلنُنبِّئنَّ الذينَ كفرُوا بما عملوا ولنُذِيقنَّهم مِّن عذابٍ غليظٍ﴾، وقوله: ﴿أفرأيتَ الذي كفرَ بآياتنا وقال لأوتيَنَّ مالاً وولداً﴾، وقال إخباراً عن أحد الرجلين إنه ﴿دخلَ جنَّتَه وهوَ ظالمٌ لنَفْسِهِ فقالَ ما أظنُّ أن تبيدَ هذهِ أبداً﴾ وما أظنُّ السَّاعةَ قائمةً ولَئن رُدِدتُ إلَى ربِّي لأجِدَنَّ خيراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل!

و قال مجاهد وقتادة ﴿و تَصِفُ ألسِنَتُهم الكَذِبَ أنَّ لَهم الحُسْنَى﴾ أي: الغلمان، وقال ابن جرير ﴿أنَّ لَهم الحُسْنَى﴾ أي: يوم القيامة. كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد، ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك ﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد منه ﴿أنَّ لَهُم النَّارَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿و أنَّهُم مُفرطُونَ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿فاليَومَ نَنساهُمْ كمَا نَسُوا لِقاءَ يومِهِمْ هذا﴾ وعن قتادة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾، أي: معجلون إلى النار، من «الفرط» وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة، لأنهم يُعجَّل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون.

﴿ تاللَّهِ لَقدْ أَرسلْنَا إِلَىٰ أُممٍ مِّن قَبْلِكَ فزيَّنَ لهُمُ الشَّيْطَانُ أَعمالَهُمْ فهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ولَهُمْ عذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وما أَنزلْنا عليْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبيِّنَ لهُمُ الَّذِي اخْتلَفُوا فيهِ وهُدًى ورحْمةً لِّقوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) واللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بعْدَ موْتِها إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقوْمٍ يسْمَعُونَ (٦٥) ﴾

٦٣- يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكُذِّبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوا. ﴿فهوَ وليُّهم اليومَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

٦٤- ثم قال تعالى لرسوله: أنه إنما أنزل عليك الكتاب، ليبين للناس يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿و هُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿و رَحْمةً﴾ أي: لمن تمسك به ﴿لقومٍ يُؤمِنونَ﴾.

٦٥- وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يُحيي الأرض بعد موتها، بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يَسمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿ وإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بيْنِ فَرْثٍ ودمٍ لَّبنًا خالِصًا سائِغًا لِّلشَّارِبِين (٦٦) ومِن ثَمراتِ النَّخِيلِ والأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سكَرًا ورِزْقًا حسنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

٦٦- يقول تعالى: ﴿وإنَّ لكمْ﴾ أيها الناس ﴿في الأنْعام﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم ﴿لعِبْرة﴾ أي: لآيةً ودلالة على حكمة خالقها، وقدرته ورحمته ولطفه ﴿نُسقيكُم مِّمَّا في بُطونِهِ﴾ أفرده ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿ممَّا في بُطُونهَا﴾ ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كلاَّ إنَّها تذكِرةٌ۞ فَمَن شاءَ ذكرهُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿و إنِّي مُرْسِلةٌ إليْهِم بهَدِيَّةٍ فناظِرةٌ بِمَ يرجِعُ المُرْسَلُونَ۞ فلمَّا جاءَ سُليمانُ﴾ أي: المال.

و قوله: ﴿مِن بيْنِ فَرثٍ ودمٍ لَّبَناً خالِصاً﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به، وقوله: ﴿لبَناً خالِصاً سائِغاً للشَّاربِينَ﴾ أي: لا يغص به أحد.

٦٧- ولما ذكر اللبن، وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، ثنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ومِن ثمَراتِ النَّخِيلِ والأعْنابِ تتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَراً﴾ دلَّ على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل، والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَراً ورِزْقاً حَسَناً﴾ قال: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء ـ وهو: الدبس ـ وخل ونبيذ حلال، يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يعقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة، صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿و جَعلْنا فِيها جنَّاتٍ مِّن نخِيلٍ وأعْنابٍ وفجَّرْنا فيهَا مِنَ العُيُونِ ليأكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وما عمِلتْه أيدِيهِمْ أفلاَ يشكُرونَ۞ سُبحانَ الذِي خلَقَ الأزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ ومِنْ أنفُسِهِمْ ومِمَّا لاَ يَعلَمُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾

٦٨- المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً: أن تأكل من الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل مِنْ فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

٦٩ – وقال قتادة وعبد الرحمن ن زيد بن أسلم ﴿فاسلُكِي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً﴾ أي : مطيعة، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى: ﴿و ذَلَّلْناهَا لهمْ فمِنهَا رَكُوبُهمْ ومِنهَا يأكُلُونَ﴾ قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته، من بلد إلى بلد، وهو يصبحهم؟ والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حالٌ من الطريق، أي: فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

و قد روى أبويعْلى الموصلي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمر الذباب أربعون يوماً، والذُّباب كلُّه في النار، إلا النَّحل»(١).

و قوله تعالى: ﴿يخرجُ مِن بُطُونها شرابٌ مُّختلفٌ ألوانُه فيهِ شفاءٌ للناسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها.

و قوله: ﴿فيهِ شِفاءٌ للنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس، أي: من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فيهِ شفاءٌ للنَّاسِ﴾ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوي بضده، وقال مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿فيهِ شفاءٌ للنَّاسِ﴾ يعني: القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإنَّ الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿و نُنَزِّلُ مِن القُرآنِ ما هُوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قدْ جاءتْكُم مَّوْعِظةٌ مِّن ربِّكُمْ وشفاءٌ لمَا في الصُّدورِ وهُدًى ورحمةٌ للمُؤمنينَ﴾.

و الدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فيهِ شفاءٌ للنَّاسِ﴾ هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهبْ فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدقَ الله، وكذبَ بطنُ أخيكَ، اذهبْ فاسقِهِ عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرئ.

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار، تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

و في الصحيحين: من حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. هذا لفظ البخاري.

و في صحيح البخاري: عن ابن عباس قال: قال رسول الله: «الشفاءُ في ثلاثة: في شَرْطةِ مِحْجم، أو شُربة عسل، أو كيَّة بنار، وأنهى أمتي عن الكي». وروى البخاري: عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شَرْطة محجم، أو شربة عسلٍ، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحبّ أن اكتوى» ورواه مسلم.

و روى الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول

(١) قوله: «و الذباب كلُّه في النار» ليعَذَّب بها أهلها، لا ليعذب هو، كذا قال الخطابي، انظر فيض القدير (٣/ ٥٦٩).

الله ﷺ: «عليكمْ بالشفاءين العسل والقرآن» وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير موقوفاً وهو أشبه. وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء: فليكتب آيةً من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء. أي: من وجوه: قال الله تعالى: **﴿و نُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحمةٌ لِلمُؤمِنينَ﴾**، وقال: **﴿و أنزَلْنَا مِنَ السَّماءِ ماءً مُّباركاً﴾**، وقال: **﴿فإنْ طِبْنَ لكُم عَن شيءٍ مِّنهُ نَفْساً فكُلُوهُ هنيئاً مَّريئاً﴾**، وقال في العسل: **﴿فيهِ شِفاءٌ للنَّاسِ﴾**.

و روى ابن ماجه أيضاً: عن إبراهيم بن أبي عبلة: سمعت أبا أبي بن أم حرام ـ وكان قد صلى القبلتين ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكُم بالسَّنا والسَّنُّوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت». قال ابن أبي عبلة: «السنوت» الشِّبِتُ، وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُّوت لا أَلْس فيهِم وهم يمنعُونَ الجارَ أن يُقرَّدَا

كذا رواه ابن ماجه، وقوله: لا أَلْس فيهم، أي: لا خلط، وقوله: يمنعون الجار أن يقردا، أي: يُضطهد ويُظلم.

و قوله: **﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لقَومٍ يَتفكَّرُونَ﴾** أي: إنَّ في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخِلْقة، إلى السلوك في هذه المهامة، والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، لآية **﴿لقوم يتفكَّرونَ﴾** في عظمة خالقها ومقدرها، ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

٧٠- يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة، كما قال تعالى: **﴿اللهُ الذي خلَقكُم مِّن ضَعفٍ ثمَّ جعلَ مِن بعدِ ضعفٍ قوَّةً﴾** الآية، وقد روي عن علي رضي الله عنه **﴿أرذل العُمُرِ﴾**: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى، والخرف وسوء الحفظ، وقلة العلم، ولهذا قال: **﴿لكيلاَ يعلمَ بعدَ عِلمٍ شيئاً﴾** أي: بعد ما كان عالماً، أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف.

و لهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدعو «أعوذُ بكَ مِن البُخْلِ والكسَلِ، والهرَم وأرذل العمر، و عذاب القبر، وفتنة الدَّجَّال، وفتنة المحْيا والمَمَات».

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

٧١- يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم، فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك! تملكه وما ملك. فقال تعالى

منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم!؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي، مالا ترضون لأنفسكم، وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلهة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته، وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإنْ لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزه منك.

و قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فَضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بَسطَ له كيف شُكْره لله؟ وأداؤه الحق الذي افترض عليه رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

٧٢- يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأنْ جعلَ لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعلَ الأزواج من نوع آخر، ما حصل الائتلاف والمودّة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وهم الولد، وولد الولد.

و قال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس وغير واحد: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري. وروى عبد الرزاق عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه. ويقال: الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا، أي: يعمل لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة أَخْتان الرجل. وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي، ورواه عكرمة عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى «الحَفْد»، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: «وإليك نسعَى ونَحْفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

قلت: فمن جعل ﴿و حَفَدَة﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد، أو الأصهار، لأن أزواج البنات وأولاد الزوجة. و كذا قال الشعبي والضحاك، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل، وفي حجره وخدمته. وأمامن جعل الحفدة الخدم، فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿و اللهُ جعَلَ لكمْ مِن أنفُسكُم أزْواجاً﴾ أي: جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً.

و قوله: ﴿و رَزَقَكُم مِن الطَّيِّباتِ﴾ أي: من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿أفبالباطِلِ يُؤمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿و بِنِعْمةِ اللهِ هُمْ يَكفُرُونَ﴾ يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إنَّ اللهَ يَقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ ممتنًا عليه: ألم أُزوِّجكَ؟ ألمْ أُكرمْكَ؟ ألمْ أُسخرْ لكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأذرك تَرأس وتربع؟».

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

٧٣- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل، الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان، ﴿ما لاَ يَملِكُ لهُمْ رِزقاً مِن السَّمواتِ والأرضِ شيئاً﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه.

٧٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إنَّ اللهَ يعْلَمُ وأنتمْ لا تعْلمونَ﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

٧٥- قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثَلٌ ضربهُ الله للكافر والمؤمن. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً، هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثَلٌ مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً، لا يجهله إلا كل غبي، قال الله تعالى: ﴿الحمْدُ للهِ بَلْ أكثَرُهمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾

٧٦- قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن، والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه ﴿أيْنَما يُوجِّههُ﴾ أي: يبعثه ﴿لا يأتِ بخَيرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هلْ يَستَوِي﴾ مَنْ هذه صفاته ﴿و مَن يأمُرُ بالعدْلِ﴾ أي: بالقِسط، فمقاله حق، وفعاله مستقيمة ﴿و هوَ علَى صِراطٍ مُستقِيمٍ﴾. وبهذا قال السدي وقتادة

وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير.

و قال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

و روى ابن جرير: عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله: **﴿ضَرَبَ اللهُ مثلاً عَبْداً مَمْلوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شيءٍ﴾** قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، يعني قوله: **﴿عبداً مَملوكاً﴾** الآية، وفي قوله: **﴿و ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رجُلَينِ أحدُهما أبْكَمُ ـ إلى قوله ـ وهوَ على صِراطٍ مُستقِيم﴾** قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾

٧٧- يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: **﴿و ما أمْرُنَا إلاّ واحِدةٌ كَلَمْحٍ بالْبَصَرِ﴾** أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: **﴿و ما أمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾** كما قال: **﴿ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾**.

٧٨- ثم ذكر تعالى منّته على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي: العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارّها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيدَ في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

و إنما جَعَلَ تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوّة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري: عن أبي هريرة عن رسول اللهﷺ أنه قال: «يقول تعالى: مَنْ عادَى لِي ولياً فقدْ بارزَني بالحرب؛ وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أفضل من أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يَسمعُ به، وبصره الذي يُبصرُ به، ويده التي يَبطشُ بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن دعاني لأجيبنّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنّه، وما ترددت في شيءٍ أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فمعنى الحديث: أنّ العبد إذا أخلص الطاعة، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله: «و رجله التي يمشي بها»: «فبي يسمع، وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». ولهذا قال تعالى: **﴿و جعلَ لكم السَّمعَ والأبْصارَ والأفئدةَ لعلَّكُمْ تشكُرونَ﴾**،

كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هوَ الذِي أنشأكمْ وجَعلَ لكُم السَّمْعَ والأبْصارَ والأفئدةَ قليلاً ما تشكُرونَ* قُلْ هوَ الذِي ذرأكمْ في الأرضِ وإليهِ تُحْشَرونَ﴾.

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جَعَله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخَّر الهواء يحملها، ويسَّر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿أولمْ يروْا إلَى الطَّيْرِ فوقَهمْ صافَّاتٍ ويقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهنَّ إلاَّ الرَّحْمنُ إنَّهُ بكلِّ شيءٍ بصيرٌ﴾، وقال ههنا: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾

٨٠- يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِن جُلُودِ الأنعامِ بيُوتاً﴾ أي: الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَستَخِفُّونها يومَ ظَعْنِكُمْ ويومَ إقَامَتِكمْ ومِنْ أصْوافِهَا﴾ أي: الغنم ﴿و أوْبارِها﴾ أي: الإبل ﴿و أشْعارِها﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أثاثاً﴾ أي: تتخذُون منه أثاثاً، وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث: البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة، وقوله: ﴿إلَى حِينٍ﴾ أي: إلى أجلٍ مُسمًّى ووقت معلوم.

٨١- وقوله: ﴿و اللهُ جعلَ لكُم مِمَّا خلقَ ظِلالاً﴾ قال قتادة: يعني الشجر ﴿و جعلَ لكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً﴾ أي: حصوناً ومعاقل، كما ﴿جعَلَ لكُمْ سرابِيلَ تقيكُم الحرَّ﴾ وهي: الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿و سرابِيلَ تقيكُم بأسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿كذلكَ يُتمُّ نِعْمَتَهُ عليْكمْ﴾ أي: هكذا يجعلُ لكُم ما تستعينُون به على أمركم، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لعلَّكمْ تُسْلِمونَ﴾ هكذا فسَّره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمون﴾ من الإسلام، وقال قتادة في قوله: ﴿كذلكَ يُتمُّ نِعْمتَهُ عليكمْ﴾ هذه السورة تُسمَّى: سورة النعم.

و قال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿و اللهُ جعلَ لكُم مما خلقَ ظِلالاً وجعلَ لكُم مِن الجِبالِ أكْناناً﴾ وما جعل لهم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿و مِنْ أصْوافِها وأوبارِها وأشْعارِها أثاثاً ومتاعاً إلى حِينٍ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿و يُنَزِّلُ من السَّماءِ مِن جبالٍ

فيها من برد﴾ لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿سرابيل تقيكم الحر﴾** وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

٨٢- وقوله: **﴿فإن تولوا﴾** أي: بعد هذا البيان، وهذا الامتنان فلا عليك منهم **﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾** وقد أديته إليهم.

٨٣- **﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾** أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره **﴿وأكثرهم الكافرون﴾**.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

٨٤- يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: **﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾** أي: في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: **﴿هذا يوم لا ينطقون ۝ ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾** فلهذا قال: **﴿ولا هم يستعتبون﴾**.

٨٥- **﴿وإذا رأى الذين ظلموا﴾** أي: الذين أشركوا العذاب **﴿فلا يخفف عنهم﴾** أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة **﴿ولا هم ينظرون﴾** أي: لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف، كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: **﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ۝ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ۝ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾** وقال تعالى: **﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾** وقال تعالى: **﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ۝ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون﴾**.

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: **﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾** أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا **﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾** أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: **﴿ومن**

أضلُّ ممَّن يَدْعوا من دون الله مَن لا يستجيبُ له إلَى يوم القِيامةِ وهُمْ عَنْ دُعائِهمْ غافِلُونَ * وإذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لهمْ أعداءً وكانُوا بعِبادتِهمْ كافِرينَ﴾ وقال تعالى: **﴿و اتَّخذُوا مِن دونِ الله آلهةً ليكونُوا لهمْ عِزّاً * كلاَّ سيَكْفُرونَ بعِبادتِهمْ ويَكونونَ عليهمْ ضِدّاً﴾** وقال الخليل عليه الصلاة والسلام **﴿ثُمَّ يومَ القِيامةِ يكفرُ بعْضُكمْ ببَعْضٍ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿و قيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكمْ﴾** الآية، والآيات في هذا كثيرة.

٨٧- وقوله: **﴿و ألْقَوْا إلَى اللهِ يومَئذٍ السَّلَمَ﴾** قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: **﴿أسْمِعْ بهِمْ وأبصِرْ يومَ يأتونَنا﴾** أي: ما أسْمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: **﴿و لوْ تَرَى إذِ المُجْرِمونَ ناكِسُوا رُؤوسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ ربَّنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا﴾** الآية، وقال: **﴿و عَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحيِّ القَيُّومِ﴾** أي: خضَعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت، وقوله: **﴿و ألْقَوا إلَى اللهِ يومئذٍ السَّلَمَ وضلَّ عنهمْ ما كانُوا يفترونَ﴾** أي: ذهب واضمحلَّ ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

٨٨- ثم قال تعالى: **﴿الذينَ كفَرُوا وصَدُّوا عَن سبيلِ اللهِ زِدْناهمْ عذاباً﴾** الآية، أي: عذاباً على كُفْرِهمْ، وعذاباً على صدِّهمْ الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: **﴿وهمْ يَنْهونَ عنهُ ويَنأونَ عنه﴾** أي: ينهون الناس عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضاً **﴿و إن يُهْلِكونَ إلاَّ أنفُسهمْ وما يَشْعُرونَ﴾** وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: **﴿قالَ لكُلٍّ ضِعْفٌ ولكِن لا تَعْلَمونَ﴾** وقد روى الحافظ أبو يعْلى: عن مسروق عن عبد الله في قول الله **﴿زِدْناهمْ عذاباً فوقَ العذابِ﴾** قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

٨٩- يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداًﷺ **﴿و يَومَ نَبْعثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً عليْهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ وَجِئْنا بكَ شهيداً علَى هؤلاءِ﴾** يعني أمتك. أي: اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود، حين قرأ على رسول اللهﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: **﴿فكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بشَهيدٍ وجِئنا بكَ علَى هؤلاءِ شهيداً﴾** فقال له رسول اللهﷺ: «حَسْبُكَ» فقال ابن مسعودرضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

وقوله: **﴿و نزَّلْنا عليكَ الكتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾** قال ابن مسعود: قَدْ بُيِّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم **﴿و هُدًى﴾** أي: للقلوب **﴿و رحْمةً وبُشْرَى للمُسْلِمينَ﴾**. وقال الأوزاعي **﴿ونزَّلْنا عليكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾** أي: بالسنة، ووجه اقتران قوله: **﴿و نزَّلْنا عليكَ الكتابَ﴾** مع قوله: **﴿وَجِئْنا بكَ شهيداً علَى هؤلاءِ﴾** أن المراد ـ والله أعلم ـ إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة **﴿فلنسأَلنَّ الذينَ أُرْسِلَ إليهِمْ ولنسأَلنَّ المُرسَلينَ﴾**، **﴿فوربِّكَ لنسْألنَّهمْ أجْمعِينَ * عمَّا**

كانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿يومَ يجمعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لنا إنَّكَ أنتَ علاَّمُ الغُيُوبِ﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّ الذي فرَضَ عليكَ القرآنَ لرادُّكَ إلى معادٍ﴾ أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن، لرادُّك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

٩٠- يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو: القسط والموازنة، ويَندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: ﴿وَ إنْ عاقَبْتمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتمْ بهِ ولئنْ صَبرتُمْ لَهوَ خيرٌ للصَّابِرينَ﴾، وقوله: ﴿وَ جزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها فمَنْ عفَا وأصلحَ فأجْرُهُ علَى اللهِ﴾ وقال: ﴿وَ الجُرُوحَ قِصَاص فَمنْ تصَدَّقَ بِهِ فهوَ كفَّارةٌ لهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل، والندب إلى الفضل. وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية، من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته؛ وقوله: ﴿وَ إيتاءِ ذِي القُرْبَى﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَ آتِ ذَا القُرْبَى حقَّهُ والمِسكينَ وابنَ السَّبيلِ ولا تُبذِّرْ تبْذِيراً﴾.

و قوله: ﴿وَ ينْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ والمُنكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر ﴿قُلْ إنَّما حرَّمَ ربِّيَ الفَواحِشَ ما ظهرَ منْها وما بطَنَ﴾ وأما البغي: فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: «ما من ذنبٍ أجدر أنْ يُعجِّل اللهُ عقوبته في الدنيا، مع ما يدَّخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم».

و قوله: ﴿يعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لعلَّكمْ تذكَّرونَ﴾. وعن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالْعَدْلِ والإحْسانِ﴾ الآية، رواه ابن جرير. وعن قتادة: قوله: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالْعَدْلِ والإحْسانِ﴾ الآية، ليس من خُلُقٍ حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه، إلا أمر الله به، وليس من خُلقٍ سيءٍ كانوا يتعايرونه بينهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ اللهَ يُحبُّ معالي الأخلاق، ويكره سَفاسفها»[(١)].

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾

٩١- هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَ لا تنقُضُوا الأيْمانَ بعدَ توكِيدِها﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَ لاَ تَجْعلُوا اللهَ عُرضَةً

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٨) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

لأيمانكم﴾ الآية، وبين قوله تعالى: **﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾** أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنّي والله ـ إن شاء الله ـ لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خير آمنها، إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها ـ وفي رواية ـ وكفَّرتُ عن يميني».

لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: **﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾** لأنَّ هذه الأيمان المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حثٍّ أو منعٍ، ولهذا قال مجاهد في قوله: **﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾** يعني: الحِلْف، أي: حلف الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام، وأيما حلفٍ كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدّة» وكذا رواه مسلم.

ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف، الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإنَّ في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

و أما ما ورد في الصحيحين: عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا. فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثونه به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وروى ابن جرير عن مزيدة في قوله: **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾** قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام فقال: **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾** هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام **﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾** البيعة، لا يحملنَّكم قلة محمد وكثرة المشركين، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

و روى الإمام أحمد: عن نافع قال: لما خلعَ الناسُ يزيد بن معاوية، جمعَ ابنُ عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الغادر يُنصَبُ له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان، وإنَّ من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعنَّ أحد منكم يداً، ولا يسرفنَّ أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صَيلم[1] بيني وبينه». المرفوع منه في الصحيحين.

و قوله: **﴿إنَّ الله يعلم ما تفعلون﴾** تهديدٌ ووعيدٌ لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

٩٢- وقوله: **﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾** قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزَلَتْ شيئاً نقضتْه بعد انبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثلٌ لمن نقضَ عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

و قوله: **﴿أنكاثاً﴾** يحتمل أن يكون اسم مصدر **﴿نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾** أي: أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: **﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾** أي: خديعة ومكراً **﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾** أي: تحلِفُونَ للناس إذا كانوا أكثر منكم، ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

و قد قدمنا ـ ولله الحمد ـ في سورة الأنفال: قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارُّون لا يشعرون، فقال له

---

(١) الصيلم: القطيعة المنكرة، والداهية (نهاية).

عمرو بن عَبَسة: الله أكبر يا معاوية، وفاءً لا غدراً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم أجل، فلا يَحلنَّ عقدةً حتى ينقضي أمدها» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش.

قال ابن عباس ﴿أن تكونَ أُمَّةٌ هيَ أربَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه.

و قوله: ﴿إنَّما يبْلُوكم اللهُ بهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن جرير: أي: بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿و ليُبيِّننَّ لكمْ يومَ القِيامةِ ما كُنتمْ فيهِ تَخْتلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

٩٣- يقول الله تعالى: ﴿و لوْ شاءَ اللهُ لجعلكمْ﴾ أيها الناس أمة واحدة، كقوله تعالى: ﴿و لَوْ شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَن في الأرضِ كلُّهمْ جميعاً﴾ أي: لوفَّق بينكم، ولما جعل اختلافاً، ولا تباغض ولا شحناء ﴿وَ لوْ شاءَ ربُّكَ لجعَلَ الناسَ أمَّةً واحدةً ولا يزالُونَ مُخْتلِفينَ إلاَّ مَن رحمَ ربُّكَ ولذلكَ خلقَهمْ﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿ولكِن يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدِي مَن يشاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها، على الفتيل والنقير والقطمير.

٩٤- ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان ﴿دخَلاً﴾ أي: خديعةً ومكراً، لئلا تزل قدمٌ بعد ثبوتها، مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده، ثم غدر به، لم يبق له وثق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَ تَذُوقو السُّوءَ بِما صَدَدتُمْ عَن سبِيلِ ربِّكُمْ وَ لكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿وَ لاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها، لكان ما عند الله هو خير له؛ أي: جزاء الله وثوابه، خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إن كُنتمْ تَعْلمونَ﴾.

٩٦- ﴿ما عندكمْ ينفَدُ﴾ أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر متناه ﴿و ما عِندَ اللهِ باقٍ﴾ ثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع، ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿و لَنَجْزِينَّ الذينَ صَبرُوا أجْرَهمْ بأحْسنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قَسَم من الرب تعالى مؤكدٌ باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

٩٧- هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذَكرٍ أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمنٌ بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة: تشتمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسَّروها: بالرزق الحلال الطيب، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها: بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها.

و الصحيح: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أفلحَ مَنْ أسلمَ، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه» ورواه مسلم.

و روى الإمام: أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يظلِم المؤمن من حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» انفرد بإخراجه مسلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

٩٨- هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن: أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير، وغيره من الأئمة، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

و المعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لئلا يُلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحُكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية، ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي، والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقديمها على التلاوة، والله أعلم.

٩٩- وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وَهُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوا في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى، وقال آخرون: معناه أنه شرَكهم في الأموال والأولاد.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

١٠١ - يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين، وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها، قالوا لرسول الله ﷺ: **﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾** أي: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقال مجاهد **﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾** أي: رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو كقوله تعالى: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾** الآية.

١٠٢ - قال تعالى مجيباً لهم: **﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾** أي: جبريل **﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾** أي: بالصدق والعدل **﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فيصدقوا بما أنزل أولا وثانياً، وتخبت له قلوبهم **﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾** أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين، الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾

١٠٣ - يقول تعالى مخبراً عن المشركين، ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت، أن محمداً إنما يُعلِّمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشرٌ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى رداً عليهم في افترائهم ذلك **﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾** أي: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يُتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

و قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له: جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾** وكذا قال عبد الله بن كثير. وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش.

و قال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي! وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة. وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين: رجلٌ كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة قبحه الله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٤ - يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له

قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

١٠٥ - ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿الذينَ لا يُؤمنونَ بآيات الله﴾ من الكفرة والملحدين، المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد.

و لهذا لما سأل هِرَقْل ملك الروم أباسفيان عن تلك المسائل، التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾

١٠٦ - ١٠٨ - أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشَرَحَ صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الرِّدة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم.

١٠٩ - ﴿لا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب، أن من هذه صفته ﴿أنهمْ في الآخرةِ هُم الخاسِرونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

و أما قوله: ﴿إلاَّ مَنْ أُكرِهَ وقلبُهُ مُطْمئنٌ بالإيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً، لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

و قد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك.

و روى ابن جرير: عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد». ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه: أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيفَ تَجِدُ قلبَكَ؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إنْ عَادُوا فعُدْ» وفي ذلك أنزل الله: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطمئنٌ

بالإيمان﴾ .

و لهذا اتفق العلماء : على أن المكره على الكفر ، يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته ، ويجوز له أن يأبى ، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى أنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم ، وهويقول : أحدٌ أحدٌ . ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، رَضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله؟ فيقول : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً ، وهو ثابت على ذلك .

و روى الإمام أحمد : عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عباس ، فقال : لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال : «لا تُعذِّبوا بعذاب الله» وكنتُ قاتلهم بقول رسول الله ﷺ : «مَنْ بدَّل دينهُ فاقتُلوه» فبلغ ذلك علياً فقال : ويح أم ابن عباس . رواه البخاري .

و روى الإمام أحمد أيضاً : عن أبي بردة قال : قدم على أبي موسى معاذُ بن جَبل باليمن ، فإذا رجل عنده ، قال : ما هذا؟ قال : رجلٌ كان يهودياً فأسلم ، ثم تهود ، ونحن نريده على الإسلام منذ ـ قال : أحسبه ـ شهرين ، فقال : والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه ، فضربت عنقه ، فقال : قضى الله ورسوله : «أن من رجع عن دينه فاقتلوه» أو قال : «من بدَّل دينه فاقتلوه» . وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر .

و الأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ، ولو أفضى إلى قتله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾

١١٠ ـ هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر تعالى أنه **﴿مِن بَعدِهَا﴾** أي : تلك الفعلة ، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم ، رحيم بهم يوم معادهم .

١١١ ـ **﴿يومَ تأتي كلُّ نفسٍ تُجادِلُ﴾** أي : تحاج **﴿عَن نَفْسِهَا﴾** ليس أحد يحاج عنها ، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة **﴿وَتُوفَّى كُلُّ نفسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾** أي : من خير وشر **﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** أي : لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزاد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيراً .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) ﴾

١١٢ ، ١١٣ ـ هذا مثلٌ أُريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يُتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى : **﴿و قالُوا إن نَّتَّبِعِ الهُدَى معكَ نُتخطَّفْ مِن أرضِنا أولمْ نُمكِّن لهمْ حرَماً آمناً يُجْبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ رِزْقاً مِن لدُنَّا﴾** وهكذا قال هنا : **﴿يأتِيها رِزْقُها رَغداً﴾** أي : هنيئاً

سهلاً ﴿مِن كُلِّ مكانٍ فَكَفَرتْ بأنعُم اللهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ألمْ ترَ إلَى الذينَ بدلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وأحلُّوا قومَهمْ دارَ البوارِ* جهنَّمَ يَصلَوْنَهَا وبئسَ القَرارِ﴾ ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فأذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع، بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسف، فأصابتهم سنةٌ أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز: وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

و قوله: ﴿وَ الخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً، من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل مالهم في دمار وسفال، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ، الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتنَّ به عليهم، في قوله: ﴿لقَدْ مَنَّ اللهُ علَى المُؤمنِينَ إذ بعثَ فيهمْ رسولاً مِن أنفُسهِمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الألبابِ* الذينَ آمنُوا قدْ أنزَلَ اللهُ إليكمْ ذِكْراً رسُولاً﴾ الآية، وقوله: ﴿كمَا أرْسلْنا فيكُمْ رسولاً منْكمْ يَتْلُو عليكمْ آياتِنا ويُزكّيكمْ ويُعلِّمُكُم الكِتابَ والحِكْمةَ ـ إلى قوله ـ ولا تكْفُرونِ﴾.

و كما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدَّل اللهُ المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم.

و هذا الذي قلناه: من أن هذا المثل ضُرِب لأهل مكة، قاله العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾

١١٤- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

١١٥- ثم ذكر تعالى ما حرَّمه عليهم، مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهلَّ لغير الله به، أي: ذُبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَن اضطُرَّ﴾ إليه أي: احتاج من غير بغي ولا عدوان، فإن الله غفور رحيم. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة، بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد.

١١٦- ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حلَّلوا وحرموا بمجرد ما وصفوه، و اصطلحوا عليه من الأسماء، بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم، ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿و لاَ تَقُولُوا لِما تَصِفُ ألسِنتُكُم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لِتفتَرُوا علَى اللهِ الكَذِبَ﴾.

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة، ليس له فيها مستند شرعي، أوْ حلَّل شيئاً مما حرَّم الله، أو حر شيئاً مما أباح

الله، بمجرد رأيه وتشهيه، و«ما» في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصورية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الذينَ يفترُونَ علَى اللهِ الكذِب لا يُفْلِحونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة.

١١٧- أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمتِّعُهمْ قليلاً ثمَّ نضطرُّهمْ إلى عذابٍ غليظٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الذينَ يفترُونَ علَى اللهِ الكذِب لا يُفْلِحونَ* متاعٌ في الدُّنيا ثمَّ إلينا مرجعُهمْ ثمَّ نُذيقُهمُ العذابَ الشَّديدَ بما كانُوا يَكفُرونَ﴾.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾

١١٨- لما ذكر تعالى أنه حرَّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وإنما أرخص فيه عند الضرورة ـ وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر، ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرَّمه على اليهود في شريعتهم، قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج، فقال: ﴿وعلى الذينَ هادُوا حرَّمنا ما قصَصْنا عليكَ من قبلُ﴾ أي: في سورة الأنعام، في قوله: ﴿وعلَى الذينَ هادُوا حرَّمْنا كلَّ ذي ظُفُرٍ ومِن البَقَرِ والغَنَم حرَّمْنا عليهِمْ شحُومهمَا إلاَّ ما حمَلتْ ظُهُورُهما ـ إلى قوله ـ لصَادِقُونَ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وما ظَلَمْناهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم ﴿ولكِن كانُوا أنفُسهمْ يظلِمونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فبظُلمٍ مِن الذينَ هادُوا حرَّمْنَا علَيهِمْ طيِّباتٍ أُحِلَّتْ لهُمْ وبصَدِّهمْ عَن سبيلِ اللهِ كثِيراً﴾.

١١٩- ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين، أن من تاب منهم إليه، تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إنَّ ربَّك للذينَ عمِلُوا السوءَ بجهالةٍ﴾ قال بعض السلف: كلُّ من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تابُوا مِن بعدِ ذلكَ وأصلَحُوا﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إنَّ ربَّكَ مِن بعدِها﴾ أي: تلك الفعلة والزلة ﴿لَغفُورٌ رحِيمٌ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

١٢٠- يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قانتاً للهِ حنيفاً﴾ فأما «الأمة» فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿ولمْ يكُ من المُشْركينَ﴾. روى سفيان الثوري: عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة مُعلِّم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم.

عن فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إنَّ معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي:

غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أمةً﴾ فقال: تدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة: الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ. وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود، أخرجه ابن جرير، وقال مجاهد: ﴿أمة﴾ أي: أمة وحده، والقانت: المطيع، وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم ﴿أمة﴾ أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار، وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله.

١٢١- وقوله: ﴿شاكِراً لأنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿و إبراهِيمَ الذِي وَفَّى﴾ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به، وقوله: ﴿اجْتَباه﴾ أي: اختاره واصطفاه، كقوله: ﴿و لَقَدْ آتَينا إبراهيمَ رُشْدَه مِن قبلُ وكُنّا بِهِ عالِمينَ﴾. ثم قال: ﴿وهَداهُ إلى صِراطٍ مُستقِيم﴾ وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، على شرع مرضى.

١٢٢- وقوله: ﴿و آتيْناهُ في الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا، من جميع ما يحتاج المؤمن إليه، في إكمال حياته الطيبة ﴿و إنَّهُ في الآخرةِ لَمن الصالِحينَ﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿و آتيْناهُ في الدُّنيا حسنةً﴾ أي: لسان صدق.

١٢٣- وقوله: ﴿ثُمَّ أوحيْنا إليكَ أن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾ أي: ومن كماله وعظمته، وصحة توحيده وطريقه، أنَّا أوحينا إليك، يا خاتم الرسل، وسيد الأنبياء ﴿أن اتَّبِعْ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً وَ ما كانَ مِن المُشْركينَ﴾، كقوله في الأنعام ﴿قُلْ إنَّني هداني ربِّي إلَى صِراطٍ مُسْتقيمٍ * ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ من المُشْركينَ﴾.

ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾

١٢٤- لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة، يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه، وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت، لأنه اليوم الذي لم يَخلق فيه الربُّ شيئاً من المخلوقات، الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، و وصَّاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمدﷺ إذا بعثه، وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّما جُعِلَ السَّبتُ على الذينَ اختلفُوا فيهِ﴾ قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى بن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رُفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فَرَض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق» رواه مسلم.

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾

١٢٥ – يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ: أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: هو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر، والوقائع بالناس، ذَكِّرْهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية. فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون، في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الآية، أي: قد علِمَ الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده، وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على مَن ضلَّ منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم، إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾

١٢٦ – يأمر تعالى بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق، كما روى عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾: إنْ أخذَ منكُمْ رجلٌ شيئاً، فخذُوا مثله. وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا، لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق: عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية، إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثِّل به.

و روى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه : عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أُحد قُتل من الأنصار ستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين ، لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تُعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : أن رسول الله ﷺ أمَّنَ الأسود والأبيض ، إلا فلاناً وفلاناً ـ ناساً سماهمْ ـ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿و إنْ عاقبْتُمْ فعاقبُوا بمِثْلِ ما عُقِبْتُم بهِ﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول الله ﷺ : «نصبرُ ولا نُعاقب» .

و هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل ، والندب إلى الفضل ، كما في قوله : ﴿و جزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ ، ثم قال : ﴿فمَنْ عفَا وأصْلحَ فأجْرُهُ علَى اللهِ﴾ الآية . وقال : ﴿و الجُروح قِصَاص﴾ ثم قال : ﴿فَمَن تَصَدَّقَ به فَهُوَ كفَّارةٌ لَّهُ﴾ وقال في هذه : ﴿وَإنْ عَاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ ، ثم قال : ﴿و لئن صبرْتم لهوَ خيرٌ للصابرينَ﴾ .

١٢٧ – وقوله تعالى : ﴿و اصْبِرْ وَ ماصَبْرُكَ إلاَّ باللهِ﴾ تأكيدٌ للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوله ؛ ثم قال تعالى : ﴿و لاَ تَحْزَنْ عليهِمْ﴾ أي : على مَنْ خالفَكَ ، فإنَّ الله قدَّر ذلك ﴿و لاَ تكُ في ضَيقٍ﴾ أي : غم ﴿مما يَمْكُرونَ﴾ أي : مما يجهَدون أنفُسهمْ في عداوتِكَ ، وإيصال الشر إليك ، فإنَّ الله كافيكَ ، وناصرك ومؤيدك ومظهرك ، ومظفرك بهم .

١٢٨ – وقوله : ﴿إنَّ اللهَ معَ الذينَ اتَّقَو والذينَ هُم مُّحْسِنونَ﴾ أي : معهم بتأييده ونصره ومعونته ، وهديه وسعيه ، وهذه معية خاصة ، كقوله : ﴿إذْ يُوحِي ربُّكَ إلَى الملائكةِ أنِّي معكمْ فثبِّتُوا الذينَ آمنُوا﴾ ، وقوله لموسى وهارون ﴿لا تَخافَا إنَّنِي معَكُما أسْمعُ وأرَى﴾ وقول النبي ﷺ للصدِّيق وهما في الغار : «لا تحزن إنَّ الله معنا» .

و أما المعية العامة : فبالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى : ﴿و هُوَ معكمْ أينما كُنتمْ واللهُ بما تَعْملونَ بصيرٌ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ألمْ ترَ أنَّ الله يعْلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرض ما يَكونُ مِن نجْوَى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابِعُهمْ ولا خَمْسةٍ إلاَّ هُوَ سادِسُهمْ ولا أدْنَى مِن ذلكَ إلاَّ هُو معهمْ أينمَا كانُوا﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ومَا تكونُ في شأنٍ وما تتْلُو منهُ مِن قُرآنٍ ولا تعْمَلونَ مِنْ عملٍ إلاَّ كنَّا عليكُمْ شُهوداً﴾ الآية .

و معنى ﴿الذينَ اتَّقَوْا﴾ أي : تركوا المحرمات ﴿و الذينَ هُمْ مُحْسِنونَ﴾ أي : فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم ، وينصرهم ويؤيدهم ، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم .

و روى ابن أبي حاتم : عن محمد بن حاطب قال : كان عثمان رضي الله عنه من الذين آمنوا ، والذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

بعون الله تعالى تم طبع الجزء الثاني من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير
و يليه الجزء الثالث إن شاء الله
و أوله تفسير سورة الإسراء
و الحمد لله أولاً و آخراً

****

المقدمة ٥
تفسير سورة المائدة ٧
صيغة كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران ٧
الإجماع على قتل المشرك إن لم يكن له أمان
ولو لجأ إلى البيت الحرام أو بيت المقدس ١٠
المذاهب في حكم ما أمسكه كلب الصيد ١٢
الكلام على النطيحة ١٥
الكلام على ما قُتل على النصب و الاستقسام بالأزلام .. ١٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ... ١٧
الأمر بقتل الكلاب ١٩
ذكر الآثار فيما أمسك كلب الصيد ٢٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿و طَعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حلٌّ لكمْ﴾ ٢٢
تفسير آية الوضوء و التيمم ٢٥
ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين و أنه لابد منه ... ٣٠
أركان الوضوء ٣٢
وجوب العدل حتى مع الأعداء ٣٤
قصة قابيل و هابيل ٤٤
تحريم قتل النفس ٤٧
حد السارق ٥٣
وجوب الرجوع إلى كتاب الله عند الاختلاف ٥٥
وجوب القصاص ٥٨
ذم من لم يحكم بما أنزل الله و درجاتهم ٦١
الحث على المسابقة إلى الخيرات ٦٢
حرمة اتخاذ اليهود و النصارى أولياء ٦٥
صفات المؤمنين ٦٦
صفات المنافقين ٦٨
تقوى الله سبب لتوسعة الرزق ٧١
عصمة الله تعالى لرسوله ﷺ من الناس ٧٣
الحث على التوبة و الاستغفار ٨٦
حكم كفارة اليمين ٨٢
تحريم الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام ٨٣
ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر ٨٤
تحريم قتل الصيد في الحرم ٨٦
ذكر أقوال السلف في هذا المقام ٨٩
إباحة صيد البحر و تحريم صيد البر للمحرم ٩٠
النهي عن كثرة السؤال لغير سبب ٩٣
الإشهاد على الوصية ٩٧
تفويض العلم إلى الله عز وجل ٩٩
تذكير الله نبيه عيسى عليه السلام بنعمة نزول المائدة عليه ... ١٠٠
ذكر أخبار عن السلف في نزول المائدة ١٠٢
تبرؤ عيسى عليه السلام ممن اتخذه إلهاً ١٠٣
ما أعده الله للصادقين ١٠٥
تفسير سورة الأنعام ١٠٦
عناد المشركين و توعد الله لهم ١٠٧
اقتراحهم نزول الملائكة مع النبي ﷺ ١٠٨
أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ١١٠
الحث على العمل للآخرة ١١٧
لا يعلم الغيب إلا الله ١٢٠
بيان أن لكل آدمي حفظة من الملائكة ١٢١
الأمر بإقامة الصلاة ١٢٦
النفخ في الصور ١٢٦
تبرؤ إبراهيم عليه السلام من الشرك و أهله ١٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَ تلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ﴾ ... ١٣١
الأنبياء من ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام ١٣١
المحافظة على الصلوات من صفات المؤمنين ١٣٤
الاهتداء بالنجوم ١٣٧
الأمر بالتمسك بالقرآن و العمل به ١٤٢
إباحة الأكل مما ذكر اسم الله عليه ١٤٧

النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ١٤٧
ارتياح الصدر و انشراحه للإسلام دليل على الهداية ... ١٥٢
دار السلام لأهل الإسلام ١٥٣
الله غني عن العالمين ١٥٦
الأمر بإيتاء الزكاة و النهي عن الإسراف ١٦٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ١٦٦
مضاعفة الحسنات ١٧٤
الأمر بالإخلاص لله ١٧٦
تفسير سورة الأعراف ١٧٩
فلاح من ثقل ميزانه و خسران من خف ميزانه ١٨٠
أمر الملائكة بالسجود لآدم ١٨١
طرد إبليس من الجنة ١٨٢
توعد إبليس لآدمعليه السلام ١٨٣
وسوسة إبليس لآدمعليه السلام ١٨٤
تحذير بني آدم من كيد الشيطان ١٨٦
الأمر بالتزين بأحسن الثياب للصلاة ١٨٩
تحريم الفواحش الظاهرة ١٩٠
ما أعده الله للمتقين ١٩٤
قصة أصحاب الأعراف ١٩٥
الأمر بالدعاء و التضرع إلى الله ١٩٩
الأمر بتقوى الله ٢٠٠
مثل المؤمن و الكافر ٢٠٠
دعاء نوحعليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده و تكذيبهم له وإغراقهم ٢٠١
قصة عاد قوم هودعليه السلام ٢٠٢
قصة ثمود قوم صالحعليه السلام ٢٠٥
قصة قوم لوطعليه السلام ٢٠٨
قصة قوم شعيبعليه السلام ٢٠٩
قصة موسىعليه السلام مع فرعون ٢١٤
صفات المتقين ٢٢٨
رسالة النبي محمد ﷺ عمت جميع الناس ٢٣٠
قصة أصحاب السبت ٢٣٢
أخذ العهد على ذرية آدم بالتوحيد ٢٣٦
قصة بلعم بن باعوراء ٢٣٨
صفات المنافقين ٢٤٠
الدعاء بأسماء الله ٢٤١
الحث على النظر في ملكوت السموات و الأرض ٢٤٣
علم الساعة عند الله وحده ٢٤٣
لا يعلم الغيب إلا الله ٢٤٥
الحث على الأمر بالمعروف و الإعراض عن الجاهلين .. ٢٤٩
الأمر بالإنصات عند تلاوة القرآن ٢٥٢
الأمر بذكر الله و التضرع إليه في السر ٢٥٣
تفسير سورة الأنفال ٢٥٥
صفات المؤمنين ٢٥٧
النهي عن التولي يوم الزحف ٢٦٥
الأمر بطاعة الله و طاعة الرسول ٢٦٨
الله يقبل التوبة حتى من الكافر و يغفر له
ما مضى من ذنوبه ٢٧٧
أمر المؤمنين بالثبات و بذكر الله عند قتال الكفار ٢٨٤
تبرؤ إبليس من الكفار يوم بدر حين رأى الملائكة ... ٢٨٥
تعذيب الكفار عند الاحتضار ٢٨٧
المعاصي سبب لزوال النعم ٢٨٧
شر الدواب عند الله الكفار ٢٨٨
الأمر بإعداد القوة لمحاربة الكفار ٢٨٩
تأليف قلوب المؤمنين ٢٩٠
حث المؤمنين على قتال الكفار ٢٩١
إباحة الغنائم لرسول الله و للمجاهدين ٢٩٢
المهاجرون و الأنصار بعضهم أولياء بعض ٢٩٧
ما أعده الله للمهاجرين و الأنصار ٢٩٧

تفسير سورة التوبة ٢٩٨
الأمر بقتال المشركين في جميع السنة عدا الأشهر الحرم ٣٠٠
محبة الله للمتقين ٣٠٢
شهادة الله عز وجل لمن يعمر المساجد بالإيمان ... ٣٠٥
ما أعده الله للمهاجرين و الممجاهدين في سبيله ٣٠٦
النهي عن اتخاذ الآباء و الأبناء و الإخوان و الأزواج
أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ٣٠٦
نصر الله عز وجل للمؤمنين و تعذيب الكافرين . ٣٠٧
تحريم دخول المشرك المسجد الحرام ٣٠٩
الأمر بقتال اليهود و النصارى حتى
يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٣١٠
تنزه الله عز وجل عن شرك اليهود و النصارى ... ٣١١
إتمام الله عز وجل لنور الإسلام و لو كره الكافرون ٣١٢
تفسير ما جاء في قوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله**
بالهدى و دين الحق﴾ ٣١٢
أكل الأحبار و الرهبان أموال الناس بالباطل و صدهم عن سبيل الله ٣١٣
وعيد مانع الزكاة ٣١٣
نصر الله لرسوله ﷺ ٣١٩
الحث على الجهاد في سبيل الله بالنفس و المال ٣٢٠
صفة المنافقين ٣٢٢
بيان الأصناف التي تصرف إليهم الزكاة ٣٢٦
صفات المنافقين ٣٢٩
صفات المؤمنين ٣٣٠
ما أعده الله للمؤمنين و المؤمنات ٣٣١
الأمر بجهاد الكفار و المنافقين ٣٣٢
عقوبة من نقض العهد ٣٣٤
النهي عن الصلاة على من مات من الكفار ٣٣٧
ما أعده الله للمؤمنين و المجاهدين في سبيله ٣٣٩
الأمر بإخراج زكاة الأموال و الحث على التوبة ٣٤٤
مسجد الضرار و قصته ٣٤٥
تفسير قوله تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم**
وأموالهم﴾ ٣٤٩
صفات المؤمنين ٣٤٩
الحث على الصدق ٣٥٣
الحث على التفقه في الدين ٣٥٧
تفسير قوله تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾** ٣٦١
تفسير سورة يونس ٣٦٣
الإيمان بالبعث ٣٦٤
تفسير قوله تعالى: **﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾** .. ٣٦٤
دعاء المؤمنين في الجنة ٣٦٥
تفسير قوله تعالى: **﴿و الله يدعو إلى دار السلام﴾** ٣٧٢
تفسير قوله تعالى: **﴿للذين أحسنوا الحسنى و زيادة﴾** ٣٧٣
عجز البشر عن الإتيان بسورة من القرآن ٣٧٦
المؤمن التقي ولي الله ٣٨٢
تفسير قوله تعالى: **﴿و قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾** ٣٨٨
إغراق فرعون و جنوده في البحر ٣٩٠
توبة الله عز وجل على قوم يونس ٣٩٣
تفسير سورة هود ٣٩٦
الحث على الاستغفار و التوبة ٣٩٦
تكفل الله تعالى لجميع خلقه بالرزق ٣٩٧
أمر نبي الله نوح عليه السلام لقومه بعبادة الله وحده ٤٠٤
أمره عليه السلام بصنع السفينة ٤٠٧
حمله عليه السلام فيها من كل زوجين اثنين ٤٠٧
جريها و إرساؤها باسم الله ٤٠٨
نداء نوح عليه السلام ابنه ٤٠٨
إرساء السفينة على البر ٤٠٩
نداء نوح عليه السلام ربه ٤٠٩
تفسير قوله تعالى: **﴿يا نوح اهبط بسلام﴾** الآية ..٤١٠
الأمر بالصبر و وعد المتقين بالفلاح ٤١٠
أمر هود عليه السلام قومه بعبادة الله وحده ٤١١

الحث على الاستغفار و التوبة ٤١١
أمر صالح عليه السلام لقومه بعبادة الله ، قصة الناقة ٤١٢
قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ٤١٣
مجادلة إبراهيم عليه السلام في قوم لوط ٤١٥
قصة قوم لوط عليه السلام ٤١٥
قصة مدين قوم شعيب عليه السلام ٤١٧
أحوال السعداء و الأشقياء ٤٢٢
الأمر بالاستقامة و عدم الركون إلى الظالمين ٤٢٤
الحسنات يذهبن السيئات ٤٢٥
تفسير سورة يوسف ٤٢٩
رؤيا يوسف عليه السلام ٤٣٠
تآمر إخوة يوسف على قتله ٤٣٠
مراودتهم لأبيهم على أخذه ٤٣٢
التقاط السيارة ليوسف من الجبّ ٤٣٤
قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ٤٣٥
دخول يوسف عليه السلام السجن ٤٤٠
رؤيا ملك مصر و تأويل يوسف لها ٤٤٣
تولية يوسف عليه السلام على خزائن الأرض ٤٤٥
مجيء إخوة يوسف إلى مصر للميرة ٤٤٦
أخذ يعقوب عليه السلام الميثاق على بنيه ٤٤٧
عفو يوسف عليه السلام عن إخوته ٤٥٢
اجتماع يوسف بأبويه و إخوته ٤٥٤
ثناؤه عليه السلام على ربه عز وجل ٤٥٥
وصف المشركين بالشرك مع الإيمان ٤٥٧
تنبيه المؤمنين إلى ما في قصص النبيين من المواعظ و العبر ٤٦٢
تفسير سورة الرعد ٤٦٣
دلائل قدرة الله سبحانه و تعالى ٤٦٣
صفات المؤمنين ٤٧٤
وعيد من نقض العهد و أفسد في الأرض ٤٧٥
المؤمن يطمئن قلبه لذكر الله ٤٧٦
عظمة كتاب الله تعالى ٤٧٨
صفة الجنة ٤٨٠
الكلام على المحو و الإثبات ٤٨٢
إنكار الكفار لرسالة النبي ﷺ ٤٨٤
تفسير سورة إبراهيم ٤٨٦
إرسال الرسل بلسان أقوامها ٤٨٧
تفضيل الرسول ﷺ على سائر الرسل ٤٨٨
شكر النعم يزيدها ٤٨٨
من صور عذاب الكفار ٤٩٠
مثل أعمال الكفار ٤٩٢
خطبة إبليس باتباعه في جهنم ٤٩٤
مثل الكلمة الطيبة و الخبيثة ٤٩٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾ وأحاديث فتنة القبر ٤٩٦
نعم الله لا تحصى ٥٠٠
دعاء إبراهيم عليه السلام ٥٠٠
تفسير سورة الحجر ٥٠٦
تمني الكافر الإسلام في الآخرة ٥٠٦
ما خلق الله تعالى في السماء من بروج و فائدتها . ٥٠٨
أصل خلقة الإنسان ٥١٠
قصة آدم عليه السلام مع إبليس ٥١١
جهنم لها سبعة أبواب ٥١٢
تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام بالولد ٥١٣
إهلاك قوم لوط عليه السلام ٥١٥
ما أوتيه نبينا ﷺ من القرآن خير من الدنيا و ما فيها ... ٥١٧
تفسير سورة النحل ٥٢٢
تعديد منافع الأنعام ٥٣٩
إلهام الله للنحل باتخاذ البيوت ٥٣٩

منافع العسل ٥٤٠
تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق ٥٤١
نعمة الأزواج و البنين ٥٤٢
شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة ٥٤٦
تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية . ٥٤٨
الحث على الوفاء بالعهد ٥٤٨
الحض على الصدقة ٥٥٠
سعادة المؤمن في الدنيا و الآخرة ٥٥١
الأمر بالأكل من الرزق الحلال الطيب ٥٥٥
ثناء الله على نبيه إبراهيم عليه السلام ٥٥٦
الأمر بالدعوة إلى الله بالحسنى ٥٥٨
فضيلة الصبر و الحض عليه ٥٥٩
فضيلة التقوى و الإحسان ٥٥٩
فهرست الكتاب ٥٦٠